جورج انطونيوس

يقظة العرب

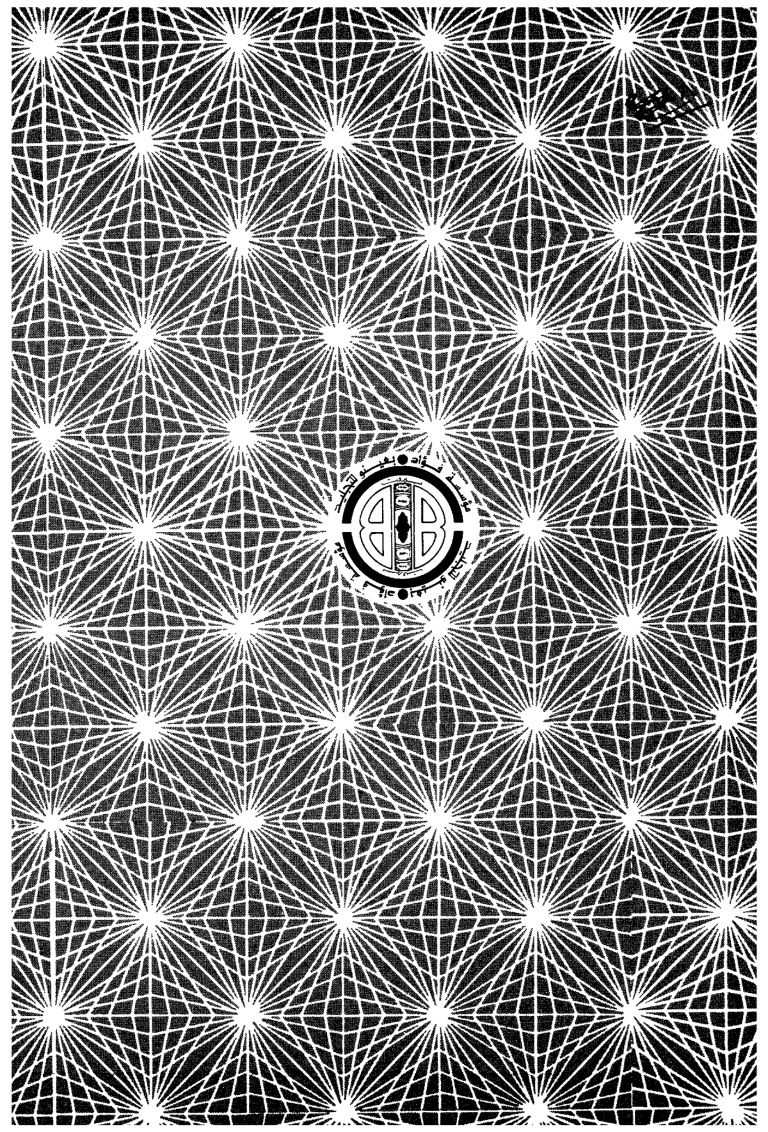
تاريخ حركة العرب القومية

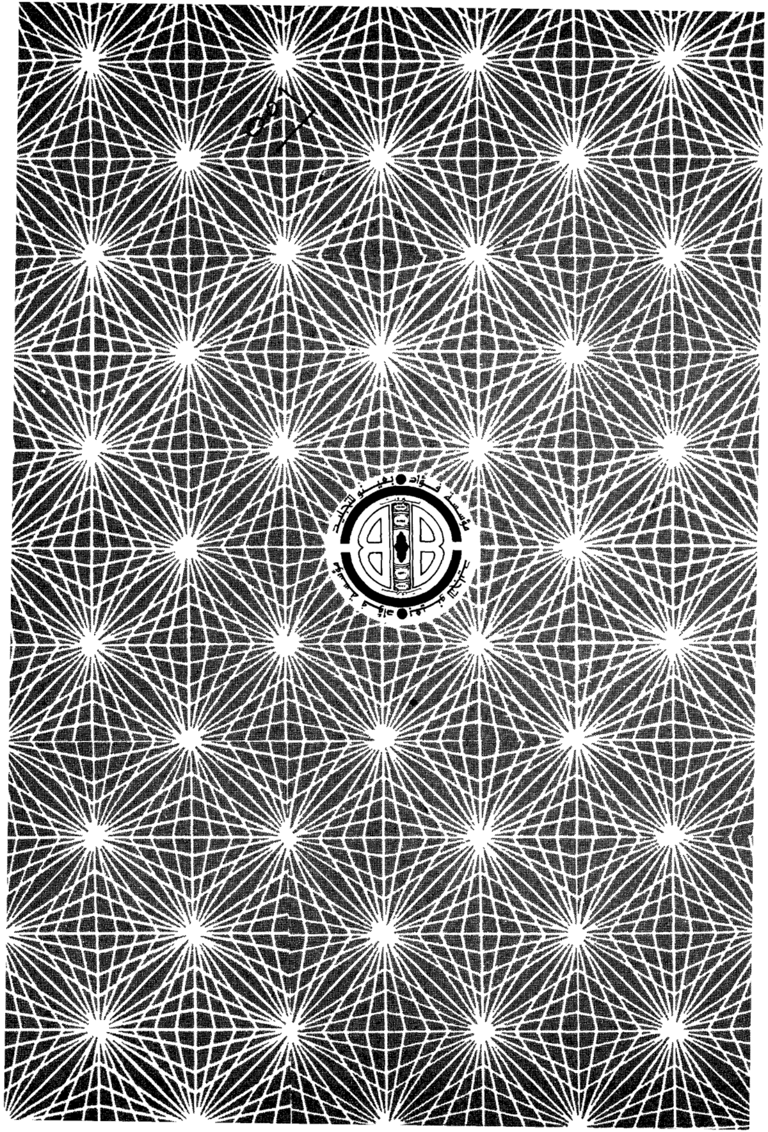
ترجمه

الدكتور ناصر الدين الأسد　　الدكتور إحسان عباس

دار العلم للملايين

بيروت


مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد





يقظة العرب

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بيروت ـ نيويورك
الطبعة الثانية ١٩٦٦ بيروت
الطبعة الثالثة ١٩٦٩ بيروت
الطبعة الرابعة ١٩٧٤ بيروت

يقظة العرب

تاريخ حركة العرب القومية

قدم له

الدكتور نبيه أمين فارس

ترجمه

الدكتور ناصر الدين الأسد   الدكتور إحسان عباس

دار العلم للملايين
بيروت

المسهمون في هذا الكتاب

المؤلف : جورج انطونيوس

ولد في بلدة دير القمر في لبنان سنة ١٨٩٢ . تخرج من جامعة كمبردج بانجلترة حيث حصل على شهادة في الهندسة اهلته للعمل في بلدية الاسكندرية ، غير انه ما لبث ان انتقل إلى فلسطين والتحق بدائرة المعارف حيث توصل قبل تركه العمل فيها إلى شغل منصب مساعـد لمديرها العام .

اسهم بعد تركه العمل الحكومي بنصيب وافر في خدمة القضايا العربية ، وفي الدفاع عن القضية الفلسطينية ، سواء عن طريق الكتابةوالتأليف أو الاشتراك في المؤتمرات والمباحثات التي كانت تعقد آنذاك . وقد عمل سكرتيراً للوفد العربي إلى مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن سنة ١٩٣٩ . ومما يذكر انه بذل جهداً كبيراً في جمع مواد هذا الكتاب من مصادرها الرئيسية مما دعاه الى التنقل كثيراً ، ومقابلة عدد كبير من الشخصيات التي شاركت في صنع بعض

أحداث المرحلة التاريخية التي كتب عنها . وقد توفي في القدس سنة ١٩٤٢ .

المقدم : الدكتور نبيه امين فارس

ولد في مدينة الناصرة في فلسطين سنة ١٩٠٦ . تلقى دراسته الثانوية في مدرسة المطران جوبات بالقدس ، ثم التحق بالجامعة الامريكية في بيروت حيث حصل على البكالوريوس سنة ١٩٢٨ ، وتابع دراسته في جامعة برنستون فحصل على الدكتوراه في اللغات الشرقية وتاريخها سنة ١٩٣٥ . بعد تخرجه درّس في جامعة برنستون حتى سنة ١٩٤٢ وانتقل بعدها إلى نيويورك فشغل منصب رئيس مكتب المعلومات الحربية فيها ، واستمر في ادارة هذا المكتب إلى سنة ١٩٤٥ . وفي السنة نفسها جاء إلى بيروت استاذاً زائراً في الجامعة الامريكية ، ثم تولى رئاسة دائرة التاريخ في الجامعة المذكورة من عام ١٩٤٧ حتى وفاته في شباط (فبراير) عام ١٩٦٨ .

من مؤلفاته :

« العرب الاحياء » ، « غيوم عربية » ، « من الزاوية العربية » ، « دراسات عربية » ، و « التراث العربي » بالانجليزية . وله أيضاً بضعة مؤلفات بالانجليزية إلى جانب عدد كبير من المقالات العلمية .

المترجمــان :

الدكتور ناصر الدين الاسد

اردني الأصل ، تخرج في الكلية العربية بالقدس سنة ١٩٤٣ ثم أكمل دراسته في جامعة القاهرة فنال منها شهادتي الليسانس والماجستير في الآداب ثم حصل عــلى شهادة الدكتوراه من الجامعة نفسها عام ١٩٥٤ .

قام بدراسات متعددة منها : « القيان والغناء في العصر الجاهلي » و« مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » .

يعمل في الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية وكيلاً لها وقد انتدب لمدة سنتين (١٩٥٨ – ١٩٦٠) ليكون عميداً لكلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية . وهو الآن رئيس للجامعة الأردنية .

الدكتور احسان عباس

من مواليد فلسطين . تخرج في الكلية العربية بالقدس. حصل على الليسانس والماجستير ، وعلى الدكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ . درّس في جامعة الخرطوم عدة سنوات ، وهو الآن استاذ مشارك للادب العربي في الجامعة الامريكية في بيروت ، وله مؤلفات عديدة .



مقدمة

من الكتب التاريخية ما يصبح بين ليلة وضحاها المرجع الفصل في الموضوع فيحتل مكانة فريدة بين الكتب ويرجع اليه الباحثون ويستعين به المؤلفون وينقل عنه الكتّاب حتى اولئك الذين سبق لهم وحاولوا ان يطمسوا فضله ويجرحوا قيمته . ومن هذه الكتب « يقظة العرب » [١] للطيب الذكر جورج انطونيوس . إذ ما ان ظهر حتى جرى اسمه على ألسنة الناس وأصبح شعاراً للحركة القومية الحديثة من الخليج العربي شرقاً حتى المحيط الاطلسي في الغرب .

وقد اختار المؤلف هذا الاسم لكتابه الفريد متأثراً بمطلع بائية المغفور له الشيخ ابراهيم اليازجي التي ألقاها في اجتماع سري لنفر من اعضاء الجمعية السورية العلمية في سنة ١٨٦٨ . أما مطلع القصيدة فهو :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب [٢]

---

١ – صدر هذا الكتاب لاول مرة في اللغة الانجليزية سنة ١٩٣٩ تحت عنوان The Arab Awakening عن دار Lippincott للنشر في فيلادلفيا في الولايات المتحدة الامريكية .

٢ – لا يوجد نص كامل لمتن هذه القصيدة لانها لم تدون بل تناقلها الناس على صفحات القلوب خوفا من بطش الاتراك . ولم ار منها سوى واحد واربعين بيتا في كتاب احمد عزت الاعظمي « القضية العربية » (بغداد ١٩٣١) ، ص ٤٣ – ٤٨ .

« وهي اول قصيدة ثورية ، انطبعت على صفحات الارواح والواح النفوس ، فأثارت الهمم من مكمنها واخذت الناشئة العربية تترنم بأبياتها الحماسية »[١] .

جاء انطونيوس في كتابه هذا على ذكر مختصر للبيئة العربية في اطارها التاريخي والجغرافي وتتبع مجرى تعريبها واسلامها وحـدد رقعتها الحالية وعرّف مدلول كلمة « عرب » في وقتنا هذا وانتهى في الفصل الاول الى الفتح العثماني في القرن السادس عشر والى الادارة العثمانية في البلدان العربية المحتلة حتى مطلع القرن التاسع عشر .

وعالج المؤلف في الفصل الثاني قيام محمد علي باشا ، مؤسس الاسرة العلوية في مصر ، ومحاولته تأسيس امبراطورية « عربية » مستقلة عن الخليفة السلطان العثماني ، او قل فصل الاقطار العربية في الهلال الخصيب والجزيرة العربية عن الدولة العثمانية وضمها الى مصر ، مركز ملكـه وسلطانه . كانت هذه المحاولة ، في رأي المؤلف ، بداية متعثرة غير سليمة لليقظة العربية ، ومصيرها لا محالة الاخفاق حتى لو نجح محمد علي في تثبيت ملكه في سورية والجزيرة العربية . ثم اتى على اسباب اخفاق هذه المحاولة الجريئة وتتلخص في سببين رئيسين : أولهما مقاومة الانجليز للمشروع خوفاً من سقوط الدولة العثمانية ووقوع طريق الهند تحت سيطرة دولة فتية قوية ، وثانيهما فقدان الوعي القومي لدى العرب فقداناً يكاد يكون كاملاً . ولنا ان نلاحظ ان هذه الاسباب ، على الاجمال ، هي التي حالت دون نجاح المحاولة العربية المماثلة بعد نحو قرن من السنين عندما حاول الحسين بن علي ان يقيم ملكاً عربيـاً في الجزيرة العربية والهلال الخصيب . ونتج مـن اخفاق المحاولة الاولى ان اتخـذت مصر اتجاهـاً منفرداً لم يلتق بالاتجاه العربي الا في منتصف هذا القرن .

١ ـ المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وفي الفصل الثالث يتناول المؤلف بداية اليقظة العربية الصحيحة التي جاءت إلى حد بعيد نتيجة للحركة الفكرية التي عقبت اعمال الارساليات التبشيرية في التربية والتعليم ولا سيما الارساليات الانجيليـة الامريكية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . ويؤكد المؤلف على نقطة طالمـا يغفل عنها الكتّاب وهي ان اسس اليقظة العربية أدبية وثقافية وهي مرتبطة بهذه الاسس ارتباطاً وثيقاً يعزز وحدة العرب الروحية ويقيها من التفتت والانهيار . فلم يكن من قبيل المصادفة ان يعمل رائـدا النهضة العربية الفكرية ناصيف اليازجي وبطرس البستاني مع زملائها الامريكيين (سنة ١٨٤٧) على تأسيس اول جمعية في العالم العربي الحديث هي جمعية الآداب والعلوم[١] وان يعاودوا الكرة (في سنة ١٨٥٧) بعد ان توقفت هذه الجمعية عن العمل على تأسيس جمعية ثانية اكبر عـدداً وأوسع نشاطاً هي الجمعية العلمية السورية [٢] . وقد وقف اليازجي الكبير [٣] حياته على احياء العربية والتنقيب عن كنوزها الادبية الدفينة الغنية . وعمل جاهداً ، وبنجاح ، على تنقية اللغة ممـا كان قد شابها من عجمة وركاكة ، فأقام بذلك الاساس لمن تبعه من العلماء وأعانهم على الأخذ بأداة الفكر هذه وجعلها لغة طيعة لاستيعاب الآراء الحديثة والتعبير عنها بدقة وجمال. وانصرف البستاني [٤] الى التأليف ، فوهب اليقظة العربية ، دون مساعدة تقريباً، اول معجم حديث وأول موسوعة عربية حديثة، وأول مجلة حديثة هي مجلة الجنان ، نصف الشهرية ، وجعل شعارها « حب الوطن من الايمان »[٥] . وقد عمل هذان الرائدان وتلامذتهما في الجمعية السوريـة العلمية وخارجها على لأم الجراح التي حلت بالبلاد بسبب من حوادث

١ – راجع ZDMG ، المجلد الثاني (١٨٤٨) ، ص ٣٧٨–٣٨٨ .

٢ – قابل لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، جزء ١ (بيروت ١٩٠٨) ص ٧١ .

٣ – جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، طبعة ٣ (القاهرة ١٩٢٢) جزء ٢ ص ١٣–٢١ .

٤ – المرجع نفسه ، ص ٢٧–٣٣ .

٥ – فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، جزء ٢ (بيروت ١٩١٣) ، ص ٤٥–٤٧ .

الستين . ودعا البستاني في جريدته « نفير سورية » التي اسسها بعد تلك الحوادث المؤلمة الى الالفة بين السكان على اختلاف مذاهبهم [١] . وفي الجمعية السورية نفسها أنشد الشيخ ابراهيم اليازجي [٢] قصيدته الميمية المشهورة ومطلعها :

سلام ايها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام

ومنها :

وما العرب الكرام سوى نصال لها في اجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الانام
ونحن اولو المآثر من قديم وان جحدت مآثرنا اللئام

وفي اجتماع سري لنفر من اعضاء الجمعية نفسها أنشد قصيدته البائية التي سبق ذكرها وحثّ العرب على النهوض وهاجم الاتراك :

الله اكبر ، ما هذا المنام فقد شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

ومنها :

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين ايدي الترك مغتصب
فيالقومي وما قومي سوى عرب ولن يضيّع فيهم ذلك النسب

إلى أن يقول :

سنطلبنّ بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه الأرب
ونتركنّ علوج الترك تندب ما قد قدمته أياديها وتنتحب
ومن يعش ير والايام مقبلة يلوح للمرء في احداثها العجب

وللشيخ ابراهيم ايضاً سينية حمل بها على الاتراك ورجال الدين ، سبب التعصب والتنافر بين ابناء البلد الواحد فيقول :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس

---

١ ـ المرجع السابق ، جزء ١ (بيروت ١٩١٣) ص ٦٤ .
٢ ـ شيخو ، آداب ، جزء ٢ (بيروت ١٩١٠) ص ٣٧ .

واسل الكؤوس يديرها رشأ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطاعم والمشارب والملابس
أين التنعم لمن يبيت على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً ابداً لذيل الترك بائس

ومنها :

ما هم رجال الله فيكم بل هم القوم الابالس
يمشون بين ظهوركم تحت الطيالس والاطالس
في كل يوم بينكم يلقي التعصب حرب داحس
ياتون بينكم التباغض والعداوة والوساوس[١]

« وكان لانتشار هذه القصيدة رنة في البلاد ، وتلتها قصائد اخرى تدعو علانية الى الاصلاح او الثورة ، منها قصيدة مطلعها :

يا دولة الترك اتركي عنك العناد وباشري الاصلاحا
او لا فدونك ثورة تفني الجسوم وتخطف الارواحا[٢]

هذا القليل يزكي موقف المؤلف ان في استطاعة المؤرخ ان يحدد بداية اليقظة العربية الحديثة في هذه الفترة ـ فترة الجمعيات الادبية والعلمية من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٦٨ ـ ويضعف موقف الكتّاب الذين انتقدوه زاعمين انه بالغ في خطورة هذه الفترة وفي أثرها في تطور الفكرة القومية العربية .

ويقول هؤلاء ان العرب لم ينسوا يوماً انهم عرب ولم «يناموا» البتة حتى يستيقظوا فيقال اليقظة العربية[٣] . ويضيف هؤلاء الى هذا قولهم ان هذه الجمعيات الادبية والعلمية اقتصرت في الغالب على النصارى من العرب وان القصائد الثورية جرت من اقلام غير اسلامية ، ولذلك كان

---

١ ـ سليم سركيس ، كتاب سر مملكة (القاهرة ١٨٩٥) ، ص : ٦٤ـ٦٧ .
٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٩ .
٣ ـ راجع : Zeine N. Zeine, Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut 1958, pp. 117 ff.

أثرها ضعيفاً ولم تمثل يوماً سواد الشعب، وان سواد الشعب هذا لم يفرق يوماً بين العروبة والاسلام وان القومية العربية برزت الى حيز الوجود عند ظهور الاسلام بل هي الاسلام نفسه. واخيراً يحددون بدء الحركة القومية العربية الحديثة في الفترة التي تلت خلع عبد الحميد الثاني الى بدء الحرب العالمية الاولى (١٩٠٩ - ١٩١٤) [١] ، عندما حاول الاتحاديون تتريك الدولة العثمانية وصهر جميع شعوبها في البوتقة الطورانية .

وإذ نقر ان العرب لم ينسوا يوماً انهم عرب وحافظوا دوماً على لغتهم على الرغم مما اصابها من لكنة ورطانة وما لحق تراثها الادبي حتى كاد ان يدفن في غياهب النسيان ، ونقر ايضاً ان الداعين الى البعث العربي في فكرة الجمعيات الادبية والعلمية (١٨٤٧ - ١٨٦٨) كانوا في الغالب من النصارى ، وانهم لم يمثلوا سواد الشعب ، غير اننا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الادبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة عن العرب الى حد كبير . « لقد غرس هؤلاء بذرة القومية والوطنية وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ومآثرهم تستهدف مثلاً قومية بدلاً من المثل الدينية والطائفية » . هكذا ابتدأت الحركة القومية العربية الحديثة ، ومن الخطأ ان ننكر الفكرة لأن سواد الشعب لم يعتنقها يوم نادى بها رواد القومية العربية . وسرعان ما حمل لواءها عرب مسلمون سنين قبل ظهور الاتحاديين الاتراك .

ومن الادلة على ان القصائد الثورية والخطب الوطنية أذكت الروح القومية وادت الى تكتلات منظمة تعبر عن احلام العرب وخوالجهم القومية تلك الجمعيات التي قامت في السر والعلانية تطالب بحقوق العرب والحض على النهضة ، ومن اشهرها « جمعية حفظ حقوق الملة العربية » التي تأسست سنة ١٨٨١ ونشرت نداء إلى العرب من مسلمين ومسيحيين تدعوهم الى

---

١ - المرجع السابق ، ص : ٧٣-٩٥ .

الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية * .

وهكذا كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٢ – ١٩٠٢)[١] يطالب بالخلافة للعرب لأسباب عددها في كتابه « ام القرى »[٢] ثم يخاطب العرب غير المسلمين فيقول :

« يـــا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين . ادعوكم إلى تناسي الاساءات والاحقاد، وما جناه الآباء والأجداد . فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين واجلّكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنوّرون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني ، والوفاق الجنسي دون المذهبي ، والارتباط السياسي دون الاداري . فما بالنا نحن لا نفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها ، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعاجم ، دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ، الا وهي : فلتحيا الامة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء أعزاء »[٣] .

ويلخص لنا الكواكبي النفور القومي المستحكم آنذاك بين العرب والاتراك ، فيقول :

---

* المشير ، ٢٩ مايو ١٨٩٥ ، نقلا عن انيس الخوزي المقدسي « الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث » طبعة ٢ (بيروت ١٩٦٠) ، ص ١٠٣–١٠٦ . راجع ايضا «سر مملكة» ص ٦٢–٦٣ و ٧٧–٨١ .

١ – راجع سامي الدهان « عبد الرحمن الكواكبي » القاهرة (١٩٥٨) ، زيدان « مشاهير الشرق » جزء ١ ، ص ٣٢٢ – ٣٢٤ .

٢ – القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥٥–١٥٨ .

٣ – « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٠٧ . وقد ظهرت مواد طبائع الاستبداد في الصحف المصرية قبل ١٣١٨ هـ – ١٩٠٠ م .

« ولا يعقل لذلك (أي لعدم استعراب الاتراك) سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الامثال في حق العرب ، فاطلاقهم على عرب الحجاز « ديلنجي عرب » أي العرب الشحادين ، واطلاقهم على المصريين « كور فلاح » بمعنى الفلاحين الاجلاف ، و « عرب جنكنه سي » أي نوَر العرب ، و « قبطي عرب » أي النور المصريين ، وقولهم عن عرب سوريا « نه شامك شكري ونه عربك يوزي » أي دع الشام وسكّرياتها ولا تر وجوه العرب ، وتعبير بلفظة « عرب » عن الرقيق وعن كل حيوان اسود . وقولهم «بيس عرب» أي عرب قذر ، و « عرب عقلي » أي عقل عربي ، أي صغير ، و «عرب طبيعتي » اي ذوق عربي ، أي فاسد ، و « عرب جكه سي » أي حنك عربي ، أي كثير الهذر ، وقولهم « بوني يبارسه م عرب اوله يم » أي ان فعلت هذا اكن من العرب ، وقولهم « نرده عرب طنبوره » أي أين العرب من الطنبور .

« هذا والعرب لا يقابلونهم على كل ذلك بسوى كلمتين هي قول العرب فيهم : « ثلاث خلقن للجور والفساد ، القمل والترك والجراد » . والكلمة الثانية تسميتهم بالاروام كناية عن الريبة في اسلامهم . وسبب الريبة ان الاتراك لم يخدموا الإسلام بغير اقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر اسمائهم على منابرها لم تقم . وانهم أتوا الاسلام بالطاعة العمياء للكبراء وبخشية الفلك ، ابي المصائب ، وباحترام مواقد النيران « اوجاقات » فزادوا بذلك بلات في طين الخرافات »[1] !

إن مثل هذا النفور لا يجد صداه في لغة قوم الا اذا كان متأصلاً في اذهان الشعب عريقاً في تفكيرهم وشعورهم . ومن الواضح ان الكره والنفور كانا متبادلين بين العرب والترك مدة طويلة على الرغم من ولاء العرب « للخليفة » السلطان طوال الحكم العثماني تقريباً ، وذلك لاستقرار الفكرة

---

١ ــ ام القرى ، ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

الاسلامية أولاً ولعدم ظهور الفكرة القومية الحديثة لدى العرب إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر . وقد تعود هذه النعرة إلى ايام المعتصم عندما جاء بالعلوج من غلمانه الاتراك وأسكنهم بغداد فثارت ثائرة الاهلين واضطر المعتصم الى بناء سامرا واسكان العلوج فيها [1] . والناظر في رسالة الجاحظ الى الفتح ابن خاقان في مناقب الترك [2] لا يجد فيها ما يدل على الفة وتفاهم بين العرب والاتراك . فالنفرة بين الشعبين عريقة لم يزلها الاسلام البتة .

وكان العهد الحميدي شديداً على الاحرار أياً كان مذهبهم . واذ اضطر السلطان ان يقف مكتوف اليدين ويرى سلطانه على الممتلكات الاوروبية يتلاشى ولّى وجهه شطر ممتلكاته الاسيوية ومضى في سياسة ترمي الى الحيلولة دون تسرب الفكرة القومية الطالعة الى اي من الاقطار العربية الواقعة تحت الحكم العثماني ، فبطش بالاحرار تركاً وعرباً على السواء ، واصطنع سياسة اسلامية استهدفت جمع شمل المسلمين على اختلاف اجناسهم تحت ظل الخلافة . وقرّب عدداً من رجالات العرب البارزين الى عرشه مؤملاً ان يصرفهم عن الفكرة القومية الى الفكرة الإسلامية ، وتبنى فكرة الجامعة الإسلامية واستغلها دعامة لعرشه وتثبيتاً لسلطانه . واخيراً ساند بنشاط ، انشاء الخط الحديدي الحجازي فعزز سمعته وسيطرته على الأقطار العربية في آن واحد . على الرغم من هذا كله بقيت الفكرة القومية التي غرست في اواسط القرن التاسع عشر حيّة في قلوب فئة من العرب آمنت بالقومية العربيـــة للعربي المسلم والعربي النصراني على السواء .

قابل هذا التيار العربي الناشىء تيـــار الجامعة العثمانية ولا سيما مصر حيث جرى تيار اسلامي شديد يمثله علي ابو النصر (١٨٨٠) ،

---

١ ـ ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانيه (مصر ، بدون تاريخ) ، ص ١٧٠ ، ياقوت . معجم البلدان (بيروت ١٩٥٥ـ١٩٥٧) جزء ٣ ص ١٧٣ـ١٧٨ .

٢ ـ راجع هذه الرسالة في «ثلاث رسائل» تحرير فان فلوتن (ليدن ١٩٠٣)، ص ١ ـ ٥٦ .

وعبد الله فكري (١٨٨٩) وعبد الله نديم (١٨٩٦) وابراهيم المويلحي (١٩٠٦) ومصطفى كامل (١٩٠٨) ومن المتأخرين أحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري واحمد نسيم ومصطفى الرافعي [١] ، وتيار اسلامي آخر في العراق يمثله رضا الشبيبي ومحمد حبيب العبيدي وخيري الهنداوي ومحمد الحسين كاشف الغطاء وعبد العزيز الجواهري ومعروف الرصافي [٢] .

واشتدت النقمة على الاتراك في مطلع القرن العشرين ، ثم جاء الدستور يحمل للعرب أملاً ما لبث ان تلاشى عندما قام الاتحاديون يمهدون لبرنامجهم الخطير الرامي الى تتريك جميع العناصر في البوتقة الطورانية فاشتدت الحركة العربية وانصرفت النخبة الى تأسيس الجمعيات السرية وكلها ما عدا جمعية الاخاء العربي التي أسست سنة ١٩٠٨ تعود الى السنوات الاربع الواقعة بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ ، عندما هب دعاة الفكرة العربية الى مقارعة العثمانيين والاتحاديين علانية .

على ان رواسب الفكرة الاسلامية العثمانية لدى العرب استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ومن ابرز رافعي لوائها الشيخ اسعد الشقيري ومحمد كرد علي [٣] ، ولا يزال لها انصار يترحمون على عبد الحميد حتى يومنا هذا [٤] .

ومن العدل ان نذكّر نقاد الفكرة العربية الذين يأخذون على الاكثرية

---

١ ـ انيس الخوري المقدسي ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، طبعة ٢ (بيروت، ١٩٦٠) ، ص ١٥ـ٤١ .

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٧ ـ ٧١ .

٣ ـ راجع محمد الباقر ومحمد كرد علي المغ ، البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية (بيروت ١٩١٦) .

٤ ـ راجع ما كتبه محمد جميل بيهم في تقديم الترجمة العربية التي قام بها محمد صالح البنداق لكتاب سمعان باسوفيتش ، المسلمون في اوروبة (بيروت ١٩٥٥) ، ص ٧ وهذا نصه : « لقد قدر لنا ان نظهر للوجود ونترعرع في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ، هذا السلطان الذي استطاع بدهائه ان يقيم نفسه مرجعا حقيقيا لمسلمي العالم ، ويكسب عطف العرب . فقرأنا في المدارس تاريخ السلطنة على اعتباره تاريخنا الخاص » .

العربية انها لن تستطيع ان تفرق بينها وبين الفكرة الاسلامية انه كما لا يحق لنا ان ننتظر من الاقلية العربية ان تتخلى عن نصرانيتها حتى تصبح قومية ، كذلك لا يحق لنا ان ننتظر من الاكثرية ان تتخلى عن اسلامها حتى تصبح اهلاً لحمل لواء الفكرة القومية . وللمغفور له فيصل الاول الكبير القول الفصل في ذلك عندما قال : « الدين لله والوطن للجميع » .

كان لا بد لنا ان نتوسع قليلاً في هذه النقطة الخطيرة ونزكي اجتهاد المؤلف بتقرير بدء الحركة القومية العربية الحديثة في فترة الجمعيات الادبية والعلمية وفترة القصائد الثورية بين ١٨٤٧ و ١٨٦٨ .

ورفع لواء هذه الفكرة نفر من المسيحيين والمسلمين العرب على السواء ، غير انها لم تجد أذناً صاغية عند سواد الشعب لفقدان الوعي القومي حتى عندما حاول الاتحاديون ان يفرضوا برنامجهم الطوراني على العرب مسلمين كانوا او مسيحيين . وبقي هنالك كما بينّا تمسك ظاهر بالعروة الاسلامية حتى بعد تنكيل جمال باشا بالزعماء العرب وبعد اعلان الحسين بن علي ثورته الكبرى . غير ان هذا كله لا ينفي ظهور الفكرة في الفترة التي عينها المؤلف .

ويتعقب المؤلف في الفصل الرابع والخامس سير الفكرة وما رافقها من نجاح واخفاق وتقدم وتأخر في خلال العهد الحميدي ، وانتقال الزعامة القومية تدريجياً وطبيعياً من ايدي النصارى العرب إلى ايدي المسلمين منهم. ثم يأتي في الفصل السادس على شهر العسل القصير في علاقات الاتحاديين بالعرب ونهايته المريرة فقيام الجمعيات السرّية بين ١٩٠٨ و ١٩١٤ . ويتناول في الفصل السابع اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى وما كان لذلك من أثر في مجرى الفكرة القومية العربية وظهور الهاشميين على مسرح الحوادث. وفي الفصل الثامن يعرض المؤلف لتبلور فكرة الثورة في دمشق ضد العثمانيين وطلب المتآمرين من الحسين بن علي ان يتزعم الثورة ويقودها . وفي الفصل التاسع يستعرض ما تلا ذلك من مراسلات بين الحسين ومكماهون.

وفي الفصل العاشر يتناول المؤلف الاتفاق عـلى موعد اعلان الثورة والترتيبات الاخيرة التي قام بها الحسين فالحـكم الارهابي في بلاد الشام على يد جمال باشا والبطش بالزعماء العرب في بيروت ودمشق إلى اعلان الثورة العربية الكبرى في المدينة في الخامس من حزيران ١٩١٦ وسقوط مكة في العاشر منه وهو التاريخ الرسمي للثورة . وفي الفصل الحادي عشر يصف المؤلف نتائج الثورة الفورية ورد الفعل الذي احدثته في مختلف الاقطار العربية . وفي الفصل الثاني عشر يتتبع المؤلف الدور الذى قام به العرب في الحرب من ١٩١٦ حتى الاستيلاء عـلى دمشق في ١٩١٨ واحتلال سورية بكاملها مع ما رافق ذلك من نشاط سياسي في البلاد من قبل الالمان والانجليز .

ويفرد المؤلف الفصل الثالث عشر لمطامع الحلفاء في ممتلكات الدولة العثمانية ولاقتسامهم جلد الدب قبل ان يقتنصوه كما يتمثل ذلك باتفاقية سايكس – بيكو بين بريطانية وفرنسة وروسية القيصرية ، وللوعود المختلفة التي قطعها الحلفاء للعرب ، ولوعد بلفور للصهيونيين وللتأكيدات التي قدمها الحلفاء للعرب عندما وصلتهم أخبار وعد بلفور وأخبـار اتفاقية سايكس – بيكو . وفي الفصل الرابع عشر يتناول المؤلف التسوية بعد الحرب والخيبة التي مني بها العرب مما جعل مؤتمر الصلح بالنسبة اليهم لا نهاية للحرب بل بداية صراع عنيف مع الغرب لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا . فان المصالح البريطانية في العراق وفلسطين ، والمصالح الفرنسية في سورية ولبنـان ، والمطامع الصهيونية في فلسطين المرتبطة بالسياسة البريطانية خيبت آمال العرب ومزقت بلادهم ، فكانت الفترة في ما بين الحربين العالميتين فترة كفاح مرير ضد هذه القوى الثلاث . ولم يساعد تنافس بريطانية وفرنسة في المنطقة على تحسين الاوضاع بالنسبة إلى الحلفاء او العرب أنفسهم ، وعرقل تنـافس الاسر العربية سير الفكرة القومية العربية وأخر في نموها وانتشارها واستقرارها .

وتناول المؤلف في الفصل الخامس عشر مجرى الحوادث في شبه الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الاولى التي كانت مسرحاً للنزاع بين خمس من الاسر العربية هي آل الرشيد في حائل وآل سعود في نجد وآل يحيى حميد الدين في اليمن والادارسة في عسير والهاشميون في الحجاز ، في حين سيطر البريطانيون على السواحل الشرقية والجنوبية من الكويت إلى عدن حيث انتشرت المحميات والمهادنات ومستعمرات التاج . وقد ركز المؤلف جل انتباهه على الصراع الهاشمي الوهابي حتى انتهاء الحكم الهاشمي في الحجاز واستيلاء السعوديين على الاراضي المقدسة في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ ، وتتبع توسع ابن سعود في عسير (١٩٣٠) وعلاقاته باليمن حتى معاهدة الطائف (١٩٣٤) .

وفي الفصل السادس عشر والاخير يتتبع المؤلف مجرى الحوادث في العراق وسورية ولبنان وفلسطين بعد التسوية التي تبعت الحرب العالمية الاولى وما لحق هذه الاقطار من جراء البدعة السياسية التي اصطنعها الحلفاء فلفعوا الاستعمار بجلباب الانتداب . فوقعت سورية ولبنان تحت ربقة الانتداب الفرنسي ، وفلسطين والعراق تحت ربقة الانتداب البريطاني، واقتطع القسم الجنوبي من سورية الواقع شرقي نهر الاردن امارة ولي عليها ثاني ابناء الحسين وتعرضت فلسطين لأفظع مؤامرة سياسية في التاريخ تقريباً عندما تحالف العدوان الصهيوني مع المطامع البريطانية وفرض وعد بلفور في صلب صك الانتداب .

• • •

ولا يتجاوز المؤلف في كتابه هذا سنة ١٩٣٦ بل يقف عندها وقفة تفاؤل ، لأن هذه السنة شاهدت استبدال الانتداب الفرنسي في سورية بمعاهدة تم عقدها في ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٦. وقد أكدت بنود المعاهدة الرئيسية على استقلال سورية خلال ثلاث سنوات وعلى دخولها عضواً في جمعية الامم المتحدة بتوصية فرنسة، كما نصت هذه البنود على عقد تحالف عسكري

بين البلدين وعلى ان تحتفظ فرنسة بقواعد جوية وعسكرية ، وعلى ان تقدم مدربين للجيش السوري الذي أخذت على عاتقها ان تمده بالاسلحة والعتاد ، وكان على سورية ايضاً في حالة وقوع حرب ان تتعاون مع فرنسة في المحافظة على المنشآت الفرنسية في الاراضي السورية وحمايتها . وقد عقد اتفاق مشابه مع لبنان دون صعوبة كبيرة .

ومما جعل ١٩٣٦ تبدو سنة خير واستبشار في البلاد العربية نجاح المفاوضات بين مصر وبريطانيا وانتهاؤها إلى عقد المعاهدة المصرية البريطانية التي عرفت فيما بعد بمعاهدة ١٩٣٦ . فاستقرار العلاقات البريطانية العراقية آنذاك والعلاقات البريطانية مع ملوك الجزيرة العربية وامرائها وشيوخها ووصول الفرنسيين والسوريين واللبنانيين إلى استبدال الانتداب بمعاهدة ونجاح المفاوضات المصرية البريطانية – كل هذا أسبغ على سنة ١٩٣٦ مظاهر البشر على الرغم من تعقد الامور في فلسطين بسبب ازدياد الهجرة الصهيونية نتيجة للسياسة الهتلرية في اوروبة ، وعلى الرغم من قيام الحكم العسكري في العراق على يد بكر صدقي . فلا عجب إذا بدا المؤلف ، اسوة بغيره من المراقبين السياسيين آنذاك ، متفائلاً تدغدغ نفسه الآمال .

• • •

ظهر كتاب « يقظة العرب » كما اسلفنا سنة ١٩٣٩ ، وانتهى تتبعه لمجرى الفكرة العربية وما رافقها من تقدم وتأخر ، وتكتل وتفسخ ، واتحاد وانقسام ، إلى سنة ١٩٣٦ . واقتصر المؤلف على التأريخ للفكرة العربية الحديثة في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب . ذلك لأن الفكرة العربية الحديثة لم تدخل صلب الحياة السياسية في مصر والسودان وشمال افريقية والمغرب الاقصى إلا بعد سنة ١٩٣٦ فقد نشأت الحركة الوطنية في مصر قبل نشوئها في البلدان العربية الاخرى وسارت في مجرى منفصل عن مجراها في البلاد العربية الشقيقة منذ ان اصبح لمصر كيان سياسي محدد في عهد

محمد علي باشا في مطلع القرن التاسع عشر . وقد شغلت مصر باحداثها الداخلية ، وأهمها مشكلة الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ – ١٩٥٤) وعلاقتها بالسودان ، وانصرفت لها كلياً . والحقيقة ان اتجاه الحركة القومية في مصر كان ، وبقي حتى قيام الثورة المصرية الكبرى (١٩٥٢) اتجاهاً مصرياً اسلامياً الى حد بعيد . وان مصر لم تخرج من عزلتها وتتبنى قضية العروبة بشكل واضح الا في اواخر سنه ١٩٤٢ ، عندما هب رئيس وزراء مصر آنذاك ، مصطفى النحاس باشا (في خطاب القاه في ١٣ تشرين الثاني ، نوفمبر) ووضع مصر على رأس الحركة القومية العربية وذلك خشية ان تنتقل الزعامة الى العراق [١] . ولم تستقر الفكرة العربية في مصر وتستعلي الا منذ ١٩٥٦ عندما اعلن الرئيس جمال عبد الناصر مصر «دولة عربية مستقلة... والشعب المصري جزء من الامة العربية» [٢] . وقل مثل هذا عن الحركات الوطنية في الشمال الافريقي والمغرب الاقصى فهي حركات تتميز بكفاحها ضد الاستعمار وطابعها الإسلامي واقليميتها الواضحة ، ولم تنجذب نحو التيار العربي الا حديثاً عندما التحقت بجامعة الدول العربية واختبرت فائدة الفكرة العربية لها في تحقيق أمانيها القومية [٣] . لذلك لا نرى غباراً على موقف المؤلف في حصر بحثه في نطاق الجزيرة العربية والهلال الخصيب وتتبعه مجرى الفكرة العربية فيها .

وطرأ على الفكرة العربية منذ سنة ١٩٣٦ تطورات خطيرة سارت بها الى الامام طوراً ودفعت بها الى الوراء طوراً آخر . فقد تحررت معظم الاقطار العربية من السيطرة الاجنبية المباشرة وأقامت لنفسها جامعة دول عربية حاولت ابراز الفكرة العربية بصورة عملية على الرغم مما لاقته هذه الجامعة

---

١ – سنأتي على تفصيل ذلك عندما نبحث قيام جامعة الدول العربية .

٢ – المادة الاولى من الدستور المصري الجديد . راجع مجلة «الابحاث» ، مجلد ٩ ، جزء ١ ، (بيروت ، آذار (مارس) ١٩٥٦) ، ص ٩٩ – ١١٥ .

٣ – قابل نبيه امين فارس ومحمد توفيق حسين ، هذا العالم العربي (بيروت ١٩٥٣) ، ص ١٨٢–١٨٣ .

من اخفاق في ميادين اخرى خطيرة،وقام اتحاد بين ثلاثة اقطار كانت قد سبقت الوحدة بين اثنين منها ، اما من الناحية السلبية فقد منيت بنكسة تتضاءل امامها جميع النكبات التي منيت بها البلدان العربية منذ الحروب الصليبية . فلأول مرة منذ الحروب الصليبية التي اقامت دويلات في فلسطين وفي المناطق الساحلية من سورية قامت دولة اجنبية معادية في وسط العالم العربي ، فحطمت وحدته الجغرافية والبشرية وهددته بالسيطرة السياسية والاقتصادية ، وصرفته عن الاتجاه الى العمل والبناء ، وشغلته الى حد بعيد بشؤون الدفاع عن النفس ، وخلقت له عدداً من المشكلات ما برحت تستنزف اكثر قواه ، وجعلته عرضة للهزات الاجتماعية والسياسية .

وسنحاول في الصفحات التالية ان نتتبع مجرى الفكرة القومية وما لاقته من تقدم وتأخر في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ووادي النيل ، من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، ومن ١٩٣٩ الى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الثورة المصرية في ١٩٥٢ .

البلاد العربية من ١٩٣٦ – ١٩٣٩

العراق : فقدت العراق بموت فيصل الاول سنة ١٩٣٣ أعظم عوامل الاستقرار في البلاد . وقد كان ابنه وخليفته ، غازي ، قومياً يتحسس آمال شعبه ، ولكن كانت تنقصه بعض الصفات التي لا بد منها لأي ملك دستوري ، لأسباب منها صغر سنه ومنها مزاجه . ولم يعد بالامكان كبح جماح الاوليغاركية السياسية . زد على ذلك ان العقد الرابع من هذا القرن كان عقد الدكتاتوريين في البلاد القريبة والبعيدة . فقد ظهر اتاتورك في تركية المجاورة ، ورضا شاه في فارس المتاخمة ، وموسوليني في ايطالية، وهتلر في المانية . وإذ بدا للناس ان هؤلاء كلهم نجحوا في تحدي الانجليز ،

فقد استهوت الدكتاتورية العسكرية الشعوب التي كانت تحاول التخلص من سيطرة الاستعمار . والحقيقة هي ان العقدين الثالث والرابع من سني القرن العشرين لم يحملا إلى الشرق العربي القمصان الملونة فحسب ، بل حملا اليه كذلك فلسفة فكرية جذابة . وكان الجو مواتياً لأي مغامر عسكري يسعى لاقامة حكم دكتاتوري . وبذهاب يد فيصل الرادعة تجمعت العناصر المعادية للبريطانيين بين الاقلية الحاكمة وفي الجيش حول بكر صدقي ، أحد قواد الجيش وبطل الحوادث الاشورية . وكان الملك الشاب قد رقاه مكافأة له على جهوده في تلك الحوادث . وقام دكتاتور العراق العتيد ، في أواخر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٦ ، بانقلاب عسكري وحكم البلاد مدة عشرة أشهر حكماً فردياً لم يخل من الاغتيالات السياسية . وقبل ان يُغتال هو بدوره (١١ آب، اغسطس ١٩٣٧) تم عقد ميثاق سعد آباد بين العراق وايران وافغانستان وتركية في ٩ تموز (يولية) ١٩٣٧ .

وبعد وفاة بكر صدقي عادت السياسة في العراق الى سابق عهدها وتحولت مقاليد السلطة إلى ايدي حاشية الملك السابق . ولم يحدث شيء ذو شأن قبل انفجار الحرب العالمية الثانية إلا وفاة الملك غازي في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٣٩ في حادث اصطدام وتلا ذلك انفجار شعبي عنيف ضد بريطانية . وخلف غازي على عرش العراق ابنه الطفل فيصل الثاني تحت وصاية خاله الامير عبد الاله . وظل العراق ، كما كان منذ العصر الاموي ، بعيداً عن الاستقرار ومسرحاً للهزات السياسية .

سورية ولبنان : أما في سورية ولبنان فقد تآمرت الاحداث في اوروبة على ان تلغي المكاسب التي انتزعتها الجمهوريتان الشقيقتان من الدولة المنتدبة . وإذ شهد منتصف العقد الرابع من سني هذا القرن نمو القوة العسكرية لدى كل من ايطالية والمانية وظهور شبح الحرب في الافق ، أصبحت فرنسة أقل ميلاً إلى تصفية امبراطوريتها في شرقي حوض البحر

الابيض المتوسط،واكثر رغبة في استرضاء تركية فيما يتعلق بسنجق الاسكندرونة الذي كان له وضع خاص تحت ادارة الانتداب لأن سكانه كانوا مزيجاً من العرب والاتراك . وخشيت تركية ، على اثر المعاهدة الفرنسية السورية (١٩٣٦) التي آذنت ، كما سبق وذكرنا ، بانتهاء الانتداب ، عودة السنجق الى سورية . وعلى هـــذا فقد قامت القلاقل في انطاكية بايعاز وتحريض من الاتراك . وبسبب تلبد الجو الدولي ورغبة في كسب مساعدة الاتراك رأت فرنسة ان تستجيب لمطالبهم . وبعد مناورات رخيصة تمجّها الاخلاق ، التجأت فرنسة الى استعمال لجان التحقيق وسيلة للرجوع عن العهود التي قطعتها للسوريين،واعلنت في آب (سبتمبر) ١٩٣٨ قيام حكم ثنائي (فرنسي – تركي) في السنجق ، وان قوة تركية مسلحة تعادل القوة الفرنسية عدداً قد دخلت السنجق لتشارك في مسؤوليات الأمن في المنطقة ريثما يتم اجراء انتخابات عامة لتقرير مصيره . وعلى الرغم من ان الاتراك، بالتواطؤ مع الفرنسيين ، بذلوا جهوداً جبارة في سبيل الحصول على نتائج مرضية في الانتخابات ، فانهم لم يظفروا بأكثر من ٢٢ مقعداً من ٤٠ من مقاعد الجمعية . واجتمعت الجمعية في ٢ ايلول ١٩٣٨ في انطاكية وسارعت الى اعلان استقلال السنجق باسم جمهورية هاتاي ، كما انتخبت الجمعية رئيساً تركياً لها ورئيساً للوزراء تركياً واتخذت لها علماً يكاد يكون نسخة عن العلم التركي . ومضى الاتراك بعد ذلك في صبغ المنطقة بالصبغة التركية . وفي حزيران (يونية) ١٩٣٩ ، عندما بدأت غيوم الحرب العالمية الثانية تتلبد ، تخلت فرنسة عن السنجق للاتراك ، ضاربة عرض الحائط بجميع عهودها المقطوعة للسوريين . وقد بلغ السخط أشده في سورية ، غير ان اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية اسدل ستاراً موقتاً على السخط المتأجج لدى السوريين واللبنانيين على السواء .

فلسطين : وكانت فلسطين أقل البلاد العربية املاً في الاستقرار

السياسي طالما بقيت الصهيونية المتواطئة مع مصالح الاستعمار البريطاني مسلطة على القومية العربية . ووضحت هذه الحقيقة للبريطانيين ووقفوا منها وقفة المتفرج على الرغم من تظاهرهم بالعمل على التوفيق بين الفريقين . ومن بدء الانتداب حتى ١٩٣٩ شهدت البلاد اضطرابات كادت تكون متواصلة وكان أخطرها ثورة ١٩٣٦ التي قامت احتجاجاً على تدفق الهجرة الصهيونية وبيع الاراضي . وتلا الثورة اضراب عام شل الحركة في البلاد مدة ستة اشهر . وقد ارسل البريطانيون ، محاولة منهم لتوفيق ما لا يمكن توفيقه، لجنة للتحقيق بعد أخرى . وبقيت توصيات هذه اللجان حبراً على ورق ولا سيما فيما كان يتلاءم مع مصالح اهالي البلاد العرب ويتنافى مع المصالح الصهيونية . وقد ادت ثورة ١٩٣٦ الى توسط الدول العربية والى عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن خلال شباط (فبراير) وآذار (مارس) ١٩٣٩ . وعقب المؤتمر صدر ايضاح للسياسة البريطانية في ما يعرف بالكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ [١] ، وقد تناولت هذه الوثيقة مشكلة الحكم والهجرة وانتقال الاراضي ، فوعدت بالاستقلال في خـــلال عشر سنوات ، وبتحديد الهجرة بخمسة وسبعين الف مهاجر لكل من السنوات الخمس التالية شرط ان لا يتنافى ذلك مع طاقة البلاد على استيعاب مثل هذا العدد واحـــالة قضية انتقال الاراضي الى المندوب السامي ليحكم فيها حسب حكمته .

الجزيرة العربية : وبعد ان استقر الامر لعبد العزيز بن سعود في نجد والحجاز (١٩٢٦) وعسير (١٩٣٠) وبعد عقد معاهدة الطائف مع اليمن (١٩٣٤) اصبحت الامبراطورية تضم شبه الجزيرة كلها ما عدا مشيخات الساحل المهادن والبحرين والكويت التي كانت مرتبطة بمعاهدات مع بريطانية . ولو لم يكتشف البترول في شبه الجزيرة في العقد الرابع من

١ ــ راجع نص الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ في :
R. I. I. A., Great Britain and Palestine 1915-1945, Information No. 20 (London 1946), pp. 167-174.

سني هذا القرن لبقيت الحياة فيها على ما كانت عليه من قبل .

مصر : سبق وأشرنا الى ان المؤلف اقتصر في تتبعه تطور الحركة القومية العربية الحديثة على مجرى الحوادث في الجزيرة العربية والهلال الخصيب وهما مهد الحركة حيث بقيت فكرة الوحدة العربية والتضامن العربي اقوى مما هي عليه في الاقطار العربية الاخرى . غير ان مصر ، اكبر البلاد العربية واغناها ، لحقت بالقافلة فيما بعد وتزعمتها ولذلك لا بد من كلمة تمهيدية عن وادي النيل من نهاية الحرب العالمية الاولى الى سنة ١٩٣٦ .

شهدت سنوات الحرب العالمية الاولى نمو الحركة القومية في مصر . فقد اعلنت الحمايـــة البريطانية على البلاد وجندت عشرات الالوف من العمال في خدمة اغراض الحرب . وكان لمبادىء ولسون الاربعة عشر ، وخاصة مبدأ حق تقرير المصير ، والتصريح البريطاني الفرنسي سنة ١٩١٨ الذي وعد باستقلال البلاد العربية اثر في تطلع المصريين الى التخلص من الاحتلال البريطاني « الموقت » الذي بدأ سنة ١٨٨٢ ومن الحماية التي فرضت عليهم سنة ١٩١٤ . وقد تألف الوفد المصري في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ برئاسة سعد زغلول واصبح فيما بعد حزباً سياسياً منظماً ، ونص قانونه على السعي بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجد للسعي سبيلاً ، في سبيل استقلال مصر استقلالاً تاماً . وصدق الاعضاء على القانون في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة نفسها ، وألّف سعد وفداً لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح . غير ان المعتمد البريطاني اعتذر عن السماح للوفود بالسفر . واستدعى قائد القوات البريطانية في مصر سعداً وانذره بألا يقيم العقبات في طريق الحكومة المصرية تحت الحماية .

وقامت السلطات البريطانية ، في ٨ آذار (مارس) ١٩١٩ ، بسبب نشاط الوفد وأعضائه ، باعتقال سعد واسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل

ونقلهم إلى بورسعيد ومن ثم إلى مالطة. ولم يكد يتناهى إلى الناس خبر اعتقال سعد ورفاقه حتى هاجت الخواطر وقامت ثورة ١٩١٩ فاندفعت المظاهرات في العاصمة وامتدت منها إلى الاقاليم.

وازاء تفاقم الحالة عينت الحكومة البريطانية الجنرال اللنبي مندوباً سامياً فوق العادة، وافرجت عن سعد ورفاقه واذنت لهم بالسفر إلى اوروبة. إلا ان مؤتمر الصلح خيب آمالهم. فاوفدت الحكومة البريطانية لجنة ملنر للتحقيق في اسباب الثورة وتقديم توصيات للحكومة البريطانية. فأوصت بعقد محالفة مع مصر كدولة ملكية ذات هيئات نيابية وان يكون لبريطانية حق حماية مصر من كل اعتداء، وابقاء قوة عسكرية في الاراضي المصرية، وترك أمر السودان كما كان عليه. وقد عارض الحزب الوطني مشروع ملنر وابدى الوفد تحفظات بشأنه، وتلت ذلك مفاوضات انتهت بتصريح من طرف واحد، وهو بريطانية (٢٨ شباط، فبراير ١٩٢٢) يعلن انتهاء الحماية البريطانية على مصر واعلان مصر دولة مستقلة على أساس النقاط الواردة في مشروع ملنر. والواقع ان الاستقلال جاء شكلياً.

وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٢٢ أعلن السلطان فؤاد مصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة، كما اعلن في ١٣ نيسان (ابريل) ان نظام وراثة العرش يقضي بأن يكون وراثياً ينتقل من الملك إلى الابن الاكبر ثم إلى اكبر أبناء الابن. وشكلت لجنة لوضع دستور برلماني ولكن الوفديين قاطعوا اللجنة لأن الحكومة لم تدع جمعية تأسيسية لذلك الغرض. على ان الدستور صدر في نيسان (ابريل) واجريت انتخابات فاز فيها الوفد وشكل سعد الوزارة.

وفي هذه الاثناء كانت مصر مسرحاً للاغتيالات السياسية فاغتيل في ١٩ تشرين الثاني (نوفبر) ١٩٢٤ السير لي ستاك، سردار الجيش المصري. فوجه اللنبي انذاراً للحكومة، قبل سعد ما اشتمل عليه من مطالب سوى الطلب المتعلق بالسودان وهو سحب الجيش المصري منه واطلاق يد حكومة السودان في زيادة مساحة الاراضي المروية في الجزيرة إلى قدر غير محدود.

وإذ رفضت الحكومة البريطانية ذلك استقال سعد وخلفه احمد زيور الذي قبل بجميع المطالب .

وشهدت الفترة ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٦ اشتداد ساعد الحركة القومية في مصر كما شهدت تعدد الاحزاب السياسية . وكانت خسارة الوفد بوفاة زعيمه (٢٣ آب ، اغسطس ١٩٢٧) جسيمة . وقد خلف سعداً على رئاسة الحزب مصطفى النحاس . وانتهج الوفـد منذ ذلك الوقت سياسة اكثر تطرفاً . ثم انشق الحزب على نفسه وتألف من المنشقين بعد ذلك الحزب السعدي بزعامة أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي . ولكن الوفد بقي اقوى تلك الاحزاب جميعاً .

وإذ كان الوفد معارضاً للوزارات التي تولت الحكم خلال هذه الفترة، فقد اتجه الملك فؤاد الى الحد من سلطان الوفد بجميع الوسائل . وقـام الصراع في مصر على مثلث زواياه الملك والوفد والانجليز . وحاول كل فريق ان يضرب الواحد بالآخر . وفي ١٩٣٠ أقدم الملك على اقالة النحاس وأحل محله اسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب . وتواطأ الاثنان على اقصاء الوفد عن حلبة البرلـمـان بواسطة تعديل الدستور وجعل الانتخاب على درجتين . ولكن ما لبثت الاحزاب ان اتفقت فيما بينها سنة ١٩٣٥ على الاتحاد على اساس دستور ١٩٢٣ ، واضطر الملك ان ينزل عند ارادة هذه الجبهة الوطنية فأعاد الدستور (١٢ كانون الاول ، ديسمبر ١٩٣٥) . وعاد الوفد الى الحكم مرة اخرى على أثر انتخابات ١٩٣٦ . ورأس النحاس الوزارة، وطلب استئناف المفاوضات مع بريطانية فقبلت شرط ان تتناول المفاوضات بادىء ذي بدء المسألتين اللتين تعدان ابلغ المسائل خطورة : مسألة تنظيم الجيش ومسألة السودان . ومال النحاس الى الاعتدال بسبب العدوان الايطالي على الحبشة ولم تخف خطورة الامور المترتبة على الوجود الايطالي في الحبشة عن الانجليز فسارعوا الى مقابلة الاعتدال بالاعتدال فتوصل الفريقان في ٢٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٣٦ ، إلى عقد معاهدة مدتها عشرون سنة ، واهم

بنودها [١] :

١ – انتهاء الاحتلال البريطاني العسكري لمصر .

٢ – الترخيص لبريطانية بالاحتفاظ بقوات عسكرية لا تتجاوز ١٠٠٠٠ رجل في منطقة القناة وان تقام لهذه الجيوش معسكرات على حساب مصر ، على ان تسحب بريطانية جنودها من جميع الانحاء المصرية الاخرى .

٣ – تعود القوات المصرية الى السودان ويسمح بهجرة المصريين اليه.

٤ – تتعهد بريطانية بحماية مصر من اي اعتداء وفي حالة الحرب تضع مصر مواصلاتها تحت تصرف بريطانية .

وانبعث في جو العلاقات المصرية البريطانية شيء من التفاؤل . إذ على الرغم من ان مركزها الدولي بقي مرتبطاً الى حد بعيد بالسياسة البريطانية الخارجية فان سبيلها الى التطور الداخلي اصبح منذ ذلك اليوم حراً طليقاً . بيد ان هذا التطور بقي مرهوناً بالنزاع الحزبي وبالمنافسة المريرة الصامتة بين العرش والوفد وبقدرة بريطانية على اصطناع الواحد ضد الآخر خدمة لمصالحها الامبراطورية . زد على ذلك نوع الزعامة نفسها وعجزها عن قيادة حركة التطور واعداد الشعب لها .

السودان : وعندما اعلنت الحماية على مصر (١٩١٤) لم تشر بريطانية الى السودان بقريب او بعيد فظل الوضع على ما كان عليه من اسطورة الحكم الثنائي . ولم يشهد السودان خلال سني الحرب من اضطرابات سوى ثورة علي دينار في دارفور سنة ١٩١٦ . فانفذت اليه حكومة السودان حملة من الجيش المصري اشتبكت معه في معركة فاصلة في ٢٢ ايار (مايو) ١٩١٦ انتهت بهزيمته . وتمكنت هذه الحملة من القضاء عليه في تشرين الثاني (نوفمبر)

١ – راجع نص المعاهدة في: J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, D. Van Nostrand Co. Inc., Princeton 1956, Vol. II, pp. 203-II.

من السنة نفسها فقتل واستسلم الثوار .

ولما كانت ثروة السودان الزراعية عماد حياته ، اتجه التفكير منذ اوائل القرن العشرين الى اقامة مشروع للري وذلك ببناء قناطر على النيل الازرق في منطقة ما بين الروصيرص وسنار . وحالت الحرب العالمية الاولى دون تنفيذ العمل ولم يستأنف الا بعد نهايتها وتم بناء خزان سنار في ١٩٢٥ . ورفضت مصر الاشتراك فيه ولكنها لم تعترض عليه . وقد خشي المصريون ان يؤثر هذا المشروع في نصيبهم من مياه النيل كما خشوا ان يحتفظ البريطانيون بالسودان بعد ان اصبح لهم فيه مصالح كبيرة . ومن جراء هذه المخاوف وبسبب نمو الحركة القومية في مصر ، اخذ المصريون يطالبون باعادة سيادتهم على السودان .

ولم تتوصل لجنة ملنر الى اتفاق بشأن السودان مع الحكومة المصرية ، كما ان مفاوضات سعد مع حكومة العمال سنة ١٩٢٤ اخفقت ايضاً . ومن الجدير بالذكر ان النزاع على السودان ، بعد معاهدة لوزان (١٩٢٣)التي تنازلت تركية بموجبها عن سيادتها على مصر والسودان ، انحصر بين بريطانية ومصر . وفي هذه الاثناء اغتيل السير لي ستاك ووجــه اللنبي انذاره المذكور آنفاً فقبل سعد كل ما جاء فيه سوى ما اختص بالسودان ، وانتهى الامر الى قبول زيور شروط الانذار كلها ولم يبق للمصريين في السودان إلا العلم .

وكان اشد ما اثار استياء المصريين من انذار اللنبي اعلانه ان لبريطانية الحرية في زيادة مساحة الاطيان في الجزيرة التي تروى من مشروع الري في السودان وكانت في الاصل ٣٠٠٠٠٠ فدان فقط . ولهذا عجلت بريطانية الى التأكيد على حسن نيتها فاقترحت في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ تأليف لجنة للبحث في اقتسام مياه النيل بين القطرين وتوصل الفريقان الى تسوية في ٧ ايار (مايو) ١٩٢٩ . غير ان الرأي العام السوداني بقي مناوئاً لها لأن التسوية عقدت بــين البريطانيين والمصريين وحدهم ولم يكن للسودان

في الامر كلمة .

وإذ عقدت معاهدة ١٩٣٦ بين حكومة النحاس وبريطانية توصل الفريقان إلى اتفاق شامل على السودان ، فنصت المادة الحادية عشرة على ان الادارة في السودان ستظل كما نصت عليه اتفاقية ١٨٩٩ ، واشارت إلى ان الوظائف ستملأ من البريطانيين والمصريين إذا تعذر وجود السودانيين الاكفاء .

البلاد العربية في اثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩–١٩٤٥

« لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » . كان هذا الحديث لسان حال اكثر العرب عند اندلاع الحرب العالمية الثانية . واتصف موقف العرب من الحلفاء بالفتور . فقد كانوا أولاً ساخطين على الحلفاء لاعتقادهم بأن هؤلاء خدعوهم بعد الحرب العالمية الاولى . وزعزع الصراع المتواصل ضد دولتي الانتداب ، بريطانية وفرنسة ، ثانياً ، ثقة العرب في ان يكون انتصار الحلفاء خير كفيل لتحقيق آمالهم القومية . وكان المعتدلون والمتطرفون على السواء ، ثالثاً ، يعتقدون بأنه إذا أمكن انتزاع أي تساهل من الحلفاء فان أفضل وقت لانتزاعه هو في ذلك الحين والحلفاء في شدّة أدعى إلى التساهل من ايام الفرج . ثم ان دعاة المانية وايطالية ، رابعاً ، لم يقفوا مكتوفي الايدي بل اغتنموا الفرصة ، وسهل عليهم المهمة ما احرزه النازيون والفاشستيون من نجاح في بادىء الامر ، وقلة اكتراث الحلفاء بآمال العرب ومطالبهم المشروعة . وكان عدد العرب المستعدين للوثوق بوعود الحلفاء قليلاً جداً . وقد زادت ذكريات السنوات التي سبقت الحرب مباشرة من سخط العرب واستيائهم . فان تنازل الفرنسيين عن سنجق الاسكندرونة للاتراك ، وعدم تصديق الفرنسيين على المعاهدتين اللتين كانتا قد عقدتا مع

سورية ولبنان سنة ١٩٣٦ ، وبصفة خاصة محنة العرب في فلسطين – كل هذه نفّرت العرب من الحلفاء . غير ان وجود جيوش الحلفاء بكثرة في أقطار البحر المتوسط الشرقية جعل انتفاض العرب أمراً أقرب الى المغامرة منه الى العمل الايجابي المدروس . ومهما يكن من امر فان ذلك لم يمنعهم من اتخاذ موقف سلبي من مجهود الحلفاء الحربي . وقد زادت الضائقة الاقتصادية التي حلّت بالمنطقة خلال الاشهر الاولى من الحرب مخاوف العرب واعادت إلى أذهانهم شبح المجاعات التي نزلت بهم خلال الحرب العالمية الاولى .

وعندما سقطت فرنسة في سنة ١٩٤٠ أعلنت السلطات الفرنسية انها مصممة على « حمل رسالتها في شرقي المتوسط » . وأوضح البريطانيون انهم « لا يستطيعون السماح باحتلال سورية ولبنان من قبل أية دولة معادية أو باستخدامها قاعدة لأعمال العدو » . وكان سواد الشعب متلهفاً إلى التخلص لا من الفرنسيين فحسب ، بل ومن كل سيطرة اجنبية أيضاً . وبانسحاب الفرنسيين من جمعية الامم في ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، اعتبر الشعب بأن الاساس القانوني لحكومة الانتداب قد زال .

وفي هذه الاثناء كانت الازمة الاقتصادية تزداد خطورة ، بينما كانت قلة المواد الغذائية الاساسية واخفاق السلطات في ايقاف الاستغلال تعمل على خلق قلق لم يلبث ان ساعد على قيام حركة سياسية تطالب باقامة حكومة وطنية في الحال . وكانت السلطات الفرنسية عاجزة ، وخاصة لأن المركز الحقيقي للحياة السياسية في سورية بل وفي ديار العرب كان في بغداد . فمنذ الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) التي اسهمت فيها البلدان العربية المجاورة بالمساعدات المادية والمعنوية ظل الاعتقاد سائداً بأنه لا يمكن حل المشكلات التي كانت تقض مضاجع العرب وتقلقهم الا بتوحيد الكلمة والجهود بزعامة العراق الذي كان يتمتع بحرية في العمل أكبر مما كانت تتمتع به الدول العربية الاخرى . كما انه كانت لدى العراق نواة

لجيش مدرب . وقد قوي هـــذا الاعتقاد بتأثير عشرات من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين الذين كانوا يعملون في حكومـــة العراق معلمين وموظفين في الادارة المدنية ، وبتأثير عدد من المنفيين السياسيين الذين لجأوا الى العراق خلال السنوات الاولى من الحرب . ومهما يكن من امر ، فان التطورات في سورية اثارت مخاوف السلطات البريطانية في العراق ، وقد يكون لهذه المخاوف اثر في قيام نوري السعيد ، وزير خارجية العراق آنئذ وحليف بريطانيا المحنك ، بزيارة الى انقرة وبيروت ودمشق وببيانه الذي أصدره على اثر هذه الزيارة ان الحكومتين التركية والعراقية تعتقدان ان سورية للسوريين وانها يجب ان تظفر باستقلالها .

العراق : وقد جاءت اول محاولة للتخلص من السيطرة الاجنبية من العراق على يد رشيد عالي الكيلاني ، أحد رؤساء الوزارات السابقين والوطنيين المتشددين . وقد رفع رشيد عالي لواء الثورة عقب انقلاب قام به لمصلحته عدد من رؤساء الاقسام في الجيش في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٤١ . وشجعه على الثورة ما لحق بالانجليز من هزائم طوال سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤١ ، ووعود الالمان بالمساعدة المادية . وقد كسبت ثورته تأييداً واسعاً من معظم القوميين ولكنها لم تظفر الا بمساعدة فعلية ضئيلة . ثم ان المساعدة الالمانية المنتظرة لم تصل في الوقت المعين . ولذا فقد سحقت الثورة، وعادت الحياة السياسية في العراق الى سابق عهدها . وعلى الرغم من ان الامر استتب للحلفاء مرة اخرى ولم تقع في العراق حوادث تعرقل مجهودهم الحربي طوال مدة الحرب [١] ، فان البلاد كانت اشبه بالبركان الذي يسكن بعد ثورته ولكنه لا يخمد . وقد وضع الحلفاء حاميات كبيرة العدد من البريطانيين وجنود المستعمرات والبولونيين في المواقع الستراتيجية الحساسة في المنطقة لتصد الاخطار الداخلية والخارجية عنها . واصبح ميناء البصرة مركزاً هاماً يتلقى المساعدات الحليفة المقدمة لروسية بموجب قانون الاعارة والتأجير .

---

١ – في ١٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٣ ، اعلنت حكومة العراق الحرب على المانية وايطالية واليابان .

سورية ولبنان : وقد ادت الثورة العراقية المخفقة بصورة غير مباشرة الى قيام الحملة البريطانية على سورية ولبنان ، والى اخراج ادارة حكومة فيشي من حوض البحر المتوسط الشرقي . فقد وضعت سلطات حكومة فيشي خلال الاضطرابات في العراق مطارات البلدين تحت تصرف الطيران الالماني وأمدّت الثورة العراقية بالذخيرة التي كانت تشحن في السكك الحديدية وتنقل بواسطتها الى الثوار . وكانت بريطانية قد حذرت من انها لن تسمح بأن تصبح المنطقة قاعدة لعمليات العدو الحربية . وبعد ان اصدر الجنرال كاترو بلاغاً باسم الجنرال ديغول يكفل حرية سورية ولبنان واستقلالها ويعد باجراء مفاوضات بعقد معاهدة تحقق ذلك الغرض، زحف جيش مشترك من البريطانيين والفرنسيين الاحرار على المنطقة . وقد ربط البريطانيون أنفسهم بهذه الوعود ، وأكد البريطانيون والفرنسيون الاحرار على ان مهمتهم الاولى هي انهاء حكومة الانتداب في البلدين . وبدأت الحملة زحفها في ٨ حزيران (يونية) وانتهت منه في أواسط تموز (يولية) ١٩٤١ ، وعادت مسؤولية الادارة في سورية ولبنان الى الفرنسيين الاحرار، ولكن السلطة العسكرية العليا بقيت في ايدي البريطانيين . واقيمت في كل من البلدين حكومة صورية ، واعلنت السلطات الفرنسية الحرة مرة اخرى استقلال البلدين [١] . لكن على الرغم من هذه التصريحات ، فان السلطات الفرنسية الحرة لم تبد اية رغبة في اعادة الحياة الدستورية الى البلاد او في نقل السلطة الى ايدي السوريين واللبنانيين . وصرح الجنرال ديغول في اثناء زيارته للمنطقة بأن الوقت لم يحن بعد لاجراء الانتخابات . فازداد السخط في البلاد ومال السكان ، بتشجيع من الحكومة الفرنسية الحرة على الارجح، الى القاء اللوم على عاتق بريطانية وحسبانها مسؤولة عن كل ما كانت تنوء تحته البلاد من شدة وضيق .

واجتذبت الازمة الاقتصادية في هذه الاثناء اهتمام السكان مرة اخرى .

١ ـ اعلن استقلال سورية في ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ، واستقلال لبنان في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ .

فشكلت لجنة مختلطة من البريطانيين والفرنسيين الاحرار والسوريين واللبنانيين لمجابهة مشكلات تموين المنطقة بالقمح ، وصد الناس عن تخزين المواد الغذائية ، وايقاف التضخم المالي . الا ان عدم اعتياد السكان الاشراف الحكومي عرقل مهمة اللجنة .

وفي اوائل سنة ١٩٤٣ قررت فرنسة الحرة اخيراً ان تعيد الحياة الدستورية الى كل من البلدين . فأقامت في كل منهما حكومة موقتة لتتخذ التدابير اللازمة لاجراء الانتخابات . وجرت الانتخابات في سورية في تموز (يولية) واسفرت عن فوز الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة . ولكن الانتخابات في لبنان تأخرت بسبب الاختلاف على توزيع المقاعد البرلمانية بين الطوائف المختلفة ، ولم تجر حتى تم الاتفاق عليها . وقد قام ائتلاف بين المسلمين وجماعة من المسيحيين ادى الى هزيمة الكتلة الموالية للفرنسيين ، والى قيام مـــا عرف ، منذ ذلك الوقت « بالميثاق الوطني »[١] ، الذي يصبـــح المسلمون بموجبه شركاء للمسيحيين اخوانهم في لبنان مستقل لن يسمح لنفسه بأن يكون « للاستعمار مقراً او للاستعمار ممراً » .

ولم يخف على احد من القوميين ان النصر الذي كسبوه ما هو الا بدء الصراع في سبيل استكمال شروط الاستقلال والسيادة الوطنية . فقد كانت رحى الحرب لا تزال دائرة ، واقتضت الحرب ان يبقى الدفاع عن المنطقة في ايدي الحلفاء ، وفرض عدد من القيود اعتبرت بحكم الحال ضرورية. وهذه القيود هي « المصالح المشتركة » ، كادارة الجمارك والاشراف على شركات الامتياز ، « والامن العام » ، « والفرق الخاصة » ، والسيطرة على

---

١ ـ مثل المسلمين والقوميين والمتطرفين في هذا الاتفاق رياض الصلح ومثل بشارة الخوري فيه المسيحيين الذين اصبحوا يعتقدون انه اذا اريد للبنان حياة مستقرة في ظل الاستقلال فلا بد من قيام شركة بين العناصر الاسلامية والمسيحية . وكان على المسلمين ، بموجب هذا الاتفاق ، ان يكفوا عن التطلع الى الاتحاد مع سورية ، بينما كان على المسيحيين ان ينبذوا الالحاح على الوجود الفرنسي في البلاد والاعتماد على « الحماية » الفرنسية . ولم يكن « الميثاق » هذا وثيقه مدونة بل تفاهما شفويا غير مدون بين الزعيمين .

البدو ومراقبة المطبوعات . واهم من هذه كلها القيود التي فرضها المفوض العام لحكومة فرنسة الحرة على السلطة التشريعية في البلاد باستبقائه حق التشريع بواسطة مراسيم ، والتحفظات العامة التي اشتمل عليها كل من الدستورين السوري واللبناني والتي خولت السلطة الفرنسية حق نقض اي تشريع لا يوافقها .

فقامت الحكومة اللبنانية الجديدة ، دون تردد او تأخير ، بتعديل الدستور اللبناني بحيث اخرجت منه المواد التي تحد من سلطة البرلمان التشريعية والتي تمنح السلطات الفرنسية حق النقض . واتخذ رئيس الوزراء اجراء آخر لا يقل عن تعديل الدستور خطورة بل ربما كان اعظم شأناً وابعد اثراً ، وهو اصدار مرسوم في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤٣ ينص على جعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية الوحيدة [١] .

واستولى الذعر على الفرنسيين . وإذ فشل جان هليو ، مندوب المفوض الفرنسي العام، الجنرال كاترو ، في الضغط على الحكومة الجديدة لاعادة السلطة ، تصرف على الطريقة الاستعمارية الفرنسية الخاصة ، فاعتقل صباح ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، كل من وجد من اعضاء الحكومة اللبنانية، بما فيهم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وزجهم في سجن قلعة راشيا . وفي الوقت نفسه ، اصدر عن المفوضية العامة منشوراً مؤرخاً في ١٠ تشرين الثاني(نوفمبر) (اليوم السابق) ، علق فيه الدستور وحل البرلمان وعين اميل اده رئيساً للدولة . وكان رد الفعل فورياً وعنيفاً في لبنان وسائر الاقطار العربية. وقامت على اثر ذلك ثورة دامت ثلاثة عشر يوماً [٢] ، اطلق في نهايتها

---

١ ـ صوت الاحرار ، عدد ٥٠٥٨ ـ ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) . انظر ايضا : منير تقي الدين، ولادة استقلال (بيروت ١٩٥٣) ، ص ٣٦ـ٣٧ .

٢ ـ تجد وصفا لهذه الحرب لشاهد عيان في الكتاب السابق ، ولادة استقلال ، وكان مؤلفه احد القادة الثلاثة للحرس الوطني الجديد . راجع ايضا :
Mary Borden (Lady Spears), Journey Down a Blind Alley (London 1947) ; General Catroux, La Bataille de la Mediterranée, Egypt-Levant-Afrique du Nord, 1940-1944 (Paris 1949).

سراح أعضاء الحكومة الشرعية واعيدوا الى مناصبهم . واستعادت سورية ولبنان استقلالها بمساعدة الولايات المتحدة الامريكية وبريطانية وبفضل الموقف الحازم الذي وقفته الامم المتحدة . وقد كانت العلاقات البريطانية الفرنسية ، بصورة دائمة سبباً من الاسباب التي تعمل على تعقيد الامور. غير انهما انفقتا أخيراً وانتهى اتفاقهما الى تحرير سورية ولبنان من جميع آثار الاحتلال الأجنبي ، في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ في سورية ، وفي ٣١ كانون الاول (ديسمبر) من السنة نفسها في لبنان .

فلسطين : واسدلت الحرب العالمية الثانية ستاراً محكماً على فلسطين . وقد وجه الصهيونيون الى رئيس وزراء بريطانية ، بواسطة الدكتور وايزمان ، رسالة يؤكدون فيها على ولاء اليهود في فلسطين . وعلى الرغم من خيبة الامل التي مني بها اليهود بسبب الكتاب الابيض الذي نص على الحد من الهجرة اليهودية الواسعة الى فلسطين وايقافها بالكلية بعد خمس سنوات ، فلم يكن في وسع الصهيونيين على الارجح ان يتخذوا موقفاً آخر بالنظر الى الفواجع التي حلت بهم على ايدي النازيين في المانية . وقد عبر دافيد بن غوريون عن موقف الصهيونيين عندما اوصى اليهود في فلسطين ان «يشتركوا في الحرب كما لو انه لم يكن هناك كتاب ابيض، وان يحاربوا الكتاب الابيض كما لو انه لم تكن هناك حرب» . وكانت النتيجة ان تطوع ما لا يقل عن ١٣٦٠٠٠ يهودي للخدمة الحربية قبل تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٣٩ . واخذت السلطات الصهيونية في فلسطين وفي الخارج ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، تطالب باعتبار هؤلاء المتطوعين جيشاً يهودياً قومياً ، كما طالب وايزمان بتشكيل لواء يهودي . ومن الواضح انه لم يكن في وسع بريطانية ان تسمح بهذا دون ان تثير مخاوف العرب ، ولذلك سمحت بتأليف ست فرق ، ثلاث منها يهودية وثلاث منها عربية عرفت باسم «الفرق الفلسطينية» .

ولم يبد العرب حماسة للحرب ، ولم يصدر عنهم ما يؤكد ولاءهم

لاسباب منها ان الشخص الوحيد الذي كان يستطيع اصدار مثل هـــذا التأكيد ، وهو مفتي القدس الحاج أمين الحسيني ، كان منفياً . ومع هذا فقد نشرت احدى الجرائد العربية الكبرى في فلسطين ، وهي « جريدة فلسطين » ، مقالاً افتتاحياً في الايام الاولى للحرب جاء فيه انه ينبغي الا تقوم قلاقل في البلاد خلال الحرب ، كما ان عدداً من الزعماء العرب زاروا المندوب السامي في فلسطين واكدوا لـــه ولاءهم . وزادت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق واخفاقها في سخط العرب وكان لها أثر بعيد في جعل موقفهم من الحلفاء سلبياً الى اقصى حد .

وإذ اشترك الصهيونيون في المجهود الحربي فقـــد تمكنوا من خلق نواة جيش قدر له ان يقدم لهم خدمـــة كبرى في المستقبل . وقامت الوكالة اليهودية في فلسطين ، تحت ستار التعاون مع البريطانيين ، بتأليف جيش سري ، وأشرفت على تنفيذ « سياسة منظمة تقضي بالحصول على السلاح والذخيرة عن طريق السرقة والغش والرشوة من المخازن البريطانية في الشرق الاوسط » [١] . ولقد ثبت ان السياسة السلبية التي اتبعها العرب كانت قصيرة النظر ، باهظة التكاليف . غير انه لم يكن في وسعهم ان يفعلوا غير ذلك ، ومن العسير ان نقطع فيما اذا كانت بريطانية مستعدة لتشجيعهم على التطوع بالنظر الى الظروف القـــائمة آنئذ في مختلف الاقطار العربية .

كانت هذه السنوات، بالنسبة الى العرب واليهود على السواء ، وبالنسبة الى اليهود بصفة خاصة ، سنوات تمهيدية للصراع المصيري الخطير . غير ان الظروف المواتية كانت كلها الى جانب اليهود . فقد تمكنوا ، بفضل من تشجيع المنظمات الصهيونية (اليهودية وغير اليهودية) في جميع انحاء العالم ، وتغاضي الدولة المنتدبة عنهم ، واستقتال صادر عن تعصب وحقد ،

---

١ ـ انظر : George Kirk, The Middle East in the War (London 1952) pp. 13-14.

من ان يتفوقوا على العرب من حيث التسلح والتنظيم . أما العرب فقد حاولوا ان يتريثوا حتى نهاية الحرب قبل الاقدام على شيء ايجابي، ولذا تخلفوا في سباق يتوقف على نتيجته مصيرهم القومي . فقد استسلموا الى الاعتماد على ايمانهم بقوة قضيتهم المعنوية ، وغلّ يدهم صراعهم ضدّ حكومات الانتداب المتعاقبة ، وقصم ظهرهم بطش الدولة المنتدبة الذريع بثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، وحرمت مجالسهم من تدبير زعامة ابعدتها عن ميدان العمل القومي مصائب السجن والتشريد والنفي، وسيطر عليهم وهمٌ علّلهم بأنهم يستطيعون ان يقفوا في أثناء الحرب موقف المتفرج . وفي النهاية جابه العرب الازمة دون اقل استعداد حتى النفساني منه ، وزادهم ضعفاً على ضعف انقسامهم على انفسهم في فلسطين وخارج فلسطين .

الجزيرة العربية : وكانت الاحداث التي توالت على شبه الجزيرة العربية في عهد عبد العزيز بن سعود بعد سنة ١٩٢٦ ، كما ورد سابقاً ، باستثناء اخضاع ثورة الدويش في سنة ١٩٣٠ واكتشاف البترول في مقاطعة الاحساء في العقد الرابع من هذا القرن ، قليلة الشأن لا تقاس بالاحداث التي ابتدأت باحتلال الرياض سنة ١٩٠٢ وانتهت باخراج الهاشميين من الحجاز في سنة ١٩٢٦ . ومهما يكن من امر فان الحرب العالمية الثانية فرضت بعض القيود الخطيرة على اقتصاديات المملكة العربية السعودية ، فقد تقلص مورد الدخل السنوي من الحج الى مكة أولاً ، وازدادت العزلة الاقتصادية احكاماً بسبب من نقص في انتاج بضائع الاستهلاك عـامة وانصراف المراكب التجارية إلى نقل المعدات الحربية ثانياً . وقامت الولايات المتحدة الامريكية بتقديم مساعدة مالية لهـا ، بواسطة بريطانية في بادىء الامر (وذلك لأن المملكة العربية السعودية لم تكن عندئذ من البلدان التي ينطبق عليها قانون الاعارة والتأجير ، ولأن بريطانية كانت تعتبر المنطقة «حرماً» خاصاً بها) ومباشرة بواسطة قانون الاعارة والتأجير بعد شباط (فبراير) ١٩٤٣ . وكانت المنافسة البريطانية الامريكية قبيل نهاية الحرب في سبيل السيطرة على

ينابيع البترول في الجزيرة العربية سبباً في فتور الصداقــة التقليدية بين البلدين . ولكن لما كانت بريطانية تعتمد في احراز النصر والبقاء على المساعدات الامريكية رضخت أخيراً للامر الواقع ، ودخلت الولايات المتحدة الميدان السياسي في الشرق الادنى في سبيل مصالح محسوسة خاصة ومسؤوليات خطيرة لم تكن قد اكتسبت بعد من الخبرة السياسية والحنكة ما يؤهلها لتحملها . وقد كانت الفترة بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية فترة طغى فيها البترول وتدفق المال دون حساب .

مصر : وكانت مصر عند نشوب الحرب العالمية الثانية مرتبطة بشروط المعاهدة المصرية البريطانية التي عقدت سنة ١٩٣٦ . وبادىء ذي بدء قامت مصر بجميع تعهداتها وفقاً لنص المعاهدة وروحها . غير ان مصر كانت لا تزال تصبو إلى استكمال سيادتها الوطنية ان في منطقة القناة او في السودان. وكان على رأس الوزارة رجل عرف بالمقدرة والحزم هو علي ماهر . ويظهر انه اراد ان يغتنم فرصة الحرب لتعزيز الاستقلال المصري وعدم المجازفة بالمصلحة المصرية فيما اذا كان النصر في الحرب من نصيب المانية النازية . وازداد حذره عندما أعلنت ايطالية الحرب على الحلفاء وابى ان ينساق مع السياسة البريطانية فاكتفى بقطع العلاقات مع ايطالية (١٢ حزيران،يونية ١٩٤٠) واكد بواسطة قرار أقره البرلمان وابلغه الى الحكومة الايطالية ما يلي :

١ ــ إن الحكومة المصرية ستقوم بجميع تعهداتها تجاه حليفتها بريطانية وتقدم لها ضمن الاراضي المصرية كل مساعدة وكل وسيلة قد تطلبها .

٢ ــ إن مصر لن تشترك في الحرب إلا إذا تعرضت لهجوم من قبل ايطالية على شكل :

(ا) غزو ايطالي للأراضي المصرية

(ب) ضرب المدن المصرية من قبل المدفعية الايطالية

(ج) تعرض المنشآت المصرية لغـــارات السلاح الجوي الايطالي .

وعلى الرغم من ان منطقة السلوم تعرضت في ١٧ حزيران (يونية) لغارات الطائرات الايطالية، فقد اعتبر علي ماهر الاعتداء حادثاً من حوادث الحدود يمكن تسويته بالوسائل الدبلوماسية. وفي التاسع عشر من حزيران (يونية) ابلغ علي ماهر البرلمان المصري ان الجيوش المصرية قد سحبت إلى بضعة أميال من الحدود حتى لا تضطر إلى الاشتباك في حرب قبل أن يتسنى للحكومـــة والبرلمان أن يتخذا قراراً من هذا القبيل . وقد قوبل تصريح رئيس الوزراء بعاصفة من التصفيق ولاقى قبولاً اجماعياً منه . غير ان هـــذا الحذر وهذه السياسة شبه الحيادية وعدم تحمس سواد الشعب لقضية الحلفاء ، وعطفهم الظاهر على الالمان والطليان ، حركت السلطات البريطانية إلى الضغط على الملك لتبديل الحكومة . وقبل الملك استقالة علي ماهر في ٢٣ حزيران (يونية) وحلّ محلّه حسن صبري . وتعاون حسن صبري مع بريطانية الا ان الرأي العام استمر في بحث موقف مصر من الحرب وهل يجب ان تشترك فيها فعلياً الى جانب الحلفاء أو تحافظ على شبه حياد وفي الوقت نفسه تقوم بتعهداتها وفقاً للمعاهدة المصرية البريطانية . وتوفي حسن صبري بنوبة قلبية فاجأته وهو يلقي خطاب العرش في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) وحلّ محله حسين سري . واتبع سري سياسة تتصف بتعاون أكبر مع بريطانية الا انه لم يكن قوياً ولم يستطع ان يستند إلى أكثرية برلمانية أو شعبية . وازدادت متاعب الحلفاء بازدياد الضغط الالماني الايطالي في حرب الصحراء. وزاد الطين بلة قيام الثورة العراقية في نيسان (ابريل) ١٩٤١ فأقدمت الحكومة المصرية من قبيل التحسب بفرض الاقامة الجبرية على علي ماهر ولاحقت غيره من الشخصيات المصرية . غير ان سواد الشعب بقي غير متحمس لقضية الحلفاء وشعر البريطانيون ان الامر لن يستقر لهم ما لم يتسلم زمام الحكم رجل يستطيع ان يفرض وجوده على الشارع وتثق به أكثريـــة

الشعب . فاتجهوا بأنظارهم إلى الوفد ، حزب الاكثرية الساحقة في البلاد منذ أيام سعد زغلول ، وإلى زعيمه آنذاك ، مصطفى النحاس . وتردد الملك في قبول النحاس رئيساً للوزارة . فما كان من السفير البريطاني إلا ان اقتحم صباح الرابع من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٢ ، قصر عابدين مصحوباً بالدبابات ووجه انذاراً إلى فاروق بقبول النحاس رئيساً للوزارة أو التنازل عن العرش . وكان لهذه الحادثة أثرها البعيد في مجرى الحوادث في مصر وفي سجل كلٍّ من الملك والنحاس والبريطانيين انفسهم .

وتعاونت حكومة النحاس مع بريطانية تعاوناً وثيقاً وأدت مصر للحلفاء خلال الحرب خدمات لا يستهان بها . « فقد حافظت القوات المصرية على الأمن في الدلتا ، وحمت كثيراً من المواقع السّتراتيجية والمستودعات الحربية ، وبرهنت بجميع الطرق على نجاحها في حماية ارض الدلتا الخصبة من عدوان الغزاة الاجانب » . كما حافظت مصر على ثباتها واخلاصها لقضية الحلفاء حتّى عندما كانت قوات المحور في العلمين على مسافة سبعين ميلاً من الاسكندرية . غير ان حادث ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ كان نقطة التحول في حياة ملك كان حتّى ذلك الوقت محط آمال شعبه ، وفي حياة زعيم شعبي كان يتمتع بثقة أكبر أكثرية شعبية تيسرت حتّى ذلك الوقت لسياسي مصري على الاطلاق ، وفي حياة شعب طالما تاقت نفسه الى الكرامة القومية . واذ رضخ الملك للتهديد أمعن في الانصراف الى اللهو والعبث يتحين الفرصة للتخلص من الوفد ورئيسه ، واستسلم النحاس بعد ان قبل ان يصل إلى رئاسة الوزارة عن طريق فوهة المسدس البريطاني وعلى ركام الكرامة الوطنية إلى جشع بطانته ، وأخذ الشعب بعد ان جرحت كبرياؤه القومية يترقب الفرصة للتخلص من الجالس على العرش ومن الحاكم بسيف العدو وأخذت الفكرة تتبلور لديه ان مصر لن تستكمل سيادتها الوطنية وتتخلص من السيطرة البريطانية إلا بعد ان تتخلص من الملك ومن الوفد على السواء لأن كلا منهما أضحى مداناً باهماله وبأعماله .

واستمر النزاع الصامت بين الملك والوفد. وحاول الملك في اواسط سنة ١٩٤٣ ان يقيل النحاس ، غير ان السفير البريطاني استخلص من وزارة الخارجية البريطانية الصلاحية ليتدخل ، اذا اقتضى الامر ، ثانية لمصلحة النحاس كما سبق وفعل في ٤ شباط (فبراير)١٩٤٢ ، وانصرف كل من الملك والنحاس في سباق لكسب شعبية اكبر فزارا ، كل على حدة ، الاقاليم، واستغل النحاس المراقبة القائمة في اثناء الحرب والسلطات التي آلت اليه بصفته حاكم البلاد العسكري لخنق صوت المعارضة وزج المعارضين في السجن . واخيراً اغتنم الملك غياب السفير البريطاني واقال في ٨ تشرين الاول (اكتوبر)١٩٤٤ النحاس واحل مكانه احمد ماهر على رأس وزارة ائتلافية من جميع الاحزاب ما عدا الوفد . وإذ ترامى الى مصر ان الحلفاء رضخوا في مؤتمر يالطة(٤–١١ شباط ،فبراير ١٩٤٥)لارادة روسيا وقرروا الا يشترك في مؤتمر سان فرانسيسكو العتيد(٢٥نيسان،ابريل) ويصبح من الاعضاء المؤسسين لمنظمة الدول المتحدة الا الدول التي قد اعلنت الحرب على المحور قبل ١ آذار(مارس) ١٩٤٥، اقدم احمد ماهر في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٥ في جلسة سرية للبرلمان على طلب موافقة النواب على اعلان الحرب. واذ خرج من مجلس النواب قاصداً مجلس الشيوخ ليطلب موافقته ايضاً تصدى له محام شاب قيل انه ينتمي الى حزب مصر الفتاة واطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً، وخلفه في رئاسة الوزارة محمود فهمي النقراشي . وكان اغتيال احمد ماهر الحلقة الاولى في سلسلة من الاغتيالات السياسية التي اجتاحت مصر بين سنة ١٩٤٥ والثورة المصرية الكبرى في ١٩٥٢ ، وبدء حملة منظمة ضد « الخونة » من المصريين . فقد كانت ثورة ١٩١٩ موجهة ضد البريطانيين أما « ثورة » ١٩٤٥ فقد استهدفت تلك العناصر المصرية التي اعتبرت مسؤولة عن الاسهام في اذلال الوطن [١] . وقد برزت في الميدان السياسي في ذلك الوقت ، وبعد اقالة النحاس في ١٩٤٤ على وجه التحديد ،

---

١ – راجع : Tom Little, EGYPT (London 1958), p. 164.

جمعية الاخوان المسلمين التي كان قد اسسها في الاسماعيلية سنة ١٩٢٨ الشيخ حسن البنا .

البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية حتى الثورة المصرية الكبرى ١٩٥٢

على الرغم مما عاناه العالم العربي خلال سنوات الحرب العالمية الثانية من صعاب ، فقد جنى منها بعض الخير . فمنذ اوائل اليقظة العربية في أواسط القرن التاسع عشر اخذت تداعب العرب فكرة غامضة وعلى شيء كثير من الرومانطيقية . فقد جالت في اذهان بعض المفكرين العرب (وقد تأثروا بفورة القومية في اوروبة) خواطر استهدفت تحرير الوطن العربي من نير العثمانيين وتوحيده في دولة عربية كبرى . وقويت هذه الفكرة لدى الخاصة ولا سيما في الحجاز واقطار الهلال الخصيب بعد الثورة العربية الكبرى . وقبل ان تقوى النزاعات الشخصية والاقليمية على تفكيك عرى ذلك الشعور بالوحدة ، كانت فرنسة وبريطانية قد قامتا بتمزيق البلاد شر ممزق وبفرض حدود مصطنعة على أهلها بالقوة سنة ١٩٢٠ . واكتسبت هذه الفكرة الغامضة بعض الوضوح . وحين ارتفع كابوس الاتراك وحل محله كابوس الحلفاء ، تحولت هذه الفكرة القومية الناشئة ، بطبيعة الحال ، الى مناوأة السيطرة الاجنبية الجديدة . وكان اعظم الداعين اليها نشاطاً عرب الهلال الخصيب حيث كان الوعي السياسي اقوى منه في أي جزء آخر من البلاد العربية على الرغم من ان التفريق بين هذه الفكرة القومية وبين فكرة الجامعة الاسلامية بقي الى حد ما صعباً حتى في الهلال نفسه . وازداد التقارب بين اقطار الهلال الخصيب في الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين (الاولى والثانية) نتيجة لتقدم المواصلات واصطناع

السيارات والطائرات للربط بين اجزائها وبسبب من اشتراك الاقطار كلها في الصراع ضد دولتي الانتداب [١] . وكان لمصر – كما ذكرنا سابقاً – مشكلاتها الخاصة واتبعت في تطورها السياسي منذ أوائل القرن التاسع عشر طريقاً منفرداً ، ولذلك لم تشترك في بادىء الامر في مثل هذه الاحلام العربية ولم تشجعها .

الجامعة العربية : وفي ٢٩ ايار (مايو)١٩٤١ ، أي بعد اخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني وهربه من بغداد بيوم واحد ، وقبل زحف الجيش البريطاني التاسع على سورية ولبنان ٨ حزيران (يونية) لانتزاعها من حكومة فيشي باحد عشر يوماً ، ألقى انطوني ايدن ، وزير خارجية بريطانية آنذاك ، بياناً جاء فيه :

« بين هذه البلاد وبين العرب صداقة تقليدية عريقة أثبتت قيامها الافعال لا الاقوال ... ذكرت قبل بضعة ايام في مجلس العموم ، بأن حكومة جلالته تعطف عطفاً كبيراً على آمـــال السوريين في استقلال بلادهم ... إن كثيرين من مفكري العرب يرغبون في ان تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة اكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن . وهم يأملون منا المعاضدة في بلوغ هذه الوحدة ، ولا يجوز لنا ان نغفل أي نداء يوجهه الينا اصدقاؤنا في هذا الصدد . ويبدو لي من الطبيعي ومن الحق ان تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية ، والروابط السياسية أيضاً بين الاقطار العربية . وستعاضد حكومة جلالته ، معاضدة تامة ، أي مشروع ينال الموافقة العامة » [٢] .

---

١ – كانت بريطانية اول دولة استعمارية اعترفت رسميا بهذا الاتجاه عندما دعت ، سنة ١٩٣٩ ، الدول العربية الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن .

٢ – راجع : The Times, May 30. 1941 ، ايضا يوسف هيكل ،نحو الوحدةالعربية، دار المعارف (مصر ١٩٤٥) ، ص ٥٥ .

لم يكن هناك ما هو اقوى من هذا البيان ، المنزه عن الغرض في الظاهر ، على التخفيف من مرارة الشعور لدى القوميين العرب على اثر اخفاق الثورة العراقية في انتزاع أي ربـــح لقضية العرب الاستقلالية . فقد أمد هذا البيان الصحافة العربية بمادة غير انبـــاء الهزيمة تبرزها في عناوينها الضخمة . وقد أعلن البيان للسوريين ان بريطانية « تعطف عطفاً كبيراً على آمالهم في الاستقلال » ، كما انه جاء انذاراً لمصر بأن زعامتها للعالم العربي قد تتعرض لخطر كبير إذا قام اتحاد بين اقطار الهـــلال الخصيب . وقد دفع هذا ، خلال السنوات الثلاث التالية ، مصر إلى الانهماك بأمر زعامتها العربية وكاد أن يصرفها عن متابعة قضية الاستقلال . وبعد ما يقرب من سنتين ، كرر ايدن في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٣ [١] الفكرة نفسها في مجلس العموم البريطاني ، وأضاف بأن الخطوة الاولى في سبيل هذه الوحدة يجب ان تأتي من جانب العرب أنفسهم ، فجاءت ، بالفعل من قبل المصريين على الرغم من انهم كانوا آخر من سار في قافلة القومية العربية . وكان رئيس وزراء مصر ، الذي فرضه البريطانيون على الملك ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ بسبب ظروف الحرب ، قد حاول ان يضع مصر على رأس الحركة القومية العربية في خطاب القاه في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ [٢] وذلك خشية ان تنتقل الزعامة ، نتيجة للاهمال ، الى العراق . وبعد ان القى ايدن بيانه الثاني ، أخذ النحاس على عاتقه « مهمة استطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة والتقريب بين آرائها قدر المستطاع » [٣] .

وقام رئيس وزراء مصر بجس نبض الحكومات العربية واحدة فواحدة،

---

١ – انظر : Hansard, British Parliamentary Debates, (House of Commons), 5th ser., vol. 387, co. 1139.

٢ – الاهرام ، ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ وسائر الجرائد المصرية للتاريخ نفسه .

٣ – هيكل ، نحو الوحدة العربية ، ص ٩٧–٩٨ .

فبدأ بالعراق في ٣١ تموز (يولية) ١٩٤٣ وانتهى باليمن في ٦ شباط (فبراير) ١٩٤٤ [١] . ووجهت الدعوة عقب ذلك إلى الحكومات العربية، فاجتمع ممثلوها في الاسكندرية في ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٤ . وكانت ثمرة اعمال هذه « اللجنة التحضيرية» توقيع «بروتوكول الاسكندرية» الذي صدر في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) من السنة نفسها واقترح تأسيس جامعة الدول العربية . واستحالت آمال الدول العربية التي تضمنها البروتوكول ، بعد ان اعمل فيها وزراء خارجية الدول العربية ثاقب رأيهم ، إلى ميثاق جامعة الدول العربية الذي صدر في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٥ . وكانت قد وقعت بين هذين التاريخين أمور كثيرة عملت على تغيير اتجاه السياسة العربية . « فبينما هدف البروتوكول إلى التنازل تدريجياً عن السيادة الوطنية ، فان الميثاق شدد على الاحتفاظ بها » . والواقع انه عندما حاول المعنيون وضع الآمال العربية الغامضة في الوحدة موضع التحقيق اصطدموا بعقبات كان من العسير التغلب عليها . من هذه العقبات القوميات الشظايا التي اوجدتها تسوية ما بعد الحرب العالمية الاولى والتي كانت قد اصبحت مصلحة قائمـة لبعض العناصر . ومنها عوامل التفرقة العريقة في العالم العربي ، والمنازعات القديمة والحديثة بين الاسر الحاكمة ، واختلاف الاهداف السياسية وتعددها ، والتباين في التطور السياسي ، والتفاوت في التطور الاجتماعي والاقتصادي ، واخيراً التفاوت في التطور الثقافي [٢] . وجاء الاختبار الحاسم المذل سنة ١٩٤٧ ، عندما اخفقت سبع دول عربيـة في الحيلولة دون اقرار مشروع تقسيم فلسطين في هيئة الأمم المتحدة كما عجزت عن ان تحول دون وقوع النكبة الفلسطينية سنة ١٩٤٨ لاسباب اعظمها انها كانت سبع دول . ومنذ ذلك

---

١ ـ المرجع نفسه ، ص ٩٩ . راجع ايضا نشرة جامعة الدول العربية ، ملخص محاضر المشاورات مع العراق . شرقي الاردن . المملكة العربية السعودية . سورية . لبنان . اليمن ، مطبعة فتحي سكر (القاهرة ١٩٤٩) .

٢ ـ راجع نبيه امين فارس ومحمد توفيق حسين ، هذا العالم العربي (بيروت ١٩٥٣) ص ٩١ـ٢٤١ .

الحين فقدت جامعة الدول العربية الكثير من ثقة العرب انفسهم بهـا ، على الرغم من انها خدمت الفكرة العربية بوضعها امـام العرب بشكل عملي ، كما انهـا ادخلت في الوعي العربي الحقيقة التالية : وهي ان مشاكل العالم العربي متشابكة ، وانه لا يمكن حلها إلا بالعمل الجماعي والتعاون الوثيق والوحدة . ومهما يكن من امر « فقد كان قيام الجامعة العربية حلماً رائعـاً من احلام العرب القومية وأملاً حبيباً يسعون الى تحقيقه بشوق وايمان وتصميم . وما فشلت الجامعة العربية نفسها ، وما كانت الفكرة التي قامت عليها فكرة مخطئة ضـالة من نسيج الخيال ، إنما فشل اولئك الذين نفذوا هذه الفكرة حين اقاموها على احقـاد متآكلة ، وعداوات متأصلة وتنافس محتدم بغيض » [١] . وقد عمل هذا كله على زعزعة ايمان كثير من العرب في الفكرة نفسها فانساقوا وراء غيرها من الفكر كما سنرى فيما بعد .

الاستقلال بين الجوهر والخيال

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ، احرزت دولتان عربيتان ، وهما سورية ولبنان استقلالها . وبقيت الاقطار العربية الاخرى مرتبطة ببريطانية وفرنسة بمعاهدات مفروضة تحول دون استكمال السيادة الوطنية . غير ان تأسيس منظمة الامم المتحدة قـوى الامل في ان يحدث تغيير في الجو الاخلاقي السائد في عالم السياسة حيث مـا زال الحق للقوة ، وفي ان يشرق عهد جديد تتعايش فيه الدول الصغيرة والكبيرة جنباً إلى جنب ، « فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبي صغير يسوقها » [٢] . هذه هي الآمال التي جاشت في صدور العرب عند انعقاد مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ .

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
٢ ـ اشعياء ١١ : ٦

وبقي الشعب في سورية ولبنان يكافح متحداً في سبيل التخلص من السيطرة الاجنبية الى النهاية . وما ان برز فجر الاستقلال حتى اضمحلت تلك القوة الموحـــدة التي جمعت كلمته ووجهت جهوده وأعماله ضدّ المستعمر ، ولم يقم مكانها قوة ايجابية تلفه حول العهد الوطني الجديد ، وتدفعه في سبيل القيام بالتبعات التي يتطلبها الاستقلال منه ، والواجبات التي يلقيها على عاتقه ، والامانات التي يفرضها عليه . أما في الاقطار العربية الاخرى التي لم تحصل بعد على استقلالها فقد بقي وطيس الكفاح القومي فيها مستعراً .

نكبة فلسطين

وبينما كانت البلدان العربية المستقلة منهمكة بالاحتفال بوضعها الدولي الجديد ، والبلدان التي لم تنل بعدُ استقلالها تنوء تحت عبء التبعات التي يفرضها الكفاح في سبيل الاستقلال وتحت عبء العقلية السلبية التي ينطوي عليها ذلك الكفاح ، جابه العرب أخطر تهديد تعرضوا له منذ الحروب الصليبية عند نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، عندما عرضت قضية فلسطين على هيئة الامم المتحدة . وقد داهمهم هذا الخطر وهم لا يزالون بعيدين عن النضج السياسي ، ومتخلفين اجتماعياً واقتصادياً ، وغـــير مستعدين للمعركة نفسياً ، وعلى اقل ما يكون من الخبرة العسكرية . وفوق هذا كله فقد كانت تمزق صفوفهم منافسات الاسر الحاكمة والمنازعات الاقليمية .

لقد سبق ان ذكرنا ان بريطانية استخدمت الانتداب على فلسطين لتسهيل تدفق الهجرة الصهيونية ، فتمكن الصهيونيون من الاستيلاء على المناطق الخصبة في البلاد ومن تأسيس مستعمراتهم الزراعية واقامـــة صناعاتهم فيها . وأخمدت الجيوش البريطانية المقاومة العربية والثورات العربية المتتالية على حكومة الانتداب . واخذت السلطات البريطانية تجرد العرب من الاسلحة وفي الوقت نفسه تساعد الصهيونيين على التسلح وتتغاضى

عن الاعمال الارهابية التي كانت تقوم بها العناصر المتطرفة منهم حتى عندما كانت هذه الاعمال تستهدف البريطانيين أنفسهم . واتخذت الحكومة البريطانية من الضغط الامريكي الرسمي ذريعة لالقاء المسؤولية كلها على باب هيئة الامم المتحدة الحديثة العهد ، فطلبت في ٢ نيسان (ابريل)١٩٤٧ ، ان تعقد الجمعية العامة جلسة خاصة لبحث القضية ، وأعلنت عزمها على التخلي عن الانتداب . وكانت النتيجة محتمة . ففي ٢٩ تشرين الثاني(نوفمبر)من السنة نفسها اقترع اعضاء الجمعية بأكثرية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ وامتناع ١٠ عن الاقتراع وتغيب صوت واحد على التوصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ، ويهودية تجمع بينهما وحدة اقتصادية . وزيادة في الطين بلة انسحبت بريطانية من فلسطين قبل الموعد المعين (١٥ ايار ، مايو ١٩٤٨) ، وتركت البلاد في حالة فوضى بعد ان عملت طوال سني الانتداب الثماني والعشرين كل ما في وسعها لتحقيق الحلم الصهيوني . وقصة ما حدث بعد انسحاب البريطانيين معروفة . فقد تأسست اسرائيل بمساعدة الولايات المتحدة الامريكية المادية والمعنوية واعترافها واعتراف السوفييت الفوري بها ، وتشرد نحو من مليون لاجيء عربي من بيوتهم . والحق ان العرب لم يواجهوا ، باستثناء الاستعمار ، تهديداً أدهى من قيام اسرائيل . فلأول مرة ، منذ الحروب الصليبية التي أقامت دويلات صغيرة في فلسطين وفي السواحل الشامية ، قامت دولة أجنبية معادية في وسط الوطن العربي ، فحطمت وحدتــه الجغرافية والبشرية ، وهددته بالسيطرة عليه سياسياً واقتصادياً . وإلى جانب هــذا كله تؤلف اسرائيل حليفاً طبيعياً للدول الغربية التي لها في العالم العربي مصالح قائمة ، ومطامح ، إذ تستطيع هذه الدول ، بمساعدة اسرائيل ان تهدد بسهولة أية حركة تحررية تنطلق في أي بلد عربي مجاور[١] .

---

١ ـ هذا ما حدث فعلا في اثناء العدوان الثلاثي على مصر في تشرين الاول والثاني (اكتوبر، نوفمبر) سنة ١٩٥٦ .

ما بعد النكبة حتى الثورة المصرية

وترك الاخفاق الذي منيت به الدول العربية السبع في تجنب الكارثة ، العالمَ العربي مشدوهاً يكاد يرزح تحت وطأة الحيرة والحقد . ولم يدرك فداحة الكارثة وخطورتها إلا قلة من مفكريهم [١] . ومهما يكن من امر ، فان المعنى الحقيقي لهزيمة العرب في فلسطين وخطورة هذه الهزيمة واثرها في مستقبلهم وفي مستقبل الحركة القومية اخذا يبرزان بالتدريج . ويحق لنا ان نقول ان جميع الاحداث التي تعاقبت على العالم العربي منذ ذلك الوقت أتت نتيجة مباشرة او غير مباشرة ، للنكبة الفلسطينية . فقد ناءت امكانات الدول العربية الاقتصادية والادارية بعبء اللاجئين بعد ان بلغ عددهم اكثر من تسعمائة الف نسمة . وكان نصيب سورية ما يقارب ١٠٠,٠٠٠ ، ولبنان ١١٠,٠٠٠ وذلك يزيد عن عشر سكانه عدداً ، والاردن ٥٠٠,٠٠٠ أي اكثر من السكان الاصليين انفسهم ، ومصر ٢٠٠,٠٠٠ في قطاع غزة . ومع ان عدد اللاجئين في المملكة العربية السعودية كان قليلاً ، فان اثرهم فيها ظهر في اول اضراب للعمال عرفته شبه الجزيرة العربية في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ ، وفي محاولتين خطيرتين لقلب الحكومة . وامتد اثر خميرة القلق هذه الى الجيش السعودي وتغلغل في صفوفه وفي صفوف « جبهة الاصلاح » الموالية .

وقد ورث الاردن القسط الاكبر من القضية ولا سيما انه يقف وجهاً لوجه مقابل العدو على طول جبهة يزيد امتدادها عن المائتين وخمسين ميلاً . واذ ترامى إلى الفلسطينيين ان الملك عبد الله يمهد لعقد صلح مع اسرائيل ، أقدم احدهم على اغتياله في ٢٠ تموز (يولية) سنة ١٩٥١ . ومنذ ذلك الحين لم تتمتع البلاد بالاستقرار . اما في سورية فان السخط الذي تولد من اخفاق العرب في حل القضية الفلسطينية كان مثاراً

---

١ ـ كتب قسطنطين زريق اول تحليل للكارثة ، هو حقا افضل تحليل لها ، فلخص في كتابه « معنى النكبة » بيروت ، آب (اغسطس) ١٩٤٨ ، لهذا الجيل وللاجيال اللاحقة المعنى الحقيقي للكارثة وشرح لهم الخطوات العملية التي تساعدهم على التغلب عليها .

لسلسلة من الانقلابات [١] التي قوضت جميع دعائم الحياة الدستورية في البلاد ، وزجت الجيش في السياسة ، وحطمت ثقـة الشعب بجميع الاساليب والاجراءات الديموقراطية . وقد خرجت سورية ، قلب الاقطار العربية ومركز الحركة القومية العربية ، من هذه المحنة تتميز غيظاً من الاخفاق ، وتمزقها الفلسفات العقائدية المتنـازعة ويشل ارادتهـا الشك والحقد .

ومع ان العراق بعيد جغرافياً عن فلسطين فانه لم ينج من اثر الكارثة الفلسطينية ، إذ وقع اقتصاده في ضائقة بسبب قطعه البترول الذي كان يتدفق الى مصافي التكرير في حيفا . وتدهورت حالته الاقتصادية مؤقتاً وازدادت مشكلاته عندما هاجر ١٦٠,٠٠٠ من سكانه اليهود الى اسرائيل وأخذوا معهم القسم الاوفر من ثرواتهم . وزاد تأزم الحالة الاقتصادية وعدم الاستقرار الاجتماعي في السخط والنقمة عند الشعب .

واذ تدفق على لبنان سيل من اللاجئين يفوق عشر اهل البلاد عدداً، فقد شهد في بادىء الامر شيئاً من الرخاء لأن اللاجئين ، بطبيعة الحال صرفوا ما كانوا قد ادخروه . الا ان هذا «الرخاء» كان قصير الاجل لأن اسباباً سياسية حالت دون انصراف القسم الاكبر من اللاجئين الى الاعمال الاقتصادية المثمرة .

وقد امتد اثر النكبة الفلسطينية الى كل قطر عربي تقريباً بصورة

---

١ ـ قام حسني الزعيم بالانقلاب الاول في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ ٠ وقام سامي الحناوي بالانقلاب الثاني في ١٤ آب (اغسطس) من السنة نفسها ٠ وقام اديب الشيشكلي بالانقلاب الثالث في ١٩ كانون الاول (ديسمبر) من السنة نفسها ايضا ٠ وظل الشيشكلي يحكم خلف ستار من الدستورية حتى اواخر ١٩٥١ ، وذلك عندما طرد رئيس الجمهورية وتسلم الحكم مباشرة ٠ وفي حزيران (يونية) ١٩٥٣ اصدر دستورا جديدا ، وفي تموز (يولية) جمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة٠ وفي تشرين الاول (اكتوبر) انتخب رئيسا للجمهورية٠ وفي ٢٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٥٤ سقط واجبر على ترك البلاد على اثر انقلاب آخر واعيد الى كرسي الرئاسة هاشم الاتاسي الذي كان الشيشكلي قد نحاه عنها سنة ١٩٥١ ٠ وفي ٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٥ اعيد شكري القوتلي ، ضحية الانقلاب الاول (١٩٤٩) الى رئاسة الجمهورية بعد ان فاز في انتخابات جرت قبل ذلك التاريخ باسبوعين ٠

مباشرة او غير مباشرة ، حتى إلى اليمن السعيد ، إذ عملاً بسياسة « جمع الشمل » التي يدعو اليها الصهيونيون ، قامت السلطات الصهيونية بتسهيل هجرة الجالية اليهودية التي كانت تقيم في اليمن منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً إلى اسرائيل واستقبلت اليمن كذلك عدداً من الفلسطينيين اشتغلوا في التعليم وفي بعض الوظائف الحكومية ، فنشروا ، كما فعل اخوانهم في المملكة العربية السعودية ، موجة من التذمر من الأحوال السائدة والاوضاع الراهنة .

واسرائيل ، كما ذكرنا قبلاً ، اعظم الاخطار التي تعرض لها العالم العربي منذ الحروب الصليبية ، إذ انها ، بما تتلقاه من مساعدات خارجية ، رسمية وخاصة ، خنجر مغمد في قلب الوطن العربي . وقد أخذ يتدفق عليها باستمرار سيل من المهاجرين ، الامر الذي سيؤدي في النهاية حتماً إلى تطلعها نحو التوسع على حساب الاقطار المجاورة . وقد شطرت العالم العربي إلى نصفين وعزلت الاقطار العربية في شمال افريقية عنها في آسية . وتطمع اسرائيل ، بسبب من نشاطها وتفوقها التقني وبسبب من المساعدات الخارجية ، في ان تقضي على الصناعة العربية التي ما تزال بدائية في بعض الاقطار ، وان تفتح لصناعاتها الاسواق العربية الواسعة .

مصر : ولم تكد تنتهي الحرب العالمية الثانية حتى اخذت مصر تطالب بتعديل معاهدة ١٩٣٦ وجلاء القوات البريطانية وبوحدة وادي النيل . وازداد الوعي القومي واقتحمت المسرح السياسي جماعة الاخوان المسلمين (التي كان قد اسسها حسن البنا في الاسماعيلية سنة ١٩٢٨) [١] . وهب الاخوان بعد اعلان الهدنة التي ختمت الحرب إلى ايقاظ الشعب واذكاء وعيه عن طريق المؤتمرات الشعبية والزيارات المنظمة الى القرى والريف ، وبالرسائل والاحاديث والمواعظ . ولجأ الاخوان الى استخدام

١ ـ راجع اسحق موسى الحسيني ، الاخوان المسلمون ، طبعة ٢ (بيروت ١٩٥٥) .

العنف ضدّ من بدا لهم انــه يتعاون مع البريطانيين . ووقف الوفد ، بعد ان اعفي مــن الحكم قبيل انتهاء الحرب (١٩٤٤) ، موقف المعارضة .

وبادر اسماعيل صدقي الذي تولى رئاسة الوزارة في سنة ١٩٤٦ إلى فتح باب المفاوضات مع بريطانية ولكن هذه المفاوضات لم تنجح بسبب المعارضة الشديدة التي قامت في وجه الحكومة من الداخل ، وبسبب تشبث البريطانيين وربطهم قضية الجلاء بالدفاع المشترك . في وجه هذه المعارضة قدم صدقي استقالته غير انه استدعي ثانية (٢ تشرين الاول ، اكتوبر سنة ١٩٤٦) فتوجه إلى لندن حيث توصل الى الاتفاق على مشروع معــاهدة عرفت باتفاق صدقي بيفن . ورضي البريطانيون بالانسحاب من القاهرة والاسكندرية والدلتا قبل حلول ٣١ آذار (مارس) ١٩٤٧ ومن مصر كلها قبل ايلول (سبتمبر) ١٩٤٩ . غير ان هذه الاتفاقية اصطدمت بتصلب الفريقين في ما يتعلق بالسودان ووحدة وادي النيل وآلت بسبب ذلك إلى الاخفاق . فاستقال صدقي وتبعه في رئــاسة الوزارة محمود فهمي النقراشي . وقرر النقراشي ان يعرض قضية مصر على هيئة الامم المتحدة فتقدم امام مجلس الامن (٨ تموز ، يولية ١٩٤٧) وطالب بالجلاء التام النــاجز عن مصر والسودان وبانهاء النظام الاداري الثنائي في السودان غير انه لم يلاق في الامم المتحدة اذناً صاغية فعاد الى مصر ونقمته ونقمة المصريين عــلى البريطانيين أشد . ومما زاد في توتر العلاقات بين الفريقين اندلاع الحرب الفلسطينية واشتراك المصريين في المعركة وقيام جماعة الاخوان المسلمين بدور بارز فيها . وإذ اخفق العرب في الحؤول دون قيام اسرائيل ، خشي النقراشي ، وكان رئيساً للوزراء في اثنــاء الحرب الفلسطينية ، سيطرة الاخوان وتأليب الرأي العام الناقم عليه وعلى الأوضاع القائمة ، فأمر في ٨ كانون الاول (ديسمبر) بحل الجماعة واستولى على شعبها وضبط محتوياتها . ولكن لم يلبث النقراشي ان قتل واتهم الاخوان بقتله . فلما

خلفه ابراهيم عبد الهادي بطش بالجماعة ونكل بأعضائها واغتيل المرشد العام حسن البنا في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٩ .

وعاد الوفد إلى الحكم نتيجة للانتخابات التي جرت في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٠ ، فاستعاد الاخوان مكانتهم السابقة واظهروا انهم قوة لا يمكن الا ان يحسب لها وزن في الميزان السياسي . وكان الوعي القومي يزداد شدة واخذت البلاد تطالب بالجلاء التام عن مصر وبوحدة مصر والسودان . ووقفت مصر على الحياد في الحرب الكورية واعلنت في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥١ ؛ بلسان رئيس مجلس نوابها ، أنها ستقف على الحياد في حالة قيام حرب عالمية ثالثة . وفي تشرين الاول (اكتوبر) من السنة نفسها قام النحاس بالغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانية ، تلك المعاهدة التي كان هو نفسه مسؤولاً عن عقدها ، واعلن فاروق ملكاً على مصر والسودان . وردت بريطانية بأنها لا تعترف بهذه الخطوة لأنها جاءت من جانب واحد .

فاشتد السخط على بريطانية وعلى الغرب بوجه عام . وأخذ الفدائيون المصريون يهاجمون القوات البريطانية ولا سيما في منطقة القناة . وازدادت الازمة توتراً حين هاجمت القوات البريطانية مدينة الاسماعيلية. وقتل (في ١٩ كانون الثاني ، يناير سنة ١٩٥٢) عقب هذا الهجوم ٦٤ من قوات الشرطة الاحتياطية في مقر البوليس المحاصر . وقد تسبب من هذه الحادثة رد فعل عنيف في جميع انحاء البلاد ولا سيما القاهرة . وقد تلاها حريق القاهرة المشهور في ٢٦ كانون الثاني (يناير) من السنة نفسها . وإذا لم يكن هذا هو السبب الرئيسي الذي ادى الى حريق العاصمة ، فقد كان بلا شك عنصراً من العناصر التي استغلت لتحريض الشعب على العنف والتخريب .

وأقال الملك النحاس من رئاسة الوزارة وعين مكانه علي ماهر لاعادة النظام والامن في العاصمة . وحاول الوفد ان يتلافى اثر

الضربة التي حلت به . وكان عليـــه ان يسارع الى تطهير صفوفه . ولكن ذلك بدا بحكم المستحيل إذ كانت تعوزه السياسة الانشائية والرغبة الحقة في تحقيق الاصلاح الداخلي كما كان يفتقر الى المقدرة على انتهاج سياسة خارجية واقعية .

وانهار المثلث الذي كانت تقوم على زواياه المهترئة الحياة السياسية في مصر – زاوية البريطانيين وزاوية الملك وزاوية الوفد . وكان لا بد لمصر من ان تتخلص منها جميعاً : من كابوس الغطرسة البريطانية ومن استهتار الملك الضليل وبطانة السوء التي احاطت به ومن فساد الوفد وعجزه عن العمل البناء واصراره على عدم السماح لغيره من الاحزاب ان تعمل .

«اشتدي ازمة تنفرجي» . وجاء الفرج على يد « الضباط الاحرار » عندما قاموا في ٢٣ تموز (يولية) ١٩٥٢ بالثورة ونجحوا في اجبار الملك على التنازل لابنه الطفل فؤاد الثاني وطرده في ٢٦ منه من البلاد . ويرجع تأسيس منظمة « الضباط الاحرار » الى ما قبل الحرب الفلسطينية [١] . ولحقت بها خلال تلك الحرب خسائر فأعيد تنظيمها بعد الحرب . وقد خبر هؤلاء الضباط في اثناء الحرب الفلسطينية ما في الجيش من فساد ، وآلمهم ما ساده من محاباة ، وحزت في نفوسهم الهزيمة التي مني بها .

وقد الف الضباط ، صبيحة نجاحهم ، لجنة باسم « مجلس قيـــادة الثورة » ومال مجلس الثورة في بادىء الامر إلى التعاون مع الاحزاب شرط ان تطهر نفسها من الفساد . واسند إلى علي ماهر مسؤولية تأليف وزارة مدنية برئاسته . وسرعان ما تبين للمجلس عقم هذه المحاولة فانصرف عن الاحزاب واقال علي ماهر وسلم محمد نجيب رئاسة الوزارة في ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ . وكان مجلس الوزراء قد اعلن منذ البداية ضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية . فألغى الالقاب وحدد مساحة الارض التي يجوز للفرد امتلاكها بمائتي فدان. وتلا ذلك، في ١٠ كانون الاول (ديسمبر) من السنة نفسها، الغاء

---

١ – انور السادات ، قصة الثورة كاملة (القاهرة ١٩٥٦) ، ص ٥١ .

الدستور وتأليف لجنة لوضع دستور جديد للبلاد . وفي ١٦ من الشهر نفسه حلت الاحزاب السياسية وصودرت أموالها واعلن بدء فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات تعود بعد انقضائها الحياة الديموقراطية إلى البلاد .

العالم العربي ١٩٥٢ – ١٩٦١

وفي هذه الفترة من حياة العالم العربي التي بدأت بالثورة العربية في مصر قامت احداث خطيرة اتسمت بطـابع الانقلاب الثوري فأطاحت بعروش وغيرت أنظمة ، واعتنقت مبادىء وايديولوجيات جديدة . وتمت تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية في بعض تلك الاقطار قطعت مراحل لم يكن منتظراً لها ان تتم بمثل هذه السرعة ، ضمن الاطار البطيء لتقاليد الحكم في هذه المنطقة .

وامام هذه الحقائق لا يستطيع المؤرخ ان يطمئن الى اي تحليل يقدمه عن طبيعة هذه الفترة ولا سيما وان معظم الوثائق لا يزال في غير متناول المؤرخ ولا بد له من ان يتريث حتى تتيسر لـه هذه الوثائق ويتضح بعض الاحداث ، ويتم البعض الآخر دورته ويأخذ سبيله نحو مرحلة الاستقرار القائم على الطمأنينة في حقلي السياسة والاجتماع .

بيروت ١ / ١٠ / ١٩٦١ — نبيه امين فارس

جورج انطونيوس

يقظة العرب

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب

(من شعر ابراهيم اليازجي)



الى

شارلز ر. كرين

الملقب « هارون الرشيد » عن جدارة

رمزاً للمودة

مُقـَــدِّمَة

إن الهدف الرئيسي لهذا الكتاب ان يروي قصة ويبين ما فيها من أهمية ومغزى . وليست الغاية منه ان يكون تاريخاً نهائياً – ولا حتّى مفصلاً – للحركة العربية ، بل ان يتضمن سرداً موجزاً لأصول هذه الحركة ، وتطورها ، والمشكلات الرئيسية التي واجهتها ، في سرد قصصي متتابع ، يتخلله من التحليل ما تدعو اليه الحاجة لتوضيح هذه المشكلات .

ولم يقدر لهذه القصة ان تروى كاملة من قبل ، فقد صدرت أبحاث تتناول جوانب من هذه الحركة ، ولكن يبدو انه لم يؤلف كتاب ،بأية لغة اعرفها ، يروي هذه القصة من بدايتها – اي من الحركات الاولى ليقظة العرب قبل مئة سنة – حتّى يومنا الحاضر . بل لم يصدر ، فيما اعرف ، بحث يستمد مادته من المصادر العربية والمصادر الاجنبية معاً . فقد اعتمدت التواريخ العربية على مصادر تكاد تكون جميعها عربية ، كما استقت معظم المؤلفات التي صدرت باللغات الاوروبية من مصادر غربية . ولذلك فقد بدا لي ان ثمة مكاناً خالياً لكتاب يستمد معلوماته من كلا المصدرين ، تُنْسَجُ فيه قصة هذه الحركة ومشكلاتها نسجاً محكماً ، فتُستَخرج لحمتُه من المصادر العربية وطرق تفسيرها وفهمها للاشياء ، ويستخرج سداه من الوثائق الاوروبية ومناهجها في البحث .

وقد اقتضاني فحص مصادر هذا الموضوع جميعها سنوات عدة ، قضيتها في البحث في المكتبات الاوروبية والامريكية ، واستنفد مني جهداً كبيراً بذلته في الرحلة والتقصي الشخصي في البلاد العربية . وعنيت عناية خاصة بالحصول على معلومات من الاشخاص الذين كانوا ذوي دور عملي في توجيه الحركة أو بعض حوادثها البارزة . ولم يكن ذلك بالعمل اليسير ، وان كان قد ذلل كثيراً منه ما أبداه لي الكثيرون – من العرب وغير العرب – من استجابة وعون كريم ، وانا مدين لهم جميعاً ، على كثرتهم أكبر الدَّيْن .

ولقد حاولت – وأنا أؤدي هذا الواجب – ان اتمسك بروح العدل وبالنظرة الموضوعية ، ومع اني طرقت الموضوع من وجهة النظر العربية غير اني بذلت جهدي في ألا أتحيَّز إلى فئة او أميل مع هوى . فإن جانبني التوفيق فليس مردّ ذلك الى تقصيري في بذل الجهد ، ولا الى ارتيابي في عِظَم ما أحس به من تبعات نحو قرائي .

وما كنت مستطيعاً ان امضي في هذا البحث لولا صلتي بمعهد الشؤون العالمية المعاصرة بنيويورك Institute of Current World Affairs . ومع ان هذا المعهد لم تكن له ادنى مشاركة في تكوين النتائج التي وصلتُ اليها ولا أي تأثير فيها – وانا وحدي المسؤول عنها جميعها – غير أني مدين بالشكر لأمناء المعهد ولمديره المستر والتر س. روجرز الذين لم يكتفوا بأن يقدموا لي من وسائل التيسير الكريمة الاستثنائية ما كنت بغيره عاجزاً عن تأليف هذا الكتاب ، بل أضافوا إلى ذلك ان تجاوزوا عن جميع القيود التي تحدّ من الوقت او الطريقة او حرية التعبير .

واني لأرجو جميع الذين أعانوني بتزويدي بالمعلومات او بالتوجيه ، او بتيسير سبيل البحث على اي وجه ، ان يتقبلوا اعترافي بفضلهم . والحق اني لم استبن صعوبات هذا البحث الا بعد ان شرعتُ في كتابته . وحين اعدت قراءته في تجارب الطبع بدا لي ان ميزته الكبرى انه يتضمن

بعض المعلومات التي لا يعرفها الكثيرون ، وقد تفيد في توضيح المشكلات التي تواجه العالم العربي في صلاته بدول الغرب الكبرى. والفضل في هذا يعود إلى الذين أعانوني على تتبع الموضوع وفهمه .

وأنا مدين كذلك لأدلين (بيكسي) نيونز لأنها نسخت على الآلة الكاتبة القسم الأكبر من المخطوطة النهائية ، ولمساعدتها الكبيرة لي في تصحيح تجارب الطبع .

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٨ ج . أ.



الفصل الأول

تمهيد

١

بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بانشاء جمعية أدبية قليلة الاعضاء في بيروت ، في ظل رعاية امريكية .

أما الثورات والانفجارات المتكررة التي حدثت في القرون الثلاثة السابقة وحرّكت البلاد العربية من ركودها وخضوعها للحكم العثماني ، فليست لها علاقة وثيقة بهذه القصة . بل ان هذه الحركات ، مثـــل : ظهور فخر الدين في بلاد الشام ، وتأسيس الدولة الوهابية في جزيرة العرب ، وحملات محمد علي التي شنها على سيدته تركية ، هذه الحركات يجب ان تنحّى عن صميم الصورة وتوضع في مهادها ، وتعتبر حركات منفصلة ذات اسباب خاصة وليست مراحل في طريق زحف القومية العربية . وهي – على أهميتها في زمنها وأثرها البالغ في مقدّرات العرب الذين حدثت في بلادهم – لا تعدو ان تكون اعمال عبقرية فردية يحفزها طموح عظيم او ايمان عميق ، وليست جهاد اناس متجردين مثالين يتحملون عنـــاء

الكفاح في سبيل مجد أمتهم .

ومع ذلك فان من الضروري لفهم هذه القصة ان نرسم خطوطاً عامة تبيّن مهاد الصورة الذي تنتمي اليه هذه القلاقل .

٢

ويتطلب الامر ان نبدأ بتحديد الموقع الجغرافي ، وبيان المعنى الدقيق لعبارة « العالم العربي » .

فقد اتسع بالتدريج مدلول لفظة « العرب » خلال القرون التي تلت ظهور الاسلام وانتشاره . ففي البداية — منذ اقدم الازمنة التي ترجع اليها النقوش — كان يقطن شبه جزيرة العرب في الجـاهلية شعبان : أحدهما كان معظمه من القبائل الرحل ، وكان مجال تنقله في البلاد الممتدة من نهر الفرات الى قلب شبه الجزيرة العربية حتى الحدود الجنوبية للحجاز ونجد . وكان الشعب الآخر يحيا معظمه حياة مستقرة ، وقد استوطن في مرتفعات الجنوب ، وهي — بصورة عامة — تتمثل في بلاد اليمن وحضرموت .

وكانت لفظة « عرب » تطلق ، في معناها السلائلي (الاثنوغرافي) الضيق على الشعب الاول وحده ، ولكن ذلك المعنى قد هُجر اليوم ، ولم تعد له قيمة الا في علم اصول الاجناس . واصبحت لفظة «العرب» وعبارة « العالم العربي » تستعملان في مجـال اوسع كثيراً ، سيتضح بعد قليل .

فقد صاحب نشر الدين الاسلامي توسع قُدِّر له ان يؤدي الى اعظم المشاهد في الفتوحات البشرية التي عرفها العالم . فحين بدأت جيوش المسلمين زحفها من قلب شبه الجزيرة العربية بُعَيْد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، شقت طريقها قدماً في كل اتجاه تستطيع ان تزحف اليه براً ، فاجتاحت بلاد الشام ، في الشمال ، وزحفت الى الاناضول وهددت

القسطنطينية . وفتحت العراق ، في الشرق ، ثم بلاد فارس والقسم الأكبر من بلاد الافغان ، واجتازت نهر جيحون الى البلاد التي تعرف اليوم بتركستان ، واستولت على مصر ، في الغرب ، والساحل الافريقي الشمالي جميعه ، وحين بلغت شاطىء الاطلسي اتجهت شمالاً عند جبل طارق فاجتاحت اسبانية وعبرت جبال بيرانيس إلى فرنسة فاستولت على افينيون وكاركاسون وناربون (نربونه) وبوردو . ولم تكد تمضي مائة سنة على وفاة محمد (ص) حتى كانت الامبراطورية العربية تمتد من شبه جزيرة ايبرية في الغرب ، على طول السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، إلى ضفتي نهر السند وبحر آرال في الشرق ، لا يفصل بين بلادهـا فاصل . وخلال القرون التالية كان يضاف إلى هذه الامبراطورية او يقتطع منها بلاد اخرى في كلا طرفيها . ولكنها حفظت نفسها في نطاق هذه الحدود المترامية زمناً طويلاً كان كافياً ليطبعها بطابع عربي ثابت ، وقد سجل الحكم العربي فصلاً رائعاً في تاريخ الانسانية . ولم تكن عظمة العرب في انهم فتحوا تلك الرقعة الفسيحة من العالم المعروف آنئذ ، بل كانت في انهم منحوا تلك البلاد حضارة جديدة .

٣

إن التطور الفكري الذي أحدثه العرب ، كان نتيجة لعاملين أحدهما ديني محض ، والآخر اجتماعي في جوهره . ومع ان هذين العاملين مضيا في طريقين متوازيين غير انهما كانـا متمايزين ، ويختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً في نقطتي البداية والنهاية .

تمثل الاول في الدعوة إلى الإسلام ونشره ، فاستطاعت العقيدة الجديدة التي دعا اليها النبي محمد (ص) أن تبدل من الحياة الروحية لملايين الناس الذين اعتنقوها لعدة أسباب . وتمثل العامل الثاني في التعريب ، وكان له مظهران : التعريب اللغوي ، وذلك بأن أخذ أهل البلاد المفتوحة

يكتسبون اللغة العربية بالتدريج حتى حلت محلّ لغتهم الأصلية . والتعريب العرقي ، وقـد تم بهجرة جماعات كبيرة من العرب الخلص الى تلك البلاد ، فنجم عن امتزاجهم بأهلها وتزاوجهم ان اختلط الدم العربي بدمائهم ، بل غلب عليها في بعض الاحوال .

وكانت ظاهرة التعريب أسبق الظاهرتين . ففي القرون التي سبقت ظهور الاسلام كانت القبائل العربية تتدفّق على بلاد الشام [1] ، والعراق [2] في جموع غفيرة ، أو تتسرب اليها في مجموعات صغيرة – تبعاً لشدة العوامل الاقتصادية وضغط مطالب الحياة . وفي القرنين اللذين سبقا ظهور المسيح كانت بعض القبائل العربية تحكم في حمص والرها وفي البـلاد المتاخمة لساحل البحر الابيض المتوسط . بـل لقد شهد القرن الثالث الميلادي قيام مملكتين عربيتين مزدهرتين في تدمر والحيرة . وقد هاجرت جموع غفيرة من العرب الى بلاد الشام والعراق في أعقاب هذه الموجات واستقرت هناك وامتزجت بالسكان . وكذلك كان أثر اللغة العربية واضحاً ملموساً . وان لم يكن عميقاً جداً . ومع ذلك فـان الكيان الاساسي للحضارة في هذه البلاد لم يتغير تغيراً جوهرياً . أما في القرن السابع فقد جاء هؤلاء الفاتحون – تحت راية الاسلام – مزودين بقوة روحية لم تتح لهم في أية هجرة سابقة . ولم يستطع شيء ان يقف في طريق هذه القوة ، وانهار النظام القديم للحضارات الواهية ذات الاصول المتعددة : اليونانية الآرامية في بلاد الشام ، والساسانية في العراق ، واليونانية القبطية في مصر ، وفسح المجال للعقيدة الجديدة .

وقد عملت هاتان الظاهرتان : نشر الاسلام والتعريب ، في هـذه

---

١ – حين لا ننص على تحديد خاص لبلاد الشام Syria فاننا نطلقها لتدل على المنطقة كلها التي تسمى بهذا الاسم ، وهي مقسمه الآن الى : سورية ولبنان الخاضعتين للانتداب الفرنسي ، وفلسطين وشرق الاردن الخاضعتين للانتداب البريطاني .

٢ – العراق : هو الاسم العربي لـ Mesopotamia وقد اصبح اليوم الاسم المعترف به في العالم .

المرحلة معاً ، ومع ان الصلة بينهما كانت وثيقة جداً ، فانه لا يجوز اعتبارهما سببين متطابقين بأي وجه ، بل ان حدود امتدادهما لم تكن واحدة ؛ فقد انتشر الاسلام – وهو في جوهره قوة روحية – في ميادين أوسع ، واستطاع ان يتخطى من الحواجز ما قصر التعريب عن اجتيازه احياناً لأن التعريب يستلزم هجرة مادية. وبوجه عام فان كل قطر رسخت فيه العروبة وثبتت رسخ فيه الاسلام وثبت ، ولكن العكس غير صحيح؛ فثمة أقطار مثل : فارس وبلاد الافغان أسلم أهلها جميعاً وثبت فيها الاسلام ، ومع ذلك فان تعريبها لم يتم إلاّ في نطاق ضيق لا يعتد به في هذا المجال .

وشبيه بهذا ، وإن لم يكن تمام الشبه ، الاختلاف بين مظهري عامل التعريب ، وهما : نشر اللغة العربية ، وانتشار العنصر العربي ، فقد اختلفا في قوة الاثر وفي اتساع المدى . فالقيود الطبيعية والاقتصادية تحدد طاقة كل قطر على استيعاب المهاجرين الوافدين من خارجه ، حتى حين تم الهجرة بدافع علوي كما حدث في موجات الاستيطان العربي . أما انتشار اللغة فلم يخضع لهذه القيود ، ولذلك فقد ظلت اللغة العربية تنتشر حتى اصبحت لها الغلبة الكاملة ، بينما انحصر انتشار العنصر العربي في مجال أضيق . فمن بين البلاد المتاخمة لحدود شبه الجزيرة العربية ، استوعب القسمان المعروفان اليوم باسم فلسطين وشرق الاردن ، أكبر نسبة من العنصر العربي ، وكان حظ بلاد الشام والعراق دون ذلك، وحظ مصر أقل منها [1] .

٤

وفي أقل من ثلاثة أجيال تبدلت حياة هذه الاقطار تبدلاً كاملاً .

---

١ – كتب الاستاذ لويس ماسينيون مقالة ممتازة نشرت في مجلة العالم الاسلامي Revue du Monde Musulman سنة ١٩٢٤ المجلد ٥٧ ، قدر فيها ان نحو ثلثي المسلمين الحضر من اهل فلسطين من اصل عربي خالص ، اما في شرق الاردن فالنسبة اكثر من ذلك .

ومع ان الدين الجديد الذي كان يدعو اليه هؤلاء الفاتحون لم يعمّ سكان البلاد كلهم ، غير انهم جميعاً – ما عدا أقليات ضئيلة متفرقة – انحلوا اللغة العربية لغة لهم ، واقتبسوا ، مع اللغة ، عادات هؤلاء الفاتحين ومناهج تفكيرهم . أما الحضارة الجديدة التي قامت مكان الحضارة القديمة فلم يدخلها هؤلاء الوافدون الجدد معهم من الخارج ، وانما كانت نتاجاً مركباً نجم من تفاعل مزدوج متبادل ، فكان ثمرة الحياة التي بعثها الفاتحون المسلمون فيما وجدوه هناك من ثروة في الافكار والمواهب ، وان كانت ثروة مهملة كاد يصيبها الفناء .

وقد اختلفت الحضارة الجديدة – في مظاهرها الخارجية فقط – في الاقطار المختلفة ، مما يتفق والتباين في الاستعداد الحضاري لدى السكان المحليين . ولكنها اشتركت جميعها في وجهين : في الدين وفي اللغة ، بكل ما يشمله هذان العنصران من مقاييس ونظرات جديدة .

وبينما أتاح الاسلام لمجتمعات كثيرة في البلاد المفتوحة ان تحتفظ بدينها القديم ، وبينما أصيب الاسلام نفسه بانقسام مذهبي كالذي حدث بين السنة والشيعة ، فقد احتفظت اللغة العربية بوحدتها وأضحت لها الغلبة والسيادة في كل مكان ، وصارت ، قبل نهاية القرن السابع ، لغة الدولة فضلاً عن أنها أصبحت لغة غالب السكان ، على الاقل في بلاد الشام والعراق .

واستمر تقدم الدين الاسلامي واللغة العربية بخطوات سريعة خلال القرون التالية بفضل ما فيها من قوى انتشار خارقة .

وهكذا وجد عالمان ، أحدهما أكبر من الآخر كثيراً ، هما : العالم الاسلامي والعالم العربي ، وكان الاول يشتمل على الثاني .

ومع مرور الزمن امتد العالم الاسلامي الى الهند والصين وإلى أقصى حدود إفريقية من الغرب ، بينما ظل العالم العربي محصوراً في البلاد التي بلغ فيها التعريب من العمق درجة نجم عنها ثلاث نتائج دائمة :

سيادة اللغة العربية واتخاذها لغة قومية ، واقتباس العادات العربية ومناهج التفكير ، واستيطان جماعات كبيرة من العرب وامتزاجهم بأهل البلاد .

والعالم العربي اليوم هو هذه الاقطار التي استمر تأثر الكثرة الغالبة من سكانها بتلك المؤثرات الثقافية والاجتماعية . وبذلك لا تدخل فيه اسبانية وجزر البحر الابيض المتوسط لأنها ، بعد زوال الحكم العربي عنها ، قامت فيها قوى اخرى طمست آثار التعريب او طغت عليها . وكذلك لا تدخل فيه بلاد فارس وتركية وبلاد الافغان وجميع البلاد التي تقع وراء السند ونهر جيحون ، حيث لم تكن اللغة العربية قط لغة قومية .

أما البلاد التي يشتمل عليها العالم العربي فهي تلك السلسلة المتصلة من الاقطار الممتدة من شواطىء الاطلسي غرباً ، على طول الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط ، إلى حدود بلاد فارس شرقاً ، أي : ساحل افريقية الشمالي من مراكش إلى مصر ، ثم بلاد الشام والعراق ، ثم شبه جزيرة العرب .

وقد تغير مضمون كلمة « عربي » تبعاً لذلك ، فلم تعد تقتصر دلالتها على افراد القبائل الرحل الذين كانوا هم سكان شبه الجزيرة العربية بل اصبحت ، مع الزمن ، تدل على «المواطنين» في هذا العالم العربي المتسع الارجاء ، وليس المقصود بالمواطن أي مستوطن فيه ، وإنما يقصد به افراد الكثرة الغالبة من السكان الذين ينحدرون من سلالات — ان لم تكن ذات دم عربي خالص — فقد غلب عليها التعريب وطبعها بطابعه ، واصطبغت عاداتها وتقاليدها بصبغة عربية ، وأدلّ تعريف بهم ان يقال انهم هم الذين اصبحت العربية لغتهم الاصلية . وبذلك يطلق هذا اللفظ على المسيحيين كما يطلق على المسلمين ، ويشتمل فِرَقَها المختلفة . إذ ان مردّ الامر ليس الى اعتناق الدين الاسلامي ، وانما الى مقدار التأثر

بالتعريب .

هذه هي حدود العالم العربي اليوم في معالمها العامة إذا أغفلنا بعض الثغرات المتفرقة . ولقد كانت هي نفسها ، حدوده ، مع اختلاف طفيف في مطلع القرن السادس عشر حين زحف الفاتح التركي من وهاد الاناضول واتجه الى القاهرة ، فأرسى قواعد الامبراطورية العثمانية الحديثة .

٥

إن فتح السلطان سليم لمصر سنة ١٥١٧ هو مرحلة فاصلة من مراحل امتداد النفوذ العثماني على العالم العربي . فقد أصبح السلطان سليم سيد العراق وبلاد الشام بعد انتصاراته الحاسمة على شاه فارس سنة ١٥١٥ ثم على سلطان مصر في السنة التالية ، وبذلك دخــل القاهرة ، واستطاع – في بضعة أشهر – أن يثبت حكمه في مصر . وقد مكث في مصر مدة قصيرة وفد عليه فيها رسل شريف مكة ، فقدموا له الطاعــة ، وسلموه مفاتيح البلد المقدس ، ومنحوه لقب خادم الحرمين الشريفين [١]، وهو شرف رفع من قدره في العالم الاسلامي ، ويُشَكّ في أنه كذلك انتحل لنفسه لقب الخليفة [٢] . وسواء أصح ذلك أم لم يصح ، فقد عاد السلطان سليم إلى القسطنطينية منتصراً بعد أن أصبح السيد الحقيقي للعالم العربي والحاكم الذي يدعو له المصلّون المسلمون في أنحاء امبراطوريته .

---

١ – اي : مكة والمدينة • وقد اصبح هذا اللقب من بعد من القاب خليفة المسلمين •

٢ – في احدى الروايات الشائعة جدا ان المتوكل ، وهو اخر خلفاء بني العباس ، كان قد تنازل رسميا عن لقب الخليفة لسليم • ويبدو ان هذه الرواية بدات في القرن الثامن عشر ، ثم شاعت بين المؤرخين في الشرق والغرب ، ولكنها – كما ذكر المرحوم سير توماس ارنولد في كتابه «الخلافة» (مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٢٤) – يعوزها الدليل الكافي ، كما انها بلا ريب لا ترقى الى مصدر معاصر للحادثة نفسها • ومهما يكن فان الحقيقة التي لا نزاع فيها ان السلاطين الاتراك ، منذ بداية القرن الثامن عشر ، سموا انفسهم خلفاء الرسول ، واصبحوا يعرفون بذلك •

وفي اثناء حكم سليمان القانوني ، وهو خليفة السلطان سليم ، امتد اخضاع البلاد العربية لحكم العثمانيين نحو الغرب على طول الساحل الشمالي لافريقية ، ونحو الجنوب حتى اليمن وعدن . وما ان انتهى عهد سليمان بموته سنة ١٥٦٦ — وهو أزهى العصور في تاريخ الاتراك — حتى كان الحكم العثماني يمتد ، من غير انقطاع ، من الجزائر الى الخليج الفارسي ، ومن حلب الى المحيط الهندي فشمل بذلك قلب الإسلام ورأسه : ففضلاً عن المدن المقدسة الثلاث : مكة والمدينة وبيت المقدس ، كان يشمل مدينة دمشق — أول عاصمة للامبراطورية العربية — وبغداد التي أضاءت بعلمها العالم .

وظلت سيادة العثمانيين في نطاق هذه الحدود حتى القرن الثامن عشر . ومع ان بعض الحروب والثورات والمذابح كانت تقوم من حين لآخر فيتفاوت حظ السيطرة العثمانية على تلك البلاد ، الا ان هـــذه السيطرة ظلت في نطاق هـــذه الحدود حتى القرن الثامن عشر . وكانت سلطة الحكم ، بوجه عام ، ضعيفة ومجردة من وسائل المحافظة على نفسها ، بل لقد كانت تتعرض احياناً للمذلة كلما ثار أحد الولاة ونجح في تحدي السلطان الحاكم .

وقد ظهرت بعض الشخصيات المثيرة على مسرح الحوادث خلال هذه القرون الثلاثة ، فكانت احياناً شخصيات عسكرية بطولية مثل فخر الدين وظاهر العمر ، وكانت احياناً أخرى مجرد شخصيات فتاكة مريقة للدماء مثل : أحمد الجزار والمماليك في القاهرة ، ولكنهم كانوا دائماً أشخاصاً فرديين أنانيين يقتصر همهم على منفعتهم الشخصية . وقد ظهروا واختفوا في تعاقب ممـــل ، وبضجيج يشبه ضجيج الطغاة المسرحيين ، فكانوا يقرعون الآذان بأبواق انتصاراتهم المحلية بينما عجزوا عن ان يطيحوا بسليمان العظيم ، او يزعزعوا قبضته التي أحكمها على العالم العربي .

وأياً كان الامر ، فان ما قاموا به من أعمال لم يكن له أثر ملموس

في نشأة الحركة القومية للعرب . ومع ذلك فلا بدّ من ان نستثني من هذا الحكم محمد بن عبد الوهاب المصلح المخلص ، فقد أدت تعاليمه إلى تجديـد ديني له قيمته ، وكذلك محمد علي الذي كاد – لولا تدخل الـدول الاوروبية – ان يقبض على زمـام الحكم والخلافة ، ويستخلصها من يـدي سيده في القسطنطينية ، فيؤسس امبراطورية عربية .



العالم العربي في القرون الوسطى
الأجزاء المظللة تمثل المناطق التي
اكتمل تعريبها واستمر بصورة دائمة
خليج بيسكاي
بواتييه
فرنسة
طولوز
اسبانية
قرطبة
كورسكة
سردينية
صقلية
مالطة
البحر الاسود
القسطنطينية
فارس
بغداد
العراق
البصرة
خليج العرب
خليج عمان
دمشق
القدس
قبرص
البحر الابيض
مراكش
الجزائر
تونس
ليبية
القاهرة
مصر
نجد
جزيرة العرب
المدينة
مكة
اليمن
صنعاء
عدن
المحيط الهندي
السودان

يقظة العرب -

الفصل الثاني

بداية خادعة

١

حين جاء محمد علي إلى القاهرة من قولة حيث ولد ، كان ضابطاً في الفرقة الالبانية التي ارسلها سلطان تركية في سنة ١٧٩٩ لتقضي على حملة بونابرت . وكان آنذاك شاباً في الثلاثين من عمره ، ولم تكن مواهبه الفذة قد تكشفت بعد . وقد هزم نابليون الالبانيين من غير مشقة ، ومع ذلك فقد كانت هذه الهزيمة هي التي اتاحت لمحمد علي الفرصة ، فتسلم قيادة الفرقة ، ووجد نفسه – حين جلا الفرنسيون عن مصر بعد ذلك بعامين – على رأس جيش صغير ، وفي منصب يتيح له الحكم والنفوذ . فانتهز هذه الفرصة واستغلها لفائدته ، واتبع بذكائه ودهائه جميع الوسائل التي اظهرت مواهبه السياسية ومقدرته العسكرية ، وما ان وافت سنة ١٨٠٥ حتى أصبح صاحب السيادة العسكرية على مصر واعتُرِف له بلقب الوالي عليها .

وكانت خطوته التالية ان يستولي على شبه الجزيرة العربية ، فقضى

السنوات الست التي سبقت ذلك في تثبيت مركزه في مصر : بكسر شوكة المماليك ، وارساء النظام للقضاء على ما كان يسود البلاد من فوضى . وفي سنة ١٨١١ اصبح قادراً على ان يوجه همه الى جزيرة العرب ، وكانت قد بدأت فيها آنئذ حركة للاصلاح الديني نهض بها رجل عظيم آخر ، فبلغت هذه الحركة من القوة العسكرية ومن الانتشار مبلغاً كان يهدد سلطة الخليفة في البلاد الاسلامية المقدسة .

إن هذه الدعوة الاصلاحية ، التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتي صارت تعرف باسم الدعوة الوهابية ، قامت على أسسٍ من تعاليم محمد ابن عبد الوهاب . وكان ابن عبد الوهاب من أهل نجد ، رحل رحلات واسعة في العالم الاسلامي درس فيها الفقه ، فتملكت نفسه رغبة جامحة في الاصلاح . وقد ذهب الى ان الاسلام قد اكتنفه الضلال ، فتسربت اليه – على مر القرون – مبتدعات ليس لها سند في الدين ولا في سنّة الرسول ، فشاعت البدع المحدثة وانتشرت الخرافات حتى صار الامر – في رأي محمد بن عبد الوهاب – لا يفترق عن الوثنية وعبادة الاصنام . فبدأ بحملة من التطهير ، ولم يكن الاصلاح الذي يقصده يرمي إلى تغيير في اصول الاسلام ومبادئه ، ولا إلى فهم عقائده فهماً جديداً ، بل كان يحس ان من واجبه القضاء على البدع والامور المحدثة الدخيلة ، والدعوة إلى العودة إلى نقاء الاسلام كما كان .

ووجد في احد امراء آل سعود نصيراً له ، آمن بما يدعو اليه ، واصبح عوناً له في الدنيا . وبتحالفهما عام ١٧٤٧ بدأ ظهور الحركة الوهابية ، فانتشرت انتشاراً سريعاً في قلب الجزيرة العربية حيث بدأت ، غير انه لم يظهر لها اثر في الخارج الا بعد نحو اربعين عاماً . فقد توفي محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٩٢ ، وكان نصيره قد توفي قبله بثلاثة وثلاثين عاماً وخلفه ابنه عبد العزيز بن سعود ، سَمِيّ الملك الوهابي الحالي وأحد اجداده . وفي عهد هذا الامير وابنه سعود خرج

من نجد الجنود الذين هزت نفوسهم التعاليم الجديدة ، لينازعوا الخليفة سلطانه وينكروه عليه .

وكانت أولى غزواتهم إلى العراق ، فأشرفوا على أبواب بغداد، وحملوا الوالي التركي على أن يعقد معهم صلحاً في سنة ١٧٩٩ . وأعادوا الكرة بعد عامين ، ونهبوا كربلاء احدى مدن الشيعة المقدسة . ثم اتجهوا نحو الغرب ونحو الشمال ، واستولوا على المدينة ومكة ، وغزوا بلاد الشام ، وهددوا دمشق وحلب أيضاً . وكانوا لا يزالون هناك في سنة ١٨١١ حين اضطر محمد علي – آخر الأمر – إلى ان يستجيب لالحاح السلطان ويرسل جيشاً بقيادة أحد أبنائه ليستعيد البلاد المقدسة .

وقد استمرت الحملة المصرية على جزيرة العرب سبع سنوات كتب فيها النصر لمحمد علي . وبعد استنقاذ البلاد المقدسة جهز حملة اخرى اتجهت الى الشرق ، بقيادة ابن آخر من أبنائه هو ابراهيم ، فحاصرت في سنة ١٨١٨ الدرعية [1] واضطرت حاكمها الوهابي الى التسليم .

وكان تغلغل ابراهيم في قلب نجد ، بعد زحف طويل في بلاد تضمر له العداوة ، نجاحاً عسكرياً يدل على مهارة فائقة ، فأظهره ذلك بمظهر القائد العظيم الذي تفوق في عظمته حتى على أبيه . وقد سحق الحركة الوهابية وإن لم يقض عليها . واستطاع بانتصاراته ان ينقذ السلطان من خطر كبير وان يعيد سيطرته على الاماكن الاسلامية المقدسة . فزادت بذلك شهرة محمد علي وانتشر ذكره في العالم العربي قاطبة . وأهم من ذلك كله ان هذه الانتصارات جعلت صلة محمد علي وابنه بالعالم العربي صلة وثيقة ، وأصبحت تتراءى لهما – وهما اللذان لا يمتان إلى العروبة بنسب – رؤى امبراطورية عربية يطمحان الى تأسيسها

١ – هي موطن آل سعود في نجد ، وقد لجأ اليها محمد بن عبد الوهاب في سنة ١٧٤٧ يلتمس العون من رئيس اسرة آل سعود آنئذ .

وإقامة أركانها .

٢

لم يتحقق قط مطمح محمد علي في أن يقتطع لنفسه امبراطورية عربية من بين البلاد التي كان يحكمها السلطان ، فقد تحطمت آمـــاله حين اصطدمت بمعارضة بالمرستون ، وان كان قد أوشك أن يحقق هذا المطمح حين فتح بلاد الشام .

وتعاقبت انتصاراته بعد النصر الذي أحرزه في شبه جزيرة العرب . واستطاع ، بنشاطه وعزمه اللذين ينتزعان الاعجاب ، ان ينظم قواته التي لم تكن ذات شأن يذكر ، ويجعلها جيشاً نظامياً ، وأن ينشىء أسطولاً حربياً .

وفي سنة ١٨٢٠ زحفت قوة غازية بقيادة ابن آخر من أبنائه إلى السودان ، واستولت عليه . ولم يتخاذل محمد علي ، الذي لا يتطرق الوهن إلى عزيمته ، أمام الفوضى الضاربة أطنابها في ذلك القطر المتسع الارجاء ، فأرسى فيه قواعد الحكم والادارة . وبعث بالحملات إلى البحر الاحمر ليقضي على القرصنة فيه ، وليسيطر على موانئه في كلا شاطئيه : الشاطىء العربي والشاطىء الافريقي . واستجاب لتوسلات السلطان فأعان الجيوش التركية التي زحفت لتخمد الثورة الناشبة في بلاد اليونان .

وفي سنة ١٨٢٢ أرسل قوة بحرية لاحتلال كريت ، وبعد عامين قاد ابراهيم المظفر قوة حربية وبحرية اكثر عدداً من سابقتها فنزلت على أرض شبه جزيرة المورة واحتلتها ، واستولت على أثينا .

واستطاع الجيش المصري ، وكان يفوق كثيراً الجيوش التركية في المقدرة الحربية ، ان يقمع الثورة . وبينما كان هذا الجيش يسيطر على القسم الاكبر من بـــلاد اليونان ، هجمت قوات مشتركة من الاسطولين الانجليزي والروسي على الاسطول المصري التركي في نافارين سنة ١٨٢٧ وحطمته .

وكانت هذه الهزيمة ضربة قاصمة نزلت بمحمد علي ، ولكنها لم تنل من طموحه ، وانما دفعته الى الالحاح على ان توضع بلاد الشام تحت سيادته مكافأة له على مشاركته في القضاء على ثورة اليونان . وحين رفض السلطان رفضاً قاطعاً الاستجابة له بوضع هذه البلاد تحت سيطرته ، زحف محمد علي للاستيلاء عليها . وكان ابراهيم ، مرة اخرى ، وسيلته الى النصر . وما ان استسلمت حامية عكة في ايار (مايو) ١٨٣٢ حتى تم له الاستيلاء على بلاد الشام بسرعة . فقد زحف من عكة زحفاً خاطفاً لاحتلال دمشق ، ومزق الجيش التركي بقرب حمص شر ممزق ، ثم اوقع به هزيمة اخرى بقرب حلب . ولم يكد ينتهي شهر تموز (يولية) حتى اصبحت بلاد الشام كلها في قبضته . فخشي السلطان العاقبة ، وارسل الرسل الى محمد علي ليفاوضوه . فتوقف ابراهيم عن الزحف تنفيذاً لأمر ابيه ، لكنه بعد خمسة اشهر – حين اخفقت المفاوضات وزحف نحوه جيش تركي قوي – عاود القتال واحرز نصراً مؤزراً . وبذلك فتحت الطريق امامه الى القسطنطينية بلا مقاومة ، فتابع زحفه اليها . ولكن اوامر اخرى بالتوقف وصلته من ابيه فامتثل ، بعد ان تدخلت الدول الكبرى واضطرت محمد علي الى ذلك . وانتهى الامر في ربيع سنة ١٨٣٣ بعقد اتفاق عيّن فيه السلطان رسمياً محمد علي والياً على بلاد الشام . وتولى ابراهيم خلال السنوات السبع التالية تنظيم البلاد وادارتها نيابة عن والده ، حتى وافت نهاية عام ١٨٤٠ فاضطر الى التخلي عن الحكم والجلاء عن بلاد الشام ، نتيجة لضغط الدول الاوروبية وتذمر السكان في الداخل .

٣

في اثناء الحكم المصري في بلاد الشام اصبحت خطط محمد علي لاقامة امبراطورية عربية تلقى عناية عامة من الناس . لقد راوده هذا الحلم

سنوات طويلة من قبل ، ولكنه لم يكن يعمل على ان تنال خططه تأييد جمهرة الشعب . فأتاح لــه الفرصة لذلك استيلاؤه على بــلاد الشام والاعتراف به والياً عليها . وأصبح الحاكم الفعلي – ان لم يكن كذلك الحاكم الرسمي – على اقسام مهمة من العــالم العربي ، شملت : مكة والمدينة والقاهرة والقدس ودمشق . وتخيل نفسه ، بمــا عرف عنه من طموح الهمة ، وقد امتد حكمه على الاقسام الباقية من العالم العربي ، واصبح بذلك صاحب الحق في السيطرة عليه كله [1] .

ولا ريب في انه كان ينوي كذلك المطالبة بالخلافة ، بل انه لم يخف هذه النية . فقد كان يعرف ان فرنسة قــد ترحب بانشاء مملكة مستقلة ثابتة الاركان تشمل : بلاد الشام ومصر وجزيرة العرب ، وتقع على الطريق الاكبر الى الشرق ، أي على طريق انجلترة الى الهنــد . وتلقى محمد علي من المسؤولين النمساويين ما يشجعه على ذلك ، فقد وفد عليه في القاهرة الكونت بروكش اوستن في مهمة خاصة وعرض عليه اقتراحات محددة واضحة . وبيّن هذا السياسي النمساوي الخطوط العامة لمقترحاته في شيء من التفصيل في مذكرة مؤرخة في ١٧ ايــار (مايو) سنة ١٨٣٣ ، تضمنت ان يتولى محمد علي الخلافة ، وان يؤسس امبراطورية عربية تشمل : مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق. ويبدو ان هذا الاقتراح كان يدل على ان الحكومة النمساوية تؤيده – او على الاقل كذلك فهمه محمد علي . وعلى ابة حال ، ومهما كان الامل في التأييد الاجنبي ، فقد كانت الفرصة ذاتها امامه مغرية تدعو الى انتهازها . فقد كان يسيطر على الاماكن الاسلامية المقدسة ، وكان شريف مكة يتجه اليه اكثر مما كان يتجه الى السلطان ، بل كان السلطان نفسه غير محبوب

---

١ – كتب قنصل بريطانية العام في الاسكندرية في احد تقاريره سنة ١٨٣٢ ما يلي : «ان هدفه الاول ان يثبت دعائم سلطته على ولايتي عكة ودمشق ، ثم يمد سلطانه على حلب وبغداد وجميع الولايات التي يتحدث اهلها باللغة العربية. وهو يسميها : الجزء العربي من الامبراطورية» (مكتب السجلات العامة ، وزارة الخارجية ، رقم ٢١٣/٧٨) .

بين رعاياه من المسلمين والمسيحيين على السواء ، أما القوات التركية فقد كانت لا قيمة لها – إذا قورنت بالجيش المصري الذي أعد اعداداً حديثاً . وهكذا كانت جميع الاحوال في البلاد العربية مواتية له . أمـــا خارج البلاد العربية فقد كانت ثمة عقبة كؤود تتمثل في صلابة لورد بالمرستون في معارضته لفكرة الامبراطورية العربية . وأدرك محمد علي ان الامر يقتضي منه السير بحذر ، فسعى الى زيادة فرص النجاح لمشروعه باستمالة أهل الشام اليه واعلان موافقتهم على الفكرة .

وآزره في كل ذلك ابنه بما عرف عنه من مهارة وحماسة بالغة . وكانت قد تسربت الى بلاد الشام قبل زحف ابراهيم اليها ، بعض الانباء عن خطط ابيه ، فكان ذلك من عوامل استمالة السكان اليه . أمـــا المسلمون الذين هزتهم شجاعة الوهابيين في وقوفهم في وجه السلطان فقد كانت نفوسهم مهيأة للترحيب بهذا التحدي الجديد للحكم التركي الذي كانوا يكرهونه . واما المسيحيون الذين كانوا يغبطون مسيحيي مصر على ما كانوا يلقونه من معاملة عادلة في ظل محمد علي ، فلم يكونوا لذلك أقل من المسلمين ترحيباً به وترقباً لـــه . وكان يربط الامير اللبناني القوي « بشيراً » صلاتُ مودة قوية بمحمد علي ، فأثار مشاعر المسلمين بمهارته في التلويح لهم بما كان يراودهم من أمل مغرٍ في اقامة امبراطورية عربية بعد طرد الاتراك من بلاد الشام . ولذلك شاع في نفوس الناس الاعتقاد بأن الحكم المصري سيتيح للعرب الحرية والاستقلال ، وان لم تكن ثمة أسباب قوية تدعو الى مثل هذا الاعتقاد . وكان من الميسور ان يدرك ابراهيم – حتى قبل زحفه بوقت طويل – مظاهر الحفاوة والترحيب التي كانت تنتظر وصوله تكريماً لبطولته في تحرير العرب ، وقد دل عـــلى ذلك : الثورات التي شبت في دمشق ، والوفود التي جاءت سراً الى القاهرة تبذل العهود الوثيقة بنصرة اهل الشام وتأييدهم . وحين تغلب ابراهيم ، آخر الأمر ، على المقاومة العنيفة التي أبداها والي عكة ، لم

يلق تغلغله في باقي انحاء بلاد الشام أية مقاومة ، بل كان جميع السكان يقابلونه بهتافات الترحيب والحفاوة .

وهنا تصح الموازنة بين تقدم ابراهيم في سنة ١٨٣٢ والنصر الذي أحرزه اللنبي سنة ١٩١٨ : فقد بدأت الحملتان من مصر ، وكانت كلتاهما ترمي الى طرد الاتراك من بلاد الشام . وقطع الجيشان الزاحفان في كلتا الحالتين ، سيناء الى القسم الجنوبي من بلاد الشام ، حيث أنزلا بالعدو ضربة قاصمة جعلته يتقهقر ، ثم زحفا من غير ان يلقيا مقاومة تذكر ، الى دمشق فحمص فحماة فحلب ، وكان يؤازرهما في ذلك السكان العرب مؤازرة فعالة . وفي الحالتين كان يسبق الزحف العسكري بشائر ووعود بالتحرر السياسي ، وكانت جمهرة الناس قد ملأت نفوسهم آمال الحرية المرتقبة ، فأصبحوا حلفاء متحمسين لهؤلاء الفاتحين يلقونهم ، في اثناء زحفهم ، بالترحيب . وفي كلتا الحالتين ايضاً خابت آمال الناس ، وكان مرد هذه الخيبة ، في جذورها ، الى نظام السياسة الاوروبية وما فيه من اضطراب وتعقيد .

وحين تولى ابراهيم سنة ١٨٣٣ حكم بلاد الشام ، اصبح في مركز أتاح له سلطات مطلقة الى حين ، وشرع يعمل من البداية على تحقيق آرائه في انهاض العرب ، ومع ان جهوده لم تؤد الى نتائج ملموسة ، غير انها كانت وليدة خيال ملهم طموح ، وكان يزينها الاخلاص . ولكن ظروف عصره المجدبة كانت غير مهيأة لأن تؤتي هذه الجهود ثمارها ، ومع ذلك فان اسباب هذا الاخفاق جديرة بدراسة أعمق .

٤

كانت كثير من العقبات المعوقة تعترض طريق محمد علي وابنه في سعيهما لايجاد حركة عربية : فقد كانا غير عربيين ، بل لم يكونا يحسنان اللغة العربية ، وان كان ابراهيم قد تعود التحدث بهـا في شيء من

الطلاقة . وكان لهذين العاملين : انتفاء الحافز العنصري ، والعجز عن التعبير بلغة فصيحة غنية ، اثرهما في الانتقاص من قوة اصالة دعوتهما الى نهضة عربية قومية . ولذلك كان الدافع الذي يحركها هو الطموح الشخصي ، وكانت رغبتها في اعادة الامبراطورية العربية تنبع ، في اصولها ، من رغبتها في ان يكسبا لنفسيهما امبراطورية ما . ومهما تكن الاسباب الاخرى لاخفاقها فقد كان هذا الضعف الاصيل احد الاسباب الاساسية .

ولم يكن الاب وابنه متفقين كل الاتفاق في آرائهما عن امبراطورية المستقبل . لقد كانا متفقين على ادماج البلاد العربية التي افتتحاها في مملكة واحدة يتوليان حكمها ويرثها من بعدهما ابناؤهما ، كما كانا متفقين على انتحال لقب الخلافة . ولكنهما ، بعد ذلك ، كانا مختلفين في تقديرهما لقوة العرب وفي مقدار اعتمادهما على تعاونهم ومؤازرتهم . فقد كانت اهداف محمد علي كلها ترمي الى اكتساب المغانم ، وكان قد عقد العزم على ان يصبح خليفة ، وان يتولى حكم مملكة مستقلة ، فأدرك انه لا بدّ له – لتحقيق هذه الغايات – من ان يضمن رضاء العرب وان ينال – إذا استطاع – مؤازرتهم الفعالة . ولكنه لم يكن في الحقيقة صادقاً في عاطفته نحوهم ، ولم يكن يتحدث لغتهم ، كما انه كان يستهين بمواهبهم وخصائصهم . وكان يرمي الى ان يكون صحبه من الاتراك والالبانيين ، هم عماد السلطة وصرح الحكم في امبراطوريته المقبلة ، وان يكون العرب هم الرعية الذين يقدمون الطاعة ويحملون الاعباء . اما ابراهيم فقد كان يرمي الى ابعد مما كان يرمي ابوه : كان يريد ان يجمع بين تحقيق النهضة العربية وتأسيس امبراطورية . لقد جاء مصر صبيّاً صغيراً، ونشأ في محيط عربي . ومنذ ان بدأ يتعلم ويتلقى مبادىء المعرفة درس تاريخ العرب وتثقف بثقافتهم . وعرف ، خلال مقامه في شبه جزيرة العرب ، فضائلهم وعيوبهم على حقيقتها . فألهب كل ذلك خياله وأيقظ

عواطفه . وايقن ان الامبراطورية التي يحلم بها ابوه ستكون دعائمها اثبت اذا قامت على اساس النهوض بالعرب وايقاظهم . وكان الاختلاف بين الاب وابنه يعود الى تباينهما في نفاذ البصيرة والتكوين النفسي . وقد وصفهما احد المعاصرين لهما فقال : لقد اوتي محمد علي عبقرية قادرة على تأسيس الامبراطوريات ، ولكن ابراهيم اوتي الحكمة التي يستطيع بها المحافظة على هذه الامبراطوريات .

وحين وصل ابراهيم ديار الشام كان يظهر علناً عواطفه نحو اهلها ، وقد اثار الدهشة في نفوس المراقبين من الاجانب بما كان يبدو في احاديثه من اخلاص . وكان – حين يتحدث – يعتبر نفسه عربيّاً ، ويحب ان يعدّه الناس كذلك . وقال ذات مرة : « لقد جئت مصر صبيّاً فلوّنت شمس مصر دمي وصيرتني عربيّاً » [1] . وكان يعلن اهدافه صريحة ، وبذل جهده في نشر آرائه بين اهل الشام سواء منهم عامة الناس وذوو النفوذ . وزاره في ذلك الحين الكونت بوالكومت احد المبعوثين الفرنسيين ، فدهش لرحابة افكاره والحرية التي كان يعبر بها عنها . وروى لنا ان ابراهيم لم يكن يخفي عزمه على احياء الوعي القومي العربي ، واستعادة القومية العربية ، وغرس روح الوطنية الصميمة في نفوس العرب ، واشراكهم اشراكاً كاملاً في حكم امبراطورية المستقبل ، وانه كان يرى ان آراء ابيه ضيقة الافق ، وانها آراء استعمارية لا تتفق مع الاستقلال السياسي الذي كان عازماً على ان يقود العرب اليه بعد وفاة محمد علي ، وان تلك الآراء أليق شيء بحالة العبودية التي كان العالم العربي يعاني من وطأتها . لقد تأثر هذا الفرنسي المستنير بآراء القائد ابراهيم واستحسنها ، وصرح ، في رسالة بعث بها الى حكومته ، بتسليمه بكل ما كان يرتئيه .

وكان اهم ما كتبه انّ رأي ابراهيم باشا في ان تكون الامبراطورية

---

١ – انظر كتاب « بعثة البارون بوالكومت » تاليف ج٠دوان ، القاهرة ١٩٢٧ ٠ وقد استفدت منه حقائق اخرى عن ابراهيم ٠

كلها عربية هو ، لا شك ، رأي أكثر اقناعاً وأشد ضماناً لاستقرارها وبقائها من آراء ابيه الضيقة . والمشكلة الوحيدة هي : هل العرب جديرون بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ؟ كان محمد علي يرى انهم غير جديرين بذلك ، بينما كان ابراهيم يخالف أباه في هذا الرأي .

وكان ابراهيم ، في اثناء زحفه خلال السنتين الاولين من مقامه في بلاد الشام ، يبذل أقصى الجهد في نشر أفكاره عن نهوض العرب نهضة قومية ، وكان يحاول ان يقنع سكان البلاد بأن فجر عهد جديد قد أشرق عليهم بتولي محمد علي الحكم . وكثيراً ما كان في بياناته العسكرية يذكر ، بألفاظ تثير الحماسة ، عصور المجد والفخار في التاريخ العربي ، فكان يعدي جنوده بحماسته . وأحاط نفسه بأشخاص يشاركونه هذه الآراء ويعملون على نشرها . وحين تولى الحكم كان من أول ما عني به إقامة جهاز جديد للحكم تميز عن الجهاز السابق تميزاً اصلاحياً ملحوظاً في معظم الجوانب الاساسية لتنظيم الدولة مثل : نظام الضرائب ، والقضاء ، والتعليم ، وحماية القانون والأمن .

واستطاع ، في زمن لم يتجاوز عاماً ، ان يقيم نظاماً جديداً يعتمد على المساواة في الحقوق الدينية والمدنية ، وعلى ضمان الارواح والممتلكات ، وهو أمر لم تعرفه بلاد الشام منذ أيام الحكم العربي في دمشق . وبذلك أشرق عهد جديد حقاً ، وكان ابراهيم يحاول – حين كان يذكر ما أنجز من أعمال – أن يقدم بذلك الدليل المادي الملموس على أن العرب ، بعد زوال الحكم التركي ، يستطيعون ان ينظروا في ثقة واطمئنان الى مستقبل زاهر في ظل حكم محمد علي وأسرته .

ولكن النظام الجديد ، بالرغم من هذه البداية الحسنة ، لم يعمر طويلاً ، وكانت المحاولات التي بذلت للابقاء عليه وتثبيته تحمل في طياتها عوامل هدمه . وقد كان السبب الخفي هو عداوة أوروبة ، فقد أثار زحف ابراهيم على آسية الصغرى مخاوف الدول الكبرى ، وبث الذعر في

نفس السلطان ونبّه العالم الى ان مصر تستطيع ان تهزم تركية من غير مشقة . واتفقت بلاد أوروبة المختلفة بطبيعتها ، واتفقت كلمتها ــ كدأبها دائماً في مثل هذه الحالة ــ وطالبت بصوت واحد بالمحافظة على الامبراطورية العثمانية ، فاضطرت محمد علي ــ بما أنزلته عليه من ضغط ــ إلى ان يتفق مع السلطان ويقبل بأن يتقلد ولاية الشام مدى حياته فقط ، بدلاً من أن يتوارث حكمها ابناؤه من بعده . وقد اضطر محمد علي ان يقبل بذلك على مضض لأنه لم يكن من القوة بمنزلة تتيح له ان يقاومه ، وكان عازماً على نقض هذا الاتفاق حين تواتيه الفرصة المناسبة . كان محتاجاً الى ان يملأ خزائنه ويدعم قواته المحاربة . ومن اجل تحقيق هذين المدفين ارتكب من الاخطاء الفادحة ما دفع بحكمه الى الانهيار في بلاد الشام .

وفي تنفيذ ابراهيم لأوامر أبيه ، اتخذ من الاجراءات ما أدى إلى نشر السخط بين الناس : فقد فرض ضرائب جديـــدة ، وجعل التجنيد اجبارياً . ولم يكن الناس لينفروا من شيء اكثر من نفورهم من هذين الامرين . ومما زاد الامور سوءاً انه قرر نزع السلاح من الناس تمهيداً لفرض التعبئة العسكرية العامة ، فلم يطق الناس صبراً بعد ذلك لأنهم في مجتمع يرى ان الوسيلة الاولى لحماية الفرد وأمنه هي بندقيته . فنشبت الثورات في جميع انحاء البلاد : بدأت في نابلس والخليل ، ثم في لبنان والمناطق الواقعة شرق نهر الاردن . فصار الشغل الشاغل لابراهيم خلال شهور طويلة ان يقمع هذه الثورات . ومع انه نجح في اعـــادة النظام حيناً ما ، غير انه اضاع حب الشعب له ، وفقد بضياع هذا الحب تلك المنزلة التي احرزها هو وأحرزتها آراؤه في نفوس الناس . وحين اضطره الضغط الاوروبي الى الجلاء عن بلاد الشام سنة ١٨٤٠ لم يكن قـــد بقي له صديق بين هؤلاء السكان الذين رحبوا بمقدمه قبل ثماني سنوات ، واعتبروه محررهم .

٥

ومن بين مجموعة الاسباب الكثيرة التي ادت الى اخفاق محمد علي في بلاد الشام عاملان اعترضا اعتراضاً مباشراً سبيله في اقامة امبراطورية عربية . أحدهما : معارضة بالمرستون ، وثانيهما — وهو عامل سلبي — فقدان الوعي القومي بين العرب .

وربما كان من غير الممكن تجنب الاصطدام بين محمد علي وانجلترة، لأن ازدياد قوته في مصر وامتداد نفوذه الى شبه جزيرة العرب والبحر الاحمر جعلاه في مركز يتيح له ان يتحكم في منطقة تعد من أهم الطرق التجارية العالمية وتعتبرها انجلترة ذات قيمة خاصة لتجارتها . وكان زحفه الى بلاد الشام وتهديده القسطنطينية حجة تعللت بهـا روسية للتدخل ، وهو أمر لم تستطع الدول الكبرى الاخرى — وخاصة انجلترة — السكوت عنه . وعزم بعد ذلك — بمشروعه عن الامبراطورية العربية — على ان يوحد ما بين البلاد التي افتتحها وبجعلها دولة متماسكة ، وبذلك يتحكم بالتجارة الاوروبية ولا يسمح لها الا بما يشاء من تيسير اسباب مرورها بعد ان كان ذلك لا يتطلب غير موافقـة تركية الضعيفة ، وكان من السهل الحصول عليها . وكان بالمرستون يقف يقظاً صلباً كلما ادى النزاع بين محمد علي والسلطان الى ازدياد النفوذ الروسي في القسطنطينية وكان كذلك واقفاً بالمرصاد للدولة العربية ، فقد ارسل في ٢١ آذار (مارس) ١٨٣٣ رسالة الى الوزير البريطاني في نابولي قال فيها : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية . وقد يكون هذا الامر في ذاته لا ضرر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع اوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه ابداً . وفضلاً عن ذلك فان أي ملك عربي ، مهما تبلغ قوته ، لن يكون اقدر من تركية على المحافظة على ما تحتله من طريق الى الهند » [١] .

١ — سير هنري ل. بولوير ، حياة المرستون ، ج : ٢ .

فلم يكن اذن التخوف من تغلب السيطرة الروسية هو السبب الوحيد الذي دفع بالمرستون الى مقاومة ازدياد قوة محمد علي ، ثم دعـاه ابان أزمة سنة ١٨٤٠ الى ارسال اسطول بحري عجل في طرد قوات ابراهيم من بلاد الشام .

كانت هذه هي المناسبة الاولى في العصر الحديث التي برزت فيها فكرة الامبراطورية العربية ، وصارت احدى مشكلات السياسة الدولية . وكانت انجلترة — في هذه المرة على الاقل — تقاوم هذه الفكرة .

٦

وكان العامل الثاني هو الافتقار الى أي شيء يرقى الى درجة الشعور بالتضامن القومي في العالم العربي . فقد أضعفت عصور الانحطاط وفساد الحكم من روح الجماعة بين السكان ، وأوهنت ما كان فيها من صلابة وتماسك . وكانت عوامل الوحدة التي أوجدتها فيهم عبقرية النبي محمد تظل دائماً قوة فعالة مـا دام العرب هم اصحاب السيادة . فلما وهنت قوتهم ضعف اثرها في التوحيد بينهم ، وتفرقت الجماعات المتعددة التي جمعت بينها هذه القوة في وحدة ثقافية مترابطة ، وصـار لكل جماعة كيان اقليمي ومذهبي منفصل عن غيرها ، وفقاً لما كانت تنتسب اليه من مكان او عشيرة او عقيدة . وقد رافق هذا التفكك تطور ديني لم يقتصر اثره على نشوء مذاهب جديدة ، بين المسلمين والمسيحيين معاً ، بل أدّى كذلك الى ازدياد اثر الخلافات الطائفية ، والى نمـوّ الولاء الطائفي بدلاً من التضامن الحضاري الجامع .

وكان اثر هذا التفكك في الشام ، وفي بلاد متميزة بتعدد نحلها ، اثراً بالغاً ، ففي بدء الفتح المصري لها كان كيانها الاجتماعي يعتمد ، في اساسه ، على التمييز الطائفي . كان المسلمون الذين يزيدون كثيراً على نصف مجموع السكان هم اصحاب الحظوة . فكانوا يتمتعون وحدهم بحقوق

المواطنين الكاملة ، وكانوا يحتكرون لانفسهم امتيازات لا تتاح لأصحاب العقائد الاخرى . أما النصارى ، وكانوا نحو ثلث السكان ، فقد كانوا في منزلة أدنى ، تطبق عليهم قوانين استثنائية تثير في نفوسهم الكراهية والحسد ، وترمي الى الاضرار بهم ، مثل قوانين الضرائب ، والتقاضي ، والحقوق المدنية الاخرى . اما الفرق الخارجة على الاسلام ، مثل : الدروز ، والنصيريين ، والمتاولة ، فكان لها كيانها المنفصل . وكانت — على قلة عددها — شديدة التمسك بعاداتها الاجتماعية والدينية . ولم تكن الوطنية بمعناها القومي معروفة آنئذ . وان كان من الحق ان نقول ان جميع العقائد والفرق كانت تشترك في اشياء كثيرة ، مثل : اللغة ، والعادات ، والقرابة العنصرية ، واهم من ذلك كله : بغضهم للحكم التركي الذي كانوا جميعاً يتمنون الخلاص منه . ولكنهم في طموحهم للحرية كانت تدفعهم حوافز متباينة ، وكان ترحيبهم بمجيء ابراهيم يرجع الى اسباب خاصة متعارضة . فكان ترحيب المسلمين ، في جوهره ، يرجع الى اعتقادهم بأن تأسيس امبراطورية عربية واسترجاع الخلافة الى ايدي العرب سيقوي من سيادتهم . ورحب به النصارى لأسباب مخالفة كل المخالفة ، فقد رأوا ان حكم محمد علي في مصر كان يقوم على التسامح والمساواة ، وكانوا يأملون في ان يكون فتحه لبلاد الشام سبباً في استمتاعهم بهذه النعم . ولم تخب آمالهم في ذلك ، فقد ألغى القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسري على النصارى وحدهم . ولكنه بعمله هذا نفّر المسلمين وأتاح لهم عوامل جديدة للثورة عليه . ولقد كان ابراهيم — بما أبدى من تسامح في عصر يسوده التعصب — جديراً بكل ثناء وتقدير ، ولكن هذا التسامح لم يثر الا الكراهية والحسد بسبب تعصب اهل زمانه وجهلهم بمعاني الوطنية .

٧

وهكذا ، فان مشروع الامبراطورية العربية ، ذلك المشروع الجريء

الذي تخيله محمد علي وتعهده ابراهيم ، قد أخفق لأنه لم يجد في بلاد الشام السند الذي كان يتطلبه ، وبذلك كان من السهل على انجلترة — لمعارضتها له — ان تقضي عليه . وكان أضعف جانب فيه أنه سبق زمانه ، واريد تطبيقه قبل تكوّن الوعي القومي بين العرب . وتعهده رجلان من غير العرب ، كانا — بالرغم من نشاط احدهما وحماسة الآخر — كمن ينفخ في رماد . واختفت الفكرة بهزيمتها ، ولم يظهر لها وجود بعد ذلك بين مشكلات السياسة الدولية الا في حرب سنة ١٩١٤ حين عاودت الظهور حلماً يراود رجلاً وابنه ، من العرب في هذه المرة ، وكانا يرميان الى التسلح بالسلاحين نفسيهما اللذين لم يتاحا لمحمد علي ، وهما : تنبه الشعور بالقومية العربية ، ومساندة انجلترة ومعاضدتها القوية .

إن قصة الحركة القومية للعرب تدور حول سلسلة الحوادث التي أدت بالشريف حسين وبابنه عبد الله الى ان يقوما بثورة متواطئين مع بريطانية . وقد بدأت القصة في بلاد الشام بعد انسحاب ابراهيم بزمن قصير ، وكان الفصل الاول في هذه القصة كما ذكرت ، انشاء جمعية أدبية في بيروت.

الفصل الثالث

البداية

١٨٤٧ – ١٨٦٨

١

كان من نتائج التسامح الذي تميز به حكم ابراهيم نتيجة لم تخطر على البال من قبل : فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك اتاح مجال العمل لقوتين : احداهما فرنسية والاخرى امريكية ، قُدّر لها ان تحضنا البعث العربي وترعياه .

ويرجع وجود البعثات التبشيرية الاجنبية في بلاد الشام الى مطلع القرن السابع عشر ، ولكن مجال جهودها كان محدوداً ، يقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعاهد في اماكن متفرقة، ونشر كتب العبادات. وكانت هذه البعثات كلها كاثوليكية ، ومعظمها فرنسية ، وتنتسب الى اليسوعيين او الكبوشيين او الكرمليين . وكان من العسير عليها بحكم التعصب الشديد الذي كان يسود ذلك العصر ان تعمل خارج نطاقها ، ولذلك اضطرت الى ان تحصر معظم جهودها في رعاية الطوائف المسيحية

الموالية لكنيسة روما .

وكان اليسوعيون انشط هذه الجمعيات ، وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٦٢٥ . ومع انهم كانوا يعانون كثيراً من المشاق بسبب الاضطهاد والفقر المدقع ، غير انهم استطاعوا بثباتهم ومثابرتهم ان يحافظوا على كيانهم وان ينجحوا بعض الشيء في اداء اعمالهم الى ان عطلت جمعيتهم في سنة ١٧٧٣ ، فتشتتوا واغلقوا اكثر مؤسساتهم وسلموا الباقي للبعثات اللعازرية لتديرها . ولم يستأنفوا عملهم الا في سنة ١٨٣١ ، وكان من الاسباب التي اوجبت عودتهم ان البعثات التبشيرية الامريكية وصلت بلاد الشام واخذت تحوّل افراداً من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتي.

وكان اتباع الكنيسة المشيخية (البريسبيتيريون) اول من وصل من الامريكان ، في سنة ١٨٢٠ . وكانوا يخضعون لاشراف المجلس الامريكي لمراقبة البعثات التبشيرية في الخارج . وكان هذا المجلس قد اسس مركزاً له في مالطة ، ثم احس ان الواجب يدعوه الى مد مجال نشاطه الديني نحو الشرق . فنزل البريسبيتيريون ببروت واسسوا فيها اول مركز لهم ، وبقي هذا المركز اهم مراكزهم . وقد واجهتهم جميع العقبات التي اعترضت سبيل الجمعيات الكاثوليكية التي سبقتهم ، وفضلاً عن ذلك واجهتهم عقبة جديدة انفردوا بها دون غيرهم ، وذلك انه لم تكن في بلاد الشام طائفة بروتستانتية ، فكانت وسيلتهم الوحيدة لجمع الاتباع هي تحويل الافراد من الطوائف الاخرى . وقد ادى نشاطهم هذا الى اثارة روح العداوة في نفوس رجال الدين من اهل البلاد . غير ان ذلك لم يوهن من عزمهم . ومضوا في جهادهم الديني بحماسة . وجاء ، بعد الطلائع الذين وصلوا في سنة ١٨٢٠ ، وافدون جدد ، من بينهم شاب في السادسة والعشرين من عمره يدعى ايلي سميث [١] ، كان لجهوده في بلاد الشام ابعد الاثر .

---

١ ولد ايلي سميث في نورثفورد (ولاية كونكتيكوت) في سنة ١٨٠١ ، وتعلم في ييل واندوفر . وبعد ان التحق بالكهنوت انضم الى المبشرين المشيخيين (البريسبيتيريين) وتطوع =

وقد بلغت العوائق التي اعترضت طريق البعثات التبشيرية الاجنبية قبل الفتح المصري لبلاد الشام ، مبلغاً – ان لم يعطل جهودها تعطيلاً كاملاً – فقد حصرها في أضيق نطاق . فقد اضطر الامريكان ، منذ وصولهم ، الى ان يحصروا انفسهم في داخل بيروت ، وكانت آنئذ مدينة مسورة لا يتجاوز عدد سكانها ٩٠٠٠ شخص . أما اليسوعيون واللعازريون – الذين سبقوا الأمريكان بمائتي سنة – فكانوا قد أسسوا مدارس لهم في دمشق وحلب ولبنان ، وشاركوا – بلا ريب – مشاركة كبيرة في نشر التعليم . ولكن جهدهم الاكبر كان موقوفاً على استمالة الناس للدخول في طائفتهم وعلى نشر الثقافة الدينية ، ولم يعملوا شيئاً للنهوض باللغة العربية من كبوتها وايقاظها من سباتها . ومع انهم قضوا قرنين في نشر التعليم ، فانهم لم يكن لهم اثر يذكر في التخفيف من حدة العداوة المذهبية الطائفية ، ولم يكن لهم ادنى جهد في ايجاد نهضة فكرية .

فلما جاء ابراهيم ، واحدثت سياسته في الحكم كثيراً من التغييرات ، فتح المجال بذلك امام البعثات التبشيرية الاجنبية . فتقاطر المبشرون على بيروت ومنها انطلقوا الى جميع انحـــاء الشام . وكانت سنة ١٨٣٤ سنة تحول ، ففيها عاد اليسوعيون ، ووصل وافـــدون جدد من الامريكان لينضموا الى الفئة القليلة التي سبقتهم ، وبدأ التنافس على النفوذ والغلبة بين الكاثوليك والبريسبيتيريين . وقد وصلت حدة هذا التنافس احياناً الى درجة التناحر . وكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية ، وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت ، خـــلال زمن قصير ، من الادب الى السياسة .

للعمل في الخارج . فارسل أولا الى مالطة ليشرف على مطبعة البعثة . ثم جاء بيروت سنة ١٨٢٧، ولكنه غادرها بعد سنة حين نزحت البعثات التبشيرية عامة خوفا من الحرب ، ثم عاد اليها في سنة ١٨٣٤ ووقف بقية حياته على عمله في بلاد الشام . وكان رجلا مثاليا ساميا لا يتطرق الوهن الى عزمه . وقد توفي في بيروت سنة ١٨٥٧ .

٢

حدثت في تلك السنة (١٨٣٤) اربع حوادث تستحق منا عناية خاصة . كانت الاولى : اعادة الآباء اللعازريين افتتاح كليتهم الخاصة بالذكور في عين طورة (عنطورة) . والثانية : نقل مطبعة البعثة التبشيرية الاميركية من مالطة الى بيروت . والثالثة : قيام ايلي سميث وزوجته بتأسيس مدرسة للاناث في بيروت في بناء خاص بها . والرابعة : ما قام به ابراهيم باشا من تطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي للذكور على نمط النظام الذي اقره ابوه في مصر .

وحسبنا لمحة عامة عن الحالة الثقافية في بلاد الشام في ذلك الحين ، لتدلنا على ما في هذه الحوادث من جدّة وأهمية .

كان المستوى الفكري العام منخفضاً جداً ، وكانت المدارس الموجودة آنئذ مدارس ابتدائية ، ويقتصر التعليم فيها — سواء أكانت مدارس اسلامية ام مسيحية — على أضيق فروع الدراسة الدينية ، بل لقد كان مستواها ، حتى في هذه الدراسات الدينية ، ضعيفاً ، وأفقها ضيقاً . فبذلت الكنيسة المارونية بعض الجهود لايجاد تعليم ارقى ، وخاصة في عين طورة ، احدى قرى لبنان ، حيث أنشىء معهد ديني لتدريب رجال الكهنوت في سنة ١٧٢٨ وعهد بادارته الى اليسوعيين . ثم اغلق هذا المعهد حين حلت « جمعية قلب يسوع » سنة ١٧٧٣ . ولم يكن هناك من المدارس العالية غير هذا المعهد سوى كليتين : احداهما في زغرته (سنة ١٧٣٥) ، والاخرى في عين ورقة (سنة ١٧٨٩) ، وكلتاهما أنشئتا في هاتين القريتين اللبنانيتين بفضل جهود رجال الدين المارونيين .

وكانت كلية عين ورقة اهم من الاخرى لأنها كانت مؤسسة تابعة للدير ، وكانت تعنى بتشجيع دراسة الادب العربي ، وقد تلقى العلم فيها اكثر البارزين من الادباء والاساتذة العلماء الذين ظهروا في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

وكانت ندرة الكتب عاملاً آخر من عوامل تأخر التطور الثقافي . فالمطابع العربيـــة كانت ، في الواقع ، غير موجودة ، وان كانت قد ظهرت خلال القرن الثامن عشر مطابع يدوية قليلة في الاديرة ، غير ان ما تطبعه كان ضئيلاً جداً ولا يكاد يتعدى كتب العبادات . وتغير الامر في مطلع القرن التاسع عشر بتأسيس مطبعة عربية في القسطنطينية (سنة ١٨١٦) واخرى في القاهرة (سنة ١٨٢٢) وطبعت كلتاهما كتباً ادبية وعلمية باللغة العربية [١] . ووصل بعض هذه الكتب بـــلاد الشام ولكن عددها كان قليلاً ، وقد ذكر الدكتور جون باورنج – وكان بالمرستون قد اوفده الى الشام لدراسة حالة البلاد في سنة ١٨٣٨ – ان الاقبال على شراء الكتب كان ضعيفاً جداً ، حتى انه لم يجد بائع كتب في دمشق ولا في حلب [٢] . اما الصحف والمجلات العربية فلم يكن لهـــا ادنى وجود قط .

وكانت اللغة نفسها قد انحطت وفسدت . حقاً ان التباين قد ظهر، في المراحل الاولى لانتشار التعريب ، بين اللغة العربية التي كان يتحدث بها اهل البادية والقبائل ، واللغة العربية ذات المصطلحات والقواعد النحوية التي كان يستعملها المتعلمون في المدن . وزاد هذا الانقسام مـــع مرور الزمن وضوحاً ، وادى الى وجود عبارات واصطلاحات في لغة التخاطب

---

١ ان مطبعة القاهرة التي لا تزال تعرف الى اليوم باسم مطبعة بولاق ، ذات أثر فـــي الثقافة العربية يفوق أثر مطبعة القسطنطينية • فقد زادت مطبوعاتها بين سنتي ١٨٢٢ و ١٨٣٠ على خمسين كتابا بالعربية والتركية والفارسية • ولم توافِ سنة ١٨٥٠ حتى بلغ العدد ٣٠٠ كتاب بهذه اللغات الثلاث، وكان نصيب اللغة العربية منها نصيبا كبيرا شمل الطب والجراحة والرياضيات والادب •

٢ « ويمكننا ان نتصور مدى النقص في الثقافة والتعليم من ان الاقبال على شراء الكتب كان ضئيلا جدا في بلاد الشام حتى اني لم أجد بائع كتب في دمشق أو حلب •• وترسل بعض الكتب التي تطبعها الحكومة المصرية بمطبعة بولاق الى الشام لتباع فيها ولكن الاقبال على شرائها ضئيل ، ومع ذلك فقد وصلت هذه الكتب الى بعض المدارس والاسر الخاصة » • (تقرير عـــن الاحصاءات التجارية في بلاد الشام ، تاليف جون باورنج – الوثائق البرلمانية سنة ١٨٤٠) •

مخالفة للاصول الفصيحة . ولكن ذلك كان امراً طبيعيـاً ، ولا يخشى ضرره ما دامت الثقافة العربية مزدهرة متمكنة ومـا دامت سنن عصر الازدهار الأدبي حية . غير ان هذه السنن اندثرت ، وكادت لغة التخاطب اليومي تطغى على الفصحى وتفسدها ، وذلك بعد ان ضعفت قوة العرب وزالت حضارتهم بما اوقعه بهـا الفتح العثماني من ضربة قاضية .

وقد بلغ الفساد الذي أصاب اللغة الفصحى في مطلع القرن الثـامن عشر ، مبلغاً كبيراً — على الاقل في بلاد الشام — وأدى الى انحطاط خطير ، وخاصة في لغة النصارى [١] ، وهو امر يظهر واضحاً فيما نعرف من كتب ألفها « المتعلمون » من كتّاب ذلك العصر . وزاد الامور سوءاً ان أدب العصور الزاهية قد نسيته ذاكرة الناس واندرس . واندثرت نماذج البيان الادبي ، وانمحى ما كان لهذه الثقافـة العظيمة من اثر روحي . ومهما تكن الجهود التي بذلها المبشرون لتعليم الناس فقد بقيت عقولهم مشلولة وافكارهم آسنة .

كانت هذه هي الحالة حين وصل ابراهيم بلاد الشام . اما الجهود التي تعاقبت منذ سنة ١٨٣٤ فجديرة بأن تعد نقطة انطلاق للتقدم الذي تم إحرازه فيما بعد ، فقد بدأت كلية عين طورة التي اعيد افتتاحها — وما زالت قائمة حتى الآن — تقوم بنصيب كبير في تكوين الكتّاب والمفكرين. وكان لنظام التعليم الذي ادخله ابراهيم — مع انه لم يدم طويلاً — اثره الفعال في حفز التعليم القومي ، وخاصة بين المسلمين . وكان للبداية التي بدأ بها اثر بعيد المدى ، إذ ان هذا النظام كان يرمي عامداً الى ايقاظ الوعي العربي القومي بين التلاميذ . وكانت المدرسة التي اسستها زوجة ايلي سميث اول مدرسة في بلاد الشام اقيم لها بناء خاص لتكون مدرسة

---

١ كان مستوى الثقافة الادبية وصفاء الديباجة في العبارة بين العرب المسلمين بوجه عام اعلى منه بين نصارى العرب . ويعود معظم السبب في ذلك الى أثر القرآن والى ما كان في العلوم الاسلامية من قيمة انسانية عميقة .

للبنات ، وقد طرأ – بعد تأسيس هــذه المدرسة في تلك البلاد التي كانت تهمل تعليم المرأة اهمالاً يكاد يكون شاملاً – من التحوّل ما يثير الدهشة والاعجاب ، ففتحت مدارس كثيرة على غرارها . واخيراً فان اقامة مطبعة كاملة العدة لنشر كتب باللغة العربية قد فتحت آفاقاً جديدة امام المعلمين ، واستطاعت هذه المطبعة بمــا قدّمته للمدرسين والطلاب من كتب مدرسية تتناول مواد التعليم الأساسية – استطاعت بذلك ان تقلب في مدى السنوات القلائل الاولى ، اساليب التعليم والتربية التي كانت متبعة في ذلك الزمن .

إن بناء الامة ، من غير مدرسة ومن غير كتاب ، امر لا يستطيع اهل العصر الحديث تصوره . وعلى اية حال فقد كان العمل الذي بدىء به في بلاد الشام سنة ١٨٣٤ – بما اشتمل عليه من انماط جديدة من المدارس والكتب المدرسية – تجربة ضرورية . ولو نظرنا الى الماضي لبدا لنا ان نتائج هذه التجربة كانت باهرة ، فقد استطاعت ، بما أرسته من أصول لنظام ثقافي جديد ، ان تمهّد الطريق امام اللغة العربية لتعود مرة أخرى فتصبح قادرة على ان تكون وسيلة التعبير عن الفكر .

٣

وأخذ انتشار التعليم ، منذ تلك السنة ، يتسع اتساعاً كبيراً ، وأعانت على ذلك ثلاثة عوامل رئيسية : الادارة المصرية وخطتها في انشاء المدارس الحكومية ، والبعثات التبشيرية الاجنبية الفرنسية والامريكية ، ورجال الكهنوت من أهــل البلاد الذين اثارت فيهم البعثات التبشيرية غريزة المحافظة على الذات كما أثارت فيهم نزعتهم الى الخير . وكانت مآثر كل فريق منهم ذات اثر واضح من عدة وجوه ، ونستطيع ايجازها فيما يلي :

أولاً – النظام المصري : عمل على انشاء المدارس الابتدائية في جميع

أنحاء البلاد ، وانشاء مدارس ثانوية في بضع مدن رئيسية . ولم يكن هدف ابراهيم من ذلك ان ينشر التعلم لذاته مجرداً ، وانما أراد ايضاً ان تكون المدرسة وسيلة تخدم أهدافه السياسية ومطالبه العسكرية . وكان يحرص على غرس بذور الوعي القومي العربي ، حتى ان حرصه هذا فاق حرص أبيه على ذلك في مدارس مصر . واستقدم مربياً فرنسياً [1] ذا مكانة مرموقة كان يعمل مع والده ، من أجل ان يقدم لـه النصح فيما يتبع من أساليب لتحقيق اغراضه . وأراد كذلك ان يهيء لشباب البلاد تعليماً خاصاً يعدهم للخدمة العسكرية . وفضلاً عن المدارس الابتدائية التي انشأها في جميع انحاء بلاد الشام ، اسس كليات واسعة في دمشق وحلب وانطاكية ، كان يتاح لطلابها — وجميعهم من المسلمين — السكن والطعام والكساء والتعليم على نفقة الحكومة ، وكانوا فوق ذلك تجري عليهم المرتبات . وكان في كلية دمشق نحو ٦٠٠ طالب ، وفي كلية حلب يزيدون على ٤٠٠ . وكان هؤلاء الطلاب يرتدون ملابس موحدة ويتدربون على الفنون العسكرية[2].

ومع ان هذا النظام الجديد حقق نتائج كثيرة في زمنه غير انه لم يدم غير ست سنوات ، اذ انه زال بجلاء الجيش المصري عن الشام سنة ١٨٤٠ . ولكنه خلف اثراً واحداً ثابتاً ، فقد اثار تجنيد ابراهيم لابناء المسلمين المخاوف في نفوس آبائهم ، ودفعهم ذلك الى ان ينشئوا المدارس لتزاحم المدارس التي انشأها ابراهيم ، فأتاحوا بذلك لابنائهم فرصة النجاة من الجندية التي كانوا يخشون عليهم منها . وقد اصبحوا — بسبب هذا الدافع — يعنون عناية كبيرة بالتعليم المدني (غير الديني) وظلت عنايتهم به بعد انسحاب ابراهيم تزداد قوة مع مرور الزمن .

---

١ هو الدكتور أ . كلوت الذي اشتهر باسم كلوت بك . وكان جراحا فرنسيا ، قدم خدمات جليلة في مجال الصحة العامة والتعليم الطبي في مصر خلال حكم محمد علي وكان مخلصا غاية الاخلاص لسيده وللنهضة القومية في مصر . وقد عني بان يطبع الطلاب في المدارس العليا التي كان يديرها ، على الشعور الصحيح بالقومية العربية (انظر : دوان ، في كتابه السابق ص ١٣٨) .

٢ تقرير باورنج ص ١٠٧ — ١٠٨ .

٤

ويأتي في المنزلة الثانية المبشرون الامريكان ، وكان لجهودهم أينع الثمرات بفضل ما كان يوجهها من افكار وما كان يدفعها من حماسة . وادركوا ان ما كانت تحتاج اليه البلاد ، قبل كل شيء، هو نظام تعليمي يلائم تراثها . وادركوا كذلك ان الامة اذا اضاعت تراثها فانهـا لا تستطيع استعادته إلا عـن طريق ادبها . وكان اولى الامور بالتقديم تأليف كتب العربية وكتب مدرسية مختصرة ، فعزم ايلي سميث وزملاؤه على ان يتولوا ذلك . وانكبوا على تعلم اللغة العربية خلال الزمن الذي استغرقه نقل مطبعتهم من مالطة الى بيروت .

ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى استطاعوا ان يسدّوا ، بما طبعوا من كتب ، حاجة المدارس التي انشأوها ، بل لقد زودوا المدارس الاخرى بهذه الكتب . وحين وجدوا ان مجموعة الحروف العربية بالمطبعة اصبحت لا تفي بالحاجة ، سافر ايلي سميث إلى القاهرة والقسطنطينية يبحث عن حروف جديدة ، واخيراً سافر الى ليبزج حيث اشرف على سبك نمط جديد من الحروف اصبح يعرف باسم الحروف العربية الامريكية [١] . فأصبحت المطبعة الامريكية – بفضل هذه الحروف التي زيدت عـلى جهازها – تستطيع ان تقوم بأعباء مشروعات واسعة في الطباعة العربية وخاصة اخراج الترجمة الجديدة للتوراة وتحمّل العمل الشاق الذي كان يتطلبه انجاز ذلك . واستثمر المبشرون الامريكان جهود اثنين من العلماء هما : ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، فعهدوا اليهما بتأليف كتب مدرسية مختصرة في شتى الموضوعات . وما كاد يتم تأليف هذه الكتب واقرارها حتى طبعوها في مؤسستهم ووزعوها على جميع انحاء البلاد . وكان الشغف والتلهف اللذان قوبلت بهما هذه الكتب يدلان على انها سدت نقصاً كبيراً

١ انظر كتاب «ثلاثة وخمسين عاما في بلاد الشام» (نيويورك ١٩١٠) تاليف هـ.هـ. جيسوب . وقد استمددت منه بعض الحقائق الاخرى الواردة في هذا الفصل .

وعلى ان العقول كانت متعطشة للمعرفة .

وفي الوقت نفسه كان المبشرون جادين في افتتاح المدارس في انحاء متعددة من بلاد الشام ، وكانت اولى منشآتهم في بيروت والقدس وجبل لبنان ، وقد اقر الدكتور باورنج بتفوقهم في مجـــال التعليم فأشار في تقريره الذي رفعه الى بالمرستون الى المستوى العالي نسبيّـاً الذي وصلوا اليه [1] . وبعد ان حلوا مشكلة الكتب المدرسية ، اعترضتهم مشكلة اخرى هي تخريج المعلمين المؤهلين . فوجدوا لها حلاً في تحويل المدرسة العالية التي اسسوها في بلدة عبية بجبل لبنان الى كلية لاعداد المعلمين وتدريبهم. وما ان وافت سنة ١٨٦٠ حتى كانوا قد اسسوا ثلاثاً وثلاثين مدرسة تضمّ نحو ألف تلميذ ، خُمْسهم تقريباً من البنات .

وتوّجوا أعمالهم في ميدان التّربية والتعليم بانشاء الكلية البروتستانتية السورية في بيروت سنة ١٨٦٦ . فقد كانت مشكلة التعليم العالي تشغل تفكيرهم سنوات عدة ، وقرروا اخيراً في احد اجتماعات اعضاء البعثة التبشيرية في سنة ١٨٦٢ ، الموافقة على انشاء مركز لائق بهذا التعليم . وعهد الى دانيال بليس [2] بالسفر الى انجلترة ثم الى الولايات المتحدة ليجمع

---

١ قال باورنج في تقريره ص ١٠٦ «وللامريكان في بيروت ايضا مدارس لها بعض الشهرة، واحدى هذه المدارس ، وهي مدرسة كبيرة ملحقة بمباني البعثة ، تستحق أكثر من اي معهد آخر في الشام ان تسمى كلية ‥ وقد أتيحت لي الفرصة لرؤية كثير من شباب الشام الـــذين يتعلمون في مدرسة ابعثة التبشيرية الامريكية فوجدتهم يتفوقون على جميع أترابهم في الشام. فهم جميعا يدرسون اللغة الانجليزية ، وتتراوح نفقات هذه المنشآة بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ دولار في العام تجمع كلها من التبرعات العامة في الولايات المتحدة ‥ وقد أنشأ هؤلاء المبشرون في أزمان مختلفة عدة مدارس للبنات . وكانت النتيجة ان نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة من السكان النصارى في بيروت تفوق نسبتهم في اي بلد آخر من بلاد الشام » .

٢ القس دانيال بليس ، دكتور في اللاهوت ، ولد سنة ١٨٢٣ في الولايات المتحدة ، وجاء بيروت سنة ١٨٥٦ . وحين انشئت الكلية السورية البروتستانتية في سنة ١٨٦٦ اصبح أول رئيس لها وظل حتى سنة ١٩٠٢ ، فتقاعد ، وخلفه ابنه هوارد بليس .

ما يتطلبه هذا المشروع من عون مالي . وبلغ من نجاحه هناك ان البعثة التبشيرية رأت ان في استطاعتها ان تسير في المشروع ، وهكذا فتحت الكلية السورية البروتستانتية – وهو الاسم الذي اصبحت تعرف به – أبوابها لستة عشر طالباً في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦. وكان التعليم فيها مقصوراً، أول الامر ، على بعض الدراسات الثانوية العليا وعلى الطب . وكانت لغة التدريس في جميع الموضوعات هي العربية . وبمرور الزمن اتسع نطاق هذه الدراسات وارتفع مستواها ، وتدرجت الكلية منذ انشائها في مراقي التقدم بخطوات ثابتة حتى اصبحت في مستوى المرحلة الجامعية . وهكذا ظهر الى الوجود معهد قدر له ان يشارك بنصيب كبير في توجيه مستقبل البلاد . وحين يتاح تسجيل الجهود التي بذلتها هذه الكلية لنشر العلم والمعرفة، وما أضفته على الدراسة الادبية والعلمية من حياة وقوة ، ومآثر طلابها الذين تخرجوا فيها ، حينئذ سيعرف – اقراراً للحق – ان اثرها في النهضة العربية – على الاقل في المراحل الاولى – يفوق اثر أي معهد آخر .

وكان للجهود التعليمية التي بذلها المبشرون الامريكان في ذلك العهد المبكر ، ميزات كثيرة ، من بينها ميزة كبرى هي احلال اللغة العربية محل الصدارة . وما ان حملوا عبء التدريس بها حتى أخذوا على عاتقهم واجب اصدار الكتب الملائمة . وكانوا في هذا الرواد الاوائل . وبذلك كان لجهودهم اكبر الفضل فيما تميزت به الحركات الاولى للنهضة العربية من جيشان فكري .

٥

ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية أقل نشاطاً من منافستها البعثات المشيخية (البريسبيتيرية) فأصبح لها من الأثر بمرور الزمن ما يساوي أثر الاخرى في سعة الانتشار . غير انها تأخرت عنها في الابتداء واستغرقت جهودها وقتاً أطول لتؤتي ثمارها .

وكان اليسوعيون اكثر هذه البعثات مضاء وعزيمة في ميدان تعليم الذكور . وقد مرّ بنا انهم عادوا الى الشام سنة ١٨٣١ . وبعد سنتين أعادوا افتتاح اثنتين من مؤسساتهم السابقة في جبل لبنان ، ثم ألحقت فيها بعد مدرسة بكل واحدة منها . وانشأوا مدارس في بيروت (سنة ١٨٣٩) وغزير (سنة ١٨٤٣) وزحلة (سنة ١٨٤٤) ، ثم وسعوا مجال نشاطهم في المناطق المجاورة الى المدى الذي أعانتهم عليه مواردهم المالية ، فشمل نشاطهم مراكز ابعد ، مثل : دمشق (سنة ١٨٧٢) وحلب (سنة ١٨٧٣) وكان لهم فيها نشاط من قبل . ومن بين المدارس التي انشأوها في ذلك الزمن ، اصبحت مدرسة غزير في جبل لبنان ذات قيمة تاريخية ، فقد نقلت الى بيروت سنة ١٨٧٥ وسميت جامعة القديس يوسف ، وصار لها اثر حاسم في الأجيال الناشئة ، شأنها في ذلك شأن اختها الامريكية .

وكذلك بدأ اليسوعيون ، في ميدان الطباعة ، بعد غيرهم . فأسسوا اول مطبعة لهم سنة ١٨٤٧ ، وكانت مطبعة حجرية ، ولذلك كان نتاجها ضئيلاً جداً . ولم يبدأوا الطباعة بمطابع ذات حروف منفصلة الا في سنة ١٨٥٣ . ونمت مطبعتهم تدريجياً خلال السنوات التالية . وحين نقلوا مركز تعليمهم العالي الى بيروت اصبحت لديهم أجهزة طباعة كاملة العدة ، واحتلت مكان الصدارة في هذا الميدان بفضل ما اخرجته من كتب التراث القديم وما طبعته من سائر كتب التعليم ، وبفضل حروفها الممتازة والعناية التي كانت تبذلها في تحرير مطبوعاتها وتصحيحها .

وقد نشطت في بلاد الشام في ذلك الوقت البعثات التبشيرية الكاثوليكية الاجنبية الاخرى . ففضلاً عن اللعازريين الذين أعادوا افتتاح كليتهم في عين طورة وانشأوا مدرسة في دمشق ، اسست راهبات المحبة ، والمنظمات الدينية الاخرى مدارس للبنات وصغار البنين في بيروت وبعلبك ودمشق وفي

مناطق متعددة من جبل لبنان .

ولكن جهود البعثات التبشيرية الكاثوليكية في ذلك الزمن المبكر ظلت بوجه عام – إذا استثنينا اليسوعيين واللعازريين – جهوداً محلية ضيقة وكان اثرها محدوداً ، وان كانت استحقت التقدير في زمنها وظروفها . ففي اثناء الاضطرابات التي كانت تهزّ البلاد من حين الى آخر ، وخاصة حوادث سنة ١٨٦٠ ، تعرض كثير من منشآتهم إما للهدم والتدمير ، وإما للتهديد والخطر ، بحيث اضطروا الى اغلاقها . غير ان مجال جهودهم امتد واتسع حين قل تعرضهم للعدوان بعد تلك السنة . وكانت مشاركتهم في النهوض بالتعليم بوجه عام مشاركة لها قيمتها حقّاً ، ولكن أثرها في النهضة العربية من نواحيها الادبية كان أثراً ضئيلاً عارضاً [١] .

٦

وقد آن لنا ان نتعرّف الى رجلين عظيمين كان بأيديهما زمام الحياة الفكرية في ذلك العصر .

كان ناصيف البازجي أسن هذين الرجلين . ولد سنة ١٨٠٠ في قرية صغيرة بجبل لبنان من اسرة لبنانية كان ماضيها خيراً من حاضرها . وتلقى في طفولته التعليم الرسمي الجاف الذي كان شائعاً في عصره ، ولكن هذا التعليم لم يستطع ان يخنق نبوغه . وقد شحذت عزيمته الدروس التي تلقاها عن كاهن القرية وزادت من تطلعه الى المعرفة ، فلم يكتف بهذه الدروس بل حفزته الى البحث عن المعرفة في اماكن اخرى . ولم يكن

---

١ ـ وفدت على بلاد الشام بعد مذابح سنة ١٨٦٠ عدة بعثات تبشيرية أجنبية ، كان أسبقها البعثة التبشيرية البريطانية السورية برئاسة زوجة بوين تومسون ، والبعثة التبشيرية البروسية التابعة لراهبات كايزر ورث . وقد بذلت منذ ذلك الحين جهودا واسعة مثمرة في ميدان التعليم والاسعاف الطبي . ومع ان اثرها أصبح عميقا في الاجيال التالية ، غير ان هذا الاثر لم يكن واضحا خلال الفترة التي نبحثها .

من الميسور آنئذ الحصول على كتب مطبوعة ، فكانت وسيلته الوحيدة ان يلجأ الى المخطوطات المخزونة في مكتبات الاديرة . وقد اتيح له — بفضل ما كان يتمتع به من شهرة اكتسبها بجده ومثابرته — ان يطلع على هذه المخطوطات وان يستعيرها كذلك ، فأفاد مما اتيح له فائدة كاملة. وكانت قدرته على العمل كبيرة وذاكرته قوية ، فحينما كان يعثر على نص يعتقد انه جدير بالدراسة العميقة ، كان يحفظه عن ظهر قلب او ينسخه بصبر ودأب بخطه المزخرف [١] . وقد مكنه ارتياده المكتبات من الوصول الى أعماق الأدب العربي القديم الذي كان آنئذ مجهولاً ، وكشف له ذلك عن الدمار الذي حاق بهذا التراث على مر العصور . ومنذ ذلك الحين اصبح شغله الشاغل ان يحيي هذا التراث ويستعيد الماضي . وقد أيقظ جمال هذا الأدب الدفين الوجدان العربي في نفسه ، فهام به وكأنه مسحور ، واصبح الرسول الداعي الى بعثه واحيائه .

ومن اليسير ان نشير بايجاز الى الحقائق البارزة في مجرى حياته . فحين بلغ السادسة عشرة من عمره اختير ليكون سكرتيراً لكبير من رجال الدين ، ولكنه لم يبق في هذا العمل غير سنتين او ثلاث ، ثم تركه ليستقل وحده بمتابعة تحصيله العلمي . وحين قارب نهاية العقد الثالث من عمره شغل منصباً في ديوان الامير بشير حاكم جبل لبنان المطلق ، وبقي فيه حتى سنة ١٨٤٠ حين اضطر الامير بشير الى مغادرة البلاد والعيش في المنفى ، بسبب انسحاب ابراهيم باشا من الشام . وكان في ذلك الحين قد ذاعت شهرته واصبح علماً في اللغة العربية ، إذ كتب كثيراً ، وكانت معظم كتاباته نظماً ، ثم جمعت كتاباته بعد ذلك في اجزاء عدة ووصفت خطأ بأنها شعر ، والحقيقة ان الموهبة الشعرية كانت تنقصه . وكانت الصفة البارزة التي تميزه هي صفاء الاسلوب ، فكانت كتاباته امثلة تحتذى لنماذج جديدة في التعبير الادبي . وكان من الطبيعي ان يتجه اليه الامريكان

---

١ ما زالت نسخ متعددة كتبها بخطه آنئذ محفوظة في مكتبة الاسرة اليازجية .

يطلبون منه العون على اصدار كتب في علوم اللغة العربية . فقد كان اكثر معاصريه قدرة على ذلك واستعداداً له . وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض ، ان تستعمل في المدارس، ولا سيما مدارس البعثة التبشيرية الامريكية . ولكن مجال استعمالها اتسع وانتشرت بين المدرسين والطلاب ، وظلت زمناً طويلاً بعد وفاته (سنة ١٨٧١) توجه تدريس علوم العربية .

ولم يقتصر اثر ناصيف اليازجي على انتشار كتبه المطبوعة . فقد أصبح بيته في بيروت ، بعد ان ترك خدمة حاكم جبل لبنان ، مثابة يتردد عليها جمهور من المريدين يتزايد باستمرار ، وكانوا — على عادة العرب القديمة في جميع بقاعهم — يتحلقون حوله ويستمعون اليه وهو يحدثهم عن مواطن الجمال والفتنة في اللغة العربية . وكان بفطرته متأنياً حذراً مقلاً في كلامه ويجمع كل صفات الصلابة التي يتصف بها من يطيل التدقيق في اختيار الالفاظ . ولكنه حين يتحدث عن اللغة العربية — وهي غرامه الوحيد في حياته الفكرية — كان لسانه ينطلق من عقاله فيطيل الحديث . وكانت هي اللغة الوحيدة التي يعرفها ، ومات دون أن يتعلم غيرها ، فكان اقتصار معرفته عليها وحدها سبباً في حصر حركات ذهنه في مجرى واحد ، وبذلك زاد تدفقه بها كأنه سيل جارف . ولم يكل قط عن دعوته الى احياء الادب القديم ، حتى نجح في اقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة . وكانت طرافة دعوته وجدتها تثيران انتباه الناس لأنه كان يتجه بها الى العرب على اختلاف عقيدتهم: النصارى والمسلمين جميعاً ، وكان يهيب بهم — في زمن كان التعصب الديني فيه لا يزال عنيفاً — ان يذكروا تراثهم المشترك وان يشيدوا على أسسه مستقبلاً يجمعهم اخواناً متآلفين . ونشأ أطفاله الاثني عشر ، بنين وبنات ، على هذه الآراء ، وأعداهم بحماسته ، حتى بلغ من تأثر أحد أبنائه بتعاليم أبيه — كما سيمر بنا — ان اصبح فيما بعد اول من نادى

بالتحرر القومي للعرب .

٧

وكان الرجل العظيم الثاني هو بطرس البستاني . ولد سنة ١٨١٩ ، وكان ايضاً عربياً نصرانياً من جبل لبنان ، ولكنه كان يختلف عن اليازجي في انه تلقى احسن ضروب التعليم الموجود آنئذ ، وتعلم لغات اخرى غير العربية . التحق ، وهو ابن عشر سنوات ، بكلية الدير في قرية عين ورقة ، وتعلم فيها السريانية واللاتينية فضلاً عن العلوم اللاهوتية وعلوم اللغة العربية . وتفوق ، وهو في تلك المدرسة ، على جميع أترابه بخلقه وبذكائه في تحصيل العلم . فاختاره الرهبان ليوفدوه الى الكلية المارونية في روما على نفقتهم ، وكان راغباً في الذهاب ، ولكن أمه ، وكانت أرملة ، بكت لأن ابنها سيفارقها الى بلد بعيد ، وتوسلت اليه الا يذهب. فبقي وشرع في احتراف التدريس ، ووجد من الوقت ما اتاح له تعلم اللغة الانجليزية ، وحين ذهب الى بيروت سنة ١٨٤٠ تعرف بايلي سميث وبأمريكي آخر جاء الى بلاد الشام مبشراً وطبيباً ، هو الدكتور كورنيليوس فان دايك[١] .

وقد نمت هذه المعرفة بينهم ولم تقتصر على الصداقة وحدها بل تعدتها الى الامتزاج الروحي ، فاعتنق البستاني المذهب المشيخي (البريسبيتيري)

---

١ ولد في بلدة كيندرهوك بولاية نيويورك سنة ١٨١٨ ، ودرس الطب في كلية جفرسن بفيلادلفية ، وجاء بيروت سنة ١٨٤٠ طبيبا مدنيا مع البعثة التبشيرية المشيخية (البريسبيترية) ، وكان من أول اعماله في بيروت أن بدأ يتعلم العربية حتى اصبح ضليعا فيها . وصار يتحدثها ويكتبها كابنائها المثقفين . وألف بها كتبا في شتى الموضوعات ، بقي بعضها متداولا جيلين او ثلاثة . ومات سنة ١٨٩٥ ، بعد أن قضى في بلاد الشام ٥٥ سنة في عمل متصل . واستطاع أن يتغلغل بمودة الى صميم حياة الناس ، وتفوق بذلك على جميع الاجانب الذين وفدوا على بلاد الشام ليعملوا فيها خلال القرن التاسع عشر . وربما كانت جهوده اكبر الجهود الفردية الاجنبية قيمة واكثرها أثرا في التطور الثقافي في هذه البلاد . وكان بذلك مثالا نادرا .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطاً وثيقاً وفُتِح أمامه مجال واسع للعمل. وقبل منصب مدرّس اللغة العربية في دار المعلمين بقرية عبية ، وألّف كتباً لتستعمل في المدارس . وحين طُلب اليه ان يساعد ايلي سميث في ترجمة التوراة انهمك في تعلم العبرية والآرامية واليونانية القديمة ، واخذ يستزيد من معرفته بالسريانية واللاتينية ، حتى اصبح متمكناً من جميع اللغات التي كُتِبت بها اقدم نصوص الكتاب المقدس . وكان قد تعلم اللغة الايطالية في المدرسة . ويبدو انه ايضاً تعلم اللغة الفرنسية في احدى فترات عمره . وبذلك اصبح قادراً على ان ينهض بنصيبه في ترجمة التوراة بعد ان تزود بجميع ما يتطلبه المترجم من مقوّمات .

وكانت قدرته كبيرة على تمثل المعرفة وهضمها ، وكان نتاجه الادبي من الوفرة بحيث يساعد نهمه في طلب العلم . وفي السنوات الاولى من تعاونه مع الامريكان كان يعلم في كلياتهم ، ويتعلم لغات جديدة ، ويلتهم الكتب الانجليزية التي تبحث في العلوم الطبيعية ، ويؤلف كتباً مختصرة لتستعمل في المدارس . وكان يلقي المحاضرات والمواعظ في الجمعية الأدبية التي حث الامريكان على انشائها ، كما كان يكتب لهذه الجمعية النشرات . ثم بدأ تعاونه مع ايلي سميث على ترجمة التوراة ، وكانت هذه الترجمة شغله الشاغل مدى عشر سنوات تقريباً . وما كاد يتمها حتى بدأ يعمل في الأثر الاول من اثريه العظيمين ، وهو : تأليف معجم للغة العربية ، صدر في سنة ١٨٧٠ في مجلدين بعنوان « محيط المحيط » . وبينما كان منصرفاً الى العمل وحده في جمع مادة هذا المعجم ادرك ان كبر حجمه واتساع مواده سيحولان دون استفادة الكثرة الغالبة من الطلاب والشبان منه ، ولذلك كان يعد ، في أثناء عمله ، مختصراً له أصدره بعده مباشرة بعنوان « قطر المحيط » .

وكان اثره العظيم الثاني دائرة معارف عربية . وقد شرع في هذا

العمل بعد مضي سنوات قليلة على اصدار معجميه ، وافاد فائدة كبرى من المصادر الاوروبية التي استطاع الرجوع اليها . ولكن عمله فيها كان اكثر من مجرد الجمع والترجمة ، إذ انها تضم قدراً كبيراً من المعلومات المستقاة من المصادر العربية : الادبية والتاريخية ، وهي تدل على ما بذله من جهد جاد اصيل في البحث . وظهر منها ، حتى وفاته سنة ١٨٨٣، ستة أجزاء . وبلغ من ضخامة هذا العمل ، ومن جودة مادته وتأليفه بالرغم من بعض النقائص المهمة ، ان احداً لا يكاد يصدق ان رجلاً فرداً وحده يستطيع ان يشرف عليه ، ويراجع كل فقرة فيه ، ويؤلف اكثره بنفسه [1] .

وفي اثناء قيامه بكل ذلك كان يصرف فيض نشاطه في اعمال اخرى يدفعه اليها حبه لبلاده . فقد كان من آثار فتنة سنة ١٨٦٠ وما صاحبها من مذابح وحشية قتل فيها النصارى في دمشق وجبل لبنان – ان ثارت مشاعر الحقد الديني وبلغت مبلغاً خطيراً . فسعى البستاني الى تخفيف حدتها باصدار صحيفة اسبوعية صغيرة في بيروت في تلك السنة بعنوان: « نفير سورية » . وكانت اول صحيفة سياسية اتيح لها الصدور في تلك البلاد . وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة الى التوفيق بين العقائد المختلفة ، والى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة . لأن المعرفة – كما كان يذكر في مقالاته المخلصة التي تملأ أعمدة صحيفته اسبوعاً بعد اسبوع – تؤدي الى الاستنارة العقلية ، والاستنارة العقلية تؤدي الى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين . وربما بدا لنا هذا الكلام الآن تافهاً لا جديد فيه ، ولكن بلاد الشام لم تكن قد سمعت بمثله من قبل ، وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية .

---

١ – بعد وفاة البستاني قام ابناؤه وبعض افراد اسرته باتمام هذه الموسوعة التي عرفت بعنوان : « دائرة المعارف » . وقد ظهرت في احد عشر جزءاً .

وسار خطوات اخرى في هـــذا السبيل لتحقيق فكرته ، فأنشأ بعد ثلاث سنوات مدرسة سماها « المدرسة الوطنية » غايتها ان يتلقى فيهـــا التلاميذ ، على اختلاف عقائدهم ، تعليماً اساسه التسامح الديني والمثل الوطنية . واسعفه الحظ بتعيين ناصيف اليازجي مدرّساً اول للغة العربية فيها . وذاعت شهرة المدرسة بسرعة ، وجذبت اليها التلاميذ من جميع انحاء بلاد الشام ، كان من بينهم من قدّم بعد ذلك اعمـــالاً جليلة لبلاده .

وفي سنة ١٨٧٠ – بعد صدور معجمه الكبير – انشأ « الجنان » ، وهي صحيفة سياسية ادبيـــة تصدر كل اسبوعين (نصف شهرية) . وكانت الغاية منها كذلك محاربة التعصب والدعوة الى التفاهم والاتحاد لخير الوطن . وكان شعار الصحيفة « حب الوطن من الايمـــان » ، وهو شعور لم يكن يعرفه العالم العربي حتّى ذلك الزمن . وكان يحرص على ان يبرز هذا الشعار على الصفحة الاولى مع العنوان في كل عدد . واستمرت الصحيفة تصدر في اوقاتها المقررة صدوراً يكاد يكون منتظماً خلال المدة التي بقيت من عمره . وكان يشارك في الكتابة فيها عدد من الكتّاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها . وكانت قيمتها الحقيقية في انها كانت تعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان يدعو اليها مؤسسها ، وانها كانت حافزاً قوياً وجّه الافكار الى التسامح الديني والنظرة الواسعة الى الامور .

وهو يشبه اليازجي في ان اثره لم يقتصر على سعة انتشار كتبه المطبوعة ، بل يرجع ايضاً الى ان حياته نفسها كانت نموذجاً حياً . فقد كان يسير في حياته وفق ما كان يدعو اليه ، في ثبات عجيب كأنه لا يتكلف له جهداً ، وفي طمأنينة المقتنع الذي لا تميل به الاهواء . حتّى انه احتفظ بهدوء نفسه خلال مذابح سنة ١٨٦٠ حينما اجتاحت البلاد اعاصير الحقد الديني ، ولم يكن ذلك عن عدم مبالاة منه ، فقد اصابت هذه الحوادث

« أبرشيته » ، ولكنه كان يعرف ما كان يجهله غيره من أن السبب الأساسي لذلك الاضطراب كان التعصب الذي ولّده الجهل ، وان السبيل الوحيدة للهدوء والصلح بين الطوائف هي السبيل الوعرة غير الممهدة التي تؤدي الى المعرفة . وقد ظل من سنة ١٨٦٠ حتى وفاته يعمل على اقامة معالم هذه الطريق بجد ومضاء عزيمة ينتزعان الاعجاب . ومضى يعمل، لا يتطرق اليه الوهن ، وكلما تقدّمت به السن زاد عزمه قوة . وكان قد بلغ السادسة والخمسين حين شرع في تأليف دائرة المعارف في زحام اعماله الأخرى . وكان الناس من حوله يظهرون علامات الاستجابة لدعوته ، وكانت الاصوات تتردد وتتعالى تطلب مزيداً من النور . غير ان الواجب الذي ندب نفسه اليه كان اثقل من ان تستطيع قوته تحمّله . فمات ذات ليلة فجاءة بسبب هبوط في القلب ، بينما كان يعمل في دائرة المعارف . وعثروا عليه ملقى على ارض غرفته ، قلمه بيده ، ومن حوله كتبه مبعثرة .

٨

اتفق اليازجي والبستاني – خلال السنوات الاولى من ارتباطهما مع البعثة التبشيرية الامريكية في العمل – على ان يقترحا انشاء جمعية علمية . ولم استطع ان اعثر على ما يوضح آراءهما في طريقة تأليف الجمعية والغايات المحددة التي كانا يرميان اليها . ولعلهما احسا بوجوب بذل بعض الجهود لتساير انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم، وان تكون الغاية من تلك الجهود رفع مستوى المعرفة بين الشبان الكبار عن طريق اتصالهم بالثقافة الغربية . واياً كان الامر ، فان الثابت انهما قدما اقتراحهما إلى اصدقائهما الجدد في شيء من الالحاح ، واقنعاهم سنة ١٨٤٢ بتعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح[١] . ولقد حقق المشروع غايته في كانون الثاني (يناير)

١ – تتألف هذه اللجنة – كما جاء في محضر اجتماع غير مطبوع مؤرخ في ٢١ نيسان =

سنة ١٨٤٧ ، فأنشئت الجمعية في بيروت باسم « جمعية الآداب والعلوم » . وكان من أعضائها : اليازجي والبستاني ، وكذلك ايلي سميث وكورنيليوس فان دايك ، وعدة اعضاء آخرين من الامريكان ، وانتسب اليها رجل انجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل المشهور . ولم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ اعضاؤها خمسين عضواً ، اكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت . ولم يكن فيها عضو مسلم او درزي . وكانت لها مكتبة صغيرة ولكنها كبيرة النفع [1] وكان اليازجي هو القيم عليها وكان البستاني سكرتير الجمعية . وكانت الاجتماعات تعقد مرة كل اسبوعين ، ثم اصبحت الاجتماعات تقل مع الزمن ، وكان يلقي أحد الاعضاء بحثاً في كل اجتماع . واستمرت الجمعية مدة خمس سنوات ، وأصدرت في عامها الاخير كتاباً من اعمالها حرره البستاني ، ذلك الرجل الذي لا يتطرق اليه الوهن ، وكان الكتاب يتضمن عرضاً شاملاً لما قامت به من أعمال ، وتلخيصاً موجزاً لكل بحث ألقي في اجتماعاتها .

كانت هذه الجمعية الاولى من نوعها في بلاد الشام ، بل في أية بقعة اخرى من العالم العربي . فان فكرة رفع مستوى المعرفة ببذل جهد جماعي منظم كانت غريبة عن الطبيعة العربية الفردية التي كان اسلوبها في تحصيل مستوى عال من التعليم يشبه اسلوب اليونان في زمن افلاطون ، حيث كان المعلم يتصدر قاعة الدرس ، فيهرع اليه طلاب العلم ليجلسوا عند قدميه ، وكان بعضهم يفد من بلاد نائية . غير ان هذه الجمعية الجديدة كانت

= (ابريل) ١٨٤٢ ومحفوظ في ملفات البعثة التبشيرية الامريكية ـ من : الدكتور كورنيليوس فان دايك واثنين آخرين من المبشرين ، وكانت الغاية منها « ان تتخذ الخطوات التمهيدية لتاليف جمعية ذات اغراض علمية » . واني مدين بالفضل للمسؤولين في البعثة ببيروت لانهم سمحوا لي بالرجوع الى سجلاتهم غير المطبوعة كما سمحوا لي بالرجوع الى مكتبتهم .

١ ـ ارسل ايلي سميث قانون الجمعية وتقريرا عن حالة مكتبتها الى الدوق مورجنلاندر ، طبعا في مجلة المستشرقين الالمان .Z.D.M.G المجلد الثاني ص : ٣٧٨ـ٣٨٨ .

بدعة طيبة الثمار ، فتألفت جمعيات اخرى على غرارها .كان لها دور مهم في نمو الحركة العربية القومية . والحقيقة ان اول صوت لهذه الحركة الوليدة صدر من احدى الجمعيات الاولى التي انبثقت عن الجمعية التي دعا الى تأسيسها اليازجي والبستاني .

كان اليسوعيون اول من احتذى المثال الذي وضعه الامريكان . فأسسوا في سنة ١٨٥٠ « الجمعية الشرقية » على الأسس نفسها ، وكان الروح المحرك لها هو الاب النشيط دو برونير [1] ، ومن المؤسف ان السجلات الباقية عن نشاطها ناقصة ، ومع ذلك فاننا نعرف انها كانت تعقد اجتماعات دورية تلقى فيهـا بعض الابحاث ، وان اعضاءها ، كسابقتها الجمعية الامريكية ، كان بعضهم من السوريين ، وبعضهم من الاجانب ، وكانوا جميعاً من النصارى [2] . ويبدو ان عقدها انفرط في وقت واحد مع « جمعية الآداب والعلوم » او بعدها بقليل .

وآخر الجمعيات التي سنتحدث عنها في هذا الفصل جمعية أنشئت سنة ١٨٥٧ بعد أن حلت الجمعيتان السابقتان . وهي اكبر من سابقتيها وتختلف عنها في أمرين : ان جميع اعضائها كانوا من العرب ، وان المسلمين والدروز اشتركوا فيها مع النصارى .

وهذان الامران يدلان على تغير اكبر في حقيقته مما يبدو لأول وهلة . فحينما تألفت الجمعيتان كانت العداوات الدينية هي السائدة ، ولذلك وقف المسلمون والدروز بمعزل عنها . وكانت رعاية المبشرين لهاتين الجمعيتين منذ انشائهما من العوامل التي زادت في نفور العناصر غير المسيحية . ولكن

---

١ ـ هنري دو برونير ، يسوعي فرنسي ، ولد سنة ١٨٢١ • وصل بيروت سنة ١٨٤٩ وبدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية • وقد اكسبه اطلاعه الواسع ونشاطه المتوثب نفوذا كبيرا في الشام ، وتبوأ منزلة رفيعة بفضل الجهود التي بذلها في نجدة المنكوبين في مذابح سنة ١٨٦٠ • وقد اضطرته صحته المعتلة الى العودة الى فرنسة ومات فيها سنة ١٨٧٢ •

٢ ـ هناك تقرير عن اعمال « الجمعية الشرقية » منشور في مجلة « المشرق » (بيروت) ، الجزء الثاني عشر (سنة ١٩٠٩) ص : ٣٢ـ٣٨ •

أخذت الآراء تتغير مع مرور الزمن ، وأخذ ضباب العداوة المؤذي ينقشع تدريجياً بتأثير نـــور المعرفة الوهاج . ولم تضع سدى حماسة اليازجي في مناشدته العرب على اختلاف عقيدتهم ان يتحدوا لخدمة لغتهم . كما لم يضع سدى اخلاص البستاني في دعوته الى تحطيم السدود والفوارق . فتقدم المسلمون باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك في تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود اهل العقائد الدينية جميعها لخدمة العلم ، على شرط الا يكون للمبشرين اي أثر فيها .

وهكذا أنشئت « الجمعية العلمية السورية » في سنة ١٨٥٧ ، وبلغ اعضاؤها ١٥٠ عضواً ، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف العقائد . وكان من اعضاء مجلس ادارتها : العالم الدرزي الامير محمد ارسلان الذي بقي عدة سنوات رئيساً لها ، وحسين بيهم – وهو عميد اسرة مسلمة ذات نفوذ ، ونصارى من جميع الطوائف من بينهم احد ابناء البستاني . وكانت غاياتها ووسائلها وقانونها وانظمتها كلها على غرار الجمعية التي انشئت سنة ١٨٤٧ . وكان من الطبيعي ان تعوق مذابح سنة ١٨٦٠ جهودها ، الا انه اعيد تأليفها بعد ذلك بفترة وجيزة على اسس أوسع من السابق ، ونالت اعتراف الحكومة بها سنة ١٨٦٨ ، وفسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت اعضاء كثيرين من الاشخاص البارزين الذين كانوا يقطنون خارج البلاد ، وخاصة في القسطنطينية والقاهرة .

وهكذا استطاعت المثل العليا المشتركة ان تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحدها في رابطة ايجابية فعالة ، تعمل لتحقيق اهداف مشتركة . وربما لم يسبق ان حدث مثل هذا في تاريخ بلاد الشام كلها ، او على الأقل لم يحدث مثل هذا يقيناً خلال الحكم العثماني الذي استمر في هذه البلاد ثلاثمائة وخمسين سنة . ومنذ ذلك الحين اصبح الحافز لهم الى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على اساس الوحدة الوطنية ، كما اصبح الرابط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي . ان انشاء هذه الجمعية هو

اول مظهر للوعي الوطني الجماعي ، وترجع قيمتها الحقيقية في التاريخ الى انها كانت مهد حركة سياسية جديدة .

٩

يحق لنا ان نقول ان اول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان في اجتماع سري عقده بعض اعضاء « الجمعية العلمية السورية » .

وكان احد الاعضاء ، وهو ابراهيم اليازجي ، ابن ناصيف العظيم ، وممن قدر لهم ان ينالوا شهرة أدبية كبيرة — كان قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطني . والقصيدة ، في جوهرها ، تحريض للعرب على الثورة : تغنت بأمجاد العرب ، وبمفاخر ادبهم ، وبالمستقبل الذي يستطيعون ان يصنعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم . وأزرت بشرور التفرقة الطائفية ، ونددت بفساد الحكم الذي وقعت البلاد فريسة له ، وأهابت بالسوريين ان يتحدوا ويلقوا عن اعناقهم النير التركي . وكانت ، في جملتها ، مثيرة للمشاعر ، مفعمة بالالفاظ التي تلهب الحماسة . وقد ألقيت بصوت خافت في ثمانية من اعضاء الجمعية ، اجتمعوا في بيت احدهم ذات ليلة وكان كل عضو منهم يعرف ان الآخرين متفقون معه في التفكير .

وذاعت القصيدة ذيوعاً واسعاً . وكان الناس لا يأمنون على انفسهم من ان يُتّهموا بالخيانة بسببها ، ولذلك لم يدوّنوها إلاّ في ذاكرتهم . وبلغت موهبة العرب في حفظ الشعر في الذاكرة ومقدرتهم على التآمر الخفي مبلغاً أتاح لهذه القصيدة ان تنتشر بالرواية الشفهية في المدينة كلها ، ثم في جميع انحاء البلاد ، من غير أية اشارة تنبىء عن مصدرها . وكان لها أثر بالغ في نفوس الطلاب ، فطبعت عقولهم ، وهم في سن يسهل فيها التأثر ، بطابع العزة القومية .

وهكذا اصبح لها نصيب وافر في تغذية الحركة القومية وهي في مبدئها. وترجع اسباب شهرتها وانتشارها الى سهولة بحرها وسلاسة قوافيها ، والى

سبب آخر أهم ، هو انها استطاعت ان توقظ العاطفة العميقة في الشعب الذي كانت تخاطبه ، بفضل تعبيرها عن المشاعر التي كان يحس بها هؤلاء الناس من غير ان يدركوها بوضوح . فكانت هذه القصيدة أول نشيد لحركة التحرر السياسي . لقد كانت الثمرة المباشرة لأول تكتل اتحدت فيه جميع العقائد لاحياء ثقافتهم القديمة . لقد تحمل ناصيف اليازجي عبء الدعوة الى ذلك من قبل ، ثم نجح البستاني من بعده في ان يرى ثمرة الجهود التي بذلها طوال حياته .

١٠

قد يكون من الخير ، قبل ان نختم هذا الفصل ، ان نعود قليلاً الى الوراء ونلقي نظرة عامة على الاحوال السياسية في بلاد الشام خلال السنوات التي تلت انتهاء الاحتلال المصري سنة ١٨٤٠ .

كانت تلك الفترة فترة اضطراب عام وفوضى ، تخللها احياناً نشوب بعض القلاقل . وكان اهل البلاد قبل الفتح المصري ، كما مر بنا ، منقسمين على انفسهم إلى عقائد وطوائف مختلفة . ومع ان مطالب الحياة المادية كانت تجمع بينهم احياناً ، غير انه كانت بينهم خلافات اساسية فرقت بينهم في التفكير وتوزعت اخلاصهم بين جهات متعددة . ومع ذلك كله، استطاعوا أن يقيموا علاقاتهم على اسس عملية مستقرة ، وكان من النادر ان تنفجر الخلافات الطائفية وتبلغ مرحلة العنف . غير ان من نتائج الاحتلال المصري انه اخل بالتوازن بين العناصر الرئيسية الثلاثة : المسيحيين ، والدروز ، والمسلمين [1] . ويعود بعض السبب في ذلك الى

---

١ ـ ان الحصول على احصاءات دقيقة امر غير ممكن . والمصادر التي بين ايدينا تزودنا باحصاءات تخمينية متناقضة ، ومع ذلك فربما كان اقرب ما يكون الى الصحة ان نقدر مجموع سكان بلاد الشام بنحو ١و٥ مليون ، وان نسبة المسلمين والمسيحيين والدروز هي بالتتابع : ٦٥ بالمئة و ٣١ بالمئة و ٤ بالمئة .

ما قام به ابراهيم باشا من تحرير المسيحيين ، فأثار بعمله قلق المسلمين . كما ان من اسبابه ما قام به المبعوثون الاجانب ، وخاصة الانجليز ، من تأريث البغضاء بين الدروز والمسيحيين .

وحين جلت الجيوش المصرية عن الشام ، وعادت البلاد الى الحكم التركي ، وجدت هذه العناصر الثلاثة نفسها متقابلة وجهاً لوجه ، وقد تجددت مشاعر البغضاء بينها ، ولم تكن امامهم يد ابراهيم القوية لتكبح جماحهم . فما كادت تمضي اشهر على انسحاب المصريين حتى نشبت قلاقل خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز .

وفي ذلك الوقت اصدر سلطان تركية مرسوماً عرف باسم خط الشريف (كولخانة ١٨٣٩) كان يتضمن ، في جملة ما تضمن ، اصلاحات ادارية في الحكم . وتنفيذاً لهذا المرسوم ، ونتيجة للاضطرابات التي نشبت سنة ١٨٤١ ، اقيم نظام اداري جديد في جبل لبنان قضى على ما كان سائداً منذ اجيال من ان يكون حاكم الجبل احد امراء الاقطاع هناك ، واصبح يتولى السلطة بدلاً منه حاكم تركي يعين تعييناً . وقسم الجبل بمقتضى هذا المرسوم ، إلى منطقتين منفصلتين كانت الكثرة الغالبة في احداهما من المسيحيين ، وفي الاخرى من الدروز . ومع ذلك فقد كان هذا التقسيم الاقليمي مصطنعاً بعض الشيء ، فلم يكن له اثر في تخفيف حدة الخلاف . ومما زاد الامور سوءاً ان المنافسة بين انجلترة وفرنسة حفزت كلاً منهما الى ان تتذرع بشتى العلل لتزيد من تدخلها في شؤون جبل لبنان ، وتبلورت هذه المنافسة في تحزب فرنسة للموارنة — وهم اكثر المسيحيين عدداً في جبل لبنان ، وتحزب انجلترة للدروز . فنشبت الاضطرابات ثانية في سنة ١٨٤٥ ، وحدث خلالها من اعمال القتل والنهب ما اصاب الاديرة الكاثوليكية ورهبانها ببلاء كبير . فأرسل السلطان وزير خارجيته ، شكيب افندي ، وزوده بتوجيهات اطلقت يده في العمل . فأحدث من التغيير في نظام الادارة ما انتقص من قوة زعماء الاقطاع اكثر

من السابق ، ولكنه أبقى جبل لبنان مقسوماً الى منطقتين ، كما أبقى طريقة الحكم التي لم تنل رضاء أحد .

ومع ذلك فقد أعقبت التغييرات التي أحدثها شكيب أفندي سنوات تميزت بهدوء نسبي ، او على الاقل لم يحدث خلالها شيء من حوادث العنف ، وانصرفت فيها عناية « الباب العالي » والدول الاوروبية الكبرى إلى مدينة القدس حيث احتد الخلاف بين الطوائف المسيحية على امتيازاتها وحقوقها في سدانة الاماكن المقدسة ، فأثار هذا الخلاف من مشاعر الاستياء والحنق في الدوائر الدبلوماسية ما ادى في النهاية الى حرب القرم. واعقب ابرام الصلح مرسوم جديد اصدره السلطان سنة ١٨٥٦ عرف باسم الخط الهمايوني ، وكانت قيمته في انه اشتمل على اعتراف صريح واضح بالمساواة الكاملة بين جميع الاديان في الامبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب ، والقضاء ، والحقوق والواجبات المدنية . وبذلك يكون المرسوم قد اقتبس المبادىء التي حملها ابراهيم باشا معه إلى بلاد الشام وأقرها ، ومنح النصارى حقاً قانونياً مطلقاً في المساواة بالمسلمين . وقد انشئت « الجمعية العلمية السورية » في السنة التالية لصدور المرسوم ، وكانت – كما مرّ بنا – أول جمعية يشترك فيها اعضاء من اهل الدينين . ولم يكن من المستطاع ان تقوم قبل ذلك .

ولكن هذا الهدوء كان هدوءاً في الظاهر فقط ، إذ كانت ثمة عوامل تصطرع فتنذر بنشوب حرب اهلية . وكان العاملان الرئيسيان هما تذمر الفلاحين الذين كانوا يكافحون ليحرروا أنفسهم مما تبقى من آثار النظام الاقطاعي ، وتزايد قوة رجال الدين ، خاصة كهان الموارنة ، الذين لم يقنعوا بما وصلوا اليه من نفوذ اتاحه لهم النظام الذي استحدثه شكيب افندي ، فأخذوا يحاولون بسط نفوذهم بحيث تتاح لهم السيادة السياسية الفعالة . وقد تحالفت هاتان القوتان على مقاومة السادة أصحاب الأرض . ومع أن هؤلاء السادة كانوا منقسمين على انفسهم غير انهم كانوا يظهرون

بمظهر المتحدين حين يتعرض امتيازاتهم للخطر . فنشبت ثورة في لبنان الشمالي سنة ١٨٥٧ قام بها الفلاحون الموارنة بتحريض من كهنتهم ، على سادتهم الاقطاعيين المنتمين الى الطائفة نفسها . وامتدت الثورة الى لبنان الجنوبي حيث كان عدد كبير من الفلاحين النصارى يعملون في ارض بعض الدروز من الاقطاعيين السادة ، فاتخذت الثورة هناك ، لهذا السبب . مظهر الصراع الطائفي . ومما زاد الامور سوءاً ان خورشيد باشا – الحاكم الذي صادف حينئذ انه كان يمثل الباب العالي – رأى في تلك البغضاء المتزايدة الفتاكة ما يدعو الى الامل في وقوع أعمال عنف قد تتحول الى ثورة ، فتتخذ حينئذ ذريعة إلى تشديد قبضة تركية على البلاد . ومن وراء ذلك كانت المنافسة على النفوذ بين انجلترة وفرنسة بما يسودها من روح التحزب الضيق ، تزيد من عوامل الفتنة العامة .

واخيراً نشبت القلاقل في ربيع سنة ١٨٦٠ ، بهجمات شنها الدروز على جماعات من النصارى في لبنان الجنوبي . ولم تمض سوى اسابيع قليلة حتى امتد لهيبها واتسع نطاقها . فدبر الفلاحون الدروز ، الذين انضموا الى سادتهم الاقطاعيين ، مذبحة عامة فتكوا فيها بالنصارى : من فلاحين وسادة اقطاعيين ، ورجال دين ، على السواء . ومع ان المعتدين كانوا اقل عدداً غير انهم كانوا اقوى سلاحاً ، واقدر على الحرب . وقد قاوم النصارى مقاومة الابطال في اماكن كثيرة – وبادلوا المعتدين عدواناً بعدوان في اماكن اخرى . ولكنهم لم يستطيعوا ان يصنعوا شيئاً امام عنف العدوان الدرزي وخيانة الجيش التركي الذي لم يناصر المعتدين حقاً ،ولكنه لم يدافع عن الضحايا ، وتركهم يلقون حتفهم ، فسقط ألوف من النصارى بين صريع مجندل وشريد التجأ إلى المدن .

وامتدت موجة البغضاء الى انحاء اخرى من البلاد . فتجمع المسلمون في دمشق ، في مطلع شهر تموز (يولية) وهجموا على حي النصارى ، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً قل ان شهد مثله التاريخ . وكانت الخسارة في الارواح

في جبل لبنان ودمشق مروعة اذ بلغ عدد القتلى ١١,٠٠٠ قتيل ، وأصاب الممتلكات من التدمير والخراب ما يتناسب مع عدد القتلى وكانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية ، وخاصة اليسوعية – اشد الطوائف تعرضاً للأذى ، فقد نزلت بها احداث عنيفة من القتل والنهب .

ان السخط الذي أثارته هذه الاعتداءات حفز الباب العالي والدول الكبرى الى العمل . فأبحرت السفن الحربية الاجنبية فوراً الى المياه السورية . ورست حملة فرنسية في بيروت في نهاية آب (اغسطس) . وكانت القلاقل في ذلك الوقت قد انتهت في الواقع ، فأعان نزول الجنود الفرنسيين على اقرار السلام نهائياً . وأرسل السلطان وزيراً من أقدر وزرائه هو فؤاد باشا وخوله سلطات واسعة ، وأمره بأن ينزل العقاب بكل جان مهما سمت منزلته . وبعد ان أدى فؤاد باشا واجبه بحماسة ظاهرة صدرت اليه الاوامر بأن يتباحث مع ممثلي الدول الكبرى ، الذين اجتمعوا في بيروت ، للاتفاق على الاسس التي تكفل حكماً أصلح لجبل لبنـــان . فأسفرت مباحثاتهم عن وضع اتفاق أولي ، زيد فيه بعد ذلك ، وأصبح ميثاقاً عرف باسم « القانون الاساسي » (Règlement Organique) وصدر سنة ١٨٦٤.وصدر في تلك السنة قانون يتضمن تعديل نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية . قسمت فيه بلاد الشام الى ولايتين تدار كل منهما على اسس مركزية دقيقة ، ويتولى الحكم فيها والٍ اصبح موظفاً رسمياً يعينه السلطان ، ويعتبر مسؤولاً مسؤولية مباشرة أمام الحكومة المركزية في القسطنطينية ، وكان الحاكم من قبل اما زعيماً اقطاعياً وإما أحد الباشوات الذين كانوا يتمتعون بما يشبه الاستقلال . أما جبل لبنان فقد فصل عن بقيّة البلاد ، ووضع له نظام متميز يعتمد على اسس واسعة من الحكم الذاتي ويتيح له نظاماً خاصاً به من الحكم المحلي ، ويتولى ادارة البلاد حاكم نصراني يساعده مجلس من ممثلي البلاد .

لقد تركت قلاقل سنة ١٨٦٠ وما أعقبها من اتفاقات آثاراً بعيدة المدى . فقد أعانت على الانتقاص من النفوذ السياسي الذي كان يتمتع

به رجال الدين المسيحي . وكانت من العوامل التي هيأت للقضاء على النظام الاقطاعي .

وأما في المجال الدولي فقد أتاحت للدول الاوروبية الكبرى ان تتذرع بها لتسوّغ تدخلها الصريح في الشؤون الداخلية لبلاد الشام — وهي سابقة أصبحت تلك الدول تستغلها في كل مناسبة خلال السنوات الخمسين التالية . وكانت نتيجتها السياسية البارزة انها منحت جبل لبنان نظاماً للحكم لم يتمتع به من قبل ، يلائم كيانه الخاص ومطالب مجتمعه ، وقد زاد من ثبات هذا النظام واستقراره انه اعتمد على ضمان الدول له .

ولكن اضطرابات سنة ١٨٦٠ — فضلاً عن نتائجها السياسية والدولية — جديرة بأن تعتبر ، في تاريخ الحركة الفكرية في الشام ، الحدث الحاسم في القرن التاسع عشر . فقد نبّهت أذهان الناس الى ما ينجم عن الجمود العقلي من أضرار ، وألهبت حماسة الذين ادركوا ان محنة البلاد ترجع ، في جذورها ، الى العداوات الطائفية التي ينميها الجهل . فكان ذلك سبباً في تجديد السعي لانشاء المدارس ، وفي مضاعفة الجهد لتحطيم الاغلال التي تقيد العقل . ولا يقل عن تلك النتائج أهمية انها حفزت جماعة من المفكرين الشبان الى ان يبدأوا سعيهم من اجل تحرير وطنهم من الحكم التركي . وكان هؤلاء الشبان هم تلامذة اليازجي والبستاني ، وأول جيل نشأ على دراسة التراث الثقافي الذي بعثت فيه الحياة . فاقتربت نفوسهم ، بتأملها مواطن الجمال في هذا التراث ، من الروح العربية ، وأحست بصدق ما يجيش في تلك الروح من مشاعر الحرية . لقد بذرت بذرة الوطنية ، وظهرت الى الوجود حركة عربية الوحي والالهام ، تتمثل أهدافها العليا في القومية لا في الطائفية .

وهكذا ولدت الحركة العربية القومية ، وتتلخص قصة طفولتها في الاحداث التي وقعت خلال السنوات الاربعين التالية ، وكانت فيها ضعيفة عاجزة ، ولكنها ظلت حية نامية ، تحملها في أناة الى غايتها أجنحة الادب الذي بُعثت فيه الحياة .

الفصل الرابع

الاستبداد الحميدي

١٨٧٦ - ١٩٠٨

١

تتمثل قصة السنوات الاربعين التالية ، من معظم جوانبها ، في شبح طغيان عبد الحميد الثاني ، الذي منح رعاياه حكماً دستورياً مرتين : الأولى في بدء حكمه ، والثانية في نهايته .

وكان الحاكم في مطلع هذه الفترة هو السلطان عبد العزيز الذي اعتلى العرش سنة ١٨٦١ ، وكان ملكاً كثير الاخطاء شديد التبذير ، فانتهى حكمه بعد خمسة عشر عاماً بخلعه . ولم يكن عهده اكثر أمناً واستقراراً من عهد سلفه : ففضلاً عن استهتاره وتبذله ، كان كبار وزرائه وموظفيه غير أمناء وغير كفاة ، فضاق الناس بحكمه ذرعاً . ونشبت الثورات في عدة ولايات اوروبية تابعة للدولة ، وان لم ينشب مثلها في الولايات العربية . وكان آخرها الثورة التي نشبت في بلغارية وقمعت قمعاً عنيفاً أثار عاصفة من الاحتجاج في اوروبة ، فكان ذلك مبدأ تهجم جلادستون على فساد

الحكم العثماني وتنديده بمساوئه .

وأما في الولايات العربية ، فقد كان شعور القلق وعدم الولاء ينتشر ويتزايد ، ولم يعد الناس يطيقون صبراً على فساد الادارة وأباطيلها ، ولكن لم تنشب فيها ثورات منظمة ، لأن الاتجاه الفكري نحو التحرر القومي – ذلك الاتجاه الذي رأينا مولده في الفصل السابق – كان لا يزال حينئذ وليداً يحبو ، ولم يكن قد أتيح له من الزمن ما يجعله قادراً على التأثير في اكثر من افراد قليلين متفرقين .

وفي شبه الجزيرة العربية نفسها احتل الاتراك الاحساء سنة ١٨٦١ واليمن في السنة التالية ، فاتسعت بذلك رقعة حكمهم في شبه الجزيرة ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يُحْكِموا قبضتهم على سكانها الذين كانت تزداد في نفوسهم عوامل التذمر والسخط .

وقد تم خلع عبد العزيز في ١٠ ايار (مايو) ١٨٧٦ بعد ان اجبر على التنازل ليخلفه ابن أخ له اتخذ اسم مراد الخامس . وكان مراد مصاباً بصرع لا يرجى شفاؤه ، فخلع بعد ثلاثة اشهر من توليه بسبب علته ، وخلفه أخ له أصغر منه ، هو عبد الحميد الثاني ، الذي نودي به سلطاناً في ٣١ آب (اغسطس) من السنة نفسها .

ودام حكم عبد الحميد ثلاثة وثلاثين عاماً ، الى ان خلع ايضاً في سنة ١٩٠٩ . وفي عهده خطت الحركة الفكرية ، التي رأينا مولدها في الفصل السابق ، خطوات حاسمة ، وأصبحت بذرة الوعي القومي العربي التي نمت جذورها في بلاد الشام ، تمد أغصانها على البلاد المجاورة التي يتحدث أهلها اللغة العربية ، ثم تفتقت اكمامها وأزهرت اخيراً ، بعد خلعه ، وصارت حركة واعية يقظة واسعة الانتشار .

٢

حين ارتقى عبد الحميد العرش كانت الدولة العثمانية تجتاز طريقاً مظلماً

اشدّ الظلام . فقد استعلنت روح الثورة من السر الى العلن ، وكانت روسية تهدد بالحرب ، واوروبة تظهر العداء والتعنّت خاصة بعد الفظائع التي اقترفت في بلغارية .

أما الناحية المالية : فقد كانت الخزانة العامة خاوية ، والميزانية مختلّة تعاني من العجز .

وكان قد اشتُهر عنه حين تولى الملك ، أنه أمير ورع ، حرّ الفكر ، يحبّ التقدم والتجديد ، وقد أتيحت الفرصة للدول الكبرى ولرعاياه لاختبار هذه الصفات فيه في السنة الاولى من حكمه .

فقد جاهرت الدول الكبرى بالحاحها على وجوب اصلاح الادارة في الولايات . وقامت جماعة ذات نفوذ من رعاياه بزعامة مدحت باشا [1] ، تطالب بأن يكون الحكم دستورياً .

وبدأ عبد الحميد عهده متظاهراً بأنه يحيا حياة مطابقة للصفات التي اشتهرت عنه ، وكان ماكراً كالثعلب في قدرته على اخفاء مآربه الحقيقية . فعين مدحت رئيساً لوزرائه (صدراً أعظم) ، ومنح شعبه دستوراً أعلنه وسط احتفالات رائعة المظهر ، في اليوم نفسه (٢٣ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٧٦) الذي اجتمع فيه ممثلو الدول الكبرى في مؤتمر عام لوضع المقترحات التي تكفل اصلاح الحكم في امبراطوريته . وهي حركة بارعة كانت لها نتائجها القريبة المباشرة ، فقد خدع رعاياه فأحسنوا الظن بنواياه الطيبة ، كما فوت الفرصة على المؤتمر الاوروبي فلم يسمع احد صوته .

---

١ ـ هو احد عظماء رجال الدولة الاتراك في العصور الحديثة . ولد في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب ادارية مختلفة الى ان اصبح ، وهو في الاربعين من عمره ، واليا على ولاية بلغارية ، ثم واليا على ولاية الدانوب . وعين في سنة ١٨٦٨ واليا على ولاية بغداد . وقد اثبت في جميع هذه المناصب انه اداري موهوب وسياسي وطني مستنير وتولى منصب كبير الوزراء (الصدر الاعظم) سنة ١٨٧٣ ، ولكنه وجد من المحال ان يجمع بين خدمة عبد العزيز والمحافظة على كرامته ، فاعتزل العمل الحكومي الى اعمال خاصة وانضم الى جماعة السياسيين من رجال الدولة الذين عملوا على خلع عبد العزيز .

وكان الدستور في أصله من وضع مدحت نفسه ، ولذلك كان يحمل طابع افكاره الحرة . وكان مما يعتقده مدحت أعمق الاعتقاد ان كبح سلطة السلطان المطلقة أمر لا بدّ منه لخير الامبراطورية ، بـل لبقائها ووجودها . وكان يعتقد أيضاً ان المساواة في المعاملة بين الاجناس المختلفة التي ينتسب اليها الرعايا أمر أساسي لا بد منه لضمان التأييد الشعبي للحكم الدستوري . اما الامر الاول فكان امراً طبيعياً لا غرابة فيه ، ولكن الامر الثاني يبدو لنا الآن انه لم يعتمد على تقدير سليم للقوى التي كانت تصطرع. إذ يرجع السخط الذي كان يسود الشعوب المحكومة الى عاملين معاً : الى نمو الوعي القومي ، والى طغيان الحكم وفساده . ولقد رأى مدحت احد هذين العاملين ، ولكنه لم يستطع ان يدرك العامل الآخر ، ولو فرضنا انه ادركه فانه على ما يبدو أخطأ في فهمه والحكم عليه . وأياً كان الامر فان العلاج الذي اراد تطبيقه بالسعي الى ادماج الاجناس المختلفة في حكم ديموقراطي موحد مترابط ، انما يثني على اتصافه بروح العدل والانصاف بأكثر مما يثني على حصافته وعمق فهمه . ولم يستطع الدستور ، بصورته التي صدر فيها بعد التعديلات التي ادخلها عليه السلطان ، ان يوفر المساواة الحقيقية ، ولكنه نص على احترامها من حيث هي مبدأ اساسي من مبادىء الحكم . ومع ذلك ، فان الميزة الكبرى لهذا الدستور في انه كبح نزوات السلطان الجامحة ، وان لم يكن ذلك بالقدر الذي اراده مدحت .

ومهما يكن فان هذا النصر لم يدم طويلاً ، فإن اتجاهات عبد الحميد الديموقراطية اصبحت موضع الشك بعد اعتلائه العرش ، وسرعان ما اتضح انه لم يصدر الدستور لأنه كان يرغب في ان يحكم حكماً دستورياً او لأنه كان يؤمن بذلك الضرب من الحكم ، وانما اصدره لأن الظروف آنئذ الزمته بذلك ، للتمويه على رعاياه من جهة ، وليعطل المؤتمر الاوروبي من جهة اخرى . وقد حقق الغرضين ، إذ اصبح مطمح انظار شعبه وانفض المؤتمر مخفقاً بعد ان تزعزع حاله . حينئذ بدأ عبد الحميد بتحطيم

الدستور ، وكان مدحت هو العقبة الوحيدة الهامة الباقية في طريقه ، فعزله فجأة في مطلع شهر شباط (فبراير) ، ونفاه الى اوروبة . وبعد ان افتتح البرلمان الجديد في اوائل شهر آذار (مارس) وألقى خطاب العرش، وكان خطاباً يفيض بالفصاحة ، تذرّع باعلان روسية الحرب وأصدر قانوناً بتعطيل الدستور . وبقي « معطلاً » احدى وثلاثين سنة .

وانتهت الحرب الروسية – التركية التي نشبت عام ١٨٧٧ بوصول الجيوش الروسية حتى مشارف القسطنطينية ، وفرض معاهدة سان ستيفانو الجائرة على السلطان بما فيها من شروط قاسية . ولكن تدخل بريطانية العظمى حمل روسية على ان تعدّل شروطها ، وان تستبدل بها معاهدة برلين التي عقدت في شهر تموز (يولية) سنة ١٨٧٨ . وقد أثرت هذه المعاهدة تأثيراً كبيراً في وضع الولايات الاوروبية التابعة للدولة العثمانية ، ولكنها فيما تضمنته من تعديل للحدود الاقليمية – لم تمس الولايات العربية . وكان الاثر الرئيسي الذي تركته الحرب في نفوس سكان هذه الولايات انها زادت من تذمرهم الشامل ، وضاعفت سخطهم بسبب حشد الجنود العرب على سفن حربية أجنبية وفي أحوال بالغة المشقة ، لمحاربة عدو بعيد لا يكادون يعرفون عنه اكثر من اسمه .

ومنذ ذلك الحين أصبح عبد الحميد ، بعد تعطيل الدستور وابرام معاهدة برلين ، مطلق اليد في ان يحكم على هواه ، وبدأ عهداً من الطغيان وسوء استغلال السلطة وفسادها ، لم يشهد التاريخ أسوأ منه . ولسنا في حاجة الى تأريخ الاحداث الكبرى في عصره ، فحسبنا ان نعرض بايجاز معالمه التي أثرت في مصير العالم العربي .

٣

من المناسب في هذا الموضع من الفصل أن نعرض أحوال البلاد العربية الخاضعة للسلطان ، ونظام الحكم الذي كانت تدار به .

بدأت المحاولات لاعادة تنظيم الشؤون الادارية منذ أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر . وقد خطت هذه المحاولات خطوات كثيرة إلى الامام بما صدر من قوانين متوالية في عهدي عبد المجيد وعبد العزيز ، فكانت احدى النتائج التي ترتبت على ذلك ان اصبح لوزراء السلطان سلطات اوسع .

وهذا النظام الجديد يرمي الى التنظيم الموحد المتسق . فقد قسمت الدولة إلى « ولايات » ، على رأس كل منها « والٍ » مسؤول مباشرةً أمام الحكومة المركزية في القسطنطينية . وقسمت الولايات الى عدد من المناطق يسمى كل منها « سنجق » على رأس كل منها « متصرف » يتبع الوالي . ويتألف السنجق من وحدات كثيرة صغيرة يحكم كلاً منها موظف يلقب « قائمقام» يرتبط بالمتصرف رئيسه المباشر . وكانت هناك – في حالات قليلة – سناجق لم تدخل في هذا النظام الاداري المألوف للولايات لسبب ما ، فكان لها كيان اداري منفصل ، وعرفت باسم « السنجق المستقل » ،ومعنى ذلك ان « المتصرف » فيها يتمتع بامتيازات الوالي من حيث السلطة التنفيذية والارتباط المباشر بالقسطنطينية . وكان جبل لبنان – كما نص عليه في القانون الاساسي (Règlement Organique) – مثلاً واضحاً على ذلك .

وحين اعتلى عبد الحميد العرش كانت البلاد العربية الخاضعة له في آسية هي : بلاد الشام ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية . فلما طُبِّق النظام الاداري على بلاد الشام قسمت هذه المنطقة بجميع ما يتضمنه اسمها من مدلول جغرافي الى ولايتين اثنتين وسنجق واحد . ولكن التجربة دلت على أن هذا التقسيم متداخل يسبب الارتباك ، فاستبدل به نظام آخر في سنة ١٨٨٧ قُسِّمت بلاد الشام بمقتضاه الى ثلاث ولايات وسنجقين اثنين ، هي : ولاية حلب في الشمال ، وولاية بيروت في الغرب ، وولاية سورية في الشرق ، وسنجق جبل لبنان الذي فصل عن ولاية بيروت ليؤلف

وحدة ادارية خاصة ، وسنجق القدس في الجنوب وكان أيضاً ذا كيان اداري متميز . اما العراق فقد مر بفترة تجربة مشابهة ، وانتهى به التنظيم اخيراً الى تقسيمه الى ثلاث ولايات ، هي : ولاية الموصل في الشمال ، وولاية بغداد في الوسط ، وولاية البصرة في الجنوب .

اما شبه الجزيرة العربية فلم تسعف الاحوال فيها على التنظيم المتناسق، ولا على اقامة نظام مركزي دقيق . فقد عين على الحجاز وال منذ سنة ١٨٤١ ، وكان المقصود من ذلك اخضاع البلاد الاسلامية المقدسة لادارة مباشرة ثُنائيّة ، تكون فيهـــا سلطات الوالي مقيّدة فلا تطغى على الامتيازات الممنوحة لكبار الاشراف وهم الحكام التقليديون لمكة والمدينة.

وأما اليمن فقد ارسلت اليه حملتان عسكريتان لتقيما فيه حكماً تركياً فعالاً ، وكانت الاولى في سنة ١٨٤٩ ، والثانية في سنة ١٨٧٢ وكان عددها أكبر من الاولى بفضل التسهيلات التي اتاحها شق قناة السويس . وأما في البلاد الواقعة على خليج العرب من شبه الجزيرة العربية ، فقد ظل التغلغل التركي محصوراً في منطقة ساحلية واحدة منهـــا ، هي : الاحساء ، التي تم احتلالها عسكرياً في سنة ١٨٧١ .

وأما في الاجزاء الداخلية من شبه الجزيرة فقد كانت اسرة ابن سعود واسرة ابن الرشيد تتصارعان ، في بلاد نجد وشمّر ، وتحاول كل منهما ان تزيد من نفوذها ومن رقعتها على حساب جارتها ، ولم تلقيـــا بالاً الى مطالب الاتراك بالسيادة والحكم ، وكانتا تديران شؤونهما وتمضيان في حروبهما كما لو كانتا دولتين حرتين مستقلتين .

وكانت العقبات التي تعترض طريق الاتراك في السيطرة على داخل شبه الجزيرة عقبات لا سبيل الى التغلب عليها ، وتتمثل في : بعـــد المسافة ، وندرة وسائل النقل ، وضراوة العربي هناك في الذود عن حريته.

وكانت السبيل امام تركية في المناطق الساحلية ايسر ، ولكنها وجدت نفسها وجهاً لوجه امام من ينافسها . فقد كانت بريطانية مضطرة ـ بسبب

احتياجات امبراطوريتها في الهند ــ الى ان تبحث عن حلفاء وعن محطات للوقود على شواطىء شبه الجزيرة العربية . ودفعها عزم نابليون على فتح مصر إلى ان تحتل جزيرة بريم في مدخل البحر الاحمر . وعقدت ، في الوقت نفسه تقريباً ، معاهدة مع امارة مسقط في مدخل خليج العرب ، لأسباب تتصل بالتجارة مع بومباي . فكانت التجارة والخطط الحربية ، تستدعيان ان تكون الطريق الرئيسية محروسة حراسة تكفل حمايتها ، واصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة من الاسس التي تقوم عليها السياسة البريطانية . فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ وضمتها إلى ممتلكات التاج البريطاني . ثم عادت الى احتلال بريم ، وكان هذه المرة احتلالاً دائماً . ثم امتد ظل النفوذ البريطاني شمالاً شيئاً فشيئاً ، خلال القرن التاسع عشر ، إلى رأس خليج العرب ليقلص من نفوذ الاتراك الذين اتجهوا جنوباً من البصرة وحاولوا دون جدوى ان يثبتوا سيطرتهم على اطراف شبه الجزيرة : بعد ان افلت الداخل من قبضتهم .

واما في افريقية فقد كانت الدولة العثمانية ، حين تولى عبد الحميد ، تشمل تونس وليبية ومصر والسودان فقط ، بعد ان استولت فرنسة على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد بدأ عهد السلطان بداية سيئة فيما يتصل ببقاء البلاد العربية في تلك القارة في حوزته . ففي سنة ١٨٨١ أخذت فرنسة منه تونس . وفي السنة التالية احتلت انجلترة مصر ثم السودان . وقد اعترفت انجلترة بسيادة السلطان الاسمية على مصر والسودان ، ولكن فرنسة لم تعترف بها على تونس . وفي كلتا الحالتين لم يعد يمارس اية سلطة في حكم هذه البلاد وادارتها . ومعنى هذا ان الشواطىء الافريقية الشمالية جميعها ضاعت من يد الاتراك ، ما عدا ليبية التي سقطت اجزاء كبيرة منها في حوزة ايطالية سنة ١٩١٢ . ولكنها قبل ذلك ، في الفترة التي نتحدث عنها الآن ، كانت البقعة الوحيدة في إفريقية التي بقيت خاضعة للسلطان ، وكانت مقسومة ادارياً إلى ولايتين : ولاية طرابلس ، وولاية بنغازي.

٤

أقام عبد الحميد أسس حكمه على التجسس والاضطهاد . فنشأ بذلك نظام أصبح فيه الجواسيس ، الذين استخدمهم السلطان لتحقيق أهدافه السياسية ، يؤلفون طبقة حاكمة قوية من الاوباش الفاسدين ، فلم يسلم أحد من أذاهم ، مهما يكن كبير المكانة او بريئاً ، وربما كانت الطريقة الوحيدة للنجاة هي تقديم الرشوة اليهم في حينها . وقد فرضت الرقابة ، وأخذت شدتها تزداد ووطأتها تثقل حتى قضت على كل نشاط صحفي وأدبي مهما يكن نوعه . واصبحت المحاكم أدوات طيعة في أيدي طغمة القصر ، وصار من الميسور بوجه عام ان يفرض أي عقاب مقدماً ثم يُلجأ إلى هذه المحاكم لتستخرج له مسوغاته القانونية . وصارت عقوبة الاعتقال أو الابعاد او النفي من العقوبات التي يكثر انزالها بالناس لمجرد الاشتباه أو الوشاية .

وبعد ان وطد عبد الحميد أسس نفوذه في داخل دولته ، أخذ يقيم فوقها بناء سياسته الخارجية وخططه الاستعمارية . ولم يكن غافلاً عن مركز تركية الضعيف بين الامم ، وبلغ من الفطنة مبلغاً جعله يدرك ان السبيل الوحيدة لسلامة تركية تعتمد على ما بين الدول الكبرى من خصومات وتنافس . وكان زحف الجيوش الروسية ووصولها الى ابواب القسطنطينية قد أزال الغشاوة عن عينيه ، وكشف له عن حقيقة قوته العسكرية ، أما معاهدة برلين ، فبالرغم من ان انجلترة قد كبحت من جماح روسية ، فأدى ذلك الى تخفيف شروط المعاهدة ، غير أنها كانت تذكره ، في مضاضة وذل ، بأن دولته لم يكتب لها البقاء الا لأن الدول تسامحت معه وتجاوزت عنها . كما ان الدولة كانت ، من الناحية المالية ، قد بلغت مرحلة الافلاس .

وجاءت وجوه العلاج التي فكر فيها عبد الحميد تحمل طابع تفكيره الواقعي الضيق . فبدأ أولاً بالحصول على المال برهن الموارد الرئيسية للدولة

لدى بعض أصحاب رأس المال من الاجانب ، ثم خصص جزءاً كبيراً من المال الذي حصل عليه بتلك الطريقة ، لاعادة تنظيم جيشه ، وأنفق مبالغ طائلة على الكليات الحربية والتدريب العسكري ، بينما ظل التعليم الحقيقي يعاني الحاجة الى المال . وامر ثالث هو انه استعان في الميدان السياسي بتأثير الدين وقوته ، من أجل ان يقوي مركزه الدولي . وكان هذا الامر الاخير اهم الامور الثلاثة من عدة وجوه .

٥

حين اعتلى عبد الحميد العرش كانت قد مضت بضع سنوات على قيام دعوة تهيب بالمسلمين ان يجددوا حياتهم ، فاستأثرت بعنايتهم جميعاً . وكان صاحب الدعوة هو السيد جمال الدين الافغاني ، وهو من أفصح الدعاة الذين شهدهم العالم الاسلامي ومن اكثرهم غيرة وحماسة . وكان هدفه الاعلى أن يرفع الشعوب الاسلامية الى مستوى الشعوب الحرة المتقدمة ، عن طريق نشر التعليم نشراً واسعاً ، وتطبيق الدين الاسلامي تطبيقاً يلائم مقتضيات العصر ، ولكنه كان يعتقد بأنه لا بدّ من الثورة لتحقيق هذا الهدف . كان يريد ان يرى البلاد الاسلامية متحررة من السيادة الاجنبية ، تمهيداً لنهضتها الفكرية والروحية ، ثم تتحد في ظل خليفة واحد تجمع كلها على الاعتراف به ، كما كان الامر في العصر الذهبي للاسلام . وقد استطاع خلال السنوات الثماني التي قضاها في مصر (١٨٧١ — ١٨٧٩) ان يجمع حوله من الانصار والتلاميذ جماعة قليلة العدد ولكنها كثيرة النشاط ، وصار له من الاثر في شؤون ذلك القطر ما دعا إلى اخراجه منه . وأصبح قوة في العالم الاسلامي اضطرت الدول الكبرى إلى أن تحسب لها حساباً . ولقد وقف السنوات الباقية من حياته — التي قضاها متنقلاً بين أوروبة وفارس وتركية ، حتى وفاته سنة ١٨٩٦ — على الدعوة إلى آرائه بالحاح وعزم لا يعرف الوهن اليها سبيلاً . وكانت دعوته من الاسباب

الرئيسية لقيام الحركة التي ترمي الى احياء الاسلام احياءً شاملاً ، تلك الحركة التي هزت العالم الاسلامي في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وفي هذه الاثناء التي بلغ فيها جمال الدين ذروة قوته ونشاطه شرع عبد الحميد في وضع الاسس لسياسته الاسلامية .

ولم تكن سياسة عبد الحميد ، بوجه من الوجوه ، مقترنة بآراء جمال الدين وافكاره . بل كانت في جوهرها محاولة قام بها «الخليفة – السلطان» ليقوي نفوذه وسيطرته – بوصفه « سلطان » الدولة العثمانية – عن طريق الحقوق والامتيازات الكثيرة التي يستطيع ان يدعيها ويتظاهر بها – بوصفه « خليفة » للمسلمين . وكان أسلافه قد حملوا هذ اللقب الثنائي المزدوج مدة قرنين متصلين على الاقل ، وكانت دول اوروبة عامة تقر لهم بأنهم أصحاب الحق الشرعي في هذا اللقب . ولكنهم عجزوا عن ان يحولوا دون ان تفقد صفة « الخليفة » تدريجياً مع الزمن معناها الاصلي بحيث أصبحت تعتبر مجرد مظهر روحي للتكريم والتشريف يضاف الى صفة « السلطان » ولا يحتاج اليها الا فيما يتصل بالامور الدينية .

ولكن فهم الخلافة على هذه الصورة خطأ محض ، لأنه يعتمد بعض الشيء على التشابه بين الخلافة والبابوية ، وهو تشابه زائف غير صحيح ، ولأن هذا الفهم يغفل أن الدين والدولة في الاسلام متصلان أوثق اتصال ، وأن لفظة « الخليفة » مرادفة في الواقع للفظة « الحاكم » . وكانت خطة عبد الحميد ترمي الى اعادة الخلافة الى مكانتها اللائقة ، وان يجعلها مقترنة في أذهان الناس بالحكم والسلطنة ويتخذ منها – بعد ان يرد اليها هيبتها – دعامة يستند اليها ، وتصبح بعد ذلك قوة دافعة توصله الى أغراضه السياسية . وهكذا فان خطة عبد الحميد تلتقي التقاء واضحاً في عدة أمور ، بالدعوة التي دعا اليها جمال الدين . ولكن هذا الالتقاء سطحي ظاهري زائف ، غير ان عبد الحميد استطاع بمهارته ان يستغله

في نفوس رعيته من المسلمين بتأكيد اقترانه «بالخلافة»، وبترديد الاوصاف المقدسة التي يتصف بها الخليفة ، مثل : ظل الله في الأرض ، وأمير المؤمنين ، وخادم الحرمين الشريفين . وكان يرمي من ذلك الى اكتساب الولاء لعرشه باستمالة مشاعر الملايين من المؤمنين ، والى حشد طاقة من الحماسة الدينية يدّخرها لعله يستغلها في الحرب .

أما سياسته الخارجية فكانت ترمي الى تثبيت مكانة تركية بين الامم . وكان تظاهره بمظهر الخليفة التقيّ يمكّنه من أمرين : اكتساب الطاعة والولاء من الملايين من رعيته المسلمين ، واكتساب الاحترام والهيبة — بل ربما اكتساب شيء اكثر من الاحترام والهيبة — في نفوس ملايين آخرين من المسلمين ، خارج حدود دولته ، من رعايا بريطانية العظمى وفرنسة وروسية . وكان يطمح الى ان يكون زعيم المسلمين بالنفوذ والقوة كما هو زعيمهم بالاسم . ومهما يكن النجاح الذي قـد تصيبه هذه الخطة فانها ستزيد من قوة مركزه في المجال الدولي .

ولقد أظهر عبد الحميد ، في تنفيذ خطته ، مهارة لا حد لها في التلون والتقلب ، ومقدرة كبيرة على التظاهر . فسار على هُدَى القول المأثور: إن الطهارة الحقيقية تبدأ من داخل النفس ؛ فشرع يضفي عـلى حياته الخاصة مظهراً من الزهد والتقشف ، وأخذ نفسه أخذاً شديداً بمزاولة الشعائر الدينية والتظاهر بأدائها تظاهراً يدل على حكمته ودهائه . وكان من سبقه من السلاطين سادرين في غيهم مستغرقين في الشراب واللهو ، لا يبالون ولا يرعوون ، فأمر عبد الحميد بأن يقمع كل ذلك في داخل القصر قمعاً شديداً ، او على الاقل بأن يستّر فلا يعرفه أحد . وأحاط نفسه بالفقهاء ورجال العلم والدين ، واستخدمهم لتوزيع الصدقات ، والوعظ ، والدعوة له . وأسس معهداً لتدريب الوعاظ المبشرين الذين كانوا يرسلون فور تخرجهم إلى أقصى بلاد الاسلام في جماعات كبيرة ، لينشروا الانباء الحسنة عن الخليفة ، ويشيدوا بورعه وتقاه . واستمال اليه شريف مكة وحظي بتأييده

الفعّال في نشر الدعوة له بين الحجاج وحثهم على الولاء لـــه ، وكان هؤلاء الحجاج حين يعودون إلى بلادهم ينشرون هذه الرسالة ، وكانوا احياناً يستميلون اليهم جماعات اخرى من الناس يعينونهم على نشرها في نطاق أوسع . وكان ينفق المال بسخاء على المدارس والمعاهد الدينية في داخل دولته وفي خارجها . ويسر السبيل للصحف لتقوم بدورها في ذلك وأعانها عليه ، وأنشأ المجلات والنشرات الدورية ليتسع مجـــال النشر والدعاية .

ومن اهم المعالم في سياسة عبد الحميد انه كان يرمي من ورائها إلى استمالة العناصر غير التركية بوجه خاص ، ولا سيما العرب . فقد كان جمهور الشعب التركي ، ومعظمه من فلاحي الاناضول ، يحمل بطبيعته الخضوع والولاء «للباديشاه» . غير ان العرب ، بما أشربت به نفوسهم من حب فطري للحرية والاستقلال ، لم يكونوا أهـــلاً لثقته واطمئنانه كالاتراك ، بل زاد الامر خطورة انه بدأت تظهر فيهم مظاهر مقلقة تدل على تفتح الوعي القومي . ولقد بذل عبد الحميد جهوداً خـــاصة لاستمالتهم : فأغدق على معاهد التعليم العربية فيض عطاياه ، واسبغ على زعماء العرب وكبرائهم مظاهر التكريم وحباهم بالمناصب ، وأنفق أموالاً طائلة على اصلاح مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس وزخرفتها ، وهي اماكن العبادة الرئيسية للمسلمين ، وجميعها في حوزة العرب ، واختار جماعة من الجنود العرب وألف منهم فرقة كاملة من فرق حرسه الخاص. وولى بعض العرب مناصب في القصر ووكل اليهم القيـــام على شؤونه الخاصة . وعهد اليهم بالاشراف على كبار موظفيه المناوئين لميول الوطنيين العرب ، وتنظيم اعمالهم وتوجيهها . ونال بعض هؤلاء العرب من الحظوة عند السلطان ما دعا رجال الحاشية ، والطامعين في المناصب ، والوزراء ، بل والصدر الاعظم نفسه ، إلى التزلف اليهم واسترضائهم ، واتباع الطريقة

التي لا تخيب في تحقيق الهدف ، وهي الحصول على تأييدهم وموافقتهم على جميع الاعمال المهمة قبل تنفيذها . حتى لقد قيل – وهو قول حق – انه إذا كان الباب العالي ومناصب الوزارة قد ظلا مجالاً يصول فيه الاتراك ويجولون ، فقد سقط القصر جميعه في أيدي العرب .

وحينما كان عبد الحميد يخفق في سياسة التقرب والتودد ، كان يلجأ إلى وسائل الفتك والعنف . وكان قد اختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية ، يلبسون مسوح الوعاظ والمبشرين ، بينما كان عملهم الحقيقي ان يبذروا بذور الخلاف ويهيجوا اسبابه بين الزعماء الاقطاعيين ورؤساء القبائل البدوية الكبيرة . فكانوا يستغلون المنازعات العائلية والخلافات القبلية وطلب الثأر ، ويسعون في توسيعها وتعميقها . وكان يمد بعض العملاء بالمال ليثيروا القلاقل فيضطرب الامن ، حتى يتخذ من ذلك ذريعة ظاهرة ليوقع العقاب ببعض شيوخ القبائل او الزعماء انتقاماً منهم لأنهم لم يخضعوا لرغباته . وكان يجيز الالتجاء الى الاغتيال، بل لقد امر به في بعض الحالات . فاذا كان الضحية ذا مكانة سامية تحول دون الانتقام منه انتقاماً عاجلاً كان عبد الحميد يضطره الى الاقامة في القسطنطينية ، وهناك لا يكتفي بالابقاء على حياته ، بل يتيح له أيضاً اسباب الحياة الرغدة ويسبغ عليه مظاهر التكريم ، ويحيطه في الوقت نفسه بجواسيسه ليراقبوه .

وكان من هؤلاء « الضيوف » الحسين بن علي ، سليل الدوحة الهاشمية وهي أشرف الاسر العربية جمعاء ، لأن افرادها ينتمون الى ابناء الظهور من نسل بنت الرسول ، وكان شريف مكة يُختار من بينهم ، وحملوا شرف هذا اللقب اجيالاً متتالية . وكانت التقارير التي وصلت عبد الحميد تصف الحسين الشاب بأنه قوي الارادة صلب عنيد ، وانه يخفي آراءه ولا يفصح عنها إلا نادراً . وان هذه الآراء تدل – حين يفصح عنها – على

أنه ذو تفكير أصيل مستقل ، وهو أمر « خطر » . وكانت هذه الاسرة تتمتع بمنزلة سامية في العالم الاسلامي فكان سلاطين تركية يعاملون أفرادها بحذر وحرص ويتظاهرون باحترامهم . فتلقى الحسين دعوة ، مغلّفة بالرقة والتأدب ، ليذهب مع أهل بيته ويقيم في القسطنطينية . فوصلها سنة ١٨٩٣ ، وكان آنذاك لا يزال شاباً في نهاية العقد الرابع من عمره ، ومعه زوجته وابناؤه الثلاثة الذين بلغوا سن الالتحاق بالمدارس وهم : علي (وقد أصبح فيما بعد ملكاً على الحجاز) ، وعبد الله (الذي أصبح أميراً على شرق الاردن) ، وفيصل (الذي أصبح ملكاً على العراق) . وظلت هذه الاسرة في الاسْر اكثر من خمسة عشر عاماً ، كان الحسين خلالها — وهو رجل مؤمن عميق التدين — يحيا حياة هادئة قضاها في التأمل والسكون الظاهر . فانخدع جواسيس السلطان وجازت عليهم تلك المظاهر ، ولكن عبد الحميد ، بما أوتي من بصيرة نافذة تتحسس القوى الخفية ، رأى في ذلك ما يدعو الى تزايد قلقه .

٦

كان عزت باشا العابد أحد المغامرين الذين شقوا طريقهم الى عبد الحميد بالمكر والخديعة ، فنال الحظوة عنده . وكان عربياً من الشام ، قضى ثلاثة عشر عاماً (إلى سقوطه في سنة ١٩٠٨) في منصب السكرتير الثاني للسلطان ، وأصبح أقوى موظف في الدولة ، لا يفوقه في الثروة والدهاء والنفوذ إلاّ سيده السلطان . وقد بلغ من ذكائه وخبثه ونشاطه ما ميّزه عن غيره — حتى في بلد كالقسطنطينية في العصر الحميدي — ولكنه مع ذلك لم يخل من خور العزم أو انثلام الحد ، وهي حال كثيراً ما تختفي تحت الذهن الحاد فلا تظهر للعيان . وكانت صفته البارزة ان نظره الثاقب المصيب كان يتغلغل الى معرفة جوانب الضعف في النفس الانسانية ، وفي هذه الصفة يكمن سر نجاحه المدهش ، فقد مكنته من ادراك جبن سيده

السلطان وغروره ، وجعلته يحس احساساً صادقاً بحالة سيده النفسية في اللحظة التي يكون معه فيها ويميزها تمييزاً صحيحاً . وكان في قرارة نفسه يحتقر عبد الحميد احتقاراً شديداً ، وذلك يفسر لنا ، بعض الشيء ، مقدرته على التلاعب بمشاعره بسهولة . ومجرى حياته مهم لنا لسببين : الاول عام وهو أنه أصبح محور سياسة عبد الحميد العربية ، والثاني خاص وهو مد سكة حديد الحجاز .

فهناك من الدلائل ما يشير الى ان فكرة مد سكة حديدية الى الحجاز قد نبتت أولاً في ذهن عزت باشا ، وان لم تكن تلك الدلائل يقينية ، وأياً كان الامر فقد كان هو العامل الاكبر على تنفيذها واتمامها . وكانت خطته مد سكة حديدية من دمشق الى المدينة ومنها الى مكة ، والهدف الوحيد منها في الظاهر تيسير سبيل الحج ، ولكنها في الحقيقة ذات اهداف سياسية وحربية قبل كل شيء . وتألف مجلس يرأسه عزت باشا ، فوجه نداء الى العالم الاسلامي وضّح فيه الدافع الديني الذي ألهم الخليفة مد السكة الحديدية ؛ وأهاب بالمسلمين ان يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع. وفي الوقت نفسه فرضت في جميع انحاء الدولة ضريبة خاصة في صورة طابع بريدي ، ووجهت الدعوة الى الموظفين في الحجاز ليتبرعوا بنسبة معينة من مرتباتهم . وعهد بالعمل الى مهندسين من الالمان ، فبدأوا التنفيذ في ربيع سنة ١٩٠١ ؛ وما ان وافى خريف سنة ١٩٠٨ حتى كانت السكة قد مدت الى المدينة ، وهي مسافة تبلغ نحو ٩٠٠ ميل . وبلغ مجموع النفقات نحو ثلاثة ملايين جنيه ، جمع اكثر من ثلثها من الهبات التي تبرع بها المسلمون في جميع أقطارهم .

كان هذا المشروع ، من عدة وجوه ، ضربة خبير في السياسة . فقد أثار الحماسة البالغة في جميع ديار الاسلام ، وربمـا كان له من الاثر في تثبيت مكانة الخلافة أكثر مـن جميع خطط عبد الحميد الاخرى. أمـا من الناحية العسكرية فقد هيأ له هذا المشروع ، بنفقات زهيدة

تحملتها خزانته ، من وسائل النقل البري ما كان في أشد الحاجة اليه لوصول جنود جيشه الى شبه الجزيرة العربية وعودتهم منها . وكان قبل ذلك مضطراً الى نقلهم بالبحر عبر قناة السويس فيحتاج الى وقت أطول ونفقات اكثر ، أما الآن فقد اصبحت لديه سكة حديدية تمتد جميعها في مملكته ، ويحق له ان يتطلع الى اليوم الذي تمتد فيه هذه السكة جنوباً إلى مكة ، بل ربما الى ما بعدها فيستطيع بذلك ان يحكم قبضته على بلاد اليمن المتمردة .

ولكن أهم نتائج هذه السكة ، وهي نتيجة ربما لم تخطر ببال عبد الحميد ، انها جعلت وسائل السفر في الولايات العربية الواقعة في الغرب أسرع مما كانت ، وبذلك ساعدت على نقل الافكار وتبادلها . فقد كانت القافلة ، قبل مد السكة الحديدية ، تقطع رحلتها بين دمشق والمدينة حين تُغِذّ السير في اكثر من اربعين يوماً ، وكان السفر في البحر من الشام الى الحجاز يستغرق زمناً يتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يوماً تبعاً لوجود السفن التي كانت رحلاتها قليلة العدد ومواعيد اقلاعها غير منظمة . أما بعد مد السكة الحديدية فأصبح السفر بين المدينتين يستغرق خمسة أيام . وقد قُدّر لهذا الاختصار في الزمن أن يكون — كما سنرى — ذا أثر بالغ في مصير الحركة العربية حين أتيحت لها فرصة الانفجار في ثورة علنية .

وقد كتب السفير البريطاني لدى الباب العالي في تقريره السنوي عام ١٩٠٧ ما نصه :

« ومهما يكن ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الاخيرة . أما الاول فهو تلك السياسة الماهرة التي حدت بالسلطان إلى ان يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للاسلام ، وبث في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد

الحجاز ، التي ستتيسر لكل مسلم ، في المستقبل القريب ، سبيل الحج إلى الاماكن المقدسة في مكة والمدينة ، فتتيح لهم التمتع في الآخرة بمسرات الجنة ومباهجها . وكان من نتيجة ذلك ان أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء الى حد لم يسبق له مثيل ، وأصبحوا يقبلون عن رضى باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من قبل . وصارت ارادة « البادیشاه » هي الشريعة المطبقة على الأرض ، فاذا دعا سوء الحظ مسلماً الى ان يحس بارهاب الحكومة العنيف وطغيانها فانه يعزو هذه المظالم الى الموظفين ، ولا يعزو الى الخليفة عملاً فيه سوء » [1] .

أمـــا العامل الثاني الذي أشار اليه السفير فهو صلات عبد الحميد بالقيصر .

٧

حين ارتقى عبد الحميد العرش كانت هناك حركة جديدة في سياسة المانية الخارجية ترمي الى الاتجاه الى الشرق ، وهي المعروفة بـ Drang nach Osten فقد أخذ علماء الاقتصاد والكتّاب السياسيون في المانية ، منذ زمن ، يعنون عناية كبيرة بشؤون آسية الصغرى واعتبارها ميداناً للاستثمار والاستعمار ، وبدأت تسيطر على عقولهم فكرة اتخاذها مجالاً للنشاط الالماني . وأصبحت هذه الفكرة ، مع الزمن ، أساساً لسياسة جديدة ترمي الى ايجاد نفوذ الماني في القسطنطينية ، وحفزت القيصر غليوم الثاني الى القيام بأعجب « مظاهرة » قام بها في حياته لتأييد سياسة عبد الحميد الاسلامية .

وبدأ فصل جديد سنة ١٨٨٣ حين وصلت القسطنطينية بعثة عسكرية ألمانية لتتولى تنظيم جيش السلطان وفق الاساليب والاصول الحديثة . وكان يرأس هذه البعثة الكولونيل فون درجولتش أحد الضباط المشهود لهم بالمقدرة والاخلاص في العمل ، وقد بذل أقصى جهوده في تأدية واجبه خلال

---

١ ــ جوتش وتمبرلي : الوثائق البريطانية عن اسباب الحرب ، المجلد الخامس ، ص ٤٣ .

السنوات الثلاث عشرة التالية من غير كلل . ومع ذلك فان حماسته في الوصول بالجيش إلى مستوى عال من الكفاية والمقدرة ، لم تلق في نفس السلطان عبد الحميد الرضاء التام ، لأن السلطان ، مع رغبته في تحسين جيشه ، لم يكن يريده جيشاً عظيم القوة ، فقد قضى حياته في خوف من ثورة عسكرية ، ولذلك اخذ يعمل سراً هو وبعض جماعته على مقاومة فون درجولتش . وبينما كان فون درجولتش يبذل غاية الجهد في اصلاح جميع الجوانب الفاسدة من هذا الجهاز العسكري ، كان صنائع القصر يفسدون عليه جهوده في ان يصبح الجيش أداة قوية تستقل بادارة نفسها ، وحرصوا على ان يحصروا هذه الجهود في نطاق « الامن والسلامة » . ومع ذلك فقد استطاع فون درجولتش ان يصنع الكثير ، وكانت لجهوده في أحد الفروع – وهو التعليم العسكري – نتائج سياسية مهمة . وهو صاحب الفضل في انشاء نظام للمعاهد العسكرية جعل مستواها أعلى بكثير من مستوى التعليم العام ، حتى انها استمالت اليها نفراً من الجيل الناشيء من ذوي العقول الممتازة – من العرب والاتراك معاً . واصبح المتخرجون في هذه المعاهد العسكرية ابرز العاملين على الثورة التي اطاحت بطغيان عبد الحميد ، الثورة العربية التي نشبت بعد ذلك بسنوات قليلة .

ولقد عملت هذه البعثة العسكرية ، بطبيعة الحال ، على ان تكون الاسلحة والذخائر من نتاج المصانع الالمانية ، ولكن جهودها لم تقتصر على واجبها الرسمي المقرر . بل اخذ بعض اعضائها ، بتوجيه من بسمارك نفسه ، يعنون بعدة مسائل اخرى ، ويرسلون الى المانية تقارير دورية عن الاحوال السائدة آنئذ في تركية وما يتوقعون حدوثه في المستقبل. ثم نزل إلى الميدان عملاء الشركات التجارية ، وتلاهم قيام المصارف (البنوك) الكبيرة بالحصول على امتياز مد السكك الحديدية في الاناضول واحدة بعد الاخرى ، حتى استطاعت ما بين سنتي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ان تمد السكة الحديدية التي كانت موجودة في حيدر باشا (على الشاطيء

الآسيوي للبوسفور) إلى قونيه . وفي تلك الاثناء تبلورت فكرة استثمار آسية الصغرى ، واصبحت مبدأ من مبادىء السياسة الواقعية التي تتعهدها الحكومة الالمانية ، وصارت لها خططها لغزو الدولة العثمانية غزواً اقتصادياً. وكان من هذه الخطط الحصول على امتياز لمد سكة حديدية الى خليج العرب . وقد جاء القيصر نفسه للحصول عليه .

وصل غليوم الثاني القسطنطينية في زيارة رسمية للسلطان في خريف سنة ١٨٩٨ ، بعد اتصالات دبلوماسية استمرت بين أربع سنوات وخمس تمهيداً لهذه الزيارة ، ونجح في الحصول على الامتياز المطلوب . وكان المقرر ان تكون سكة بغداد الحديدية تتمة للسكة الحديدية التي مدهـا الالمان من حيدر باشا إلى قونيه ، وقد وضعت خطتها على اساس ان تمتد مع حدود الاناضول الجنوبية ثم تتجه شرقاً الى الموصل وبذلك تكاد تنطبق تمام الانطباق على الحدود التي تفصل عنصرياً بين الاتراك والعرب، ثم تتجه جنوباً إلى بغداد وتمتد منها إلى البصرة ، وتنتهي في موقع ما على خليج العرب . وكذلك كان من المقرر مد خطوط فرعية في اماكن متعددة . من بينها فرع إلى الاسكندرونة حتى يكون هناك اتصال مباشر بين البحر الابيض المتوسط وخليج العرب . وكانت هذه الخطة تتضمن كثيراً من الجرأة والاقدام والنظر إلى المستقبل ، كما كانت خطراً يهدد المصالح البريطانية في الشرق ، واثارت كثيراً من المشكلات العسكرية والمشكلات السياسية والاقتصادية . فكانت المانية ، بمقتضى هذه الخطة ، ستبسط نفوذها على منطقة واسعة ، كثيرة الاسواق ، غنية بالخامات ، في مأمن من خطر الهجوم البحري ، وكل ذلك كفيل بأن يحولها في المستقبل إلى امبراطورية . امـــا بريطانية العظمى فكانت ترى ان تحقيق هذا المشروع سيوجد لها منافساً قوياً في تجارتها ، وخصماً يهدد سيادتها في خليج العرب .

ثم ذهب القيصر من القسطنطينية إلى القدس ، ومنها الى دمشق ،

حيث وضع الاسس لنفوذ الماني جديد في بلاد الشام . وكان خلال هذه الرحلة يبذل أقصى جهده في ان يظهر شعوره الطيب نحو السلطان ومودته للاسلام وللخليفة ، بل لقد بالغ على عادته في اظهار شعوره وقال من خطبة ألقاها في دمشق : « فليطمئن صاحب الجلالة السلطان ، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلونه لأنـــه الخليفة – إلى أنهم سيجدون في امبراطور المانية الصديق الدائم لهم » . ثم اتجه الى قبر صلاح الدين ، ووضع عليه اكليل زهر ، وأمر بصنع مصباح من الفضة للضريح هـــدية شخصية منه بوصفه أحد المعجبين اعجاباً بالغاً بالبطل المسلم . وكانت جميع هذه الامور تذاع وتنشر في أوسع نطاق ، فعاد القيصر الى برلين يحف به التمجيد والثناء اللذان أغدقتها عليه صحافة العالم الاسلامي ، تلك الصحافة المدفوعة الموجهة .

كان عبد الحميد أدهى من ان تبهر بصره بطولات حاميه الجديد . ولكنه كان يدرك قيمة مثل هذا الحليف القوي في المحافل الاوروبية ، وكان كذلك واثقاً بقدرته على دفع جميع المخاطر التي قد تنشأ عن رغبة المانية في السيطرة . فرحب بما أعلنه القيصر من صداقته للاسلام ومباهاته بذلك ، ولم يكن ترحيب عبد الحميد من أجل الصداقة نفسها ، بل من أجل المنافع التي تعود عليه منها اذا استغلها في الدعوة لنفسه ، واتخذها وسيلة دبلوماسية يعتمد عليها . أما من حيث مطامع المانية في تركية فقد كان عبد الحميد يميل – ما دامت هذه المطامع لا تنطوي على سيطرة سياسية – الى ان يساوم في الامور التي لم تكن تدر عليه دخلاً قط ، وأن يظهر بمظهر الكريم في مساومته – وقد كان شديد الحرص على تنفيذ المشروع الالماني الخاص بسكة حديد بغداد ، لأنه كان يرى ان هذه السكة ، مثل سكة حديد الحجاز ، وسيلة لاحكام قبضته عـــلى السكان العرب المتمردين ، الذين كان يخشى ثورتهم عليه . ثورة بالغ في تصور المخاوف منها حتى استبدت به وكان مستشاروه الذين وضع فيهم ثقته ، مثل

عزت باشا ، ينمون هذه المخاوف في نفسه ويستغلونها ، كما ان فون درجولتش ، وكان عبد الحميد يطمئن الى اخلاصه ، قضى سنوات وهو يحثه على اتباع سياسة التقدم والتجدد في الولايات العربية [1] .

وهكذا مد عبد الحميد يده الى القيصر وتودد اليه بينما كانت الدول الكبرى المتنافسة تنظر اليها متجهمة ، ولم يكن أحد يعلم ، سوى عبد الحميد نفسه ، إلى أي مدى سيستمر في منح هباته بهذه الطريقة الخسيسة . وانتهى عهد حكمه الفردي في ٢٣ تموز (يولية) سنة ١٩٠٨ ، حين ثار ضباط جيشه وأرغموه على اعادة دستور مدحت باشا بعد ان ظل معطلاً احدى وثلاثين سنة ، وغنيّ عن الذكر ان هؤلاء الضباط الثائرين كانوا من خريجي المعاهد العسكرية .

١ ـ وضع فون درجولتش آراءه في هذا الامر في مقالته « عوامل الضعف والقوة في الدولة العثمانية » المنشورة في مجلة « دويتش روندشاو » تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٧ .
Starke und Schwache des Turkischen Reichs, in Deutsche Rundschau.

الفصل الخامس

الحركة الوليدة

١٨٦٨ - ١٩٠٨

١

يرجع اول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ — أي قبل ارتقاء عبد الحميد العرش بسنتين — حين ألف خمسة شبان ، من الذين درسوا في الكلية البروتستنتية السورية ببيروت ، جمعية سرية . وكانوا جميعاً نصارى ، ولكنهم ادركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز اليهم ، فاستطاعوا ان يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد . وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها اوروبة ، فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية ، عن طريق احد زملائهم ، ان يستميلوا اليهم المحفل الماسوني الذي كان قد انشىء منذ عهد قريب ، ويشركوه في اعمالهم .

وكان مركز منظمتهم في بيروت : وانشأوا لها فروعاً في دمشق وطرابلس

وصيدا . ولما كانت اهدافهم ثورية صريحة فانهم لم يستطيعوا الاستفادة من وسائل النشر والاعلان ، وكان كل عملهم في البدايـــة مقصوراً على الاجتماعات السرية التي كانوا يتبادلون فيها الآراء ويبحثون الخطط ، وعلى نشر أفكارهم السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية . وبعد ان قضوا ثلاث سنوات او اربع وهم يتآمرون متهامسين في الخفاء ، ادركوا ان استمرارهم في الاقتصار عـــلى تلقين انفسهم هذه المبادىء لن تكون له من جدوى الا زيادة حماستهم هم انفسهم فقط ، فعزموا على توسيع نطاق دعوتهم. واختاروا الوسيلة الوحيدة التي كان من الممكن ان تتاح لهم في ظل الحكم الاستبدادي التركي اليقظ ، وهي لصق المنشورات في الشوارع ، مـــن غير ان يكون عليها ما يدل على مصدرها .

وما ان قر رأيهم على ذلك حتى بدأوا يعملون بهمة يتميز بها الشبان المتآمرون . فكانوا ، إذا ما كتبوا صيغة احد نداءاتهم ، يقضون الليالي الطويلة ساهرين وهم يكتبون نسخاً كثيرة منه بخطوط يعتمدون تغييرها لئلا تعرف . وفي هدأة الليل في الساعة المقررة كان يتسلل اصغر الاعضاء سناً وفي جيوبهم زجاجات الغراء ، فيلصقون على جدران المدينة ما يسمح لهم الوقت بلصقه من هذه المنشورات . وفي الصباح كان الناس يحتشدون حول المنشور الملصق ، ويقرأه واحد منهم بصوت مسموع ، إلى ان يأتي رجال الشرطة . فيمزقوا المنشور ، ويقبضوا على بعض الأبرياء من المتجمعين. وقبل ان تكون ضجة المنشور قد هدأت في بيروت ، كانت ترد الانباء عن ظهور منشورات اخرى مماثلة في دمشق او طرابلس او صيدا . واصبح ما تضمنته هذه المنشورات موضوع الاحاديث الهامسة في المجالس الخاصة وأخذ أعضاء الجمعية يطوفون على اصدقائهم وعلى من يعرفون من الناس، ويشتركون في الاحاديث ، وينتبهون إلى آراء المتحدثين وتعليقاتهم خفية، وكانوا في كل ذلك يتسترون ويحذرون ان يُعْرف سرهم . وكانوا بعد ذلك يصوغون نداءهم الجديد وفقاً لمـــا خلّفه النداء السابق من أثر في

النفوس . وبلغ من اتقانهم لفنون التخفي انهم كانوا يكتبون هـــذه النداءات بأساليب مختلفة ويصوغونها صياغة أدبية متفاوتة ، ويعتمدون بعض الاخطاء النحوية ، وبذلك كانوا يزيدون من التشكيك في معرفة منشئيها .

وكانت هذه المنشورات تتضمن تنديداً عنيفاً بمساوىء الحكم التركي ، وتهيب بالسكان العرب ان يثوروا عليه ويطيحوا به . وأصيب أولو الامر في القسطنطينية وفي بلاد الشام بالحيرة والذهول ، فأرسل السلطان بعض جواسيسه خفية الى بيروت ليتحروا الامر . وفتشت المنازل ، واعتقل بعض الرجال المشتبه فيهم . وسرت الاشاعات ان والي الشام — ولم يكن غير مدحت باشا ، الصدر الاعظم السابق وصاحب دستور سنة ١٨٧٦ — مطلع على سر الجمعية ووجودها ، وأنه — ان لم يكن مؤسسها الحقيقي — فهو على الاقل يسبغ عليها حمايته . ونسب اليه انه كان يقصد اثـــارة الاضطراب في بلاد الشام ليفصلها عن حكم السلطان ، ويؤسس فيها مملكة لنفسه يتوارثها أبناؤه ، كما فعل محمد علي في مصر . ولم تكن الادلة القائمة كافية لتأييد هذا الاتهام ، ومع ذلك فقد كان الاضطراب الذي احدثته منشورات جمعية بيروت بالـــغ الاثر ، حتى ان السلطان استدعى مدحت . ولكن اليقين الثابت انه كان بريئاً ولم تكن له أية صلة بالجمعية . وظلت الجمعية سنوات ثلاثاً أو أربعاً بعد استدعائه ، حتى بلغ طغيان عبد الحميد من شدة الوطأة ما دعا الى الاعتقاد بأن الحكمة تقضي بايقاف أعمالها . فأتلف الاعضاء ما كان لديهم من سجلات قليلة ، وهاجر عدد من ذوي النشاط منهم الى مصر . وهكذا بقي السر مطوياً حتى النهاية ، ولم تعرف الحكومة ولا الجمهور أشخاص المتآمرين قط .

٢

لم أجد في أي مصدر من المصادر المطبوعة التي رجعت اليها شيئاً عن

أعمال جمعية بيروت السرية . والفضل الاكبر في هذا الحديث الذي ذكرته عنها انما يعود الى احد مؤسسيها الاوائل ، وهو الدكتور فارس نمر باشا [1] الذي لا يزال – وهو في الثمانين من عمره في سن الاكتمال والنضج – متمتعاً بقواه الذهنية في أتم صورها ، ويذكر الحوادث الرئيسية وأسماء الاعضاء الاثنين والعشرين . ولقد اجتمعت به عدة مرات كنت فيها استثير ذاكرته المدهشة ، واجمع المعلومات منه واحدة بعد واحدة حتى استكملت القصة كلها ، ما عدا جانباً واحداً مهماً منها وهـو : نصوص المنشورات . ومـع ذلك فقد استطاع الدكتور نمر ان يخبرني باتجاهها وفحواها بصورة عامة ، وعن اسلوبها الذي كان يزداد مع الزمن حدة وعنفاً ، وعن المتاعب التي واجهها منشئوها وهم يحاولون اخفاء خطوطهم وتنويع اسلوبهم . ولكنه لم يستطع ، بعد ذلك الزمن الطويل ، ان يتذكر نصوص النداءات بألفاظها ، وهو أمر مهم ليكون الحكم عليها دقيقاً . ولم يحتفظ الناس في ذلك الوقت بنسخ منها ، ولم يكن من الممكن في عهد عبد الحميد ان يفشي أحد سرها ، حتى ولا الذين كانوا مبعدين في المنفى ، حتى لا يؤدي ذلك الى الانتقام من احد . وهناك عضو آخر من أعضاء الجمعية لا يزال على قيد الحياة ، ولم يبقَ غيرهما . وقد أمدني هذا العضو بحقائق كثيرة تؤيد ما سبق ، ولكنه ايضاً لا يذكر نصوص المنشورات . وبدا لي حينئذ انه لا بد من ان أقبل بالواقع وأسجل قصة الجمعية بدون النصوص .

ولقد قضيت ، خلال الرحلات التي قمت بها لجمع مادة هذا الكتاب اكثر من عام وأنا أتتبع الآثـار الباهتة لجمعية سنة ١٨٧٥ السرية ،

---

١ ـ واحد من اهم الرجال البارزين في العالم العربي ، ولد في جبل لبنان ، وهاجر الى مصر سنة ١٨٨٣ ، واقام فيها منذ ذلك الحين • وهو احد مؤسسي « المقتطف » وهي مجلة علمية شهرية ، واحد مؤسسي « المقطم » وهي صحيفة يومية وكلتاهما تصدران في القاهرة ، ولهما قراء كثيرون في البلاد التي يتحدث اهلها العربية •

وسألت اناساً كثيرين في جميع انحاء بلاد الشام ، وفي القاهرة وبغداد . وكان كثير منهم يتذكر ظهور تلك المنشورات ، واستطاع بعضهم ، عن معرفة شخصية ، ان يؤكد مدى الاثر العميق الذي خلفته في نفوس الشباب الناشىء بما تضمنته من نداءات حماسية . ولكني مع ذلك لم استطع ان اهتدي الى أي اثر للنصوص نفسها .

وبعد عام من ذلك ، عثرت – حين كنت اواصل تنقيبي في مكتب السجلات العامة في لندن – على برقية ارسلها القنصل البريطاني العام ببيروت في ٢٨ حزيران (يونية) سنة ١٨٨٠ [١] ، ونصها كما يلي :

«ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة . يُشَكّ في ان مدحت هو منشئها . ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد . التفصيلات بالبريد القادم» .

وتلت هذه البرقية عدة رسائل رسمية ، بعضها من بيروت وبعضها من دمشق ، وقد تضمنت الرسائل حوادث القصة كما وصلت الى مسامع القناصل البريطانيين في ذلك الحين ، مع ملاحظاتهم واشاراتهم الى مصدر المنشورات . ولكن اهم من كل ذلك ان القنصل العام ببيروت رأى من الجدير ان يبعث مع رسائله نصوص ثلاثة منشورات مختلفة ، باللغة العربية الاصلية التي كتبت بها . وكان احدها هو المنشور الاصلي نفسه انتزع قبل وصول الشرطة ،وكان الآخران نسختين عن الاصل . ونستطيع الآن، وهذه النصوص امامنا ان نكوّن فكرة اوضح من السابق عن اهداف هذه الجمعية وميولها . فاذا ما نظرنا اليها مرتبة بحسب تاريخ صدورها ، فانها تكشف لنا عن تطور مهم في محتوياتها وفي صياغتها الادبية .

كان اولها قد ارسل مع رسالة مؤرخة في ٣ تموز (يولية) ١٨٨٠ [٢] ، وهو اقصرها واقلها قيمة . ومع انه اول منشور وصل الى القنصلية البريطانية غير انه لا ريب لم يكن اول منشور اصدرته الجمعية ، لأنه يشير الى

---

١ – مكتب السجلات العامة ، وزارة الخارجية (F. O.) رقم ١٩٥ : ١٣٠٦ .

٢ – مكتب السجلات العامة رقم ١٩٥ : ١٣٠٦ .

نداء قبله ويحاول ان يؤكد اخلاص كاتبيــه ووطنيتهم في المنشورات السابقة . وقد اشتمل المنشور على لوم اهل الشام لاستكانتهم واستسلامهم لطغيان الاتراك ولِمَا تأصل فيهم من خلافات جعلتهم نهباً لمطامع الدول الاوروبية . ويمضي هذا المنشور يؤكد قيمة الوحدة وضرورتها ، ويهيب بالنــاس ان يدفنوا خلافاتهم ، وان يتحدوا في وجه الطغاة مستلهمين « امجادهم العربية » وفي اعــلى المنشور شعار يمثل سيفاً مسلولاً كتب تحته البيت التالي من الشعر :

لنطلبنّ بحد السيف مــأربنا   فلن يخيب لنا في جنبه أرب

أما المنشور الثاني ، وقد ارفق ايضــاً بالرسالة نفسها ، فهو اكثر صراحة وعنفاً في تنديده بالاتراك . فقــد اتهمهم بالاخفاق في تطبيق الاصلاحات التي ظلوا يعدون بها عشرين عامــاً ، أي منذ سنة ١٨٦٠ وهي السنة التي قامت فيها المذابح ببلاد الشام ، ويصمهم بأنهم لا أمل في صلاحهم ولا خير يرجى من ورائهم . والشيء الجديد الــذي لم يتضمنه المنشور السابق ان هذا المنشور الثاني يطالب مطالبة صريحة بــأن تتمتع بلاد الشام بنظام حكم ذاتي ، بل ربما بالاستقلال كذلك ، ويختم المنشور بعبارة ادبية بليغة تؤكد عزم كاتبيه على العمل في سبيل وطنهم مهما يكلفهم ذلك .

اما المنشور الثالث فقد ارفق برسالة جاء فيها انه ألصق على الجدران في ليلة ٣١ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨٨٠ . وهو اهم المنشورات الثلاثة ، لأنه يتضمن اول بيان مدوّن عن برنامج العرب السياسي . وقد بدأ ايضاً بالتنديد بالحكام الاتراك ، واضاف الى شرورهم السابقة شراً جديداً هو محاولتهم القضاء على اللغة العربية . وقد ضرب على الوتر الديني حين وصف انتحال السلطان للخلافة بأنه اغتصاب لحق العرب ، وحين اتهم الاتراك بأنهم كثيراً ما خالفوا شريعة الاسلام . وقد ورد فيه أنه بعد التشاور « مع زملائنا في جميع انحاء البلاد » فقد تم وضع برنامج ستنفذه ولو بحد السيف إذا اقتضى الامر . واهم النقاط في ذلك البرنامج هي :

١) منح سورية الاستقلال متحدةً مع جبل لبنان .
٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد .
٣) رفع الرقابة والقيود الاخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر التعليم.
٤) استخدام القوات المجندة من اهل البلاد في المهـــام العسكرية الداخلية فيها فقط .

ان هذه المنشورات الثلاثة ، اذا ما نظرنا اليها نظرة شاملة ، لواضحة في تطورها من التعميم الى التخصيص ، ومن التنديد الخطابي البلاغي بفساد الحكم التركي الى صياغة برنامج محدد ذي أهداف وطنية تظهر فيه ظهوراً واضحاً ثمار الجهود التي بذلها اليازجي لرفع شأن اللغة العربية ، والتي بذلها البستاني في محاربة الجهل . وكان ابراهيم اليازجي ، ابـــن ناصيف ، عضواً في هذه الجمعية ، ومما يزيد في قيمة هذه المنشورات الثلاثة ان كل واحد منها ينتهي ببيت من أبيات القصيدة التي انشدها قبل اثني عشر عاماً في اجتماع سري عقدته الجمعية العلمية السورية .

٣

ليس من اليسير علينا ، بعد انقضاء نحو ستين عاماً ، ان نعرف على وجه اليقين مدى الاثر الذي احدثته جمعية بيروت السرية في مجـــال التقدم الفكري . فالرسائل التي بعث بها القناصل البريطانيون تميـــل الى التقليل من شأن الجمعية ، وتشبه منشوراتها الثورية بقذائف تالفة لم يكن لها من أثر غير اثارة شيء من التساؤل والفضول في نفوس شعب خامل مستكين . أما شهادة العرب الذين عاصروا تلك الاحداث فتؤكد ان تلك المنشورات كان لها أثر كبير شامل . ولا ريب في ان رسائل القناصل لها قيمة من جانبين . اولها انها كتبت في الوقت نفسه الذي دارت فيـــه الاحداث ، وثانيها ان الذين ارسلوها كانوا محايدين بعض الشيء . ولكن مما يقلل من قيمة الرسائل انها كانت تتناول أموراً تتصل بالتآمر والخيانة

فكان المدبرون والمشاهدون جميعاً يخشون ان يفضوا بآرائهم ويكشفوا عن حقيقة نواياهم [1] . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار عدة عوامل منها : انقضاء زمن طويل واحتمال التهويل والمبالغة ، وضعف الذاكرة الانسانية — فان المعلومات التي حصلت عليها ، في السنوات الاخيرة ، من الاشخاص الذين شاهدوا تلك الاحداث بأنفسهم ، تبدو — بالرغم من هـذه العوامل — معلومات مقنعة ومقبولة .

ومهما يكن من أمر ، فان نداءات تلك الجمعية كانت أول صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربية الوليدة . فقد كانت اول جمعية تؤلّف والهدف السياسي غايتُها الاولى . ولو نظرنا اليها في ضوء الاحداث التي تلت وفي ضوء أحوال البلاد آنئذ ، لبدا لنا ان اعمال الجمعية سابقة لأوانها ، لأنها قامت على أساس ان البلاد قد بلغت من تقدم الوعي القومي وشموله منزلة لم تكن قد بلغتها في الحقيقة ، وهكذا جاءت دعوتها السياسية بما تضمنته من قيام ثورة مسلحة اذا اقتضت الضرورة ، في وقت لم تكن فيه الامة مهيأة لتجتمع كلمتها ويتوحد صفها . ولذلك كتب لمسعاها الاخفاق من هذا الجانب ، غير انها نجحت في جوانب اخرى ، ومما حققته الجمعية ، وهو أمر ليس بالقليل ، ان نداءاتها المتوالية اعانت على ان تتضح الرغبات والآمال ، التي كانت مبهمة غامضة حتى ذلك الوقت ، وان تتخذ صورة محددة المعالم ، ولم تقتصر فائدة هذا العمل على انه زاد من سرعة التيار الفكري العام بل أعان على توجيهه أيضاً . وكان البرنامج الذي أعلن في المنشور الثالث نموذجاً لما جاء بعده ، فهو اول بيان نعرفه في تاريخ الحركة عن اهدافها السياسية ، وهو جدير بالعناية لأنه الوثيقة الوحيدة من ذلك العصر التي ترسم لنا صورة حقيقية عن طبيعة القومية العربية واتجاهاتها في تلك الايام الأولى .

---

١ — ان في هذه الرسائل بعض الاخطاء الواضحة التي تدل على ان ممثلي بريطانية القنصليين كانوا يجهلون جانبا كبيرا من حقيقة نشاط الجمعية وجهودها .

وظلت الحركة ، حتى ذلك الحين ، محصورة في نطاق محيطها الضيق. ويرجع الفضل في ظهورها ، كما رأينا ، إلى النهضة الثقافية والاجتماعية التي نبعت من حركة الاحياء الادبي ومن الاشمئزاز الذي احدثته مذابح سنة ١٨٦٠ . وكانت العوامل التي حركتها عوامل روحية معنوية غير متأثرة بالمطالب الاقتصادية والنظريات السياسية ، وكانت فوق ذلك ذات مصدر ذاتي ينبع من داخل النفس . لقد استقت الحركة افكارها من المصادر المعروفة في محيطها ، وقضت في ذلك وقتاً طويلاً قبل ان تستعير من الغرب مبادىء التطور السياسي ونظرياته . وكان الهدف الاساسي من التجديدات التي ادخلها محمد علي في مصر والسلطان محمود الثاني في تركية اعادة تنظيم القوات المحاربة ، واصلاح بعض فروع الادارة بما يوافق العصر الحديث ، فأدى ذلك إلى ادخال الاشكال والنماذج دون اقتباس النظريات الفلسفية المجردة للافكار والشرائع الاوروبية . إن الامور العملية اسرع إلى الفهم والتمثل من الافكار ، ولذلك لم تتغلغل في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية فكرة الامة من حيث هي مجموعة متجانسة من السكان يؤلفون وحدة متماسكة ، وتربط بينهم آمال وأهداف قومية مشتركة. وحتى في زمن متأخر كسنة ١٨٧٦ كانت الحماسة التي اثارها دستور مدحت — بما يرمي اليه من اقامة دولة متباينة مؤلفة من اندماج عناصر عرقية مختلفة ذات اهداف متضاربة — كانت تلك الحماسة تدل على ان عقول الناس لم تزل آنئذ بعيدة عن استيعاب الآراء التي تنطوي عليها الفكرة الغربية عن الدولة ذات الامة الواحدة . ولم تغز هذه الفكرة العقول في بلاد الشام إلا خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فطعمت شجرة القومية العربية التي نبتت نباتاً محلياً . وحتى ذلك الحين كانت الحركة تنبت في تربتها الخاصة بها وتستمد غذاءها الرئيسي من الارض التي تمتد فيها جذورها . وللبرنامج الذي اذاعته جمعية بيروت سنة ١٨٨٠ قيمة تاريخية اخرى ، وهي : انه يمكننا — ونحن ندرك الاتجاهات الثقافية التي

كانت متضمنة في مولد تلك الحركة – من ان نميز الأعراض الأولى لمبدأ جديد، هو قيام دولة مستقلة استقلالاً سياسياً تعتمد على اسس قومية سليمة.

٤

إن اول مبدأ في ذلك البرنامج يرمي الى نيل الاستقلال على اساس وحدة سورية مع جبل لبنان. فقد منح « القانون الاساسي » الذي صدر سنة ١٨٦٤ جبل لبنان نظاماً خاصاً به من الحكم الذاتي المحلي ، فنشأت في الجبل ادارة داخلية مستقلة فصلته في الواقع ، من نـاحية الكيان السياسي ، عن سائر اجزاء سورية . ومهما تكن الآثار الحسنة لهذا النظام في النواحي الاخرى ، فان هذا الفصل والتقسيم كان منافياً لروح النهضة العربية : في كرهها للحواجز والتقسيم ، وفي ايمانهـا العميق بفضائل الاتحاد والاتفاق اللذين كانت تعدهما طريق النجاة والخلاص . وقد زاد من حماسة الزعماء لتمجيد هـذه الفضائل ، ان النفس العربية – بميلها القوي إلى الفردية – كانت تفتقر افتقاراً واضحاً إلى هذه الفضائل ، وانها كثيراً ما كانت تقع فريسة سائغة تحت مخالب القبلية والحزبية . وما جاء في برنامج جمعية بيروت من تأكيد للمصالح المشتركة والوحدة السياسية بين جبل لبنان وبقية سورية ، إنما كان صدى طبيعياً لذلك النفور من مجرد فكرة التقسيم والانفصال ، ومن هذا البرنامج ايضـاً نبتت جذور فكرة الوحدة العربية التي انتشرت من بلاد الشام فشملت جميع انحـاء الوطن القومي للعرب ، واصبحت في مقدمة الآمال التي يصبو اليها العرب. وفي سبيل تحقيق هذه الفكرة في نطاق بلاد الشام تمسك منشئو برنامج سنة ١٨٨٠ ، لأول مرة فيما نعلم ، بمبدأ الدولة المستقلة التي تتمثل فيها الوحدة السياسية على اساس الفكرة القومية لا الطائفية .

ونجد كذلك ان النقطة الثانية في البرنامج إنمـا هي انعكاس مباشر للمراحل الاولى للنهضة ، وتشتمل هذه النقطة على امرين : النهوض باللغة

العربية لتصبح وسيلة التعبير الادبي ، والحملة على الجهل والتعصب .
ومنذ سنة ١٨٦٤ وما بعدها ، اصبحت اللغة التركية ، وهي اللغة الرسمية للحكومة ، تفرض على نطاق واسع في بلاد الشام ، بسبب ازدياد الميل الى سياسة المركزية الضيقة في الدولة العثمانية . فقد كان كبار الموظفين جميعاً من الاتراك وكان اكثرهم يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً . وكانت الشؤون الادارية : في المحاكم والدوائر الحكومية العامة الرئيسية ، تجري باللغة التركية وأصبحت معرفة هذه اللغة ، التي ظلت لغة غريبة بالرغم من القرون الطويلة من السيطرة العثمانية ، أمراً لا بدّ منه لانجاز الاعمال الرسمية . وقد بدأ التحول ، كما رأينا ، حين اخذت اللغة العربية تنهض من كبوتها لتصبح وسيلة التعبير عن الفكر ، ونشطت حركة التأليف الادبي والعلمي باللغة القومية — وذلك كله بفضل الجهود التعليمية التي بذلتها الجمعيات التبشيرية الاجنبية وبذلها العلماء الذين أحيوا ثقافة الماضي المنسية . وكان فرض اللغة التركية على نطاق واسع عائقاً يعارض هذه الحركة ويطعن كرامة أنصارها المتحمسين . ولم يكن هذا كل شيء : فقد كانت هناك ايضاً الرقـابة التي فرضها عبد الحميد بعد تعطيل الدستور مباشرة ، وكان عنف القائمين عليها وحمقهم يزدادان مع الزمن . وشمل سلطانها البغيض مصادرة الكتب الاجنبية وخنق حرية التعبير في الداخل .

وكانت هذه الاغلال أشد وطأة على اعضاء جمعية بيروت السرية . وهم نخبة تضم العلماء والادباء على السواء ، وكان اكثرهم من تلامذة اليازجي والبستاني ، وجميعهم من مريديهما .

وكانت دعوتهم الى النهوض باللغة والى الحرية الفكرية ، مثل دعوتهم الا الاتحاد ، انما هي جميعاً صدى للمبادىء العاطفية المخلصة التي نادى بها هذان المعلمان من قبل ، وقد قدر لهذه الدعوات ان تصبح « هتاف الحرب » الذي انطلق من حناجر الاجيال القادمة .

أما النقطة الثالثة في البرنامج فقد كانت ، على خلاف النقطتين الاولين

تتصل بأمر عرضي لا بأمر جوهري ، اذ انها تتضمن احتجاجاً على الخطة الجديدة التي اخذت الدولة تنفذها وهي ارسال الجنود العرب المجندين من بلاد الشام لمحاربة عرب اليمن . فقد كان احتلال الجيوش العثمانية لتلك الولاية مرة ثانية سنة ١٨٧٢ بداية لعهد من العداء بين الترك والعرب طويل كثير النفقات ، لم يستطع فيه جيش السلطان ، منذ بدء الاحتلال ، ان يحمي نفسه من الشعب الذي كان يحمل له العداوة . وكان الظن ان الكتائب المؤلفة من الجنود العرب لن تواجه مقاومة عنيفة ، ولذلك صدرت الاوامر بارسال المجندين من اهل الشام الى شبه الجزيرة . وأركبت الفرقة الاولى السفينة قسراً سنة ١٨٧٤ وسط جو عام من الذعر ، وكان عددها عدة آلاف جندي . وبعد ذلك بثلاث سنوات أرسلت الكتائب المجندة من بلاد الشام الى ميادين الحرب الروسية – التركية ، لتحارب في سبيل قضية لم تكن لها بها أدنى علاقة .

٥

كان اصدار البرنامج هو الذروة الواضحة التي وصل اليها نشاط الجمعية وقد استمرت الجمعية قائمة خلال السنوات الثلاث او الاربع التالية ، واخبرني بعضهم شفهياً انها اصدرت منشورات اخرى ، ولكن لم يعثر لها على اثر . ومع ذلك فان هذه المنشورات ، بشهادة أحد مؤسسي الجمعية ، لم تضف شيئاً جديداً له قيمة جوهرية الى ما ورد في المنشورات السابقة . وقد حققت هذه الاستثارة غرضها ، فصاغت الشعور العنصري في صورة عقيدة سياسية ، وبذلك لم تقتصر الحركة على مجرد رفع الراية ، وانما فعلت ما كان الناس أشد احتياجاً اليه ، وهو اقامة السهم الذي يشير الى اتجاه الطريق ويدل عليها .

ومن طبيعة المزاج العربي ان يدرك الامور في أجزاء وفترات متقطعة اكثر من ادراكه لها إذا جاءت في خطة متكاملة قائمة على جهود متواصلة

ولذلك كان تاريخ الحركة القومية بمثابة سجل لانفجارات متوهجة تتخللها فترات من التوقف والتأهب . وكأنما هذه الحركة صورة لهب ينطلق الى اعلى ، ولكن النار من تحته خامدة ، هي نار شعور له دخان من غير وهج . وكان الجهد الثوري الذي قامت به جمعية بيروت السرية بداية لسلسلة من الجهود تتابعت بعده في فترات متقطعة ، ويعتبر برنامج سنة ١٨٨٠ ذا قيمة تاريخية بالاضافة إلى قيمته الذاتية ، لأنه يمثل قمة مـا وصلت اليه تلك الجهود الاولى . ولو نظرنا اليه من زاوية النتائج المحسوسة لوجدنا انه لم يحقق شيئاً عملياً ظاهراً ، فقد ظلت آثاره كامنة في طيات الوعي القومي ، واصبح مَعْلَماً في طريقه . ذلك ان العقول التي صاغت هذا البرنامج واستوحته من المشاعر الدفينة في نفوس الشعب الذي لا يستطيع الافصاح عنها – كانت عقول اناس سبقوا عصرهم ، غير انهم استطاعوا ان يروا المشكلة بتمامها رؤية واضحة ، واصبح مـن الدلائل على قوة بصيرتهم وبعد نظرهم ان جوهر برنامجهم بقي ثابتاً لم يغيره برنامج بعده .

٦

تتضمن المقتطفات التالية التي اقتبسناها مـن كتابات بعض المراقبين الذين عاشوا تلك الفترة – وصفاً حيـاً للحركة الفكرية في بلاد الشام وللهياج السياسي الذي غذته .

فقد سجل لنا احد الكتّاب الفرنسيين ، وقد زار الشام سنة ١٨٨٢ ، شيئاً عن الآثار التي تركتها في نفسه الروح الجديدة ، قال :

« ... انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً . وكان الشبان مـن المسلمين ، خلال إقامتي في بيروت ، منهمكين في تنظيم الجمعيـات لانشاء كثير من المدارس والمستشفيات وللعمل على النهوض بالبلاد . ومن اهم صفات هذا النشاط انه بريء مـن وصمة التعصب الطائفي . فقد عمدت تلك الجمعيات إلى قبول النصارى واشراكهم في العمل القومي . اما

الاتراك فقد نُحّوا عن هذا الميدان »[1] .

ورحل فرنسي آخر رحلات واسعة في البلاد العربية في شمال افريقية وعلى طول شواطىء البحر الاحمر وخليج العرب وسافر في نهر دجلة حتى بغداد في سنة ١٨٨٣ ، ورأى مظاهر القلق والاضطراب في جميع انحاء العالم العربي ، فكتب ما يلي :

« ... لقد وجدت في كل مكان شعوراً ثابتاً عاماً : هو بغض الاتراك ... وبدأت تتبلور بالتدريج فكرة القيام بعمل جماعي مدبر للتخلص من نيرهم الكريه . وتلوح عن بعد مظاهر حركة عربية حديثة النشأة ، ويوشك هذا الشعب الذي كان حتى الآن مهيض الجناح ان يطالب عن قريب بمكانته اللائقة في مستقبل الاسلام »[2] .

وفي شبه الجزيرة العربية نفسها بدأت تظهر نواة الاتحاد السياسي . فقد كتب الممثل السياسي البريطاني بجدة في ١٠ ايار (مايو) سنة ١٨٨٢ ما يلي :

« لقد علمت ان فكرة الحرية اصبحت الآن تحرك عقول بعض الناس ، حتى في مكة . وتسربت إليّ بعض الانباء عن وجود خطة معينة لتوحيد نجد ، وعرب الجزيرة العراقية بزعامة منصور باشا ، وعسير واليمن بزعامة علي بن عابد . وسأعرف عما قليل هل هذه الانباء صحيحة او انها مجرد احلام وبناء قصور في الهواء »[3] .

إن هذه التقارير التي كتبها مراقبون اجانب تؤيد ، على ما فيها ، ما ذكره الشهود العرب الذين عاصروا تلك الاحداث . ولم يعد الاضطراب

---

١ ــ جبرائيل شارم : رحلة الى بلاد الشام : ١٧١ــ١٧٢ .
Gabriel Charmes, Voyage en Syrie.

٢ ــ دينيس دي ريفوار : العرب الاصليون وبلادهم : ص ٢٩٤ــ٢٩٥ .
Denis de Rivoyre, Les vrais Arabes et leur pays.

٣ ــ مكتب السجلات العامة F.O. رقم ٧٨:٣٤١٥ .

محصوراً في بلاد الشام ، بل انتشر في أجزاء اخرى من شرق العالم العربي. ومع ان أسبابه لم تكن واحدة في جميع تلك البلاد ، فان مظاهره الخارجية كانت تدل على غاية موحدة ، هي : التحرر من الحكم التركي ، وبذلك اكتسى رداء زائفاً إذ ظهر كأنما هو تمرد جماعي مركز منظم . والحق انه لم يكن آنئذ أي تعاون مدبر بين تلك المناطق المختلفة المتفرقة من أجزاء العالم العربي . فلم تكن قد بدأت تظهر فيه وسائل النقل السريعة ، وكانت السكك الحديدية في الواقع غير موجودة في العالم العربي ، وبذلك كانت صعوبات قطع المسافات الشاسعة لا تزال غير مذللة . وكانت الصحافة مكممة . ومع ان الانباء والافكار كانت تتناقل كعادتها برغم الحواجز ، غير ان انتقال الافراد وسفرهم كانت تحد منها قيود كثيرة، ولذلك كان من غير المستطاع تدبير ثورة جماعية منظمة تشمل مثل هذه المنطقة الواسعة .

ومن أجل هذا لا يجوز ان نفسر علامات الاضطراب التي ظهرت في أوائل العقد التاسع من القرن الماضي بأنها ثورة عربية مدبرة انفجرت قبل أوانها . والواقع انها لم تكن الا البوادر الاولى لتلك الافكار الجديدة التي نشأت في بلاد الشام ثم انتقلت تلقائياً ، من غير تدبير ولا تعمد ، في ارجاء العالم العربي الفسيحة . فهاجت السخط على الحكم التركي وتعالى لهب الاحداث في اماكن متفرقة أشبه ما يكون بمنظر نيران الحفلات التي توقد مصادفة على قمم التلال المتباعدة . أما خطة المؤامرة المدبرة ، وما تبعها من ثورة جارفة ، فانها لم تظهر الا بعد ثلاثين سنة ، ولم يكن ذلك الا بعد ان قضي على طغيان عبد الحميد وخلفه ضرب آخر من الحكم التركي ، كان دستورياً بالاسم ، ولكنه في الواقع كان اكثر استبداداً وأشد استفزازاً .

٧

وفي اثناء هذه الفترة توقفت حركة العرب القومية عن القيام بأعمال

ظاهرة ملموسة . اذ ان الامر لم يقتصر فقط على فرض الرقابة وبث الجواسيس ووسائل الرعب الخفية التي كان يتبعها نظام الحكم الحميدي لمطاردة الرجال المتحمسين الذين كانوا روح تلك الحركة ، فيضطرهم الى الهجرة واختيار المنفى ، بل يضاف الى ذلك عدة عوامل أخرى أضعفت هذه الحركة ، ونخص بالذكر منها ثلاثة عوامل ، أولها : سياسة عبد الحميد العربية وهي اكثر هذه العوامل خداعاً . أما العاملان الآخران فكانا من نتائج انتشار التعليم الغربي ، وازدياد قوّة رجال الدين المسيحي .

أما سياسة عبد الحميد العربية فقد وصفتها في فصل سابق ، وهي مبنية على استغلال غريزتي الجشع والخوف استغلالاً بارعاً ، وكان لا بدّ لها ان تنجح ولو نجاحاً جزئياً مؤقتاً على الاقل ، ومع انها لم تقض على الحركة قضاء مبرماً ، ولم توقف نموها الداخلي الخفي ، غير انها اصابتها بالعجز والوهن بطريقتين : بالاغراء بالمناصب وأنواع الحظوة والتقريب من ناحية ، وبالارهاب من ناحية اخرى . وقد كان الحرص على التشبث بهذه السياسة وتنفيذها في بلاد الشام اكثر منه في اي مكان آخر . فنالت الشام نصيب الاسد من عناية عبد الحميد ، ولعل السبب في ذلك انها مهد الحركة العربية ، او انها ارقى ثقافة من البلاد العربية الاخرى التابعة له ، وتعتبر من الناحية الجغرافية مفتاح هذه البلاد . وما ان نالت بلاد الشام نصيبها من هذه العناية حتى تنكرت لرسل حريتها .

وكان لانتشار التعليم الغربي آثار سيئة ايضاً ، وقد يبدو هذا القول عجيباً متناقضاً ، ولكنه الحق بعينه . فقد انتشر هذا التعليم في بلاد الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان في العهود السابقة ، وأدى ذلك الى قيام شبكة من المدارس والكليات امتدت الى جميع أنحاء البلاد . ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما كانت تنشئه فرنسة وأمريكة وبريطانية ، بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والايطالية والالمانية وأضافت جهودها الى جهود الدول التي سبقتها . وكان هذا التنوع نفسه

شراً جديداً في بلاد كانت فريسة للانقسامات الداخلية ، وذلك لأن بعض البعثات التبشيرية اصبحت ادوات للمطامع السياسية ، فاختلطت مساوىء المنافسة الدولية وشرورها بحسنات التعليم ونعمه .

فكانت الحكومة الفرنسية ، لحرصها على تقوية نفوذها ، تقدم العون المالي إلى البعثات التبشيرية الفرنسية ، وتعاونت هذه البعثات مع رجال الدين من الموارنة والملكانيين ، وبذلت جميعها جهدها لتعليم الشباب الناشىء تعليماً ، هو في ذاته حسن ، ولكنه كان يرمي الى تكوين عقولهم على النمط الفرنسي ، وتوجيه انظارهم وولائهم الفكري الى فرنسة .

اما الروس فكانت لهم بعثة تبشيرية وجمعية للتربية والتعليم ذات مال وافر ، وعن طريقها كانوا يعلّمون السكان العرب الارثوذكس ، والبطركيتين الارثوذكسيتين في انطاكية والقدس ، وكانوا يرمون الى الغايات الخفية نفسها . .

وليس ثمة دليل على ان هذه العوامل السياسية كانت توجّه المدارس الانجليزية او الامريكية . غير ان تغلغل النفوذ الفرنسي والروسي بين النصارى ، دفع بريطانية العظمى الى ان تحفظ التوازن بين الدروز والنصارى ، فآزرت الدروز وشجعتهم ، عن طريق مكاتبها القنصلية ، على ان يعتبروها راعيتهم وحاميتهم . أما الامريكان ، فمع انهم لم يكن لهم دور في هذا الصراع السياسي وحصروا جهودهم في التعليم والتبشير غير انهم بهذه الجهود اوجدوا طائفة دينية جديدة هي الكنيسة السورية المشيخية (البريسبيتيرية) . وبالرغم من ان هذه الكنيسة كانت تضم بعض الرجال المستنيرين في البلاد الا انها كانت مصدراً آخر للشقاق فوق ما كان هناك من مصادر . وقد شاركت المدارس الالمانية والايطالية في هذا الاضطراب العام ، ولكن جهودهم كانت محدودة إذا قيست بالجهود الاخرى .

وهكذا لم يكن انتشار التعليم الغربي نعمة خالصة من الشوائب . فمع انه رفع مستوى الثقافة الى درجة عالية نسبياً ، وجعل بلاد الشام ارقى أجزاء العالم العربي ، غير انـه كانت له مساوئه من نواح متعددة . فقد ثبت الخلافات والانقسامات الطائفية وزاد عددها بينما كان وجود هذه الخلافات والانقسامات في تلك البلاد هو العقبة الرئيسية في طريق تقدمها القومي كما رأينا . وكذلك اصبح هـذا التعليم أداة من ادوات التغلغل السياسي بالاضافة الى انه وسيلة للثقافة . وأسوأ من ذلك كله انه يسّر السبيل لرجال الدين المسيحي ليتملكوا اسباب القوة السياسية ، بل كان احياناً يدفعهم الى ذلك عمداً ، وبهذين الامرين كان التعليم الغربي يفسد ما قام به المصلحون العرب من اتراب البستاني الذين كانوا اول من وقف في وجه الخلافات الطائفية والمطامع السياسية لرجـال الدين المسيحي ، وكانت هذه المطامع هي التي تثير شر تلك الخلافات . وهكذا كان التعليم الغربي يطعن حركة العرب القومية في اعماقها .

٨

من النتائج ، الباقية الى الآن ، التي ادى اليها انتشار التعليم الغربي في بلاد الشام انه اعان على تحويل قيادة الحركة العربية القومية من يد النصارى الى يد المسلمين . وكان السبب الرئيسي لذلك هجومه الخفي على اللغة العربية من حيث هي أداة الثقافة القومية .

فقد كان من الطبيعي ان تؤدي جهود المدارس والكليات الاجنبية الى ان يتعلم التلاميذ اللغـة الاجنبية لكل معهد . ولكن الشيء المهم الذي حدث بمرور الزمن ان اتقان اللغة الاجنبية كان يزداد على حساب اللغة العربية . وذلك يعود الى سببين مختلفين ، اولهما : ان بعض المعاهد ذات المرامي السياسية المقصودة ، كانت تعطي لغتها القومية عـن عمد المكانة الاولى . والثاني : ان انتشار التعليم هذا الانتشار الخاطف استلزم الشروع

فوراً بتعليم العلوم الحديثة ومصطلحاتها الفنية – الجديدة على العرب – فكان ذلك عبئاً ثقيلاً على اللغة العربية ، وصارت ترجمة الكتب العلمية عملاً تزداد صعوبته مع الزمن . ومع ان اللغة العربية لغة غنية مرنة ، غير انها لم تكن لتستطيع ان تستجيب لهذا الطلب المفاجيء استجابة كافية فتقدّم من المرادفات ما يقابل الالفاظ والعبارات الجديدة ، من غير ان يُعِدّ لذلك العلماء واللغويون بجهودهم المنظمة المتتابعة . ولم يحدث هذا الاعداد المطلوب بل لم يحاول احد القيام به محاولة جدية ، فقر رأي رجال التعليم الاجانب على اهمال اللغة العربية والتعليم باحدى اللغات الاوروبية . حتّى ان الامريكان الذين كانوا حتّى ذلك الوقت يتزعمون حركة احياء تراث اللغة العربية ، اختاروا الطريق الايسر ، وجعلوا ، في سنة ١٨٨٠ تقريباً ، اللغة الانجليزية لغة التدريس في الكلية السورية البروتستنتية . ونشأ مع مرور الزمن جيل من المتعلمين أصبحوا يألفون اللغة الفرنسية او الانجليزية او الروسية اكثر مما يألفون لغتهم الاصلية .

وكان لهذه الظاهرة أثر مهم – بل حاسم من بعض نواحيه – في مستقبل الحركة القومية . فقد كانت الكثرة الطامية من تلاميذ المدارس الاجنبية نصارى ، لان المسلمين كانوا يخشون ان تؤثر هذه المدارس في أبنائهم وتحولهم عن دينهم ، فآثروا ان يرسلوهم الى المدارس الاسلامية التي تؤسسها الدولة او الجمعيات الاسلامية بالرغم من ان هذه المدارس أقل كفاية من المدارس الاجنبية . وكان التعليم الذي يتلقاه التلاميذ في المدارس الاجنبية افضل كثيراً من الناحية العلمية ، ولكنه كان مصوغاً في صورة غربية ، فأضعف التأثيرَ الروحي للثقافة العربية في عقولهم ، وأبعدهم عن المصادر الاساسية التي غذت الحركة العربية في طفولتها . وبابتعاد المسلمين عن المدارس الاجنبية أصبحت صلتهم بالعادات والنظم المتوارثة لحياتهم صلة وثيقة ، بل حتّى حينما كانوا يضطرون الى الالتحاق

بالكليات التركية لمواصلة تعليمهم العالي كانت عقولهم تظل مشربة بروح النهضة العربية تشرباً عميقاً . ومع ان التعليم الذي كانوا يتلقونه كان أضيق آفاقاً من عدة نواح ، غير ان لغته كانت اللغة العربية ، وكانت مادته ومراميه مألوفة ، كما كان له فضل آخر وهو انه كان ملائماً للحركة القومية [1] .

ولذلك انتقلت هذه الآراء التي بذرها النصارى في البداية ، واصبحت – في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين – تجد تربة صالحة للنمو بين المسلمين . ولم يكن هذا التحول ملحوظاً في ذلك الحين ، لأن الحركة كلها كانت في مرحلة توقف وتعطل في الظاهر . ومع ذلك فقد كان هذا التحول حقيقياً وحاسماً ، وظهرت آثاره بسرعة حين قضي على طغيان عبد الحميد فبرزت قيادة الحركة العربية وكانت الكثرة البالغة من زعمائها من المسلمين .

٩

ظهرت على مسرح الحوادث ، قرب نهاية القرن ، شخصية جذابة هي شخصية الكواكبي . وكانت جهوده في سبيل الحركة جهوداً كبيرة تدل على اصالته وتوقد ذهنه ، وتمثلت هذه الجهود في كتابين ممتازين وفي عدد كبير من الاحاديث الحية الممتعة .

وعبد الرحمن الكواكبي عربي مسلم ، ولد سنة ١٨٤٩ في حلب من أسرة شامية مشهورة ، وتلقى العلم في الكلية الاسلامية الرئيسية في بلدته ، وكان التعليم فيها وفق اصول غير علمية ، ولكنها كانت تراعي الاصول الانسانية العميقة التي كانت سائدة آنذاك . وبدأ حياته العملية بالاشتغال

---

١ – لا يجوز ان يفهم من هذا ان جميع النصارى كانوا يلتحقون بالمدارس التبشيرية الاجنبية وانه لم يلتحق بها احد من المسلمين ، او انه لم تكن هناك مدارس مسيحية عربية ، بل كانت هناك حالات كثيرة مهمة لم تنطبق على ما قدمنا ، وان كانت النتيجة العامة كما وصفنا .

بالصحافة والمحاماة ، ثم دخل ميدان الوظائف الحكومية ، وأعلن سخطه على الطغيان وندد به ، فغضب عليه رؤساؤه أولاً ، ثم ما لبث ان حكم عليه بالسجن . وحين أطلق سراحه سنة ١٨٩٨ غادر الشام وأم مصر ليعيش في جوها الذي يتيح قسطا أكبر من الحرية . وشرع بعد سنتين في الرحلة ليدرس حياة بعض العرب في البلاد النائية ، فزار بلاد الصومال وزنجبار والاجزاء الداخلية من اليمن . وبعد ان أقام في مكة زمناً طويلاً عاد إلى القاهرة حيث مات فجاءة عن أربعة وخمسين عاماً ، (سنة ١٩٠٣) .

ولم يكتب عن الكواكبي إلا القليل ، غير ان بعض الناس الذين عرفوه معرفة وثيقة لا يزالون أحياء لحسن الحظ ، وآراؤهم عنه تطابق ما تعكسه كتاباته من صفات شخصيته . ويبدو أنه لم يكن له أصدقاء حميمون عرفوه عن قرب ، غير أن ما ذكره عنه الذين عرفوه – أكثر مما عرفه غيرهم – يدل على أنه كان ذا حس عميق ، وان دوافعه كانت منبعثة من قلب رحيم صادق، وان تفكيره كان هادئاً صافياً بالرغم من النار التي كانت تشتعل في اعماقه . ولا ريب في انه كان يؤمن ايمانا عميقاً بمستقبل الاسلام والجنس العربي ، كما كان يكره أشد الكره التعصب والظلم،وخاصة الظلم الذي يقع على الفقراء . وقد وصفوه لنا بأنه كان متحدثاً ممتازاً يسحر سامعيه، في مجالسه اليومية بمقهى « سبلنديد بار » في القاهرة ، بآرائه الجديدة الجريئة وبروح المرح والدعابة التي يتحدث بها.وكانت حلقة أصدقائه واسعة متنوعة :تضم النصارى واليهود إلى جانب المسلمين ، إذ انه كان يطبق في حياته المبدأ الذي كثيراً ما نادى به من أن الوطنية فوق اختلاف الاديان . غير ان اصدقاءه الحقيقيين هم الفقراء ، وليس هناك من عمل في حياته أدل على حقيقة طبيعته من المكتب الذي أسسه على نفقته الخاصة في حلب ليقدم المشورة القانونية والعون مجاناً للفقراء من جميع الطوائف . وكان يلقب في حلب

بأبي الضعفاء،وقد نال هذا اللقب خلال سنوات قضاها في جهد متواصل يكافح في سبيل أنبل المطالب ، وهو محاربة الظلم .

وكتابه الاولى ، وعنوانه « أم القرى »[1] ، هو سلسلة مقالات عن مستقبل الاسلام، تخيل فيها ان اثنين وعشرين شخصاً خيالياً من العلماء والفقهاء في الدين من اثنين وعشرين قطراً من اقطار العالم الاسلامي،قد اجتمعوا في مكة للحج ، وبعد ان تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً،قرروا ان ينشئوا جمعية ترمي إلى احياء الاسلام والنهوض به.والقسم الاكبر من الكتاب تدوين حرفي لوقائع تلك الجلسات الخيالية ثم يتلو ذاك نظام الجمعية الجديدة ، وينتهي الكتاب باستطراد يبتعد عن الموضوع وهو الحديث عن الخلافة . والكتاب ممتاز . يدل على الذكاء ، ويبعث السرور في النفس.وقد استطاع الكواكبي،بتأليفه على هذه الصورة التي تدعو إلى الاعجاب ، ان يعرض آراءه الجريئة . وأما كتابه الثاني[2] فقد جمع فيه مقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية ، وأضاف اليها مقالات جديدة ، وكلها عن موضوع الاستبداد . وهو كتاب عميق مفعم بالتفكير ، توهج فيه كره المؤلف للطغيان من غير ان يكدر ذلك هدوء فلسفته وانسيابها .

ونشر الكتابان كلاهما بالقاهرة في حياة الكواكبي دون ان يذكر عليهما اسم المؤلف ، وتلقفهما الناس بالقراءة والمناقشة على نطاق واسع.وهربت نسخ منهما إلى بلاد الشام ووزعت خفية . وحين ننظر إلى الكتابين معاً نجد فيهما تحليلاً عميقاً بارعاً لضعف العالم الاسلامي عامة ، واقطاره العربية خاصة ، وبيان أسباب هـذا الضعف وانواع علاجه الممكنة ، وفيهما دعوة حارة إلى اقتباس العلاج الصحيح . وكان يبدو له ان ثمة مطلبين لهما قيمة جوهرية ، الاول : وجوب بذل جهود جدية منظمة لمحاربة

---

١ ـ ورد هذا الاسم في القرآن وهو احد اسماء مكة .

٢ ـ هو « طبائع الاستبداد » .

اتجاه الفقهاء الذين يقفون في طريق التقدم الفكري ، ومكافحة الجهل المنتشر بين الجماهير ،والثاني : ان يستعيد العرب مكانتهم اللائقةودورهم في تقرير مستقبل الاسلام ومصيره . وكان يعتقد ان جمعية مثل التي تخيلها في « أم القرى » بفروعها المنتشرة في جميع أقطار العالم الاسلامي ، كفيلة بتحقيق المطلب الاول ، وأما المطلب الثاني فقد دعا اليه دعوة بليغة في استطراده عن موضوع الخلافة وفي كتابه « طبائع الاستبداد ». وهذان الكتابان – من حيث هما مشاركة في الحركة العربية – يتبوءان مكانة فريدة وحدهما في أصالتها ، واتساع أفقها ، وجرأتها .

تتمثل أصالة الحملة التي بدأها الكواكبي في انها ميزت بين الحركة العربية والدعوة العامة إلى النهوض بالعالم الاسلامي ، وهي التي دعا اليها جمال الدين الافغاني واستغلها عبد الحميد لتلائم اهدافه الخاصة .ولا ريب في انه تأثر بسلفه جمال الدين الافغاني ، وبينهما وجوه شبه في الشكل وفي الجوهر تدل على ما بين عقليهما من صلة وثيقة . غير ان جمال الدين كان يعتبر العالم الاسلامي جميعه رقعة واحدة يجب ان تتوحد تحت ظل خليفة ما ، سواء أكان هذا الخليفة تركياً أم أفغانياً أم مصرياً ، على ان يبلغ من القوة منزلة تجعله السيد المطاع في أهله ، بينما كان الكواكبي يميز تمييزاً دقيقاً بين الشعب العربي والشعوب المسلمة من غير العرب . وقد استوحى هذا التمييز مما علمه إياه التاريخ ، أي من الدور الذي قام به العرب في ظهور الاسلام ، وانتشاره ،ومن الصلة الوثيقة بين العبقرية العربية وروح الاسلام ، ومن المنزلة الخاصة التي نالها العرب في تاريخ الاسلام بفضل لغتهم ونسبهم . وهكذا نراه يؤيد تأييداً كاملاً فكرة الوحدة الاسلامية ،وفي الوقت نفسه يدعو إلى الغاء حق السلطان في لقب الخلافة ووجوب مبايعة رجل عربي من قريش[1]

---

١ – من الشروط التي جرى العرف على وجوب توافرها فيمن يرشح نفسه للخلافة ان يستطيع اثبات نسبته الى قبيلة قريش ، وهي قبيلة الرسول ، ولئن تحقق هذا الشرط في كثير من الخلفاء الا انه ايضا لم يتحقق في كثيرين غيرهم .

بالخلافة في مكة .

كان لا بدّ لهذه الافكار التي دعا اليها الكواكبي من ان تسهم في تحويـل قيادة الحركة العربية إلى أيدي المسلمين شيئاً فشيئاً . ولم تكن حملته هذه وليدة التعصب ، بل كانت على نقيض ذلك تدعو إلى نبذ الخلافات الطائفية ، وقد كتب كثيراً من الفصول دعا فيها بحماسة واخلاص واضح إلى المساواة بين الاديان لتحقيق التماسك القومي وكانت حملته ترمي الى النهوض بالمسلمين جميعاً كما كانت ترمي إلى النهوض بالامة العربية ، ولذلك كان لا بد لها من ان تهز المسلمين هزاً عميقاً ، وان تستثيرهم بهذا الحافز المزدوج .

١٠

ولم يحدث في زمن عبد الحميد غير حركة سياسية أخرى ، هي الحملة التي قام بها نجيب عزوري ، وهو عربي نصراني ظهر نشاطه في السنوات الاخيرة من حكم عبد الحميد . بدأت الحملة في باريس سنة ١٩٠٤ حين أسس جمعية عرفت باسم « جامعة الوطن العربي » Ligue de la Patrie Arabe ، وكان هدفها الذي اعلنته تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية ، وأصدرت عدة نداءات عنيفة تدعو فيها العرب الى الثورة . ونشر في السنة التالية كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « يقظة الامة العربية » Le Réveil de la Nation Arabe . وما ان مضت سنتان بعد ذلك حتى كان قد استطاع ان يستميل بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين ويكسب تعاونهم معه ، فبدأ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية عنوانها : « الاستقلال العربي » L'Indépendance Arabe ظهر العدد الاول منها في نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٧ . وكان هدف المجلة ان تنشر المعرفة عن البلاد العربية ، وان تثير الاهتمام بقضية تحريرها . وتوقفت عن الصدور حين أعلن

الدستور العثماني في تموز (يولية) سنة ١٩٠٨ [١] .

ولقد أثارت حملة عزوري شيئاً من الاهتمام في أوروبة في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلا . وبغض النظر عن قيمة هذه الحركة ، فان ظهورهــا في عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو الى شلها والحد منها. ولم يقدر لها ان تنفذ إلى أعماق الحركة . وقيمتها الرئيسية لنا في هذا الكتاب أنهــا تقدم لنا مثلاً على انحراف بعض الداعين إلى الثورة ومــدى ابتعادهم عن مصادر وحيهــا والهامها بسبب التعليم الاجنبي .

١١

كان نمو الوعي العربـي القومي في عهد عبد الحميد بوجه عام نمو بطيئاً لا يكــاد يلحظ . ولم ترفع هــذه الحركة الوليدة رأسها إلا في مناسبتين ، الاولى : في بداية عهده حين قامت جمعية بيروت السرية بحملتها ، والثانية : في السنوات الاخيرة من حكمه حين أثار الكواكبي اعاصير الهياج . أما في غير هاتين الحالتين فقد كانت الحركة هــاجعة كأنما استغرقت في النوم ، لأن طغيان عبد الحميد جثم فوقها، وخدرت أوصالها سياسته العربية .

وفي اثنــاء تلك الفترة انفصلت مصر عن الحركة العربية ، واتبعت سياسة وطنية خاصة بها . وقد بدأ هذا التحول في العقد الثامن من القرن التاسع عشر على عهد الخديوي اسماعيل ، حين أثار اسراف هذا الحاكم ووقوعه في أحابيل المال الاوروبـي ، موجة من السخط العام . وحتى ذلك الحين كانت الحركة الفكرية في مصر تسير جنباً إلى جنب مع الحركة الفكرية بالشام وفي نفس الاتجاه ، وذلك من حيث احياء الثقافة العربية

١ ـ في المكتبة الوطنية بباريس مجموعة من خمسة عشر عددا من « الاستقلال العربي » (نيسان ـ ابريل ـ ١٩٠٧ حتى حزيران ـ يونية ـ ١٩٠٨) .

وميلاد الوعي العربي القومي ، فاذا ما انبعث صوت من أحد هذين القطرين تردد صداه في القطر الآخر فاستجاب له .

وكانت القاهرة وبيروت مركزين لألوان من النشاط متوافقة،وكانت منزلتها التي بلغاها مستمدة من مصدر ثقافي مشترك، ولذلك كانا يؤثران معاً في سائر البلاد الناطقة بالضاد . ولكن حينما احتلت بريطانية العظمى مصر سنة ١٨٨٢ ، في الفترة التي بدأت فيها اليقظة القومية تتخذ طابع الحركة الفكرية السياسية ، ظهر اتجاه فكري جديد ذو صبغة مصرية محددة ويرمي إلى هدف واحد لا يتعداه ، وهو السعي لارغام جيش الاحتلال البريطاني على الانسحاب .

وهكذا ولدت القومية المصرية ، واتجه قادتها وجهة جعلتها بمرور الأيام تزداد انفصالاً عن الحركة العربية العامة . ومع ذلك فقد ظلت الصلات الثقافية تربط بين مصر وسائر الاقطار العربية،وخاصة ان وادي النيل قد زاد رخاؤه وأمنه في ظل وصاية انجلترة وحمايتها، فأصبح لذلك مأوى يلتجيء اليه ضرو بمتعددة من الناس : من طلاب العلم ، والكتاب، والمفكرين السياسيين ، من البلاد العربية التي ظلت خاضعة لحكم السلطان. وكانت آمال المصريين لا تزال آنئذ – كما هي اليوم – متفقة اتفاقاً كبيراً مع آمال العرب ولكن الانفصال كان تاماً في مجال العمل القومي الخالص. وهذا ما حدث أيضاً مع تونس التي كانت تحت الحماية الفرنسية . وهكذا وجدت الحركة العربية القومية نفسها محصورة حينئذ – أكثر من أي زمن مضى – في نطاق بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية .

ولما كانت مصر بعيدة عن متناول يد عبد الحميد فقد أصبحت القاهرة أحد مراكز التآمر على حكم الطاغية . وكانت باريس مركزاً آخر من هذه المراكز . فتجمع في هاتين العاصمتين جماعات من اللاجئين السياسيين – وكانوا يسمون أنفسهم «الشبان الاتراك» (تركية الفتاة) –،وشرعوا يتآمرون ويتصلون سراً بالموالين لهم في سالونيك ليقضوا على استبداد السلطان ، وآتت هذه المؤامرة ثمارها في الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩٠٨ .

الفصل السادس

الشبان العرب والشبان الأتراك

(العربية الفتاة و تركية الفتاة)

١٩٠٨ - ١٩١٤

١

في اليوم الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩٠٨ منح عبد الحميد الدستور لرعاياه ، وسط موجة الذعر التي أثارها انفجار الثورة العسكرية فجأة . وفي اليوم التالي ألغى الرقابة ، وأطلق سراح جميع المسجونين السياسيين ، وسرح جيشه المؤلف من ٣٠,٠٠٠ جاسوس. وهكذا اطلت الحرية ، او على الاقل صورتها على الورق ، كما تطل ملكة المهرجان (الكرنفال) : تدور من طرف المكان ، وتنحني وهي توزع هباتها بملء يديها .

كانت هذه الثورة من تدبير جمعية « الاتحاد والترقي » ، وهي منظمة سرية انشأها « الشبان الاتراك » (تركية الفتاة) في سالونيك ، وهدفها القضاء على استبداد السلطان . وليس ثمة ما يدعونا في هذا المجال الى

تتبع حزب « الشبان الاتراك » (تركية الفتاة) وتقصي نشأته وأصولها ، إذ انه لا توجد أية رابطة بين اهداف هذا الحزب واهداف الحركة العربية سوى اشتراكهما في كراهية الاستبداد الحميدي . ومع ان بعض العرب، ومعظمهم من ضباط الجيش ، قد انضموا الى هذا الحزب وتعاونوا مع قادته تعاوناً وثيقاً ، غير انهم فعلوا ذلك بوصفهم مواطنين عثمانيين لا بوصفهم عرباً قوميين . وقد كانت جمعية الاتحاد والترقي خليطاً من أجناس وأديان مختلفة ، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الاتراك ويليهم اليهود ، وانجذب اليهم بعض الرعايا العثمانيين من الاجناس الاخرى ، ووقف خلفهم اللاجئون السياسيون والمنفيون خارج البلاد . ومع ان الدوافع التي وجهت هذه الجمعية وسيّرتها كانت دوافع متعددة كتعدد عناصر تكوينها ، غير ان هدفها الرئيسي كان القضاء على حكم عبد الحميد الفردي وإقامة حكومة صالحة للدولة على اساس انصهار الاجناس كلها ، وهو ما كان يرمي اليه دستور سنة ١٨٧٦ . وكان الاعضاء العسكريون هم اصحاب النفوذ في مجالس الحزب ، إذ كان الجيل حينئذ قد نشأ على تمجيد التربية العسكرية ، وربما لم يكن ثمة مفر من ان يلتجيء الحزب — لتحقيق انقلابه المفاجيء — إلى ثورة عسكرية يقوم بها الجيش ، وهو ما كان يخشاه عبد الحميد أشد الخشية .

ولم يكن دستور سنة ١٩٠٨ سوى المشروع الذي قدمه مدحت سنة ١٨٧٦ ، اعيدت اليه الحياة بجرة قلم ، بكل ما فيه من النقائص التي اصبحت الآن اشد سوءاً واتضح ما فيها من النقص بحكم تقدم الزمن ونمو الشعور الوطني . ولكن احياء المشروع قوبل بحماسة ، وربما كان التهليل له والابتهاج به بين القوميين العرب اكثر مما كان بين غيرهم ، فقد دفعتهم الفورة الاولى من شعورهم بالخلاص إلى فهمه فهماً غير صحيح ، فتوهموا انه الحرية الحقيقية . وقد عم الابتهاج جميع بلاد الدولة ، فأخذت الناسَ حُميًّا التآخي ، فتآخى الاتراك والعرب ،

والمسلمون والمسيحيون ، وهم يعتقدون اعتقاداً مخلصاً ان الدستور سيسد حاجات كل واحد منهم . ويبدو انهم لم يدركوا آنئذ عجزه عن ملاءمته لأهدافهم الفكرية . فان تمهيده السبيل لصهر الاجناس المختلفة في ظل حكم شعبي عثماني واحد تكون اللغة التركية هي اللغة المميزة فيه ، ذلك وحده هو نقض جوهري لمبدأ تحقيق الشخصية الفكرية . غير ان الحرية – بمجرد ان لاحت مظاهرها في الافق – أشاعت في الناس النشوة ، فاستخفّتهم وجرّدتهم – الا نفراً قليلاً – من القدرة على التفكير الصافي . وكان لا بد من ان تمر شهور قبل ان يستطيع هذا النفر القليل اسماع الناس شكوكهم وهواجسهم .

وفي هذه الاثناء – خلال ما يمكن ان يسمى شهر العسل التركي العربي – أنشئت اول جمعية عربية باسم جمعية « الاخاء العربي العثماني » . وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط مظاهر الحماسة في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية في اليوم الثاني من شهر ايلول (سبتمبر) ، وحضره اعضاء من جمعية الاتحاد والترقي . وكانت اهدافهم الرئيسية المحافظة على الدستور ، وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان ، وتحسين اوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقية مع الاجناس الاخرى في الدولة ، ونشر التعليم باللغة العربية وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتّباعها . وكانت عضويتها مباحة للعرب على اختلاف اديانهم ، وتقرر انشاء فروع لها في جميع المقاطعات العربية ، وأصدرت فعلاً صحيفة للدعوة الى نشر مبادئها التي كانت تقوم – كما رأينا – على أفكار مضطربة مشوشة .

وقد حدث في هذه الاثناء حادثان يستحقان منا العناية . أولهما : الاحتفال رسمياً بافتتاح سكة حديد الحجاز في شهر ايلول (سبتمبر) من تلك السنة ، وكانت السكة قد تمّ امتدادها حتى المدينة ، وثانيهما : تعيين

الشريف حسين بن علي أميراً على مكة [1] .

كان الحسين لا يزال يعيش في القسطنطينية في تلك العزلة الاجبارية التي كانت تُفرض على ضيوف السلطان . وقضى هناك اسيراً نحو ست عشرة سنة ، وقد كبح هـــذا الاسر من جماح نفسه ولكنه لم يقتلها . لقد كان بفطرته ذكياً كثير الحديث ، غير ان الحذر الذي فرض عليه ان يلتزمه والذي انغرس في نفسه بحدة وعنف بسبب سلسلة من حوادث الخيانة والغدر من اناس وضع فيهم ثقته ، كل ذلك علمه التحفظ والحرص . وكان في الحياة العامة – وقـــد عينه السلطان عضواً في مجلس شورى الدولة – شخصية بارزة موقرة ، وهو امر لا بد منه لرجل من سلالة رسول الله ويعيش في عاصمة الاسلام . وفضلاً عن شرف محتده ، فان تقواه ومسلكه الرفيع ، وطريقة حياته المستقيمة النقية – كل ذلك أكسبه احترام عدد كبير من المعجبين . لهذا السبب بل ايضاً لسبب اهم هو ما كان معروفاً من كره السلطان له – اختاره اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا في الحكم ليكون شريفاً لمكة بدل الشريف الحاكم . ولقد عارض عبد الحميد هذا التعيين ، وأكد ببعد نظره الثاقب ان الحسين حين يتولى منصباً مهماً كهذا المنصب لن يكون مجرد آلة ، ولكنه سيصبح قوة دافعة بل ربما اصبح خطراً مهدداً . ولكن لم يصغ أحد لتحذيره ، فأبحر الحسين الى الحجاز ، وكان عمره آنئذ ثلاثاً وخمسين سنة .

ثم اجريت الانتخابات لأول مجلس للنواب في ظل الدستور الجديد ، وكان مجالاً لأن يصاب هذا التحالف غير الطبيعي بين الترك والعرب بأول هزة . فقد كانت جمعية الاتحاد والترقي تشرف على جهاز الانتخابات ،

---

[1] – يحمل لقب « شريف » كل من هو من سلالة الرسول ، من غير ان يدل ذلك على ان له عملا يتولاه ، واما المنصب الذي عين فيه الحسين آنئذ – وهو : شريف مكة واميرها – فقد كان يتضمن عملا محددا مهما ، وقيمته الكبرى في حماية الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والاشراف على الحج ، ومهام اخرى .

وكانت تدير هذا الجهاز بطريقة تضمن معها نجاح الاغلبية العظمى من مرشحيها . وفضلاً عن ذلك كانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحة العنصر التركي على حساب الاجناس الاخرى . ولم يكن الترك قط اكثر الاجناس عدداً في الدولة ، وكان العرب في الواقع يفوقونهم عدداً بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين [1] ، ومع ذلك فقد كان مجموع اعضاء « مجلس المبعوثان » الذي اجتمع في كانون الاول (ديسمبر) ٢٤٥ عضواً منتخباً ، من بينهم ١٥٠ من الترك و ٦٠ من العرب ، أي كان الترك متفوقين بنسبة خمسة إلى اثنين . واما في مجلس الاعيان (الشيوخ) — وكان عدد أعضائه اربعين عضواً يعينهم السلطان — فلم يكن فيه غير ثلاثة من العرب . وكانت هذه حلقة واحدة من سلسلة التدابير التي كشفت عن الفرق — الذي أخذ يتسع مع الزمن — بين ما كان يقوله الاتراك عن مبدأ المساواة العنصرية وبين ما كانوا يفعلونه في الواقع . وكانت هذه هي الفرصة السانحة للمرتابين المتشككين من العرب ، فأصبحت هواجسهم وشكوكهم منذ ذلك الحين تجد آذاناً مصغية .

وفي نيسان (ابريل) من السنة التالية شبت ثورة اخرى كانت مفاجئة كالثورة التي شبت في تموز (يولية) المنصرم ، وكان عبد الحميد هذه المرة من وراء الثورة يرمي الى القضاء على جمعية الاتحاد والترقي . ففي ١٣ نيسان (ابريل) ثارت الكتائب التي كانت تتألف منها حامية القسطنطينية ، بتحريض من عملاء السلطان ، فاقتحموا مبنى البرلمان وقتلوا وزير العدل واحد النواب العرب [2] ، فضلاً عن عدد من ضباطهم . وحين وصلت

---

١ ـ ليست ثمة احصاءات دقيقة . وادق تقدير لمجموع السكان في الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٨ (باستثناء مصر) هو ٢٢ مليونا ، من بينهم ٧،٥ من الجنس التركي ، ١٠،٥ من العرب ، والاربعة الملايين الباقية من اليونانيين والارناؤوط (الالبانيين) والارمن ، والاكراد ، وعناصر اخرى اقل شأنا وعددا .

٢ ـ هو الامير الدرزي محمد ارسلان احد نواب سورية .

أنباء الثورة الى سالونيك ، قــرر محمود شوكت باشا ان يهجم على العاصمة . وهو عربي نال منصباً عالياً في الجيش التركي ، وكان آنئذ قائداً للكتائب المعسكرة في سالونيك . فدخل القسطنطينية في اليوم الرابع والعشرين بعد قتال مرير بعض الشيء ، واعاد إلى جمعية الاتحــاد والترقي سلطتها ونفوذها . وبعد ثلاثة ايام اجتمع مجلس الاعيــان ومجلس النواب معاً واعلنوا خلع عبد الحميد ونصبوا بدلاً منــه اخاه الامير رشاد سلطاناً .

كان السلطان الجديد ، الذي تسمى محمداً الخامس ، في الرابعة والستين من العمر ، ولم يمتشق سيف عثمان قط رجل هرم في مثل رقته وانكاره لنفسه وضعفه . ولم يكن لــه طموح اسلافه ولا رذائلهم ، وكان يميل الى ان يتيح لغيره ان يحكموه وان يحكموا باسمه . وبارتقائه العرش اصبح لجمعية الاتحــاد والترقي السيطرة المطلقة ، فتولت السلطة خلال السنوات الخمس التي سبقت قيام الحرب العالمية – ما عدا فترات قليلة – واقامت حكماً استبدادياً كان لا يقل طغيانــاً عن استبداد عبد الحميد – بالرغم من اختلافهما في النوع – بل لقد كان ابغض كثيراً لدى العرب من سابقه . ومن أول ما فعلوه بعد اخماد ثورة نيسان (ابريل) حل الجمعيات التي اسستها الجماعات التي لا تنتمي الى الجنس التركي، ، ومن بينها جمعية الاخــاء العربي العثماني التي اقسم أعضاؤها في حفل افتتاحها – قبل ذلك بثمانية اشهر فقط – على الاخلاص والولاء الدائمين في اجتماع عاطفي ضم العرب والاتراك ، خلال الفترة التي تألفت فيها الصداقة بينهما .

٢

من الواجب ان يقال – انصافاً « للشبان الاتراك » – ان التراث الذي ورثوه من نظام الحكم الحميدي كان تراثاً بغيضاً في ذاته،وفضلاً عن ذلك

فقد تسلموه في فترة شؤم ونحس . فقـــد كانت القوى الانفصالية التي تعمل في المقاطعات البلقانية في ذروة سيطرتها ، وكانت اطماع دولتين من دول اوروبة العظمى تقف بالمرصاد متوارية خلف ستار رقيق من الدبلوماسية ، كما حدثت سلسلة من الكوارث قبل ان يتاح الوقت الكافي «للشبان الاتراك» ليثبتوا مقدرتهم : فقد ضمت النمسة والمجر البوسنة والهرسك في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ۱۹۰۸ وانفصلت في الوقت نفسه بلغارية ، واعتدت ايطالية على ليبية في خريف ۱۹۱۱ ، ثم نشبت الحرب البلقانية في سنة ۱۹۱۲ . وفي هذه السنوات القليلة فقدت الدولة العثمانية جميع ولاياتها في اوروبة (ما عدا تراقية الشرقية) ، وفقدت ذلك الجزء من ليبية الذي يتألف من ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي ، وكذلك فقدت كريت وجزر الدوديكانيز . وفضلاً عن هذه الخسارة في البلاد كانت موارد الخزينة التركية تنوء بأعباء النفقات العسكرية .

ومع ذلك فان ثمة اموراً اخرى لا بدّ ان يقع اللوم فيها على «الشبان الاتراك» لاخفاقهم فيها . لا ريب في انهم — حين قاموا بثورتهم — كانت تحفزهم المثل العليا للوطنية والحرية ، وكانوا صادقين فيما نادوا به من المساواة بين الجميع في ظل الدستور . ولكنهم لم يكونوا اكفاء بحمل الرسالة التي ندبوا انفسهم لها وكان اول خطأ وقعوا فيه — وقد رأينا انهم لم ينفردوا بهذا الخطأ وحدهم — انهم لم يستطيعوا ادراك الخلل الخطير فيما ورد في دستور مدحت عن القضية العنصرية . وحين ظهرت — بعد زمن — نتائجه الوخيمة امام اعينهم تدريجياً ، اقترفوا خطأ آخر ، وكان في هذه المرة خطأ فاحشاً فقد تخلوا عن مبدأ المساواة وألقوه جانباً ، ولجأوا الى سلطتهم — بأساليب كانت احياناً استفزازية وتدل عـــلى الحمق — لترجيح المصلحة التركية والاضرار باخوانهم العثمانيين ، وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي .

ولا ريب في ان الرغبة في اعـــلاء شأن الجنس التركي فوق سائر

الاجناس هي في ذاتها رغبة طبيعيه في دولة انشأها الاتراك . ومع ذلك، فقد نشأت هذه الرغبة لعدة عوامل اخرى غير مجرد حب الذات . اذ بدأت تبرز للوجود حركة تنادي بالقومية التركية المحض ، استمدت أسسها من تجديد الايمان بانتساب الشعب التركي الى اصول طورانية ، فأدى ذلك الى الاعتقاد بأن السبيل لبعث الجنس التركي هي في اتحاده من جديد بالشعوب التي تمت اليه بصلة القربى من السلالة الطورانية ، وكان اكثر هذه الشعوب تحت الحكم الروسي . ومع ان الاتحاديين لم يعتنقوا عقيدة «الوحدة الطورانية الشاملة» بكل ما ينتج عنها من مشكلات تحرير تلك الشعوب وضمها ، غير أن تعاليم هذه العقيدة أثرت فيهم تأثيراً قوياً . ولكن تفكيرهم في هذا الموضوع ايضاً كان موصوماً بالاضطراب والتشوش . فان فكرة الطورانية – بدعوتها الى تمجيد العنصرية التركية وابرازها لروابط القربى بين الاتراك في الدولة العثمانية واخوانهم في الجنس في آسية الوسطى – تنقض فكرة الوحدة العثمانية التي كانت ترمي الى توحيد الأجناس المختلفة في الدولة في امة واحدة على اساس المساواة بين الجميع . لقد عجزت جمعية الاتحاد والترقي عن ادراك التناقض بين الفكرتين ، او انها ادركته فاختارت سبلاً غير مجدية بمحاولة التوفيق بينهما . ولم تنجح هذه المحاولة الا في اثارة الاجناس الاخرى ، وخاصة العرب ، الى الاعتقاد بان فكرة الوحدة العثمانية التي كان يطلب منهم اعتناقها باخلاص ، انما هي تضليل وان معناها الوحيد – اذا كان لها أي معنى – هو حملهم على التخلي عن امانيهم الفكرية العربية ، وان يبيحوا لأنفسهم ان « يتتركوا » من اجل الوحدة .

بل لقد اقترف الاتحاديون خطأ أفحش باتباعهم نظام المركزية . وهو نظام استعاروه – كما استعاروا كثيراً غيره من افكارهم الرئيسية – من مبادىء الثورة الفرنسية ، ولكنهم حين استعاروه اغفلوا فارقاً جوهرياً بين حال فرنسة سنة ١٧٨٩ وحال الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ . فمركزية

الادارة الجمهورية في باريس إنما هي استمرار لتطور تاريخي ، وكانت متسقة مع العوامل التي تفاعلت قروناً عدة وجعلت من باريس مركزاً ثقافياً واقتصادياً ، ودفعت فرنسة نحو الوحدة السياسية والادارية حول هذا المركز . اما في الدولة العثمانية فقد كان الامر على نقيض ذلك ، فان القوى التي نشأت نتيجة اليقظة القومية كانت تتفاعل متجهة نحو البعد عن المركز ، وكانت الفروق في اللغة والعادات والثقافة والتفكير لا تزال هي المنابع التي تنشأ منها هذه القوى . ومع ان القسطنطينية كانت بوتقة للصهر ، غير أنها لم تكن بأي وجه مركزاً للوحدة الثقافية الفكرية . وكان تعدد الاجناس واختلافها داخل الدولة يقتضي قيام نظام حكومي لامركزي مما كان يتيح للولايات العربية والولايات الاخرى غير التركية قسطاً كبيراً من الحكم الداخلي ، ويبيح لها ان تساير تطورها السياسي والثقافي بوصفها اعضاء في الدولة لها استقلالها الذاتي . ولكن السياسة التي اتبعها الاتحاديون كانت مناقضة لذلك ، فقد اتبعوا نظام الحكم المركزي الذي وجدوه قائماً حين جاءوا للحكم ، ومضوا يشددون من قبضة الحكم المركزي الاستبدادي بدلاً من ان يخففوها . وقد قُدّر لجهودهم في تقوية وحدة الدولة ان تخفق لهذا السبب وحده ، وان الاساليب العنيفة الاستفزازية التي اتبعوها لتنفيذ تلك السياسة قد جعلت اخفاقهم أشد وضوحاً وضاعفت من الشعور بالمرارة الذي نشأ عن سياستهم .

٣

كان حل الاتحاديين لجمعية « الاخاء العربي » سبباً في حمل الزعماء العرب على اتباع الوسائل السرية ، فنشأت عدة جمعيات لم يعلم الاتراك بوجود بعضها قط . وأصبح منذئذ نشر افكار العرب القومية يتم في ميدانين : ميدان علني مجاله النوادي والجمعيات المعترف بها رسمياً ، وميدان سري تعمل فيه المنظمات السرية المتآمرة في الخفاء . وقد انشيء

عدد من هذه الجمعيات ومارست أعمالها بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٤ . وأربع منها جديرة بالذكر الخاص : اثنتان علنيتان واثنتان سريتان [١] . وقد كانت اعمال كل مجموعة منها تكمل الى حد كبير اعمال الاخرى ولعل تداخل اعمالها وارتباطها يتضح اذا عرضنا اعمال الجمعيتين المعترف بهما اولاً ، ثم نعرض اعمال الجمعيتين السريتين – متجاوزين عن التزام تتابعها الزمني .

كان « المنتدى الادبي » أقدمها تأسيساً ، وهو جمعية أنشأها جماعة من الموظفين والنواب والادباء والطلاب [٢] في القسطنطينية في صيف سنة ١٩٠٩ لتكون مقراً يلتقي فيه العرب سواء منهم الوافدون على العاصمة والمقيمون فيها . وقد زود مقر النادي بمكتبة وخصص قسم منه للنوم والضيافة ، وقد كان هذا المركز دائب النشاط كثير الفائدة بحيث حقق الغاية التي انشىء من اجلها . ولقد سمح به الاتحاديون ، بل وضعوه زمناً تحت رعايتهم ، لأن اهدافه لم تكن سياسية علنياً . ولكنه في الحقيقة كان له قسط كبير من التأثير السياسي ، وقد أتى عليه حين اصبحت فيه لجنته الادارية هي الوسيط المعترف به رسمياً في المفاوضات التي دارت لتسوية الخلاف بين العرب والاتحاديين ... ولكن عمله الاساسي كان في توضيح الافكار والآراء وتصفيتها لا في صنعها وخلقها ، وكانت مشاركته في الحركة العربية تتمثل في تقوية دعوتها وتوسيع مداها اكثر مما كانت

---

١ – لقد جمعت مادة تكفي لكتابة سجل يكاد يكون وافيا عن هذه الجمعيات واستقيتها من مصادر مدونة وشفهية كثيرة ، وكنت في اغلب الحالات استمدها من المؤسسين انفسهم . غير ان الحديث المفصل عنها يستغرق وقتا طويلا ويدعو الى الاحاطة ، لذلك اقتصرت على الحديث عن الجمعيات التي كانت مشاركتها في تاريخ الحركة حلقة اساسية في سلسلة تطورها .

٢ – كان من بينهم : عبد الكريم الخليل * (مسلم من لبنان) ، صالح حيدر * (مسلم من بعلبك) ، رفيق سلوم * (مسيحي من حمص) ، جميل الحسيني (مسلم من القدس) ، يوسف مخيبر (مسلم من بعلبك) ، سيف الدين الخطيب * (مسلم من دمشق) .

* هذه النجمة تدل على اسماء الاشخاص الذين شنقهم الاتراك في اثناء الحرب بتهمة الخيانة لقيامهم بنشاط في الميدان القومي .

تتمثل في تزويدها بعوامل جديدة لحياتها . وكان اعضاؤه كثيرين يبلغون ألوفاً اكثرهم من الطلاب ، وأنشأ فروعاً له في بلدان كثيرة في الشام والعراق ، وكان من اهم الفوائد التي قدمها انه هيأ مراكز يجتمع فيها العرب من جميع انحاء الدولة وكأنهم في بلادهم ، يتحدثون في حرية ويسودهم جو تطمئن اليه نفوسهم ، ويتيح لهم تبادل الآراء .

أما الجمعية العلنية المهمة الاخرى فقد انشئت في القاهرة في أواخر سنة ١٩١٢ ، باسم « حزب اللامركزية الادارية العثماني » . وكانت اهدافها ذات شقين ، الاول : ان تبين للحكام في تركية مدى الحاجة الى اللامركزية الادارية في الدولة ، والثاني : ان تعبىء الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية . وكان مؤسسوها ، في معظمهم ، من ذوي الخبرة والمكانة المرموقة الذين أدوا رسالتهم في الحياة العامة [1] . وكانت مواد النظام الاساسي للجمعية تكفل قيام جهاز حزبي محكم . وقد وكل امر الاشراف عليها الى لجنة قوية من عشرين عضواً يقيمون في مصر تتألف من بينهم هيئة ادارية مكونة من ستة اعضاء . وانشئت فروع لها في كل مدينة في الشام ، ووكالات صغيرة في عدد من الاماكن الاخرى، وكان ثمة اتصال وثيق بين فروعها والجمعيات السياسية العربية الاخرى في الشام والعراق ، و « المنتدى العربي » في القسطنطينية بطبيعة الحال . ولم تمض سنة حتى اصبحت لجنة حزب اللامركزية افضل من يمثل اهداف العرب وامانيهم من حيث دقة التنظيم وقوة التأثير .

إن قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية تتمثل في انها اول تجربة تخوضها الحركة في ميدان العمل المنظم . فقد مضت ثلاث سنوات

---

١ ـ كان من بينهم : رفيق العظم (مسلم من دمشق) ، رشيد رضا (مسلم من طرابلس الشام) ، اسكندر عمون (مسيحي من لبنان) ، فؤاد الخطيب (مسلم من لبنان) ، سليم عبد الهادي * (مسلم من جنين) ، حافظ السعيد * (مسلم من يافا) ، نايف تللو * (مسلم من دمشق) ، علي النشاشيبي * (مسلم من القدس)٠

والمعركة بين الاتحـــاديين – بسياستهم في التوحيد في المركز – وبين العرب الذين ينادون بالحـــكم الذاتي ، متقطعة متفرقة كعادة العرب في حروبهم ، وجاء تأسيس الجمعية محاولة لتنظيم الجهود وجمعها في جهد واحد متسق متواصل .

وفي الوقت نفسه قامت الجمعيتان السريتان . انشئت الاولى ، وهي « القحطانية » ، في اواخر سنة ١٩٠٩ ، بعد انشاء « المنتدى الادبي » . وكان مؤسسوها من ذوي الجرأة والاقدام ، وكان هدفها تحقيق مشروع جديد جريء ، وهو : تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين . وكانت هذه محاولة اخرى لحل المشكلة التي أوجدتهـــا سياسة الاتحاديين المركزية . وذلك بأن تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة لهـــا برلمانها وحكومتها المحلية وتكون اللغة العربية لغة معاهدها ومؤسساتها ، على ان تصبح هذه المملكة جزءاً من امبراطورية تركية – عربيـــة ، تشبه في تكوينها الدولة النمساوية المجريـــة ويضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية بالاضافة إلى تاجـــه التركي ، كما كان امبراطور آل هابسبورغ في فيينا يضع على رأسه تاج المجر . وهكذا يمكن الوصول الى الوحدة عن طريق الانقسام ، ويصبح مصير الاتراك والعرب اوثق التحاماً على اسس ثابتة لأنها أسس اقرب الى تمثيل الواقع .

في هذا المشروع تبرز خطة عملية ملموسة تعتمد على فكرة محددة ، فكر فيها جماعة من الرجال العمليين ذوي الارادة والتصميم ورأوا استحالة تحقيقها عن طريق الاعلان والدعاية . وكان يقودهم عزيز علي المصري وهو ضابط في الجيش المصري سيمر ذكره معنا فيما بعد . وكان أعضاء « الجمعية القحطانية » يختارون بعناية ودقة ، فلم يكن يسمح لأحـــد بالانتماء اليها إلا إذا كانت وطنيته فوق مستوى الشبهات وكان ممن يوثق بكتمانه السر [١] . وكان بين اعضائها عدة ضباط من العرب من ذوي الرتب

---

١ – كان من بينهم : سليم الجزائري « (ضابط في الجيش، مسلم من دمشق)، الاميران =

العالية في الجيش التركي واثنان من مؤسسي « المنتدى الادبي » . وكان للجمعية كلمة سر واشارة لاثبات شخصية العضو ، وأسست لها فروع في خمسة مراكز بالاضافة الى القسطنطينية . وكانت تستمد قوتها من شخصيات بعض اعضائها ، وتتمثل قيمتها في تاريخ الحركة في انها حاولت اول محاولة معروفة لضم الضباط العرب في الجيش التركي ليزداد التعاون في ميدان الحركة القومية .

كان نشاط الجمعية كبيراً في السنة الاولى من انشائها ، الى ان ظهر من الاسباب ما دعا مؤسسيها الى الخوف من الخيانة ، فبالرغم من الدقة في اختيار المرشحين ، غير انهم اكتشفوا ان احد الاعضاء – لم يذكر اسمه في الهامش السابق – قد خان الثقة ، فدب القلق في نفوس باقي الجماعة . ولم يصدر قرار من الاعضاء بحل الجمعية فعلاً ، غير ان زعماءها وجدوا ان من المستحيل الاستمرار فيها وبينهم خائن يرتابون فيه ، فماتت الجمعية بسبب تعمد الاعضاء اهمالها .

أما الجمعية السرية الأخرى فكانت « جمعية العربية الفتاة » التي أسست في باريس سنة ١٩١١ . ولم يكن لأية جمعية اخرى ما كان لهذه الجمعية من أثر فعال في تاريخ الحركة القومية . كان مؤسسوها سبعة من الشبان العرب ، وجميعهم مسلمون ، وكانوا يواصلون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية[١] . وقد أضفوا على الجمعية روح التماسك

امين وعادل ارسلان (درزيان من لبنان) ، خليل حمادة (مسلم من بيروت) ، امين كزما (مسيحي من حمص) ، صفوت العوا (ضابط في الجيش ، مسلم من دمشق) ، علي النشاشيبي * (ضابط في الجيش ، مسلم من القدس) ، شكري العسلي * (مسلم من دمشق) .

١ – وهم : عوني عبد الهادي (من جنين) ، جميل مردم (من دمشق) ، محمد المحمصاني* (من بيروت) ، رستم حيدر (من بعلبك) ، توفيق الناطور * (من بيروت) ، رفيق التميمي (من نابلس) ، عبد الغني العريسي * (من بيروت) .

والوحدة والنشاط مما كانوا يتمتعون به من شباب ، وعزم ، واتفاق في الآراء . ولذلك فان انشاء هذه الجمعية يذكرنا بجمعية بيروت السرية التي أنشئت سنة ١٨٧٥ ، غير ان الفرق بينهما ان زمام المبادرة قد أصبح الآن بيد المسلمين . وكانت اهـــداف الجمعية السعي لاستقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية او اية سيطرة اجنبية اخرى . وهذا تقدم ملحوظ بالنسبة للبرامج السابقة التي كانت ترمي الى الحكم الذاتي في نطاق الدولة ، وهو رجوع غير مقصود الى المثل العليا التي كانت تدعو اليها جمعية بيروت السرية .

وسيظهر لنا بعد قليل أثر جمعية العربية الفتاة في سير الحوادث . اما الآن فان ما يعنينا هو نموها الذي كان يتدرج بحذر ولكن بسرعة ، حتى اصبحت اكثر الجمعيات العربية في ذلك الحين اثراً . وكما كانت تتميز بأهدافها ووسائل تحقيق هذه الاهداف ، كانت كذلك تتميز بالتنظيم الرائع لاعضائها . فقد كان لا بـــدّ ان يمر العضو في فترة طويلة من الاختبار قبل قبوله . وكان كل مرشح يقدمه عضو قديم ممن حلف اليمين ، ويظل لا يعرف اشخاص الاعضاء الآخرين الى ان تنتهي فترة اختباره ويتم قبوله ، حينئذ يدعى ليقسم ان يسعى لتحقيق أهداف الجمعية ولو ادى ذلك الى التضحية بحياته اذا اقتضى الامر .

وكان مركز الجمعية في باريس خـــلال السنتين الاولين ، وبقي أعضاؤها قليلين . وبعد ان انهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا الى بلادهم ، فنقلت الجمعية الى بيروت سنة ١٩١٣ ثم نقلت في السنة التالية الى دمشق . وزاد اعضاؤها على المائتين ، وكانوا جميعاً من المسلمين ما عدا قلة قليلة من المسيحيين . وقد ظل سر قيامها مكتوماً حتى النهاية ، ولم يذع هذا السر إلا بعد ان نالت البلاد العربية استقلالها وتحررت من الحكم التركي . وفي خلال الحرب ، حين كان الاتراك يتتبعون الوطنيين العرب بتهمة الخيانة ، حاول احد اعضائها الانتحار بسبب ما عاناه من

التعذيب الجسدي ، وسيق عضو ثان الى المشنقة وشنق ، ولم يبوحا بسر الجمعية . وقد يبدو ان القسم الذي كان على الاعضاء ان يؤدوه – ليس إلا مسرحية عنيفة لا قيمة لها ، ولكن اي ضرر من المسرحيات العنيفة إذا كانت تلهم الاخلاص .

٤

كانت هذه الجمعيات الاربع ، واخرى غيرها اقل منهـــا قيمة ، موجودة حين قامت موجة جديدة مـــن الحركة العربية تجتاح مقاومة الاتراك وعنادهم . بدأت هذه الموجة في بيروت في الايام الاخيرة من سنة ١٩١٢ ولكن مدّهـــا اوصلها الى باريس حيث عقد مؤتمر عربي بعد ذلك بستة اشهر .

وقد قام بأول خطوة في بيروت هيئة قويـــة تسمّت باسم « لجنة الاصلاح » ، وكانت مؤلفة من ستة وثمانين عضواً من جميع الاديان ، وقد وضعت اللجنة خطة تنال بها الولايات العربية في الدولة العثمانية الحكم الذاتي . وكانت الدوافع التي حفزتهم الى ذلك هي الدوافع نفسها التي ادت الى انشاء « حزب اللامركزية » في القاهرة ، فتعاونت الهيئتـــان تعاوناً وثيقـــاً . ولم يكن برنامج « لجنة الاصلاح » الا التطبيق العملي للمبادىء التي نادى بهـــا المطالبون بالاستقلال الذاتي عـــلى اسس اللامركزية .

وقد وضع البرنامج بحيث يتفق مع شكل انقسامات الادارية القـــائمة آنئذ ، وتضمن الاعتراف بالسيادة التركية اعترافـــاً كاملاً . ولكنه ميّز بين المسائل ذات الطابع المتصل بالدولة مثل : الشؤون الخارجية ، والدفاع ، والمواصلات العامة ، والاقتصاد الوطني ، وبين المسائل ذات الطابع الاقليمي مثل : ادارة الولاية وايراداتهـــا ، والمصالح المحلية ، وتضمن البرنامج انتقال المصالح الاقليمية في ولايـــة بيروت الى هيئات

تمثل الولاية . وتضمن كذلك ، من بين مـا تضمنه من اصلاحات ، الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية ، واستعمالها في البرلمـان على قدم المساواة مع اللغة التركية . امـا الخدمة العسكرية فقد تضمن البرنامج التخلي عن تجنيد الجنود للخدمـة في زمن السلم خـارج ولايتهم . ونجد في هذه البنود الاخيرة صدى لمطالب جمعية بيروت التي انشئت سنة ١٨٧٥ .

وقد اعلنت «لجنة الاصلاح» برنامجها في نحو منتصف شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٣ . فقوبل بمظاهر الترحيب العـام ، ولم يكن ذلك في ولايات الشام وحدها بل في العراق ايضاً . فعقدت الاجتماعات العامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة ، وانهالت البرقيات على القسطنطينية تتضمن تأييد البرنامج وانه يعبّر عن الرغبة العامة في الولايات العربية . ولمـا كان الاتحاديون في مناصب الحكم يعارضون فكرة اللامركزية فقد اتخذوا الخطوات اللازمة للقضاء على هذه الحركة . فذات يوم ، حين كانت «لجنة الاصلاح» مجتمعة ، وكان ذلك في الثـامن من شهر نيسان (ابريل) ، جاء رجـال الشرطة واخبروا الاعضاء ان الحكومة قد اصدرت قراراً بحل اللجنة واغلاق مراكزها . وقوبل النبأ بالفزع والسخط العامين ، فأغلقت جميع المتاجر ودور الاعمـال في بيروت ابوابها ، وصدرت الصحف وقد احاطت بها أطر سوداء ، وكان الخبر الوحيد الذي نشرته هو قرار حلّ اللجنة . وانتهجت السلطات سياسة العنف ، وهـي سياسة محببة دائماً للحكومات التي لا تمثل الشعوب ، فاعتقلت الزعماء البارزين وعطلت الصحف . فزاد الهيـاج ، وادى الى قيام مظاهرات التأييد في انحاء اخرى من بلاد الشام . فلجأت الحكومة الى حل وسط : اطلقت سراح الزعماء المعتقلين واعلنت ان الاصلاحات بصورتها المطلوبة سوف تتم . وفي الخامس من شهر ايار (مايو) نشر الحاكم العـام بالفعل قانوناً جديداً للولايات يمنح مزيداً من السلطات

للهيئات التمثيلية في الولايات . ولكن ما تضمنه القانون كان اقل جداً مما طالب به برنامج « لجنة الاصلاح » ، حتى ان النـــاس — ولهم العذر في ذلك — رأوا ان هذا القانون ما هو إلا خطوة مُقَنَّعة نحو مزيد من المركزية ، وزيادة وطأة القسطنطينية على العرب ، وتشديد قبضتها الخانقة على الحرية .

٥

ثم انتقل مركز الحركة الى باريس . وكانت فكرة عرض القضية العربية ونشرها نشراً شعبياً واسعاً في جو حُرّ محايد ، قد راودت — زمناً ما — عقول أولئك الشبان الذين اسسوا جمعية « العربية الفتاة » . وكانت الطريقة التي اختاروها لتحقيق ذلك هي عقد مؤتمر عربي ، وبعد ان ترددوا بعض الشيء في المكان الذي يعقدونه فيه : هـــل هو فرنسة او سويسرة ، وقع اختيارهم على باريس . فكتبوا في الرابع من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ إلى لجنة «حزب اللامركزية » في القاهرة ، يدعونها مع الجمعيات المتفرعة منها الى حضور المؤتمر . ومن المهم ان نلحظ ان من أول الاسباب التي ذكرت لذلك : التذرع بأن رفض مطالب العرب قد جر الولايات العربية الى الفوضى فعرضها ذلك الى التدخل الاجنبي (أي الاوروبي) . وقد ووفق على الفكرة وقبلت الدعوة فوراً . أما في بيروت فقد ارسلت « لجنة الاصلاح » — التي كانت تعـــاني مرارة قمع الاتحاديين لحركتها — تعلن بحماسة مشاركتها وانضمامهـــا للمؤتمر . وبلغ الترحيب والاستحسان العام مبلغاً جعلهم ينتهون من الاعداد للمؤتمر بسرعة من غير ان يعيروا المناطق العربية النائية الا عناية قليلة . وهكذا عقد المؤتمر جلسته الافتتاحية في اليوم الثامن عشر مـــن شهر حزيران (يونية) في قاعة في شارع سان جرمان .

وكان كشف المندوبين يتضمن اسماء خمسة وعشرين شخصاً معتمداً ،

حضر منهم اربعة وعشرون . وكانت العضوية مقسومة قسمة تكاد تكون متساوية تماماً بين المسلمين والمسيحيين ، والكثرة الـغالبة من الاعضاء كانوا من أهل الشام . ومثّل العراق عضوان ، كما حضر ثلاثة أعضاء آخرين يمثلون الجاليات العربية في الولايات المتحدة . وكان ممثلو البلاد العربية – باستثناء الشام – قليلين . وقد استمر المؤتمر ستة ايام عقد فيها اربع جلسات رسمية ، وانتهى إلى مجموعة من القرارات بالاجماع . وحضر الاجتماعات نحوٌ من مـائتين من العرب مستمعين ، ثم فتحت أبواب المؤتمر في يومـه الاخير على مصاريعها لجميع الزائرين من غير قيد ، وكانت المداولات تدور باللغة الفرنسية .

واتسمت المناقشات بالصراحة وبأسلوبها المتزن الهـادىء ، وتدل القرارات على الرغبة في الاعتدال . وكانت القرارات ترديداً للمبادىء التي اعلنها « حزب اللامركزية » وللاقتراحات المحددة التي قدمتها « لجنة الاصلاح » ببيروت ، مع تأكيد مطالب العرب بالحقوق السياسية الكاملة ونصيبهم في الاشتراك اشتراكاً فعالاً في ادارة شؤون الدولة . وقد أشير خلال المناقشات – اشارة مقنعة بالحذر لمساسها بالمطامع الفرنسية – إلى احتمال التدخل الاجنبي والى انـه خطر يجب درؤه بعزم وتصميم . ولم يدر أي حديث عن الانفصال او الانشقاق . والحق ان المتكلمين قـد بذلوا اقصى الجهد في تأكيد الرغبة العامة في الاحتفاظ بوحدة الدولة بشرط الاعتراف بحقوق العرب من حيث هم شركاء في الدولة ، وان يتاح لاهدافهم الفكرية مجال حر في نظام لامركزي للحكم . وتضمنت بعض الخطب ما يدل على ادراك سياسي وبعد نظر . فقد استطاع احد المتحدثين – في مجـال عرضه لاسباب الخلاف – ان يلمس جوهر الموضوع حين كشف عن تناقض مبدأ المركزية الذي يتمسك به الاتحاديون كما استعاروه من الثورة الفرنسية ، وأظهر في تحليل جلي انه يعتبر عملاً انتحارياً ان قبله العرب .

كان الاتحاديون آنئذ في الحكم ، وكان موقفهم بطبيعة الحال عدائياً . فدبروا حركة – كانت تغذيها صحفهم والمظاهرات التي افتعلوها–ترمي إلى الإنتقاص من المؤتمر وبــذر بذور الخلاف بين اعضائه وأنصاره ، وحاولوا تحريض الحكومة الفرنسية لتمنع عقده على أرض فرنسية . فلما أخفقوا في ذلك أرسلوا سكرتير حزبهم إلى باريس وأمروه ان يفاوض رؤساء المؤتمر ، وقــد نجح في هــذه المهمة . فقد اتفقوا عــلى بعض المبــادىء التي رأى الزعماء العرب أنهم يستطيعون قبولهــا لتكون أساساً لمفاوضات تليهــا . وسافر ثلاثة منهم إلى القسطنطينية لتــأكيد ما فازوا به .

كانت الاتفاقية التي تمت في باريس – وفقاً لما ورد فيها – نصراً للعرب في ظاهرها . فقد منحتهم مطالبهم في الخدمة العسكرية الاقليمية، وفي استعمال اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية واستعمالهــا لغة للتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، وأقرت تعين مفتشين اوروبيين ليشاركوا في اصلاح الادارة . أمــا موضوع اللامركزية فكان تسليم الاتفاقية به تسليماً ظاهريــاً أكثر منه حقيقياً . فقد وسعت من سلطات الهيئات الاقليمية في بعض المصالح الثانوية ، واحتفظت ببعض المناصب في دوائر الدولة العليا ليتولاها العرب . وبذلك تقرر أن يكون منذ ذلك الحين ما لا يقل عن خمسة ولاة من العرب في مناصب الدولة باستمرار، وثلاثة على الاقل من العرب وزراء في الوزارة العثمانية .

ولا يعلم هل كان مندوب الاتحاديين – في اقراره لهذه الاتفاقية – قد تمشى مع تعليمات صدرت اليه من حزبه، أو أنه أراد ان يسترضي العرب بمكيدة دبرها بنفسه . وربما كان الامر على الوجهين معاً ، إذ تبين بعد ذلك–حين أخذت مواد الاتفاقية تتضاءل وتبتر حتى وصلت إلى حضيض الاغفال والاهمــال – ان زعمــاء الاتحاديين لم يكن في نيتهم قط ان ينفذوها . ومع ذلك استمروا في مهزلتهم شهرين : فقد رحبوا بالزعماء

العرب الثلاثة الذين حضروا من باريس ترحيباً حاراً، وأقاموا لهم حفلات الاستقبال والمــآدب واستضاف « المنتدى الادبي » العربي بعض ذوي المكانة السامية من الاتراك ، وتكرر الحديث المستطيـــل الذي دار سنة ١٩٠٨ عن التآخي المبن الميسور .

وفي الثامن عشر من آب (أغسطس) صـدر مرسوم سلطاني يتضمن المصادقة على شروط اتفاقية باريس ، غير أن كثيراً جداً من موادهـا اختزل ، وأحيط معظم ما بقي بالتحفظ والغموض . ففي موضوع اللغة نص المرسوم على ان تكون اللغة العربية منذ صدوره لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، ولكنه أضاف إلى ذلك ان المدارس الثانوية في عواصم الولايات تستمر في التعليم باللغة التركية ، وكانت جميع المدارس الثانوية قائمة في تلك العواصـم . وعدل كذلك النص الخاص بالخدمة العسكرية تعديلاً مشابهاً لذلك . ولم يرد أي ذكر لجعل اللغة العربية لغة رسمية ، ولاعتبارها احدى اللغات الرسمية ، في الولايات العربية ، او للاحتفاظ ببعض مناصب الوزارة او الولاية للعرب .

لقد اثار صـدور المرسوم السلطاني في النفوس خيبـة الامل ، ثم مـا لبث هذا الشعور ان اصـبح يأساً ، إذ تبين العرب المتيقظون شيئاً فشيئاً ان هذا المرسوم ايضاً خدعة،وان حيلة الاتحاديين كانت ترمي إلى إهمال القضية . وارسلت إلى الولاة في بعض الولايات العربية تعليمات عليها طابع عدم الاكتراث تنص على« تمهيد السبيل للتنفيذ المنتظر للمرسوم السلطاني الصادر في آب(اغسطس)». وفي الوقت نفسه أرسل الاتحاديون رسلهم ليتقربوا من بعض الشخصيات العربية بمنحهم المناصـب ثمناً لسكوتهم . وقد قبل خمسة منهم تعيينهم اعضاء في مجلس الاعيان،وكان اربعة من هؤلاء غربــاء عن الحركة القومية ، امـــا الخامس ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، فكـان من صميم الحركة ، إذ كـان هو رئيس المؤتمر في باريس . وقد ذكر ان الدوافع التي حملته على قبول التعين مردها إلى

مهارة سياسية : وذلك انه شعر بأن المؤتمر – وقد عقد مباشرة بعد حملة بيروت – سار بالعلاقات التركية العربية في طريق خطرة حتى أوشكت ان تنفصم عراها ، وانه–بوصفه عضوا في مجلس الاعيان – قد يستطيع ان يستفيد من نفوذه فيحسن هذه العلاقات ويقنع الاتحاديين باتباع سياسة فيها قسط أوفر من الحرية . ولعله كان مخلصاً في ذلك ، وقد استنتجت ذلك من احدى رسائله التي نشرت بعد وفاته . وقد أيده في رأيه هذا بعض رفاقه المقربين ، وان لم يكونوا كثيرين . على ان رجال الحركة عدوا قبوله التعيين خيانة. ونشر خبر تعيينه رسمياً في الصحف في الرابع من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٤ ، فأثار من النفور والاشمئزاز ما يعد نقطة تحول . لقد أخفقت حركة بيروت ومؤتمر باريس في تحقيق أهدافها الرئيسية ، فانتكست موجة الشعور التي أثاراها وأصبحت مرارة ويأساً . ولم تقم بعد ذلك اية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين ، ومما زاد الطين بلة ان الاتحاديين بعد ان احرزوا هذا النصر بالاحتيال والخداع ، اخذوا يثبتون مكاسبهم بضروب من الوحشية بلغت من سوء التدبير مبلغاً متفرداً .

٦

في التاسع من شباط (فبراير) من السنة نفسها ، بينما كان الرائد (الرئيس الاول) عزيز علي المصري، من هيئة اركان حرب الجيش، خارجاً من فندق طوقاتليان بعد الغداء بادره ثلاثة من رجال الشرطة السريين ودعوه إلى مركز الشرطة المركزي في القسطنطينية. وهناك القي عليه القبض من غير ان توجه اليه أية تهمة ، فذاعت الشائعات بأنه سيحاكم بتهمة الخيانة. وقد أثار نبأ اعتقاله الدهشة بين العرب هناك ثم تحولت الدهشة إلى سخط تمثل في مظاهرات الجماهير في الشوارع .

كان عزيز علي قد اصبح – وهو في الخامسة والثلاثين من العمر –

شخصية مشهورة . وقد ولد في القاهرة حيث كان يقيم والده، ثم التحق بالكلية العسكرية في القسطنطينية ، ثم بكلية الاركان ، وبعد ان تخرج فيها بتفوق سنة ١٩٠٤ عين في هيئة اركـــان حرب الجيش الثالث في مقدونية . وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي ، وكان احد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة ١٩٠٨واشترك في الزحف على القسطنطينية في نيسان (ابريل) من السنة التالية . ولكن انضمامه الى جمعية الاتحاد والترقي كان لعاملين : مثله العليا القومية العربية،واخلاصه لمصلحة الدولة العثمانية ، فحين أدرك، في الشهور التي تلت الثورة المعاكسة سنة١٩٠٩، ان سياسة الاتحاديين كانت تعارض العامـــل الاول ، كـــما كانت سيء التصرف بالنسبة للعامل الثاني ، اخذ يبحث حوله عن حلفاء له أجدر من الاتحاديين .

وكان نفوذه اعظم كثيراً من مستوى رتبته العسكرية،وسبب ذلك أنه كان يحاضر في وقت ما في كلية الاركـــان فاستطاع ان يستميل قلوب الجيل الناشىء من ضباط الجيش ، كـــما امتاز في ميدان العمل بالخلق والجرأة والحكمة، وأهله اخلاص نيته وثبات عزمه في وطنيته أن يرضى بزعامته من هم أسن منه. وكان هو الذي أسس—بمعاونة وطني بارز آخر هو زميله الضابط سليم الجزائري —« الجمعية القحطانية »ببرنامجها المتضمن مملكة ذات تاجين تلتقي فيهـــا الاهداف العربية مع الاخلاص للدولة العثمانية . وفي سنة ١٩١٠ أرسل إلى محاربة اليمن ، فاستطاع ان يفوز باقناع الامام ان يسوي خلافاته مع الباب العالي ، ثم تطوع في ليبية حيث أحرز أمجاداً رائعة بقيادته المقاومة العربية ضد العدوان الايطالي ، وعاد الى القسطنطينية في صيف ١٩١٣ ليرى الآمال العربية تذوي ببطء في الشهور التي تلت مؤتمر باريس . ووجد ان الفوضى والفساد كانا يسودان وزارة الحربية،التي كانت تنتقص من شأن انتصاراته في افريقيـة بعامل الحسد . ورأى اتجاه الاتحاديين إلى اصدار الامر بنقل الضبـــاط

العرب المقيمين في العاصمة ، جماعات جماعات — وهو من بينهم — إلى حاميات الولايات النائية . فاستقال من منصبه مشمئزاً .

في بداية سنة ١٩١٤ أخذ عزيز علي ينفذ خطة اختمرت في فكره منذ أيام « الجمعية القحطانية » بعد ان تخلى عن اهتمامه بها بسبب اكتشاف أحد الخونة بين أعضائها يسترق السمع .وكانت خطته أن يحولها إلى جمعية تتألف من ضباط الجيش فقط . وأخيراً أنشأ منظمة منفصلة مستقلة عن الجمعية الاولى، وان كان برنامجها يشبه من بعض الوجوه برنامج سابقتها. وسميت الجمعية الجديدة باسم « العهد » وكانت اهدافها هي اهداف « الجمعية القحطانية » نفسها مفرغة بأسلوب عسكري . ولم يقبل فيها من المدنيين غير اثنين اختيرا لوطنيتهما الموثوق بنزاهتها، وكان احدهما،وهو الامير عادل ارسلان ، من الاعضاء الاوائل في الجمعية السابقة . ولما كان العنصر العراقي أكثر العناصر عددا في الجيش العثماني لذلك كانت له قوته في مجالس « جمعية العهد »وأنشأ لها فروعاً في بغداد والموصل . وأصبحت الجمعية بالنسبة للضباط مثل « جمعية العربية الفتاة » بالنسبة للمدنيين ، ومع ان الجمعيتين لم تعلم احداهما بوجود الاخرى في بداية الامر غير ان نشاط كل منهما — في ميدانها — كـــان متمماً ومكملاً لنشاط الثانية ، إلى ان وافت سنة ١٩١٥ فاتصلت الجمعيتان في مدينة دمشق ووحدتـــا وسائلهما معاً لايقاد الثورة العربية .

ولعل الاتحاديين كان قد تسرب اليهم نبأ عن تأسيس « العهد » حين أمروا باعتقال عزيز علي ، ولكن لم تكن لديهم أنباء مؤكدة ، ولم تذكر له أية علاقة بالجمعيات السرية في التهم التي وجهت اليه . وبـــدأت محاكمته سراً في الخامس والعشرين من شهر آذار (مارس) أمام مجلس تأديب عسكري،وعرف الناس ان صحيفة الاتهام تضمنت اتهامه باقتراف جرائم لا يمكن تصديقها أبداً ، وهي · أنه اختلس اموال الجيش،وانه سلم برقة للايطاليين مقابل رشوة ، وانه سعى إلى إقامة مملكة عربية في

شمال افريقية . وكان الهياج الذي اثاره نبأ اعتقاله قـــد انتشر انتشاراً واسعاً آنئـذ . ففي مصر ، موطن ميلاده ، كـان الناس يعربون عـــن سخطهم بالاحتجاج العام ، فعقدت الجماهير الاجتماعات ، وشنت الصحف حملات عنيفة ، وتألفت لجنة يرئسها شيخ الازهر ، وقصدت الوفود لورد كتشنر – المعتمد البريطاني في القاهرة – تطلب منـــه ان تتدخل بريطانية بالطرق الدبلوماسية .

وفي أوائل نيسان (ابريل) عرف الناس ان الحكم قـــد صدر سراً باعدام عزيز علي . وازداد الهياج عنفاً وحدة ، وصار الضباط العرب –حيثما يجتمعون–يقسمون ان يثأروا لاعدامه بالقتل وسفك الدماء. ولحسن حظ عزيز علي ان انطلق صوت اوروبـــة – وخاصة انجلترة – يدافع عنه . فقـــد حث كتشنر وزارة الخارجية عـــلى ان تتدخـــل ، فبذل سير لويس ماليت مساعيه في القسطنطينية ، ونشرت جريدة « التايمز » سلسلة من اربع مقالات افتتاحية لمدة ستة أسابيع كانت كلها دفاعـــاً صريحاً عنه .

فذكرت التايمز في عددهـــا الصادر في التاسع من نيسان (ابريل) ما يلي :

« ... لو ان هذا الظلم الذي أحاق بالضابط العربي الباسل أعقبه ما لا يمكن ان يسمى إلاّ جريمة قتل بحق القانون ، فان العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ستتأثر تأثراً خطيراً ، وربما لن يقتصر الامر على العلاقات بين تركية ومصر وحدها » .

وفي الخامس عشر من الشهر نفسه ، أعلن ان الحكم كان قد صدر باعدام عزيز علي غير ان السلطان خفف الحكم إلى السجن خمسة عشر عاماً مع الاشغال الشاقة . ومع ان ذلك أشاع الارتياح العـــام غير ان الهياج على ظلم المحاكمة استمر وأخيرا صدر العفو عن عزيز علي في الواحد والعشرين من الشهر نفسه وأطلق سراحه ، فأبحر في اليوم التالي

إلى مصر ، واستقبل استقبالاً حماسياً عند وصوله ولقد هزت محاكمته البلاد العربية هزة ربما كانت أعنف وأعمق من أية هزة أخرى سببها أي عمل مفرد من أعمال الطغيان التركي ، وقد هزت نفوس الجماهير كما هزت نفوس المفكرين ، ولذلك قوت عزم العرب على وجوب نيل حريتهم .

٧

في ذلك الحين حدثت تغيرات مهمة في الاجزاء النائية من البلاد العربية التابعة للسلطان. وفيما يلي صورة الموقف في البلاد العربية كما كانت تبدو في صيف سنة ١٩١٤ :

ففي افريقية ، كان ذلك الجزء من ليبية الذي يشمل ولايتي طرابلس وبني غازي قد سقط في قبضة ايطالية في حرب سنة ١٩١١، واضطرت تركية إلى ان تعترف رسمياً – في معاهدة « اوشي » – بالتنازل عن سيادتها عليها . وبقيت ، مع ذلك ، هضبة برقة القليلة السكان دون أن تحتلها الجيوش الايطالية . وكان لهذه المنطقة في ذاتها قيمة سياسة ، إذ انها موطن السنوسيين وزعيمهم النشط السيد أحمد الشريف ، وكان نفوذه في افريقية الشمالية يتجاوز كثيراً حدود منطقته الخاصة .

نشأ المذهب السنوسي في برقة في منتصف القرن التاسع عشر على يدي رجل جزائري تقي كان قد قضى أكثر عمره في مكة ووقف نفسه على الدعوة إلى اصلاح العقيدة الاسلامية . وكانت تعاليم هذا المذهب كبيرة الشبه بتعاليم الحركة الوهابية : إذ انهما كليهما كانا يدعوان الى الرجوع الى أساليب صدر الاسلام وعاداته.وكان المذهب يرمي الى نشر دعوته، كما ان « الزوايا » التي بثها في انحاء البلاد مكنته من ان يكون له كذلك نفوذ سياسي ، وان يجند المتطوعين لاغراض عسكرية . ومن

مميزات هذه الحركة أنها شجعت الناس على الاستقرار وزراعة الارض . واستطاعت هذه الجماعة ـ خلال نصف قرن من انشائها ـ ان تحقق لنفسها القوة والتماسك ، وان تضم اليها جماعات كبيرة من الانصار في مناطق واسعة في افريقية الوسطى . وكان رئيس الجماعة في هذا العهد السيد احمد ، من سلالة مؤسسها . ولم يكن على وفاق مع الاتحاديين ، ولكن لم يكد الايطاليون يبدأون بتغلغلهم في داخل البلاد ، حتى تعاون مع عزيز علي لتنظيم مقاومة عربية قوية ، وكان لا يزال يقود حركة المقاومة حين نشبت الحرب .

وأما في آسية ، فقد كانت البلاد العربية الخاضعة للسلطان سنة ١٩١٤ هي نفسها التي أشرنا اليها منذ قليل حين عرضنا لذكر السنوات الاولى من حكم عبد الحميد . وقد استمر انتشار النفوذ البريطاني ، وادى ذلك إلى عقد عدة معاهدات بين حكومة الهند وبعض الامراء العرب الحاكمين في البلاد الواقعة على الشواطىء الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة العربية.واما المنطقة المجاورة لعدن ـ وتتألف من تسع حكومات صغيرة تعرف باسم محميات عدن ـ فقد خضعت لنفوذ بريطانية وحمايتها،وجددت المعاهدة مع مسقط ومع البحرين ، وعقدت معاهدات اخرى (وأهمها التي عقدت مع الكويت سنة ١٨٩٩) وتضمنت الاعتراف لحكومة الهند بالحماية الفعلية ، وسلبت سيادة السلطان في الواقع العملي . وارسل الى الشيوخ العرب ضباط ممن يعملون في الوظائف السياسية في الهند،ليعملوا مع هؤلاء الشيوخ، وعين « معتمد بريطاني » للاشراف على اعمال هؤلاء المبعوثين ، واتخذ مقره في « بوشير » الواقعة على ساحل ايران . واصبح الخليج في الحقيقة « حكراً » بريطانياً اذ ان حرية المرور فيه أصبحت أمراً حيوياً بعد ان عهد الى شركة بريطانية باستغلال آبار النفط الثرة الواقعة في الجنوب الغربي من بلاد ايران .

اما في داخل شبه الجزيرة فقد ازداد النفوذ التركي بوجه عام .ففي

المناطق المتاخمة للخليج العربي حفلت السنوات الثلاثون الأخيرة بصور من الكر والفر بين الاسرتين الحاكمتين : آل الرشيد وآل سعود، حين أخرج السعوديون من نجد ، ثم استولوا عليها مرة اخرى في مطلع القرن الحالي بقيادة رجل شجاع من السلالة السعودية هو عبد العزيز آل سعود . وحدث في احدى مراحل هذا الصراع ان الحاكم من آل الرشيد آنئذ قـد رمى نفسه في احضان تركية وطلب عونها ، فأرسل الاتراك حملة عسكرية لنجدته ، وبذلك رفرفت رايتهم في وسط شبه الجزيرة لأول مرة بعد هجوم ابراهيم باشا . ثم نمت قوة عبد العزيز ، واستطاع باحدى هجماتـه الجريئة سنة ١٩١٣ ان ينهي احتلال تركية لمنطقة الاحساء البحرية . وكانت ضربة نالت من هيبة السلطان في تلك المنطقة ، غير ان الاتراك عوضوا ذلك بعض التعويض بتقوية صلاتهم مع آل الرشيد في منطقة شمر .

اما في المناطق المتاخمة للبحر الاحمر ، فقد ساء موقف عبد الحميد جداً في اليمن ، ولكن رجال « تركية الفتاة » استطاعوا ان يتسلموا زمام الموقف ويستردوا من المكانة اكثر مما ضاع . لقد استطاعت الحملة التي زحفت على اليمن سنة ١٨٧٢ ان تحتل صنعاء ، ولكنها لم تخضع المناطق الداخلية التي بقيت مصدراً للاضطرابات والثورات . وفي سنة ١٨٩١ نشبت ثورة خطيرة اقتضت ارسال قوة كبيرة لاخضاعها ، ثم نشبت ثورة اخرى سنة ١٩٠٣ أثارها وقادها الامام يحيى ، وكانت هذه الثورة بداية سلسلة من الهزائم والنكبات العسكرية في تاريخ الاتراك في شبه الجزيرة العربية . وقد احتل الثوار صنعاء ، وبقيت في حوزتهم اكثر من سنة . واحتلوها مرة اخرى في سنة ١٩١١ ، حتى انهكت الثورات الاتراك واستنزفت قوتهم وأدركوا ان الأمر لا نهاية له ، فلانوا ، ومالوا الى الاتفاق ، وفي اول فرصة طرأت ، تولى عزيز علي المصري المفاوضة ووصل الى اتفاق رحب به القائد التركي العام وأقره ، وانتهى الأمر الى عودة السلم والى منح الامام

سلطات جوهرية مهمة وتقديم منحة مالية كبيرة تساعده على ممارسة هذه السلطات .

وتجاور اليمن من الشمال منطقة عسير ، وقد بدأ يصعد في سمائها نجم جديد هو السيد محمد بن علي الذي اشتهر بالادريسي . وهو من اسرة لم تستوطن شبه الجزيرة الآ من عهد قريب ، وبدأت قوته تظهر منذ مطلع هذا القرن . وكان اجداده من العرب المغاربة جاءوا الى مكة للحج في اواخر القرن الثامن عشر ، ثم استقروا في مرتفعات عسير . وأقدم من هاجر منهم احمد الادريسي ، وكان ذا ورع وعلم فذاعت شهرته بالتقوى ، ولما توفي ورث سلالته من بعده جميع الحقوق والمغانم التي تؤول عادة ، في المجتمع الاسلامي ، الى افراد الاسرة التي تعتبر اسرة شريفة . واتخذ الادارسة عسير موطناً لهم ، وتكاثر عددهم ، وعاشوا قانعين بما هم فيه من رخاء قلّما يتناسب مع الورع والتقى . الى ان قام من بينهم رجل يمتاز بالمقدرة والطموح فبدأ يسعى ليدعم مكانة الاسرة بتحويلها الى اسرة حاكمة متحررة من السيادة التركية ، انه الزعيم الادريسي الحالي السيد محمد . ولم يكن افقه محدوداً بشبه الجزيرة العربية ، فقد عاش في القاهرة طالباً في الجامعة الازهرية ، واقام مع زعيم السنوسيين في برقة ، وحين عاد الى موطنه اقام حكماً ادارياً في جبال عسير من وضعه وتنظيمه . وفي سنة ١٩٠٩ ، حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، ثار على الاتراك ، وسارع الى نجدة الامام يحيى في ثورته ، ولكنه هزم ، ثم اعانته ايطالية على الوقوف مرة اخرى ، غير ان ذلك لم ينفعه ؛ فانتهى به الامر الى الاقتصار على ان يعود كما بدأ سيداً لتلك المنطقة الجبلية لا يتجاوزها . وكان في سنة ١٩١٤ لا يزال تابعاً للسلطان بالاسم ، ولكنه كان في الواقع ثائراً لا يسكن ، فأخذ يجمع جيشه ليحاول مرة اخرى خوض المعركة مع الاتراك .

أما في الحجاز فكانت سلطة السلطان ارسخ منها في اي مكان آخر في شبه الجزيرة العربية ، واكبر الفضل في ذلك يعـود لامتداد سكة الحجاز الحديدية الى المدينة ، وكان من المحتمل ان تكون هذه السلطة مطلقة لولا الشريف الجديد . فقد اظهر الحسين من قوة العزم اكثر مما كان يتوقعه منه الاتحاديون حين اختاروه لهـذا المنصب الرفيع باعتباره « ارستوقراطيـاً » رقيقاً مسالماً . فحين وصل الحجاز سنة ١٩٠٨ وجد ان اسلافه قد فرطوا في كثير من حقوق هذا المنصب ، فبدأ يستردها. ونجح خاصة في استرداد سيادة منصب الشريف على قبائل الحجاز ، ثم اتجه شرقاً الى ما وراء حدود الحجاز وحـاول ان يفرض سيادته على القبائل التي كان يرى ابن سعود ان ولاءها له حق من حقوقه . وحينما أعلن الاتحاديون ان نظام الادارة في الحجـاز سيكون منذ ذلك الحين متمشياً مع نظام سائر الدولة ، على اساس الحكم المركزي ، وان التجنيد الاجباري سيفرض فيها ، اعترض الحسين على ذلك ، وقدم لاعتراضه سبباً مقنعاً وهو ان الامر غير عملي ولا يمكن تطبيقه . فصمم الاتحاديون على عزله ، ولكنه كان احصن وامنع من ان يخـاطروا بعزله عزلاً سريعاً ، وأرادوا ان يمهدوا الطريق لعقاب الشريف فأرسلوا والياً على الحجاز معروفاً بالغلظة والفظاظة وسرعة الغضب . فقاومه الحسين وتشبث في مقاومته له بالعناد والدهـاء حتى انتصر . وبلغت الأمور نهايتها في ربيع سنة ١٩١٤ بعد ان كادت احدى المشادات الطويلـة بينهما تنتهي بالثورة ، فصدرت الاوامر الى الوالي ان يصالح الشريف وان يتم الصلح في احتفال عام فيقبّل الوالي ذيل رداء الحسين دلالـة على خضوعه لقداسة منصبه .

الفصل السابع

الحرب والجهاد

(١٩١٤)

١

كان في مقدمة النواب العرب في البرلمان العثماني : الامير عبد الله ، الابن الثاني لشريف مكة . وكان هذا الشاب آنئذ ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ، شخصاً بارزاً في الدوائر السياسية . وكان منذ صباه يمتاز عن ذوي قرباه بروحه المستقلة واعتزازه بنسبه وتحمسه لإظهار فضل بني قومه . وقد اتاح له مقامه الطويل في القسطنطينية - اثناء احتجاز الشريف هناك - ان يجيد اللغة التركية وان يتحلى بالكثير من طبائع علية الاتراك ، فخفف ذلك من حدّته العربية الاصيلة من غير ان يقضي عليها ويجتثها . وكان ميله الطبيعي لمزاولة الشؤون السياسية القبلية وحماسته لاعلاء شأن اسرته ، سبباً في ان اختاره والده للامور التي تحتاج الى الثقة ، كالنيابة والوساطة ، وكان في ذلك يبدو انه أليق من اخيه الاكبر عليّ ، الرقيق الخجول ؛ ومن اخيه الاصغر فيصل الذي كان حتى ذلك الحين يبحث عن المجد في اعمال البطولة

العسكرية ، وحقق مبتغاه من ذلك . وكان عبد الله اشهر الاخوة الثلاثة واحبهم الى الناس . وكانت جاذبيته الشخصية من اهم مزاياه ، وكان شغفه بالشعر العربي من جملة ما حبب به زمـلاءه العاملين في القضية العربية . وكان يقرأ ويحفظ كثيراً منه ، وكان احساسه بمواطن الروعة في الادب يجعل حديثه خصباً فيّاضاً ، ويجعل تفكيره – حتى في تلك السن الفتية – يرتدي رداء الحكمة .

وقد افاد عبد الله ، خارج الحجاز ، من جميع الفرص التي سنحت له بصفته ابن الشريف ، وساعده الأيمن . فحينما كان مبعوثاً عن مكة بذل وسعه ليستفيد من منصبه ونفوذه لدى الباب العالي في دعم مركز والده في الحجاز ، وكان مركزه قلقاً آنئذ في ربيع سنة ١٩١٤ . وقد ارتاب الاتحاديون في انه هو الذي يحرض والده الشريف على التصلب في مواقفه ثم يلتمس له المعاذير على عناده ، فحاولوا ان يستميلوه بالهبات ، فعرضوا عليه اولاً ان يتولى احـدى الوزارات ، ثم عرضوا عليه ان يكون والياً على اليمن . ولكنه احسّ بالشّرك ، فاعتذر عن القبول وحافظ على استقلاله . وكان كوالده ميالاً الى اختبار قوته مع الاتراك. وكانا كلاهما طموحين ، وكانا كلاهما يحلمان باستقلال الحجاز استقلالاً ذاتياً يؤدي مع الزمن الى تمتع البلاد العربية باستقلال يشبهه . وكان الفرق الرئيسي بين الاب وابنه فرقاً في الخطط الجزئية ، او بتعبير ادق، في المزاج الشخصي . فقد كان الحسين في غاية الحذر الى ان يحين الوقت المناسب ليجازف بكل شيء في اندفاع وجرأة ، اما عبد الله فكان قليل الصبر ، واثقاً بنفسه ، متسرعاً ، لا يتحلى الا بالقليل من عمق والده ونفاذ بصيرته ، وقد وجد في نفسه الجرأة عـلى ان يذهب الى لورد كتشنر ليعرف منه موقف انجلترة .

وكان ذلك في الاسبوع الأول من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٤، وكان كتشنر آنئذ معتمداً بريطانياً في مصر وعبـد الله في القاهرة في

طريقه من مكة الى القسطنطينية ، فاتصل بكتشنر متظاهراً بـأنه يرد زيارة مجاملة . وحضر اجتماعهما المستر (الآن السير) رونالد ستورز ، وكان آنئذ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني . فسرد عبد الله لكتشنر تفصيلات عن العلاقات المتوترة بين السلطات التركية والشريف . وكان يعرف ان الاتحاديين قرروا ، سراً ، ان يعزلوا والده ، فأتاح لكتشنر ان يفهم من حديثه انه يحتمل نشوب ثورة في الحجاز اذا نفذ الاتراك عزمهم . وحاول بأسلوب حـذر ان يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية اذا ما نشب صراع سافر بين الاتراك والعرب . ومع ان كتشنر لم يتقيد معه بشيء في جوابه ، الا ان جوابه كان مثبطاً . وقد ألقى جوابه على انه رأيه الشخصي قائلاً انه من غير المحتمل ان تتدخل انجلترة مـا دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع تركية . ورجح ، في الوقت نفسه ، ان لدى زائره من الحديث اكثر مما يمكنه ان يبوح به في مقابلة رسمية ، ولذلك اوعز الى ستورز ان يرد الزيارة لعبد الله بعد يومين وان يتيح له فرصة الاعراب عما في نفسه اعرابـاً كاملاً .

وكان عبد الله في حديثه مع ستورز اكثر وضوحاً . اذ كان ستورز يعرف اللغة العربية بعض المعرفة ، وكانت له القدرة على التحدث في الموضوعات الصغيرة زمناً طويـلاً ، وكان يشارك عبد الله في هواية واحدة على الأقل ، وهي الشغف بالشطرنج . فتصادق الرجلان فوراً ، وعلى هذا الاساس من الالفة – وهو امر يندر حدوثه بـين الانجليز والعرب – شعر عبد الله بالطمأنينة والحرية ، وافاض في الحديث معه . واخبر زائره بأكثر مما افضى به لكتشنر عن خطورة الحالة في الحجاز ، وعن الاعدادات التي يتخذها والده لمواجهة ما لا مفر من حدوثه من قطيعة نهائية بينه وبين الاتراك . وحدثه بإسهاب عن اهـداف الحركة العربية واماني قادتها وازدياد دواعي يأسهم . ثم سأله – بصراحة يتميز

بهـا – عن احتمال مساعدة كتشنر للشريف في الحصول عـلى مدافع رشاشة .

وكان جواب ستورز ، بطبيعة الحـال ، مثبطاً كجواب رئيسه ، فانتهى بذلك حديثهما . وفي نهاية نيسان (ابريل) مـر عبد الله بالقاهرة مرة اخرى ، ولم يقابل كتشنر ، ولكنه اجتمع اجتماعاً آخر بستورز ، أوضح فيه ستورز اكثر من ذي قبل انه لا يمكن توقع اي تشجيع من قبل الحكومة البريطانية ، ثم عاد عبد الله الى الحجاز . ومع ان هـذه المحادثات لم تنته الى نتيجة عملية ، غير انها كانت ذات اثر فعّال في سير الحوادث . فقد نبهت كتشنر الى ما في العداء بين الاتراك والعرب من قوة وعمق ، والى ان رغبة العرب في الاستقلال رغبـة صادقة ، فحفزه كل ذلك الى ان يبدأ – بعد بضعة شهور – بالخطوة الاولى من سلسلة خطوات انتهت اخيراً باشتراك العرب في الحرب حلفاء لانجلترة على الاتراك .

٢

تظهر قيمة هـذه المحادثات في ان محاولات الامير عبد الله للتقرب صادف حدوثها في الوقت نفسه الذي كانت تجول فيه افكار معينة في خاطر كتشنر . فمع انه كان يمثل بريطانية في القـاهرة وبذلك كان عمله الرئيسي ينحصر في نطـاق مصر والسودان ، غير ان نظره كان يمتد الى ما وراء مجاله المباشر اذ ان حملاته الحربية عـلى السودان ، ومدة عمله قائداً عامّاً في الهند ومـا اتيح له هناك من معرفة وثيقة بمشكلات الحدود الشمالية الغربية وافغانستان – كل ذلك هيـأ له فرصة الاتصال المباشر بقوى المسلمين النضالية ، ونمى في نفسه احساساً عميقاً بالاهمية السياسية للرابطة الدينية في الاسلام . وكان خـلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة لا يفتأ يرقب – باهتمام وقلق – مـدينة

القسطنطينية مقر الخلافة . وكان يتابع نمو النفوذ الالماني ، ويدرك ما ينذر به امتداد سكة حديد بغداد من شؤم ، ويشغل باله ما كان يتضمنه ذلك من تهديد لمركز بريطانية العظمى في الخليج العربي وفي الهند . ولم يكتم عن العدد القليل من اصدقائه الحميمين اعتقاده في ان الدبلوماسية البريطانية قد ارتكبت خطأ لا يغتفر بسماحها لالمانية باحتلال مكان الصدارة السياسية والحربية في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، واصبح شغله الشاغل التفكير في هذه المشكلة وفي الطريقة التي يقاوم بها هذا الخطر .

وخطرت بباله عدة حلول : احدها يتصل بجزء من سورية الجنوبية يمتد ، على وجه التقريب ، من خليج حيفا – عكة على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر ، واحتمال اقتطاع هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية تدريجياً مع الزمن ، والعمل على وضعه تحت الحماية البريطانية ، وبذلك يمكن ان يمتد نطاق النفوذ البريطاني دون انقطاع من مصر حتى الخليج العربي . ومنها ايضاً ، احتمال تشجيع الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية على تكوين دولة واحدة ، او مجموعة من الدول ، مستقلة استقلالاً داخلياً وترتبط ببريطانية العظمى برباط الصداقة ، وتشمل المنطقة الممتدة من شواطىء البحر الابيض المتوسط غرباً الى حدود ايران شرقاً ، وبذلك تصبح سداً انجليزياً – عربياً ، يوقف المد التركي – الالماني . ومعنى ذلك ان كتشنر قد وصل – عن طريق تفكيره المستقل – الى رؤية الاحتمالات التي كان يفكر فيها الزعماء العرب الوطنيون . وفي هذا الوقت نفسه الذي كان فيه فكره مشغولا بهذه التصورات ، اتصل به الامير عبد الله وزوده بمادة جديدة للتفكير . وكان عبد الله نفسه عضواً في احدى الجمعيات السرية ، وكان مؤمناً بفوائد التفاهم الانجليزي – العربي متحمساً له .

٣

حين نشبت الحرب في شهر آب (اغسطس) كان كتشنر يقضي اجازته في انجلترة ، فشرع من فوره في العودة الى مقر عمله . ولكنه لم يكد يغادر دوفر حتى استدعاه رئيس الوزراء وعينه وزيراً للحربية . فوجد نفسه منذ الليلة الاولى يواجه مهمة تكوين جيش بريطاني تكويناً جديداً لا يعتمد على نمط سابق . وبينما كان مستغرقاً كل الاستغراق في انجاز هذا الواجب كانت المخاطر التي ينطوي عليها النفوذ الدبلوماسي الالماني في تركية وطرق مقاومة هذه المخاطر لا تزال تشغل جزءاً من فكره وتستحوذ عليه . وكانت تركية في الظاهر تبدو ميالة الى سياسة الحياد ، او على الأقل هكذا كانت تدعي دائماً جمعية الاتحاد والترقي التي كانت الحزب الحاكم حينئذ . ولكن كتشنر ، الذي كانت تشغل باله المخاوف التي ذكرناها ، لم يكن ليطمئن الى مثل هذا الادعاء المشكوك فيه . وكان يدرك ان الاطمئنان الى ذلك مخاطرة كبيرة ، ولذلك ما كاد يصل اليه اقتراح ستورز في منتصف شهر ايلول (سبتمبر) تقريباً حتى اقنع مجلس الوزراء بالموافقة على تنفيذه .

وذلك ان ستورز — الذي عاد الى مصر بدون رئيسه — لم يركن الى الدعة . فان الصراحة التي تحدث بها عبد الله اليه قبل بضعة اشهر أعانته على ان يلتقط بذهنه المتوقد النتائج الكبرى التي تترتب على تذمر العرب . وربما كان اقدر من غيره في ذلك الوقت على ان يدرك احتمال الاستفادة من هذا التذمر . وزاد من قوة هذا الاحتمال في رأيه تلك المشاورات التي كانت تتاح له فرصة اجرائها — بصفته مستشاراً شرقياً — مع كثير من الزعماء العرب المقيمين في مصر . فكتب الى كتشنر رسالة شخصية ذكر فيها ما معناه : « هل لك ان تفوضني في التأكد من عبد الله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب اذا دخلت تركية الحرب :

اذ ان من الواضح ان انحيازهم الى جانبنا – فضلاً عن الاعتبارات الكبرى – سيقوي من موقفنا العسكري » . ولعل هذه الألفاظ ليست ألفاظه الحقيقية ، ولكنها تدل على معنى رسالته التي كتبها .

وقد تبنى كتشنر هذا الاقتراح على الفور وأبرق الى ستورز بالتعليمات التي تتفق مع طلبه . بل لقد زوده بتعليمات اكثر تحديداً ودقة اذ طلب منه ان يستفهم من عبد الله عن موقف شريف مكة اذا ما استطاعت المانية ان تحمل تركية على دخول الحرب في صفها ، وهل سيناصر الشريف في هذه الحالة قضية تركية او يناصر بريطانية العظمى عليها . وقد صدرت هذه التعليمات في الاسبوع الأخير من شهر ايلول (سبتمبر) اي قبل اعلان الحرب على تركية بستة اسابيع . وقضى ستورز بضعة ايام حتى عثر على رسول امين يعتمد عليه ليسافر سراً الى الحجاز ويتسلل الى مجلس عبد الله دون ان يلفت اليه الأنظار . ووصل الرسول – وهو مصري اسمه علي افندي – مكة في نحو منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ، وقد بلغ الرسالة وعاد الى القاهرة قبل نهاية الشهر يحمل معه جواباً مكتوباً من عبد الله .

وضعت رسالة كتشنر شريف مكة في موقف حرج جداً . فقد كان قبل وصول الرسالة يبحث عن فرصة يؤكد فيها سلطانه على الحجاز ولو أدى ذلك الى شق عصا الطاعة على الاتراك . وكان هذا قبل نشوب الحرب ببضعة اشهر ، حينما لم يكن هناك اي احتمال في الواقع بقيام حرب عامة تضطر تركية الى خوضها ، وحينما كانت وجوه النزاع بينه وبين الاتراك محصورة في شؤون الحجاز وحدها . اما الآن وقد نشبت الحرب واصبح اشتراك تركية فيها متوقعاً وشيكاً ، فان الأمر اصبح أشمل وأوسع وصار يشمل مستقبل جميع الولايات العربية في الدولة العثمانية . واذا كانت تركية ستضطر حقاً الى خوض غمار الحرب أفليس من المحتمل ان يتيح انهماكها فيها للعرب الفرصة التي انتظروها

طويلاً ؟ كان امام العرب طريقان ظاهران : إمـا ان يقفوا بجانب تركية في ساعة محنتها فيكسبوا بذلك عرفانها لهم بالجميل ، وإمـا ان يثوروا عليهـا ويطلبوا حريتهم بحـد السيف . فأي هذين الطريقين يسلكون ؟

وكان لابني الشريف اللذين استشارهما رأيان متناقضان . فكان فيصل يميل الى سلوك الطريق الأول : اذ كان مقتنعاً بـأن لفرنسة مطامع في بـلاد الشام ولانجلترة مطامع في المناطق الجنوبية من العراق وان ما عرضه كتشنر لم يشتمل على اية ضمانة ازاء هذين الخطرين . وكان يرى ، فضـلاً عن ذلك ، ان العرب لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكافي ، فكان يخشى ان تخفق الثورة [1] . وكان عبد الله يرى رأيـاً آخر . فان انتماءه الى احدى الجمعيات السرية العربية جعله يدرك قوة الشعور الثوري . ولمـا كان ذا طبيعة متفائلة فقد كان واثقاً من ان دمشق وبغداد ستتجاوبان مع الدعوة الى الثورة تجاوباً مرضياً . وكان يرى ان الطريق السليم ليس في رفض ما عرضه كتشنر بحجة انه عرض غير كاف ، بل في الوصول عن طريق المفاوضة الى معرفـة المقصود بهذا العرض وهل يعتبر ضماناً كاملاً لاستقلال العرب .

وقد تشبث كل واحد من الأخوين برأيه وأصر عليه خلال الاجتماعات التي واصل والدهما عقدها معهما والتي كانت الاحاديث تدور فيها همساً ، ولم يزحزح اي واحد منهما عن موقفه . وكان الحسين يميل ، بصورة عامة ، الى رأي فيصل في عدم استعداد العرب في الولايات الاخرى ، ومع ذلك فقد دعاه اصرار عبد الله والحاحه الى التريث . واخيراً انتهى

---

١ ــ ذكر ت. ي. لورنس في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » وغيره من الكتاب ان فيصلا كان حينئذ عضوا في احدى الجمعيات العربية السرية ، وانه كان يميل الى فكرة الثورة ، ولكنني علمت من فيصل نفسه انه لم ينضم الى جمعية من هذه الجمعيات قبل الحرب ، وانه لم يعتنق فكرة القيام بثورة عربية الا حينما ذهب الى دمشق سنة ١٩١٥ .

الى قرار وسط ، وهو ان يوفد مبعوثين الى بلاد الشام والى كبار الحكام العرب ليطلعوا على حقيقة الشعور الوطني ومدى الاستعداد للثورة ، وليسبروا اغوار الزعماء ، كما قرر من جهة اخرى ان يمد لكتشنر حبال التشجيع بالقدر الذي يكفي – دون زيادة – لإبقاء الصلة بينهما . ولذلك كتب، رسالة الى ستورز وقعها عبد الله اظهر فيها انه راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانية العظمى . ولكنه مع ذلك غير قادر على ان يغير موقف الحياد الذي يفرضه عليه مركزه الديني في الاسلام . وقصر اشاراته في الرسالة على الحجاز وحدها ، وتجنب بحذر ان يربط البلاد العربية الاخرى بشيء ، ولمح انه قد يستطيع ان يقود اتباعه القريبين منه الى الثورة اذا ما اضطره الاتراك الى ذلك ، على شرط ان تتعهد له انجلترة بتقديم مساعدة فعالة [1] .

تلقى ستورز هذه الرسالة قبل نهاية تشرين الأول (اكتوبر) فأبرق بها الى لندن فوراً . ولا بد ان نصها قد وصل الى كتشنر في الوقت نفسه تقريباً الذي وصلته فيه رسالة من صديقه القديم سير جون ماكسويل الذي كان حينئذ قائداً للقوات البريطانية في مصر ، وقد بعث بها من القاهرة في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ينصحه فيها بقوله : « ... انني لا اعرف ما هي سياسة وزارة الخارجية ، ولكنني اعتقد انه يجب التقرب الى العرب المحيطين بمكة واليمن ، وتأليبهم على الاتراك » . لقد عمل ماكسويل زمناً طويلاً في الشرق ولذلك كان لنصيحته وزنها لدى كتشنر . وفي ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) أبرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطاني في القاهرة بنص رسالة لكي ترسل الى عبد الله جواباً

١ – ان نص هذه الرسالة ، فيما اعلم ، لم ينشر قط ، ولكني مقتنع بان ما اوردته في المتن يعتبر تلخيصا دقيقا لها ، وقد وصلت الى هذا الاقتناع بعد ان تحدثت بشأنها مع المغفور له الملك حسين وابنائه احاديث متعددة ، وما ذكرته عن هذه الرسالة ينطبق على جميع الرسائل التي تبادلها كتشنر وعبد الله في تلك الفترة .

على رسالته . وقد استهلها باعلان نبأ دخول تركية الحرب . وتضمنت الرسالة وعداً قاطعاً للحسين بأن الحكومة البريطانية – في حالة وقوفه هو واتباعه في جانب انجلترة ضد تركية – تضمن له بقاءه في منصب شريف مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وانها ستحميه من كل اعتداء خارجي . كما قطعت الرسالة وعداً بمساعدة العرب ، عامة ، في مساعيهم لنيل حريتهم على شرط ان يؤازروا انجلترة . وقد اختتمت الرسالة بتلميح يشير الى ان الشريف – في حالة مبايعته بالخلافة – يستطيع ان يطمئن الى اعتراف انجلترة به .

وقد وصلت هذه الرسالة عبد الله في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) في وقت حرج ، كما سيظهر لنا بعد قليل ، فأشاعت في نفسه الرضا والطمأنينة . اذ انها – بالنسبة لموضوع الحجاز – قدمت للحسين الضمانات الكافية التي طلبها ، بينما فتحت – بالنسبة للولايات العربية الاخرى – ابواب الاغراء والأمل في التحرر القومي . حقاً ان عبارات هذه الرسالة جاءت عبارات عامة – عن قصد ودراسة – ولكنها في صورتها التي تلقاها عبد الله [1] ورد فيها ذكر « الأمة العربية » و « تحرير العرب » . ومهما يكن المعنى الذي قصد اليه كتشنر من هذه العبارات وهو مشغول البال بالموضوع ، فان الشريف فهم منها فهماً قاطعاً انها دعوة الى جميع العرب للقيام بالثورة . وبهذا الفهم قرأ الرسالة الموجهة الى ولده من كتشنر ، وكانت شهرة كتشنر حينئذ في بلاد الشرق اعظم من شهرة اي انجليزي حي ، وكانت كلمته مقبولة دون تشكك . ولذلك بدأ الشريف منذ ذلك الوقت يوجه جهده الى تحقيق تلك الغاية .

وارسل عبد الله – بتوجيه من والده – جواباً الى القاهرة قيد فيه أباه قيداً صريحاً قاطعاً بتحالف سري مع انجلترة . وقد اكد عبد الله

١ – اي في الترجمة العربية التي صاغتها دار الاعتماد البريطاني في القاهرة .

للمرة الثانية عدم مقدرة الشريف على المجاهرة بأي عمل عدائي للأتراك قبل استكمال الاستعدادات اللازمة ، وطلب ان يمهل بعض الوقت لكي يتبين جميع الاحتمالات ، ويجمع قواته ثم ينتهز بعد ذلك الفرصة المواتية للثورة . ووعد ان يكتب الى ستورز ثانية في الوقت المناسب . وقد وصل هذا الجواب الى القاهرة في اوائل شهر كانون الأول (ديسمبر)، وهو يعتبر نهاية الفصل الاول من المؤامرة الانجليزية العربية . وسيبدأ الفصل الثاني بعد ذلك بثمانية اشهر ، في شهر تموز (يولية) التالي ، بمجرد انتهاء الحسين من استشاراته ومباحثاته مع الزعماء العرب . وقد بدأ هذا الفصل بمذكرة من الشريف الى السير هنري مكماهون ، وهي المذكرة الاولى في مجموعة من المذكرات الدبلوماسية المهمة التي اصبحت تعرف باسم مراسلات مكماهون .

٤

ان مجرد انضمام الدولة العثمانية الى جانب الدول المركزية معناه ان قضية آمال العرب القومية لا بد لها من ان تقحم في فلك السياسة الاوروبية . واصبح موقف العرب منذ ذلك الوقت موضع اهتمام مباشر من قبل الحلفاء وخاصة بريطانية العظمى ، اذ ان سيطرة تركية على بلاد الشام والعراق جعلتها تهدد المصالح البريطانية في نقطتين حيويتين : قناة السويس ، ورأس خليج العرب حيث تقع حقول الزيت ذات القيمة الكبيرة التابعة للشركة الانجليزية - الايرانية . ولا يمكن كذلك اغفال الخطر القائم في شبه الجزيرة العربية نفسها ، اذ ان ساحل البحر الاحمر الطويل كان يتيح للاتراك كثيراً من القواعد الخفية لاستعمالها في بث الألغام او ارسال الرسل منها الى مصر والسودان والى ما وراءهما من بلاد افريقية ليوزعوا الاسلحة وليثيروا السخط . وكانت الحامية التركية في اليمن ، المؤلفة من فرقتين ، من القوة بحيث تهدد عدن . اما من

الناحية السياسية فقد كان اعلان الجهاد الذي يدعو اليه الخليفة السلطان كافياً لأن يحيل الحجاز — اذا ما نال ذلك موافقة شريف مكة — الى أتون تندلع منه نار الدعاية لتهيج البلاد العربية بل تتعداها الى الشعوب الاسلامية الكثيرة غير العربية التي تخضع لحكم الحلفاء او المتاخمة لمناطق نفوذهم .

ومن بين هذه المخاطر كلها كانت الدعوة الى الجهاد اشدها خطراً . فقد كان من المحتم اذا ما انضمت تركية الى الدول المركزية ان يكون من اول ما تقوم به اثارة العالم الاسلامي على الحلفاء ، وان يعلن السلطان — بصفته الخليفة والامام الأعظم — ان تركية ، وهي الدولة الاسلامية الاولى ومقر الخلافة ، تحارب دولاً نصرانية ترمي الى تدمير تركية ، وان الأماكن المقدسة في خطر ، وان على جميع المؤمنين المخلصين ان ينضموا تحت راية الدين . اما الى اي مدى يمكن ان يستجاب لهذه الدعوة فهو أمر لم يكن من المستطاع تقديره مقدماً ، اذ انه لم يسبق ان نودي الى الجهاد في العصور الحديثة على نطاق عالمي واسع ، وربما كان مما يضعف هذه الدعوة ان تركية نفسها متحالفة مع دول نصرانية . ومن جهة اخرى فان مشاعر الوحدة الاسلامية الشاملة التي بذل عبد الحميد جهده لتنميتها كانت احد العوامل التي لا يستطاع معرفة مداها معرفة دقيقة ، كما لا يمكن الاطمئنان الى اغفالها . ومهما يكن فان ثورة المهدي في السودان ، وما أبدته الشعوب الاسلامية في تونس ومراكش وطرابلس من مقاومة للتغلغل الاوروبي — كل ذلك قد أظهر ، منذ عهد ليس بالبعيد ، ان استخدام الدافع الديني في الدعوة الى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القديمة على اثارة النفوس . وحتى حينما يكون نجاح الدعوة الى الجهاد نجاحاً جزئياً فان ذلك كفيل بأن يعرض الحلفاء لأخطار شديدة ، اد لا يمكن ان تتجاهل انجلترة نحو سبعين مليوناً من المسلمين في الهند وستة عشر مليوناً في

مصر والسودان ، ولا ان تتجاهل فرنسة عشرين مليوناً في افريقية ، وكذلك روسية نحو هذا العدد داخل حدودها .

وأشد هذه الأخطار هولاً هو الخطر الذي كانت مصر معرضة له . اذ من المتوقع ان نجاح الدعوة الى الجهاد في الأجزاء النائية من العالم الاسلامي ، مثل : الهند او مراكش ، او بلاد القفقاس ، سيثير كثيراً من الصعاب في وجه بريطانية العظمى او فرنسة او روسية ، ولكن الأمر لن يتجاوز – في أسوأ التقديرات – نطاق الثورات المحلية ، او الحرب المحلية في الحدود الشمالية الغربية للهند اذا ثارت بلاد الأفغان . اما في مصر فان الخطر الذي تتعرض له يتضمن نتائج متعددة مخيفة ، اذ ان اغلاق قناة السويس لا يقتصر اثره على مجرد اقلاق انجلترة وارتباكها بل انه يصيبها بالعجز والشلل في مركز من مراكزها الحيوية . وهكذا فان العالم الاسلامي الذي يمكن ان يدعى فيه الى الجهاد اصبح يقسم الى منطقتين متمايزتين : الاولى نطاق خارجي يتألف من البلاد التي تسكنها شعوب متعددة غير عربية ، والثانية دائرة داخلية تتألف من بلاد عربية تعتبر مصر مركزها الجغرافي . ولا يمكن القيام بهجوم بري على قناة السويس الا خلال مناطق يقطنها العرب ، واحدى الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لتفادي هذا الخطر هي استمالة العرب الى صفوف الحلفاء . وذلك هو ما كان يدور بالحاح في بال كتشنر حينما بعث برسالته الى الشريف ، وعلى هذه الصورة دخلت القضية العربية تلقائياً في نطاق السياسة الاوروبية بعد ان اشتركت تركية في الحرب .

٥

في اليوم الثاني من شهر آب (اغسطس) صدر قرار الحكومة التركية بالتعبئة العامة . ومع ان تركية اعلنت حيادها غير انها شرعت – تحت ستار هذا القرار – في اتخاذ اجراءات معادية للحلفاء ؛ نتج

عنها قلق بالغ في القاهرة . وكانت بلاد الشام أهم الاقطـار المحيطة بمصر من النـاحية الحربية . وكانت حاميتها تتألف من فيلقين في كل منها ثلاث او اربع فرق عسكرية ، يبلغ مجموعها في الاحوال العادية ما بين ستين وسبعين الف رجل [1] . وحينما اشتركت تركية في الحرب تألف من هـذه الفرق جيش عرف باسم الجيش الرابع ، وكان مقر قيادته في دمشق ، وقد اعلن للناس ان الغرض الرئيسي منه القيام بهجوم على مصر . وفي ٢٥ ايلول (سبتمبر) أخبرت دار الاعتماد البريطاني في القاهرة وزارة الخارجية البريطانية ان بعض الفرق تتجمع سراً قرب الحدود المصرية . وخلال شهر تشرين الأول (اكتوبر) ظلت السفارة البريطانية في القسطنطينية تبرق بتقارير تتضمن اخباراً تدعو الى القلق عن حركات بعض الفرق ، وعـن ارسال الاسلحة والذهب لتسليح قبائل البدو في جنوب بلاد الشام وسيناء ومدهم بالمعونة المالية للهجوم عـلى مصر ، وعـن نشاط سمائة من الوعـاظ الذين كانوا متجمعين في حلب لينتشروا منها الى جميع انحاء بلاد الشام والى مصر بغية تأليب السكان المسلمين على بريطانية العظمى . ووصلت الى الشام جماعة من الضباط الالمان بقيادة العقيد (الكولونيل) كريس فون كريسنشتاين ، وتسلموا مراكز معينة في هيئة اركان الجيش الرابع ، وكذلك وصل جماعة من سلاح المهندسين وبدأوا يعملون في جنوب الشام في الطرق والسكك الحديدية المتجهة الى الحدود المصرية . كما اصبح معروفـاً ان الجيش الثاني عشر التركي ، وكان يشمل فرقة جميع افرادها تقريباً من العرب ، قد شرع في الانتقال من الموصل الى حلب . وفي يـوم ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) بعثت السفارة ببرقية تتضمن ان منشوراً

---

١ ـ كان عدد الحامية البريطانية بمصر في وقت السلم اقل من ستة الاف رجل ، وكان عدد الجيش المصري نحوا من ثلاثة عشر الفا اكثرهم كانوا معسكرين في السودان .

عنيفاً جداً قد وزع على الناس بمحض الجنود المسلمين في قوات الحلفاء على الثورة دفاعاً عن الاسلام ، وان بضعة آلاف من نسخ هذا المنشور في سبيلها الى ان تهرّب الى مصر عن طريق الشام .

اما على الحدود الغربية لمصر فكانت ثمة جموع غير معروفة العدد بزعامة السنوسي ، ومع انه كان يعلن صداقته لبريطانية العظمى ، غير انه معروف بعلاقاته الوثيقة بالاتراك وبسلطان دارفور . وكان حينئذ لا يزال منصرفاً الى محاربة الايطاليين وقد نجح في صدهم وحصرهم في شريط ضيق على الساحل حيث استقروا هناك يحمون انفسهم بمعونة مدافعهم البحرية . وسرعان ما وافته رسل الأتراك يعرضون عليه المال والالقاب والمناصب ، ويبلغونه طلب الخليفة بأن يعلن الجهاد باسمه [1] . وكان السيد احمد السنوسي زعيماً لجماعة كبيرة من اتباعه المسلمين المتحمسين ، وكان ذا نفوذ كبير بين الزعماء المسلمين على حدود مصر والسودان ، ويملك كثيراً من الاسلحة والعتاد — وكل ذلك كان ينطوي على خطر متوقع يصيب مصر .

اما في شبه الجزيرة العربية ، فقد كان للاتراك حامية مؤلفة من اربع فرق موزعة على الحجاز وعسير واليمن . وكان الشريف حسين في الحجاز قد بلغ من السيطرة على القبائل مبلغاً يتيح له — لو أراد — ان يحشد جيشاً كبيراً يشارك في الهجوم على مصر . وكان في قدرته ان يجند — على اقل تقدير — اربعين ألفاً من الجنود المسلحين بالبنادق من بين رجال القبائل ، ولم يكن للاتراك اية سلطة عليهم بغير مساعدة

---

١ « في ذلك الوقت (اي حول شهر آب (اغسطس) ١٩١٥) ، وقعت بالمصادفة في يد الجنرال ماكسويل مجموعة من الرسائل موجهة من السنوسي الى ملوك المسلمين وامرائهم والى الصحفيين في جميع انحاء شبه جزيرة العرب وفي الهند يدعوهم فيها الى الجهاد ويخبرهم انه ممثل الخليفة في بلاد الشمال الافريقي » (التاريخ الرسمي للحرب ، العمليات الحربية في مصر وفلسطين ، المجلد الاول ص : ١٠٥) .

الشريف . وكانت الحامية التركية في الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين، ولكن القبائل كانت من صعوبة المراس وشدة الشكيمة بحيث كانت هذه الحامية لا تجرؤ على المخاطرة في الخروج والتوغل في البلاد الا نادراً ، وكانت في اكثر الاحيان تبقى محصورة في داخل أسوار حصونها ومراكزها . وكان لا بد للاتراك – من اجل تعبئة هذه القوى القبلية – من ان يضمنوا اولاً تعاون الشريف معهم ، اذ يستطيعون بمؤازرته ان يطلقوا حاميتهم المعزولة من عقالها ويستخدموها ، وان يسلحوا عدداً كبيراً من رجال القبائل لينضموا الى قوات الحملة على قناة السويس .

اما الادريسي فكانت قيمته العسكرية محصورة في نطاق محلي . وكان في موقف يتيح له ان يعرقل المواصلات التركية بين الحجاز واليمن . وان يهدد الاتراك من المؤخرة اذا ما هاجموا عدن . وكانت فائدته الرئيسية للحلفاء تتمثل في الساحل ، اذ كان يستطيع ان يحول دون استخدام ساحل عسير الطويل قاعدة معادية للحلفاء .

اما في اليمن فكان موقف الامام ذا اثر رئيسي في عدن . وكانت الحامية التركية هناك مؤلفة من فرقتين ، وتتكون من قوات اكثرها ذات تدريب قوي ومراس شديد ، وتختلف عن حامية الحجاز في انها على صلات مودة واضحة مع السكان . وكان الهجوم على عدن متوقعاً، وكان مما يزيد في فرص نجاح الهجوم مجرد موافقة الامام عليه ، فكيف اذا اشترك اتباعه فيه ؟

اما في المناطق المجاورة للخليج العربي فكانت الضغائن بين ابن الرشيد في شمر وابن سعود في نجد هي التي تتحكم في موقف كل منهما . وكانا كلاهما يحملان مشاعر العداوة للاتراك ، وكانا يتمتعان بما لم يكن يتمتع به الحكام في الجزء الغربي من شبه الجزيرة ، فقد كانا السيدين الحاكمين فعلاً في بلادهما ، وكانا متحررين من أسر الموظفين الاتراك والحاميات التركية ولكن حكام شمر – كما رأينا من قبل – كانوا قد

استعانوا بالاتراك ، فنشأ من ذلك تحالف بين الفريقين لم يقم احدهما باعلان نقضه ، ومن اجل هذا فان المفروض ، اذا ما نشبت الحرب، ان ينضم ابن الرشيد حتماً الى جانب الاتراك .

٦

لعل كتشنر كان اكثر ساسة الحلفاء ادراكاً للأخطار الناجمة عن الموقف في البلاد العربية ، وسيبقى له ولرونالد ستورز الفضل في انهما اول من فكر في مواجهة هذه الاخطار بخطوتهما الجريئة بعقد حلف مع مكة . ولقد وُجِّه منذ ذلك الحين كثير من النقد لتلك السياسة ووُصِفت بأنها سياسة خاطئة وانها كانت مبنية على تقدير غير دقيق لأحوال شبه الجزيرة العربية ، وان بريطانية العظمى راهنت على الجواد الخاسر حينما اختارت الشريف حسيناً ليكون حليفها الرئيسي ضد الاتراك وفضلته على ابن سعود القوي . ان هذا النقد جائر ولا سند له ، اذ ان العون الكبير الذي قدمه الحسين لقضية الحلفاء في موقفه من الدعوة الى الجهاد ، كان عوناً لا يستطيع احد سواه تقديمه . وكانت خطوة كتشنر لضمان تأييد الشريف قبل فوات الفرصة « ضربة معلم » تدل على الذكاء وبعد النظر .

وكان موقف الشريف موقفاً فريداً لا نظير له ، سواء من ناحية المساعدة العسكرية التي استطاع ان يقدمها ومن ناحية القيمة السياسية لاشتراكه وتدخله . حقاً كان في شبه الجزيرة العربية زعماء آخرون يتمتعون بسلطة مطلقة على اتباعهم ولهم من القوات العسكرية ما يساوي على الاقل قوات الحجاز . غير ان الشريف حسيناً كان يتمتع ، من وجهة نظر الحلفاء ، بميزتين كبيرتين لم يكن يتمتع بهما احد من جيرانه. الاولى : قيمة موقعه الحربي في وسط القوات التركية في شبه الجزيرة

العربية ؛ وكان اكثر ما يستطيع ان يقوم به الادريسي في عسير والامام في اليمن هو ان يشلا الحاميات العسكرية المحلية ويجعلاها عاجزة عن العمل ، اما ابن سعود فلم يكن عـلى صلة بالقوات التركية . بينما كان الحسين قادراً ، بجيشه القبلي الذي يستطيع حشده في الحجـاز ، على ان يضرب قلب القوات العثمانية في بلاد العرب ، ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال فيعزل بذلك الحاميات المعسكرة في عسير واليمن . اما ميزته الثانية فهي مكانته الفريدة التي لا تعادلها مكانة شخص آخر في العالم الاسلامي ، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه ايضاً . وبينما كانت سلطة جيرانه محصورة في نطاق اراضيهم فان سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويمتد صوته الى الجموع الغفيرة من سكان العالم الاسلامي ، فهو حفيد النبي والقيم على الأماكن المقدسة ، وهذان الامران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاه في منزلة ينفرد بها ولا يطاوله فيها احـد ، بلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع ان ينازع الخليفة نفسه سلطانَهُ في الشؤون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين ؛ فقد كان امير مكة ، حاضرة الاسلام ومثابته ، ولا يستطيع مسلم مؤمن ان يصم اذنيه عن ندائه وخاصة اذا كان عربياً . وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس ان الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فان مؤازرته — في امر كالدعوة للجهاد — كانت عاملاً مهماً بل عاملاً حاسماً ، ولذلك كان الاتراك يسعون بلهفة الى الحصول على هذه المؤازرة للأسباب نفسها التي كان الخلفاء يخشون مؤازرته للاتراك . ولذلك فان القول بأن كتشنر عثر على الرجل غير المناسب هو قول لا معنى له . ولم يكن ثمـة شخص غيره يستطيع ان يجرد الدعوة الى الجهاد من قوتها الاساسية حينما يمتنع عن تأييدها .

٧

في الشهر الأول من اشتراك تركية في الحرب أعلنت الدعوة الى الجهاد في ثلاث مراحل . المرحلة الاولى حينما اصدر شيخ الاسلام في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فتوى اعلن فيها ذلك الرئيس الروحي صاحب ارفع منصب ديني في الدولة العثمانية انه فرض عيْن على جميع المسلمين في العالم ، ومن بينهم الذين يعيشون تحت حكم بريطانية العظمى وفرنسة وروسية ، ان يتحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوة الاسلام ، وان يحاربوها ويحاربوا حلفاءها ، وان يمتنعوا – مهما تكن الحال حتى حينما يكونون معرضين لعقوبة الاعدام – عن مساعدة دول الحلفاء في هجومها على الدولة العثمانية والدول الحامية لها وهي ألمانية والنمسة والمجر . والمرحلة الثانية حينما اعلن السلطان بلاغاً للجيش والاسطول ، في اليوم الحادي عشر من الشهر نفسه ، حض فيه على الحرب من اجل تحرير المسلمين المستعبدين ومن اجل الدفاع عن الدولة المهددة . واخيراً جاءت المرحلة الثالثة في اليوم الثالث والعشرين ، حينما صدر بيان للعالم الاسلامي وقعه شيخ الاسلام وثمانية وعشرون عالماً من ذوي المناصب الدينية الكبيرة ، وكان البيان مصدَّراً باذن السلطان بنشره ، ونص الاذن : « إنا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الاقطار الاسلامية » . وقد أهاب البيان بجميع مسلمي العالم – سواء أكانوا من رعايا دول الحلفاء ام لم يكونوا – ان يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها الفتوى الشريفة . وان يشتركوا في الدفاع عن الاسلام والاماكن المقدسة .

ولم يكن هذا كل شيء . فان هذه البيانات الرسمية الثلاثة أعقبها طوفان من انواع الكتابة المختلفة لتأييدها نشرت في كتيبات وكراريس ونشرات دورية وجميع انواع المطبوعات ، وألفت خاصةً للتأثير

في الجماهير التي تعتنق الاسلام . وكان مؤلفوها من الألمان ومن الاتراك، وقد كتبت بجميع لغات العالم الاسلامي . وانتشرت منها ملايين النسخ في انحاء الدولة العثمانية ، وهربت الى مصر والسودان والهند وايران وافغانستان وما وراءها . وكانت تختلف اختلافاً كبيراً في اسلوبها وفي مضمونها ، فكان بعضها يحض جموع الجنود على الفرار من جيوش الحلفاء ، وبعضها يدعو الى القتل والاغتيال وغيرهما من الاعتداءات الفردية . وكانت كلها مجمعة على ان الاسلام معرض للخطر بسبب أطماع دول الحلفاء ، وان الجهاد في سبيل الدفاع عن الاسلام انما هو فرض أمر الله به كل مؤمن فلا يجوز له التهرب منه .

واوفدت البعوث لتؤيد بالقول واللسان ما دعت اليه هذه الكتابات المطبوعة فتزيد من حرارتها . وكان الرسل من جميع الانواع : من الوعاظ المتجولين ، والعلماء ، والفقهاء ، والمحرضين المحترفين ، والمستشرقين الالمان ، يرحلون الى جميع الجهات التي يستطيعون الوصول اليها ، واستطاع بعضهم التسلل الى مصر والسودان والبلاد الافريقية الاخرى التي كانت تحت حكم الحلفاء . وكانت جهودهم الرئيسية موجهة نحو استمالة الشعوب الاسلامية من غير الاتراك الى تلبية دعوة الجهاد ، مثل : الهنود والافغان والايرانيين ، وفي مقدمة هؤلاء جميعاً العرب . اذ لم يكن المسلمون الاتراك ، ومعظمهم من فلاحي الاناضول ذوي الطاعة والتدين العميق ، في حاجة الى استمالة . اما العرب ، الذين يحتلون رقعة جغرافية تمكنهم من مضايقة الحلفاء ، فقد وجهت اليهم الدعوة الى الجهاد بقوة ونشاط لتؤكد لهم الواجب الملقى على عاتق المسلمين جميعاً في الدفاع عن الاماكن المقدسة .

٨

اما في مكة فكان الشريف يمضي في طريقه في حرص وحذر .

وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الدعوة الى الجهاد ، فجعله هذا العرض اقرب الى رأي عبد الله منه الى رأي فيصل ، ولكنه رأى ان الوقت المناسب للعمل لم يحن بعد . فقد كان عليه اولاً ان يجري مباحثات لا بد منها مع العرب القوميين في الشام والعراق ، ومع جيرانه في جزيرة العرب ليعرف مدى التأييد الذي يستطيع الاعتماد عليــه . وكان بعد المسافات والحيطة اللازمة للمحافظة على سرية الاتصالات يتطلبان شهوراً طويلة للتأني في وضع الخطط . ولكن الاتراك كانوا في الوقت نفسه يضغطون للحصول على تأييده لدعوة الجهاد وعلى مؤازرته الايجابية . فانهالت عليه الرسائل والبرقيات من القسطنطينية : من الصدر الاعظم ، ومن انور ، وطلعت ، وغيرهم من كبار الشخصيات . ثم شرع جمال باشا ، القائد العام للجيش الرابع في الشام ، في حثه على ان يدعو الى الجهاد دعوة صريحة عامة ، وان يبعث براية الرسول الى دمشق ، وان يحشد جيشاً من قبائل الحجاز .

كان الحسين يبزّ الاتراك في دهــائه وسعة حيلته ، فسلك معهم سلوكاً يدل على المهارة الفائقة تمثل في ردوده على مطالبتهم اياه بتأييد الدعوة الى الجهاد ، فجاءت ردوده حماسية تكتسي حللاً من النثر المليء بالاطناب والغموض الذي كان الشريف مبرزاً فيه . لقد ورد في رسائله انه سيؤيد الدعوة الى الجهاد بكل قلبــه ، ويضرع الى الله ان يكللها بالنجاح ، وانه يباركها في صمت . اما تأييده لها في العلن فأمر لا سبيل اليه لانــه يخشى انتقام الاعداء وشرهم ، اذ ان الاسطول البريطاني مسيطر على البحر الاحمر ، ومدينة جدة وسواحل الحجاز الطويلة كلها تحت رحمته ، فلو انه أقحم نفسه في الدعوة الى الجهــاد علناً فان انجلترة ستنتقم بحصار موانىء الحجاز وربمــا قذفتها بالقنابل ، وبذلك ينقطع وصول المؤن عن طريق البحر ، فيواجه السكان في وقت قصير

ازمة في الطعام ستتحول مع الزمن الى مجـاعة . فهو يؤيد الدعوة الى الجهاد بجماع قلبه ، ولكنه لا يستطيع اعلان تأييده ، لئلا تؤدي المجاعة في الحجاز الى ثورة القبائل . وهو واثق ان السلطان بحكمته البالغة التي لا حد لها ، سيقدر حقيقة الامر .

ولم يتزحزح الشريف عن هذا الموقف الحصين ، واضطر الاتراك مكرهين الى الاذعان لادعائه ، ثم دفعه دهاؤه الى التظاهر بالموافقة على طلباتهم الاخرى كلها موافقة ملؤها الحماسة ، واخذ يقترح من حين لآخر تعديلات لهذه الطلبات لم تخطر لهم على بال . فأمر بأن تُستخرج راية الرسول – اي قطعة القماش التي عرفت بهذا الاسم – من مقرها في المدينة في موكب رائـع ، وان ترسل في احتفال مهيب الى دمشق ليتبرك بها الجيش الذي كان يوشك ان يغزو مصر . واتخذ من الخطوات ما يكفل حشد جيش من المجاهدين من قبائل الحجاز ، وارسل ابناءه ليشرفوا على هذا التجنيد وليكون وجودهم دليلاً على اهتمامه بالامر . واخذ في الوقت نفسه يوفد مبعوثين في الخفاء برسائل منه الى الادريسي والامام يحيى ، وابن سعود ، وابن الرشيد ، ليسبر غورهم ويعرف موقفهم من الاتراك ، وليوضح لهم سبب امتناعـه عن تأييد الدعوة للجهاد .

وفي اثناء هـذه الشهور (من كانون الثاني – يناير – الى آذار – مارس – ١٩١٥) كان الحسين يتلقى تشجيعاً مستمراً من مصدر بريطاني آخر هو السير ريجينالد ونجت ، الحاكم العام للسودان . وكان قد قضى ثلاثين عامـاً في حكومة السودان ، فاكتسب معرفة وثيقة بالسياسة الاسلامية المحلية المعقدة . ودفع ونجت ، على عهدته الشخصية ، السيد علي المرغني صاحب اكبر مقام ديني بين العرب في السودان ، الى ان يبعث برسالة ودية غير مقيدة بأي تعهد الى الشريف حسين ، وقد كتبها بأسلوب يحثه فيه على ان يعلن سياسته . وقد ادرك الحسين المصدر

الذي أوحى بهذه الرسالة ، فأجاب اجابة ودية صريحة بعض الصراحة تحدث فيها عن الاستبداد التركي ، وعن امله في الخلاص منه ، وعن معارضيه في ذلك . فرد عليه السيد علي باقتراح ايجابي ، قال انه هو والسردار[1] صديقان ، وطلب من الحسين ان يخبره عن الطريقة التي يستطيع السردار ان يساعده بها ، وسيسعى لديه بما له من دالة عليه لكي يستجيب له . كان هذا الاقتراح سابقاً لأوانه اذ ان الحسين لم يكد حينئذ يبدأ بمشاوراته . فأجابه اجابة فيهـا تحفظ ، واضاف في ذيل الرسالة انه يسره ان يتلقى الاقتراحات التي قد يقدمها « صديقه » . فرد عليه السيد علي قائلاً : لو ان الحسين وضح ما يريد لربما استطاع هذا « الصديق » ان يزوده بالمال والسلاح والذخائر . ولم يمض الحسين في توضيح رغباته ولكن رسله وصلوا بعد ذلك ببضعة اسابيع في نيسان (ابريل) ليعرفوا من ونجت الموارد المتوفرة في السودان .

لقد شجعت هذه المراسلات الشريف حسيناً تشجيعاً كبيراً بالرغم من انها لم تصل الى نتيجة حاسمة ، فقد اظهرت له ان سياسته تلقى تأييد زعيم المسلمين في السودان ، ولما كان هـذا يعمل بوحي من ونجت – كما قدر الحسين من قبل – فان ذلك قوى ثقته في اخلاص بريطانية العظمى في عزمها على محالفته .

٩

اثار الشريف حسين غضب الاتراك عليه بسبب امتناعه عن تأييد الدعوة الى الجهاد التي كان يقصد منها في المقام الاول تهييج العـالم العربي واضرام النار فيه . ومع ان الاعذار التي تذرع بهـا كانت مفحمة غير انها زادت من غضب الاتراك ، فشرعوا يدبرون لعزله وليخلفه امير آخر لمكة يكون اسهل قياداً منه ، وصدرت الأوامر الى

[1] – اي : القائد العام للجيش المصري ، وهو احد مناصب الحاكم العام للسودان .

[وهيب بك] والي الحجاز ليمهد السبيل سراً لاعتقاله بحيث لا يثير اعتقاله ثائرة القبائل . وفي الوقت نفسه وجهت اليه دعوة تفيض بالرقة لزيارة دمشق لكي يتباحث مع جمال باشا .

وكانت جميع الجهود تبذل خلال ذلك لخداع العالم العربي وحمله على الاعتقاد ان شريف مكة قد بارك الدعوة الى الجهاد . وكانت الاوامر تقضي بأن تُعلن هذه الكذبة بدون تحفظ في خطبة الجمعة في جميع مساجد بلاد الشام والعراق ، جمعة بعد جمعة . وحُمِلت الصحف على ان تقوم بدورها في هذا المجال ، فتكررت فيها البيانات التي تتضمن اكاذيب جديدة . وحسبنا مثل واحد للتوضيح ، فقد نشرت صحيفة « الاتحاد العثماني » التي تصدر في بيروت في عددها المؤرخ ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) البيان التالي :

« لقد نشرنا امس نقلاً عن مصادر رسمية ان الامير عبد الله ابن شريف مكة قد تطوع للعمل في سبيل الجهاد ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية . وبوسعنا الآن ان نؤكد ان شريف مكة قد اعلن الجهاد في جميع انحاء الحجاز ملبياً في ذلك رغبة الخليفة ، وان القبائل يستجيبون من كل ناحية لهذه الدعوة بأسلحتهم الكاملة » .

كانت صحف تلك الفترة طافحة بمثل هذه البيانات . كما لفقت قصة مؤداها ان الشريف قد قبل ان يزور دمشق « ليتباحث مع جمال باشا وليعرب عن اخلاصه للدولة العلية » . ولكن الحسين كان قد عاش في القسطنطينية زمناً طويلاً جعله يعرف دون اي ارتياب ما يمكن ان تضمره له زيارة دمشق .

واتبعت الوسائل نفسها في العراق ، فأعطيت الأوامر لكثير من ذوي المناصب الدينية من السنّة والشيعة ليصدروا نشرات تحض على الجهاد . واقيمت مراسم دينية عرضت فيها بعض الآثار الباقية في اضرحة النجف وكربلاء لاثارة حماسة الناس ، مثل : السيف الذي

يقال انه كان منذ ثلاثة عشر قرناً سيف الشهيد الحسين ابن امير المؤمنين علي ، وشيء آخر يستدعي الشك في صحته اكثر من هذا – وهو العلم الذي يزعمون انه راية العباس عم النبي . واستخدمت الصحف ، وخاصة صحيفة « صدى الاسلام » التي تصدر في بغداد ، وسائل لنشر مثل هذه القصص والبيانات ، كما كانت الحال في صحف بلاد الشام .

وارسلت الرسل الى الحكام العرب في شبه الجزيرة العربية يقدمون لهم الهدايا وصنوف المجاملات . واثمرت المباحثات فوراً مع ابن الرشيد، فقد كان تواقاً الى التحالف مع الاتراك ولو على الاقل ليضمن تأييدهم له على ابن سعود الذي كان يخشاه . وهذا ما كان كذلك مع الامام يحيى الذي كان يعرب بكل وسيلة عن عزمه على البقاء حليفاً للاتراك . اما الادريسي فلم يكن ثمة اي امل في استمالته نحو الاتراك ، ولذلك اغفلوه . وكذلك كان الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت ، الذي كانت تربطه معاهدة ببريطانية العظمى منذ سنة ١٨٩٩ ، فما ان اشتركت تركية في الحرب حتى ابرم مع بريطانية حلفاً عسكرياً . اما ابن سعود فقد وفدت عليه الرسل ولكنهم لم يستطيعوا ان ينالوا منه وعداً واضحاً . فقد احتج بخوفه من احتمال مهاجمة بريطانية للساحل الذي يقع تحت حكمه على خليج العرب . امـــا حقيقة الامر فهي انه كان يقوم باتصالات مع حكومة الهند بل كان يعتبر في الواقع متحالفاً معها. وحينما كتب اليه الشريف حسين في مطلع ذلك العام ينبئه برفضه تأييد الدعوة الى الجهاد ، بعث اليه يثني على موقفه ويستصوبه . هؤلاء هم الحكام الخمسة الرئيسيون المسيطرون على جزيرة العرب : ابن الرشيد والامام يحيى آزرا تركية مؤازرة فعالة ، امـــا الشريف وابن سعود والادريسي ، فقد مالوا الى ما عرضته بريطانية عليهم ، واخذوا ينتظرون ان تتحول هذه العروض بحيث تتجسد في روابط وثيقة قبل

ان يعلنوا الثورة .

لم تقتصر جهود تركية على آسية ، بل عملت على نشر دعوة الجهاد في الاقطار العربية بافريقية . فتسللت الرسل خفية الى مصر والسودان وطافوا بأنحاء وادي النيل يهمسون بدعوتهم ويحضون على الثورة . واوفدت بعثة يرأسها اخو انور باشا الى زعيم السنوسيين ببرقة تحمل له الهدايا وتعده بالجاه والمناصب . ولا يُدرى على وجه الدقة مدى تغلغل رسل الاتراك في اواسط افريقية ، ولكن آثار جهودهم ونشاطهم اكتشفت بعد ذلك في السودان وفي الغرب حتى دارفور .

١٠

أرسلت راية النبي في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٤ ، وقد اعلن عنها في اوسع نطاق ممكن . ففي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) نشر بلاغ في صحف بلاد الشام فحواه انه نتيجة لاعلان الجهاد الاكبر جرى احتفال مهيب عند قبر رسول الله في المدينة شهده عشرون الفاً من المؤمنين اخرجت اثناءه راية النبي بما يليق بها من التبجيل تمهيداً لنقلها الى دمشق حتى تبارك الجيش الباسل . وفاز بشرف نقل الراية عميد آل الرسول واكبرهم سناً السيد علوي بافقيه وابناؤه الثلاثة ، فبعث ببرقية الى جمال باشا نشرت في الصحف في اماكن بارزة ، ونصها :

« بالرغم من اني تجاوزت السبعين ، وتلبية لما فرضه الله علينا من الجهاد ، فاني اتقدم ومعي ابنائي الثلاثة لنجاهد في سبيل الله عز وجل حاملاً باحدى يديّ راية الرسول المشرفة ، وباليد الاخرى كتاب الله الذي فرض الجهاد على المؤمنين كافة . ان هتافات عشرين الفاً من المسلمين ودعواتهم ترن في اذني وانا اتوجه الى دمشق وملء نفسي الاخلاص والرغبة في ان اموت شهيداً لاعلاء كلمة الله . ان ارض الحجاز ومن فيها من القبائل جميعاً قد لبت نداء خليفتنا المعظم » .

وصلت الراية وموكبها بالقطار الى دمشق في ١٥ كانون الأول

(ديسمبر) ، وقد استقبلتها المدينة بكل ما تستطيعه من مظاهر الحفاوة والتعظيم . فوقف في المحطة ينتظر وصول القطار كل من جمال باشا وهيئة اركان حربه ، والوالي واعضاء مجلسه وكبـار ذوي المكانة الدينية ، ومندوبين عن بقية انحـاء بلاد الشام ، وجمهور غفير من الأعيان . فلما وقف القطار ورفعت الراية على المنصة ادى حرس الشرف المؤلف من كبار ضباط الجيش التحية لها برفع اسلحتهم ، كما ادى جمال التحية ثم ركع وقبل طرفها ، بينما كان الجمهور يهتف « الله اكبر » . ثم سار الموكب وقد اشتركت فيه وحدات عسكرية من مختلف الاسلحة بموسيقاها ، وخصص مكان بارز في الموكب لجماعـة قليلـة من الجنود المجهولين قيـل عنهم انهم هـاربون من الجيش المصري [1] .

ولم ينته موكب الراية في دمشق ، بل نقلت في احتفال مماثل الى بيت المقدس ، وهي اقدس مدينة عند المسلمين بعد مكة والمدينـة . وتوقف الموكب اثناء سيره في نابلس لتأدية صلاة الجمعة ، ولينال حامل الراية المسن قسطاً من الراحة . فقد اضنته الرحلة واصبح وصفه لها بأنها تضحية عظيمة واستشهاد وصفاً مطابقاً للواقع . ثم وصلت الراية بيت المقدس في العشرين من كانون الأول (ديسمبر) ، واقيم لاستقبالها حفل كبير في الساحة الواسعة المحيطة بقبة الصخرة برئاسة جمال باشا ايضاً ، وختم الاحتفال باقامة الصلاة في المسجد الأقصى . ووضعت الراية هناك موقتاً لاخراجها في اليوم الذي سيزحف فيه الجيش عـلى

---

١ ـ نشرت الصحف العثمانية ، قبل ذلك باسبوعين ، البيان التالـي : « وصل دمشق ضابطان سودانيان وثلاثة وعشرون جنديا كانوا قد سلموا انفسهم للقيادة العثمانية بقرب العريش. وهم يؤلفون جزءا من طليعة الجيش البريطاني ، وقد استسلموا لان عاطفتهم الدينية ابت عليهم ان يقاتلوا اخوانهم المسلمين » . والحقيقة ان هؤلاء كانوا جنودا من حعر السواحل المصريين وقد انضموا الى الاتراك بعد مناوشة بينهم دارت بجوار القنطرة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) .

مصر . وبعد ثلاثة ايام توفي السيد علوي فحقق بذلك وعده ، فصدرت الأوامر الى الوعاظ ان ينتشروا بين الناس يشيدون بموته ويعتبرونه قدوة تحتذى ويعظمون من شأنه ويعدونه نذيراً للاعداء وشؤماً عليهم .

وبُذلت جميع الجهود لجعل موكب الراية ذا أثر فعال في اثـــارة النفوس ، وقد اضيفت اليه مظاهر اخرى متعـــددة ليظهر في مظهر الرمز الصادر من مكة . ولم تنطلِ الخدعة الا على قليلين : اذ اخذ الناس يتساءلون عن السبب في تخلف الشريف عن حضور الموكب اذا كان قد أيد حقاً الدعوة الى الجهاد ، ولو فرض وجود ما يدعو الى تخلفه في مكة فلماذا لم ينب عنه احد ابنائه ؟ ويذكر لنا احـــد الذين عاصروا هذه الحوادث وشهدوها [1] ان الشك بلغ في نفوس بعض الناس مبلغاً جعلهم يتهامسون ان تلك القطعة من القماش ليست الراية البتة ، وانما هي قطعة من احد الأكسية التي تزين قبر الرسول . ولم تبلغ حادثة الراية – في جملتها – ما كان يقصد منها ، وقيمتها التاريخية الرئيسية في انها توضح الأمل الكبير الذي كان الاتراك (ومن ورائهم الالمان) يعلقونه على نجاح الدعوة الى الجهاد في الأقطار العربية .

---

١ – كتاب « العصر الدموي » تاليف ناصيف ابو زيد (دمشق ١٩٢٣) .

الفصل الثامن

الخطة

(١٩١٥)

١

بينما كان الشريف حسين يتلمس الظروف والاحتمالات من حوله ، وصله رسول من جمعية « العربية الفتاة » التي اصبح مقرها الآن في دمشق ، وكان هذا الرسول هو فوزي البكري . وهو شاب من أسرة شامية شهيرة ، جند حديثاً في الجيش التركي وتقلد منصباً شرفياً في حرس الشريف ، وكان هذا المنصب في الظاهر منحة ومكافأة له لأنه الابن الاصغر في الاسرة . وكانت تربط الحسين بعطا باشا ، عميد اسرة البكري ، صداقة قديمة ، فوافق الاتراك دون مشقة على هذا التعيين اذ كانوا حريصين على ملاطفة الشريف وارضائه .

وكان نسيب – وهو اخو فوزي الاكبر (٭) – عضواً في « العربية

٭ ذكر الاستاذ علي حيدر الركابي مترجم الطبعة العربية الاولى ان المؤلف اخطأ بين الاخوين.

الفتاة » وهو الذي حث على هذا التعيين بالاتفاق مع الرؤوس الموجهة للجمعية . ومـــا كاد فوزي يتلقى الامر بالتوجه الى مكة حتى أطلعته الجمعية على سرها واصبح عضواً فيها بعد ان حلف اليمين ، وحمّلته الجمعية رسالة لينقلها الى الشريف . وكانت الرسالة شفهية فحواها ان الزعماء الوطنيين في الشام والعراق ، ومن بينهم ضباط كبار من العرب في الجيش التركي ، يميلون الى الثورة للحصول على استقلال العرب ، فهل يوافق الشريف على قيادة هذه الثورة ؟ واذا وافق على ذلك فهل يستقبل وفداً من الجمعية في مكة او يرسل الى دمشق مندوبين عنه يثق فيهم للاتفاق على مراحل التنفيذ ؟

وصل فوزي مكة في الاسبوع الاخير من شهر كانون الثاني (يناير) وهمس برسالته سراً في أذن الحسين . ولكن الشريف كان اشد حذراً من ان يفصح عن تأييده للخطة امام رجل غريب ، فـــلم يجب بشيء ولم ينبس بسؤال ، واكتفى بتسريح نظره مـــن النافذة كأنه لم يسمع شيئاً . ولكن المجال الذي فتحته الرسالة له كان هو المجال الذي يبحث عنه .

غير انه كان لا بد له من ان ينتظر حتى تظهر نتائج الأبحاث التي كان يقوم بها حينئذ . فقد لاحظ ان ثمة تغيراً ملموساً في موقف الوالي وهيب بك منه . وكان لديه من الاسباب ما يدعوه الى الاعتقاد ان هذا التغير جاء نتيجة لتعليمات غامضة تلقاها وهيب ، فبث الحسين عيونه ليرصدوا الوالي . وفي اوائـــل شباط (فبراير) ، بينما كان الوالي مسافراً الى المدينة ، فقدت احدى الحقائب من بين امتعته الشخصية . وحينما احضرت هذه الحقيبة الى الحسين وفحصها وجد فيها وثائق تتضمن الدليل على مؤامرة تدبرها الجهات الرسمية على حياته .

= وان الصواب ان نسيبا هو الاخ الاصغر وان فوزي هو الاخ الاكبر — المترجم —

فبدأ الحسين حينئذ يعمل . فأرسل الى الصدر الاعظم برقية يخبره فيها ان لديه ما يقتضي عرضه من الامور الخطيرة ، واستأذن في السماح له بأن يوفد احد ابنائه الى القسطنطينية ليعرضها نيـابة عنه . وبادر الاتراك الى الاستجابة لطلبه ، فاختار الحسين فيصلاً ليؤدي هذه المهمة، وقضى معه ساعات طويلة يوصيه ويلقنه . وكان السبب الظاهر لسفر فيصل الى القسطنطينية هو ان يعرض على السلطان وعلى الصدر الاعظم الاتهام الذي يوجهه والده الى الوالي ، وان يدعم هذا الاتهـام بحديث شفهي لتوضيحه . اما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ومعرفة موقفهم من عروض انجلترة ، ومدى تحمسهم لهـا واستعدادهم لتنفيذها .

٢

كان احمد جمال باشا هو الرجل التركي المسيطر على دمشق . ولمـا كان عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي ووزيراً للبحرية في الوزارة العثمانية ، فقد اختير ليقود الحملة عـلى مصر لتحريرها ، ومنح من السلطات بحكم القانون العسكري ما اصبح بمقتضاها رئيساً للحكومة في بلاد الشام وقائداً عاماً للجيش ، وكان قد وصل الشام في مطلع شهر كانون الأول (ديسمبر) واتخذ دمشق مقراً لقيادته .

ولم يكن جمال باشا احد اعضاء « تركية الفتاة » الذين يمثلون جمعية الاتحاد والترقي ويحملون طابعها . بل كان بطلاً معروفاً من ابطال الدعوة الاسلامية . فكان يخالف الداعين الى الوحدة الطورانية ، ويجاهر ، عن اخلاص ، بايمانه بمزايا القومية العثمانية المبنية عـلى التضامن الاسلامي وبمستقبلها . وكان يميل الى فرنسة وقد اشتهر بكرهه للألمان . ولم تكن مقدرته العسكرية قد عرفت بعد ، ولكن تفاصحه بالعبارات الفخمة في خطبه الاولى وفي بلاغاته للجيش يدل على تفاهة باطنه . وقـد اتضح

خلال السنوات الثلاث التي قضاهـا في الشام انه قائد عادي متوسط ، وانه اداري ماهر نشيط ، وانه سياسي لين الجانب سريع الانخداع ، وانه حينما يثور غضبه – وكثيراً ما كان يثور – يصبح مخلوقاً فظـاً لا يتورع عن شيء .

وكان لوصول جمال باشا الى دمشق وقع حسن في النفوس . فقد جاء عاقداً العزم على كسب السكان العرب لموالاة تركية ومؤازرتها ، وعلى استمالة المسلمين الى المشاركة الفعالة في الجهاد ، فأخذ يعمل على نزع المخاوف وبث الطمأنينة . وكان يريد ان يستخرج من الدعوة الى الجهاد اقصى ما يستطيع من فوائد ، ولذلك كان من الطبيعي ان يولي وجهه قِبَلَ مكة يطلب التأييد . وقد ارسل هو وانور باشا رسائل الى شريف مكة ، لا تزال موجودة ، تدل على مدى ما كانا عازمين عليه من الاحتمال والصبر في بذل الجهد لاكتساب تأييد الحسين . وكان بعض الموظفين الاتراك قد داهموا – قبل وصوله دمشق بقليل – القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق وفتشوهما ، فعثروا على رسائل فيها اتهام لبعض الشخصيات العربية المعروفة . كانت هذه الوثائق تتضمن أدلة على ما بذلوا من نشاط لا فرق بينه وبين الخيانة ؛ ولكن جمال باشا – الذي عقد العزم على ان يخلّف في النفوس اثراً حسناً – اكتفى بإخبار الشريف بما عثر عليه ، ووضع تلك الاوراق في أحد الأدراج وأقفل عليها ، ثم وجه عزمه الى تحرير مصر .

وقد اعلنت بريطانية في تلك الاثناء ان مصر تحت حمايتها . كما اعلن الجنرال ماكسويل ، في بلاغاته التي اصدرها بمقتضى الاحكام العرفية ، انتهاء سيادة تركية الاسمية عـلى مصر ، وخلع الخديوي عباس الثاني وارتقاء الامير حسين كامل العرش خلفاً له ومنحه لقب سلطان مصر . وقد بدأ جمال باشا هجومه على قناة السويس ليلاً في الثاني من شباط (فبراير) ١٩١٥ ، وكان من الواضح ان جيشه غير كاف لهذا الهجوم ،

ولكنه كان يعتمد على نشوب ثورة في مصر حيث كانت مشاعر الناس عامـة نحو انجلترة غير ودية . ولكن هجومه صُدّ ، وظلت مصر ساكنة ، فسحب القسم الاكبر من جيشه عائداً الى دمشق بعد ان ترك قوات ضئيلة في سيناء لتناوش القوات البريطانية في القناة مناوشات متفرقة بين حين وآخر ، وقد جاء في بلاغه لجيشه قبل الزحف ما يلي :

« ايها الجنود ، ان الصحارى القاحلة لتمتد من ورائكم ، والعدو الجبان يقف امامكم ، ومصر الخصبة خلف هذا العدو ، وهي مشتاقة الى الترحيب بكم . فان ترددتم فلن يكون نصيبكم الا الموت . فالى الأمام ، فان الجنة أمامكم » .

اما الآن فأخذ يشيع انه لم يقصد من وراء هـذا الزحف الا ان يكون حركة للاستطلاع والاكتشاف ، وانه سيتلوه في الوقت المناسب الهجوم الحقيقي .

٣

وصل فيصل دمشق في السادس والعشرين من شهر آذار (مارس) ومكث فيها اربعة اسابيع قبل ان يتوجه الى القسطنطينية . وقد استقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه الى الاقامة في مقر القيادة العامة ، ولكن فيصلاً اعتذر عن ذلك لأنه كان قد وعد آل البكري ان ينزل عندهم .

وفي اثناء هذه المدة التي قضاها فيصل في دمشق اطلع على أسرار الحركة العربية القومية . وكان سيل الزوار يتدفق عـلى منزل اسرة البكري خلال الأيام الاولى ، ولما انتهت زيارات الترحيب واصبح من الممكن ان تعقد في المنزل الاجتماعات الخاصة الى حد ما ، بدأت حينئذ المباحثات السياسية الدقيقة . وكانت اولى هذه الاجتماعات مع الاعضاء البارزين في جمعية العربية الفتاة . وقد ترددوا في البداية في ان يصرحوا

بما يدور في نفوسهم اذ كان فيصل غريباً عنهم وكان معروفاً بميله للتعاون مع الاتراك. وكان الجميع يتحدثون بحذر وتحفظ، الى ان كشف فيصل بعض الشيء عن دخيلة نفسه. وصرح بأن تفضيله للأتراك ناجم عن مخاوفه من اوروبة. وقد غير هذا التصريح مجرى الحديث تغيراً جوهرياً، اذ دل على ان وحدة المشاعر بين فيصل ومحدثيه وحدة لا ريب فيها، وبدأوا على الفور يشرحون له الاسباب التي دفعتهم في طريقهم، فقد، وافقت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة في اجتماعها الذي عقد قبل مجيء فيصل ببضعة شهور، على القرار التالي:

« نتيجة لاشتراك تركية في الحرب اصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لمخاطر شديدة، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها. كما تقرر انه اذا تحقق ان للدول الاوروبية مطامع في هذه البلاد فان الجمعية ملزمة بأن تعمل الى جانب تركية لكي تقاوم التدخل الاجنبي مهما تكن صورته »[1].

اصبح فيصل اقرب الى نفوس اعضاء جمعية « العربية الفتاة » بعد اكتشاف هذا الأساس المشترك بين اتجاهيها المختلفين، وبذلك سادت مباحثاتهم روح المودة والتفاهم. وكشفت الجمعية اسرارها لفيصل فأصبح عضواً فيها بعد ان حلف اليمين. ثم اجتمع ببعض اعضاء جمعية « العهد »، وهي المنظمة السرية التي تضم ضباط الجيش. وقد تم هذا الاجتماع بتدبير احد الاعضاء الذين ينتمون الى الجمعيتين في آن واحد، وقد وجد ان موقف هذه المنظمة مطابق لموقف الجمعية السابقة: فكانت كلتاهما ترغبان في الانفصال عن الاتراك، ولكن هذه

---

١ ـ يرجع الفضل في حصولي على قسم كبير من حقائق هذا الفصل الى المغفور له الملك فيصل. واني اسجل هنا فضله في حصولي على هذه المعلومات وعلى كثير من المعلومات المهمة الاخرى. كما اعترف بفضل الدكتور احمد قدري، وكان من اكثر الاعضاء نشاطا في جمعية العربية الفتاة، وقد اشترك في المباحثات التي اوردتها في هذا الفصل.

الرغبة كان يكبحها الخوف من المطامع الفرنسية والبريطانية والايطالية والروسية .

ولم تكن تلك المخاوف من الأطماع الاوروبية صادقة وحسب بل كان لها ما يسوّغ وجودها – الى حد كبير . اذ ان فرنسة لم تتستّر في مطالبتها بما زعمته من « حقوق » لها في بلاد الشام ، وكان من المعروف ان روسية تنافسها في ذلك منافسة قوية . وفي الفترة التي سبقت الحرب ظهرت فرنسة وروسية وكأنهما نسيتا احقادهما وتعاونتا على القيام بنشاط ظاهر في الشام : فافتتحت مدارس جديدة ، وانهالت الطلبات لتقديم العون المالي للمدارس القائمة ، وأسست الشركات ، وصار التدخل في الشؤون الدينية يزداد زيادة مطردة . وقد حرصت الدولتان على ان تؤكدا ان هذا النشاط انما يرمي الى اغراض ثقافية واقتصادية فقط ، ولكن الناس جميعاً كانوا يعتقدون – ولهم الحق في ذلك – ان هذا النشاط كان يرمي كذلك الى اهداف سياسية . وكان لفرنسة اصدقاؤها الحميمون وهم الموارنة في جبل لبنان والملكانيون ، اما مشايعو روسية فكانوا الطائفة الارثوذكسية ، وكان انصار انجلترة هم الدروز اصدقاؤها القدماء . واما بقية السكان وهم المسلمون الذين يؤلفون الغالبية العظمى فقد ظلوا في الحقيقة بمنأى عن التأثر بالنفوذ السياسي الاجنبي .

وقد اصبح موضوع المطامع الاوروبية في بلاد الشام هو الموضوع الرئيسي لأحاديث الناس اليومية في وقت ما خلال سنة ١٩١٢ . واخذ النفور بين جمعية الاتحاد والترقي وزعماء العرب يزداد ، وكانت الدول الكبرى تطمح الى المزيد من هذا النفور وتراقب باهتمام آثاره ونتائجه . وكانت فرنسة ترتاب في نيّات انجلترة كما كانت روسية تحسد فرنسة . ثم وقعت حادثة صغيرة كانت السبب في اذاعة هذا الريب ونشرها . وذلك ان نفراً من اعضاء السلك الدبلوماسي البريطاني كانوا يقضون اجازاتهم في بلاد الشام . وقد اختار احدهم – وكان آنئذ

سكرتيراً في دار الاعتماد البريطاني بالقاهرة – ان يقضي جانباً من اجازته في رحلة – على صهوة جواده – تبدأ من حيفا على طول الساحل الى بيروت ، ومنها الى جبل لبنان . فكتب عملاء فرنسة تقارير عن هذه الزيارات الى حكومتهم ، وأقنعوها ان وراء هذه الزيارات أغراضاً اخرى . ولما كانت الحكومة الفرنسية قد اوفدت في بداية ذلك العام مسيو كايو الى الشام في زيارة ذات اهداف سياسية لا شك فيهـا ، لذلك مالت الى تصديق ما وافاها به مندوبوها ، وبحث الأمر مع وزارة الخارجية البريطانية . فاستطاع سير ادوارد جراي ان يؤكـد لمسيو بوانكاريه تأكيداً قاطعاً ان تلك الزيارات لم يكن لها اي مغزى سياسي وان بريطانية العظمى لم تنو – ولن تنوي – ان تطالب بأي نفوذ سياسي في الشام ، فبادر رئيس الوزراء الفرنسي الى اعلان هذا التأكيد في مجلس الوزراء في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ ، وذلك لكي يزيد من قوة هذا التأكيد ويقيد بريطانية بـه . فجاء هذ الاعلان دليلاً واضحاً على ان فرنسة ترى ان بلاد الشام منطقة فرنسية وانها تريد من الدول الاخرى ان تعتبرها كذلك .

وأعقب هذا الاعلان جهود اخرى بذلتها فرنسة ، وزيارات قام بها بعض كبار الشخصيات الذين صرحوا علناً بما يؤكد هذا المعنى ، مثل زيارة سلطان مراكش سنة ١٩١٢ وزيارة مسيو موريس باريه سنة ١٩١٤ . وقد نشر في الصحف ان سلطان مراكش – حينما زار الشام زيارة تحت رعاية فرنسة – قد صرح في اجتماع عام ان احتلال فرنسة لبلاد الشام امر « ضروري ، لا محيد عنه ، وقريب الحدوث » .

ولم تكن مخاوف الزعماء العرب مقصورة على بلام الشام ، فقد كان من المعروف ان ايطالية ترمي من زمن الى تحقيق خطة خاصة بهـا في عسير واليمن لتقيم لنفسها منطقة نفوذ وقاعدة عـلى شواطىء البحر الاحمر الشرقية ، وقد استطاعت بريطانية العظمى – عن طريق السياسة

التي اتبعتها بعقد معاهدات مع الشيوخ العرب – ان تفرض حمايتها على عدة مشيخات على شواطىء شبه الجزيرة العربية ، وقد نشب بهن وقت قريب جداً خلاف على حدود عدن لفت انظار الناس بقوة وكان من نتيجته ان اضطرت تركية الى الاعتراف بالحماية البريطانية على تسع من الامارات الصغيرة في دواخل عدن .

وقد تجمعت آثار هذه المطامع المتعددة ، خلال السنوات التي تلت الاحتلال الايطالي لليبية ، ودفعت الزعماء العرب الوطنيين الى الحذر الشديد .

وكان الخوف من الحكم الاجنبي ذا أثر مقيت في نفوس الناس جميعاً حتى اولئك الذين لم يكونوا يشعرون بالتعصب ضد اوروبة ، وكانوا يؤلفون الكثرة من بين الذين يعملون في الميدان السياسي . وكان فريق من نصارى بلاد الشام ، وخاصة الموارنة ، يتطلعون الى ان يكونوا تحت الحكم الفرنسي ، وفريق آخر يحبذ الارتباط بانجلترة ارتباطاً يشبه النظام القائم في مصر . على ان هؤلاء جميعاً كانوا في الحقيقة قلة ، ممن انحرفوا عن روح الحركة العربية نتيجة ما تلقوه من تعليم غربي وما تأثروا به من نفوذ رجال الدين المسيحي . اما بقية السكان ، ومنهم المسلمون وهم الكثرة الغالبة ، فقد كانوا يتوجسون شراً من خطر السيادة الاجنبية وكان الزعماء يشاركون الناس شعور النفور من السيادة الاجنبية ، ويتساءلون : أليس الافضل – اذا كان لا بد لهم من الاختيار – ان يستمروا تحت الحكم التركي الذي عرفوه ، بدلاً من ان يقعوا تحت حكم آخر اجنبي مثله ولكنه لا ريب اقوى منه ؟

وحينما اصبح من الواضح ان تركية توشك ان تشترك في الحرب ارسل عزيز علي ، من مقر عزلته في مصر ، رسالة حاسمة الى زعماء



القسم الشرقي من العالم العربي

تمثل الاجزاء المظللة المنطقة العربية المستقلة كما حددها الشريف حسين في مذكرته المؤرخة في ١٤ تموز "يولية" سنة ١٥

جمعية « العهد » يخبرهم فيها بألا يقوموا – مهما تكن الدوافع – بأي عمل عدائي ضـد تركية ، لان اشتراك تركية في الحرب في تلك الحالة سيعرض ولاياتها العربية للغزو الاجنبي وان الواجب عليهم ان يقفوا بجانب تركية الى ان ينالوا ضمانات قاطعة تحميهم من الاطماع الاوروبية . وكان زعماء جمعية « الفتاة » قد اتخذوا القرار الذي اشرنا اليه ، مستقلين عن جمعية العهد ، وكان قرارهم في جوهره يتمشى مع ما تضمنته رسالة عزيز علي . وبذلك اتفق اعضاء الجمعيتين على رأي واحد ، واصبح همهم الاساسي ان يغتنموا المناسبات والفرص التي تتيحها لهم الحرب لينالوا ضمانات قوية تؤمن استقلال العرب في المستقبل . ولم يكونوا حينئذ يعرفون شيئاً عن المراسلات بين كتشنر والشريف .

كان هذا مدار تفكير الجمعيتين حين قدم فيصل الى دمشق، وحلف اليمين ليصبح عضواً في احدى الجمعيتين ، ثم في الاخرى . وقد اعجب فيصل اعجاباً شديداً بتنظيم جمعية العهد ، اذ كان زعماؤها قادرين على ان يوقدوا نـار الثورة في صفوف الجيش حينما يشاؤون ، وذلك لان الجنود العرب كانوا الاكثرية الغالبة في الفرق العثمانية المعسكرة في بلاد الشام حينئذ ، وكان قوادهم – ومعظمهم اعضاء في الجمعية – مستعدين ان يلبوا نداء هؤلاء الزعماء فيزحفوا مع جنودهم . وقـد ذكر جمال باشا في مذكراته [1] التي نشرت بعـد الحرب : « لو نشبت الثورة بسبب المؤامرات الاجنبية لكنا عاجزين عن قمعها ولفقدت الحكومة جميع مناطقها العربية » .

ومع ذلك فان خوف الزعماء من ان تكون الثورة سبباً في استبدال سيادة بأخرى – كان يكبح من جماحهم . وقد انضم فيصل الى هاتين

---

١ – جمال باشا : « مذكرات سياسي تركي » (ترجمة) لندن ، وليس عليها تاريخ الطبع .

الجمعيتين بحماسة المؤمن المخلص ، لأن ميلـه الى الاتراك كان بسبب هذا الخوف نفسه وبسبب شكه في استعداد العرب استعداداً كافياً . وقد اخبر الزعماء بعرض كتشنر ، وبالخلاف في الرأي بينه وبين عبد الله ، وبخطة والده التي تعتمد عـلى الحذر والحرص . ثم تركهم ليتدبروا الامر في ضوء هذه المعلومات التي اخبرهم بها ، وقصد الى القسطنطينية لينفذ الجزء الظاهر من مهمته فوصلها في الثالث والعشرين من شهر نيسان (ابريل) .

٤

مكث فيصل في القسطنطينية اقـل من شهر قليلاً . وقد استقبل هناك استقبالاً يفيض بالحفاوة والتقدير البالغين ، واتيحت لـه فرصة واسعة لعرض شكوى والده عرضاً وافياً . واجرى عدة مباحثات مع الامير سعيد حليم الصدر الاعظم ، وطلعت بك وزير الداخلية ، وانور باشا وزير الحربية ، كما مثل بين يدي السلطان مرتين . وقـد اصغى الجميع لما عرضه بمظاهر الرعاية والتعاطف ، ولكنهم اجابوه بأن العلاج في يدي والده نفسه . فلو ان الشريف جاهر علناً بتأييده لدعوة الجهاد فان ذلك سيسهل اصلاح الموقف في الحجاز لمصلحته ، ويستطيع حينئذ ان يطمئن الى انه سينال كل ما يرضيه . وكتب الصدر الاعظم وانور وطلعت رسائل الى الشريف تتضمن هذا المعنى . وكانت رسالة انور المؤرخة في الثامن من شهر ايار (مايو) اشد الرسائل الثلاث مبالغة . فقد أطنب في شرح الموقف في الدردنيل ، وغـالى في اهمية انتصار النمسة وألمانية في موقعة دونايتز في الجبهة الفرنسية ، وأكد قيمة المظهر الديني لهذه الحرب وأهاب بالحسين ان يؤازر هذا المظهر بتأييده لدعوة الجهاد .

عاد فيصل الى دمشق في الثالث والعشرين من آذار (مارس) ،

فوجد ان زملاءه في جمعيتي « الفتاة » و « العهد » قد اتفقوا على خطة العمل اثناء غيابه . ووضعوا ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانية العظمى على تركية ، واتفقوا على ان يحمل فيصل هذا الميثاق الى مكة ويطلب من والده ان يعرف من الحكومة البريطانية هل تقبل هـذه الشروط اساساً للعمل المشترك . وأهمية هذا الميثاق تدعونا الى ان نورد نصه كاملاً ، وهو :

« اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالاً – خط مرسين – أضنه الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ، ثم عـلى امتداد خط بيريجيك – أورفه – ماردين – مديات – جزيرة ابن عمرو – العمادية الى حدود ايران .

شرقاً – على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوباً .

جنوباً – المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحـالي كما هو) .

غرباً – عـلى امتداد البحر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط الى مرسين .

الغـاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية .

عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

تقديم بريطانية العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية » [١] .

تلك هي الشروط التي كان يتمسك بتحقيقها الزعماء العرب لكي

---

١ – ذكر مؤلف الكتاب ان هذا النص الذي ترجمه الى اللغة الانجليزية في كتابه ، قد استعار اصله العربي من المغفور له الملك فيصل .

يقوموا بثورة عربية يعلنها شريف مكة ويبذلوا اقصى جهدهم لمؤازرة قضية الحلفاء .

ان ميثاق دمشق ذو قيمة كبيرة جداً ، ولا تقتصر قيمته على اهمية ما تضمنه من شروط فحسب وانما تتمثل ايضاً في ان الشريف حسيناً قد استخدم نصوصه بعد ذلك في شهر تموز (يولية) حينما استأنف مباحثاته مع بريطانية العظمى . ولما كانت مثل هـــذه الوثيقة يجب ان تظل سرية فقد صيغت في ألفاظ قليلة بالقدر الذي يؤدي المعنى المقصود، وجاءت في صورة تعبير موجز عن المبادىء العامة . ولكن معناها بلغ من الوضوح بحيث يدل على نفسه في نقطتين اساسيتين ، هما : استقلال العرب والتحالف مع انجلترة . وربما كانت قيمتها الكبرى – من حيث هي وثيقة تاريخية – تتمثل في انها توضح موقف العرب تجـــاه الدول الغربية الكبرى . وكان الهدف هو الاستقلال استقلالاً مضموناً محصناً عن اي تدخل اجنبي حتى ما كان يعرف باسم الامتيازات الاجنبية . اما اذا كانت انجلترة مستعدة لأن تعترف للعرب بهذا الاستقلال فانهم حينئذ يرحبون بالتحالف معها .

ولقد اعرب فيصل – اثناء المحادثات التي اجراها بعد عودته الى دمشق – عن شكوكه في ان يقبل الحلفاء هـــذه الشروط ، اذ كان يرتاب في نواياهم ارتياباً عميقاً ، ومع ذلك فقد كان يرى ان هـــذه الشروط هي اقل ما يمكن المطالبة به في سبيل قيام العرب بالثورة ، ووعد بأن يسارع الى مكة ليعرضها على والده ويطلب موافقته عليها . ثم حلف ستة من الزعماء الرئيسيين يمين الولاء وتعاهدوا على ان يعتبروا الشريف هو ممثل الشعب العربي ، وعلى ان تهب الفرق العربية المرابطة في بلاد الشام هبة رجل واحد اذا ما اتفقت بريطانية العظمى مـــع الشريف على تحقيق الشروط الواردة في ميثاق دمشق . وتأكيداً لهذا العهد أعطى الشيخ بدر الدين الحسيني ، اكبر علماء دمشق ، خاتمه الى

فيصل ليسلمه الى الشريف رمزاً لثقة اهل الشام به .

وأدركهم الزمن وسابقتهم الاحداث . فقد امر الاتراك بنقل احدى الفرق العربية المرابطة في الشام الى غاليبولي ، وخشي الزعماء العرب ان يتم نقل فرق اخرى ايضاً . ومع ذلك فلم يكن فيصل يستطيع ان يسافر قبل ان يقابل جمال باشا ، وكان جمال قد ذهب الى سورية الجنوبية في رحلة تفتيشية .

وفضل فيصل ألا ينتظر أوبته ، فسافر اليه في مدينة القدس واستأذنه في السفر ، ثم عاد الى دمشق واستقل القطار الى المدينـــة . وكان قد كتب نسخة من الميثاق بخط صغير جداً واعطاها لاحد اتباعه فوضعها في حذائه وخاط عليها بطانة الحذاء . ثم وصل فيصل مكة في العشرين من شهر حزيران (يونية) وقدم لوالده تقريراً مفصلاً عن مهمته وشرح له كيف تحول الى الموافقة على فكرة الثورة اذا ووفق على هذه الشروط. وكان الشريف صارماً مع ابنائه فأخذ يسأل فيصلاً اسئلة دقيقة ، وصار فيصل كلما تذكر تلك الايام يقول : « كان ذلك الاسبوع مـــن أقسى ما مر بي في حياتي » .

٥

في تلك الاثناء بذلت السلطات البريطانية في مصر كل ما في وسعها لتفادي مخـــاطر الدعوة الى الجهاد . وكان الرجلان القائمان بالجهود الرئيسية في بداية الامر هما : السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني مستر رونالد ستورز ، ومدير المخابرات العسكرية في القـــاهرة المقدم ج. ف. كلايتون . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ تسلم سير هنري مكماهون عمله مندوباً سامياً في مصر والسودان ، وكان سير ريجنالـــد ونجت ــ كما مرّ بنا ــ حاكماً عاماً للسودان ومقر قيادته في الخرطوم. وحمل هؤلاء الرجال الاربعة العبء الاكبر من هذا العمل الشاق .

فقد تولى ستورز وكلايتون مباحثة الزعماء العرب المقيمين في مصر ، وكان في طليعتهم عزيز علي ومعه السيد رشيد رضا وكان عالماً في الدين وسياسياً ومصلحـــاً واسع الشهرة في كل ذلك ، كما كان داعية متحمساً الى نهضة المسلمين والعرب . ودارت هذه المباحثات حول موضوع الرسائل التي بعث بها كتشنر إلى الشريف ، وكانت ترمي الى اقناع العرب ان مستقبلهم رهن تحالفهم مع انجلترة . ومع مرور الايام اتسع نطاق المباحثات حتى لم يكد يبقى صاحب اتجاه معين او نزعة خاصة الا طُلب منه رأيه او تطوع بإبدائه . ولكن هذه المباحثات لم تصل الى اتفاق ، بل لم يكن من الممكن لها ذلك . اذ ان هؤلاء الزعماء – مثل عزيز علي ورشيد رضا – الذين كان لهم من النفوذ ما يوجهون به اتباعهم في الشام والعراق ، قد طالبوا بضمانات تكفل استقلال العرب واعتبروا هذه الضمانات شرطاً لا بد منه لكي يدعوا العرب الى القيام بالثورات ، ولم يكن احد في مصر في موقف يتيح له تقديم هذه الضمانات المطلوبة .

ومع ذلك فلم تضع هذه المحادثات سدى ، اذ انها نبهت السلطات البريطانية الى ان محاولاتها لاكتساب العرب من غير تقديم عهود قاطعة لهم انمـــا هي محاولات باطلة لا جدوى من ورائها وكان سير ريجنالد ونجت قد وصل بدوره الى هذه النتيجة نفسها ، وذلك انه تباحث مع السيد علي المرغني وبعض المسلمين البارزين في السودان ، فأدرك ان وجهة النظر الإسلامية تطالب بالاسراع في اصدار بيان يشتمل على ضمانات محددة تكفل مستقبل البلاد العربية ومصير الخلافة . ثم قدم ونجت الى مجلس الوزراء البريطاني صورة صادقة عن الموقف وايده كتشنر تأييداً قوياً ؛ ففوض مجلس الوزراء مكماهون في اصدار بيان عام يتفق مع مقترحات ونجت .

وكان هذا البيان يرمي الى تهدئة مخاوف المسلمين اكثر مما كان يرمي

إلى تحقيق آمال العرب السياسية . وقد ورد في هذا البيان ان بريطانية العظمى تتعهد بأن ينص احد بنود معاهدة الصلح على الاعتراف بشبه جزيرة العرب دولة مستقلة ذات سيادة تامة على اماكن المسلمين المقدسة، كما اشار البيان الى ان الحكومة البريطانية على استعداد للترحيب بقيـــام خلافة عربية . ونشر البيان في اوائل شهر حزيران (يونية) ، وطبع في منشورات وزعت منها اعداد كبيرة في جميع انحاء مصر والسودان وهُرِّب بعضها الى الشام ، وألقت الطائرات البريطانية نسخاً منه على مدن : الوجه ، وينبع ، ورابغ ، وجدة .

قطعت الحكومة البريطانية ، بإصدارها هذا البيان ، شوطاً آخر أبعد مما وصل اليه كتشنر في تعهداته التي اصدرها في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ ووعد فيها الشريف بحماية الجزيرة العربية من اي اعتداء خارجي ، اذ ان البيان قد زاد على ذلك بتعهده بالاعتراف بقيام دولة مستقلة في جزيرة العرب وبتأمين سلامتها ، ولكن البيان أغفل مطلب العرب الاساسي وهو ان يشمل هذا التعهد بلاد الشام والعراق كما شمل شبه جزيرة العرب ، ولذلك اعترى الفتور هـــذه المباحثات التي بدأها ستوزر وكلايتون في الخريف ، ثم توقفت فجأة حينما اقبل الصيف .

وقد بذلت حكومة الهند نشاطاً كبيراً في مجالها ، وكانت تعتبر ان شبه جزيرة العرب تابعة لمجال نشاطها . فكانت دلهي ، لا لندن ، هي التي تدير عادة دفـــة السياسة في عدن ودواخلها وفي خليج العرب. وكانت دلهي ايضاً هي التي اشرفت على الاعمال الحربية التي انتهت باحتلال البصرة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ . وقرب نهاية تلك السنة أوفد الرئيس (الكابتن) ج. ر. شكسبير احد الموظفين السياسيين في حكومة الهند ، الى ابن سعود ليسعى الى اكتساب مؤازرته للحلفاء في قضيتهم . ولم يكن ابن سعود ميالاً الى الاتراك بحيث يحتـــاج الى

من يستميله عنهم ، وما كادت تركية تشترك في الحرب حتى وصل الى مقر ابن سعود احد اعضاء جمعية « العهد » موفداً من قبل عزيز علي لينال تأييده للقوميين في قضيتهم ، فأحسن ابن سعود استقباله . وفي الوقت نفسه كانت الدعوة الى الجهاد تحرج مركزه بوصفه زعيماً للوهابيين ، وكان التغاضي عن هذه الدعوة سيكون اشد احراجاً له لو ان شريف مكة أيّد الدعوة . وحينما كان شكسبير مع ابن سعود في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ وصل الى قصره رسل اوفدهم الحسين يحملون منه رسالة يسبر فيها غور ابن سعود .

وقد أيّد ابن سعود ، كما ذكرنا قبل قليل ، الحسين تأييداً قوياً في امتناعه عن مناصرة الدعوة الى الجهاد . وقد أفهم الحسين كذلك ان مساعي الاتراك للحصول على أية معونة من بلاد نجد ستذهب ادراج الرياح . وكان جوابه عما عرضه عليه شكسبير جواباً وديّاً ، وقبل ان تنصرم سنة ١٩١٥ ، كان ابن سعود قد عقد معاهدة تحالف مع نائب الملك في الهند .

وعقدت حكومة الهند ايضاً اتفاقاً مع الادريسي في شهر نيسان (ابريل) . وكان هذا الاتفاق — كالمعاهدة التي عقدت بعد ذلك مع ابن سعود — ينحصر في الشؤون المحلية وحدها ، ولم يتضمن هذان العهدان أية اشارة الى موضوعات عامة تتصل بحركة العرب القومية . بل لم يكن الادريسي ولا ابن سعود في موقف يتيح لهما ان يقدما ايـــة معونة ذات قيمة سواء أكانت عسكرية ام معنويـــة في الحرب ضد تركية . ان القيمة الرئيسية لهذين الاتفاقين تتمثل في نتائجها السلبية : فقد قطعا الامل قطعاً كاملاً في اي تحالف بين تركية وهذين الزعيمين — وكان هذا الامل في احسن الاحتمالات أملاً ضعيفاً — كما انهما ضمنا مساعدة ابن سعود في الحيلولة دون وصول المؤن والامدادات الى الاعداء

من طريق خليج العرب ، واصبح من المستحيل ان يستخدم الاتراك سواحل عسير قاعدة معادية لسفن الحلفاء في البحر الاحمر .

اما ابن الرشيد والامام يحيى فقد تُركا لشأنهما ولم تبذل المساعي لاستمالتهما . فقد ربط ابن الرشيد مصيره منذ البداية بالاتراك ، امـــا الامام يحيى فكانت ترابط من حوله فرقتان تركيتان ولذلك كان يشعر ان جميع ما يمكن ان يعرضه عليه الحلفاء لا يعادل الفوائد التي يجنيها بمحافظته على علاقات المودة مع القوات التي تحتل بلاده . ولذلك وقف موقف المتفرج حينما زحف الاتراك على محمية عدن . ولقد دارت بعد ذلك مباحثات بينه وبين المعتمد البريطاني في عدن ولكنها لم تفض الى اية نتيجة ، وظل الى النهاية يقف موقف المتفرج السلبي .

حينما استأنف الشريف المفاوضات في تموز (يولية) ١٩١٥ لم تكن الحرب في الشرق الادنى تسير كما ينبغي وفق مصلحة الحلفاء . فقـــد كلفتهم الاعمال الحربية في غاليبولي كثيراً ولم تكلل بالنصر . ومع ان هجوم الاتراك على مصر قد صُدَّ غير ان الخطر كان لا يزال قائماً وكان يستدعي حشد قوات كبيرة . وكانت نيات زعيم السنوسيين لا تزال غير واضحة ، ولكن ما عرف عن صلاته بالاتراك كان كافياً لأن يدعو الى القلق ، وقد ظهر بعد ذلك من سير الحوادث في اواخر تلك السنة ان هذا القلق كان في محله . فقد أبـــدى سلطان دارفور – وكان لا يزال على صلة وثيقة بالسنوسي – بعض الدلائل التي تشير الى استجابته لدعوة الجهاد . وزحفت القوات التركية المرابطة في اليمن على محمية عدن ، وطردت القوات البريطانية التي ارسلت للدفاع عن لحج ، واستطاعت ان تقترب من عدن نفسها فأصبحت لا تبعد عنها سوى بضعة اميال . وكان لا بد من ارسال لواء من مصر على وجه السرعة لانقاذ الموقف . واذا استثنينا الحملة عـــلى جنوب العراق التي كانت تتقدم من البصرة الى الشمال تقدماً حسناً بالرغم من العقبات

الكأداء ، فان القوات البريطانية في البلاد العربية كانت تقف في جميع الميادين موقف الدفاع .

في هذا الوقت الذي كان فيه سير هنري مكماهون مشغول البال بالمخاطر التي لا تزال محدقــة بمصر ، وصلته مذكرة من الشريف حسين .

الفصل التاسع

عهد بريطانية العظمى

(١٩١٥)

١

ارسل الشريف أولى مذكراته الى سير هنري مكماهون في حوالي منتصف شهر تموز (يولية) ، فوصلت القاهرة في احد ايام شهر آب (أغسطس) وقد احيطت بالكتمان الشديد ، وحملها احد رسل الشريف ممن كان يضع فيهم ثقته وهو الشيخ محمد عارف بن عريفان. ولم تكن المذكرة مؤرخة ، بل لم يكن عليها اي توقيع مبالغة في الحرص كما كانت العادة في جزيرة العرب ، غير انها كانت مرفقة برسالة من عبد الله موجهة الى ستورز شخصياً صادرة في الرابع عشر من شهر تموز (يولية) .

وقد اوردت المذكرة الشروط التي يشترطها العرب لاشتراكهم في

الامر وتدخلهم [1] . وبدأت المذكرة بمقدمة تؤكد تصميم الامة العربية على نيل استقلالها السياسي ، وتعرب عن اعتقاد العرب ان المصالح بينهم وبين بريطانية متبادلة ، ثم اخذت المذكرة تعدد الشروط التي يتمسك بها الحسين لكي يستطيع ان يشترك ، باسم الامة العربية ، في حلف مع بريطانية العظمى لتحقيق تلك الغـــاية . ونصت المذكرة على ان العرض الذي تضمنته سيظل قائماً مدة ثلاثين يومـــاً ، وطلبت ان يرسل رد صريح بالقبول او الرفض خلال تلك المدة . وكانت الشروط التي عرضتها المذكرة واعتبرتها أساساً للتحالف الذي يقبلـــه العرب هي الشروط التي تضمنها ميثاق دمشق ، مع اضافة شرط خاص بالخلافة ينص على انه اذا بويع عربي بالخلافة فان على بريطانية العظمى ان تعترف به . كما ذيلت بملحق ينص على ان البنود الخاصة بالمساعدة المتبادلة تظل سارية مدة خمسة عشر عاماً ، وقد تمدد باتفاق الطرفين .

فاذا ما استثنيت هاتان الزيادتان فان الشروط الواردة في المذكرة هي الشروط نفسها التي تضمنها ميثاق دمشق . وقد اقتبست المذكرة البند الاول من الميثاق بنصه الحرفي ، وهو البند الخاص بحدود المنطقة العربية المستقلة . وقد وضع الحسين في مقدمة مذكراته ان العرب يفضلون — بسبب سرعة مرور الوقت وتلاحق الحوادث — ان يقتصروا على المسائل الجوهرية وان يؤجلوا بحث الموضوعات الفرعية الى فرصة اخرى يكونون فيها في سعة من الوقت .

ولم يخض عبد الله ، في رسالته الى ستورز ، في ذكر الشروط التي تضمنتها مذكرة ابيه ، ولكنه طلب تقديم المذكرة الى الجهات المختصة ، واشار الى ان العرب قد حزموا امرهم واختاروا موقفهم ، ولذلك فانه يرى انه لم يعد ثمة ما يدعو الى الاستمرار في توزيع نشرات الدعاية

---

[1] — اثبتنا في الملحق رقم (أ) نصوص هذه المذكرة والرسالة ونصوص المذكرات التـــي تبودلت بعد ذلك بين الشريف حسين وسير هنري مكماهون .

في انحاء جزيرة العرب ، واكد أهمية الحذر والكتمان في تبادل المراسلات .
وكان الطلب المحدد الوحيد الذي طلبه خاصـاً بهبة القمح التي كانت
تقدمها مصر كل سنة في موسم الحج من التبرعات الخيرية لكي توزع
عـلى الفقراء في مكة والمدينة . وكانت الحرب سبباً في توقف مجيء
الحجاج من مصر ، لذلك ألح عبد الله على وجوب ارسال تلك الهبات
– التي كانت تأتي عادة بمناسبة موسم الحج – ونقلها بأية وسيلة مناسبة
الى الحجاز ، وسيكون لهـا هناك من الاثر في النفوس اكثر من أثر
نشرات الدعاية .

٢

وكان جواب سير هنري مكماهون ، المؤرخ في ٣٠ آب (أغسطس) ،
مثلاً طريفاً من أمثلة المراوغة الرسمية . فلم يتضمن رداً صريحاً بالقبول
او الرفض ، ممتثلاً في ذلك لتعليمات وزارة الخارجية كما هو المفروض.
واكتفى بأن يكرر التعهدات العامـة التي منحت في الماضي للشريف
باسم اللورد كتشنر بشأن استقلال العرب والخلافة العربية . اما حينما
كان لا بد له من ان يوضح معنى تلك التعهدات ويحدد المنطقة العربية
التي ستستمتع بالاستقلال ، فقد ذكر ان الوقت يبدو غير مناسب لهذا
البحث ، واحتج لذلك بأنه مضيعة للوقت ان تبحث مثل هذه الموضوعات
ورحى الحرب دائرة ، واضاف سبباً آخر اكثر سذاجة وهو ان الاتراك
كانوا لا يزالون يحتلون اجزاء من البلاد العربية . والعجيب انه يتذرع
بهاتين الحجتين للرد على اقتراحات لم تقدم الا تحت وطأة الحرب ،
وترمي – اذا ووفق عليها – الى تمكين العرب من القيام بالثورة ومساعدة
الحلفاء في القضاء على الاحتلال التركي . ثم ذكر حجة ثالثة لعلهـا
أغرب من سابقتها ، وهي ان بعض العرب من رعايا السلطان الذين
يقطنون في المناطق التي لم تزل تحت الحكم التركي ، كانوا جنوداً في

جيش السلطان . وختم مذكرته بابداء استعداده لارسال هبات القمح المصري الى الفقراء .

كان مضمون هذه المذكرة يدل على الحمق ، ولم يكن ذلك لما فيها من مخادعة واضحة فقط بل ايضاً لأنها حاولت ان تجمع بين امرين متناقضين ، وهما : اكتساب الشريف للدخول في تحالف فعال ، وفي الوقت نفسه منعه من الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها ان يجعل هذا التحالف فعالاً . والاسباب الرئيسية لهذا التناقض تعود الى ان مكماهون ومستشاريه لم يكونوا – حتى في تلك المرحلة – قد عرفوا معرفة كاملة العوامل الخفية التي توجه الحوادث . فلم يكونوا يعلمون شيئاً عن فحوى محادثات فيصل في دمشق ، ولا عن جمعية « العربية الفتاة » ولم يكونوا يعرفون سوى فكرة مبهمة عن وجود منظمة « العهد » ، وكانوا يعتقدون ان الحسين لم يكن يمثل الا نفسه ، ويظنون انه كان يسعى الى تحقيق اهدافه الشخصية ، وان من الممكن استمالته اذا وعدوه بالاعتراف بخلافته ، ولوحوا له تلويحاً مبهماً باستقلال العرب . لقد عرفوا الحقيقة مصادفة بعد ذلك بشهر ، اما في اواخر آب (اغسطس) فلم يكونوا يعرفون ادنى معرفة ما كانت تنطوي عليه مقترحات الشريف .

كانت مذكرة مكماهون الاولى – كسائر مذكراته بعد ذلك – مكتوبة باللغة العربية . ولا شك ان نصوص جميع المذكرات كانت توضع اولاً باللغة الانجليزية ثم تترجمها دار الاعتماد البريطاني الى اللغة العربية وتقوم بارسالها . والنصوص التي اوردتها في هذه الفصول وكذلك النصوص التي اثبتها في الملحق انما هي مما ترجمته عن النسخة العربية . واسلوب هذه المذكرات متفاوت فكأنما ترجم كل واحدة منها مترجم غير الذي ترجم الاخرى . ولكنها كلها تكشف دون ريب عن انها كانت في اصلها باللغة الانجليزية ما عدا تلك البهارج من الثناء المسرف وألقاب التمجيد والتفخيم ، وهي ليست انجليزية ولا عربية ، ولكنها

مزيج من الاسلوبين التركي والفارسي في التزلف ، كتبها احد موظفي مكماهون ظناً منه انها لائقة بالمقام[1] . ولقد استاء الحسين من هذا الهراء واعرب عن استيائه في رده . وهكذا كانت مذكرة مكماهون المؤرخة ٣٠ آب (اغسطس) ١٩١٥ مثار نفور الحسين من جميع جوانبها .

٣

بادر الشريف الى ارسال الرد بسرعة ، اذ ان مذكرته الثانية مؤرخة في التاسع من ايلول (سبتمبر) ، وهي اطول جداً من الاولى .

وكان لأسلوب الحسين خصائصه ايضاً . اذ ان مذكراته الى مكماهون جميعها كانت من انشائه بذلك الأسلوب العربي المعقد المثقل بالتعبيرات التركية ، وكان قد ثقف هذا الاسلوب في القسطنطينية اثناء حكم عبد الحميد ، حينما كان لا بد للمرء من ان يلجأ الى الحذر اذا ما اضطر الى التعبير عن آرائه ، فيعبر عنها بأسلوب مبهم غير مفهوم . ولما كان الحسين بطبيعته صريحاً واضحاً فقد كان لا بد له ، ليحمي نفسه ، من ان يتوخى الحذر في عباراته ، فنتج من ذلك نمط من الاسلوب اختفت في ثناياه صراحته الفطرية تحت ستار محكم يتألف من الجمل المعترضة والاستطراد والتضمينات والامثال والحكم المأثورة نسجت كلها في اسلوب أدبي منغّم حتى تحولت الى عبارات طنانة جوفـــاء ، يعتبر اسلوب

---

١ ـ مثال ذلك ان مذكرة المندوب السامي الاولى تبدأ بما يأتي : « الى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، امير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس اجمعين » .

(انظر كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » ... من منشورات الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ص : ٩) ـ المترجم ـ

« التورية والكناية » بازائها اسلوباً سلساً . لقد اصبح استاذاً في هذا الاسلوب الوافي ، المعتمد على الهذر والاطناب ، ولكن طول ممارسته له انتهى به الى ان يسترقه هذا الاسلوب ويستعبده . ولقد كان في مذكراته التي بعث بها الى القاهرة يجمع بين وضوح التعبير وغموضه ويعاقب بينهما ، ومع ان المعنى الذي يقصده كان دائماً مفهوماً غير انه غالباً ما كان يختبىء في ثنايا الالفاظ الكثيرة التي تشبه غابة من النباتات المتسلقة ، وكان لا بد من التذرع بالصبر في سبيل اكتشاف هذا المعنى وتخليصه مما يشوبه : وهو امر شديد العسر على من يقرأ هذا الاسلوب ، فكيف لا تكون مشقته سبباً في يأس من يتولون ترجمته .

ويظهر التناقض الحاد بين سلامة نية الحسين في هذا الرد وبين تملص مكماهون ومراوغته في مذكرته . وقد ادرك الحسين ما في تلك المذكرة من تحايل وعزاه الى الجهل ، وفطن بثاقب نظره الى الافكار الخاطئة التي أوحت بها فحاول ان يصحح الخطأ . فأبدى دهشته لما قوبل به اقتراحه الخاص بتحديد حـــدود المنطقة العربية المستقلة من « غموض وبرودة وتردد » (*) وعُني بأن يوضح له ان تلك المقترحات ليست صادرة من شخصه وحده « بل هي مقترحات شعب بأسره » (*) يعتبرها شرطـــاً اساسياً . وقد أثاره ان مكماهون كان يضرب عـــلى وتر الخلافة كأنها هي كل شيء في الامر ، ولذلك بادر الى القول بأنه يعتبر الخلافة نظاماً ميتاً (**) ، ثم غمز مكماهون في الفقرة نفسها غمزة

---

* هذه الفاظ الحسين كما وردت في نص رسالته ، انظر : « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » ص : ١١–١٢ — المترجم —

** هكذا ذكر المؤلف في ص : ١٦٨ من كتابه قال : (He regards it as : a dead institution) وقد ذكر في الوثيقة رقم ٣ في ملحقـــات الكتاب ص ٤١٧ ان الشريف حسينا قال في رسالته : « اما الخلافة ، فليرحم الله روحها وليهب العزاء للمسلمين على فقدها » ونصه بالانجليزية : (As for the caliphate, God have mercy on its soul and comfort the Moslems for their loss)

خفيفة لاسرافه في الالقاب وعبارات المجاملة ، فقال :

« اما هدفنا ، يا فخامة الوزير ، فهو ان نطمئن الى ان الشروط الاساسية لتأمين مستقبلنا ستبنى على اساس الحق والواقع ، لا على الاسراف في تنميق العبارات والألقاب » [1] .

ثم يمضي في رسالته قائلاً : ان قضية الحدود يجب ان تعتبر مسألة اساسية اذ ان الشعب كله الذي ينطق الحسين باسمه يعتبر هذه القضية مسألة اساسية ، حتى اولئك الذين أرغمتهم ظروفهم على ان يعملوا لمصلحة حكامهم الاتراك . ثم وضح في صراحة ان نتيجة المفاوضات مع مكماهون « متوقفة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود المقترحة » * .

٤

اصبحت السبيل أمام مكماهون واضحة الآن غاية الوضوح ، ويعدلها في الوضوح ما تبين له من ان جوابه هذه المرة يجب ان يكون إما الموافقة الصريحة وإما الرفض الصريح .

ولا شك ان المؤلف قد دق عليه الاصل العربي فلم يسببه على حقيقته . وعبارة الحسين في رسالته هي : « اما الخلافه فان الله يرضى عنها ويسر الناس بها » (انظر الوثائق الرئيسة ص : ١٢) . وهي تؤدي عكس المعنى الذى فهمه المؤلف وترجمه الى الانجلمزية . ـ المترجم ـ

١ ـ قال المؤلف في الهامش . اما ان السير هنري مكماهون لم يفهم هذا التأنيب واما انه تجاهله عمدا اذ ان جمع مدكراته البالية تسهل بمقدمه محشوة بالنعوت المبالغ فيها .

* هكذا وردت العبارة في النص الانجلىزي ، سواء في ص : ١٦٨ او في الملحق ص : ٤١٧ ، ولم نجد ما يقابلها في الاصل العربي الا قول الحسين : « وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا ـ في تلك الحدود ـ مناطق يقطنها شعب اجنبي ، بل هي عبارة عن كلمات والقاب يطلقونها علمها » (الوثائق الرئيسه ص : ١٢) .

وواضح من هذا ان ثمه خلافا كبيرا بين ما فهمه انطونيوس وترجمه ، وبين ما ذكره الحسين في رسالته .

ـ المترجم ـ

وفي هذه الاثناء كانت قد بلغته هو ومستشاريه معلومات أعانت على زيادة معرفتهم بالقضايا العربية ، وعلى تعديل موقفهم من مقترحات الحسين . فقد وصل القاهرة في اوائل تشرين الاول (اكتوبر) ضابط عربي شاب في الجيش التركي أسر في الحرب التي دارت في ميـــدان غاليبولي . وكان قد تعمد اجتياز الخطوط البريطانية وسلم نفسه ذاكراً ان لديه معلومات هامة يريد ان يدلي بهـــا ، وطلب ان ينقل الى القاهرة . ثم ظهر انه عضو في جمعية « العهد » وأحد العاملين المتحمسين لقضية التحرر العربي . وهو عراقي مسلم اسمه محمد شريف الفاروقي .

كان للمعلومات التي ذكرها الفاروقي اثر حاسم في موقف مكماهون ومستشاريه . ولم يكن الفاروقي ، في الحقيقة ، مبعوثاً مفوضاً من قبل جمعية « العهد » ولكنه كان على معرفة وثيقة بهذه الجمعية وبالهيئة الاخرى التي تعتبر الشقيقة المدنية لها ، وهي « العربية الفتاة » ، مطلعاً على تنظيماتها واهدافها ، فأفاض في الحديث عن المشاعر التي تجيش في نفوس الاعضاء . وقد نخلت اقواله ومحصت بدقة ، ولما ظهر صدقه لم يكتفوا بـــأن يعتبروه مبلغاً سليم النية مخلصاً فيما نقل من انباء — ولا ريب في انه كان كذلك — بل اعتبروه ايضاً ناطقاً بلسان « العهد » و « الفتاة » ومفوضاً عنهما ، وقد ظهر فيما بعد انه لم يكن كذلك . وأياً كان الامر فقد كانت معلوماته جميعها صحيحة ، وقد ذكر للسلطات شيئاً كثيراً لم يكونوا يعرفونه من قبل عن حقيقة الشعور السائد بين القوميين العرب في الشام والعراق ، حتى اذا ما وردت بعد ذلك مذكرة الشريف الثانية كان مكماهون ومستشاروه قد عرفوا من الامور الاساسية ما اتاح لهم ان يقرأوها بفهم أكمل من ذي قبل .

وتعتبر مذكرة مكماهون التي اجاب بها الحسين اكثر اهمية من جميع المكاتبات الاخرى ، ولعلها تعتبر اهم وثيقة دولية في تاريـــخ حركة

العرب القومية . فقد اشتملت على العهود التي دعت العرب الى اعلان اشتراكهم في الحرب الى جانب الحلفاء . وقد اصبحت خلال السنوات التي أعقبت الحرب عاملاً بارزاً من عوامل الخلاف ومثاراً للنزاع ، ولا تزال الى يومنا هذا تعتبر الوثيقة الرئيسية التي يستدل بها العرب في توجيه الاتهام لبريطانية العظمى بأنها نقضت عهودها معهم .

والمذكرة مؤرخة في الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ . وقد استهلها مكماهون بأن أكد للشريف ان ما ابداه في الرسالة السابقة من عدم الرغبة في بحث قضية الحدود انما مرده الوحيد الى اعتقاده حينئذ « ان الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية » ولكن ما دام الشريف يعتبر هذه القضية مسألة اساسية تستدعي السرعة في البت ، فان الحكومة البريطانية قد فوضت مكماهون ان يقدم للعرب باسمها تعهدات معينة . ثم مضى يوضح هذه التعهدات ، وخلاصتها ان بريطانية العظمى تقطع على نفسها عهداً بأن تعترف باستقلال العرب في المنطقة التي حددها الشريف باستثناء اجزاء معينة من آسية الصغرى والشام ، وان تدعم هذا الاستقلال ، وقد نص على تحفظات خاصة ببعض المقاطعات في تلك المنطقة ، وهي المقاطعات التي كانت بريطانية العظمى مرتبطة فيها بمعاهدات مع بعض الامراء العرب .

وهذه الفقرة من مذكرة مكماهون التي تورد هذا التعهد وما يرتبط به من تحفظات ، هي ما يلي :

« ان ولايتي مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن ان يقال انها عربية محضة ، وعليه يجب ان تستثنى من الحدود مع هذا التعديل ، وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود .

وأمّا من خصوص الاقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانية العظمى مطلقة التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسة ، فاني مفوض من قبل حكومة بريطانية العظمى ان أقــدم المواثيق الآتية ، واجيب على كتابكم بما يأتي :

انه مع مراعاة التعديلات المذكورة اعلاه فبريطانية العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة » .

وتتضمن المذكرة اربعة مواثيق اخرى تتناول مسائل غــير مسألة الحدود . تتعهد بريطانية العظمى في الأول بأن تحمي الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي . وتعرب في الثاني عن استعدادها لمساعدة العرب في اقامة نظام حكم مناسب في المنطقة العربية التي ستستقل . وتشترط في الثالث ان يستعين العرب ببريطانية وحدها في الحصول على من يحتاجون اليهم من المستشارين والموظفين الاجانب . وبما ان لبريطانية مصالح خاصة في العراق ، فقد اشترطت في الرابع ان يكون لولايتي البصرة وبغداد نظام اداري خاص ، على اساس لم توضحه المذكرة ، وذلك لكي يكفل تحقيق التعاون الانجليزي العربـي في ذلك الجزء من الدولة العربية المستقلة .

وفي الفقرات الختامية يعرب مكماهون عن امله في ان ينتج عن هذا التحالف طرد الاتراك من البلاد العربية وتحرير الشعوب العربية ، ولم يشر أية اشارة الى مسألة الخلافة بعد ان نحاها الحسين بحزم . ولكن بالرغم من ملاحظة الشريف الحــادة عن موضوع الالقاب وعبارات المجاملة فقد استمر مكماهون في اغداقها عليه اغداقاً متدفقاً لا يطاق .

٥

ان الجواب الذي بعث به الشريف رداً على مذكرة مكماهون الثانية،

يظهره سياسياً بعيد النظر من ارفع طراز ، وكاتباً للرسائل على اسوأ مثال . فقد وردت فقرتان او ثلاث في جوابه مستعصية على الترجمة ، وكانت احدى هذه الفقرات – وهي الخاصة بالولايات العراقية – تتألف من جمل واشباه جمل طويلة شائكة ، ومن عبارات يفصل بين طرفيها فواصل متعددة ، وتتكاثر هذه الجمل والعبارات وتنتشر كانتشار نبات الصبر (التين الشوكي) ، ولا بد من ان تقرأ مرات متعاقبة ، وان يكون القارىء مؤمناً باخلاص الكاتب ، حتى يمكن له ان يستبين معناها. فاذا ما فعل القارىء ذلك فان الجملة يزول عنها ما احاط بها من اهوال ويكتسب معناها ، بذلك التعقيد في الصياغة ، مزيداً من القوة والعمق .

وتاريخ هذه المذكرة (الثالثة) التي بعث بها الشريف هو الخامس من شهر تشرين الثاني (نوفبر) وقد استهلها الحسين ببيان موقفه من قضية الحدود . ووافق دون تلكؤ على استثناء ولاية أضنه (التي تضم ميناء مرسين) من المنطقة العربية المستقلة ، ولكنه رفض ان يوافق على استثناء تلك الاجزاءِ من بلاد الشام الواقعـــة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب ؛ على اساس انها تختلف عن مرسين وأضنه في انها مناطق عربية محضة ، كما انه لم يوافق على استثناء الاسكندرونة . ثم وافق على التحفظات الخاصة بالامراء العرب الذين تربطهم ببريطانية العظمى علاقات تحالف ، ولكن هذه الموافقة وردت في سياق عبارات جعلت من الممكن ان تفهم على انها تقتصر على الامراء المجاورين للبصرة . اما ما طلبه مكماهون مـــن التعاون العربي الانجليزي المشترك في الولايات العراقية ، فان الحسين لم يقبله جملة ، ولكنه وافق على ان تحتل القوات البريطانية – لفترة ما بعد الحرب – تلك الاجزاء من العراق التي كانت آنئذ،تشرين الثاني (نوفبر) ١٩١٥،في قبضة بريطانية ، على ان يكون مفهوماً ان ذلك الاحتلال موقت ، وانه

لا يعني سلخ أية بقعة عربية ، وان تدفع بريطانية مقابل ذلك معونة مالية يتفق عليها للدولة العربية التي ستستقل مساهمة منها في موارد ميزانيتها وذلك خلال سنوات نشأتها .

ظل الخلاف الرئيسي اذن قائماً في مسألة الحدود ويدور حول المناطق الساحلية لسورية الشمالية . وحينما وافق الشريف على استثناء ولاية أضنه تنازل عن اكثر مما طلب مكماهون من جانب وعن اقل منه من جانب آخر . فقد كان طلب مكماهون هو استثناء منطقتي مرسين والاسكندرونة، وقد وافق الشريف على استثناء مرسين وتبرع باستثناء جميع ولاية أضنه، ولكنه لم يوافق على استثناء الاسكندرونة التي تقع ضمن ولاية حلب ، وكان تمسكه بالاسكندرونة لا يقل عن تمسكه بأي جزء آخر في بلاد الشام لو طلب مكماهون سلخه .

ثم يثير الشريف امراً آخر هو تقديم ضمان بعدم عقد صلح منفرد ، ويطلب تعهداً ايجابياً بألا يترك العرب وحدهم – مهما تكن الاحوال – في مواجهة جيوش المانية وتركية معــاً . ويشير كذلك الى احتمال ان يُعتبَر العرب في مؤتمر الصلح محاربين « غير رسميين » ، ويطالب بريطانية العظمى بتقديم ضمان في صورة تعهد بأن تقف بريطانية في صف العرب وتدافع عن قضيتهم في مفاوضات الصلح . وقد أبدى عدم رغبته في اعلان الثورة فوراً قبل اتمام الاستعداد لها ، ومهما يكن فقد اكد وجوب حصوله على هذه الضمانات قبل ان يخطو أية خطوة .

٦

استغرق الرد البريطاني على مذكرة الشريف الثالثة زمناً حتى وصل، وكان مؤرخــاً في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ، ويتأرجح اسلوبه – على الأقل كما يبدو في النص العربي الذي نشر به – بين الغموض والدقة .

وقد اعرب مكماهون في هذا الرد عن ارتياحه لاستثناء ولاية أضنه ، ولكنه ظل مصرّاً على تحفظه في موضوع المنـــاطق الساحلية الواقعة في سورية الشمالية ، ولم تقم حجته هـــذه المرة على ان تلك المناطق ليست عربية محضة ، وانما قامت على امر واحد فحسب وهو وجود مصالح فرنسية فيها . كما ابلغ الشريف ان موافقته على المعاهدات القائمة مع رؤساء العرب انما تشمل شبه الجزيرة العربية كما تشمل العراق . ولكنه حينما يأتي لبحث اقتراح الحسين المحدد عن المشاركة العربية الانجليزية في شؤون الادارة المقبلة في بعض اجزاء العراق — يتحول الى الغموض والابهام ويخبر الحسين ، بعبارات فضفاضة مقصودة ، ان الوسيلة المناسبة لحماية المصالح البريطانية قد توجب اتخاذ تدابير مثل تلك التي أجملها ، ولكن الامر يتطلب بحثاً اوفى مما يتسع له الوقت حينئذ .

واعرب مكماهون في مذكرته عن استصوابه لحذر الحسين ، ولكنه يحثه على بذل اقصى جهده لمنع العرب من تقديم العون الى العدو ، وذلك الى ان يحين الوقت المناسب لاعلان الثورة . وتختم المذكرة بتعهد بريطانية انها لن تبرم صلحاً على اسس لا تكفل « حرية الشعوب العربية » .

٧

رد الشريف على مذكرة مكماهون بمذكرته الرابعة المؤرخـــة اول كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ . وكان قد تسلم قبل كتابة الرد تقريراً طويلاً من الفاروقي عن المباحثات التي اجراها مع مكماهون ومستشاريه في القاهرة ، ولذلك بدأ الحسين مذكرته بالاعراب عن ارتياحه لما نمي اليه من ان شهادة ذلك الضابط جاءت مؤيدة لكل ما كان قد ذكره .

وفسر الحسين موافقة مكماهون المبهمة — فيما يتصل بالنظام المقبل

للادارة في العراق – تفسيراً ينطوي على الثقة ، واعتبر تلك الموافقة قبولاً صريحاً لمقترحاته ، وصرح انه مستعد لان يترك تقدير التعويض المالي الى « مدارك حكمة بريطانية العظمى ونصفتها » .

ثم يعود الى موضوع المناطق الساحلية من سورية الشمالية ، ومن الواضح انه هنا يجد نفسه في معضلة ، فهو حريص ، من جانب ، على ان ينتهي من مفاوضات لا تزال مستمرة في الواقع منذ شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ وذلك لكي يشرع في الاعداد الفعلي للثورة ، وهو من جانب آخر ليس مطلق الحرية في الوصول الى حل وسط – بله الى التسليم – في موضوع اقتطاع أي جزء من بلاد الشام من المنطقة العربية المستقلة . ولم يكن سبيله إلى الخروج من هذه المعضلة في قبول حل وسط ولا في الموافقة الكاملة ، وانما في تأجيل الموضوع . فأخبر مكماهون انه حريص على اجتناب ما يعكر صفو العلاقات بين فرنسة وبريطانية العظمى ، ولذلك فانه سيطوي هذا الموضوع اثناء استمرار الحرب . ولكنه ابلغه في اوضح عبارة يفهمها ان التنازل لفرنسة او لغيرها من الدول الكبرى عن أي « شبر من اراضي تلك الجهات » هو امر مرفوض ولا يقبل المناقشة ، وانه سيغتنم اول فرصة بعد ان تضع الحرب اوزارها ليحقق مطلب العرب في بلاد الشام جميعها .

ولم يطلب جواباً عن أية نقطة من النقاط التي اوردها ولكنه كان يكتب كأنه يعتبر الصفقة قد عقدت ويختم المذكرة بتكرار عزمه على اعلان الثورة في اقرب فرصة ، وبأنه سيبلغ مكماهون في الوقت المناسب عما يحتاج اليه من الاسلحة والذخائر والمؤن .

قد يبدو استعداد الحسين لتأجيل موضوع المناطق الساحلية من سورية الشمالية مناقضاً لاصراره السابق على وجوب نيل موافقة عاجلة كاملة على شروطه مقدماً . وتفسير ذلك مرده إلى سبب نفساني يتمثل في ثقته العميقة باخلاص بريطانية ونزاهتها ، وكانت تلك الثقة سائدة حينئذ في

العالم العربي . فقد كان الشريف خلال السنوات التي قضاهـا في القسطنطينية يرقب حركات « رقعة الشطرنج » الدبلوماسي بعين محايدة ناقدة ، ومال الى ممثلي بريطانية العظمى لانهم كانوا اكثر « اللاعبين » نزاهة . ونشأت بينه وبين السفارة البريطانية صلات ودية بالقدر الذي يسمح به الحذر والفطنة ، فلقي من الصداقة والصفاء الذي لا يشوبه مكر ، ما يبدو للمرء الذي يعيش في جو الخداع الحميدي انه شيء خارق للطبيعة . كما علم كذلك ان تعيينه اميراً لمكة سنة ١٩٠٨ كان قد لقي معاضدة بريطانية سراً .

هذا المزيج من الاعجاب والاعتراف بالفضل غرس في نفسه تقديراً عميقاً لبعض الافراد الانجليز وايماناً راسخاً بالمثل الانجليزية في المعاملة الشريفة . ولما كان قد ضمن من مكماهون تعهدات ايجابية عن المسألة الاساسية الخاصة بالمنطقة العربية المستقلة فقد مال الى ترك التحديدات الثانوية الى ان يحين وقتها ، وقد بلغ ايمانه بقوة حق العرب في بلاد الشام كلها وثقته في روح الانصاف الذي ستعالج به بريطانية العظمى هذا الموضوع في الوقت المناسب – مبلغاً جعله يترك ، وهو مطمئن ، مسألة مصالح فرنسة في المناطق الساحلية ومسألة التدابير التي ستتخذ لنظام الادارة في العراق ويؤجل تسويتها الى المستقبل .

٨

اجاب السير هنري مكماهون بمذكرة مؤرخة في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ، وهي في جوهرها تكرار لما ورد في المذكرات السابقة . واثنى فيها على الشريف لمـــا أبداه من رغبة في تجنب كل ما يعكر العلاقات بين بريطانية العظمى وفرنسة ، ولكنه اشار الى ان من العبث توقع فتور في التضامن الانجليزي الفرنسي بعد نهاية الحرب ، ويبدو ان هذه الاشارة قد قصد منها في الحقيقة ان تقرر انه – اذا ما تمسكت

فرنسة بمطالبها الخاصة بتلك الاجزاء من بلاد الشام التي استثنيت من المنطقة العربية وفقاً لما ورد في المذكرة المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ – فان بريطانية العظمى لن تستطيع تحقيق اي وعد يرمي الى ادخال تلك الاجزاء ضمن المنطقة العربية التي تعهدت بالاعتراف باستقلالها وبحماية هذا الاستقلال .

٩

بهذه المذكرة انتهت المفاوضات واعتبر الفريقان ان الصفقة قد تمت . ولقد تبودلت بعد ذلك مذكرات الشريف حسين والسير هنري مكماهون ، ولكنها كانت تدور حول الاعـــداد للثورة ، ولم تضف شيئاً سوى تصريحات متكررة عن اخلاص الطرفين لشروط الاتفاق الانجليزي العربي. وهذه المذكرات الثماني التي لخصناها في هذا الفصل هي المذكرات الوحيدة التي توضح نصوص الاتفاق ، ويتألف منهـــا جميع ما يعرف باسم مراسلات مكماهون .

ومن الممكن تلخيص شروط الاتفاق ، في مواده الاساسية ، تلخيصاً موجزاً جداً . فالالتزامات التي تعهد بها الطرفان في الاعمال الحربية لم ينص عليها بصراحة اذ انه تم بحثها شفهيّـاً مع رسول الشريف . ولكن كان من المفهوم طوال الوقت – بحيث لم يشك الشريف في وضوحه – ان عليه ان يستخدم جميع قوته ونفوذه ، مع حشد جميع الموارد المادية التي يستطيعها ، لينجز مهمة دحر تركية . كما كان من المفهوم كذلك ان على بريطانية العظمى ان تساعده باكمال النقص في موارده المادية : في السلاح والعتاد والمال . اما من الناحية السياسية فقد تعهد الشريف باعلان الثورة العربية وبالتنديد بالاتراك علناً ووصفهم بأنهم اعـــداء الاسلام ، كما تعهدت بريطانية العظمى صراحـــة بتعهدين واضحين : الاول الاعتراف بالخلافة العربية في حالة قيامها ، والثاني الاعتراف

باستقلال العرب ضمن منطقة معينة وحماية هذا الاستقلال .

اما مدى الرقعة العربية التي تدخل ضمن تلك المنطقة فقد اصبح موضع جدل خلال السنوات التي أعقبت الحرب ، وازدادت حدة الجدل فيما يتصل بذلك الجزء من بلاد الشام الذي يعرف الآن بفلسطين والذي وضع تحت الانتداب . فيرى العرب ان فلسطين داخلة حتماً ضمن المنطقة المستقلة التي وعدوا بها . اما الحكومة البريطانية فترى غير ذلك وما زال كل رأي من هذين الرأيين المتضادين يتصدى للرأي الآخر ويواجهه حتى يومنا هـــذا . والوسيلة الوحيدة لاصدار حكم فاصل بينهما هي دراسة مراسلات مكماهون وفحصها بعد ان اصبحت الآن ، ولأول مرة ، ميسرة بكاملها باللغة الانجليزية .

١٠

وأول ما تجب ملاحظته ان السير هنري مكماهون لم يحدد بألفاظه قط منطقة الدول العربية المستقلة ، ولكن ما فعله هو انه كان يقبل — بصورة مجملة عامة — الحدود التي اقترحها الشريف حسين ، باستثناء بعض التحفظات . وينتج عن هذا اذن انه — ما لم ينص نصاً صريحاً في تلك التحفظات على فلسطين او اي جزء آخر من المنطقة التي حددها الشريف — فانه لا بد من اعتبارها جميعها جزءاً من المنطقة التي وافقت بريطانية العظمى على ان تكون دولة عربية مستقلة .

واول امر يلفت انتباه المرء انه لا يوجد في اي نص من النصوص التي بـــين ايدينا ادنى ذكر لفلسطين . فقد ميزت من المنطقة العربية اجزاء معينة — وان كانت غير محددة تحديداً دقيقاً — وافردت وحدها لأنها تقتضي بحثاً خاصاً ، ولكن لا يوجد في اي موضع ذكر لذلك الجزء من بلاد الشام الذي كان يعرف ، في الاصلاح الاداري العثماني ، بسنجق القدس . لقد تألفت فلسطين بحدودها الحالية من سنجق القدس

السابق وأضيف اليه الجزء الملاصق له من ولاية بيروت السابقة . ولما
كان السير هنري مكماهون لم يشر الى سنجق القدس ولو اشارة غير
صريحة – وهو الحريص في جميع مراسلاته على ن يعدد بالاسم كل
مقاطعة من المقاطعات التي تشملها تحفظاته – فان ذلك كفيل بالقضاء على
الاسطورة التي تزعم ان بلاد فلسطين الحالية كانت قد استثنيت على
وجه التخصيص من المنطقة التي تعهدت بريطانية العظمى بالاعتراف بها
دولة عربية مستقلة وبحماية استقلالها .

وحجة الحكومة البريطانية هي ان فلسطين قد استثنيت استثناء ضمنياً،
حينما ابلغ السير هنري مكماهون الشريف ان « الاجزاء من بلاد الشام
الواقعة في الجهة الغربية لمناطق دمشق الشام وحمص وحماة وحلب »
يجب ان تستثنى من منطقة الدولة العربية المستقلة . وقد تبنى هذه الحجة
علناً المستر ونستون تشرشل في سنة ١٩٢٢ ، حينما تحدث بوصفه وزيراً
مسؤولاً من وزراء التاج فحاول مناقشة كلمة « مناطق » (districts)
الواردة في تلك العبارة ، وذهب الى وجوب فهمها على انها مرادفة
لكلمة « ولايات » ، ولما كانت « ولاية دمشق » تضم جزءاً من
بلاد الشام – يعرف الآن باسم شرق الاردن ويقع الى الشرق من نهر
الاردن – فانه ينتج عن ذلك ان الجزء الآخر من بلاد الشام الذي
يعرف الآن باسم فلسطين والذي يقع الى الغرب من النهر ، كان جزءاً
من المنطقة التي شملها تحفظ السير هنري مكماهون في عبارته السابقة .

ان تمحيص النص يثبت ان حجة الحكومة البريطانية حجة منهارة .
واول دليل على ذلك ان كلمة « مناطق » في عبارة السير هنري
مكماهون لا يمكن ان يقصد منها ان تكون مرادفة لكلمة « ولايات »
لأنه لم يكن ثمة شيء اسمه « ولاية دمشق » ، و « ولاية حمص » ،
و « ولاية حماة » . بل كانت هناك ولاية واحدة هي « ولاية سورية »
وعاصمتها دمشق ، وتقسيمان اداريان اصغر من الولاية ، كانت حمص

وحماة المدينتين الرئيسيتين فيها . ولا تدل عبارة السير هنري مكماهون على اي معنى الا اذا فهمنا ان كلمة « مناطق » تعني « مناطق » بالمعنى الذي يدل عليه الاستعمال المألوف للكلمة ، اي : البلاد المجاورة لهذه المدن الاربع ، والا اذا فهمنا كذلك ان تحفظه انما يقصد منه ذلك الجزء من بلاد الشام – الذي يمتد بصورة تقديرية من صيدا الى الاسكندرونة – والذي يقع الى الغرب من الخط الممتد بين هذه المدن الاربع والبلاد المتصلة بها اتصالاً مباشراً .

وسنضرب مثلين مشابهين لنوضح سخف المحاولات التي تبذل لتفسير تلك العبارة تفسيراً مخالفاً للذي ذكرناه . فلو ذكرت العبارة : مناطق لنكولن ، وغينزبورو ، ودونكاستر ، ويورك ، فلن يفسر احد كلمة « مناطق » (districts) بمعنى « مقاطعات » (counties) ، ولن يذهب احد الى ان البلاد التي تدل عليها العبارة تشمل جميع مقاطعتي لنكولنشاير ويوركشاير . او لو افترضنا ان العبارة ذكرت : مناطق نيويورك ، ونيوآرك ، ونيوبرنزويك ، وتريتتون ، فهل يفهم احد ان كلمة « مناطق » (districts)مرادفة لكلمة «ولايات» (states) وان العبارة تشمل جميع ولايتي نيوريوك ونيوجرسي ؟ ومع ذلك فهذا هو بعينه ما حاولت الحكومة البريطانية ان تدعيه في محاولتها غير المقنعة لتجد عذراً لاستثناء فلسطين من رقعة الدولة العربية المستقلة [1] .

ودليل آخر وهو ان السير هنري مكماهون يشير في مذكرته الثالثة المؤرخة ١٣ كانون الاول (ديسمبر) الى المناطق التي اراد استثناءها على انها واقعة في « ولايتي حلب وبيروت » ، ولو قصد فلسطين

---

١ – أورد الشريف حسين والسير هنري مكماهون كلاهما – في جميع المراسلات – كلمة « ولايه » بمعناها العام الذى يدل على «المنطقه» او « المقاطعة » ، كما اوردها ايضا بمعناها الاصطلاحي الذي يدل على الوحدة الاداريه التركية • وتجد في هوامش الوثائق المنشورة في الملحق (أ) امثله على ايراد الكلمة هذا النوع من الايراد عير الدقيق •

لأضاف يقيناً « وسنجق القدس » . واغفاله هذه الاضافة يؤكـد ما استنتجناه من ان الاجزاء الوحيدة من بلاد الشام التي طلب حينئذ استثناؤها لمصلحة فرنسا انما كانت المناطق الساحلية من سورية الشمالية .

واخيراً ، فان السير هنري مكماهون ، حينما قدم التعهد المضمن في مذكرته الثانية ، ذكر ان بريطانية العظمى تعترف بقيام دولة عربية مستقلة في جميع المناطق الواقعة داخل الحدود التي اقترحها شريف مكة « حيث بريطانية العظمى مطلقة التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسة » . في تلك المذكرة وفي مذكرته التالية المؤرخة ١٣ كانون الاول (ديسمبر) يتذرع مكماهون في استثنائه مناطق معينة من بلاد الشام بحجة تقدير بريطانية العظمى للمصالح الفرنسية . فلو ان بريطانية العظمى ، نتيجة لذلك ، كانت قد التزمت باستثناء اي جزء من بلاد الشام لمصلحة فرنسة ، ثم رأت بعد نهاية الحرب انها مطلقة التصرف في ذلك الجزء ، فان هذا الاستثناء حينئذ ينهار اساسه الذي قام عليه ، ويفقد كل قوته التي كانت له في البداية ، ويستتبع هذا ان ذلك الجزء من بلاد الشام الذي لم يعد مخصصاً ليكون ضمن دائرة المصالح الفرنسية ، كما اصبح الحال اخيراً في فلسطين ، يجب بالضرورة — نتيجة لعدم وجود اتفاق صريح ينص على غير ذلك — ان يظل في نطاق الرقعة العربية المستقلة التي اقترحها الشريف ووافقت عليها بريطانية العظمى .

١١

وما زال الجدل دائراً ، وما زال رجال ذوو مكانة في الاوساط الحكومية وخارجها يجاهرون بأنهم يعتقدون — وبعضهم مخلص في اعتقاده — ان السير هنري مكماهون قد استثنى فلسطين حقيقة من رقعة الدولة العربية المستقلة .

ولا يستطيع اي امرىء اطلع على نصوص مراسلات مكماهون ان يعتقد هذا الاعتقاد عن اقتنـاع بصوابه . والسبب الوحيد في استمرار هذا الجدل الواهي — دون مبالاة بما يترتب عليه — انما مرجعه الى ان النصوص الكاملة لهذه المراسلات لم تتوفر حتى الآن بأية لغة ما عدا اللغة العربية . ومع انه قـد طلب بالحاح عدة مرات من الحكومات البريطانية المتعاقبة انْ تنشر نسخة رسمية معتمدة للنصوص الكاملة باللغة الانجليزية ، غير ان تلك الحكومات رفضت هذ الطلب بحجة ان نشر هذه المراسلات يضر بالمصلحة العامة . ولقد كان من الجائز ان يكون لهذه الحجة سند لو ان المذكرات المتبادلة بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون لا يمكن الحصول عليها بأية صورة ، او لو أن ما تضمنته ظل سراً مطوياً في الواقع مثلما ظل سراً رسمياً .

اما الحقيقة الواقعة فهي ان مواد مراسلات مكماهون معروفة في جميع ارجاء العالم العربي . وكان الشريف حسين نفسه ينشر رسمياً في مكة من حين لآخر اجزاء منها ، كما نشرت عدة مذكرات منهـا بنصها الحرفي الكامل في الكتب والصحف العربية . والمجال مفتوح امام اي انسان يعرف اللغة العربية ويستطيع الوصول الى ملفات الصحف العربية التي توقفت عن الصدور ، لكي يستخرج جميـع مذكرات مكماهون ويجمعها ، وهذا مـا فعلته خلال اربع سنوات قضيتها في الرحلة والبحث ، متنقلاً بين القاهرة وبغداد وبين حلب وجدة .

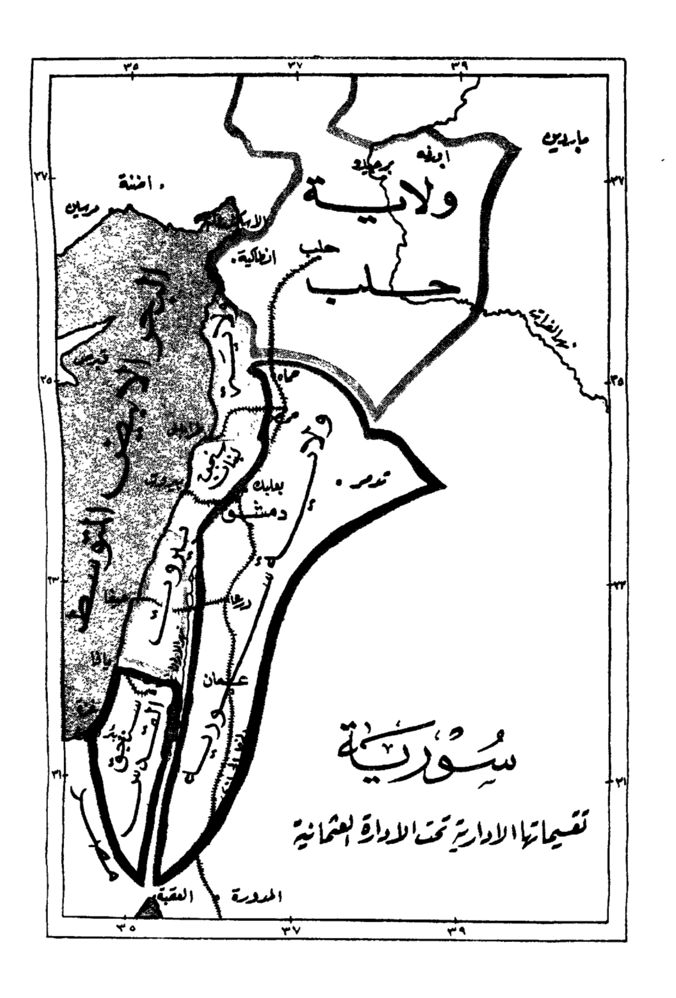
لا يزال سراً مبهماً ذلك الذي قصدته الحكومة البريطانية حينما تذرعت بالمصلحة العامة في امتناعها عن نشر مراسلات مكماهون . ولقد وجدت نفسي ملزماً ، في اثناء ابحاثي ، ان افحص هذا الجانب من المسألة قبل ان اتحمل ما يفرضه عليّ واجبي — بوصفي مؤرخاً — من أعباء . غير انه — بعد ان قابلت ما امكن جمعه من نسخ مذكرات مكماهون بعضها ببعض وفحصتها ، وأقمت بذلك نصها الكامل الصحيح—

اتضح انه لم يكن في تلك المراسلات شيء لا يعرفه الرأي العام في جميع انحاء العالم العربي . وكذلك تبين ان تفسير الحكومة البريطانية لمعنى مواثيقها وللغاية منها كان تفسيراً لا يتلاءم مع حرفية النصوص ولا مع روحها . وبدا لي ان نشر النصوص العربية امر يفرضه الواجب العام ، للسبب التالي ان لم يكن لغيره من الاسباب ، وهو ان الخلاف بين الحكومة البريطانية والعرب في تفسير هذه المواثيق هو العامل الاساسي في حدوث مــا كان يمكن تجنبه من خسائر وآلام وسفك للدماء ، وسيظل عاملاً يسبب الخسائر والآلام وسفك الدماء في المستقبل مادام سوء التفاهم الحالي قائماً . ان نشر هذه النصوص ، فضلاً عن انه بعيد كل البعد عن مجافاة المصلحة العامة ، فهو امر تتطلبه حثيثاً مصالح جميع الفقراء الذين يعنيهم الموضوع ، ولقد كان عمل اللجنة الملكية الخاصة بفلسطين قدوة تحتذى حينما نشرت النص الكامل لمذكرة السير هنري مكماهون المؤرخة ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ في الفصل الثاني من تقريرها [١].

وليس هذا مجرد رأي فردي ، فطالما ألح رجال مشهورون مسؤولون في بريطانية العظمى وفي العــالم العربي مطالبين باذاعة هذه النصوص كاملة . وتزدحم أعمدة الصحف البريطانية خلال السنوات الثمانية عشرة الماضية بسيل من الرسائل حول هذا الموضوع بعث بها طلبة ومؤرخون وسياسيون . وقــد نشرت المحاضر الرسمية لمداولات مجلس اللوردات ومجلس العموم وهي تتضمن الخطب التي ألقاها بعض الاعضاء البارزين يطالبون فيها ، تحقيقاً لاسمى الدوافع الخلقية والسياسية ، بوجوب نشر هذه النصوص في صورة رسمية . وكان بعض هؤلاء الخطباء قد تقلدوا مناصب وزارية في وزارة قــامت اثناء الحرب ، ودفعهم الى هــذا

---

١ — Cmd. 5479 , 1937



سورية
تقسيماتها الادارية تحت الادارة العثمانية
ولاية
حلب
دمشق
عمان
حماه
تدمر
بعلبك
انطاكية
اضنة
ماردين
اورفه
المدورة
العقبة

الطلب مـــا يتمتعون به من بصيرة نافذة . وكان احدهم هو المرحوم السير ادوارد غراي (الذي اصبح فيما بعد الفيكونت اوف فالودون) وربما كان لرأيه من القيمة اكبر مما لرأي غيره من رجال الحكم ، اذ كان هو الوزير المسؤول الذي صدرت مذكرات مكماهون بناء على تعلياته . فقد خطب في مجلس اللوردات في السابع والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٩٢٣ قائلاً :

« ان عدداً كبيراً من هذه المواثيق ، او بعضها على الاقل ، مما لم تعلنه الحكومة رسمياً اصبح معروفاً ذائعاً عن طرق اخرى ؛ ولست ادري هل ذاعت كلها او بعضها . ولكني اطالب الحكومة بإلحاح بأن تنشر رسمياً جميع المواثيق الخاصة بهذا الموضوع والتي التزمنا بها خلال الحرب، اذ ان تلك هي خير وسيلة لتبرئة شرفنا في هذه المسألة . واني واثق من اننا لا نستطيع انقاذ شرفنا باخفـــاء تعهداتنا والادعاء بعدم وجود تناقض اذ كان هناك تناقض حقاً . واني لواثق ايضاً من ان أشرف سبيل هو ان نكشف عن حقيقة هـــذه التعهدات وان نعترف صراحة بوجود التناقض اذا كان موجوداً ، فاذا ما اعترفنا بذلك وأنحنا الفرصة للناس لكي يحكموا حكماً دقيقاً على مبلغ التناقض ، فيجب حينئذ ان نفكر في أعدل السبل وأشرفها للخروج من المأزق الذي قد تكون هذه العهود أدخلتنا فيه » .

هذه هي كلمات السياسي نفسه الذي كان وزيراً للخارجية والذي يعتبر لذلك المسؤول عن المواثيق التي تضمنتها مراسلات مكماهون . وقد أعرب عن آراء مشابهة كل من المرحوم ايرل أوف أكسفورد والمستر لويد جورج في مداولات مجلس العموم التي دارت يـــوم ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٩٢٣ حينما تنافس هذان السياسيان المحنكان في الالحاح على رئيس الوزارة القائمة آنئذ بوجوب نشر تلك الوثائق . وكان بعض

الرجال المشهورين الذين يمثلون مختلف الاحزاب السياسية يؤيدون من حين لآخر آراء غراي وأسكويث ولويد جورج .

١٢

ان فكرة القيـــام بالبحث الضروري لتجميع نصوص مراسلات مكماهون هي فكرة اقترحها عليّ سنة ١٩٣١ المغفور له الملك حسين في عمان قبل وفاته بأشهر قليلة . وكان قد اصبح حينئذ ، بالقياس الى ما كان معروفاً في السابق من صمته ، كثير الكلام في الاعراب عن تلهفه إلى اعلان الحقيقة كاملة . ولقد أطلعني عـــلى المسودات الاصلية لمذكراته التي بعث بها إلى مكماهون وسمح لي بفحصها ونسخها ، وهو يرقب ما أفعل في صمت لا يخرج عنه الا ليجيب عن أسئلتي . ولن أنسى ابداً صورته وهو جالس هناك ، مستكيناً الى المرض ، في مقعد ذي مسندين أوسع جداً من بنيته النحيفة . وقد قلصه الفالج ، وابيض وجهه الوسيم من شحوب الموت ، وعيناه تومضان فجأة بعد ان كانتا غارقتين في فراغ الاستسلام فتتوهجان من أثر الانفعال الذي كان يحاول كبحه . وكان متيقظاً متنبها كأول عهدي به قبل سبع سنين حينما كان في ذروة نشاطه ، ولكن تفكيره هذه المرة كان يبدو أقل مرونة . وكان التأنق في التعبير من مميزات حديثه في السابق ولكنه الآن اصبح يغالي فيه جدا حتى طغى عليه ، فكأن العادة قد غلبت حكم التفكير . وكان من صفاته في السابق ان يلتمس الأعذار لنفسه فتحكّمت فيه هذه الصفة الآن وصارت هوساً . وحينما كان يلح عليّ لأكتب قصة الثورة العربية كان يشير إلى الاوراق الموضوعة أمـــامي ويقول : « هاهي مستندات ثورتنـــا وتلك هي بواعثي ، أجل اني اقول : بواعثي » . ولعله كرر هذه العبارة بين ثماني مرات وعشر مرات خـــلال الساعة الاولى من اجتماعنا .

حدث هذا في ربيع سنة ١٩٣١ وكان الحسين قد قضى ست سنوات منفياً . كان قد فقد عرشه وأرغم على الخروج من دياره ، في احوال سيرد تفصيلها ، واصبح الآن شيخاً مسناً ، مريضاً ، لا يقلقه شيء الا لهفته على توضيح ظروفه . وفي هذه المرارة التي يتجرعها كان يعزو جميع مصائبه الى نقض العهود التي قطعها له السير هنري مكماهون ، وكان يشكو من ذلك ويراه السبب الوحيد لمحنته الحاضرة . وكان لا ينقطع عن ذكر كتشنر ، ولم يكن قد قابله قط ، ويترحّم عليه ، وتحدث عن لويد جورج بحدّة ، كأنما كان المستر لويد جورج هو بطل الشر في القصة ، ولم يقلل من حدة نقده انه صاغه بالاسلوب الحميدي المهذب الموشى بالزخارف المضحكة ، قال : « الانجليز يا ولدي قوم شرفاء ، في اقوالهم وفي افعالهم ، في السراء والضراء . أقول : شرفاء ، ما عدا صاحب السعادة الموقر الهام لويد جورج فهو اشبه بالبهلوان وبالثعلب . اقول : ثعلب ، حاشا مقامك !! رحم الله صاحب السعادة كتشنر !! » .

الفصل العاشر

الثورة

(حزيران «يونيه» ١٩١٦)

١

لقد اتفق ، من قبيل المصادفة ، ان نشبت الثورة العربية في اليوم نفسه الذي توفي فيه كتشنر ، وذلك يـوم الاثنين الخامس من شهر حزيران (يونية) سنة ١٩١٦ ، وبدأت في نطاق اضيق جداً مما رسم الشريف في البداية . فقد كانت خطته الاولى ان يثير الاضطرابات في وقت واحد في بلاد الشام والحجاز معاً ، وان يحدث ذلك في آن واحد مع نزول جيوش الحلفاء الى البر في موقع مـا قرب الاسكندرونة ، وبذلك يحصر الاتراك بين نارين ، ويشل حركة قواتهم بـين حلب ومكة ، ثم ينشر الثورة شرقاً ، ويسدد اليهم الضربات في العراق . غير انه اضطر الى التخلي عن هذه الخطة بسبب رفض الحلفاء لهـا ، واكتفى باعلان الثورة في الحجاز تمهيداً للهجوم على المواقع التركية في بلاد الشام .

٢

وصلت مذكرة السير هنري مكماهون الرابعة الى مكة في الثاني عشر من شهر شباط (فبراير) ، فشرع الشريف منذ وصولها في اتخاذ الاعدادات النهائية .

واشتدت الحاجة الى المبالغة في الحذر ، واقتضاه ذلك مزيداً من الدهاء والحيلة اكثر من ذي قبل . وكانت شكوك الاتراك تتزايد باضطراد ، وفضلاً عن ذلك فقد قوّى من عزائمهم انسحاب الحلفاء مـــن غاليبولي والامل في قرب استسلام البريطانيين في كوت العمارة ، فبعثوا من جديد خططهم القديمة التي ترمي الى فتح مصر ،وكانوا يشددون على الحسين لكي يحشد الجنود في الحجاز لهذا الغرض . فكان لا مفر امامه من ان يرسل فيصلاً مرة اخرى الى دمشق ، قبل نهاية السنة ، استجابة لطلبات جمال باشا الملحة . وكان همه هذه المرة ان يحول دون تقدم الاتراك بمطالب جديدة ، وان يواصل اعداداته امام ابصارهم ، على ألاّ يندفع في ذلك الى الحد الذي ينبههم ، فينتقمون منه باعتقال ابنه ، فيعرض بذلك نجاح الثورة في الشام إلى الخطر . واوفد ابنه الاكبر علياً إلى المدينة ليراقب الوالي التركي ، ويوجّه شيوخ القبائل المجاورة الذين كان لا مناص من اطلاعهم على السر . وبقي عبد الله ملازماً لوالده ليساعده على نسج خيوط المؤامرة التي كان لا بد من نسجها في مكة . اما ابنه الرابع الامير زيد الذي لم يكد بعد يبلغ مبلغ الرجال ، فقد ادخره ليكل اليه أي عمل طارىء .

ومع ذلك فقد برز في الموقف عامل كان يبدو من المحتمل ان يفسد خطط الشريف : سواء في ذلك توقعه لقيـــام الثورة في الشام ، او جهوده التي بذلها لتجنب الاصطدام مع الاتراك قبل الوقت المناسب . وذلك العامل سياسة جمال باشا الجديدة في بلاد الشام .

٣

صرف جمال باشا همه – كما رأينا – الى السعي لاكتساب اهل الشام ، ولا سيما المسلمين ، الى المشاركة مشاركة حماسية من جماع قلوبهم في الحرب التي اعلن انها حرب للدفاع عن الاسلام ، ولعله كان يؤمن بذلك . وكان اول عمل باشره حينما تسلم قيادة الجيش الرابع هو تنظيم الحملة على مصر ، ولما كانت الفرق التي تحت إمرته تتألف في اغلبها من العرب فقد رأى من الحكمة ان يتجنب اي عمل يكون سبباً في تذمرهم . وحينما وصل بـلاد الشام لم يكن يعرف الا القليل ، او لم يكن يعرف شيئاً ، عن وجود الجمعيات القومية السرية ، ولما اطلع على الوثائق التي عثر عليها في القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق عزم على التجاوز عنها ، وخاصة ان من بين المتهمين فيها رجالاً مسلمين ذوي مكانة بارزة . وكانت المحاكمة السياسية الوحيدة التي سمح بهـا هي محاكمة نخلة مطران باشا ، احد النصارى المشهورين ، وقد ثبتت عليه تهمة السعي للحصول على تأييد القنصل الفرنسي لمؤامرة ضم بعلبك إلى جبل لبنان ، فحكم عليه بالنفي مدى الحياة وعرض في شوارع دمشق ، ثم مات بعد ذلك وهو في طريقه إلى منفاه ، وليست الدولة بريئة من المساعدة على موته .

وحينما اخفقت الحملة على مصر – والسبب الرئيسي في اخفاقها يرجع إلى سوء تقدير جمال باشا – عاد من جهة سيناء وهو يشعر بالذلة في قرارة نفسه ، واصبح حادّ المزاج كما هي عادة اوساط الرجال حينما يصابون بالخيبة . فما كادت تعرض عليه اوراق تتضمن اتهـام رجل يدعى يوسف الحايك ، وهو قسيس ماروني من جبل لبنان ، بتبادل رسائل تنطوي على الخيانة مع المسيو ديشانل الـذي كان حينئذ رئيساً للبرلمان الفرنسي ، حتى وقع حكم الاعدام دون تردد . وقد شنق هذا

القسيس المنكود – الذي كان متحمساً في ميوله الفرنسية – امام الجمهور في مـــدينة دمشق في الثاني والعشرين من شهر آذار (مـــارس) سنة ١٩١٥ .

ثم توالت التقارير بالتدريج تتضمن سرداً للادلة التي تتزايد شيئاً فشيئاً على النشاط السري للجمعيات القومية : فالجيش مليء بالخلايا الثورية ، وانجلترة وفرنسة لهما عملاء في البلاد يحرضون على الثورة ، ومن المتوقع نزول قوات الحلفاء على شواطىء الشام ، وان بعض الضباط العرب قد تعهدوا بمساعدة الحلفاء حينما ينزلون هناك . ومن النادر ان تستطيع المخابرات العسكرية متابعة غوامض المؤامرات السياسية ، ولم تكن هيئة اركان الجيش الرابع مستثناة من هذه القاعدة : فبينما كانت تصغي بأذنيها الى الشائعات كان انفها عاجزاً عن ملاحقة رائحتها حتى مصدرها. وكانت الاخبار في جوهرها صحيحة ولكن لم يكن من الممكن اقتفاء اثرها للوصول الى احد من المتآمرين ، وقد اقلقت هذه الاخبار جمال باشا وبعثت في نفسه دواعي الاهتمام والرغبة في الانتقام ولكنه كان مضطرباً متحيراً . وصار مثل بوليفموس : يريد ان يضرب ولكن لا يدري على من يوقع ضربته . وفي حزيران (يونية) ١٩١٥ وهو في تلك الحالة طلب منه انور ان يبعث ببعض الفرق الى جبهة غاليبولي ، فأرسل الفرقة الخامسة والعشرين وجميع افرادها من العرب : وهي احد الاركان التي كانت تعتمد عليها منظمة «العهد» في خطتها للقيام بالثورة . وقد صار فيما بعد يقصي الكتائب العربية عن بلاد الشام كلما واتته الفرصة ويستبدل بها كتائب جنودها من الاتراك .

ثم اخذ يوجه همه الى المنظمات المدنية ، وقرر ان يحـــاكم المتهمين الذين ورد ذكرهم في الوثائق التي عثر عليها في القنصليتين الفرنسيتين . فألقي القبض على عدد كبير من الناس ، وقدموا الى محكمة عسكرية – اشتهرت بالشؤم – في عاليه بجبل لبنان ، فاستجوبوا ، وعذبوا ،

وحوكموا وصدر الحكم باعدام ثلاثة عشر منهم ، وبالحكم نفسه غيابياً على خمسة واربعين آخرين ممن كانوا خارج البلاد او كانوا قد فرّوا ، كما حكم على عدد غيرهم بالسجن مدداً متفاوتة وبالنفي – وكانوا جميعاً من الرجال البارزين ، وبعضهم من الشخصيات المشهورة في جميع انحاء العالم العربي .

وقد أرجىء تنفيذ الحكم في اثنين من الثلاثة عشر الذين حضروا المحاكمة واستمعوا الى الحكم الصادر باعدامهم ، اما الباقون فقد نفذ فيهم الحكم فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ . فنصبت احدى عشرة مشنقة في الميدان الرئيسي ببيروت ، ومن عجب انه سمي بميدان الحرية . وكان عشرة من هؤلاء الضحايا مسلمين ، اما الحادي عشر فكان نصرانياً . لقد جيء بهم من انحاء مختلفة من بلاد الشام : من بيروت وبعلبك وحماة ودمشق وجنين ، وكان اكثرهم في ميعة الشباب ، وقد احسنوا استقبال الموت ، ولقيت كلماتهم الاخيرة – التي صدرت عنهم قبل شنقهم – من تعظيم مواطنيهم الذين خيم عليهم الفزع ما جعلها بمثابة رسالة وطنية مثيرة للمشاعر . وكان محمد المحمصاني واحداً منهم ، وهو من المتخرجين النابهين في مدرسة الحقوق بباريس ، وأحد مؤسسي « الفتاة » ، ومع ما تعرض له من تعذيب وما وعدوه به من العفو اذا ما اعترف ، فانه مات دون ان ينطق بحرف عن وجود الجمعية .

اما الشخصان اللذان أرجىء تنفيذ الحكم فيهما فهما : حافظ بك السعيد (من يافا) والشيخ سعيد الكرمي (من طولكرم) ، ثم خفف الحكم عليهما الى سجن مؤبد بسبب كبر سنهما . وقد مات اولهما في سجنه . ونجا احد هؤلاء الرجال ، وهو حسن حماد (من نابلس) بمعجزة . وذلك انه لم يتسلم إشعار استدعائه الى المحكمة بسبب تأخر في الاجراءات ، فلم يحضر الجلسة بل ذهب وهو خالي البال ليصرف أمور عمله بوصفه

رئيساً لدائرة تسجيل الاراضي في بلدته . فحكم عليه غيابياً بالاعدام ، ولكن وصله في تلك الاثناء إشعار الاستدعاء فسافر للمثول امام المحكمة العسكرية في عاليه . وحينما وصل الى فندق البلدة قرأ بالمصادفة احدى الصحف التي نشرت خبر الحكم عليه . فتناول حقيبة ملابسه ، واستقل القطار الى دمشق واختفى فيها وأطلق لحيته ، وتزوج ابنة الرجل الذي اختبأ عنده ، وانجب منها طفلين ، وعاد سالماً الى نابلس بعد ان وضعت الحرب اوزارها .

وعلى هذه الصورة بدأ جمال باشا سياسته الغربية الجديدة ، وهي بداية معتدلة اذا قيست بما آلت اليه بعد ذلك .

٤

حين وصل فيصل دمشق في اوائل شهر كانون الثاني (يناير) ، التالي وجد ان الاحوال تغيّرت تغيّراً يدعو الى الحيرة . فقد جاء لغرض محدد وهو ايقاد نـــار الثورة بين صفوف الكتائب العربية في الجيش التركي وبين صفوف جماهير الشعب ، عند اول اشارة من والـــده . ورافقته حاشية من نحو اربعين رجلاً كلهم متحفز مصمّم ، وكثيرون منهم من اسرة الشريف ، وصحبوه ليكونوا حرسه الخاص ، وكانوا مثله يحملون ارواحهم على اكفهم . وعلّل فيصل لجمال باشا وجودهم معه بأنهم طليعة الجيش الذي طلب من الشريف ان يجمعه في الحجاز ، فقبل جمال هذه العلة على ظاهرها ورحب بهم . وقـــد أقيمت المآدب والاحتفالات ترحيباً بفيصل واحتفاء بوصول تلك الطليعة . ولكن حينما انتهت الاحتفالات واتيح لفيصل الوقت الكافي لينظر حولـــه ويقدّر حقيقة الموقف وجد نفسه محوطاً بأعجب الظروف .

وذلك ان آخر الفرق العربية المتبقية كان قد تم نقلها ، وبذلك نقل معها اكثر اصدقائه من اعضاء « العهد » ، وحلّ محلهـــا فرق مؤلفة

من الجنود الاتراك . كما كان قد نفي إلى اماكن نـائية في الاناضول مئات من الرجال البارزين من المدنيين . وكانت قد بدأت تلك المجاعة التي سقط ضحيتها بعد ذلك عدد هائل من الارواح . وانتشر العوز بين الناس بسبب ما يطلبه منهم الجيش لتزويده باحتياجاته ، وبسبب هبوط سيمة النقد ونقص الطعـام ، فاصبح الشغل الشاغل للسكان ان يقاوموا الجوع . وبالاضافة إلى هذه المخاوف العامة ، كان قد القي القبض على طائفة اخرى – اكثر عدداً مـن سابقتها – من وجهاء المسلمين والمسيحيين بتهمة الخيانة العظمى ، وكانوا ينتظرون محاكمتهم في عالية .

وكان من بينهم افراد من اشهر الرجال واوسعهم نفوذاً في بلاد الشام ، وقد دلّ اعتقالهم على ان جمالاً قد تخلى عن اسلوبه في الحلم السياسي . واستمرت المحاكمة عدة شهور ، وأديرت بقسوة متعمدة تتفق مع ما تخلّلها من إساءة وتعذيب بقصد التهديد . وتدخّل الشريف حسين فأرسل البرقيـات إلى جمال والى الصدر الاعظم والسلطان وألحّ فيها على وجوب حصر العقاب – إذا ما ثبتت التهمة على احد من المتهمين – في السجن المؤبد . واضاف قائلاً في غموض : والا فان الدماء سوف تستثير الدماء . واتصل فيصل بجمال شخصياً واستعطفه . ولكن شفاعاتهما لم تُجْدِ نفعاً .

وكان اول الضحايا جوزيف هاني من مشهوري النصارى في بيروت، وقد شنق امام الجمهور في الخامس من نيسان (ابريل) . وبعد شهر شنق امام الملأ كذلك واحـد وعشرون آخرون : سبعة في دمشق ، واربعة عشر في بيروت . وكان من بينهم عضو مجلس الاعيان عبد الحميد الزهراوي (من حمص) . وكان قد رأس المؤتمر العربي في باريس ، وثلاثة مبعوثين من ممثلي دمشق هم : شفيق المؤيد وشكري العسلي ورشدي الشمعة ، وكذلك سليم الجزائري وهو ضابط قدير شجاع

في الجيش التركي ، وسيف الدين الخطيب (من حيفا) وكان قاضياً ، والامير عارف الشهابي (من حاصبيا) وكان محامياً شاباً يبشر بمستقبل زاهر ، واحمد طبارة (من بيروت) وكان صاحب جريدة وكاتباً وأحد المندوبين في المؤتمر العربي في باريس ، وعلي عمر النشاشيبي (من القدس) ، ومحمد الشنطي (من يافا) ، وجورج حداد (من جبل لبنان) وكان هؤلاء الثلاثة من الشبان الذين يتمتعون بشهـــرة واسعة وبمحبة الناس لهم ، والأمير عمر الجزائـري (من دمشق) وهو من سلالة الامير عبد القادر الجزائري الشهير . وكان سبعـــة عشر رجلاً منهم مسلمين والباقون من النصارى .

ولم تعلن الأحكام قبل تنفيذ الشنق . بل دخـــل السجان ، في ليلة التنفيذ ، قاعة السجن في عاليه وقرأ اسماء واحد وعشرين من المتهمين، وأمرهم ان يرتدوا ملابسهم ويتبعوه . ونقل الذين تقرر اعدامهم في دمشق اليها بالقطار ، وحينما وصلوها سيقوا الى المرجة – وهو الميدان الرئيسي فيها – حيث نُصبت سبع مشانق . واقتيد الآخـــرون على مركبات الى بيروت وقد خمّنوا مصيرهم فأخذوا يقضون ساعات الظلام بانشاد الاهازيج عن حرية العرب ، وكان راكبو كل مركبة يجاوبون زملاءهم ، وحينما وافى الفجر كان الموكب قد وصل ميدان الحريـة فتوقف هناك . وفي الساعة السادسة من صبـاح اليوم السادس من شهر ايار (مايو) كانت المجزرة قد انتهت ، ولم تمض ساعتان بعد ذلك حتى كان عدد خاص من « الشرق » [1] يوزع مجاناً ، وقد اشتمل على اعلان التهم والمحاكمات والأحكام والتنفيد جملة واحدة . ووصفت التهم بأنها خيانة واشتراك في نشاط يرمي الى فصل سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية ووضعها في دولة مستقلة .

---

١ – صحيفة عربية يومية انشئت سنة ١٩١٥ في دمشق تحت رعاية الحكومة لتخدم سياسة جمال باشا .

واهتزت البلاد وارتعدت . فلم يكن احد يتوقع مثل هذه القسوة ، ولا حتى اولئك الذين كانـوا يعرفون ما انطوت عليه طبيعة جمال من وحشية . وقد ضاعف فزع الناس من هذه الاحكام انها شملت البريء والمذنب معاً ، اذ ان كثيراً من هؤلاء الضحايا كانوا معروفين بابتعادهم عن كل ما يتصل بالخيانة . وكان الأثر المباشر لهذه الاحكام بوجه عام انها اصابت الناس بالرعب . وسرى الفزع في نفوس الزعماء القليلين الذين لم يكن امرهم قد اكتشف بعد : اذ انهم لم يتصوروا — حتى في اعصب الاوقات توقعاً للشر — مثل هذا المصير لزملائهم ، وادركـوا انهم لا حول لهم ولا قوة ، فأخذوا يفكرون — وقلوبهم مفعمة بالحزن — في حريتهم المخنوقة ، ويتدبرون واجبهم في العمل على استخلاصهـا وانقاذها ، لا من اجل الحرية وحدها فقط ، بل لتكون تلك الحرية ايضاً وسيلة للثأر . وتألم فيصل ألماً عميقاً . وكان قد جاوز حدود الحكمة في استعطافه جمالاً للابقاء على حياة احرار العرب . ومهما تكن الشكوك التي كانت استقرت في نفسه فجعلتـه يتردد في الاقتناع بالثـورة على الأتراك ، فانها قد امحت الآن في سورة الانفعال العاطفي ، واصبحت الصيحة التي انطلقت من فمه — حينما سمع انباء الشنق — صيحة الحرب للثورة العربية .

٥

كان الامير فيصل ، في اليوم الذي تم فيه الشنق ، مقيماً مع آل البكري في مزرعتهم بالقابون ، وهي تبعـد عن دمشق خمسة اميال . وبينما كان يتناول الفطور مع مضيفيه في الحديقة جاءهم رسول وأبلغهم النبأ وقدم اليهم العدد الخاص من «الشرق» الذي تضمن القصة المقيتة . فقرأها واحد من آل البكري جهراً فاصيب المستمعون بذعر فادح ، ودوت اسماء الضحايا الواحد والعشرين دوياً فاجعاً ، وظلت تتردد في

اسماعهم كأنها انغام مرثية حزينة تتردد في الجو الساكن الذي كان يخيم على صباح ذلك اليوم من ايام الربيع في غوطة دمشق . وانقضت دقائق طويلة في صمت واجم لا يقطعه سوى دعوات خافتة ، وسوى التأوه والترحم على ارواح الضحايا ، وقرأ احدهم الفاتحة . ثم قفز فيصل واقفاً كمن اصابه مس مفاجىء ، وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها على الارض ، وداسها بعنف ، وصاح : « طاب الموت يا عرب » .

٦

كانت انباء تنفيذ الشنق حافزاً للشريف حسين على العمل فوراً . وكان من قبل ذلك يبذل اقصى جهده لاستكمال استعداداته ، وخاصة منذ ان اخبره جمال ، في الاسبوع الاول من شهر نيسان (ابريل) ، ان قوة مؤلفة من ٣٥٠٠ رجل كانت على وشك الزحف الى الحجاز في طريقها الى اليمن . وكانت هذه القوة ، التي يرئسها ضابط اسمه خيري بك ، تتألف من كتائب منتقاة ومجهزة تجهيزاً خاصاً ، وكان عليها ان تتعاون مع بعثة المانية حربية يقودها البارون أوتمار فون ستوتزنجن . ولم يستسغ الحسين هذه الزيادة في عدد الحامية التركية المرابطة في جزيرة العرب ، ولذلك كان يحاول ان يحول دون وصولها.

وكان قد انتهى من تهيئة الجو بين القبائل بأن أولى زعماءها ثقته واطلعهم على الامر وضمن تعاونهم معه . ومع ذلك فان اغلب رجال القبائل كان تجهيزهم ناقصاً ، وكان الحسين يراسل السير هنري مكماهون ليرسل اليه المال والبنادق والعتاد . وطلب ان ترسل هذه الامدادات الى بور سودان ، وتنقل منها – حينما يشير بذلك – بالبحر في قوارب الى مرسى امين على شاطىء الحجاز . وطلب ان تتولى السفن الحربية البريطانية محاصرة موانىء الحجاز ليوقع بذلك ضغطاً غير مباشر على

التجار والمواطنين الآخرين الذين لم يحددوا بعد موقفهم السياسي . وكان يواصل مساعيه لنشوب الاضطرابات في بلاد الشام في الوقت نفسه الذي يعلن فيه ثورته في الحجاز ، وكان يحث مكماهون على ان يعد العدة لنزول القوات البريطانية على شاطىء بلاد الشام لتقطع اتصال الاتراك بآسية الصغرى او على الأقل لتكون سبباً في شغلهم وتحويل انتباههم .

ولم يؤخذ بنصيحة الشريف في هذا الامر ، اذ ان دوائر الحلفاء كانت قد بحثت لأول مرة موضوع نزول قواتها في الأسكندرية في نهاية سنة ١٩١٤ . ثم بحث الامر بعناية وتفصيل اكثر بعد ذلك بعام حينما وصل لورد كتشنر الى الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ليدرس موضوع الجلاء عن غاليبولي . فقد لفت انتباهه حينئذ الى هذه الخطة واقتنع بأنها تؤدي الى قطع المواصلات بين تركية والعراق كما تؤدي الى قطعها بين تركيا والشام ، فأرسل الى وزارة الحربية يوصي بقوة بتنفيذها . ولكن هذا الاقتراح رفض لاسباب عسكرية من جانب ، ومن جانب آخر للاعتراضات السياسية التي تقدمت بها الحكومة الفرنسية ، اذ انها لم يكن لديها قوات احتياطية كافية ولم تستسغ ان تنزل في الشام قوات اخرى غير القوات الفرنسية . ومما يرتاب فيه ان يكون السبب في التخلي عن هذه الخطة راجعاً الى اعتبارات عسكرية محضة ، مع ان من المحتمل ان تكون قد رجحت الآراء المعارضة لتنفيذ هذه الخطة في وزارة الحربية والاميرالية (البحرية) . غير ان الخبراء الذين كانوا في ميدان المعركة كانوا يؤيدون تنفيذها مثل : لورد كتشنر ، والسير تشارلس مونرو ، والسير جون ماكسويل ، والسير هنري مكماهون ، ولا يزال فريق من المؤرخين العسكريين يعتقدون ان الخطة كانت عملية وان تنفيذها كان من المحتمل ان يعجل في انهيار تركية .

ومهما يكن من امر ، فان نصيحة الشريف لم تقبل ، كما رفض

طلبه القيام بمظاهرة عسكرية بحرية . وصار يقول في السنوات التالية انه لم يفهم قط الاسباب التي دعت الى رفض نصيحته . وفي احدى زياراتي له في شونة نمرين بشرق الاردن في ربيع سنة ١٩٢٤ سمعته يشرح خطته وهو يعود بذاكرته الى الماضي . وكان تناوله للمسألة قائماً على انها في جوهرها مسألة نفسية ، فكان يذكر في حديثه الاخلاق والقوة المعنوية والحالة النفسية ، باعتبارها عوامل مهمة تختلف من فريق الى فريق ، بينما تعتبر البنادق والقذائف مجرد اشياء ثابتة يشترك فيها الطرفان فيتساويان ، ولذلك يبطل اثرها المرجّح . فكان يقول ان الرجل التركي بطبيعته مدافع مستميت ولذلك فانه اهدار للجهد ان يواجه بالهجوم مواجهة ، كما حدث في غاليبولي ، مهما يكن مهاجمه متفوقاً عليه . وان الوحدات التركية تحسن البلاء في الحرب حين تختار ميدان المعركة بحيث تكون لها مراكز تعرفها وتستطيع الالتجاء اليها ، ولذلك يجب العمل على جعل طرق مواصلاتهم محفوفة بالمخاطر ، وان الجندي التركي يتجنب المغامرة ويخشاها ، وهو اسير للعادات التي اعتادها ، وسرعان ما يضطرب حينما يفاجئه امر لم يكن يتوقعه . فاذا ما اخذته على حين غرة بالهجوم عليه من مؤخرته ، وبتهديد جناحيه ، وباشاعة الاضطراب والقلاقل في كل جانب من جوانبه ، فانك ستقضي عليه . ذلك هو حديث الحسين الذي لم يكن جندياً ، ولكنه كان يفهم نفوس الاتراك كما يفهم نفوس العرب . ومن مزايا خطته انها كانت مبنية على اسس تلائم اساليب العرب في القتال ، وفي الوقت نفسه كانت ترمي الى شل حركة الاتراك ، غير انها لم تنل رضاء كبار الموظفين في القيادة العامة للحلفاء . وبذلك لم يبق امامه من سبيل الا استدعاء ابنه من الشام .

٧

تلقى فيصل الامر بالعودة بعد ايام قليلة من حوادث الشنق التي وقعت في السادس من ايار (مايو) . وقد جاءت صيغة هذا الامر متفقة مع ما اصطلح عليه هو ووالده بحيث تنبئه بقرب نشوب الثورة . فأصبحت المشكلة التي تواجهه الآن هي : كيف يعود الى مكة وكيف يدبر رحيل فرقة حرسه دون ان يثير شكوك الاتراك .

وقام بدوره بمهارة فائقة . فقد سعى للاجتماع بجمال باشا وأدار دفة الحديث حول موضوع جمع الجنود من الحجاز . وقال انه تلقى اخباراً تنبيء بأن والده قد حشد عدداً كبيراً من الجنود في المدينة وانهم على أهبة التوجه الى دمشق ، وتساءل : ألا يرى الباشا ان مما يزيد من مهابة وصولهم ان يبعث الشريف بأحد ابنائه على رأس الجيش ؟ فوقع الباشا في الفخ . ولم يكتف بمجرد الموافقة على ذلك بل كان من رأيه ايضاً ان يكون فيصل نفسه ذلك الابن الذي يقود الجنود نيابة عن الشريف . وسار فيصل بهذه التمثيلية خطوة اخرى ، فاعترض على ذلك وأشار الى ان له اخوين اكبر سناً منه ويجب ان يكون لهما حق التقدم عليه ، وان وجودهما في تلك الآونة في الحجاز يمكنهما من ان يصطحبا معهما حاشية من اشراف الحجاز وعلماء الدين . فأجاب جمال بقوله : ومع ذلك فاني ارجوك ان تذهب . وليأت احد اخويك ايضاً اذا استطاع ، ولكن من الضروري ان تذهب الى المدينة لتستعجل اتمام الاعدادات . وستصحبك حاشيتك الخاصة .

ورتب فيصل شؤون حرسه بحيث يبقون في القابون ضيوفاً على آل البكري ، ويسافر معه الى المدينة نسيب البكري ليعود بتعليمات محددة عن موعد سفرهم وكيفيته .

وفي السادس عشر من شهر ايار (مايو) قصد فيصل المدينة يرافقه

نسيب وثلاثة او اربعة من الكبراء اوفدهم جمال . وكان اخوه عليّ دائم الاتصال بأبيهما فعرف ان الثورة توشك ان تنشب ، بل ربما نشبت في وقت قبل الذي قدره الشريف ، اذ ان القوة الخاصة التي يقودها خيري باك قد وصلت المدينة ، وكان علي قد تلقى تعليمات تقضي بأن يمنعها من التقدم الى مكة ، مهما يكلفه ذلك . وكان على البعثة الالمانية الملحقة بهذه القوة — وهي بعثة فون ستوتزنجن — ان تغادر القطار في بلدة العلا وهي البلدة التي لا يستطيع غير المسلمين ان يتعدوها ، واتجهت غرباً الى بلدة الوجه ومنها استطاعوا متابعة سيرهم على الساحل الى جدة وقنفدة .

وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر تلقى علي تعليمات جديدة من ابيه . اذ ان فيصلاً قد رجع فلم يبق سبب لتأجيل التنفيذ زمناً آخر ، ولذلك طلب الشريف من علي ان يحدد اليوم الذي تنشب فيه الثورة في المدينة ويخبر والده به في وقت مناسب . وكان لا بد له كذلك ان يخبر كبار شيوخ القبائل . فتشاور الاخوان واتفقا على يوم الاثنين الخامس من شهر حزيران (يونية) . وبعثا برسالة الى والدهما يخبرانه بذلك ويلحان عليه — باقتراح من فيصل — ان يكرر طلبه بقيام قوات الحلفاء بمظاهرة حربية على الشواطىء الشامية . ثم وجه علي الرسل الى شيوخ القبائل ، بينما ارسل فيصل نسيباً الى دمشق على وجه السرعة ليدبر الامر لفرار الحرس .

وعند شروق الشمس في اليوم الخامس من حزيران (يونية) ركب الاخوان الى قبر حمزة حيث احتشد ١٥٠٠ جندي في معسكرهم وهم الذين جندهم الشريف ، واعلنا ، باسم الشريف حسين امير مكة ، استقلال العرب عن الحكم التركي . ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما ومن خلفهما اولئك المجندون وانضموا الى رجال البدو في المكان المتفق عليه الى الجنوب الشرقي من المدينة .

لقد بدأت الثورة العربية .

٨

اما في مكة فقد حدد يوم السبت التالي العاشر من حزيران (يونية) موعداً للثورة . ولم يكن يحتل البلد حينئذ سوى جزء من حاميتها العادية يبلغ نحواً من ١٤٠٠ جندي ، اذ ان الوالي ومعظم الجنود كانوا قد انتقلوا ، في بداية فصل الحر ، الى الطائف مصيف الحجاز ، واطلق الشريف اشارة الهجوم في الفجر . فتعرضت الثكنات ومراكز الحامية التركية في وقت واحد للهجوم باطلاق نيران البنادق ، اذ لم يكن لدى القوات العربية أية مدفعية . واحتدم القتال العنيف ثلاثة ايام الى ان استسلمت المواقع التركية الصغيرة ، اما الثكنات الرئيسية وقلعة جياد فقد استمرت مقاومتها ثلاثة اسابيع اخرى لأنها كانت مجهزة بمدفعية ثقيلة . وفي تلك الاثناء ارسل السير ريجنالد ونجت سريتي مدفعية من سرايا الجيش المصري في السودان ، فأخذ منهما مدفعان الى مكة وكان لهما الاثر الحاسم في اضطرار باقي القوات التركية الى التسليم .

وأوفى وصف لسقوط مكة استطعت العثور عليه هو الوصف المنشور في جريدة « القبلة » التي ظهرت في مكة بعد ذلك بقليل ، في اعدادها الصادرة من ١٥ الى ١٨ شوال سنة ١٣٣٤ (من ١٤ الى ١٧ آب — اغسطس — ١٩١٦) :

« في الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ قبيل الصبح من ليلة السبت الموافق ٩ شعبان ابتدأ اطلاق النار بشدة على الثكنات العسكرية في مكة المكرمة (والحميدية) دار الحكومة وحوصرت الجنود التركية في حصونها وشرعت قلعة (جياد) المرتفعة فوق جبل منيع هنالك مشرف على كافة احياء مكة ومنازلها تطلق القنابل المتوالية على مكامن العربان ومتاريسهم وعامة المنازل خصوصاً دار الامارة الجليلة التي اتخذوها هدفاً لاكثر مقذوفاتهم :

وهكذا بقي الفريقان يتبادلان الرصاص والقلعة تقذف بالقنابل حتى الساعة الثالثة صباحاً فخابر رؤساء الجند « بشكنة جرول » دار الامارة الجليلة « تلفونياً » يطلبون توقيف القتال وارسال سيادة القائمقام للمفاهمة عن اسباب الحادثة والمذاكرة في حسمها لصيانة الارواح والدماء فأجيب طلبهم وأرسل القائمقام اليهم فصرح لهم بأن البلاد قد جاهرت بطلب استقلالها وان المشكلة لا تنحسم الا بخروجهم من الثكنات وتسليمهم كافة الأسلحة لقائد العربان، فلم يذعنوا لقوله واصروا على المقاومة والدفاع بكل ما في المستطاع . وأمروا قائد القلعة بتشديد قذف القنابل على الأمة. فخرج سيادته وبلغ جلالة الشريف جوابهم فأمر باعادة القتال فكان أشد هولاً مما كان قبل المفاوضة واستمر الى ان دخل الليل فخففت وطأته . وبلغ ما اطلق من القنابل في ذلك اليوم مائتين وثلاثين قنبلة وما اطلق في كل ايام مدافعتها ما يربو على ألفي قنبلة ولكنها بحمد الله تعالى لم تهدم بيتاً واحداً . وقدرت خسارة الترك في هذه الواقعة بمائة وخمسين بين قتيل وجريح ، ولم يخسر العربان فيها سوى ثمانية بين قتيل وجريح .

« وفي صبح يوم الاحد بعد طلوع الفجر استؤنف القتال وعاد اطلاق النار حول كافة مراكز الجند بالرصاص والقنابل . وفي الساعة الخامسة قبل الظهر من ذلك اليوم هاجمت جيوش الشريف مركز «باش قرقول» الكائن حول الصفا واستولوا عليه قسراً وأسروا حاميته .

« اصبح القتال في يوم الاثنين كما كان في اليومين الماضيين الا انه اشتد وعظم أمره حول « الحميدية » دار الحكومة التي كان وكيل الوالي (وهو ضابط عسكري) متحصناً بها لأن حاميتها كانت تواصل اطلاق الرصاص بشدة من غير تعقل ولا تدبّر على كل من يظهر لعينها من ابرياء المارة حتى الضعفاء والعجزة والنساء والاطفال والمصلين بالمسجد الحرام . فحملت فصيلة من جنود الشريف عليها حملة شعواء حتى اسقطتها

قهراً ، وارغمت حاميتها على التسليم . ثم سيقت مع وكيل الوالي ومن كان في معيته من الضباط بغاية الاعزاز والاحترام الى دار الامارة وانزلوا في غرفة الأسرى التي رأوا فيها من طيب المجاملة وحسن المعاملة واكرام المثوى احسن ما يراه اسرى الحرب في البلاد المتمدنة بالرغم مما ارتكبوه من الفظائع المخجلة اثناء قيامهم بالمدافعة ، كقتل الابرياء وازهاق نفوس الاطفال والنساء . ولما وصل وكيل الوالي الى دار الامارة مع الاسرى وفهم حقيقة النهضة واسبابها ومقاصدها كتب بخطه كتابين : احدهما الى الثكنة الكبرى والآخر الى القلعة ، يخبرهما بما كان من مصيره ومصير حاميته وينصح لهما بالتسليم ، فلم تجدِ كتابته هذه نفعاً ، لأن الثكنة جنحت الى التسويف والمماطلة . والقلعة علقت مصير امرها على مصير امر الثكنة وطفقت تشدد اطلاق الرصاص والقنابل على الاحياء والمنــازل والمسجد الحرام حتى تعطلت العبــادة فيه تماماً وتعذر على الطائفين والعاكفين والمصلين دخول المسجد والقرب من البيت العتيق لانها كانت تتصيدهم فيه عمداً . ولم تقف جراءة حاميتها عند هذا الحد حتى تجرأت على رمي الكعبة المشرفة « زادها الله اجلالاً ومهابة » بقنبلتين ، وعززوها بثالثة في مقام الخليل ابراهيم ، فهرع الألوف من المسلمين تحت وابل الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة لاطفاء النار التي اضطرمت بأستار الكعبة المشرفة معرضين بأرواحهم العزيزة لمخاطر الموت الذي كان ممثلاً امامهم. وهكذا بقيت الحال على هذا المنوال في الثكنة والقلعة اياماً عديدة لأن العربان لم يستطيعوا مهاجمة جنود الاتراك وهم في منعة حصونهم لعدم وجــود السبيل اليهم ، وجنود الاتراك لا يجرأون على الخروج عن حصونهم بقدر شبر واحد ، حتى وصلت المدافع الوطنية برجالها من جدة واخذت تقذف بالقنابل على القلعة فحطمت جانباً منها اتخذه جنود الشريف سبيلاً اليها فهاجموها بحماسة شديدة بين طلقات الرصاص وتحت مقذوفات القنابل واستولوا عليها قهراً بعد قتل ضابطين وجندي من الاتراك . ولم يصب

احد من المهاجمين بأذى في هذه الواقعة المهمة ، ما عدا واحداً منهم جرح في فخذه جرحاً خفيفاً .

« سقطت (قلعة جياد) في ضحوة يوم الثلاثاء الموافق ٤ رمضان على الكيفية التي سبق توضيحها واستولى جنود الشريف على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغار ونحو ثمانية آلاف بندقية مختلفة الانواع من الطراز القديم والحديث ، وعلى كمية وافرة جداً من البارود والرصاص وقنابر المدافع وذلك بعد ثباتها في المدافعة خمسة وعشرين يوماً ارتكبت حاميتها في خلالها (من فظائع قتل الأبرياء ومحاربة المسجد الحرام ومطاردة أهله عنه ورمي البيت العتيق بمقذوفات النار واحراق المنازل بالقنابل المتفجرة وتصيد الناس في الشوارع وحول الكعبة بالرصاص) ما تسود به وجوههم في الغد يوم يحاسبون عليه . فعم لسقوطها البشر والفرح بين عموم الناس وتلألأت وجوههم سروراً لسلامتهم من شرورها ونجاتهم من اخطارها لأنها كانت هي العلة الوحيدة في وقوف حركة بعض ارباب الاشغال وذوي المصالح من العامة المرتزقة وسلب راحة السكان التي حولها والحوانيت التي في حيها . اما دولاب الحركة العمومية في البلاد فما زال ولله الحمد بعد وقوع الحادثة على ما كان عليه قبلها ، اذ لا فوضوية تقطع الناس عن اعمالهم ، ولا اضطراب يكره القوم على مزايلة اشغالهم وترك اسباب معايشهم من ابتداء الحادثة في مكة المكرمة الى انتهائها . وهذا بفضل ما اتخذه جلالة الشريف من التدابير المفيدة والاسباب النافعة التي لم تكن الا اثراً من آثار الحكمة التي لا يخلو منها عمل من اعماله الصغيرة والكبيرة وعليها اساس هذا المشروع العظيم .

« وبعد فراغ رجال المدفعية من مهمة اسقاط القلعة واسكات مدافعها توجهوا الى (ثكنة جرول) وانضموا الى الجيوش المحاصرة هنالك واحاطوا بها من كل جهاتها وطفقوا يطلقون قنابر التحطيم لفتح طريق المهاجمة . وكانت الحامية التركية فيها تخادع جنود الشريف برفع العلم

الابيض وطلب مفاوضة، القائد كلما حمي عليهم الوطيس واشتدت بهم وطئة النار الحامية لتتمكن من الاستراحة في خلالها ولتحتاط في تلك البرهة بما تراه ضرورياً لثباتها في داخل الثكنة المنيعة حتى اذا تم لهم ما يريدون بدؤا باطلاق النار واستأنفوا القتال وهكذا ظلوا يماطلون ويخادعون (وما يخدعون الا انفسهم ومـــا يشعرون) وقواد العرب يحاربونهم ولا يعبئون بهم ولا يكترثون بخداعهم وقـــد كان جلالة الشريف يوصي جيوشه جماعات وفرادى بعـــدم التسرع في امورهم وخصوصاً في شأن الهجوم الذي يعرضون به ارواحهم للتلف غـــير مضطرين اليه ، لأن من اهم مبادئه الحرص الشديد على الارواح والدماء مع العناية بمن يقع في ايديهم من الاسرى وملاطفتهم ومجاراة الضباط الطائشين قدر المستطاع ، وعلى هذا المنوال بقي العرب يحتملون أذى تسويفهم ومماطلتهم وتلاعبهم حتى تحطمت النوافذ وتفتحت السبل ولم يجدوا لهم مناصاً من مهاجمتهم بالسلاح الابيض الفتاك . وهموا بهم لولا لطف الله بهم فرجعوا في تلك الساعة الرهيبة الى رشدهم وآبوا الى صوابهم ورضخوا الى التسليم من غير قيد ولا شرط . ونادوا بذلك ورفعوا علم السلام فأجيبوا الى ذلك وما كنا نظن ان في الامكان اجابتهم الى طلبهم حينئذ وقد فات الوقت واشتد حنق القبائل واخذوا يموجون بعضهم في بعض تحفزاً للهجوم . ولكن سرعة وصول الامر الى القبائل بالسكون وتذكرهم لما كان يوصيهم به جلالة الشريف لمثل هذه المواقف هو الذي اخمد ثائرتهم وخفف من غلوائهم في ذلك المأزق الحرج . فتوقف القتال تماماً وخرج فريق من الضباط وهم يحملون علماً ابيض الى وسط المعسكر العربي لمقابلة القائد ومفاوضته في شأن التسليم وكيفيته فقابلهم بما يليق بهم واكرم مثواهم بما جعلهم يعجبون بآداب العرب ومكارم اخلاقهم ثم رجعوا الى الثكنة ومعهم عدد من عظماء الاشراف وشرعوا يسلمون اليهم الاسلحة والذخائر والمهمات وما كان بالثكنة عدا ما هو

خاص باشخاص الضباط والجنود من النقود والامتعة (حتى خبولهم الخاصة) كما صدر بذلك الامر . وعلى هذه الكيفية جرى تسليم الثكنة لجيوش الشريف في مساء يوم الاحد الموافق ٩ رمضان بعد دخول الليل وقدر ما خسره الاتراك في مدة محاصرتهم بالثكنة وراء متاريسهم فيها من رصاص العرب الذين اثبتوا تفوقهم العظيم في اتقان فن الرماية واحد وعشرون قتيلاً وستة وسبعون جريحاً غير خسارتهم الاولى في بداية الحادثة ثم سيق الباقون منهم الى الاماكن المعدة لهم بالشهداء وفي بعض المنازل بداخل البلدة وعددهم ثلاثون ضابطاً والف ومائة وعشرون جندياً . اما الغنائم من انواع الاسلحة والادوات اللازمة للجيش فكثيرة وبسقوط الثكنة قضي على الجيش التركي في مكة تماماً واستولت جنود الشريف على كافة مراكز الجند والمخافر ودار الحكومة وكل ما لها من المباني والمؤسسات فيها » .

وهوجمت جدة في اليوم الذي نشبت فيه الثورة في مكة ، ولكن الهجوم عليها كان من الخارج فقد حاولت جماعة مؤلفة من ٣,٥٠٠ بدوي ينتمون الى قبائل بني حرب الكبيرة بقيادة الشريف محسن ان يقتحموا البلدة عنوة . ولم تكن لديهم مدفعية كذلك ، فكان موقفهم غير متكافىء مع موقف الحامية التركية المؤلفة من ١,٥٠٠ من المحاربين الأشداء المتفوقين عليهم في الاسلحة ، فكان لا سبيل امامهم الا ان يقنعوا بفرض الحصار . واشترك في هذا الحصار الفاروقي وكان قد اوفد من القاهرة . وقصفت السفن الحربية البريطانية بقذائفها مواقع الاتراك الخارجية وألقت الطائرات البحرية قنابلها خارج اسوار البلدة . وبعد ذلك ببضعة ايام جاءت انباء من القائد التركي في مكة انه لن يستطيع ارسال امدادات الى الحامية ، فاستسلمت يوم ١٦ حزيران (يونية) .

وفي تلك الاثناء توجهت قوة بقيادة الامير عبد الله الى الطـائف

وحاصرتها ، واتجهت قـوة اخرى شمالاً واستطاعت ان تستولي على رابغ وينبع . وتم الاستيلاء على قنفدة بمساعدة الاسطول البريطاني . واستغرق حصار الطائف وقتاً طويلاً . إذ ان عبد الله – بالرغم من وجود المدفعية المصرية معه – لم يكن يريد ان يهاجم المدينة ليستولي عليها عنوة ، فقد كان واثقاً من ان النتيجة ليست موضع شك ، فرأى ان يتريث – وكان في ذلك حكيماً – ورفض جميع ما عرضه الاتراك لعقد هدنة ، حتى سلمت الحامية تسليماً غير مشروط في اليوم الحادي والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ، وكانت الجائزة الكبرى لهذا النصر استسلام والي الحجاز غالب باشا مع رجال الحامية .

وبذلك وطدت الثورة نفسها ، ووقع في حوزتها ستة آلاف اسير ، وغنمت كثيراً من المواد الحربية ، واصبحت المدن الرئيسية في الحجاز في يد الشريف ما عدا المدينة المنورة .

الفصل الحادي عشر

نتائج فورية

١

أحدثت أنباء الثورة ذهولاً في تركية وألمانية وحيل بينها وبين الجماهير عدة أسابيع ، وظلت البلاغات التركية حتى السادس والعشرين من شهر حزيران (يونية) تصدر منكرة قيام أي ثورة في الحجاز ، حتى كان التاسع والعشرون من ذلك الشهر ، إذ نشرت صحيفة « الشرق » الرسمية يومئذ بياناً أقرت فيه لأول مرة – إن صح ان يسمى ذلك إقراراً – بأن « بعض الفئات القبلية هاجمت بضعة مراكز في جوار المدينة » إلا أنها لم تذكر شيئاً عن الشريف او عن احتلال مكة وجدة . وكانت اول اشارة الى الشريف في الثاني من تموز (يولية) يوم صدرت إرادة سنية تعلن طرده – دون إبداء أسباب – وتعيين الشريف علي حيدر أميراً على مكة بدلاً منه . وبقي أمر الثورة في طي الكتمان حتى السادس والعشرين من تموز (يولية) ، حين سمحت الحكومة لجريدة « طنين » بالقسطنطينية ان تنشر على الناس صورة مشوهة استخفافية

للحقائق ، وظلت الصحافة على مدى عدة أشهر تسمي حركة الشريف حسين عصياناً فردياً أثارته مؤامرة بريطانية ، وان الدولة بسبيل القضاء على ذلك العصيان ، بعون من سكان الحجاز وقبائله ، وهم الذين ظلوا مخلصين « للخلافة ولأوامر الرسول فيما يتصل بفريضة الجهاد المقدس » .

وبذل الأتراك في سورية جهوداً فـذة خاصة ليحطوا من ثورة الشريف ويقللوا من شأنها ، وامتلأت انهر صحيفة « الشرق » ، بعد ان ران عليها الصمت في الأسابيع القليلة الأولى ، بمقالات موعز بها وأخبار ملفقة ، ونشرت في عددها الصادر بتاريخ ١٩ ايلول (سبتمبر) تقريراً زعمت انها تلقته من القائد التركي العام بالمدينة ، ذكر فيه ان عدداً كبيراً من رجال القبائل الحجازية قدموا فروض الطاعة والولاء ، وان فيصلاً قد هزم ولجأ الى بارجة بريطانية ، وان علياً أخاه « هام على وجهه شريداً حيران متلدداً » ثم نشرت في الرابع والعشرين — أي بعد سقوط الطائف بثلاثة ايام — بلاغاً رسمياً أعلنت فيه ان « كل شيء هادىء في الطائف ... وان بعض البدو بقيادة الامير عبد الله ردّوا على اعقابهم متكبدين خسائر فادحة » . ثم صمتت الصحافة ولم يسمح لها بنشر اي شيء آخر .

وثار غضب جمال باشا متجاوزاً كل حد ، فصبّ غضبته بشراسة على القادة العرب القليلين الذين كانوا قد نجوا حتّى عهدئذ من شواظ قسوته . واصدر اوامره للقبض على الناس بالجملة ، واخذت شرطته العسكرية تطرح اشراكها كيفما اتفق ، حتّى ألقت القبض في دمشق وحدها على اربعين — او نحو ذلك — من اعيانها ، وقذفت بهم الى السجن وانزلت بهم ضروب العسف والتعذيب . فكان الشيخ الوقور شكري باشا الأيوبي يجلد كل يوم حتّى يشرف على الموت ، أما عبد الحميد باشا القلطقجي ، وكان امير لواء في الجيش التركي ، وزكي بك العظمة ، وكان ضابطاً عالي الرتبة ، وفارس الخوري احد النواب

المسيحيين في المجلس العثماني (مجلس المبعوثان) – اما هؤلاء فقد حبسوا في « زنزانات » وضربوا وأجيعوا . فلم يعترف احد منهم بسر من اسرار الحركة العربية ولا باح به ؛ بل ان شكري القوتلي وهو من أشد اعضاء « سورية الفتاة » حماسة وأصغرهم سناً حاول ان ينتحر بعد ان مزقوا جلده بالسياط ، فعمد إلى سكين كليلة الحدّ ليقطع بها احد شرايينه، خشية ان يبوح وهو فاقد الوعي من شدة التعذيب المبرح بشيء من اسرار الجمعية . وفي الوقت نفسه زوّر جمال واعوانه شهادات تسوّغ لهم إصدار احكام بالاعدام . ولا ريب في ان الكثيرين كانوا سيواجهون الموت لولا ان تدخل فيصل في الوقت المناسب ، فكتب إلى جمال باشا بأنه ان مات واحدٌ من المتهمين بسبب سوء المعاملة او أعدم فانه سينتقم له من الضباط الأتراك الذين أسرهم في مكة والطائف ، وانه لن يتردد في ان يقتل بالرصاص عشرة ضباط أتراك بكل عربي يروح ضحيةً لطغيان جمال . وكان لهذا الوعيد أثره فأطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة بوليسية مشددة .

وفي تلك الأثناء قبض على مائة وعشرين من وجهاء العرب من مختلف أنحاء بلاد الشام وُغربوا الى الأناضول . واستحدثت اجراءات جديدة من الضغط والكبت زادت من قسوة الأحكام العرفية . وألغيت في شهر تشرين الأول (اكتوبر) الامتيازات الخاصة التي منح بها لبنان حكماً ذاتياً عام ١٨٦٤ ، ووضع تحت إدارة تركية سافرة ، بكل ما تتضمنه من قسوة وعنف .

وأخذت المجاعة تجتاح البلاد فتزيد الموقف سوءاً ، ذلك ان أرجال الجراد ظهرت في ربيع عـــام ١٩١٥ فأتت على المحصولات مخلّفةً وراءها الفاقة والعوز . وزاد من نقص المؤن خطورة ما كانت تعانيه البلاد من سوء ادارة ورداءة في وسائل النقل وانحطاط في قيمة العملة ، وفوق ذلك كله مـــا كان يجري بين الموظفين الاتراك وبعض التجار

السوريين من تبادل في المنفعة وتواطؤ نذل خسيس تقصّر عنه أعنف النعوت وتبدو عاجزة فاترة . وأصبح الفقراء يموتون جوعاً ، ولتصوير المجاعة في تلك المرحلة يكفينا في هذا المقام ان نورد ثلاثة مقتبسات من تقارير كتبها شهودٌ عاينوا الحال يومئذ .

أولها ما كتبه القنصل العام الأمريكي في مذكرة بعث بها إلى حكومته في الخامس عشر من تموز (يولية) سنة ١٩١٦ وقد جاء فيها :

« حال الفقراء في هذا البلد تستثير الحزن والرثاء ، فالشوارع مكتظة بأطفال ونساء ساغبين .... والحكومة متبلّدة الاحساس نحو آلام هؤلاء المساكين ؛ ثم هي لا تسمح للصليب الأحمر الأمريكي بمدّ يد العون اليهم ، وكثيراً ما شاهدت أثناء تجوالي في الأصائل جثث الموتى على قوارع الطرق » .

وثانيها عبارة من مقال نشرته صحيفة « التايمز » في الثاني عشر من آب (أغسطس) بقلم « مراسل محايد » غادر سورية قبيل ذلك التاريخ بقليل ، هذا نصّها :

«إن حال أهالي سورية مما لا يكاد يصدق ... هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لارهاب جديد . ويقدّر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سورية بين الستين ألفاً والثمانين ... » .

وثالثها ما كتبته سيدة أمريكية عاشت في بيروت ، وغادرت البلاد في صيف ذلك العام ، ونشرت « التايمز » ايضاً رسالتها في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) قالت :

« بدأت حالات الجوع تظهر قبيل حلول الربيع ، إذ وجد ناس مطروحين في الشوارع وقد زايلهم الوعي ، وحملوا الى المستشفيات ؛ ولقد مررنا بنساء واطفال ارتموا على جوانب الطرق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة ترهقها صفرة الموت . وكم وجدنا أناساً يفتشون في

أكوام القمامة عن قشور البرتقال والعظام البالية وغيرها من الفضلات ويأكلونها في نهم ان وجدوها . وفي كل مكان كانت النساء يشاهدن وهن يبحثن عن الأعشاب الصالحة للأكل بين الحشائش النامية على مدى الطرقات » .

ذلك هو ما كان يحدث في بلاد تنتج في العادة كميات وفيرة من المؤن الغذائية الأساسية بأكثر مما تستطيع استهلاكه .

ومع ذلك فان المستقبل كان يخفي من البلايا ما هو اعظم .

٢

ولم يكن للثورة رد فعل مباشر ملحوظ في اي بلد من البلدان العربية الأخرى ، فقد كان العراق ايضاً – او قُلْ ذلك الجزء الذي ما يزال منه في يد الأتراك – في قبضة هيئة عسكرية صارمة . وكانت قد عمّته ايضاً موجة من الارهاب اعتقالاً وتغريباً وشنقاً ، وان لم تبلغ ما بلغته في بلاد الشام . وكان العراق يختلف عن بلاد الشام فيما يتعلق بقيادة الثورة ، فقد كان كل القوميين العاملين فيه ضباطاً في الجيش يعملون في وحدات مرابطة في جهات اخرى من الدولة العثمانية . وأولئك هم الذين كانوا يمثلون صُلْبَ جمعية « العهد » ، وهم الذين اصبحوا من بعد ركنَ الحملة العربية التي انبثقت عن الثورة وأدّوا فيها الدور الكبير .

واما أثر ثورة الشريف في العراق ، وبصورة خاصة في الاصقاع التي كانت تحت الاحتلال البريطاني من العراق ، فكان مرتبطاً بأثر تلك الثورة في حكومة الهند نفسها ؛ وقد حدّد ذلك الأثر عاملان اثنان ، اولهما : عاطفة الولاء العميق الذي كان يكنّه مسلمو الهند نحو الخلافة . وثانيهما : ان حكومة الهند كانت ذات مطامع في العراق فهي تعـدّه ميداناً لاستعمار مقبل ، وتحكم هذان العاملان في نظرتها الى الحركة

العربية ، فاتسمت سياستها الخارجية بطابع الانتفاع وضيق النظر . وهذا جعلها تعادي فكرة ثورة عربية . اما مسلمو الهند الذين بث فيهم السلطان عبد الحميد مبدأه عن رفعة الخليفة ، والذين لا تلقى الحركة العربية القومية لديهم قبولاً فانهم عدوا الثورة خروجاً على سلطة الاسلام وثلماً لوحدته . وكانت تريبهم ايضاً الخطط التي يدبرها البريطانيون لبلاد العرب ، كما كانوا قلقين حقاً على سلامة الاماكن المقدسة . فعقدوا اجتماعات عامة كان أبرزها اجتماع في لكناو Lucknow في السابع والعشرين من حزيران (يونية) ، وفيه نددوا بعمل الشريف جهاراً في عبارات صارخة . ولم يكن مما يطمئن حكومة الهند ان تلك المشاعر كانت تقوم على مخاوف واهية لا أساس لها ، ولذلك أصيبت الحكومة بحرج شديد زاد منه اهتمامها بمستقبل العراق لكي يكون مسرباً لما يفيض من سكانها . ومن أجل هذه الغاية لم يعمل البريطانيون شيئاً ليكسبوا عرب العراق كي يشاركوا بنصيب في حركة الشريف .

وأما في جزيرة العرب فقد كان لأنباء الثورة اثر عميق . نعم إنها لم تكسب إلى جانبها الحاكمين العربيين ابن الرشيد وإمام اليمن اللذين كانا قد وضعا أيديهما في أيدي الترك ، ولكنها جعلتهما يعيدان النظر في موقفهما متأملين ، وحرمتهما من عون بعض كبار رؤساء القبائل — مثل رئيسي بني حاشد وبكيل — الذين كان هذان الحاكمان يحاولان ان يكفلا معونتهم للأتراك . كذلك فــان سائر الحكام في الجزيرة رحبوا بالثورة وعبّروا عن تأييدهم لها في مهرجان عقدوه في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) بالكويت . وكان فيمن حضر ذلك الاجتماع ابن سعود وامير الكويت وشيخ المحمّرة مع ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً فيهم عدد من صغار الشيوخ الأقوياء . وألقى ابن سعود في المجتمعين خطاباً بليغاً لخص فيه الموقف فأثار حماسة منقطعة النظير . وفي ذلك الخطاب حثّ العرب على ان ينضووا تحت راية الثورة ، وان لا

يوفروا جهداً في ان يعضدوا القضية التي تهم كلاً من انجلترة والعرب . وسرت أخبار الاجتماع وكلمات ابن سعود المشيرة في جنبات الجزيرة سريان النار العارمة ، وكان نقلة الأخبار يسردون عبارات كاملة من خطابه وليس ذلك بغريب على النقلة اهل الحفظ والرواية في الجزيرة العربية .

واما مصر والسودان فقد بلغتهما أنباء ثورة الشريف في الوقت المناسب، فمنذ بضعة شهور خلت كانت القوى البريطانية تخوض قتالاً ضد السنوسي في الجانب الغربي من مصر ، وضدّ علي دينار سلطان دارفور في حدود السودان الغربية . وكان لكل من الحملتين عواملها المحلية المبيتة إلا انهما كانتا معاً ثمرة الدعوة إلى « الجهاد » ؛ فأما السيد احمد السنوسي فانه هاجم الحدود المصرية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ بعون من الضباط والفرق التركية والغواصات الألمانية التي كانت تعمل على مقربة من الساحل ، وبذلك اضطر الحاميات المرابطة في السلوم وفي مراكز الحدود الى ان تتراجع الى مرسى مطروح ، اي على مسافة قدرها ١٣٠ ميلاً نحو الشرق . وحشدت في مرسى مطروح قوة خاصة مكونة من فيلقين او ثلاثة ، وبدأت حملة مرهقة انتهت باستعادة السلوم في شهر آذار (مارس) وطرد قوات السنوسي . ومن النتائج البارزة في تلك الحملة أسر جعفر باشا العسكري ، وهو ضابط عراقي عربي أبدى مقدرة وبسالة في قيادة الهجوم التركي على مصر ، وقد قدر له من بعد ان يقوم بدور بارز في قيادة القوى « النظامية » في الثورة .

وفي اوائل العام شنت حملة في الجنوب القصي على سلطان دارفور الذي اعتنق مبدأ الجهاد واخذ يلهب حماسة أتباعه والقبائل المجاورة للقيام بهجوم على السودان . كذلك قامت عمليات حربية في عدة مواضع بالوجه القبلي من مصر لصد غزوات اتباع الطريقة السنوسية على وادي النيل

ولم تتطور واحدة من هذه الحروب الصغيرة الى حرب كبيرة شاملة، ولكنا اذا نظرنا اليها مجتمعة أدركنا انها شاغلت عدداً غير قليل من

الكتائب البريطانية ، وقيضت للذين نصبوا من انفسهم حماة ً لمصر والسودان قسطاً وافراً من الاضطراب والقلق ، وبخاصة وان الشعور السياسي في مصر كان يعادي قضية الحلفاء . وقد حدثت الثورة العربية حين كانت ضروب هذا القلق حقيقةً ذات مسوّغات لا تجحد ، وكان من الممكن ان يتحول ذلك الغليان الذي خلقته دعوة الزعيم السنوسي الى الجهاد فيصبح حريقاً شاملاً .

واحدث نبأ ثورة الشريف ، اول الأمر ، أثراً يسيراً في مصر . فأما الدوائر التي تميل الى تركية فانها استقبلته بامتعاض وحاولت ان تشوهه بالتهوين من امره وخطره . وحالت الرقابة المشددة المفروضة على الصحافة دون اي تهجم علني عليه . ولكن العداء للثورة بمصر كان امراً واقعاً يكاد لا يخفى ، وإن لم يكن عداءً عامـاً شاملاً . وكان يستمد قوته من المشاعر التي تنقم على بريطانية مثلما يستمدها من مشاعر الموالاة للاتراك . واما الجاليات السورية والعراقية فانها تلقت أنباء الثورة بحماسة شاملة ، وأفسحت لها صدر الصحافة لما للسوريين يومئذ من نفوذ في صحف القاهرة والخرطوم . ولما ان أصدر الشريف بيانه الاول في تموز (يولية) اعتقد ذوو الرأي واصحاب الفكر في القاهرة ان الثورة أشد لطمة حلت بتركية ، وزاد اعتقادهم هذا بعد سقوط الطائف في ايلول (سبتمبر) وأداء فريضة الحج التي اتفق حلولها في الاسبوع الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وكان في من شهد الموسم عدد غفير من المصريين .

٣

وضع الشريف عمله في اول بياناته واهمها (*) وناشد المسلمين ان يقتفوا أثره ويحذوا على مثاله ، واستند عـلى دعامتي القومية والدين إلا انه

* انظر نصا كاملا لهذا البيان في كتاب الثورة العربية الكبرى لامين سعيد ١٤٩:١-١٥٧ - المترجم -

غلّبَ الحديث عن صالح الاسلام ، وهاجم في بيانه الأعمال المنافية للاسلام التي قام بها الاتحاديون (جمعية الاتحاد والترقي) . وعدّ أمثلة منها ، وندد بالطغيان العسوف الذي قامت به عصبة انور وجمال وطلعت، وعدّها مسئولة عن اعمال الشنق والارهاب في بلاد الشام وعن جرائم اخرى ضد الاسلام والعرب . ودعا الثورة واجباً دينياً قومياً وفرصة قيضها الله لبلوغ الاستقلال ، وأنهى بيانه بدعوة جميع المسلمين في العالم أجمع الى ان يأتمّوا به ويتبعوا مثاله نظراً لما له من حق في أعناقهم من حيث هو شريف مكة ، وإحكاماً لرابطة الاسلام .

ولم تكن قيمة هذا البيان فيما سرده من مسوغات للثورة وإنما كانت قيمته الحقة في استنفاره المسلمين عامة للثورة على تركية ، وبذلك حطم فكرة الجهاد الاسلامي العام التي كانت تستند اليها الخلافة .

٤

وقد اعترف جمال باشا بهذه الحقيقة في خطاب ألقاه بدمشق بعد بضعة أشهر ، أثناء مأدبة أقيمت تكريماً لرئيس مجلس الشورى العثماني ، وكان نصّ هذا الخطاب الذي نشرته جريدة « الشرق » (٢٣ كانون الثاني – يناير – ١٩١٧) يدلّ على ان جمال باشا كان في فورة بالغة من التبجح والغضب ، وفيه يقول :

« من المؤسف ان امرءاً دنيئاً قد عطّل الجهاد المقدس في صميم الأرض الاسلامية المقدسة حين حالف القوى المسيحية التي تسعى الى ابتزاز العالم الاسلامي واستلاب القسطنطينية عاصمته . اما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه الى الرسول صلوات الله عليه وسلامه فقد اضطر الدولة العثمانية الى ان توجه اليه قوى كان الحق ان توجه لتهزم البريطانيين في القناة وتحتل القاهرة . ان هذا الخائن لم يقم

بما قام به الا خدمة للبريطانيين ولكن ذالك كله لن يحول بين الاسلام والنصر النهائي او يوقف جنودنـا ، اولئك الابطال الذين حموا القسطنطينية ، دون اجتياز القناة واستئصال البريطانيين وحزّ رأس ذلك الدجال في مكة ... » .

٥

وكانت من أولى نتائج الثورة أنها قضت على الحملة الالمانية بقيادة البارون فون ستوتزنجن .

وكانت تلك البعثة تتألف من اربعة ضباط واثنين من عمال اللاسلكي وبضعة من الاتباع ، وقد أرسلت الى الجزيرة العربية لتشترك في العمل مع كتائب خيري بك التي اختيرت لمهاجمة اليمن . وكانت الغاية من توحيدهما معـاً تقوية السيطرة التركية في الجزيرة وفتح مجال جديد للعمليات الحربية ضد الحلفاء . وتدل مراسلات اكتشفت من بعد في أمتعة ضابط ألماني ان قد كان هدفهم الاول إنشاء محطـة لاسلكية في جنوب الجزيرة بغية ايجاد صلة مع قيادة الجنرال فون لتوف – فوربك في مستعمرة افريقية الشرقية الألمانية ووصلها ببرلين ؛ وكان عليهم ان ينظموا بعد ذلك دائرة دعاية تشمل الصومال والحبشة والسودان وربمـا قدروا ان تشمل الهند ، ويبدو ان عدن كانت هدفـاً ثالثاً لهم لكي يعززوا الطوابير الثلاثة التي كانت تسيطر على المسالك المؤدية الى القلعة . وكان هدفهم الاخير ، حسبما أسرّ فون ستوتزنجن الى فيصل بدمشق ، تنظيم إرسال الاسلحة والذخيرة عبر البحر الاحمر الى الحبشة بغية إثارة الثورات في ارترية والصومال والسودان .

وبلغت البعثة الالمانية في سفرها بسكة حديد الحجاز جنوباً حتى العلا آخر محطة في الجنوب يستطيع ان يبلغها غير المسلمين . امـا القوة التركية الرئيسية فكانت قد توجهت الى المدينة ، الا انه كان على الالمان

ان يغادروا القطار ويتوجهوا الى الساحل على ان يعودوا فيلتقوا بخيري بك في القنفدة ومن ثم يتحركون نحو اليمن. وعندما اندلعت نار الثورة كانوا في ينبع ففروا يطلبون النجاة وألقوا جل معداتهم في البحر، واختفى ثلاثة من اعضاء البعثة فلم يسمع لهم خبر، ودبّر فون ستوتزنجن والضباط الآخرون سبيل النجاة لأنفسهم وعادوا الى دمشق سالمين. أما جيش خيري بك فقد شلت حركته في المدينة حيث بقي هنالك الى ان استسلمت البلدة للشريف بعد انتهاء الحرب.

ان وصول هذه الحملة التركية الالمانية هو الذي حدا بالشريف الى ان يعلن الثورة يوم أعلنها، ولم يكن ينوي ان يفعل ذلك قبل شهر آب (أغسطس) التالي، اي قبل ان ينجز إعداداته جميعاً. وقد ألح عليه اولاده ان يتريث وان ينتظر - علي الاقل - وصول مدد كاف من السلاح والاعتدة؛ ولكنه قلّب الامر على وجوهه فصمم على القيام بعمل فوري، معتقداً ان الحملة التركية الالمانية تعني خطراً مخيفاً اكثر من الخطر الذي يعنيه النقص المؤقت في الاسلحة. وليس من السهل على من كان مثلي غير عارف بشئون الحرب ان يجرؤ على إرسال حكم سديد على مدى الصواب في تقديرات الحسين للنواحي العسكرية ولكن العارفين يرون انه كان على صواب، واليك ما قالوه:

اولاً: ما قاله مؤرخ رسمي.

« من العسير ان نغالي في تقدير أهمية الحملة التركية الالمانية التي كان من الممكن لها ان تأخذ عدن على غرة. فبتلك الإمدادات كان تحطيم الادريسي ممكنا، وإذن لاصبح الامام سيد الموقف في الجنوب. ولو ان ستوتزنجن استطاع الاتصال عبر البحر الاحمر بالعملاء الالمان لما كان خطرها في هذه الناحية أهون. اذن لاستطاعت ان تقدم العون المادي الى ملاّ الصومال المجنون (*) الذي كان يطمع في ارترية الايطالية،

* هو الملا محمد عبدالله الذي خاض حربا جريئة ضد الاستعمار بين عامي ١٩٠١ - ١٩٢٠ =

حيث لم تكن الحامية المؤلفة من الجنود البيض تزيد على ألفين ... غير ان الثورة العربية هي التي بددت كل تلك الخطط والامكانات »[1] .

ثم هنالك رأي الجنرال بريمون رأس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز . فقد كتب يقول : ان الحملة التركية الالمانية على اليمن كانت بحيث : « تعرّض الحلفاء الى خطر عظيم . ولو نجحت الخطة لسدت البحر الاحمر وفتحت المحيط الهندي امام العمليات الحربية الألمانية ... لكن ثورة الحجاز عطلت تلك الحملة ، لحسن الحظ ، وبذلك قدمت من غير ريب خدمة جلى لقضية الحلفاء »[2] .

واليكم اخيراً رأي المرحوم الدكتور د . ج هوجارث الباحث المشهور الذي قضى سنوات الحرب في القاهرة يعمل في المكتب العربي ، فقد كتب في صحيفة « العصر » The Century (تموز – يولية – ١٩٢٠) يقول :

« لو لم تؤد الثورة شيئاً سوى تعطيلها للزحف المشترك الذي قام به الترك والالمان نحو جنوب بلاد العرب عام ١٩١٦ لكان لها في أعناقنا من الجميل ما لا يفي به كل ما قدمناه لها حتى اليوم » .

٦

قضى الشريف ستة اشهر حافلة بالقلق لكي يعزز مـــا حققه من مكاسب . ولقد عجز عن ان يحتل المدينة ، اما فيما عدا ذلك فان غاياته العسكرية المباشرة تحققت جميعاً عندما سقطت الطائف في النصف الثاني

= وقد كتبت عنه كتب منها « In Pursuit of the Mad Mullah » ١٩٠٢ بقلم الكابتن ماكنيل . ومن الكتب الجامعة عنه : « The Mad Mullah of Somaliland » لدوجلاس جاردين D. Jardine (١٩٢٣) . (المترجم)

١ – التاريخ الرسمي للحرب : «العمليات العسكرية في مصر وفلسطين» ١ : ٢٣٠ (١٩٢٨).

٢ – « بحارة على ظهور الابل » Marins à Chameau (باريس ١٩٣٥) .

من شهر ايلول (سبتمبر) .

ثم تلت أشهر ثلاثة كانت أحلك الفترات في تاريخ الحملة العربية . فقد كانت للترك حامية في المدينة بلغ عددها ، حين انضم اليها جيش خيري بك ، اربعة عشر الفاً مجهزين جيداً بالمدفعية . وكان هؤلاء الجنود يقومون باغارات متكررة ، وفي احدى هجماتهم هزم دوي مدافعهم العرب المسلحين بالبنادق ، وبدا كأن العدو قد يعيد احتلال رابغ ويزحف الى مكة . وثار جدل طويل شارك فيه كل من أسهم في الثورة حول إنزال لواء من فرق الحلفاء في رابغ (*) ليسد الطريق الى مكة في وجه أي محاولة يقوم بها الاتراك . ومن سداد الرأي ان المتجادلين تخلوا عن هذا الاقتراح كما ان الترك أنفسهم لم يحققوا تلك الظنون . واخيراً تبدد خطر الزحف على مكة في كانون الثاني (يناير) التالي حين توجه احد جيوش الشريف بقيادة الامير فيصل شمالاً واحتل ميناء الوجه بعون من الاسطول البريطاني .

في خلال تلك الاشهر استقرت بعثات بريطانية وفرنسية في جدة فكان اول الواصلين هناك اللفتنانت كولونيل ولسن C.C. Wilson احد اعضاء الادارة السياسية بالسودان ليكون معتمداً بريطانياً لدى الشريف فأصبح الوسيط الاول بينه وبين السلطات البريطانية في السودان ومصر . وفي ايلول (سبتمبر) نزلت في جدة بعثة فرنسية يرأسها الكولونيل إ. بريمون ، ثم لحق من بعد ضباط آخرون لكل واحد منهم مهمة معينة باستثناء واحد هو ت . إ . لورنس الذي وصل في شهر تشرين الاول (اكتوبر) يحدوه حب الاستطلاع ، وبقي — حسبما يعلم الناس جميعاً — يثير بما فعله حب الاستطلاع في العالم كله . وكان الغرض ان تكون مهمات اولئك الضباط استشارية ، وفي سبيل تنسيق

* راجع صنوف الاخذ والرد حول هذه المسألة التي استمرت حوالي اربعة اشهر في كتاب الثورة الكبرى ١:٢٠٢-٢١٧ . — المترجم —

أعمالهم عُيِّن السير ريجنالد ونجت قائداً أعلى للعمليات الحربية في الحجاز. غير ان هذا التعيين لا يعني ان ونجت كان من حقه السيطرة على قوات الشريف ، وانما اصبح بذلك مسئولاً عن تقديم كل المساعدات البريطانية التي يحتاجها العرب في الحرب سواء في مجال الرأي او صرف المؤن . وعندما عين ونجت في نهاية العام خلفاً للسير هنري مكماهون مندوبـاً سامياً في القاهرة قام بالمسئولية المترتبة على النواحي السياسية من التعاون بين الانجليز والعرب ، مثلما قام بالمسئولية المترتبة على الشئون العسكرية . ووكل أمر السيطرة الفعلية على العمليات الحربية العربية — في بادىء الامر — الى عزيز علي الذي تطوّع لذلك ، وكان بما وكل اليـه جديراً . وكان عزيز يرقب الأحداث عن كثب ويراعي الفرص المواتية. وعلينا ان نذكر ان السلطات البريطانية في القاهرة سعت لاستمالته بعيد ان دخلت تركية الحرب ، فلما استكشف ان بريطانيـة العظمى غير مستعدة لان تعطي للعرب عهداً صريحاً محدداً بالاستقلال قطع أسباب المحادثات الجارية بينهما وعاد الى عزلته . ومن بعد أفضوا اليه سراً بفحوى مراسلات مكماهون فانضم الى جانب التعاون العربي الانجليزي وقدّم خدماته .

ووصل عزيز علي الى جـدة في ايلول (سبتمبر) ليتولى شئون القيادة . وشرع بما أوتي من همة ونشاط في خلق نواة جيش مدرب من شعب ليس لديه الا إدراك يسير لمعنى النظام والتنسيق ، وتلك مهمة شاقة لم تقابل بالشكران ، ولم يبق عزيز في القيادة طويلاً لان شغفه الشديد بالكفاءة عرضه للاحتكاك بالشريف ، وهو رجل صلب عسر . فتخلى عن القيادة ، وخلفه فيها مـن بعد جعفر العسكري الذي أسر — حسبما قدّمنا — في الحرب ضد السنوسي .

وكان جعفر ايضاً في البداية ، يأبى الانضمام الى الثورة حتى وصلته وهو في معتقله أنباء حوادث الاعدام في السادس من ايار (مايو) ،

فحزّت الأنبـاء في نفسه واستنزل اللعنات على جميع العرب الذين سيستمرون في خدمة الترك بعد تلك الاعمال الوحشية ، وتطوّع للعمل مع الشريف .

وفي الوقت نفسه جدّ البحث – باقتراح من الفاروقي (*) – في معسكرات أسرى الحرب بمصر والهند عن الضباط العرب وغيرهم من ذوي الرتب العسكرية ، وفوتحوا في أمر الانضواء في الحرب من اجل تحرير العرب ، فوصل عـدد من الضباط والافراد الذين اطلقوا من المعتقلات الى ينبع او الوجه ، وسلكوا انفسهم في الجيش النظامي الذي كان في دور التكوين . ومن بين هؤلاء نوري السعيد ومولود مخلص وكلاهما عراقي وعضو في « العهد » وقد برزا من بعد بما قاما به في الحملة العربية .

٧

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) أعلن انه قد نودي بالشريف حسين ملكاً ، ذلك أن عدداً من الأعيان الدينيين والدنيويين عقـدوا اجتماعاً في الصباح – بإيحاء من الشريف دون ريب – ونادوا به « ملكاً على البلاد العربية » واخذوا له البيعة حسب العادة العربيـة التقليدية ، والبيعة رسم مصحوب باعلان الولاء . وطير الامير عبد الله هذا النبأ برقياً – وكان يومئذ يمثل وزير الخارجية لدى والده – الى الحكومات المتحالفة والمحايدة طالباً منها الاعتراف بذلك اللقب الجديد . وأحدث الخبر موجـة من الاضطراب وبخاصة في الدوائر البريطانية والفرنسية ، اذ اعتبر ثمة عملاً خالياً من بعد النظر ، جارياً في غير أوانه ، وكذلك حقاً كان . ولو ان تلك الدوائر صدّقت عليه لأورطها في تعقيدات عديدة متنوعة . وحين شاء الشريف ان يتسمى « ملك

* ورد التعريف به في الفقرة : ٤ من الفصل : ٩ – المترجم –

البلاد العربية ، كان يفتئت – او يبدو انه يفتئت – على المركز الذي اكتسبه كل من الحكام العرب الآخرين . وبحسب هذا الاعتراض كان الحلفاء ذوي حكمة وكياسة لأنهم أمسكوا عن الاعتراف به . غير انهم في النهاية وجدوا لأنفسهم مخرجاً من ذلك المأزق فسمّوا الشريف « ملك الحجاز » وأبلغوه ذلك رسمياً في الثالث من كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٧ ، في مذكرتين متماثلتين : انجليزية وفرنسية .

٨

باحتلال « الوجه » في الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) انتهى الفصل الذي افتتح بالثورة في المدينة في الخامس من حزيران (يونية) . فقد رسخت اقدام الثورة ، وباءت بالاخفاق كل محاولات الاتراك لاستعادة مكة ، بل منذ ان احتل العرب « الوجه » اصبح التفكير في ذلك ضرباً من المستحيل . واضطر الاتراك ان يلتزموا قواعدهم في المدينة ويثبتوا فيها وذلك شيء كان في مقدورهم ما دامت القطارات تجري من دمشق وتعود اليها . الا ان ذلك كان يعني تركيز حامية كبيرة معطلة الجهود في المدينة ، وتوزيع حاميات اخرى كالخرز المنظوم في ذلك الخيط المسمى سكة حديد الحجاز . وكان الشريف علي حيدر الذي عينه السلطان خلفاً « لذلك الدجال في مكة » موجوداً ايضاً في المدينة حيث وصلها في تموز (يولية) مع حاشية كبيرة وأكياس من الذهب ليحرز بها قلوب المكيين بعد استعادة بلدهم . غير انه بعد سقوط الوجـه بقليل استأذن السلطان في العودة ، فأذن له بالذهاب الى لبنان ، وهناك بقي في عزلة المتوحّد حتى نهاية الحرب (*) .

---

* هكذا قال المؤلف ويبدو ان اخفاق علي حيدر جعل جمال باشا يصدر امرا بارجاعه ويقال ان فخري باشا القائد التركي في الحجاز هو الذي طالب بذلك (انظر الثورة العربية الكبرى ١:١٧٦ – ١٧٧) . – المترجم –

٩

عندئذ كانت قوى الثورة قد انقسمت في ثلاث فرق رئيسية يقود كلاً منها احد ابناء الشريف . اما الفرقة التي يقودها علي فوقفت قبالة المدينة وغايتها ان تؤكد للقائد التركي فيها بأن الثورة حقيقة حية اكثر من حرصها على ان تباشر شيئاً من القتال ؛ واما عبد الله فتوجه الى وادي عيص ، وهدفه الاول ان يعرقل مواصلات الاتراك ، ويعترض طريق الاغذية وغيرها من المؤن . وسار فيصل في الوجه واتخذه قاعدة يؤدي منها العمليات الكبرى المنتظرة . ومن الصعب ان يتوصل المرء الى تقدير صحيح للقوة العددية في تلك الفرق لا لأنها كانت فحسب تتراوح بين طرفي الزيادة والنقصان ، بـل لأن أعدادها وأعداد بنادقها — في تلك المرحلة — لم تكن متماثلة . فمثلاً كان عدد الجيوش العربية بعد ثلاثة اسابيع من نشوب الثورة يتراوح بين ثلاثين الفاً واربعين الفاً ولم يكن مع هؤلاء جميعاً سوى عشرة آلاف بندقية ، ولا شيء لديهم مـن المدافع والرشاشات . وعندما احتلت الوجه كان عدد افراد القبائل الذين جندوا سبعين الفاً ، ولم يكن معهم من البنادق الصالحة للاستعمال سوى ثمانية وعشرين الفاً .

ومع ما كانت تعانيه تلك القوى من فقر في المعـدات وتراخ في النظام فانها حققت نتائج باهرة ، فأخذت ٦٠٠٠ أسير واحتجزت حامية تركية بالمدينة عددها ١٤٠٠٠ وحامية اخرى في تبوك عددها ٥٠٠٠ ، واستطاعت بتهديدها للمواصلات بين دمشق والمدينة ان تجبر العدو على ان يزيد الحامية في معان الى ما يتجاوز سبعة آلاف جندي . هذا فضلا عن ثلاث فرق تركية اخرى — واحدة في عسير واثنتان في اليمن — قطعت اسباب الاتصال بينها وبين قواعدها الاصلية .

اما من حيث الخطة العسكرية التي تهم الحلفاء فـان الثورة أقفلت الطريق الى البحر الاحمر والمحيط الهندي ، ووقفت عائقاً في سبيل التوسع

التركي الالماني جنوباً . وبما ان ابن سعود حالف حينئذ بريطانية العظمى فقد امتد « الحزام » العربي الموالي لهـــا من البحر الاحمر حتّى خليج العرب وبذلك حفظ للحلفاء سلامة المواصلات في هـــاتين الطريقين البحريتين . وكان السير ارشيبالد مري ، في الشمال ، يستعد ليهاجم فلسطين وهو مطمئن الى ان الثورة احرجت جدياً مركز العدو المواجه له . ولم يكن مري في البداية راضياً عن الثورة العربية اذ كان يعدها في شيء من الاستخفاف والتحقير عملاً هامشياً مربكاً . ولكن موقف الجنرال مري من الثورة تغير حين وصلت قوة فيصل الى الوجه ، لانه كما قال لورنس : « تنبه فجأة الى ان الفرق التّركية التّي كانت تحارب العرب اكثر من الفرق التي تحاربه » .

الفصل الثاني عشر

العرب في الحرب

(١٩١٦ — ١٩١٨)

١

للثورة مرحلتان اختتمت الأولى منها باحتلال الوجه في الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) عـام ١٩١٧ ، وابتدأت الثانية باحتلال العقبة في تموز (يولية) التالي ، وكانت المرحلة الثانية التي تمثل اتجاه العرب الى دمشق ابرز المرحلتين واهمها . ولم تشهد الفترة فيما بين هاتين الحادثتين سوى نشاط عسكري متقطع في المعسكرات العربية الثلاثة واستعداد سياسي قوي للتقدم نحو الشمال .

وبمرور الشهور وازدياد المعدات التي تصل الى العرب ، أخذ هؤلاء يضيقون الخناق على الترك المحصورين . وكان الحلفاء ما يزالون يضنّون بالمدافع إلا انهم يجودون بالبنادق والذخيرة ، كما ارسلوا ضباطاً أكفاء للتدريب . فتعددت الغارات على سكة حديد الحجاز واصبحت أبعد أثراً

وان لم يبلغ فيها العرب ما بلغوه فيما بعد من قدرة على التخريب بفضل مهارة لورنس الشيطانية . في هذه المرحلة الاولى كان المغيرون في العادة ينزعون القضبان ويحطمون الجسور والقناطر ، ومن بعد تعلموا نسف القطارات والقاطرات . واحياناً كانوا يهاجمون احدى المحطات على السكة الحديدية ويأسرون حاميتها او يغيرون على قافلة عابرة من قوافل الأعداء . ولم تكن الأضرار التي ينزلونها بالخط خطيرة أبداً بحيث تعطله تعطيلاً أبدياً ، وانما جعلت الأتراك عاجزين عن تلافي تلك الاضرار المتتابعة بالاصلاح لما في ذلك من مشقات وكلف . وأدرك الاتراك ان لا غناء في محاولة الردّ على ذلك العدوان بمثله ، فظلوا مخلدين الى مراكزهم على الخط ، لا يغامرون بمفارقتها ابداً بأعداد كبيرة إلا بين الحين والحين ، ليصلحوا جزءاً متعطلاً من الخط او ليرمموا احد الجسور ، قدر المستطاع .

ويعزى نجاح تلك الغارات في المقام الأول الى مهارة نفر من الضباط وشجاعتهم ، وهم الذين ارسلوا الى الشريف باسم مدربين فقاموا بما هو اكثر من التدريب ؛ وفي مقدمتهم لورنس الذي ركزت حوله الاضواء الساطعة الى حدّ ان وقع زملاؤه الآخرون نسبياً في ثنايا التناسي والخفاء . أولئك الرهط لم يدربوا العرب على فنون القتال الحديث ويعلموهم استعمال المتفجرات واساليب التخريب فحسب ، وإنما كان تفانيهم في الواجب المنوط بهم — وهو ما فسّر يومئذ بأنه تفان في سبيل القضية العربية — وكانت قوى الصبر والجرأة التي أبدوها بين قوم على نصيب وافر من هذه الخلال — كانت هذه جميعاً هي الاسس الصحيحة للتعاون بين العرب والبريطانيين في الحملة . وفي السنوات التي تلت الحرب سمعت المرحوم الملك فيصل ، غير مرة ، يعلن انه اذا استثني لورنس الذي أحلته عبقريته محلاً فريداً فان الكولونيل س . ف . نيوكومب والميجر جويس P. C. Joyce يستحقان من عرفان العرب

بالجميل قدراً لا يقل عما يستأهله أي انجليزي آخر .

وفات الزمن الذي كان الترك يستطيعون فيه القيام - بهات مضادة إذ كان عبدالله قد انتقل الى وادي عيص الى الشمال الغربي من المدينة، وغادر علي مركزه في رابغ ، وشق طريقه بنجاح ضد مواقع العدو على الطريق الى المدينة،وعسكر على بعد ستين ميلاً الى الجنوب الغربي منها . وضايق الأخوان الأتراك فيما بينهما ، كل بما تعينه عليه الحيل والوسائل ، وأعان كل منهما أخاه في المهمة المشتركة وهي شلّ حركة القائد التركي . وشارك الامير زيد ، اصغر ابناء الشريف ، بقواته الخاصة في حصار المدينة بعض الوقت . وقدم الحلفاء وبخاصة الفرنسيون للمجموعات الثلاث مدربين من ضباط مراكشيين وجزائريين . وفيما كان فيصل في الوجه منهمكاً في إعداد العرب للتقدم الى بلاد الشام ضرب الأخوة الثلاثة في الجنوب نطاقاً حول المدينة المقدسة ، كتفوا بفنون الحصار حتى نهاية الحرب ، إذ كانت قداستها تحول دون قصفها بالمدافع. وكان دورهم أقل سطوعاً من دور أخيهم فيصل ولكن لعل فيصلاً -لولا الذي قاموا به - لم يحقق ما حققه من نصر .

وتحقق انتصاران آخران هامان على يد الاميرين عبد الله وزيد . أما الاول فالتقى في اوائل كانون الثاني (يناير) ببعثة تركية يقودها المسّمى أشرف بك في طريقها الى اليمن لتصل ما انقطع من اسباب المواصلات التي كانت قد قطعتها الثورة . وكان المقاتلون المرافقون للبعثة اقوياء الشوكة يحاربون كالكواسر وهم يحتقبون أكياس الذهب وعلى رأسهم قائد متهور صلب المراس . فأسر العرب منهم من نجا من الموت مثل اشرف بك ، واحتجزوا ما كان لدى البعثة من الوثائق وأكياس الذهب . وحقق الامير زيد وجيشه في نيسان (ابريل) انتصاراً آخر اكبر من الاول . إذ باغتوا قافلة من المؤن بعث بها الأتراك الى ابن الرشيد وهزموها واستولوا عليها عند حنكية Hanakiya على ثمانين ميلا

الى الشمال الشرقي من المدينـــة ، فخسر الأعداء ٣٠٠٠ جمل محمّل بالطعام والكساء ، سوى غنائـــم اخرى ، واخذ منهم ٢٥٠ أسيراً ؛ ومما زاد من اهمية هذا النصر انه سبب خلافاً بين ابن الرشيد والأتراك ، إذ مضى يضايقهم مطالباً بتعويض الخسائر ، فلما أخفق في مطالبته أبدى لهم تجهماً وفترت حماسته للتضامن معهم .

٢

ولم يفتر فيصل وهو في معسكره بالوجه عن تحقيق أصعب المهمات جميعاً – أعني اقناع القبائل بأن تنسى خلافاتها في سبيل غاية مشتركة . إن سجية الفرقة بين قبيلة واخرى من الخلال التي لم تنفك تلازم كيان المجتمع العربي القائم على النظام العشائري وعلى عديد الأفخـــاذ والبطون . إلا ان نقيض الفرقة هو الحكم المسيطر في نطاق القبيلة الواحدة ، أعني إحساساً قوياً بالتضامن وتفانياً عاطفياً تسليمياً من اجل مصالح العشيرة وسمعتها ، وهو إحساس تبدو الفكرة الوطنية – بمعناها التقليدي – إزاءه امراً عقلياً فاتراً . غير ان هذه الرابطة لا وجود لها بين قبيلة واخرى ؛ ومما يزيد شقة التفكك والخلاف اتساعاً تلك الشرائع الصارمة التي تتحكم في شئون الثأر وقوانين الانتقام وحقوق التنقل . وكان فيصل يرى بين يديه وهو يوجه همه الى دمشق ، تيهاً شاسعاً لا حدّ له من الخلافات والعداوات ومن ديون لا يتم قضاؤهـا او محو سطورها إلا بالدماء .

ولم يكن لهذا الأمر شأن كبير يوم كانت الثورة ما تزال تتمثل في معسكر مستقر خارج المدينة ؛ اما والثورة قد اخذت تتحول من حال الهدوء الى حرب متحركة كي تستولي على دمشق الواقعة على بعد ٦٠٠ ميل فقد اصبحت إزالة تلك العوائق القبلية امراً لازماً . ما الطريق الى حل المشكلة ؟ اما الذهب لدى فيصل فانـــه وفير – وشكراً لحلفائه

البريطانيين – ولكن الذهب الذي أفاد في اجتذاب النفوس الى الخدمة العسكرية وفي تقليل الاحتكاك وتليين القلوب كان عاجزاً عن دكّ حصون العجرفة والتقاليد . وكان فيصل – وهو الذي قضى عهد شبابه الباكر في مضرب زعيم قبلي – يعرف شريعة الصحراء حق المعرفة ويدرك من ثمّ ان الذهب وحده ليس يغني في حل المشكلة . وكان حظه من السيادة وافراً مكفولاً ؛ ولم يحرز تلك المكانة عن طريق المحتد فحسب بـل عما شهر به وذاع من امر شجاعته ، فاستغل تلك المكانة بروية حيثما وجد استغلالها مثمراً . وكان يعلم ان هناك قوة واحدة تدفع جزيرة العرب الى ان تتسامح في حقوق فرديتها المستكبرة وتلك القوة هي « الايمان » . وكانت المهمة الاولى بين يدي فيصل ضرباً من « الهداية » السياسية اي ان « يبشر » برسالة التحرر العربي ويذكي عقول القبائل بقبس وهاج من شعلة حماسته .

بتلك القوى الثلاث – الذهب والنفوذ ورسالة التحرر – بدأ فيصل يتألف شيوخ القبائل ، فتعرف في أناة وصبر الى تاريخ منازعاتهم ، واستمع الى ظلامة كل فرد ، ولم يستنكف من ان ينصت لأي واحد منهم مهما يكن حقيراً او مهذاراً . واذا كان النزاع يسوى بالمال قدّر قيمة التعويض المطلوب وأدّاها لأهلها . فاذا لم يكن الشرف القبلي مما « يردّ » بالمال لجأ الى التقاليد العربية المتعلقة بالتحكيم والوساطة ، ووقف من النزاع موقف الحكم المحايد الذي لا يحدوه شيء من غاية سوى مصير الجنس العربي . وفيما كان منهمكاً في تسوية شئون القبائل أرسل رسلاً الى شيوخ سورية الجنوبية اي زعماء بني عطية والحويطات والرولة (*) . فمنهم من حضر الى الوجه ومنهم من أناب عنه قريبه ؛ فاستنخاهم فيصل جميعاً باسم الشريف ، وحضّهم على ان يتبينوا روعة

* انظر موجزا للتعريف بهذه القبائل في ما اورده كحالة في معجم القبائل العربية ، وما اعتمد عليه من مصادر . – المترجم –

الفرصة المتاحة لهم لكي يحرزوا الى الأبد ، بعون من قوة انجلترة ، حرية تكون لهم ثم يورثونها للأجيال من بعدهم .

« البدوي اكثر مخلوقات الأرض تحرراً »[1] ، ولذلك وجدت الآيات التي رتلها فيصل آذاناً صاغية تشغفها تلك النغمات ، فمضى يعمل دون كلل بقوة إيمانــه ، شهراً إثر شهر ، حتى انهارت الحواجز وتصافى الخصوم ، وسرى إيمانه في نفوس من أشربوا العداوة جيلا بعد جيل ، فأقسموا ان يعملوا اخواناً في الحرب تحت قيادته ، من اجل تحرير العرب ، وان « يعدوا الاستقلال أغلى من النسب والنشب ومن الحياة نفسها » .

٣

ومن الشيوخ الذين حضروا الى الوجه استجابة لدعوة فيصل عودة ابو تايه شيخ التوايهة وهم بطن من الحويطات ، ومنطقة حلهم وترحالهم هي الزاوية الجنوبية الشرقية من سورية . ولم يكن عودة ، وحسب ، قائد قبيلة محرّبة باسلة بل كان ايضاً – كما وصفه الواصفون – قبيلة في رجل ، مقدماً في خيمة التشاور مثلما هو مقدم في ميدان القتال ، وقلما كان يأنس الى المشورة ، وقد دلت حياته المفعمة بالمخاطر والمغامرات انه كان في غنى عنها . وكان يومئذ في الخامسة والخمسين وما يزال في تلك السن قوياً أحوذياً ، ويعد أشجع محارب في بلاده . اما في مظهره فانه كان يذكر الناظر اليه بالنسر : أنف أشغى كأن قوسه ربع دائرة ، ورأس مائل الى الخلف ، وعينان كبيرتان ناعستان ، ونظرة على المدى البعيد يرسلها في خيلاء . وبعث وصوله هزة في جنبات المعسكر ، وكان فيصل اكثر الحاضرين اغتباطاً لأنه كان يعلم اي جهود

---

[1] رينهارت دوزي : تاريخ مسلمي اسبانية .

بذلها الأتراك ليغروا عودة بموالاتهم .

وتمّ بين الرجلين تفاهم سريع – لم يلتقيا من قبل ولكن كلاً منهما سبر غور صاحبه من اول لقاء ، ولم يحتج الى ان يعيد النظر في حكمه وتقديره أبداً . وكان « عودة » على خصام مع سائر الشيوخ المجاورين له ، غير انه قدم لفيصل عهداً قاطعاً بأنه ، من جانبه ، لا يعرف له إلا خصماً واحداً هو الأتراك ، واقترح بنفس هذه الحمية ان تهاجم العقبة ، وزعم في معرض التباهي انه يستطيع احتلالها هو ورجال قبيلته دون ان ينتظروا عوناً . ووجد فيصل ان الاقتراح يتفق وخطته فأمضاه ، واصبح لزاماً على عودة ان يرجع من حيث أتى ليحشد أتباعه ويجتاح المواقع التركية التي تحمي العقبة .

في ذلك الوقت كان فيصل يزمع ان يرسل بعثة الى سورية تدعو الى ثورة وتضع أسس العمل المشترك في المستقبل . فاختار الشريف ناصراً احد ابناء عمومته ، ليقود البعثة ويكون ممثلاً شخصياً له ، وعهد الى نسيب البكري ليكون ضابطها السياسي ، واستأذنه لورنس في ان يصحب البعثة رسولاً من قبله الى زعماء العرب بدمشق . وفي التاسع من ايار (مايو) توجهت البعثة من الوجه ومعها عودة وحرس عدده خمسة وثلاثون فارساً ، او نحو ذلك . وبعد وقت تفرق الركب وذهب افراده في وجهات مختلفة ؛ فأما عودة فمضى ليجمع افراد قبيلته واما الشريف ناصر فضرب معسكره على مقربة من كاف Kaf في وادي السرحان ، وجعل نسيب طريقه الى جبل الدروز ، وذهب لورانس وحده في أشد مغامراته التي أداها طوال حياته أصالةً وجرأة ، ولأمر ما سكت عن ذكرها في كل ما نشر من مؤلفاته ، فمضى راكباً الى تدمر شمالا وزار شيوخ ولد علي وقبائل الكواكبة ؛ وبعد ان جنّد خمسة وثلاثين بدوياً من ولد علي اجتاز الى بعلبك ونسف جسراً صغيرا على الخط الحديدي المتجه من رياق ، ثم تابع المضيّ راكباً حتى وقف على بعد خمسة

اميال من دمشق ، واختبأ في قابون ، وهي من املاك آل البكري ، وكثيراً ما كان فيصل نفسه يقيم فيها ؛ وارسل احد عمال تلك العزبة برسالة الى رضا باشا الركابي — وكان قائداً عربياً في الجيش التركي ومن اعضاء « العهد » البارزين — ولم يكن الخطر على الركابي قليلاً لأنه كان محط انظار الناس بكونه قائد الموقع في مدينـــة دمشق ؛ غير انه حين سمع ان الذي يطلب لقاءه رسول من لدى الأمير فيصل توجه سراً الى قابون ، وقابل لورنس وتسلم منه رسالة كان يحملهـــا اليه ، وفيها ان فيصل قد صمم على ان يتقدم الى سورية على مراحل ، وان المرحلة التالية هي العقبة ، وان كل ما يريده حينئذ هو ان يقوم الزعماء في دمشق بعمل كل شيء ممكن ليشجعوا الفرق العربية التي تعمل في الجيش التركي على الفرار والانضمام الى قوته في العقبة ، إلا انـــه لا يريد حدوث اية ثورة عندئذ .

تمّ هذا الاجتماع في الثالث عشر من حزيران (يونيـــة) ، وفي الثامن عشر منه كان لورنس قـــد عاد الى معسكر الشريف ناصر عند كاف ؛ وفي طريق عودتـــه التقى ببضعة شيوخ من بينهـــم الزعيم الدرزي حسين الاطرش ، ونوري الشعلان ، شيخ مشايخ عشائر الرولة ، فأدى اليهم الرسالة نفسها ، وتحسّس مدى استعدادهم ، ثم قام ناصر ولورنس بسلسلة من الزيارات لشيوخ القبائـــل استغرقت عشرة ايام ، واخيراً بدأ الزحف نحو العقبة .

فقد جمع عودة ٥٠٠ من قبيلته في باير حيث لحق بـــه ناصر ولورنس ؛ وفي الثلاثين اتجهت هذه القوة نحو الجنوب مارة بالجفر [١] ثم توجهت نحو الغرب فاجتازت سكة حديد الحجاز ، وتوقفت مدة تكفي لنسف بضعة جسور ، وتخريب كيلومتر واحد من الخط . وفي الثاني من تموز (يولية) هاجمت القوة التركية التي تحمي مركز ابو

---

١ بئر في الصحراء الى الشرق من سكة حديد الحجاز بين عمان ومعان .

الاثل على الطريق الممتد بين معان والعقبة . فهزمت الحامية التي كانت مؤلفة من أورطة عدتها ٦٠٠ جندي ، ولم يبق منهم احد إلا قتل او أسر ، وكان النصر نموذجاً لأساليب عودة في الحرب :

« عند الغروب جمع عودة خمسين خيالاً في جوف واد على بعد ٢٠٠ ياردة من الموقع التركي وقام بهجوم مباغت ، فتضعضع الترك ، وعندئذ انحدرت اليهم بقية العرب على الجبال من اعلى التل ، فانتهت المعركة في خمس دقائق ، واحصى الكابتن لورنس ٣٠٠ قتيل من الاتراك في الميدان واستطاع بما بذله هو والشريف ناصر من جهود ان ينقذ من الموت ١٦٠ رجلاً ويأخذهم اسرى . اما العرب فقتل منهم اثنان ووقع بضعة منهم جرحى ، وذلك هو كل ما خسروه »[1] .

وكان العرب يفتقرون الى الطعام الكافي ، وكان القيظ قاسياً على غير عادة وارتفع الصياح بين المتعبين اللاغبين يسألون الراحة ، ولكن عودة أصم أذنيه دون تلك الصيحات وقال إن التأخير قد يفضي الى الموت جوعاً ، وحث رجاله — دون هوادة — على المسير . وبقيت أربعة مراكز تركية بين ابو الاثل والعقبة احتلت خلال أربعة ايام ، وبلغ عدد القتلى من الاعداء ستمائة ، وارتفع عدد الاسرى الى سبعمائة . وفي السادس من تموز (يولية) دخلت القوات العربية العقبة ، ظامئة ساغبة منهكة ، وهي تزجي امامها قطيعاً من الأسرى يفوقها عدداً .

٤

كان احتلال العقبة نقطة تحول في الثورة العربية إذ كانت الثورة حتى ذلك الحين تتخذ من الحجاز مسرحاً لها ، وكانت الأمداد التي

---

[1] التاريخ الرسمي للحرب : العمليات العسكرية في مصر وفلسطين ١ : ٢٤٠ .

تنضم اليها جميعاً من ابنـــاء القبائل ؛ ولكن الميدان انتقل بعد سقوط العقبة الى بلاد الشام ، وواجه جيش فيصل تحوّلاً في وظيفته وتكوينه، فأصبح هو الجناح الايمن للقوات المصرية الغازية ، وفيـــه كتائب « نظامية » مدربة ، وغدت مهمته من ثمّ ان يحارب في بلاد الشام طبقاً لخطط الجنرال اللنبي .

وكان السير أرشيبالد مري قـــد قضى ما يقرب من عام وهو يدفع الترك ببطء الى التراجع عبر شبه جزيرة سيناء ، وكان قد وصل عند بداية سنة ١٩١٧ حدود فلسطين ، ثم قام في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) بهجمتين على غزة باءتا بالاخفاق المريع ، ولذلك عزل من منصبه وارسل السير ادموند اللنبي خلفاً له ، فوصل القاهرة حوالي نهاية حزيران (يونية) ليتسلم شئون القيادة ، وكان اول نبأ عسكري هام تلقاه هو نبأ سقوط العقبة ، فكأنما كان ذلك النبأ تحية للقائد الجديد لدى وصوله .

وادرك اللنبي بسرعة اهمية الاستيلاء على العقبة والفائدة التي قد يجنيها من وجود جناح عربـي سيّار في هجومه المقبل ، فصرح ان فيصلاً يستطيع ان يتكل عليه في المعونة ووفى بهذا الوعد وفـــاء جميلاً . وحضر فيصل الى العقبة في آب (أغسطس) فتحولت الضيعة الصغيرة حالاً الى خلية عسكرية كبيرة متعددة المرافق مزودة بمحطات اللاسلكي وبمطار وارصفة لانزال المؤن . وتكوّنت فيها نواة جيش « نظامي » من الوحدات العربية التي تألفت في الوجه ، وأضيف اليها من بعد ستمائة جندي وهم « الفيلق العربي » الذي كوّن في مصر من المتطوعين في معسكرات اسرى الحرب . وبما ان العقبة خارج حدود الاراضي الاسلامية المقدسة فقد كان غير المسلمين قادرين على المجيء اليها دون تقييد ، فحضر اليها عدد من الضباط البريطانيين والفرنسيين ليكونوا مستشارين لدى القيادة العربية ، او ليكونوا رؤساء حاميات خاصة من العربات المصفحة او الطيارات او فرق الهجانة . اما في الحجاز نفسه

فكان على إخوة فيصل ان يمضوا في عملياتهم الى جوار المدينة حتى نهاية الحرب باستثناء ما قام به الأمير زيد وذلك هو تحركه في العام التالي شمالاً الى الميدان السوري .

وخلال ستة اشهر بعد سقوط العقبة ظلّ فيصل منهمكـاً في أداء مهمة مزدوجة هي وضع قواته في تنظيم حربي وتوسيع دائرة التحالف مع القبائل . وكان حينئذ على بعد ١٥٠ ميلاً من مراكز اللنبي الامامية، وعلى صلة مكفولة جواً وبرقاً بمركز رئاسة القوات المصرية الغـازية ، وكانت اكبر حشود العدو المواجهة له تتمركز في معـان ، فأصبحت هذه المدينة هدفه العسكري التالي . وعند نهاية العام كان قد أنجز تهدئة الخواطر بين القبائل حتى تمكن من ان يضم اليه كل القبائل في منطقة معان . وتطور جيشه المدرب من نواة عددها أورطتـان فأصبح قوة جيدة الإعداد تتألف من لواء من المشاة وأورطتين من الركبان (على الجمال والبغال) .

وفيما كان فيصل مستغرقاً في الاستعدادات العسكرية والسياسية كان الشريف ناصر وعودة ولورنس يخرجون في حملات متعددة للغارة على السكة الحديدية وتخريب الطرق والجسور والقناطر وإيقاع ضربات مريعة بالعدو – وان كانت صغيرة . وتخللت هذه الغـارات فصل الخريف من قبل ان يبدأ اللنبي سيره شمالاً نحو فلسطين في نهاية تشرين الاول (اكتوبر) ومن بعد ذلك . وفي واحدة من تلك الغارات قرب المدورة، حوالي نهاية ايلول (سبتمبر) ، نسفت جماعة يقودها لورنس قطـاراً من الجنود الاتراك وقتلت منهم سبعين جندياً . وبعد ثلاثـة اسابيع استولت تلك الجماعة على كمية من المؤن كانت مرسلـة هذه المرة ايضاً لذلك الرجل التاعس الحظ ابن الرشيد . وقام الشريف ناصر في الايام الاخيرة من كانون الاول (ديسمبر) بهجوم جريء على جرف الدراويش فأخذ ما يزيد على مائتي أسير ، ثم احتل الطفيلة وهي قرية

هامة في منطقة زراعة القمح ، فلما حاول طـابور تركي مكون من ٨٠٠ جندي استعادتها ردوا على اعقابهم مضطربين وخسروا ٣٠٠ قتيل و ٢٠٠ أسير .

فاذا نظرنا الى المعاني العسكرية في احتلال العقبة وجدنـا انه سبب حرجاً بالغاً للقيادة التركية الالمانية بسورية في وقت كانوا يحتاجون فيه كل رجل وكل بندقية لمقاومة الزحف البريطاني نحو القدس . امـا نتائجه السياسية فانها كانت أشد إضراراً وإن خفيت عن الانظـار في البداية ، فقد اصبحت العقبة تجسيداً ملموساً للثورة وقـاعدة لتقويض السلطة التركية في سورية سياسياً مثلما كانت قاعدة لتفكيك كيـانهم العسكري هنالك .

٥

وأعلن العمل السياسي عن وجوده بطرق متنوعة وكلهـا تنزع الى ان تضعف تركية باستمالة عرب سورية الى صفوف الحلفاء ؛ وكـان السلاح الرئيسي الذي استغل في الدعاية لذلك هو ان قضية الحلفاء قد اصبحت وقضية الاستقلال العربي شيئاً واحداً . والفضل في هذا يعود الى الاتفاق الذي عقد بين السير هنري مكماهون والشريف (ثم الملك) حسين ؛ وان انتصار جيوش الحلفاء هو الذي سيجلب الحرية للشعوب العربية.

ونظم الضباط السياسيون في القوات المصرية الغـازية حملة نشيطة لتحقيق هذا الهدف ، في الأشهر التي تلت انفجار الثورة . ولما كانت القوات البريطانية تتقدم شرقاً من قناة السويس في صيف عام ١٩١٦ كان الرسل يبعثون سراً الى شيوخ القبائل في جنوب فلسطين لاغرائهم بقطع معونتهم عن الاتراك ، ومن هؤلاء الكولونيل باركر A . C . Parker الذي أحرزت له خدماته في شبه جزيرة سينا احتراماً واسعـاً وثقة كبيرة ، وقد استدعى باركر هذا الشيخ فريح ابو مدين شيخ مشايخ

قبائل بير السبع الى مؤتمر عقده في العريش ، وسلمه رسالة بخط الملك حسين وتوقيعه يدعو فيها جميع العرب لمساعدة القوات البريطانية التي كانت تعمل لتحرير العرب . وحلقت الطائرات فوق الخطوط التركية وأمطرتها بنسخ من رسالة الملك حسين ، وقد طبع على ظهرهـــا نداء من القيادة البريطانية تدعو فيه الضباط والجنود العرب في الجيش التركي ان يفروا ويعبروا الى الخطوط البريطانية ليقابلوا مندوبين من لدن شريف مكة ، وقد أرسل الملك حسين اولئك المندوبين نزولاً على رجاء حلفائه البريطانيين وعلى رأسهم احد ابناء عمومة الحسين ، وهو الشريف عبد الله حمزة . وكانت رسالتهم توضح الشروط والغايات من التعاون العربي الانجليزي لشيوخ العشائر في سورية الجنوبية ، واقنـــاعهم بالتخلي عن مساعدة الأتراك ، وبتسهيل تقدم الزحف البريطاني في فلسطين .

ولم يكن فيصل من جانبه أقل نشاطاً في تخذيل الشيوخ الذين كانوا في ناحيته عن نصرة الاتراك ، فتغلغل رسله في داخـــل بلاد الشام ، وأقاموا صلات مع زعماء السكان – القريبي العهد بالبداوة – في المناطق الواقعة على ضفتي الأردن . وكان ما يزال يأبى ان يثير ثورة جماهيرية في سورية لأن استعداداته العسكرية كانت بعيدة عن الكمال ، وكانت غاياته المباشرة ان يصل الى تفاهم سري مع الشيوخ الكبار ، وان يشجع فرار العرب المجندين في الجيش التركي .

وأثمرت هذه الدعاية في ناحيتيها ، غير ان آثارها لا يمكن تعيينها بالضبط بسبب الحيطة التي اتخذت خشية ان ينتقم الترك من أتبـــاع المستجيبين لها وأقربائهم . وقد عرف عنها قدر كاف للدلالة على ان تلك الحملة من الدعاية لاقت نصيباً صالحاً متزايداً من النجاح . وذلك القدر الذي عرف عنها استمدّ مباشرة ممن استجابوا لهـــا كما استمد بطريقة غير مباشرة من الاجراءات المضادة التي قامت بها القيادة التركية الألمانية . مثال ذلك ما فعلته قبائل منطقة بير السبع فقد كانت تقاتل

الى جانب الاتراك في ربيع سنة ١٩١٧ واذا بها باءماءة من فريح ابو مدين تنفلت من مواقعها الاولى لتظهر من جديد جنوباً في ميمنة القوات البريطانية الزاحفة الى غزة . ونتيجة لهذا الخذلان قرر الاتراك ان يخلوا العريش فاحتلتها فرقة الخيالة البريطانية على الأثر . وحاول الاتراك ان يصمدوا في مغدبه Maghdaba غير انهم اضطروا الى التراجع ثم الى التسليم عندما فرّ الجنود العرب من صفوفهم وتحولوا الى صفوف اعدائهم، دفعة واحدة . ولما ان كان اللنبي يتقدم الى القدس في خريف ١٩١٧ كانت أعداد كبيرة من العرب تنسحب موليــة من الجيش التركي ، وعدّى بعضهم الى صفوف الجيش البريطاني وسلم نفسه مستأسراً، وذهب آخرون الى العقبة وانضموا تحت الرايات العربية ، اما القسم الاعظم منهم فانه اختفى في الأرياف والقرى .

وادركت القيادة الالمانية خطورة النتائج التي ترتبت على الدعاية العربية الانجليزية ، فاستحدثت اجراءات لاحباطها وانشأت لذلك « مكتبــاً عربياً » بدمشق في تشرين الاول (اكتوبر) من ذلك العام ، واختارت له موظفين من الخبراء الالمان في الشئون العربية ، ورصدت له ميزانية محترمة للانفاق على تلك الدعاية المضادة . وشددت العقوبات على الفرار من الجيش ووزع على الناس بيان اصدره جمال باشا وهو يتهدد بالعقوبة الصارمة كل امرىء — عسكرياً كان او مدنياً — يحتفــظ في حوزته بمنشور مما تلقيه الطائرات البريطانيــة في قطاع غزة وبير السبع [١] . وتدخل الالمان الذين لم يكن لديهم كبير ثقة في الادراك السياسي عند جمال باشا ليمحوا بعض الآثار التي خلفتها سياسته ؛ فضغط المارشال فون فالكنهاين على القسطنطينية من اجل ذلك ، وكان فالكنهاين قد عين حديثاً القائد العسكري الأعلى في سورية ، ونتج عن محاولاته تلك ان اصدر جمال في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) نداءً عاماً الى

١ النص في «البلاغ» ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ وغيرها من الصحف السورية .

كل العرب الذين حملوا السلاح مع ملك الحجاز بمنح عفوٍ غير مشروط لكل من « يسلمون أنفسهم » في خلال ثلاثين يوماً .

غير ان الفرار من الجيش التركي استمر وازداد النفور على الرغم من هذه الخطوة وغيرها حتى وجدت القوات الانجليزيــة الزاحفة نحو القدس أنها – كما قال ليمان فون ساندرز – تقاتل في بلاد صديقة ، بينما وجد الترك الذين كانوا يدافعون عن ولاية من ولاياتهم انهم يحاربون وسط شعب مرير العداوة والشنآن لهم [1] . وقد عبر لي عن هذا المعنى نفسه الجنرال محمد جمال بــاشا [2] في حديث جرى بيني وبينه في القسطنطينية ، في ربيع عام ١٩٣٦ ، وهو يرى ان الكراهية التي نشرتها الدعاية الانجليزية العربية بسورية ضد الاتراك كانت اقوى في إضعاف قبضة الترك على البلاد من الخسائر العسكرية التي نجمت مباشرة عن دخول العرب في الحرب .

وهناك قسط وافر من الشواهد المباشرة المعتمدة يؤيد – دون ريب – هذين الرأيين اللذين أبداهما محمد جمال باشا وليمان فون ساندرز .

٦

مهمةٌ هي النتائج السياسية لهذا الجانب من التعاون الانجليزي العربي لا من الزاوية التاريخية فحسب بل من اجل علاقتها بالمناقشات والمنازعات التي ذرّ قرنها في أعقاب الحرب .

وسنرى ان تلك المنازعات أثرت في مصير كل المقاطعات العربية التي تقع خارج حدود الجزيرة العربية . وفي كل مكان من تلك المقاطعات ثارت الاحتجاجات المصحوبة بالعنف – في شكــل ثورات مسلحة –

---

١ ليمان فون ساندرز : اربعة اعوام في تركيا .

٢ لا يخلطن القراء بينه وبين احمد جمال باشا . اما محمد جمال فانه كان قائدا للجيش الثامن (ومركزه معان) خلال الحرب حتى بداية ١٩١٨ فخلفه احمد جمال باشا قائدا للجيش الرابع واتخذ دمشق مركزا له .

ضد كل تسوية اقترحها الحلفاء ، وعلى مر الزمن أدت تلك الاحتجاجات الى إعادة النظر في اصول التسوية الاولى ، إلا في تلك القطعة من سورية التي تسمى اليوم فلسطين الواقعة تحت الانتداب ، اعني تلك المنطقة نفسها التي استغلت فيها حقيقة التحالف العربي الانجليزي وشروطه سلاحاً يكفل التقدم السريع للجيوش البريطانية .

لقد كشف تحليلنا لنصوص مراسلات مكماهون — في فصل سابق — ان فلسطين لم تُستثنَ من تلك المنطقة التي تعهدت بريطانية العظمى بأن تعترف بها دولة عربية مستقلة وتساندها . اما النقطة التي نريد ان نوجه اليها الاذهان في هذا المقام فهي ان الحملة السياسية التي بدأتها القيادة البريطانية عام ١٩١٦ هي في ذاتها دلالة موجبة على ان فلسطين كانت تعتبر — في أذهان البريطانيين والعرب على السواء — من ضمن تلك المنطقة . وقد بذلت الجهود لكسب السكان الى جانب الحلفاء باسم الملك حسين وباسم الحرية العربية ، لا في فلسطين وحدها بل في كل مكان آخر من سورية ، باستثناء لبنان حيث لم يذكر اسم حسين ابداً، وكانت الدعاية تنص على ان لفرنسة اهتماماً خاصاً بمصالح لبنان . وقد كان هذا الاستثناء الوحيد يتلاءم والتحفظات التي وردت في مراسلات مكماهون نيابة عن فرنسة ، وهو استثناءٌ هام تاريخياً لأنه يدل على ان فلسطين — حتى ربيع سنة ١٩١٧ على أي تقدير — كانت تعتبر على قدم المساواة مع سائر اجزاء سورية التي قطعت بريطانية العظمى العهد على نفسها — دون تحفظ — بأن تعترف بها دولة عربية مستقلة وتساندها .

٧

في نهاية شهر تشرين الاول (اكتوبر) شنّ الجنرال اللنبي هجوماً أدّى الى احتلال القدس في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ،

وكانت قد سقطت قبل ذلك مدن غزة والخليل ويافا وبيت لحم في حملة تميزت بالعناية التي صاحبت وضع خطتها ، مثلما تميزت بالجرأة والبسالة التي نفذت بها تلك الخطة . ثم أنجزت عمليات اخرى اصغر منها لتثبيت المكاسب ، وفي نهاية سنة ١٩١٧ كانت القوات البريطـانية قد احتلت احتلالاً عملياً راسخاً كل ذلك الجزء من سورية الذي يمثل ما يسمى « سنجق القدس » .

ولصعوبة طبيعة الارض وحلول خريف قاس شاذ في ذلك العام كان تقدم الجيوش البريطانية شاقاً عسيراً ، فلم يكن يجد عوناً الا في الموقف الودّي لدى الاهالي ، إذ كانوا يحيون الجنود تحية حلفـاء محررين ، ويقدمون اليهم العون تلقائياً . وتحوّل الضباط والجند العرب في الجيش التركي الى صفوف البريطانيين ، وتطوعوا بنقل اخبـار عن خطط الأعداء ومدى تنظيماتهم الحربية ، وكلها اثبتت انها كانت قيمة . ولقي المنتصرون في القدس ترحيباً اصيلاً – وإن يكن مقهوراً – من شعب فعل فيه الجوع والنفي والتغريب حتّى قضى على نصفـه . ومع ذلك فحين انشأت القيادة البريطانية مكتباً لتسجيل المتطوعين الذين يحبون العمل في جيش فيصل بذّت قوة الحماسة المحلية قلة الرجال الأصحاء القادرين. وقام شاب من احدى الأسر العربية الكبيرة – امين الحسيني [١] – يجوب البلاد المحتلة ، وخلق حركة من التطوع ولعب دوراً فعّالاً في تنظيم فريق المتطوعين. حقاً إن عدد المتطوعين كان صغيراً لم يتجاوز ألفين، ولكن المدهش ان يتقدم للتطوع مثل هذا العدد في بلاد مثقلة بالنكبات.

وفي كانون الثاني (يناير) التالي (١٩١٨) توجه اللنبي الى شرق الاردن محاولاً ان يحتل عمان ، على ان تؤازره مفارز قبلية تعمل تحت اوامر فيصل ، غير ان الاتصال لم يتحقق لأن العرب عجزوا عن ان يقوموا بدورهم في الخطة ، في الوقت المعين، كما ان القوات البريطانية

---

١ هو الذي اصبح من بعد مفتي القدس ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى بفلسطين .

لم تستطع ان تعزز مراكزها وعادت الى الضفة الغربيـــة من الاردن . وحين ادرك فيصل ان الاتصال بحلفائه البريطانيين لم يكن بعد ممكناً ، قصر عملياته على منطقة معان وحاول ان يعزل تلك المدينة رجاء ان يحتلها في النهاية . وحلّ شتاء قارس لم يعهد مثله برودة مصحوباً بثلج كثير متطاول الأمد لم يعتد البدو تحمله .

وتتميز فترة تلك الحملة بانبعاث قوي في النشاط السياسي والعسكري من جانب القيادة التركية الالمانية ، فأرسلت الأمداد الى حامية معان ، واخذ المكتب العربي الالماني الذي تقدمت الاشارة الى إنشائه بدمشق يبعث بالرسل مزوّدين بكميات وفيرة من الذهب لينشروا التنافر بين أتباع فيصل . ووصل هر نيدر ماير ، وهو من اقدر الالمـان الذين اختيروا بخاصة للعمل السياسي في البلاد الشرقية ، الى عمّان ، وحوله حاشية من المرؤوسين ليباشر الاشراف على الدعاية بنفسه . وقامت القيادة التركية تؤيدها الحكومة الالمانية علناً بتقديم عروض الصلح الى فيصل – وهي عروض ستتحدث عنها من بعد . فاذا تأملنا الدعاية السياسية وجدنا ان هذه الجهود ذهبت سدىً ؛ اما في النـاحية العسكريـة فان الاجراءات التي قام بها الاتراك زادت مقدار خسائرهم .

فاندحرت عند سيل الحسا في السادس والعشريـن من كانون الثاني (يناير) قوة تركية مؤلفة من ٨٠٠ جندي ولم ينج منهم اكثر من خمسين ؛ وقتل ٥٠٠ وأسر نحو مائتين . وفي آذار (مارس) خرجت كتيبة قوية من عمان وطردت العرب من الطفيلة ثم عادت فخسرتها ثانية بعد اشتباك دام عدة ايام . وضيق العرب الخناق على معان وتعددت الهجمات على سكة حديد الحجاز حتى لم تعد القطارات تسير عليه الا مرة واحدة كل اسبوع ، واصبحت السفـرة من دمشق الى المدينة تستغرق خمسة ايام بعد ان كانت في الاحوال العادية تستغرق ثماني عشرة ساعة . ثم قرر الترك إخلاء المدينة المنوّرة وكانوا قد احتفظوا بها حتى

ذلك الحين لأسباب سياسية لا عسكرية ، فقد فقدوا مكة والقدس – وهما مدينتان من بين ثلاث مدن مقدسة في الاسلام – وتشبثوا بالثالثة بدافع الحفاظ على الهيبة والكرامة وذلك امر كان يكلفهم غالياً .

وكبدت ثورة العرب الاتراك خسائر لا طاقة لهم بها ، فقد فقدوا بحسب التقديرات المعتدلة حتى نهاية آذار (مارس) سنة ١٩١٨ ، ٤٨٠٠ قتيل و ١٦٠٠ جريح و ٨٠٠ اسير في المعارك التي دارت بينهم وبين العرب فحسب . وهذه الارقام لا تشمل أعداد العرب الذين فروا من صفوف الاتراك . اضف الى ذلك حامية لهم في المدينة عددها ١٢٠٠٠ واخرى في معان عددها ٧٠٠٠ ونحو ٣٠٠٠ في مراكز مختلفة على الخط الحجازي وكلها قد عطّلها العرب وشلّوا حركتها . اي ان عدد القتلى والأسرى والمعطلين من الأتراك يبلغ في مجموعه ٣٥٠٠٠ وكانت ربقة الضغط تضيق كما ان مشكلة تموين الحاميات المحصورة وتزويدها بالمعدات كانت تتزايد صعوبة .

ووصل النبأ بعزم الاتراك على إخلاء المدينة الى فيصل حوالي منتصف آذار (مارس) فحفزه الى العمل السريع ، واتضح له ان غاية القيادة التركية الالمانية هي اولاً ضمان سلامة الانسحاب لحامية المدينة الرئيسية والحاميات الفرعية على السكة الحجازية واستقدامها الى معان ، فاذا حققوا ذلك استغلوا تلك الحاميات في أغراض عدوانية مباشرة ضد قواته ، او اتخذوها مدداً للجيوش التي تسدّ الطريق الى دمشق أمام اندفاع العرب والبريطانيين شمالاً . وبعد ان تشاور فيصل مع جويس ولورنس واستمد العون والتأييد من اللنبي رسم خطة لهجوم فوري غايته عزل معان وبتّ المواصلات بينها وبين المدينة وإحباط خطة الاتراك .

وكانت خطة فيصل هي ان يقسم قواته الموجودة لديه في ثلاث وحدات مختلفة في تكويناتها وان يرسل بها لمهاجمة السكة الحديدية في

وقت معاً ، في ثلاثة امكنة مختلفة ، واستغل بحكمة العربات المصفحة ومفرزة من فرقة الهجانة المصرية أعارتها له سلطات القاهرة ، فزوّد كل مجموعة من الوحدات الثلاث بالرجال اللازمين والعتاد الملائم لمهمتها . وبدأت الهجمات في الاسبوع الاول من نيسان (ابريل) فخربت الوحدة الشمالية الخطّ الحديدي بين معان وعمّان ، وعملت الوحـــدة الجنوبية بقيادة اللفتنانت كولونيل ألان دوني في القطاع الواقع الى الجنوب من معان حتى المدوّرة وخربت الخط تخريبا يستحيل إصلاحه . اما وحدة القلب بقيادة جعفر باشا فانها احتلت خطوط الدفاع الخارجية عند معان وخربت الخطّ الذي يقع مباشرة الى جنوب معان وشمالها . وفي العشرين من نيسان (ابريل) كانت معان قد عزلت ، اي ان الطوابير الثلاثة خرّبت في مدى عشرة ايام خمسين جسراً وقنطرة و ٣٠٠٠ مفصلة من الخط واسرت ٤٥٠ اسيراً وغنمت كميات وفيرة من الذخيرة . وردّ الاتراك بهجمات مضادة ثقيلة ضد سمنه التي كانت في يد طابور القلب ولكن جعفراً والنظاميين معه من العرب ثبتوا في مواقعهم ، واصبحت خطة الترك بإخلاء المدينة امراً مستحيلاً .

وفي الجنوب كان الاميران علي وعبد الله يجـــددان ضروب نشاطهما ويقومان بتخريبات واسعة في شهري ايار (مايو) وحزيران (يونية) وتمت على يد عبد الله هزيمة اخرى على ابن الرشيد قرب تيماء ، ولما ارسل الاتراك في تموز (يولية) مفرزة قوية من المشاة والخيالة بطريق داخلية من المدينة مدداً لحليفهم انقض عليهم الامير عبد الله ووقع كل رجل في تلك المفرزة قتيلاً او اسيراً .

وقد نكوّن فكرة عن مدى العمليات العربية في قطاع معان اذا نحن رسمنا مقارنة في الأعداد والمعدّات : كانت للاتراك ثلاثة جيوش تقاوم البريطانيين والعرب على جانبي الاردن فضلاً عن الحاميات المتمركزة في معـــان وتعرف بالفيلق الثاني ، وكان البريطانيون الى الغرب من الاردن

يقفون مواجهين لمجموعتين منفصلتين وهما الجيش السابع والثامن ، وقائد الاول مصطفى كمال باشا رئيس (الجمهورية الكمالية فيما بعد) وقائد الثاني جواد باشا . اما في شرق النهر فكان للعرب يواجهون الجيش الرابع ومقره عمّان . ولدى الجيشين الاولين المواجهين للبريطانيين ١٧٠٠٠ بندقية ، اما الجيش المواجه للعرب – في المنطقة التي تقع الى الشرق من النهر – فيضم ١٤٠٠٠ جندي [1] . وهذه الارقام تشمل الفيلق التركي الثاني المتمركز في معان لكنها لا تشمل ١٢٠٠٠ جندي حصرهم العرب في المدينة وعلى السكة بينها وبين المدورة .

إذن فمن الهامّ ان نتذكر حين نريد ان نقدر القيمة العسكرية للحملة العربية ان قوات فيصل وحدها كانت تواجه – تقريباً – نفس العدد الذي تواجهه القوات البريطانية من الاعداد والمعدّات التركية الى الغرب من الاردن ، وأن فيصلاً حين احتل المنطقة الواقعة الى الشرق من معان كان يحمي ميمنة الجيش البريطاني بفلسطين ويحمي خطاً طويلاً من مواصلات ذلك الجيش ضد هجمات الاتراك في جوار الخليل وبير السبع ، وأن علياً وعبد الله كانا يحصران ويعطلان قوة كبيرة للعدو ، كانت كما قال المؤرخ الرسمي : « ذات اهمية بالغة لليمان [2] في اللحظة التي وقع فيها السير ادمند اللنبي في حيرة وارتباك او عند الهجوم النهائي » . لقد كانت ثمة كتائب تركية تحارب العرب في منطقة عمّان والحجاز اكثر من الكتائب التي كانت بفلسطين تقاوم تقدم الانجليز شمالا – وتلك هي الحال التي كانت من قبل في عام ١٩١٧ .

---

١ هذه الارقام تمثل عدد حملة البنادق والسيوف لا جميع من يحصلون على « التموين ». وقد ذكر اللنبي هذه الارقام اجمع في مراسلاته ، واقتبستها من كتاب «حملات فلسطين» تاليف ا. ب. ويفل وانا مدين لهذا الكتاب بمعلومات اخرى وردت في هذا الفصل .

٢ في اول آذار (مارس) ١٩١٨ جاء ليمان فون ساندرز خلفا لفون فالكنهاين اي قائدا أعلى للقوات التركية الالمانية واتخذ الناصرة مقرا له .

٨

وباقتراب الصيف كانت خطط اللنبي تتكامل من اجل القيام بهجوم نهائي . وكان في الاصـل ينوي ان يشن الهجوم في الربيع ، ولكن الهجمة الالمانية الكبرى على الجبهة الغربية في آذار « مارس » اضطرته الى ان يرسل فرقتين من فرقه السبع للعمل في فرنسة ، وكان عليه ان ينتظر وصول من يخلفهما من الهند والعراق ، وان يعيد تنظيم قواته من اساسه . وأتمّ استعداداته في ايلول « سبتمبر » ، وفي التاسع عشر منه بدأ ينفذ خطته ، وكانت فلذة في باب الخطط الحربية تدل على براعة وألمعية في الرسم والتنفيذ . وبها استطاع الهجوم البريطاني العربـي ان يكتسح الاتراك ويجليهم عن سورية كأنهم السَّفَا في وجه الريح .

كانت الخطة كلها من رسم اللنبي ومعاونيه ، ويعتبرها النقاد الثقات نموذجاً في تاريـخ الاستراتيجية وشهادة على عبقريته العسكرية ، فقـد كان هنالك – كما قدّمنا – جيشان تركيان ، الثامن والسابـع ، أمام اللنبي وجيش ثالث هو الرابع في مواجهة العرب ، ووراء هذه الجيوش جيش تركي رابـع يسمى « الجيش الثاني » يحمي شمال سورية بـين حلب ودمشق . وكانت قوات اللنبي تتألف من ثماني فرق من المشاة واربـع من الخيالة ، من بينها لواء فرنسي ومفرزة ايطالية صغيرة ، وقد رتبت في مجموعتين : الفيلق العشرين والفيلق الواحد والعشرين ، وفيلق من الخيالة . وهذا جعله يتفوق على اعدائه بنسبة ٢ : ١ – او اكثر – من حيث القوة المقاتلة . وعلى هذا التفوق فان انتصار اللنبي مـا يزال يعد عملاً ألمعياً لا فحسب من حيث استغلاله – بمهارة – لذلك التفوق نفسه بل من حيث السرعة والحسم اللذان حطّم بهما العدو دون ان يتكبد الا كلفاً تافهة ، نسبياً .

وكان من خطة اللنبي ان يقطع مواصلات الترك بين دمشق والجنوب

قبل ان يشن هجومه ؛ ومن اجل تحقيق ذلك الهدف لجأ الى العرب وكانت درعا هي النقطة الحيوية في مواصلات العدو لانها محطة على السكة الحجازية وعندها يتفرع من الخط الرئيسي خط فرعي يتجه الى حيفا ، فاذا عزلت درعا استحال على الاتراك ان يسرعوا بارسال الامدادات بالقطار الى فلسطين ، وشلت الاعمال في مؤخرة قواتهم ، وأقفلت دونهم اقصر الطرق للتراجع بسبب الهجوم الذي يشترك فيه البريطانيون والعرب . وقد يكون تهديد الخط عند درعا سبباً يحمل فون ساندرز على إرسال بعض احتياطيه من منطقة الناصرة كي يحمي نقطة الاتصال « درعا » — وهذا ما حدث فعلا — وبذلك تضعف المقاومة التي قد يقذف بها في وجه الجيش البريطاني .

ولما أفضي بسر الخطة الى فيصل استثار لديه حمية ونشاطاً ، وكانت قواته عندئذ قد احرزت تحسناً ملموساً في التدريب والاعداد ، وقارب جيشه النظامي ٨٠٠٠ جندي بلغوا درجة مقبولة من الكفاءة بما بذله جعفر باشا وزملاؤه الضباط من جهود لا تعرف الكلل . وتقوّى ذلك الجيش بالوحدات البريطانية التي انضمت اليه من عربات مصفحة ورشاشات وفصائل إشارات . كذلك كان جيش فيصل قد زاد ايضاً بتلك الأعداد الضخمة التي قدّمتها القبائل ، لأن فيصلا كان قد وسع دعايته في سنة ١٩١٨ حتى كسب بها ولاء كلّ من تبقى من الشيوخ بين خليج العقبة والفرات وتأييدهم للثورة . وحشد نوري الشعلان ، شيخ مشايخ الدولة ، أتباعه استعداداً للهجوم النهائي ، وتعهد شيوخ حوران وجبل الدروز سراً بأن يثيروا فتنة في الأرياف تتفق وزمانَ شن الهجوم . وكان نمو قوات فيصل مصحوباً بمظهر آخر مثله في الأهمية ، وذلك هو التغيير في تكوين تلك القوات ، فقد خلت — او كادت — من العناصر الحجازية ، واصبحت معظم كتائبه نظامية كانت او قبلية ، من سكان سورية وفلسطين والعراق ، اي مكوّنة من رجال لهم آراب تتعلق

بالبلاد التي يكادون يدخلونها وفي كثير من الاحيان كان للواحد منهم بيت فيها .

وفي اوائل ايلول « سبتمبر » نقل فيصل قاعدته الى أزرق ، وتبعد خمسين ميلا الى الشرق من عمّان ، واختارها لتكون مركزاً للتجمع والاحتشاد . وشن اول هجوم في السادس عشر منه ، اي بعد ثلاثة ايام من بدء الهجوم البريطاني ، فقطع الخط بين درعا وعمّان — طبقاً لخطة اللنبي — قطعاً عنيفاً يكفي ليوقف كل اتصال بين المكانين . وفي اليوم التالي خربت جماعات اخرى من العرب ذلك الخط الحديدي في نقاط تقع الى الشمال والغرب من درعا ، وكانت على وشك ان تقتحم المدينة نفسها حين وصلت إمدادات المانية قوية جعلت تلك الجماعة تتوقف . وهكذا سعى فون ساندرز بقدمه الى الشرك المنصوب له ، واستمر العرب في تظاهرهم بالتهديد رجاء ان يبعدوا عدداً آخر من الكتائب الالمانية من منطقة الناصرة . وفي الثامن عشر قاموا بتخريبات اخرى على الخط ، ونتج عن ذلك ان عزلت درعا في مساء ذلك اليوم ، من كل جانب ، عزلاً تاماً ، وفي وقت مبكر من اليوم التالي شن البريطانيون هجومهم على الجبهة الفلسطينية .

ابتدأ اللنبي اعماله الحربية بخدعة اراد بها ان يوهم الترك بأن يتوقعوا وقوع ثقل هجومه على جناحهم الايسر ، في الاتجاه الشمالي ضد جيشهم السابع المتمركز في نابلس ، وفي الجهة الشرقية ضد جيشهم الرابع المستقر في عمان . وقد سبق له ان ضللهم فجعلهم يعززون حشودهم في مركز خطوطهم ، فجرب حينئذ ان يوجه الفيلق العشرين ليهجم هجوماً حاداً على الجيش السابع ، وكان هذا كله خدعة ، لأن الهجوم الحقيقي كان من نصيب الفيلق الحادي والعشرين ضدّ الجناح التركي الأيمن ، اي ضد الجيش الثامن الذي يقف بين الساحل وقواعد تلال السامرة . وقد قام ذلك الفيلق بهجوم في غاية الشدة حتى اضطر قائد

العدو ان يتراجع في حركة محورية مشوشة تاركاً وراءه السهل الساحلي مكشوفاً ، عندئذ قذف اللنبي بخيالته في تلك الثغرة التي فتحت ، وفي أقل من اربع وعشرين ساعة كان لواء من الخيالة قد وصل ضواحي الناصرة ، ولم يتبق عليه شيء سوى ان يأسر ليمان فون ساندرز ومعاونيه الذين كانوا لا يزالون مشغولي الاذهان بكيفية مواجهة الهجوم العربي حول درعا مثلما كانوا ايضاً مشغولين بتقدم اللنبي ، وذلك التقدم الذي لم يكونوا قد تبيّنوا خطورته . وبعد بضع ساعات احتل لواء آخر العفولة وهي محطة على خط حيفا — درعا — دمشق . وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه اي اليوم العشرين من ايلول (سبتمبر) ، دخلت بيسان فرقة اخرى . وهكذا كانت قوات اللنبي عند غروب شمس اليوم التالي تسيطر على الجوانب الثلاثة من المستطيل الذي حُصر في داخله الجيشان التركيان الثامن والسابع جميعاً . ولم يبق امامهم من مسارب للنجاة سوى الطرق المتجهة شرقاً عبر الاردن ، الا ان فرقاً من الفيلق العشرين احكمت غلق تلك المسارب وهي تتقدم شمالاً الى نابلس وشرقاً في اتجاه عمّان . اما القوات العربية التي كانت في منطقة التلال وراء الاردن فانها بعد ان احاطت بدرعا اخذت تضيّق الخناق على الفيلق الثاني في معان . ومما زاد الحال سوءاً في أعين الاتراك الذين هبطت « معنوياتهم » ان ثارت الأرياف جميعاً ضدهم باشارة من فيصل .

استكمل هذا النصر المؤزّر اسبابه جميعاً ، وهذا شيء نادر في الأعمال الحربية . فتبدد الجيش الثامن كله ولقي افراده الموت او الأسر ما عدا وحدة ألمانية وشرذمة من الفلّ . واستطاعت بضعة طوابير مبعثرة من الجيش السابع ان تتراجع نحو درعا ، ولم يبق الا الجيش الرابع في الجانب الآخر من الاردن ، والا الفيلق الثاني في معان والجيش الثاني في الشمال ، وكل هذه واجهت نفس المصير في الأيام التالية .

٩

وقصة الأيام التالية هي قصة بقية الهزيمة التركية واحتلال دمشق ومن بعدها حلب .

اولاً : أخذت الكتائب في عمان ومعان تتراجع ، وبــدأ ذلك في الثاني والعشرين . وما كاد يبدأ حتى اجتاز لواء بريطاني من الخيالة نهر الاردن وتقدم الى عمّان واحتلها في الخامس والعشرين . وكان عــلى الجيش الرابع ان يتراجع مشياً على الأقدام لأن الخط الحديدي الواصل الى درعا قد ضرب ، فتركه القائد البريطاني يواجــه مصيره المحتوم وبقي في عمان ليكفل تسليم الفيلــق التركي الثاني المنسحب من معان وكان العرب قد احتلوها في الثالث والعشرين . وفي الشمال كان العرب يطبقون على درعا فاحتلوها في السابع والعشرين بينما قامت مفارز اخرى يقودها عودة ونوري الشعلان باحتلال اذرع وغزالة ، فأخذت ٣٥٠٠ أسير في يومين . وفي الوقت نفسه شقت الخيالة البريطانية طريقها عبر الأردن الى جنوب بحيرة الجليل وشمالها ، وكانت الخيول تسرع السير بهم خبباً وهم يفتحون طريقهم الى دمشق بعناد وعزم . وحمى العرب النظاميون ميمنة اولئك الخيالة وهم يتتبعون أثر الجيش الرابع ، بينما قامت جماعات القبائل ، وهي تستميت دائماً حين تكون في حرب متحركة ، بهجوم شرس على الاتراك المنسحبين ، وهي تعــدو وتقاتل في تقدمهــا ، وتتسابق لبلوغ دمشق — هدف الثورة — تسابقاً جنونياً .

وكان اول الواصلين الشريف ناصر ونوري الشعلان على رأس قواتهما ، وقد قطعا سبعين ميلاً في اربع وعشرين ساعة وقاتلا العدو في بعض تلك المسافة ، وبلغا ضواحي دمشق مساء الثلاثين من ايلول (سبتمبر) ، ولكنهما لم يدخلاها تلك الليلة ، نزولاً على رغبات أبداها القائد العام ، واكتفيا بارسال مفرزة قويــة لتنقل الأخبار الى السكان وتحمل اليهــم

رسالة تدعوهم فيها لإقامة حكومة عربية . وكان هذا قد تمّ قبل وصول الرسل الذين بعث بهم ناصر ، فلما بلغ هؤلاء الميدان الكبير في المدينة رأوا الراية العربية ترفرف هنالك : أربعمائة سنة من السيادة التركية أصبحت في ذمة التاريخ .

وفي صباح اليوم التالي – أول تشرين الاول (اكتوبر) – دخلت المدينة مفرزة من الخيالة البريطانيين يتبعهم عن كثب الشريف ناصر ونوري الشعلان وحاشيتهما . وبعد يومين أتى اللنبي من القدس في سيارته بينما كان فيصل و ١٢٠٠ من أتباعه على ظهور خيولهم العاريات يدخلون المدينة التي كانت عاصمة الامبراطورية العربية فيما مضى من الايام .

واستسلمت دمشق قلباً وقالباً لمشاعر البهجة والفرح حتى كأنما كانت في نوبة من السرور . واني لأترك لاقلام سوى قلمي وصف مشاهد الحماسة التي حيّا بها السكان مقدم المنتصرين عرباً وبريطانيين . ويقول الذين شهدوا تلك المشاهد إنها مما لا ينسى ، وان شعباً معروفاً بقوة عواطفه انطلق في فورة من الشكران المحموم حتى بذّ كل ما عرف من فوراته العاطفية من قبل . ويبدو كأنما آلام السنوات الأربع المرعبة قد شحذت قدرة المدينة على الاحساس بينما احتجزت قدرتها على التعبير عن ذلك الاحساس مكثفة مهيأة للانطلاق ، وان كابوس الطغيان الذي ارهقها به جمال قد ابتعث غرائزها . وبلغ هيج السرور ذروته حين دخل فيصل المدينة ورأى فيه الناس رمزاً متجسداً للحرية ، الناس الذين لم تكن الحرية لديهم منجاة من الظلم فحسب بل كانت ايضاً أمنية طالما حلموا بها وتمنوا تحقيقها .

١٠

تم احتلال سائر سورية قبل ان ينتهي تشرين الاول (اكتوبر) نتيجة لحركتين حربيتين متميزتين ، سارت الحركة الأولى على طول

الساحل مارة بصور وصيدا الى بيروت وطرابلس ، وسلكت الثانية الطريق الداخلية من خلال حمص وحماة وحلب ؛ ولم يقم العرب بدور في الأولى وإنما كان لهم نصيب وافر في الثانية .

وبدأ التقدم الساحلي في اليوم الثالث من حيفا وعكا اللتين احتلتا بعد ان تغلغل اللنبي في البلاد بقليل ، فسارت فرقة بريطانية على طول الطريق التاريخي الجميل المتجه من عكا شمالاً واحتلت صور في اليوم الرابع وصيدا في السادس ، وكأنما كان المسير نزهة عسكرية لأن الفرقة لم تواجه أدنى مقـاومة . واستقبلت الكتائب في كل مكان بموجات من الترحيب . فدخلت بيروت في اليوم الثامن ، واستمرت مفرزة تغذ السير زاحفة إلى طرابلس واحتلتها بعد خمسة أيام .

وفي الوقت نفسه كان اللنبي قد اصدر اوامر بهجوم شمالي من دمشق إلى حلب ، وكان هذا الهجوم يبدو اصعب من سابقه ، اذ كانت القوات البريطانية تعاني الشعور بإرهاق الحملة القاسية ، وزادهـا سوءاً انتشار مرض مفزع وصعوبة ضمان التموينات وهي على تلك المسافة البعيدة من القاعدة . زد إلى هذا كله ان فئات غير صغيرة من العدو كانت متمركزة في نقاط مختلفة على طول الطريق ، وكان المعتقد ان العدو قد جمع حشوداً قوية في الشمال لتدافع عن حلب ؛ الا ان هذه العقبات جميعاً ذللت . وها هنا ايضاً كان النجاح ثمرة للتعاون بين القوات البريطانية والعربية .

وفيما كانت فرقة بريطانية تتقدم على طول الطريق الرئيسي كان لواء من النظاميين العرب يحمي ميمنتها ، كذلك قام الشريف ناصر على رأس قوة غير نظامية لمهاجمة حمص من الشرق فوصلها في الخامس عشر ، قبل وصول طلائع القوات البريطانية بيوم واحد ، ووجـد الاتراك قد انسحبوا .. وبعد يومين احتلّ حماة دون مقاومة ايضاً ، الا انه واجه مقاومة صلبة في ضواحي حلب ، حيث كان القائد مصطفى باشا كمال على

رأس فيلق قوي جيد الاعدادات مؤلف من فرقتين . ورسمت خطة هجوم مشترك تقوم به الخيالة البريطانية والنظاميون العرب في السادس والعشرين ولكن في عصر الخامس والعشرين تغلغلت القوات العربيـــة القبلية في المدينة ، وأمعنت في الحامية بعنف وشدة ، فاضطرت قائدها الى الانسحاب والى تنظيم تراجع الفرقتين اللتين تحميان حلب في الجنوب . وفي صباح السادس والعشرين سارت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ودخلوا المدينة بينما كان لواء من الخيالة الهندية يصد ببسالة هجوماً مصمماً عنيداً يقوم به مصطفى باشا كمال على بضعة اميال الى الشمال من المدينة . وفي التاسع والعشرين احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة المسلمية ، ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع الى القسطنطينية وسورية والعراق ، وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالاً لأن تركية وقعت في اليوم التالي هدنة مدروس (Mudros) * .

١١

أثار احتلال بيروت وحلب بل وكل مدينة اخرى في سورية مشاهد مماثلة من البهجة والفرح كالتي استقبل بها المحررون بدمشق . وارتفعت العواطف المستثارة بآمال الحرية السياسية — كما حدث في دمشق ايضاً — الى نوبة محمومة من السرور للخلاص من الآلام . واذا بدت البهجة في بيروت ولبنان أقلّ جيشاناً فما ذلك الا لأن نصيب السكان هنالك من الجوع والحرمان فاق بكثير نصيب النواحي الاخرى .

ولا يعطينا الاحصاء الا صورة جزئية حين يتناول آلام الافراد غير ان في إحصاء الوفيات في بعض نواحي سورية ما يكشف شيئاً عن طبيعة النكبات التي عاناها الناس . ان الاحوال التي صوّرناها في فصل

* نسبة الى ميناء مدروس في بحر ايجه ، وبها انهيت الحرب العامة في الشرق في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ . — المترجم —

سابق تتصل بمجاعة عام ١٩١٦ ، وليس من المغالاة ان نقول : ان الدمار الذي أحدثته المجاعات في السنتين التاليتين زاد عشرة اضعاف ، وتتباين التقديرات ضمن طرفين متباعدين ، ولكن من المؤكد ان الذين ماتوا بسبب الجوع والامراض الناشئة عن سوء التغذية لا يقلّون عن ٣٠٠٠٠٠ نفس .

وفي لبنان ، حيث اشتدت وطأة المجاعة ، تلاشت قرى كاملة ونقص سكان بعضها الآخر الى اقل من النصف ، وكان بعض القرويين يتجولون على اقدامهم في الريف ليموتوا دون ان يراهم نساؤهم واطفالهم الجائعون ، ويكفينا اقتباس واحد من تقرير كتبه مقيم امريكي ذو شأن[1] :

« خلال رحلة استغرقت يومين في لبنـــان بصحبة رئيس الصليب الاحمر الامريكي ببيروت زرنا البيوت في عديد من القرى بيتاً بيتاً ، وكانت المناظر مما يعجز دونه الوصف . وكم رأينا عائلات كاملة تتلوّى من الآلام المبرحة على المصاطب العارية في اكواخها البائسة ، وكانت الأنات في طرف الحيّ تسمع في طرفه الآخر . لقد بـــاع هؤلاء كل قطعة من أثاث بيوتهم ليشتروا خبزاً ، وفي كثير من الاحيـــان نزعوا آجر السقف لمثل ذلك ايضاً ، وكانت مئات الدور التي مات اصحابها خالية آيلة الى السقوط والاندثار . ويقدر المعتدلون ان من ماتوا من الجوع نفسه خـــلال سنتين في لبنان وحده لا يقلون عن ١٢٠٠٠٠ » .

كتب هذا الكلام في تموز (يولية) سنة ١٩١٧ ، وبين هذا التاريخ واحتلال بيروت بعد خمسة عشر شهراً ازدادت الاحوال سوءاً الى حد

---

[1] لم تكن الولايات المتحدة في حرب ضد تركية بالمعنى العملي، صحيح ان الصلات الدبلوماسية قطعت بين البلدين لكنهما لم تعلنا الحرب احداهما عـلى الاخرى ، وكان المقيمون الامريكيـون يتنقلون بحرية في سورية فقاموا بقسط كبير من اعمال الاسعاف وبخاصة الجالية الامريكية في بيروت .

بعيد . وإن المرء لينفر من الاستشهاد بحالات خاصة ، وتلك — على اي حال — فضيلة في الاحصاء اعني انه ليس في الاحصاءات صورة لآلام البشر وعذابهم . ولا ريب في ان ٣٠٠٠٠٠ لقوا حتفهم في سورية جوعاً خلال الحرب بل قد يكون الرقم الحقيقي ٣٥٠٠٠٠ ، وهنـــاك حوالي ٣٠٠٠ فرد اعتقلوا او نفوا ومات كثير منهم من سوء المعاملة، فاذا اعتبرنا الخسائر التي نجمت عن الخدمة العسكرية ، كان ما أسهمت به سورية في أتون الحرب لا يقل بكثير عن نصف مليون من الارواح من مجموع شعب لا يبلغ اربعة ملايين ، وهي نسبة لعلها أعلى من اية نسبة لدى اي شعب آخر معروف باحتراف الحرب .

وكانت الآلام التي تحمّلها الناس وثيقة الارتباط بآمالهم السياسية ، وعلى الخصوص بعواطفهم نحو قضية الحلفاء ، وقـــد رأينا كيف ان استكشاف وثائق الادانة في محفوظات القنصليات الفرنسية هو الذي أدى الى محاكمة عدد من المواطنين البارزين وإعدامهم وتغريب مئات سواهم في المنفى . وفي الغالبية العظمى من الحالات كان الحكم يصدر عـــلى اساس من وجود بعض معاملات ، واقعية او ملفقة ، مع واحدة او اخرى من دول الحلفاء ، او بدعوى العطف على قضيتهم . وعلينا ان نتذكر ان المجاعة تعزى إلى اسباب عديدة ، ولكن وراء تلك الاسباب دافعاً متعمداً انتقامياً : فقد اصدر جمال باشا تعليمات قضت بأن يمنح الناس تسهيلات لشراء القمح او يحرموا من ذلك على أسس سياسية ، ولما كانت مناطق كاملة في لبنان معروفة بنفورها من السياسة التركية وتتهم بميلها الى الحلفـــاء ، إن لم تتهم بالتعاون الصريح معهم ، فقد طبق التمييز جملة دون أدنى اكتراث بما يجره من نتائج .

وكانت آثار هذه النكبات واضحة للعيـــان حينما دخلت القوات البريطانية مدينة بيروت ، ومما يذكر لهم بالخير مبادرتهم وفعاليتهم في توزيع الطعام والكساء من مخازن مؤنهم ، وكان بحـــارة المدمرات

الحربية الفرنسية – الذين دخلوا ميناء بيروت في مساء اليوم الذي وصل فيه البريطانيون – مثلَ البريطانيين في الاسراع بمدّ يد المعونة . ومما يستحق ثناء اكبر تلك الجهود التي بذلت في الاشهر التالية لتهيئة الضروريات على نطاق واسع وتقديمها الى افراد الشعب المعدمين في المناطق الداخلية، وكان الذي قام بذلك منظمات الإسعاف الفرنسية والبريطانية والامريكية التي انبثقت حينئذ واخذت تتنافس فيما بينها تنافساً إنسانياً شريفاً .

الفصل الثالث عشر

عهود ونقيضاتها

١

اصبحت « دول الوفاق » – كلما تقدمت الحرب – اكثر حرصاً على تفكيك اوصال تركية . وكانت الدولة العثمانية – الى ذلك الوقت – قد احتفظت بالوحدة الاساسية لاراضيها نتيجةً للتحاسد بين تلك الدول ، وان تقلصت مساحتها بالنسبة لما كانت عليه اولاً . وكان الشعار القديم الذي وقف بالمرستون يؤيده بقوة واختارته دول التحالف الإوروبي اساساً لسياسة موحدة هو الحيلولة دون انهيار امبراطورية السلطان ، وظلت تلك هي السياسة السائدة خلال القرن التاسع عشر واستمرت حتى انفجار الحرب ، وفي تلك السياسة جميع ما في مبدأ نكران الذات من فوائد دون ان يكون فيها شيء من عيوب ذلك المبدأ ، لأنها اساساً حققت غايتها المزعومة وسمحت – مع ذلك – لكل واحدة من تلك الدول ان تسرق اية منطقة تطمح اليهـا رغباتها من مناطق السلطان . وفي خلال الاربعين سنة التي انقضت بين اعتلاء عبد الحميد للعرش

وحرب ١٩١٤ أرغم السلطان على ان يتنازل عن عدة مقاطعات غنية في آسية الصغرى لروسية ، وعن قبرص ومصر لبريطانية العظمى ، وعن تونس لفرنسة ، وعن ليبية لايطالية ، وعن البوسنة والهرسك للنمسة ، هذا فضلاً عن تلك المقاطعات البلقانية التي طرحت النير التركي بعون من روسية .

فلما دخلت تركية الحرب ، بدأت زرافات من الرغبات الحبيسة تتحسس طريقها نحو التجسّد ، فأرادت روسية أخذ القسطنطينية والمضايق ، وطالبت فرنسة بسورية ، وبدأت انجلترة تحس بحاجتها الى طريق برية الى الشرق ، وتودّ اي شيء آخر ضروري يمكن من ان يشل اثر المكاسب الفرنسية والروسية . اما ايطالية فكانت لها اطماع في آسية الصغرى ، كما ان حكومة الهند كانت تصوّب نظرات شرهة جائعة الى العراق . وافتتح باب المفاوضات في اوائل عام ١٩١٥ وابرمت بين تلك الدول سلسلة من المعاهدات السرية في السنوات الثلاث الاولى من الحرب توزعت بها الدول الاربع المتحالفة – فيما بينها – « شرائح » من الامبراطورية العثمانية وفيما كانت بريطانية « تقطع » تلك الشرائح من املاك السلطان وجدت نفسها مدفوعة الى ان تعقد عقوداً جديدة ، بعضها يناقض عهودها التي اعطتها للعرب بوساطة السير هنري مكماهون في سنة ١٩١٥ وبعضها يؤيد تلك العهود ويؤكدها .

٢

وأول تلك التعهدات ما يسمى عادة « اتفاقية سايكس – بيكو » ، وقد عقدت بين بريطانية وفرنسة وروسية في ربيع ١٩١٦ فلم يكد السير هنري مكماهون ينجز صفقته مع الشريف حسين حتى ابتدأت وزارة الخارجية البريطانية مباحثات في لندن مع الحكومة الفرنسية ، هدفها الوصول الى تدبير ما بحيث يمكن التوفيق بين ما تدعيه فرنسة

من حق في بلاد الشام وما تعهدت به بريطانية للعرب . ولأسباب مختلفة آثرت وزارة الخارجية البريطانية ان تخفي عن فرنسة شروط الاتفاق الذي عقدته مع الشريف – بل ربما تكتمت قيام اتفاق كهذا . وهذا النقص في الصراحة – وهو شيء أثار استياء عميقاً لدى الفرنسيين من بعد وكانوا محقّين فيه – جعل المفاوضات منذ بدء البدء تقوم على اساس واهٍ فاسد * . وحينما انتهت التمهيدات ارسلت كل من الحكومتين ممثلاً منتدباً عنها ليتشاورا ، وكان المندوب الفرنسي هو المسيو ف. جورج بيكو الذي كان قد عمل في سورية قنصلاً عاماً ببيروت في السنة السابقة للحرب ؛ اما زميله الانجليزي فهو السير مارك سايكس الذي أثل لنفسه صيتاً في دراسة المسائــــل الشرقية بكتاباته وبرحلاته الكثيرة في طرق الامبراطورية العثمانية ومسارها .

ورسم المندوبان مشروعاً لاحتياز تلك الاجزاء التي ترغب كل من بريطانية العظمى وفرنسة في اخذها من الامبراطورية العثمانية ، ثم أوعز اليهما ان يتوجها الى بطرسبرج (لينينغراد) ليبحثا مقترحاتهما مع الحكومة الروسية . وابتدأت المفاوضات هنالك حوالي منتصف آذار (مارس) سنة ١٩١٦ ونتج عنها تفاهم ثلاثي صيغ في صورة مسوّدات لتتبادلها الحكومات الثلاث ؛ وتبودلت المسوّدات رسمياً على التوّ ، في تواريخ مختلفة من شهري نيسان (ابريل) وايار (مايو) من تلك السنة ، وفيها حدّدت المقاطعات العثمانية التي ترغب كل واحدة من تلك الدول الثلاث في ان تعترف لها بها زميلتاها منطقةً لنفوذها . كما انها كانت تحتوي الى ذلك ، اشتراطات متنوعة تكفل مصالح كل واحدة من تلك الدول في المناطق التي خصصت للدولتين الاخريين .

فاذا نظرنا الى تخصيص المناطق وجدنا ان الدول الثلاث عيّنت لها

* ذهب الاستاذ امين سعيد (الثورة العربية الكبرى ١: ١٧٩) الى ان الفرنسيين كانوا يعلمون بما دار بين الانجليز والشريف حسين وساق ادلته على ذلك . – المترجم –

شرائح دسمة ضخمة من ولايــات السلطان العثماني ، فخصصت روسية لنفسها القسطنطينية مع بضعة اميال في الداخل على جانبي البسفور وحصة كبيرة من شرق الاناضول تضم عملياً اربع ولايات كاملة تجــاور الحدود بين روسية وتركية ؛ واحتفظت فرنسة لنفسها بالقسم الاعظم من سورية وبحصة غير صغيرة من جنوب الاناضول ومنطقة الموصل في العراق (لوّنت بالازرق على الخريطة) امــا حصة بريطانية العظمى (لونت بالاحمر على الخريطة) فكانت تتألف من شريط يمتــد من اقصى جنوب سورية عبر العراق حيث ينتشر كالمروحة ليشمل بغــداد والبصرة وكل المنطقة الواقعة بــين خليج العرب والمنطقة المخصصة لفرنسة ، وهي تضم ايضاً ميناءي حيفا وعكا مع قطعة صغيرة من المنطقة الداخلية . وهنالك منطقة اخرى (لوّنت باللون البنّي) تضم حصة تعرف اليوم باسم فلسطين وقــد استبقيت لتكون تحت حــكم دولي خاص .

وليست تهمنا المناطق التي حددت لروسية في هذا المقام لأنها تقع خارج المناطق المأهولة بالعرب . اما المناطق الفرنسية والبريطانية والمنطقة الدولية المعلمة باللون البنّي فانها تضم كل سورية والعراق وهي حسب الاتفاقية[1] ستوضع تحت نوع من الوصاية الاوروبية ؛ وكل منطقة من المناطق الفرنسية والبريطانية ستعتبر مكوّنة من قسمين متمايزين حسب شكل الحكومة التي ستقام في كل منها . فأما حصة فرنسة فقسمت في قسمين : واحد ازرق والثاني يشار اليه بالحرف « ا » وجعلت حصة بريطانية في قسمين : واحد احمر والثاني يرمز له بالحرف « ب » وفي القسمين الازرق والاحمر ستكون الدولتان حرّتين في إقامة إدارة خاصة

---

١ ـ ما يتعلق بالبلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية من نص تلك الاتفاقية موجود في الملحق هـ وقد نشر هذا القسم كله ولكني ادرجته في الملحقات تسهيلا للرجوع اليه .

بهما . ولم تنص الاتفاقية بصراحة على « الاستلحاق » كما انها لم تستبعده وتركت الامر في يد الدولتين فان شاءتا استلحقتا اي جزء من القسمين الاحمر والازرق او استلحقتاهما جميعاً . ونصت الاتفاقية على ان تكون الادارة في « ا » و « ب » تحت سيادة عربية تعترف بها وتسندها الدولة المختصة بكل واحد من هذين القسمين ، عـلى ان يكون لفرنسة او انجلترة – حسبما تقتضي الحال – الاولوية في المشروعـات الاقتصادية وحق الانفراد في تزويد الادارة العربية المقبلة بما قد تحتاجه من موظفين ومستشارين اجانب .

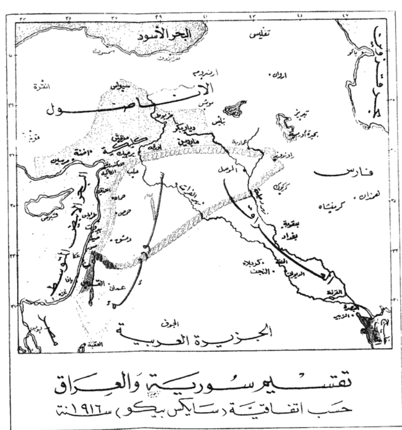
اما الاشتراطات الخاصة التي وضعت للمنطقة البنّية (فلسطين) فانها كانت وليدة الاهداف المتصارعة لدى الدول الثلاث . فقد اكدت فرنسة رغبتها في ان تكون المنطقة الواقعة تحت نفوذها هي كل سورية (بما في ذلك فلسطين) فعارضت بريطانية ذلك لسببين رئيسين : اولهما انها ترغب في السيطرة على خليج عكا – حيفا فيكون لها منفذ يصل العراق بالبحر المتوسط ، والثاني انهـا لم تستسغ ان ترى فرنسة او اية دولة كبيرة توطّد اقدامها على كثب من قناة السويس .

وكان هذا الموقف وليد نزعة جديدة في سياسة بريطانية في الشرق، ومما حفز اليه إدراك متزايـد *لأهمية المواصلات الحربيـة في الكيان الامبراطوري من الناحية الستراتيجية* . وعندما كان كتشنر بمصر قـدم عدة تقارير الى وزارة الخارجية البريطانية حول اهميـة جنوبي سورية (من خليج عكا – حيفا على البحر المتوسط الى خليج العقبة عـلى البحر الاحمر) من الناحية الجغرافية ليكون درعاً يحمي قنـاة السويس وطريقاً رئيسياً الى الشرق . وربما صحّ الاعتقاد بـأن « مسح » شبه جزيرة سيناء وهو عمل قام به (١٩١٤) الكولونيل س ف. نيوكومب من جماعة المهندسين الملكيين انما كان بايعاز من كتشنر . وعـلى أية حال فان نتائج ذلك « المسح » قد اكدت آراءه ومكنته مـن عرضها

بقوة حين اصبح وزيراً بعد قيام الحرب . وقد انتصرت آراؤه وتبنتها لجنة رسمية عيّنها رئيس الوزراء لكي ينظر في مطالب فرنسة وروسية في اقتطاع اجزاء من الامبراطورية العثمانية على ضوء المصالح البريطانية ، ورفعت اللجنة تقريراً في حزيران (يونية) سنة ١٩١٥ قالت فيه إنها ترى ان مطلب فرنسة لا يمكن إنفاذه الا بالنسبة لشمالي سورية،اما الجزء الجنوبي – وهو يشمل فلسطين تقريباً – فيجب ان يستبعد من منطقة النفوذ الفرنسي ويعالج معالجة خاصة . ولعلّ هـذه التوصية هي التي جعلت الحكومة الانجليزية توعز الى السير هنري مكماهون في مفاوضاته مع الشريف حسين بأن يطلب الاحتفاظ بالمناطق الساحلية وحدها من شمال سورية لصالح فرنسة ولم يذكر شيئاً عن فلسطين .

وكانت الحجة التي يعارض بهـا الانجليز مطلب فرنسة في فلسطين هي ان وجود الاماكن المقدسة في القدس وفيما حولهـا يستدعي نظاماً خاصاً من الحكم ، فرد الفرنسيون على هذا بأن اقترحوا ان تتكون من القدس وبيت لحم وضواحيها القريبة منطقة داخلية منفصلة تخضع لادارة دولية خاصة تناسب طابعها الديني ، اما الجزء الباقي من فلسطين فيجب ان يظل جزءاً مكمّلاً لسورية .

ولكن عندما استؤنفت المباحثات في بطرسبرج قدّمت روسية مطالب خاصة بها ، اذ كانت لها مدارس واديرة ومواقع مقدسة في انحاء البلاد المقدسة جميعاً وبخاصة في الناصرة ونابلس والخليل ، وكلها خارج حدود المنطقة الداخلية التي تقترحها فرنسة . وحاولت روسية اولاً ان تطلب جعل البلاد المقدسة « محميّة » روسية فعارضت ذلك كل مـن بريطانية وفرنسة ، ولما وجدت من الحكمة ان تتنازل عن ذلك المطلب مؤقتاً اعلنت انها ترضى بنظام يقضي بجعل فلسطين تحت اشراف دولي على شرط ان يشمل ذلك الاشراف كل البـلاد المقدسة بحيث تصبح المنشآت والمواقع الروسية جميعاً ضمن نطـاق الادارة الدولية . وبهذا



تقسيم سورية والعراق
حسب اتفاقية (سايكس بيكو) سنة ١٩١٦



الاقتراح انحازت بريطانية الى صف روسية واضطرت فرنسة الى الاذعان، وبذلك خلقت المنطقة البنّية على الخريطة .

٣

ان اتفاقية سايكس – بيكو وثيقة مروّعـة ، فليست هي فحسب وليدة الجشع في اسوأ صوره ، حين يكون الجشع مقترناً بالريب فيؤدي الى الحماقة ، بل هي ايضاً صورة مرعبة للمخادعة والمكر .

ولو نظرنا الى الخريطة لتكشفت لنا الاخطاء في أسس بنودها . تأمل العراق وسورية معـاً وما بينهما من مناطق بعضها صحراوي ، وبعضها قليل السكان ، تجدها جميعاً تمثل مستطيلاً غير منتظم تماماً ، واضلاعه الثلاثـة – الشمالي والشرقي والجنوبي – محـاطة بالبر بينما يقع ضلعه الرابع – الغربي – على البحر المتوسط . والناس الذين يقطنون في هذا المستطيل جماعات تتكلم اللغة العربية وقد بلغت مراحل متباينة من التطور. فأما الذين يسكنون في الطرفين الشرقي والغربي من ذلك المستطيل (اي شواطىء المتوسط وحوض دجلة والفرات) فانهم متقدمون ثقافياً متطورون سياسياً اكثر من الذين يعيشون في المنـاطق الداخلية واكثرهم من البدو. وعلى الرغم من الفروق الاجتماعية والدينية فان السكان متجانسون في الخصائص العامة ، توحد بينهم اللغة والثقافة ويؤثر فيهم جميعـاً نمو الوعي القومي .

فما الذي فعلته اتفاقية سايكس – بيكو ؟ اولاً قطّعت ذلك المستطيل بحيث تضع عراقيل مصطنعة في طريق الوحدة . وربما كانت هذه هي الغاية المتعمدة التي ارادها واضعو تلك الاتفاقية – اي كان عملهم هذا صدًى لا شعورياً لمعاداة بالمرستون فكرة قيام دولة عربيـة مستقرة على الطريق البرّي الذاهب الى الهند . ولكن هذه النظرة – مع ذلك – رجعية ، تتعارض والقوى الطبيعية المتفاعلة في بلاد العرب حينئذ . ذلك

ان يقظة قد حلّت منذ عهد بالمرستون واصبحت الحركة القومية قوة نامية وفي رأس اهدافها الوحدة العربية والاستقلال . ومهما تكن المكاسب التي قدر الحلفاء انهم سيجنونها من تجزئة تلك المنطقة ففي الاتفاقية ما يدل على ان الحلفاء كانوا يفتقرون الى الفطنة حين تصوروا ان مثل تلك التجزئة قد يقود الى تسوية سلمية او دائمة .

وثمة عيب آخر في الاتفاقية وهو انها هيأت لقيام كيـان سياسي منكّس مقلوب يقع فيه المتقدمون متأخرين ويجيء المتأخرون في المقدمة . وبيان ذلك ان سكان سورية والعراق كانوا انضج سياسياً واكثر تطوّراً من سكان المناطق الداخلية ، ولكن الاتفاقية نصّت على ان القسم الاعظم من سورية والعراق يوضع تحت نظام من الحكم الاجنبي المباشر ، اما المناطق الداخلية فانها على أية حال ستشكل دولاً عربية مستقلة . وسخافة هذه النصوص واضحة ، بشكل خاص ، في حـال المناطق التي ستقع تحت النفوذ البريطاني ، فالمنطقة الحمراء التي تضم بغـداد والبصرة ، مركزي النشاط السياسي في العراق ، ستوضع تحت الوصاية وتحرم حتى مظاهر الحكم الذاتي ؛ اما المنطقة « ب » وثلثاها مراعٍ شبه صحراوية وسكانها جد متخلفين في التجارب السياسية والنضج السياسي ، فعترف بأهليتها للاستقلال . مثل هذا العمل يشبه وضع البـالغين الراشدين في المدرسة وارسال تلاميذ الصفوف الابتدائية الى السعي في الدنيا .

وأخطر من هذين العيبين في التقدير ما تمثله الاتفاقيـة من نقضٍ للعهود . فقد جرت المفاوضات ثم عقدت الاتفاقية دون ان يعلم الشريف حسين ؛ وهي تحوي نصوصاً تناقض – مناقضة صريحة – الشروط التي ابرمها السير هنري مكماهون معه . واسوأ من هذا ان حقيقة عقدها قد أخفيت عنه بخسةٍ ، لان الذين عقدوها كانوا يدركون انهم لو اطلعوه عليها لما تردد في ان يطرح التحالف مع بريطانية العظمى . ولم يسمع بوجود تلك الاتفاقية الا بعد ثمانية عشر شهراً من عقدها ، في ظروف

سنقص نبأها بعد قليل .

ومن الحقائق المحيرة فيما يتصل بتلك الاتفاقية ان يكون السير مارك سايكس طرفاً فيها . فما من احد عرف سايكس يقرن اسمه بشيء يدنو من الحماقة او المخادعة ، فمن خلاله المتميزة نقاء صريح لا يخطئه من عرفه ، وحماسة للقضايا التي يؤمن بها تنتقل الى من حوله . واما من حيث المعرفة فلعله كان خير من يعرف المشكلة العربية بين السياسيين العاملين معه . واما كيف اقنع نفسه لتؤمن برجاحة اتفاقية سايكس — بيكو ، دع عنك الايمان بأنها اتفاقية شريفة ، فذلك ما سيظل لغزاً غامضاً .

وقد نتخذ المفهوم السيكولوجي أساساً لتفسير جانب من موقفه فنقول : إن ذهنه كان سريع الأدراك لمّاحاً ، وشروداً بليداً في الوقت نفسه ؛ وفي طبيعته مزيج من غفلة المتحمس الانفعالي وحرارته . وكان يعرف قسطاً وافراً عن العرب معرفة معاينة ، ولكن معرفته تتميز بما فيها من ثغرات مثلما تتميز بالاتساع ؛ واحكامه تتراوح بين نفاذ البصر وانغلاق الفهم كأنما كانت بصيرته العقلية تحاكي رقعة الشطرنج ، فالمربعات البيضاء فيها تمثل نفاذ البصيرة ، والسوداء تمثل ضروب الغموض وقلة اليقين في معرفة اكتسبت على عجل . وهذا ما جعله اللاعب القلق في لعبة المساومة الدبلوماسية ، وبخاصة حين كانت هناك افكار تحتاج من يحميها ومصالح تترقب من يحفظها . فلما وجد نفسه « محرّش » الخاطر أمام بيكو وسازونوف وكلاهما موجه الذهن بعزمه على ان يخطف كل ما يستطيع اختطافه ، جنح تدريجاً من عالم افكاره الخاصة ليدخل جنة الحمقى التي خلقها جشع الدول الثلاث وتحاسدها .

فلما قطعت الحرب شوطاً ما ، واطلع سايكس على القوى الناشطة في العالم العربي ، ابتعد عن موقفه الذي كان قد جنح اليه عام ١٩١٦ . وفي خريف سنة ١٩١٧ عرف عنه ان الشكوك بدأت تخامره حول

القيمة العملية لاتفاقية سايكس – بيكو ، وربما حول سلامتها وصلاحها من الناحية الخلقية . وكان قد سافر الى الشرق مرة اخرى وزار الشريف حسيناً في جدة . وتحدث الى قادة العرب في القاهرة ، وبدأت قوة الرغبة – لدى العرب – في الاستقلال والوحدة تتضح بجلاء امام ناظريه ، وبدأ ينجلي له الظلم والحماقة اللذان ستوقعهما الاتفاقية بما أقرته من تجزئة . ولم ينفك يعتقد ان دعم الوفاق بين انجلترة وفرنسة يجب ان يظل دائماً حجر الزاوية في السياسة البريطانية في الشرق ، غير ان بضعة مربعات سود في رقعة عقله اصبحت بيضاء فثارت مشاعره الاخلاقية والسياسية على خنق حركة تجلت له أقوى وأشد تماسكاً مما قدّر . وبعد عام واحد زاد ابتعاداً من الافكار الضيقة التي املت الاتفاقية فكتب رسالة الى اللورد روبرت سسل في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٧ يستحثه فيها من اجل مصالح العالم العامة ان لا تدّخر بريطانية وسعاً في « تعهد المدنية العربية وانعاشها وتقديم المساندة للوحدة العربية قصد اعداد العرب (الشعوب الناطقة باللغة العربية في آسية) للاستقلال النهائي » [١] .

٤

ولعل هذا التطوّر لم يكن قد بدأ يطرأ على فكر مارك سايكس في ايار (مايو) عام ١٩١٧ حين ذهب الى جدة ليتداول الرأي والملك حسين . وكان المسيو بيكو قد وصل القاهرة على رأس بعثة مهمتها الترويج لمصالح فرنسة في سورية عن طريق السعي السياسي بين زعماء العرب بمصر . وقد أثار وصول هذه البعثة والشائعات التي اخذت تروج حول مهمتها ونشاطها مخاوف الملك حسين ، فطلب الى السير ريجنالد ونجت (الذي اصبح مندوباً سامياً بعد السير هنري مكماهون) ان يطمئنه

١ – شين لزلي : مارك سايكس : حياته ورسائله (لندن ١٩٢٣) .

عن اهداف تلك البعثة . فاقترح ونجحت على وزارة الخارجية ان ترسل سايكس الى جدة ليحاول تخفيف القلق لدى الملك قدر استطـاعته ، وليمهد الطريق لزيارةٍ للشريف يقوم بها بيكو نفسه برغبة من الحكومة الفرنسية .

وكانت تلك فرصة مواتية لتطرح الامور كلها بصراحة امام الحسين، نظراً للاخلاص الذي كان يؤدي به دوره في الإتفاق العربي البريطاني – ان لم يكن لأي سبب آخر – . ولكن احداً لم ينتهز تلك الفرصة، فذهب سايكس الى جدة في اوائل ايار (مايو) وقابل الملك ، ثم بعد حوالي اربعة عشر يوماً عاد وفي صحبته بيكو للقيام بمقابلات اخرى . وفي التاسع عشر من ايار (مايو) أذن لهما الملك بمقابلة طويلة اعقبتها ثانية في اليوم التالي ، بُحث فيهما مستقبل البلاد العربية وعلاقتها بالمصالح البريطانية والفرنسية بحثاً مسهباً . ماذا جرى في تينك المقابلتين ؟ ذلك شيء لم يذع كله حتى اليوم ولكن من المؤكد الثابت ان المندوبين غادرا جدة دون ان يفضيا للملك حسين بنصوص اتفاقية سايكس – بيكو . وتدل الأحداث التي تلت على انهما لم يذكرا شيئـاً عن وجودها الا تلميحات عامة عن التفاهم والتضامن الانجليزي الفرنسي .

وكان حسين يؤكد جازماً قاطعاً ، في السنوات التي أعقبت الحرب ، بأنه لم يجرِ ادنى ذكر لاتفاق بين الحلفاء يتعلق بالاقطار العربية في تينك المقابلتين او في غيرهما ، وان اول اشارة تلقاها عنه انما كانت يوم كشف الاتراك له عن وجود ذلك الاتفاق . وكـان يؤكد ان مباحثات جدة في ايار (مايو) عام ١٩١٧ لم تتعرض بالدرجة الاولى الا الى مسألة قبول العرب – او عدم قبولهم – ان يعترفـوا لفرنسة بمنطقة نفوذ في المناطق الساحلية من سورية الشمالية – اي لبنان . وكان هو الناطق المفوض باسم الحركة القومية ، فكان موقفه موقف من لا يرى من حقه – فيما يبدو – ان يتساهل فيما قد يمس السيادة العربية ،

وان اقصى ما يستطيعه هو ان يشاور زعماء الحركة ويحاول ان يقنعهم للوصول الى اتفاق مع فرنسة حول لبنان شبيه بما توصل اليه مع بريطانية حول العراق في مراسلات مكماهون ، اي للاشتراك بين فرنسة والعرب في ادارة لبنان في مدة محددة من السنوات ، تُمِدّ فرنسة اثناءها تلك الادارة بالمعونات المادية وتطور مصالحها ضمن إطار السيادة العربية .

اذن فإن حسيناً لم يسمع بوجود اتفاقية سايكس – بيكو وبشروطها الا بعد ستة اشهر ، اي في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٧ ، وكانت الاخبار التي وصلته عنها صادرة من مصادر العدوّ . ذلك ان الحزب البلشفي قد استولى على السلطة في روسية قبل شهر من ذلك التاريخ ، وكان من اول ما عمله ان نشر بعض الوثائق السرية الموضوعة في محفوظات وزارة الخارجية القيصرية ومن بينها نصوص اتفاقية سنة ١٩١٦ فلم يتوانَ الأتراك عن تقديمها للحسين مع عرض بابرام صلح عربي تركي منفرد .

٥

صدر هذا العرض عن جمال باشا في الاسابيع الأخيرة من مقامه في سورية ، وقال انه يقدمه نيابة عن الحكومة العثمانية ويؤيدها في ذلك حلفاؤها الألمان . وأرسل جمال في الاسبوع الاخير من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ رسولاً سرياً الى العقبة ، ومعه رسالة منه الى الامير فيصل واخرى لجعفر باشا ، وهما تحملان تاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) . وللرسالتين مغزى واحد الا ان الصياغة والمحتوى قد أحكما ببراعة فذة بحيث يستهويان شخصية المخاطب في كل حال ويجدان لديه قبولاً .

اما الرسالة الموجهة الى فيصل فقد كتبت في صيغة نداء يوجهه

مسلم جدي التفكير الى اخيه ويقول له : ان من واجب من يعنيهم مجد الاسلام ان يوقفوا كل طاقاتهم لخدمته ، واذا دعت الحاجة الى ان يوقفوا حياتهم من اجله بذلوها راضين ؛ وان فيصلاً وأباه قد ضللتهما الوعود التي أعطيت لهما باستقلال العرب ، وجعلتهما يثوران ضد السلطة العليا في الاسلام ، وانه قد صرّحت القرائن عن ان تلك الوعود محض زور وإفك لأن النوايا الحقيقية لدى الحلفاء هي اقتسام الأقطار العربية ووضعها تحت حكم اسياد اجانب ، وان الفرنسيين سيأخذون سورية والانجليز العراق وستجعل فلسطين دولية ، ولم يبق من طريق للعرب سوى ان يعودوا الى الحظيرة العثمانية ويكفلوا لأنفسهم حقوقهم المشروعة بالتفاهم مع الاتراك . واختتمت الرسالة بدعوة فيصل ان يحضر هو نفسه الى دمشق ، وله الأمان ، لافتتاح باب المفاوضات . وأرفقت بالرسالة ورقة اخرى كتب عليها مجمل الشروط التي يقبل الترك بموجبها مبدأ التفاوض . وترمي تلك الشروط الى منح الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع امانيهم القومية ، وفي الورقة المرفقة فقرة تقول : اذا حدث واسفرت المفاوضات عن اتفاق ، وليس من سبب يحول دون ذلك ، فان شرعية شروطها لا تكون مضمونة بتصديق السلطان وحده بل تكون ايضاً بضمان مماثل من جانب الحكومة الالمانية .

وقد نص جمال باشا في الرسالتين ، سواء المسهبة التي كتبها لفيصل او الموجزة التي بعث بها الى جعفر ، على مغزى اتفاقية سايكس – بيكو لانها برهان على ان العرب قد انخدعوا بالحلفاء . وذهب الى ابعد من ذلك حين قال : لو كانت وعود بريطانية منطوية على شيء من الصدق إذن لوجد للثورة العربية معنى وإذن لربما وجد لها مسوّغاً وإن كانت مضللة . ولكن حين قطع الشك باليقين المحض وثبت ان الحلفاء يضمرون اغراضاً سرية تتناقض واستقلال العرب فمن اللائق بزعماء العرب ان لا

يخدعوا انفسهم بعد ، وان يدركوا ان التعاون مع الحلفاء سيجر البلاد العربية – في الواقع – الى الاستعباد على يد فرنسة وبريطانية العظمى وروسية ، وهم يتوهمون انه سيحرز لهم الاستقلال .

وكانت الحكومة التركية وحليفتها ألمانية ترغبان رغبة شديدة في إنجاح العروض التي قدمت للعرب حتى انهما عملتا على اعلان تلك العروض على الملأ . فأقيمت مأدبة رسمية في بيروت في الرابع من كانون الاول (ديسمبر) ، وجمال باشا ضيف الشرف فيها ، فألقى يومئذ خطبة صرّح فيها بالعروض التي فاتح بها الشريف حسيناً . وأحدث الخطاب أثراً عميقاً في السامعين اذ كان أشدّ خطبه التي ألقاها في سورية صراحة . وفيه راجع الموقف العسكري ، وغايته ايجاد المسوغات لاخفاقه ، وقدّم للسامعين وصفاً للضرر الذي سببته الثورة العربية لا لوحدة الاسلام فحسب بل لتلك المصالح نفسها التي أعلن زعماء الثورة انهم يسعون لخدمتها . وكان الخطاب مزيجاً من المعاذير والدعاية ، ألقاه جمال قبل بضعة ايام من سقوط القدس وهو يعلم ان استدعاءه اصبح وشيكاً . غير ان بعض فقراته تستحق الاقتباس لأنها تلقي ضوءاً على رغبة الترك في مصالحة العرب [1] :

« كنت حريصاً على ان اعلم كيف استمال الانجليز الشريف حسيناً اليهم ، ولكن بعض القادمين اخيراً من تلك الجهات قد أزالوا الستار عن وجه الحقيقة واعان على ذلك ايضاً ما ورد في متن العهود الخفية التي نشرت اخيراً في بطرسبورج . وذلك ان انكلترا وفرانسا وروسيا وايتاليا [2] عقدن بينهن معاهدة خفية على أثر دخولنا في الحرب بمدة قليلة اي في

١ – نشرت جريدة «الشرق» نصا كاملا من هذا الخطاب في العددين رقم ٤٩٤ ، ٤٩٥ . (كتب المؤلف سهوا ٤٦٤ ، ٤٦٥)

٢ – لم تكن ايطالية – في الواقع – طرفا في اتفاقية ١٩١٦ لان الحكومات الثلاث لم تطلعها عليها . وفي ربيع ١٩١٧ اكتشفت الحكومة الايطالية وجود تلك الاتفاقية فطالبت بحصة من آسية الصغرى ، واعترفت لها كل من فرنسة وبريطانية العظمى بمطلبها ذاك في مؤتمر « سان جان دي مورين » .

اوائل عام ١٩١٥ قررن فيها تأسيس سلطة عربية مستقلة تؤلف من جميع الولايات العربية العثمانية تحت رعاية دول اوروبة وحمايتهم ... وفي الحقيقة ان هذا القرار كان عبارة عن خدعة لايجاد الثورة العربية التي كانت مطمح نظر الانجليز فانهم كانوا يسعون لجعل ثوار العرب آلة خاصة لتحقيق آمالهم فيعدونهم الوعود الكاذبة ويمنونهم الأماني الباطلة .

« فالشريف حسين باشا المسكين وقع اخيراً في احبولة الانكليز وانخدع بأقوالهم وأخل بوحدة الاسلام وشرفه . ان الانكليز بعد ان اخذوا وعداً من الشريف حسين بالعصيان قرروا المدافعة عن الترعة ضمن شبه جزيرة سيناء ... ان الانكليز لم يجتازوا الترعة الا بعد تأمين خروج الشريف وعصيانه فاذا كانوا اليوم اصبحوا أمام القدس فذلك نتيجة عصيان الشريف حسين في مكة .

« لو لم يكن الاستقلال الذي وعد به الانكليز الشريف حسين باشا سراباً خادعاً او لو كان امل الاستقلال والسلطنة الذي يحلم به الشريف حسين باشا ممكن الحصول ولو امكاناً بعيداً لأمكنني ان ارى في عصيان الحجاز ذرة من التعقل ، ولكن سرعان ما صرح الانكليز بمرادهم ... وعليه فالشريف حسين باشا بنفسه فضلاً عن تسببه بوصول الاعداء الى امام قلعة القدس سيشعر بالتعاسة التي جلبها لنفسه بابدال شرف الامارة الممنوح له من الخلافة الاسلامية بالعبودية للانكليز .

« بعثت اخيراً الى الشريف حسين باشا كتاباً صورت له فيه هذه الحقائق ، وأفهمته حرج مركزه الحاضر وخطره ، فاذا كان مسلماً حقيقياً وكان جامعاً لمزايا العرب وخصائلها واحساساتها يقلب للانكليز ظهر المجن ويؤول راجعاً الى خليفة الاسلام والمسلمين . انني قد قمت بواجباتي الدينية راجياً من الله جل وعلا ان يلهمه طريق الرشد والصواب والهداية » .

ألقى جمال خطابه بالتركية وقرأ مفتي الجيش الرابع على الناس ترجمة دقيقة له بالعربية . وامرت كل الصحف في سورية ان تنشر النصّ كاملاً وأرسلت منها نسخ الى المدينة ومنها هُرّبت الى مكة . وتدل شهادة المعاصرين للأحداث ، كما يدل الخطاب نفسه ، على ان آمال الترك في نجاح عروض الصلح كانت تبلغ ذروتها .

٦

ولم يردّ فيصل جواباً واكتفى بأن بعث الرسالتين الى ابيه مع البريد السريع . وانزعج الحسين بشدة ولكنه رفض أيّ تعامل مع العدو ، فأوعز الى فيصل ان يرسل رداً مقتضباً الى جمال يرفض فيه عروض الصلح ، وبعد ان أنجز ذلك قدّم المراسلات كلها الى المندوب السامي بمصر ورجاه ان يزوده بتفسير للاتفاقية السرية التي ذكرها جمال .

وأحس السير ريجنالد ونجت بحرج محيّر ، فأحال المسألة الى وزارة الخارجية ، وكانت فرصة سانحة للحكومة البريطانية لكي تنتشل نفسها من الموقف الخادع وتعامل حليفها بمثل ما كان يعاملها به من صدق وإخلاص ، الا انها فوّتت الفرصة ولم تنتهزها ؛ واليك ما عملته : ارسل المستر بلفور سكرتير وزارة الخارجية رسالة برقية الى الملك حسين أقل ما يقال فيها انها صورة من مغالطة متعمدة . ولم تقر الحكومة بصحة ما فضحه الروس من امر الاتفاقية ولم تنكره ، بل قدّمت صورة مضللة عن طبيعة الاتفاقية وغايتها في عبارات توحي للحسين بأن يعدّ النسخة التي ارسلها جمال مثالاً جديداً على الدسائس التركية .

وبعث ونجت بالرسالة برقياً الى حسين ، ثم شفعت بمذكرة رسمية رفعها نائب المعتمد البريطاني في جدة الى ملك الحجاز . وهذا هو نص البرقية التي بعث بها ونجت [1] :

« ان البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجيــة في بترغراد معاهدة معقودة ، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انجلترا وفرنسا وروسيا في اوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول اثناء مواصلة القتال ضد الترك ، وذلك قبل النهضة العربية ، وان جمال باشا اما من الجهل او الخبث غير في مقصدها الاساسي وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الاهالي وحماية مصالحهم . وقــد تجاهل ما وقع بعد ذلك من ان قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا قد اوجد حالة اخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ امد مضى » . اهـ .

اما نص المذكرة المؤرخــة في الثامن من شباط (فبراير) ١٩١٨ فانه مدرج في الملحق (ج) ، حسبما تلقاه الملك حسين مكتوباً باللغة العربية . وتستفتح المذكرة بالثناء على الملك العربي لأنه أطلع حلفاءه مخلصاً على عرض الصلح المقدم اليه ، ولانه كان حكيماً سديد الرأي حين رفضه . وهي لا تذكر شيئاً عن اتفاقية عام ١٩١٦ التي مكنت الترك من التذرع بعرض الصلح ، الا انها تحاول ان تطمئن الحسين بأن

---

١ ـ نشرها عوني بك عبد الهادي في مقال له ظهر في جريدة الجامعة الاسلامية : (يافا) ١٤ ايلول (سبتمبر ١٩٣٤) (وانظر ايضا كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين : ٣٢٦ للشيخ حافظ وهبة ومنه نقلنا هذه الترجمة) .

تصوّر عرض جمال محض خدعة تركية يراد بها بذر بذور الشقاق بين العرب والحلفاء . واختتمت بالتأكيد القاطع على ان بريطانية العظمى وفقاً لسابق عهدها ستقف الى جانب العرب في كفاحهم من اجل التحرر وتساعدهم في الحصول على حريتهم .

وعلى ضوء الحقائق التي اصبحت معروفة حتى اليوم تعد الرسالة التي ارسلت باسم بلفور مراسلة غادرة . آية ذلك ان عرض الصلح الذي قدمه الاتراك أثار شكوكاً في ذهن الملك حسين ، فسعى ليتحقق من امر تلك الشكوك بالطريقة الوحيدة التي يسلكها رجل شريف ، وذلك بأن عرضها على حلفائه ؛ وكان الرد الذي تسلّمه يهدف بوضوح الى مخادعته ، لا لأنه ردّ حادّ عن صلب الموضوع فحسب ، اي تجنب الاجابة على هذا السؤال : هل صحيح ان الحلفاء عقدوا اتفاقات سرية ذات اثر في تدبير البلاد العربية في المستقبل ؟ بل لانه كان رداً مطوياً على المخادعة والغش اذ كسا التهرب من الاجابة لغة توحي بأن مثل تلك الاتفاقات لم تعقد ابداً . وتقبل حسين هذه الرسالة الماكرة على ظاهرها وقعد مستريح البال لان ايمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الانجليزي لم يكن قد تزعزع بعد .

٧

وفي الوقت نفسه التزمت الحكومة الانجليزية بتعهد آخر يناقض تعهداتها السابقة للعرب ، بعد عدة اشهر من المفاوضات المتتالية مع زعماء اليهود بانجلترة ، وهذا التعهد هو ما عرف باسم « وعد بلفور » المشهور . وسأقص كيف صدر ، في ايجاز .

بعد اندلاع الحرب بقليل عملت جماعة من زعماء الصهيونية بانجلترة لتكسب عطف الحكومة على القضية الصهيونية. وكانت الجهود الصهيونية في الميدان السياسي حتى ذلك الحين متركزة في المقام الاول حول اقناع حكام تركية – بمختلف الوسائل – ليمنحوا اليهود مزيداً من حق الاستيطان في فلسطين. ولم تلاق تلك الجهود نجاحاً إذ خذلها عبد الحميد دون مواربة ، اما رجال تركية الفتاة فانهم كانوا ميالين في البداية ، نظراً لقوة نفوذ اليهود في مجالس جمعية الاتحاد والترقي ، الى ان يصغوا للمقترحات الصهيونية ، ثم وجدوا من الحكمة في النهاية ان يرفضوها وبخاصة بعد جلسة صاخبة في البرلمان العثماني في خريف سنة ١٩١٢م حين احتج ممثلو العرب على إحراز اليهود منطقة واسعة من الاراضي الزراعية في سهل مرج ابن عامر وعلى ما قد يؤدي اليه ذلك من نزع ملكية الفلاحين العرب. وكانت برلين عند بدء الحرب مركزاً للنشاط الصهيوني. فلما حالفت تركية مجموعة الدول الوسطى (النمسة – المجر – المانية) وجد زعماء الصهيونية من المفيد ان يتقربوا الى الحلفاء كذلك ، حتى اذا أدت الحرب الى تفكك الامبراطورية العثمانية ، ضمنت القضية الصهيونية آذاناً صاغية.

ولم تكن المهمة التي اضطلع بها زعماء الصهيونية بانجلترة ، وعلى رأسهم الدكتور حايم وايزمن ، مهمة سهلة. ذلك لأن اغلبية اليهود الانجليز ذوي النفوذ كانوا يقاومون الصهيونية او – بعبارة أدق – يعارضون الفكرة القومية التي هي قوام الصهيونية السياسية. وكان من اقوى المؤيدين للصهيونية – خارج النطاق اليهودي – س. ب. سكوت محرر المانشستر جارديان يومئذ و أ. ج. بلفور. ولم يكن لها مؤيد مشهور سوى هذين حتى منحها المستر لويد جورج تأييده دون توان عندما فاتحه الدكتور وايزمن بأمرها. وبذلت جهود حينئذ لتضمن عطف الوزارة ، وكان الذي أخذ هذا الأمر على عاتقه هو المستر

هربرت (اللورد الآن) صموئيل الذي كان وزيراً في حكومة اسكويث ، ففاتح بذلك رئيس الوزراء وبعض زملائه ولكن تبين ان اسكويث لم يكن يعطف على الحركة فلم تؤد الجهود الى نتائج ايجابية [1] . وبعد حوالي سنتين جاء لويد جورج خلفاً لاسكويث في رئاسة الوزراء ، واصبح بلفور وزيراً للخارجية ، وعندئذ افتتحت المفاوضات لاول مرة بين الزعماء الصهيونيين وممثل معتمد من الحكومة .

حتى ذلك الحين كانت قد وقعت أمور كثيرة غلّت يد الحكومة البريطانية ومنعتها من ان تكون مطلقة في تقرير مستقبل فلسطين : فأما اولاً فان الصفقة التي عقدتها مع الشريف حسين عام ١٩١٥ ألزمتها بأن تعترف بدولة عربية في منطقة لم تستثن منها فلسطين – كما أثبتناه – وبأن تساند استقلال تلك الدولة . واما ثانياً فان بنود اتفاقية سايكس – بيكو رسمت وضع البلاد المقدسة تحت شكل من اشكال الادارة الدولية ، مناسب لها ، تشترك في وضعه فرنسة وروسية وسائر الحلفاء بل يشترك في ذلك ايضاً شريف مكة . واما ثالثاً فان عداوة فئة ذات نفوذ من اليهود الانجليز للصهيونية قد اشتدت الى حد ان اعلنت تلك الفئة معارضتها القاطعة لانشاء الدولة اليهودية التي كان يبشر بها الصهيونيون . وقامت حملة من المعارضة يقودها : « مجلس نواب اليهود الانجليز » و « الجمعية الانجليزية – اليهودية » وهما اكثر الهيئات تمثيلاً لليهود الانجليز ؛ وكانت غاية الحملة ثني الحكومة عن

---

١ – وضع المستر هربرت صموئيل وجهة نظره في مذكرة حث فيها بقوة على ان تكون فلسطين لبريطانية ، بغية ان يستوطنها ثلاثة او اربعة ملايين من اليهود ، ورد اسكويث بانه – على حد قوله – « غير منجذب » الى ذلك الاقتراح . وبعد عشر سنوات زار اسكويث فلسطين وكتب يقول : « ان الحديث عن جعل فلسطين « وطنا قوميا » لليهود لا يزال في نظري مثلما كان من قبل خيالا جامحا » . راجع ذكريات وتأملات : ٢ (١٩٢٨) .

الانقياد لرغبات الصهيونيين [1] . وقد وجدت الآراء التي تنادي بها هاتان الهيئتان ناطقاً بلسانها في الوزارة نفسهـــا ، وذلك هو المرحوم ادوين مونتاجيو سكرتير الدولة لشئون الهند حينئذ .

ومهما يكن من شيء فان هذه العقبات لم تثنِ المستر لويد جورج عما اعتزمه ، فعيّن السير مارك سايكس ليبدأ المفاوضات مع الصهيونيين . ماذا كانت الدوافع التي تحدوه للتفاهم مع زعماء الصهيونية ؟ وما هي الاعتبارات التي جعلت الحكومة البريطانية في النهاية تصدر وعد بلفور ؟ هذان سؤالان احتجبت الاجابة الصحيحة عنهما في ضباب الأساطير والدعايات . فثمة من يزعم ان اليهود استغلوا نفوذهم المالي والسياسي ليجروا الولايات المتحدة الى الحرب في جانب الحلفاء ، وكان تصريح بلفور مكافأة لهم على الخدمات الفعلية التي قدموها . ولكن جميع الشواهد التي نشرت لا تؤيد هذا الزعم ، ولا يستطيع المرء إلا ان يستنتج احد شيئين : اما أنه زعم قائم على غير أساس وإما انه قائم على اساس حقاً خلا ان الخدمات التي قدمتها اليهودية العالمية في تلك المناسبة كانت خفية في طبيعتها حتى انها – الى اليوم – فاتت نظر جميع المؤرخين الذين تصدوا لدراسة التدخل الامريكي . ثم كثيراً ما تسمع قائلاً يقول : ان تصريح بلفور قد أصدر لقاء وعود بتقديم إعانات كبيرة دفعتها المصادر اليهودية لشراء سندات ديون الحرب . ولكن هذا الزعم يمكن ايضاً طرحه بسهولة لأن الشواهد المتيسرة قليلة لا غناء فيها وكل ما تمدنا به يدل على ان أكثر اليهود الذين اشتروا ما اصدرته بريطانية من سندات قروض الحرب في عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ إنما كانوا من المعارضين للسياسة التي يمثلها وعد بلفور ، وثمة أسطورة

---

١ – من شاء تفصيلات اخرى في هذه النقطة فليراجع المجلد الاول من « تقارير للهيئة التنفيذية في المنظمة الصهيونية مرفوعة الى المؤتمر الصهيوني الثاني عشر » – التقرير السياسي (مطبعة العمل القومي لندن : ١٩٢١) ، وانا مدين لهذا الكتاب ببعض ما جاء في هذا الفصل من معلومات .

اخرى تعزو نشوء الوعد الى رغبة الحكومة البريطانية في مكافأة الدكتور وايزمن على اختراعه نوعاً جديداً من المتفجرات في إبانه .

والحق ان الحكومة البريطانية دفعت الى ذلك بعاملين ، اولهما سياسي وهو : ان تكسب العناصر الصهيونية القوية في المانية والنمسة ، وكانت تلك العناصر تفاوض – فعلاً – الدول الوسطى لكي تصدر « وعداً » تركياً – مشبهاً لوعد بلفور – فأرادت بريطانية ان تصرف همّ تلك العناصر الصهيونية الى انتصار الحلفاء ، وتخفف في الوقت نفسه من عداء اليهود القاطنين في بلاد الحلفاء نحو روسية ، وتحفز اولئك اليهود الذين كانوا ضالعين في قلب النظام القيصري ليعملوا على استمرار روسية في الحرب . وثانيهما دافع استعماري ، روّج له اولاً كتشنر ، حين دعا الى اتخاذ فلسطين او جزء منها درعاً تحمي مركز البريطانيين بمصر ، وحلقة وصل برية تربطها بالشرق . وكان هذا هو أقوى العوامل ، ومهما يكن دور العوامل الاخرى ، مالية كانت او سياسية او دينية او إنسانية ، فان ذلك العامل الاستعماري كان وحده كافياً ، دون ريب ، لإصدار وعد بلفور . ولا نجانب الحق اذا قلنا ان الحكومة البريطانية لو لم تتفق مع الصهيونيين لجربت بكل وسيلة تستطيعها ان تعقد صفقات اخرى تضمن استرجاع فلسطين لبريطانية العظمى حصة خالصة لها من اسلاب الحرب .

وتجلت اهمية فلسطين في التخطيط الاستعماري مع تدرّج الحرب . وتعتمد تلك الاهمية – في المقام الاول – على مجاورتها لمصر التي تفصلها عنها صحراء سيناء القاحلة . وكان من بديهيات العلوم العسكرية في ايام ما قبل الحرب ان اتخاذ الصحراء درعاً واقياً يعادل في مناعته تحصين الحدود بالقلاع العسكرية . وبما ان الحدود التركية المصرية تقع على الطرف الشرقي من سيناء فقد كانت مصر – لذلك – بمأمن تام من الخطر . غير ان تجربة الحرب زعزعت ذلك الاعتقاد من أصوله ، ففي

سنة ١٩١٥ قامت قوة تركية كبيرة جيدة الاعداد باجتياز الصحراء ووصلت ضفة قناة السويس ، وفي صيف السنة التالية اجتاز السير ارشيبالد مري صحراء سيناء مع جيش كبير ، ومد في اثناء تقدمه خطاً حديدياً وانبوباً للبترول ، ثم احتل العريش ، واوشك ان يهاجم غزة — كذلك إذن بطلت البديهية القديمة وتغلب العلم الحديث على الصحراء وقام الدليل على ان قناة السويس ليست بمأمن من الخطر . بل لو ان تركية ظلت صاحبة السيادة في فلسطين لكان في هذا وحده سبب للقلق. اما وقد اصبحت فرنسة تطالب ان تكون سورية خاصة بها ، وجعلت حلفاءها يفهمون — بجلاء — ان فلسطين مشمولة في مطلبها ، فقد صار لزاماً على بريطانية — تأميناً لسلامتها ان لم يكن لأي شيء آخر — ان تقيم حاجزاً بين موقعها في قناة السويس وموقع فرنسة المقبل في سورية، وليكن ذلك الحاجز اكثر حصانة من تلك المنطقة الدولية « البنيّة » التي نصت عليها اتفاقية سايكس — بيكو ، وليكن الحاجز بريطاني التبعية ان أمكن ذلك . من ثمّ صدر وعد بلفور ، فمهد السبيل امام بريطانيـة لتقول من بعد عند إحراز النصر كاملاً ، انها قد منحت الصهيونيين تعهداً جدياً فيما يتعلق بوطن قومي في فلسطين ، وانهـا لتحقيق ذلك التعهد ترى من الأنسب ان تأخذ على عاتقها عبء حكم فلسطين .

٨

وكانت اول خطوة تقوم بها الحكومة البريطانية هي ان تطمئن — إن هي اصدرت تصريحاً في مصلحة الأماني الصهيونية — الى ان الصهيونيين سيرحبون بإقامة حكم بريطاني في فلسطين ويعملون لتحقيقه . فلما تسلم لويد جورج زمام السلطة في كانون الأول (ديسمبر) عـام ١٩١٦ كانت هناك خطة رسمها زعماء الصهيونية وخططوا فيها برنامجاً لإدارة فلسطين ان تم النصر للحلفاء . وتفترض الخطة ان تصبح ادارة فلسطين

– بعد الحرب – من نصيب فرنسة او بريطانية العظمى او الدولتين معاً في حكم ثنائي ؛ ولم يكن الزعماء الصهيونيون يعلمون بوجود اتفـاقية سايكس – بيكو ، وقدروا ان فرنسة قد تنجح في إنفاذ مطلبها بأن تعتبر فلسطين جزءاً من سورية . غير ان البرنامج الصهيوني في حاله تلك ، اي في تسويته بين الأغراض البريطانية والفرنسية في فلسطين ، لم يكن يتطابق كلياً وعقلية لويد جورج ، ولكن عندمـا استعرضت المسألة في محادثات استطلاعية جرت بين السياسيين البريطانيين والزعمـاء الصهيونيين ، كان التلميح أفعل من التصريح فقرر الزعماء الصهيونيون – بنباهة الحاذق – حذف اسم فرنسة من خطتهم وتوجيه وكدهم لأن تكون فلسطين خالصة لبريطانية . وحينئذ فوّض المستر لويد جورج امر الدخول في مفاوضات مع الصهيونيين الى السير مارك سايكس ، وبموجب ذلك عقد اول مؤتمر بلندن في السابع من شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ . وفي ذلك المؤتمر قدم زعماء الصهيونية لسايكس تأكيداً رسميـاً بأنهم يعارضون معارضة حاسمة اي تدويل للبـلاد المقدسة حتى وان اقتصر ذلك على حـكم ثنائي فرنسي – بريطـاني ، وانهم ان عضدت بريطانية العظمى امانيهم القومية سيعملـون – من ثم – على انشاء « محمية » بريطانية في فلسطين ، ذلك هو اساس الصفقة التي أدت الى اصدار وعد بلفور بعد تسعة اشهر ، وعندئذ ارتفعت الاصوات تقول: ان المستر لويد جورج وزملاءه قد قدموا للعالم، حين تبنوا بجرأة قضية اليهودية المضطهدة، برهاناً آخر على مثاليتهم الانسانية التي استلهموها في موقفهم .

وفي السنوات الأخيرة اصدر كل من الدكتور وايـزمن ولويد جورج * تصريحات ترمي الى ان تعطي تعليلات متباينة للدوافـع التي حفزت الى اصدار وعد بلفور . فقد قال الدكتور وايزمن في خطاب

---

* يشير المؤلف الى قول لويد جورج من بعد : كان اعلان تصريح بلفور في ذلك الحين امرا اقتضته موجبات الدعاية . انظر الوثائق الرئيسية ، المجموعة الاولى : ٨٨ . – المترجم –

ألقاه في « المعهد الملكي للشؤون الدولية » بلندن في التاسع من حزيران (يونية) عام ١٩٣٦ :

« كثيراً ما نسمع القول يتردد بأن وعد بلفور انما تمّ ... لأسباب استعمارية او لما يشبهها من اسباب مبتذلة وكل ذلك كـــذب محض . وإني لأظن ان حقيقة واحدة قد تنفي صحة هذه الأسطورة : عندما وافقت الحكومة البريطانية على ان تصدر وعد بلفور المشهـــور وافقت عليه بشرط واحد : هو ان لا تكون فلسطين في رعاية بريطانية العظمى، وضمن مسئوليتها » .

وهذا القول لا يتفق والحقائق بل ولا حتّى مع الرواية الموجـــزة الواردة في التقرير الذي نشرته سنة ١٩٢١ الهيئة التنفيذية للمنظمـــة الصهيونية [١] ، فقد جاء في ذلك التقرير ان تقدير القيمة السّتراتيجـــية لفلسطين في نظر الامبراطورية البريطانية هو الذي كان له الوزن الراجح لدى من سعوا لاستصدار وعد بلفور ، وان الزعماء الصهيونيين في اول مؤتمر عقدوه مع السير مارك سايكس قد وضحوا له ان غاياتهم تشمل إنشاء محمية بريطانية في فلسطين ، وكان الدكتور وايزمن ممن شهدوا ذلك المؤتمر . كذلك فان قوله السابق لا يطابق ما حكاه أسكويث عن المشافهات والعرائض التّي قدمت اليه يوم كان رئيساً للوزارة منذ بداية سنة ١٩١٥ ، وقد كان من جملة تلك العرائض – كما أشرنا من قبل – مذكرة قدمها المستّر هربرت صموئيل بحث فيها بريطانيـــة العظمى على استلحاق فلسطين بقصد توطين ثلاثة او اربعة ملايين يهودي فيهـــا – وهو اقتّراح وجد حظوة لدى المستّر لويد جورج ورفضـــه المستّر أسكويث . واليك ما كتبه أسكويث في مقيـدة من مقيداته بتـــاريخ

---

١ – تقدمت الاشارة اليه في التعليق السابق .

١٣ آذار (مارس) ١٩١٥ * :

« لقد سبق ان أشرت الى مذكرة هربرت صموئيل ذات الايقـاع الحماسي . وفيها يستحثنا اذا نحن توزعنا املاك الاتراك في آسيـة ان نأخذ فلسطين حيث يتجمع اليهود المشتتون ، مع الزمن ، من جميع انحاء الكرة الارضية ، ويحصلون في الوقت المناسب على الحكم الذاتي . ومن الغريب ان الوحيد الذي يؤيد اقتراح صموئيل هو لويد جورج ؛ ولست في حاجة الى القول بأن لويد جورج لا يكـترث باليهود او بماضيهم او بمستقبلهم قيد شعرة ولكنه يرى سبةً ان تترك الامـاكن المقدسة لتتملكها فرنسة او تكـون تحت حماية تلك الدولة اللادينية الملحدة » [١] .

ولولا بعض الصعوبات السياسية لكان من الممكن ان يصدر وعد بلفور قبل تاريخ صدوره . واحدى تلك الصعوبات معارضة اليهـود اللاصهيونيين الذين أفزعتهم المفهومات القومية في الصهيونية السياسية ، وأذاعوا معارضتهم تلك في بيان لافت يمتاز بشيئين : الاخلاص وبعد النظر – كما دلت الأحداث من بعد – وظهر البيان في عدد « التايمز » الصادر يوم ٢٤ ايار (مايو) سنة ١٩١٧ بتوقيع دافيد ل . الكسندر رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين ، وكلود ج . مونتفيوري رئيس الجمعية اليهودية الانجليزية . وأكد فيه الموقعـان إخلاصهما للصهيونية « الحضارية » التي ترمي الى ان تجعل فلسطين مركزاً روحياً تجد فيه العبقرية اليهودية فرصة للتطور الخاص بها ؛ ولكنهما يحتجان احتجاجاً قوياً جاداً على فكرة الصهيونية « السياسية » التي تدّعي ان المستعمرات اليهودية في فلسطين يجب ان تعد ذات طابع قومي بمعنى سياسي ، وان

* انظر هذه التعليقة التي كتبها اسكويث في الوثائق الرئيسية : ٩٣ (المجموعة الاولى) . – المترجم –

١ – « ذكريات وتاملات » بقلم ايرل أف اكسفورد واسكويث (١٩٢٨) .

المستوطنين فيها يجب ان يمنحوا حقوقاً خاصة على اساس من الامتيازات السياسية والتمييزات الاقتصادية . وتنبأ بأن انشاء قومية يهودية في فلسطين لا بد من ان « يسم اليهود بوسم الغرباء في اوطانهم لدى العالم كله ويقوّض مركزهم من حيث هم مواطنون في تلك الاوطان » . وقد أثبتت الاحداث ان هذه المخاوف كانت ذات اساس قوي ، إذ لا يستطيع احد ان ينكر ان تطوّر الصهيونية في فترة ما بعد الحرب كان من العوامل النفسية الرئيسية في النمو المؤسف لشعور الكراهية ضد اليهود (او اللاسامية) .

وصعوبة ثانية هي نفور الحكومة الفرنسية من التنازل عن ادعاءاتها فيما يتعلق بفلسطين ، وكانت هناك جماعات قوية بين السياسيين الفرنسيين وفي دوائر الاعمال والأموال وفي المجالات الكنسية ممن يجد لديها اقتراح استثناء فلسطين من مجال النفوذ الفرنسي صدّى مقيتاً بغيضاً ، ولم يكن يتوقع من الوزارة الفرنسية ، وعلى رأسها رجل حذر مثل ريبو ، ان تؤازر مثل ذلك الاقتراح ، وكان من الواضح لدى الحكومة البريطانية والزعماء الصهيونيين ان عليهم العمل بحذر مطلق . فاستخدموا اساليب تمكنهم من الحصول على موافقة الحكومة الفرنسية على مبدأ قيام استيطان صهيوني في البلاد المقدسة ، دون اشارة محددة الى مسألة مستقبل السيادة على فلسطين ولمن تكون . وكانت الحكومة الفرنسية في اول مفاتحة بذلك بعيدة كل البعد عن تشجيع الفكرة ومؤازرتها . ثم إن زعماء الصهيونية سمعوا حينئذ – لأول مرة – بوجود اتفاقية سايكس – بيكو إذ تسرّب اليهم نبؤها عرضاً وعرفوا شروطها التي تنص على تدويل فلسطين ، وشعروا انهم كانوا مخدوعين فاحتجوا على ذلك للحكومة البريطانية غاضبين ، غير ان تلك الحكومة نجحت في طمأنتهم ؛ فمضوا في المفاوضات كأن اتفاقية سايكس – بيكو لا وجود لها .

وأخيراً ، بعد مفاوضات طويلة الأمد ، وافقت الحكومة الفرنسية

على ان يصدر تصريح في صالح الصهيونية . واستغل القاضي برانديس* نفوذه لدى البيت الابيض ، في الولايات المتحدة ، استغلال الرجل القدير ، حتى حصل من الرئيس ولسن على قبوله للبنود التي سيتضمنها التصريح المقترح . وتعرقل تقدم المفاوضات ، بعض الوقت ، بانقسام الرأي بين اعضاء الوزارة البريطانية وبسبب المعارضة الشديدة التي كان يمثلها ادوين مونتاجيو اليهودي الوحيد في الوزارة . كذلك كان هناك تباين اساسي حول طبيعة الاستيطان اليهودي المقبل في فلسطين . اما الصهيونيون فكانوا يسعون لاقرار سياسة تقبل مبدأ « اعتبار فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي » . واما الحكومة البريطانية فلم تكن تريد ان تلتزم بسياسة كهذه بعيدة المدى والنتائج ، ولذلك رفضت ان تعد بشيء اكثر من انها تنظر بعطف الى « انشاء وطن قومي للشعب اليهودي، في فلسطين » . والفرق بين الموقفين هو الفرق بين وطن قومي يهودي محدد في فلسطين وبين وطن قومي غير محدد . ورضي الصهيونيون في النهاية ووافقوا على النص الذي صيغ اخيراً في العبارة التالية :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يفهم جلياً انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » ** .

---

* وصفه وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ » بانه كان على رأس الحركة الصهيونية في ذلك الحين وتحدث عن جهوده في ذلك الميدان .

— المترجم —

** اعتمدنا في نص هذه العبارة على « تقرير اللجنة الملكية لفلسطين » المطبوع بالعربية تموز (يولية) ١٩٣٧ . وانظر ايضا نص وعد بلفور في « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » — المجموعة الاولى : ٨٧ — المترجم —

ولقد صدر هذا التصريح الذي اصبح معروفاً باسم « وعد بلفور » عن وزارة الخارجية البريطانية في الثاني من تشرين الثـاني (نوفمبر) ١٩١٧ وأذيع بعد بضعة ايام ، اي بعد سنتين من المذكرة التي اصدرها السير هنري مكماهون بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ؛ اي بعد ثمانية عشر شهراً من قيام الثورة العربية حين كـان الشريف حسين يعتمد على تعهدات بريطانية باستقلال العرب ، وكان لديه كل الاسباب التي تجعله يعتقد ان تلك التعهدات تشمل فلسطين ايضاً ، ولذلك خاطر بكل أسهمه الى جانب الحلفاء .

٩

خلق وعد بلفور حيرة وفزعاً في اجزاء العالم العربي ذات الاتصال المباشر بالحلفاء ، حتى بين اولئك الذين لم يكونوا يعرفون — بدقة — طبيعة التعهدات البريطانية للعرب . فقد رأوا في التصريح إنكاراً لحرية العرب السياسية في فلسطين . ووصل النبأ مصر اولاً فأثـار على التو موجةً من الاحتجاج لدى الزعماء العرب المجتمعين في القاهرة، وجاهدت السلطات البريطانية كثيراً ، لمدة من الزمن ، كي تخفف مخاوف العرب وتمنع انتكاس الثورة مستعينة على ذلك برقابة صارمة ودعاية نشيطة . اما في القسم المحتل من فلسطين فقد بذلت القيادة البريطانية جهدهـا لاخفاء الخبر كأنما كانوا يحسون بوخز الضمير من جرائه .

فلما تأدى النبأ الى الملك حسين عكّر خاطره كثيراً وطلب تعريفاً لمعنى الوعد ومداه . وأجيب مطلبه بارسال القائد هوجارث احد رؤساء المكتب العربي بالقاهرة ، فوصل جدة في الاسبوع الاول من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ وقابل الملك مرتين .

---

١ — المرحوم دافيد جورج هوجارث الباحث وعالم الآثار وامين المتحف الأشمولي — في فترة ما — واحد اكابر الثقات في التاريخ العربي في ايامه .

وكانت الرسالة التي وكل الى هوجارث نقلها ذات أثر في تهدئة خواطر حسين واطمئنانه التام ، وكان هذا شيئاً هاماً لما له من علاقة بالحالة المعنوية للثورة . ويساويه اهمية من وجهة نظر المؤرخ ان الرسالة التي ابلغها هوجارث للملك حسين باسم الحكومة البريطانية كانت تأكيداً صريحاً بأن : « الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به الا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية » . لقد أبلغت الرسالة الى حسين شفوياً ولكنه قام بتدوينها، وهذه الاقتباسة التي اوردتها مأخوذة من النص العربي الذي دوّنه حينئذ . فأما العبارة التي وضعت تحتها خطاً فانها تمثل ابتعاداً اساسياً عن نص وعد بلفور الذي لا يضمن للسكان العرب سوى الحقوق المدنية والدينية . في الفرق بين مدلول العبارتين يكمن الفرق بين التعاون السلمي الذي يرضى عنه العرب واليهود بفلسطين — فيما بينهما — وبين النزاع المقيت الذي قام بينهما خلال العشرين عاماً الاخيرة . ذلك لأن من المؤكد الذي لا يعتوره اي ريب انه لو ان وعد بلفور ضمن الحرية السياسية والاقتصادية للعرب — في الواقع — حسبما اكد هوجارث للملك حسين تأكيداً جدياً — اذن لما كانت هنالك معارضة عربية لاستيطان اليهود في فلسطين واذن لرحبوا به حين يكون استيطاناً عادلاً قائماً على المبادىء الانسانية .

وكان حسين صريحاً في جوابه فقال لهوجارث : ما دامت الغاية من وعد بلفور هي ان يهيء لليهود ملجأ من الاضطهاد فانه سيبذل كل نفوذه ليساعد على تحقيق تلك الغاية وسيوافق على كل تدبير ، يُرى مناسباً ، لتأمين الاماكن المقدسة والاشراف عليها من قبل أتباع كل مذهب من المذاهب التي تملك لها معابد مقدسة في فلسطين ، غير انه وضح ان مسألة التنازل عن مطلب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث ابداً ، الا انه يرضى حين يحين الأوان ان ينظر في الإجراءات التي قد

تبدو أوفق من سواها لتزويد الحكومة العربية المقبلة في سورية (بما في ذلك فلسطين) بخبراء اداريين وفنيين .

وقدّم حسين في الاشهر التي تلت براهين كثيرة على اخلاصه في موقفه ، فبعث برسائل الى كبار أتباعــه في مصر وفي صفوف قوات الثورة ليخبرهم انه تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بــأن توطين اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب في تلك البلاد ، ويحثهم على ان يستمروا عــلى ايمانهم بعهود بريطانية العظمى وبجهود انفسهم لنيل الحرية . وامر ابناءه ان يعملوا ما في وسعهم لتخفيف المخاوف التي أثارها وعد بلفور بين أتباعهم ، وأوفد الى فيصل في العقبة رسولا بتعليمات مماثلة ، واوعز بنشر مقالــة في الجريدة الرسمية الناطقة بلسانه [1] ، يدعو فيها السكان العرب في فلسطين ليتذكروا ان كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح ، ويحضّهم على ان يرحبوا باليهود اخوانــاً وان يتعاونوا معهم في سبيل الصالح المشترك . ويبدو ان حسيناً نفسه هو الذي كتب تلك المقالة فهي قيّمة تاريخياً لا فحسب من حيث انها مثل على تحرره من الهوى والتعصب الديني ، بل من حيث انها تعكس النزعة العربية العامة نحو اليهودية قبل ظهور الصهيونية السياسية على مسرح الاحداث .

ونجحت جهود السلطــات البريطانية بمصر في تبديد المضمونات السياسية التي انطوى عليها وعد بلفور ، بعض النجاح . فوصلت القاهرة في آذار (مارس) لجنة صهيونية يرئسها الدكتور وايزمن ، في طريقها إلى فلسطين ولم يوفر أعضاؤها جهداً في تخفيف مخاوف العرب ؛ وأحرز الدكتور وايزمن بمــا لديه من موهبة فذة في الاقناع نجاحاً مؤقتاً في المقابلات التي اجتمع فيها بعديد من الشخصيات العربية ، يؤيده في

---

١ ــ هي صحيفة القبلة (مكة) العدد ١٨٢ في ٢٣ اذار (مارس) ١٩١٨ .

ذلك بحماسة وكفاية الميجور اونورابل و. أورمسبي جور [1] الذي انتدبته وزارة الخارجية ليرافق اللجنة ضابطاً سياسياً لها ، فقدّما للسامعين وصفاً مطمئناً عن أهداف الصهيونيين وتنظيماتهم ، أزال مخاوفهم ووضعهم في حالة من الاقتناع بفكرة التعاون بين العرب والصهيونيين . ونظمت اجتماعات عقدت بين زعماء الصهيونيين والعرب ، واثرت تأكيدات وايزمن وأورمسبي جور في صاحب إحدى الصحف ذات الأثر الواسع في القاهرة [2] حتى إنه سخر الأعمدة الضافية في جريدته ليبدد مخاوف العرب حول مستقبلهم السياسي ويدعو إلى التفاهم بين الشعبين .

١٠

في ربيع سنة ١٩١٨ عندما كان الشعور الذي أثاره وعد بلفور وافشاء اتفاقية سايكس – بيكو يدمر التحالف الانجليزي العربي تألفت هيئة من سبعة من العرب المقيمين في القاهرة من أجل العمل المشترك – وكانوا جميعاً ذوي مكانة ونفوذ وقد اطلعوا على بنود الاتفاق بين حسين ومكماهون في حينه ، وعملوا بحماسة منذ عهدئذ على مساندة الثورة – ؛ ثمة اصبحوا غرضاً للشكوك الخطيرة والمخاوف نظراً للقلق الخطر الذي تفشى في المجالات العربية ، واضحت ثقتهم في صدق الحلفاء مزعزعة من أصولها . ولذلك خططوا بياناً في صورة مذكرة الى الحكومة البريطانية صوروا فيها الموقف كما تراءى لهم من نواحيه الداخلية والخارجية ، ورجوا بريطانية ان تقدم لهم تعريفاً واضحاً شاملاً للسياسة البريطانية المزمع تطبيقها على البلاد العربية مجتمعة ؛ وصوّرت

١ – يعرف الآن بلقب لورد هارلك .

٢ – هو الدكتور فارس نمر باشا احد مؤسسي جريدة « المقطم » اليومية المشهورة بالقاهرة. ولنذكر ان الدكتور نمر كان واحدا من الاعضاء المؤسسين لجمعية بيروت السرية (انظر الفصل الخامس ، الفقرة الثانية من هذا الكتاب) .

المذكرة بخاصة اهتمام كاتبيها بشكل الحكومات العربية التي ستقام في سورية وفلسطين والعراق وبطابـع تلك الحكومات ، بعد الحرب . وكان بعض الأشخاص من المقربين الى الملك حسين قد صرحوا تصريحات جعلت بعض الناس يعتقدون أنه اذا انتصر الملك على الأتراك فسوف يقيم حكومات في تلك البلاد ويجعلها مسؤولة حيالـه في مكة ، فمن أهداف تلك المذكرة استجلاء موقف بريطانية العظمى وحلفائها عن هذه الخطة المنسوبة الى حسين (والتي ظهر من بعد انها نسبت اليه خطأ) .

وسلمت المذكرة الى المكتب العربي بالقاهرة لتنقل الى لندن ، ولما سلمها كاتبوها طلبوا ان تظل هوياتهم مكتومة حتى يحين الوقت فيعلنون عن مذكرتهم والجواب عليها في وقت معاً . وقـد أصبحت أسماء هؤلاء السبعة اليوم معروفة كما عرف الدافع الذي حدا بهم الى كتم اسمائهم وهو خوفهم من ان يستاء حسين اذا هـو عـلم بالمقارنة التي وضعوها بين الحجاز والاقطار العربية الشماليـة وفيها تنقّص مـن القطر الحجازي .

وبعد زمن اي في السادس عشر من حزيران (يونية) سنة ۱۹۱۸ أرسلت وزارة الخارجية جوابها واذا به غاية في الأهمية لما احتواه ولما أحدثه من اثر معاً . وقد سلمه أحد كبار موظفي مصلحة الاستخبارات – واسمه المستر والروند – بطريـق رسمية الى منشئي تلك المذكرة في اجتماع عقد خصيصاً لذلك الغرض في مقر قيادة الجيش ، وأخبر الزعماء العرب المجتمعون ان نسخة من « التصريح الموجـه للسبعة » (وهو الاسم الذي أطلق على بيان وزارة الخارجية) قـد ارسلت الى الملك حسين ، وقرىء التصريح بالانجليزية ثم نقله احد الحاضرين الى العربية من بعد ليفيد منه الاعضاء الآخرون الذين لا يعرفون الانجليزية . وقد

اثبتنا ترجمته العربية في الملحق « د » *.

وهذا « التصريح للسبعة » أهم بيان سياسي اصدرته بريطانية العظمى لتوضح فيه سياستها تجاه الثورة العربية ، ولكن من الغريب انه بقي من اقل البيانات حظاً من الذيوع في خارج العـالم العربـي . وتجيء اهميته من انه يؤكد عهود بريطانية السابقة للعرب بلغة اوضح مما هي في اي بيانات اذيعت من قبل ؛ وأهم من ذلك انه يقدم ايضاحات رسمية للمبادىء التي تستند اليها تلك العهود .

عالجت وزارة الخارجية في تصريحها كل المنطقة التي طالب الشريف حسين ان تكون منطقة الاستقلال العربي المشروع ، وحددت سياسة الحكومة البريطانية نحو مستقبل تلك المنطقة ، وفي سبيل ذلك التحديد اعتبرت المنطقة أربعة أقسام او طبقات ، وهي قسمة مستوحاة من الموقف العسكري آنئذ :

ويضم القسمان الأولان (١) البلاد العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب و (٢) أراضي حررت من السيطرة التركية بعمل العرب انفسهم ، وفي هذين القسمين اللذين يضمان الجزيرة العربية من عدن حتى العقبة [١] تعترف الحكومة البريطانية « بالاستقلال التـام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الاراضي » .

اما القسم الثالث فيضم (٣) بلاداً عربية حررت من الحكم التركي بعمل الجيوش المتحالفة ،وفي هذا القسم الذي يضم العراق من الخليج الفارسي الى خط يمتد على مسافة الى الشمال من بغداد ، ويضم فلسطين مـن الحد المصري الى خط على مسافة الى الشمال من القدس ويافا فـإن الحكومة البريطانية قالت ان سياستها نحو سكان هذه البلاد هي : « ان

---

* اشار المؤلف في المتن الى انه ـ حسب علمه ـ اول من كشف الغطاء عن هذا التصريح لقراء اللغة الانجليزية في نصه الكامل (انظر الملحق د من الاصل) .

١ ـ تستثنى عدن وتعتبر العقبة داخلة في نطاق القسم الثاني وقد حررها العرب انفسهم في الحرب .

الحكومة المقبلة لهذه الاقاليم يجب ان تقوم على مبدأ موافقة المحكومين ».
واكد التصريح ان هذه السياسة ستظل دائماً هي السياسة التي تتبعها الحكومة البريطانية .

ويضم القسم الرابع (٤) الاقاليم العربية التي كانت حتى عهدئذ ما تزال تحت الحكم التركي . وفي هذا القسم الذي يضم القسم الاعظم من سورية وولاية الموصل في العراق أكّد التصريح ان رغبة الحكومة البريطانية هي : « ان الشعوب المضطهدة في هذه الأراضي يجب ان تفوز بالحرية والاستقلال » وان السياسة البريطانية هي ان تستمر تعمل لتحقيق تلك الغاية .

ويحتوي « التصريح للسبعة » فيما يشير به الى سورية وفلسطين والعراق تأكيدين بالغي الاهمية ، أولها : ان بريطانيـــة العظمى كانت وستظل تعمل لتنال تلك البلاد حريتها واستقلالها فضلاً عن تحريرها من الحكم التركي . وثانيهما : انها تعهدت بانها لن تقيم في تلك البلاد اي نظام من انظمة الحكم لا يقبله السكان فيها . وبما ان هذين التأكيدين صدرا بعد انشاء اتفاقية سايكس – بيكو واصدار وعد بلفور فتلك حقيقة اضافت كثيراً الى اهميتها ، والى الاثر الذي كان لها في أذهان زعماء العرب وفي تحميس العرب للمشاركة في الهجوم النهائي . وقـــد اعتبر العرب هذين التأكيدين نتيجة طبيعية لمبدأ حق تقرير المصير الذي نادى به ولسن قبل بضعة اشهر ورحبوا بهما برهاناً على ان بريطانية العظمى مصممة على ان يكون ذلك المبدأ هو الحكم – بعد الحرب – في تسوية شئون الولايات العربية التي كانت تابعة لتركية .

وعمت العالم العربي موجة من الاغتباط عندما ذاعت محتويات تصريح وزارة الخارجية ، وتسلم الملك فيصل نسخاً منه في معسكره بالعقبة ، وانقشعت سحب اليأس التي رانت على قوات الثورة وحلّ محلها انطلاقات جديدة من الحماسة . ولذلك يمكن القول ان « التصريح للسبعة » كان

حاسماً اكثر من اتفاق حسين ومكماهون ، وكان اكثر منه شمولاً وأشد تجرداً من التحفظات الاقليمية ، ويمتاز عليه بالعلنية . وفي الشهر التالي، اي بعد بضعة اسابيع من صدور التصريح ، جاء نبأ الخطاب الذي ألقاه الرئيس ولسن في مونت فرنون في الرابع من تموز (يولية) سنة ١٩١٨ ، والنقطة الثانية فيه تحمل نفس المبدأ الذي نادى به « التصريح للسبعة » ، أعني ان تسوية ما بعد الحرب ستكون مبنية على « القبول الطواعي لتلك التسوية لدى الشعوب التي تعنيها التسوية مباشرة » . واذا اخذنا التصريحين البريطاني والامريكي معاً وجدنا انه كان لهما أثر حاسم في تبديد الشكوك والمخاوف التي اثارتها اتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور . وانتعشت قوى الثورة من جديد بهذه الغيرة الجديدة على الحرية فاتجهت الى تأدية مهمتها بهمة جديدة ، ولما اهاب بها اللنبي الى بذل أرفع الجهود لم تجدها مترددة او متريثة .

١١

واخيراً صدر قبل الهدنة ببضعة ايام تصريح آخر اشتركت فيه بريطانية العظمى وفرنسة ، هذه المرة ، وفيه قدمتا للعرب تعهدات حول مستقبل الاقطار العربية الشمالية :

في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ وزعت القيادات البريطانية العسكرية في فلسطين وسورية والعراق بلاغاً رسمياً على الصحف في تلك البلاد يحتوي على نص بيان يقرر طبيعة السياسة التي ستتبعها الحكومتان البريطانية والفرنسية في البلاد المذكورة ويشرح اهدافها شرحاً ضافياً . وقد تمّ لهذا البيان أوسع قدر ممكن من التوزيع فلم تعط نسخ منه لكل جريدة فحسب ، على ان تضعه في أبرز موضع منها ، بل استغلت وسائل اخرى مختلفة لبثّه في المراكز الريفية والمدنية على السواء كأن يعلق على لوحات الاعلانات فاذا كان اكثر الناس أمين قرأه

عليهم بالعربية موظفون من العرب المستخدمين في الادارة العسكرية .

ويجد القارىء نص هذا البيان المعروف باسم « التصريح الانجليزي الفرنسي » في الملحق « هـ » . وهو ينص على تماثل الاهداف الحربية لدى كل من فرنسة وبريطانية في الشرق ، ويعرّف تلك الاهداف بأنها « التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها وإقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من الاختيار الحرّ والارادة المستقلة للأهالي الوطنيين » . ويمضي النص قائلاً : ان الدولتين متفقتان في رغبتها في قيام مثل تلك الحكومات وفي المساعدة على قيامها وفي الاعتراف بها حال قيامها . ويختم التصريح بفقرة تؤكد فيها الدولتان سلامة دوافعها وانهما لا ترغبان في شيء سوى القيام بدور المرشد المنزه عن الهوى ، لتكفلا « حسن سير الحكومات والادارات التي يختارها الاهالي اختياراً حراً » * .

وكان صدور هذا التصريح نتيجة للموقف الحرج الذي تأزم فجأة في الاقطار العربية المحتلة . وكان سببه الرئيسي حادث العلم العربي في بيروت . وبيان ذلك انه في الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) اي قبل عدة ايام من دخول طلائع البريطانيين او الفرنسيين مدينة بيروت ، قام شكري باشا الايوبي فأعلن السيادة العربية ورفع العلم العربي في المدينة باسم الامير فيصل ، فامتعض الفرنسيون من هذا العمل بشدة وتقدموا الى الجنرال اللنبي يطلبون انزال العلم ، فأنزل بأمر منه ، وبعث ذلك هياجاً عنيفاً في دمشق حتى ان فيصلاً بذل جهداً مضنياً ليتمكن من اطفاء نار التمرد المتحفز في صفوف جيشه .

ولم يفتر الغليان الذي سببه ذلك الحادث عندما عرف الناس ان بيروت

---

* ما اثبتناه في الملحق انما هو النص المثبت في الوثائق الرئيسية ص ٨٣ ولكن القارىء يستطيع ان يراجع ص : ٨٣ من كتاب الدكتور احمد قدري « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» دمشق ١٩٥٦ حيث يجد بعض التباين في حرفية الترجمة .

والموانىء الاخرى على الساحل السوري ستوضع تحت الاحتلال الفرنسي . كذلك ذاع في دمشق نبأ نشاط الصهيونيين في فلسطين فأمد النار بالوقود . ثم ان احتلال مدينتي دمشق وحلب قد جمع بين الزعماء السوريين والعراقيين الذين حاربوا في صفوف الثورة وبين اخوانهم الذين اضطروا الى البقاء في الوطن او المنفى تحت وطأة الارهاب التركي ، ومهّد هذا اللقاء سبيلاً الى تبادل الآراء . وكان لدى المتخلفين في الوطن اخبار كثيرة استقوها من مصادر تركية وأفضوا بها الى اخوانهم المحاربين فقدمت لهم زاداً جديداً ليعيدوا النظر في مدى صدق الحلفاء في تصريحاتهم .

واجتاحت البلاد موجة من الشك والتوجس مما تضمره الحكومتان المتحالفتان من دوافع ونوايا . فاحتج فيصل الى اللنبي واعلن انه لن يستطيع كبح جماح القوات العربية الا اذا صدر على الفور تحديد رسمي واضح لنوايا الحلفاء . وبدا ان الشعور المكبوت قد يؤدي الى انفجار ، فسارعت الدولتان الى اصدار التصريح الانجليزي الفرنسي فكان أثره سريعاً وبه هدأت حدة الهيجان بعد بضعة ايام . وقد نص هذا التصريح – كما نص « التصريح للسبعة » من قبل – على مبدأ « موافقة المحكومين » . وللسبب نفسه درأ خطر الشقاق – في اللحظة الحرجة – بين بريطانية العظمى وحلفائها العرب .

الفصل الرابع عشر

ما تم من تسوية بعد الحرب

١

انتصر الحلفاء ، ووجدت الحركة القومية العربية نفسها ، لأول مرة في التاريخ ، جنباً الى جنب مع ما قدّر لها ، إذ مشى النصر بأعلامها شمالاً الى الحدود التي تمنت ان تبلغها ، فتحررت سورية من سيناء الى طوروس ، وتحرر العراق حتى الموصل ، ولم يبق في الجزيرة العربية نفسها من السلطة التركية الا بضع حاميات لا حول لهـا وسيكون الاستسلام مصيرها . هكذا اخيراً تخلصت كل الولايات الناطقة بالعربية في الامبراطورية العثمانية من النير الاجنبي الذي بهظها في مـدى اربعة قرون . ويبدو كأنما إله الحرب نفسه انحنى اجلالاً للدور الذي لعبته اللغة في تاريخ الحركة ، فظل يقود الخطى شمالاً الى ان وقف عنـد الحد الفاصل بين لغتين : العربية والتركية . وكان المجال الذي انهزم فيه الترك هو بالضبط المنطقة التي لا تتعداهـا اماني العرب وتتفق

حدودها تماماً مع الحدود التي عينها الشريف حسين واعتبرها حـدوداً طبيعية لمدى ما سيبلغه الاستقلال العربـي .

ولقد زاد الى ابتهاج الشعب وقادته ان الثورة أسهمت في إحراز النصر المشترك بجهد بارز ، إذ أدّت دورها المقدر لهـا – وتجاوزته أحياناً – في قهر العدو ، إلا في عدن حيث كان اسهامها غير مباشر ومع ذلك فلا يصح إغفاله ، وباستثناء العراق حيث تم طرد الاتراك على ايدي الجيوش الانجليزية وحدها دون سواها . ولم يشن العرب الحرب على الاتراك وحدهم بل حاربوا ايضاً كل من أيّد الاتراك – عملياً – من ابناء جنسهم . وأحسّ زعماء العرب انهم قد دفعوا كل النصيب المطلوب منهم في الصفقة المعقودة بين السير هنري مكماهون والشريف حسين ، وتوجهت انظارهم الواثقة الى بريطانية العظمى لتؤدي النصيب المقرّر عليها .

ولكن حين جاء دور الحساب في مؤتمر الصلح تبين ان ثمة بوناً شاسعاً بين ما يطالب به العرب وبين مـا ترضى الحكومة البريطانية ان تعترف به نصيباً مقرّراً عليها في الصفقة . لماذا نشأ النزاع ؟ مـا الموضوعات التي احتدم حولها الخلاف ؟ كيف أدى النزاع الى سلسلة من الصراع الدموي بين العرب وحلفائهم السابقين من بريطانيين وفرنسيين في أقل من سنتين بعد الهدنة ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في هذا الفصل ، ونحن نعلم ان القصة التي سنرويها لا تُقصّ لروعة المثال ولا لحلاوة المذاق .

وسنرى ان بريطانية العظمى وفرنسة فرضتا على العرب « تسوية » انتهكت حرمة كل من الوعود الصريحة التي قطعت لهم والمبادىء التي أعلن الحلفاء انها ستكون اسس السلم المقبل . وإزاء ما حدث من بعد يحلو للمرء ان يتصور الاتجاه الذي كانت ستسير فيه الاحداث لو ان بريطانية العظمى وفرنسة اختارتـا التمسك بتلك الوعود والمبادىء في

محادثات الصلح بدلاً من نكثها ، هذا مع العلم ان مثل هذه التصورات ضرب من الرياضة العقلية لا يسهم بشيء في مجال التاريخ . ولكن مما لا ريب فيه ان طريقة المعالجة للمسألة العربية بعد الحرب هي التي أدت بصورة مباشرة حتمية الى انفجارات ما كانت لتحدث لو لم تجر تلك التسوية ، واذن لأبقينا على آلاف النفوس وملايين الجنيهات ووفرنا على أنفسنا ما لا يحصى من الآلام والاضرار . وإذن لما حدثت ثورة العراق عام ١٩٢٠ والثورة السورية سنة ١٩٢٥ والانفجارات المتكررة في فلسطين ، لأنها جميعاً كانت نتيجة مباشرة لنظم الحكم المختلفة التي فرضت ظلماً وبالاكراه على العرب في العراق وسورية وفلسطين ، وفي ذلك انتهاك للعهود التي دخل العربُ الحربَ بمقتضاها . وقد تكون هناك اسباب ثانوية وراء تلك الثورات جميعاً ولكن مهما يكن دورها فان السبب الرئيسي فيها ، وفي كثير من الأحداث الاخرى التي عكرت جو الصداقة الطبيعية بين العربي والانجليزي ، والانجليزي والعربي ، انما يكمن فحسب في تلك المرارة والاشمئزاز اللذين ولدتهما طريقة الحلفاء في انجاز وعودهم بعد الحرب ، فقد أحسّ العرب ان الخيانة قد حاقت بهم وان الذي خانهم أعز اصدقائهم .

٢

وصل الملك فيصل الى باريس في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٩ رئيساً للوفد الحجازي الى مؤتمر الصلح فواجه هنالك ثلاثة مؤثرات كبرى تقاوم انجاز الآمال العربية . أحدها مصلحة بريطانية الاستعمارية في العراق وفلسطين ، وثانيها المصلحة الاستعمارية لفرنسة في سورية ، وثالثها — وهو متحد مع الأول — المصلحة الصهيونية القومية بفلسطين . وكان الخلاف الذي انبعث في المؤتمر يدور حول كيفية التصرف بتلك الاقطار العربية الشمالية . وبقيت جزيرة العرب نفسها خارج نطاق ذلك

النزاع لأن مناعتها امام الاستعمار الاجنبي لم تكن محطّ تساؤل جدّي ، وان كانت بريطانية العظمى تهتم بأن تحتفظ بمحمياتها ومجالات نفوذها وايطالية تحاول الحصول على قاعدة لهـا في الشاطىء الشرقي من البحر الاحمر . لذلك دارت الخصومة في باريس حول مصير تلك « اللقمة » التي سميناها المستطيل العربـي الممتد بين البحر المتوسط وفارس ويضم سورية وفلسطين والعراق ، وفيهـا جميعاً لكل من بريطانية وفرنسة مآرب استعمارية .

وفي سنة ١٩١٩ كانت تلك البلاد جميعاً تعدّ « مناطق العدو المحتلة » فهي خاضعة مؤقتـاً لقانون عسكري ريثما يتمّ تنظيمها نهائياً عند عقد الصلح . وعينت في جميع تلك المناطق إدارات تستمد سلطتها المباشرة من القائد الاعلى الانجليزي ؛ الا انه كانت هناك فروق بارزة في شكل تلك الادارات ومبناها وهيئة الموظفين القائمين عليها إذا نحن قارنّا بين الحال في العراق والحال في سورية وفلسطين .

اما في العراق فقد اعتبرت البلاد كلها وحدة واحدة ذات حكومة واحدة على رأسها مندوب بريطاني من المدنيين ، وغالبية كبار الموظفين من حوله بريطانيون وغالبية صغارهم هنود . واما في سورية وفلسطين فقد قسمت البلاد في ثلاث مناطق لكل واحدة منها ادارة تفترق افتراقاً كلياً عن ادارة الاخرى ، وتعرف الاولى باسم ادارة منطقة العدو المحتلة ــ القسم الجنوبي (للاختصار : المحتلة الجنوبية) وتضم فلسطين فيما يقارب حدودها الحالية ، وادارتها بريطانية ، وتعرف الثانية باسم ادارة منطقة العدو المحتلة ــ القسم الشرقي (المحتلة الشرقية) وتضم داخل سورية من العقبة الى حلب ، وإدارتها عربية . والثالثة هي ادارة منطقة العدو المحتلة ــ القسم الغربي (المحتلة الغربية) وتضم لبنان والساحـل السوري من صور الى حدود كيليكية ، وإدارتهـا

فرنسية [1].

اما الجزيرة العربية فقد تركت على حالها . ففي الحجاز كان الملك حسين هو السيد الاسمي لما كان سابقاً يعد ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية ثم اصبح دولة عربية مستقلة . ولم يكن يهدد مركزه الذي لا يكفل بقاءه سوى اعتراف دول الحلفاء به الا اخطار الخلاف بينه وبين ابن سعود سلطان نجد ، وعاصمته الرياض ، وهو سيد وسط الجزيرة العربية غير المنازع من حدود الحجاز في الغرب الى خليج العرب في الشرق . وتقع الى الشمال من بلاده منطقة شمر الممتدة حتى حد العراق وكان ما يزال يحكمها ابن الرشيد الذي ضعفت قوته ومكانته كثيراً بسبب اندحار الأتراك . وفي الجنوب الادريسي والامـام يحيى وأولها يحكم مقاطعة عسير والثاني يبسط سلطانه على اليمن ما دام الاتراك قد استسلموا الى القيادة البريطانية في عدن . ولم يتأثر عملياً مركز كل من شيوخ الكويت ومسقط وحضرموت الا ان علاقتهم بتركية انبتت نهائياً ، وعلى الجملة كان المركز الذي احتله كل حاكم في الجزيرة العربية تثبيتاً وتأكيداً للمركز الذي كان له او احتفظ به في الحرب .

وهذه الفروق هامة في مغزاها لأن فيها دلالة عـلى الدوافع الخفية التي كانت لدى الحلفاء . فبما ان هناك اعتبارات عملية واخرى سياسية تحول دون امكانات التغلغل الخارجي في داخل الجزيرة العربية تركت الجزيرة في اكثر الاحوال وشأنها . اما في الاقطار العربية الشمالية التي تتجه نحوها شهوة الاستيلاء في نفس بريطانية وفرنسة فقد أقيمت فيها التنظيمات الادارية التي وصفناها قبل قليل ، ويبدو ان هذه التنظيمات كانت تنبىء عن ما سيتم في التسوية النهائية التي كان يدبرها الحلفاء

---

١ ـ كانت للفرنسيين ادارة اخرى تعرف باسم « ادارة منطقة العدو المحتلة ـ القسم الشمالي » ـ وقد اقيمت في كيليكية الا ان هذا القسم غير داخل في المستطيل العربي .

سراً وان سميت في نفاق سمج تدبيرات مؤقتة وقيل إنها لن تقيّد الوضع النهائي الذي لا يستطيع ان يبتّ فيه الا مؤتمر الصلح .

ومع ان الحلفاء زعموا ان تلك الاجراءات كانت مؤقتة ، فانها هي التي أثارت قلقاً أدى الى اصدار التصريح الانجليزي الفرنسي في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ . ولما احتج فيصل على تقسيم سورية على الرغم من كونه إجراءً مؤقتاً اقتضته حاجات ادارية مزعومة ، أكد له الجنرال أللنبي أن مستقبل سورية سيتحدد حسب رغبات سكانها. ولا ريب في ان أللنبي ، وهو عنوان الشرف ومغزاه ، كان يؤمن بسلامة التأكيدات التي أمر باعطائها الى فيصل ، فأعطاها في نغمة توحي بالثقة كما كانت عادته حين يكون مقتنعاً بما يقول . وإزاء تلك التأكيدات وما احتواه التصريح الانجليزي الفرنسي قبل فيصل التقسيم الاداري لسورية – مؤقتاً – وأقنع أتباعه ليكفوا عن الثورة على ذلك التقسيم . وبعد حوالي اسبوعين من صدور التصريح الانجليزي الفرنسي بدأ رحلته الى لندن ليشرح قضية وحدة العرب واستقلالهم وقد فوّض اليه والده ان يمثله في مؤتمر الصلح .

٣

تلك كانت اول زيارة يقوم بها فيصل الى اوروبة، وتعد من بعض نواحيها مغامرة في تيه من الحيرة . وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وصل مرسيلية على ظهر البارجة الملكية « جلوستر » فقابله ضابطان فرنسيان من رتبة عالية ، فلمح في تصرفهما إزاءه حقيقة الموقف الفرنسي الرسمي نحوه ، اذ اخبراه ان الحكومة ترحب به في فرنسة زائراً ولكنها لا تستطيع ان تعده ذا صفة تمثيلية او رسمية . وبلطف دعواه ليزور ميادين القتال في الجبهة الغربية، فتقبل دعوتهما بلطف مماثل ، ووصل لندن في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) .

وهناك استقبل بترحيب ودّي متملق ، ولم تلبث المفاجآت المنغصة ان بددته ، فقد علم ان ما أفشاه الروس من اتفاقات سرية تمت بين الحلفاء لم يكن خرافة ابتدعها الخيال البلشفي الماكر ، وان اتفاقية سايكس – بيكو كانت حقيقة مجسدة ، وقد جلس من حولها في تلك الآونة كل من كليمنصو ولويد جورج يديران بينهما احدى مناحراتهما الحادة التي يمزجان فيها الحلاوة والمرارة . وعلم ان الحكومة الفرنسية قد أبدت اعتراضاً شديداً على تعيينه رئيساً لادارة « المحتلة الشرقية » وانها تعترض في ذلك الوقت على ان يكون ممثلاً للحجاز في مؤتمر الصلح . ووجد نفسه غرضاً لهجمات مسددة في موضوع فلسطين ، فلا عجب اذا ولّدت في نفسه الاسابيع الثلاثة التي قضاها في لندن شعوراً بالحيرة والكآبة [1] ،وكيف لا يكون تأثيرها كذلك في نفس رجل في منتصف العقد الرابع من عمره ، يكاد لا يعرف شيئاً من الانجليزية او الفرنسية ، ولم يزر انجلترة من قبل ، ولم تكن له خبرة « بالوجه المستتر » في السياسة الاوروبية من قبل .

في ذلك الوقت كانت اتفاقية سايكس – بيكو احد الموضوعات التي يدور حولها الجدل . فقد كان كليمنصو في لندن وقامت بينه وبين المستر لويد جورج مناقشة حادة حول بقائها نافذة او بطلانها ، وأرادها لويد جورج ملغاةً لأن احد الفرقاء – وهو روسية – قد أعلن عدم التزامه بها ، وأصرّ كليمنصو على انها لا تزال ملزمةً للفريقين الآخرين .

وقد تبين ساسة الدولتين في الفترة التي انقضت بعد إبرام الاتفاقية

---

١ – اثناء اقامتي ببغداد في ربيع سنة ١٩٣٣ سمح لي الملك فيصل رحمه الله بان اطلع على يومية كان قد قيد فيها بخط يده الاحداث والانطباعات التي تلقاها في زيارته هذه لاوروبة ، وهي تشتمل ايضا اقامته في باريس اثناء انعقاد مؤتمر الصلح . وبعض المعلومات التي ترد في هذا الفصل مستمد من المادة التي تحتويها تلك اليومية .

ان شقة الخلاف بين اهداف بريطانية وفرنسة ومصالحها في البلاد العربية قد زادت وضوحاً . فقد كان من رأي البريطانيين ان الاتفاقية لم تعد نافذة عملياً بل – وفوق ذلك – فانها اذا طبقت عارضت المصالح البريطانية من ناحيتين هامتين : أولاهما انها جعلت لفرنسة ولاية الموصل وآبار الزيت الغزيرة فيها ؛ والثانية انها وضعت فلسطين تحت نوع من الادارة للدولية التي تحول بين بريطانية وبين ذلك النحو من السيطرة التي كان لويد جورج يحرص على إحرازها ، فان لم تحُلْ دونها فانها – على الأقل – ستهيىء الفرصة للتدخل فيها . وكان رأي فرنسة ان الاتفاقية هي الوثيقة الوحيدة التي تثبت اعتّراف بريطانية العظمى – في وضوح وتحديد – بحصّة فرنسة في الاسلاب العثمانية . وبما ان فرنسة لم تكن تنظر بعين الرضى الى اليقظة العربية بعامة [1] ، وترتاب في رعاية بريطانية للعرب – شعرت وزارة الخارجية الفرنسية ان من الأسلم لها إصرارها على نفاذ الاتفاقية كلاً كاملاً ، وان لا تكون عرضة الا لتلك التعديلات التي قد تجد فرنسة من المفيد ان توافق عليها لأنها قد تمكنها من المساومة بغية الحصول على مكاسب اخرى .

ولما وجد لويد جورج ان كليمنصو صلب عنيد غيّر خططه وسأله ان يتنازل عن الموصل وفلسطين – على التحديد – للبريطانيين ، مقابل تعويض يشمل تعيين حصة كبيرة من زيت الموصل لفرنسة . ووافق كليمنصو على ان ينظر في ذلك العرض الا انه عاد الى باريس دون ان يلتزم بأي قبول . وبعد شهرين قبلت الحكومة الفرنسية العرض في مذكرة مؤرخة في ١٥ شباط (فبراير) ، ووجدت بريطانية العظمى نفسها كما قال السير هنري مكماهون : « مطلقة التصرّف بدون ان

١ – لم تكن فرنسة ترتاح ليقظة العرب لا لانها ترغب فحسب في أن تزاول سلطتها دون عائق في المجالات التي خصصت لها في سورية والعراق ، بل لانها كانت تخشى ان تجد اليقظة الناجحة في العالم العربي بالمشرق صدى لها يوقظ سكان امبراطوريتها في افريقية الشمالية.

تمسّ مصالح حليفتها فرنسة »[1] في فلسطين وولاية الموصل .

ولما ان كان فيصل في لندن أعلم بالاتجـاه العام الذي تسير فيه المحادثات البريطانية الفرنسية وان لم يطلع اطلاعاً كاملاً على ما فيها من مآرب . وتعرض لقسط كبير من ضغط الحكومة البريطانية كي يوافق من حيث المبدأ على ما ترمي اليه من غـايات ، وكان أشدّ إلحاحهم منصباً على موضوع فلسطين ، وأوعزوا الى لورنس ان يستغل تأثيره في فيصل — وكان يومئذ تأثيراً بليغاً — ليحمله على ان يعطي اعترافاً رسمياً ، نيابةً عن من يمثلهم من العرب ، بالأمانـي الصهيونية في فلسطين . وكان الصهيونيون من ناحية اخرى نشيطين في بذل جهودهم لكي يضع فيصل توقيعه على اتفاقية رسمية يـبرمها بينه وبين الدكتور وايزمن — هو نيابة عن ملك الحجـاز ، ووايزمن نيابة عن المنظمة الصهيونية — والهدف من ذلك ان يكون ذلك الاعتراف ملزمـاً ونهائياً .

ووجد فيصل نفسه في موقف حرج : اما من ناحية فان المقترحات التي كان يلح عليه اصدقاؤه في وزارة الخارجية البريطانية بالموافقة عليها كانت خارجة عن حدود مهمته — وهي مهمة لا تتعدى بضعة اسطر من التعليمات المقتضبة التي أصدرها اليه والده — وفوق ذلك كانت تلك المقترحات تعارض الشعور العام الملتهب — بعض الشيء — في الاقطار العربية الشمالية . وحاول ان يحصل على توجيهات محددة من الملك حسين ولكنه لم يستطع ان ينتزع من ذلك الاب الاوتوقراطي ذي الطويّة السليمة الا امره الصارم بأن لا يرضى بشيء دون إنجـاز العهود التي قطعتها بريطانية في امر استقلال العرب ، ولم يترك له ذلك الامر ندحة أيّ ندحة .

---

١ — انظر مذكرته الثانية للشريف حسين ، بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ، (الملحق ١) .

واما من ناحية اخرى فان الضغط الذي لحقه في لندن حز في نفسه ونمّ عن ضروب تقصيره فاحس احساساً حاداً بعدم كفايــة وسائله ، فهو يجهل اللغة الانجليزية ؛ ولم يألف اساليب الدبلوماسية الاوروبية ، وفوق ذلك فان رفضَ ابيه ان يمنحه سلطات كاملة قد أبرز قصوره وقلة غنائه . ومما زاد في احساسه بضعفه وعزلته معرفتهُ ان الفرنسيين يعادون شخصه والمهمة التي يعمل لها . فقد ضنّوا عليه الا بمجاملة يسيرة عند مروره بفرنسة ، ورأى امارات كثيرة دلّتْه على ان الريبة امر متبادل بينــه وبين الفرنسيين دون مواربة . وسمح لنفسه ان يقتنع بأنه لو حقق رغبات بريطانية الى اقصى حد ممكن لاصبحت فرصه الى كبح عداوة الفرنسيين اكثر . ولم يكن له من اصدقاء في أوروبة سوى الانجليز ، واكثرهم ممن عمل مع القوات العربية وبرهن على اخلاصه للقضية المشتركــة ، وبطبيعة الحال توجه إليهم يطلب النصيحة واعتمد لورنس من بينهم – على وجه الخصوص .

ولو خلّي فيصل الى نفسه لاختار ان يرجىء البت في شأن اتفاقية سايكس – بيكو وفي المشكلات المحددة التي خلقهــا له وجود تلك الاتفاقية – وهو الناطق باسم العرب – الى ان يحين انعقاد مؤتمر الصلح في الواقع . ولكن كانت هناك مسألة فلسطين ، ووزارة الخارجية تلحّ عليه فيها ليعطي عنها جواباً فورياً ، مدفوعــةً الى ذلك بعاملين : الضغط الصهيوني ، ورغبتها هي نفسها في ان تواجــه مؤتمر الصلح « بعمل ناجز » . فكانت تريده ان يلتزم باتفاقية مع الصهيونيين قبل ان يصدر مؤتمر الصلح مقرراته . ورأى فيصل عــدم اللياقة في تلك « المناورات » ، واخذ يقسم طرفه موازناً بين الأخطار المترتبة على قبول الاتفاقية المقترحة (أو ايــة اتفاقية) قبل الرجوع الى والده ، وبين الاخطار الناجمة عن تنفير الحكومة البريطانية وإثارتها ضد نفسه . ولم يشعر انه في موقف قويّ يمكنه من الجهر برفض حاسم ، واستعمل

اصدقاؤه الذين استشارهم نفس الحجج التي كانت توردها وزارة الخارجية ، بينما كان لورنس يبدي تحمساً فائقاً لاقناعه بأن لا ضرر في ابرام الاتفاقية المقترحة مع الصهيونيين على شرط ان يكون هناك اعتراف كامل بمطالب العرب الاستقلالية .

ولم تكن آراء فيصل حول مستقبل فلسطين تختلف عن آراء والده وكانت ايضاً مماثلة لتلك الآراء التي كانت تحملها عندئذ غالبية العرب العاملين في الميدان السياسي . والرأي العربي المعتمد في هذه المسألة هو في اساسه ما عبّر عنه الملك حسين للحكومة البريطانية بواسطة القائد هوجارث في مقابلة تمت بينهما بجدة ، في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ [1] ، وتتلخص وجهة النظر العربية في ان فلسطين منطقة عربية تشكل جزءاً من سورية وبما انها كذلك فيجب ان تظل ضمن منطقة الاستقلال العربي . اما قداستها لدى ثلاثة اديان عالمية ووجود المعابد المقدسة فيها فذلك أمر قد منحها صبغة خاصة يحب العرب ان يروها مؤمّنةً معاً ، على اساس تتفق عليه الاديان المعنية . اما الاستيطان اليهودي فانه يقابل بالترحيب على اسس إنسانية ، شريطة ان يخضع للحدود التي يفرضها احترام صالح السكان اصحاب البلاد وحقوقهم الاقتصادية والسياسية . هذه بايجاز هي النظرة التي تؤمن بها الدوائر العربية .

وتطورت هذه النظرة في ذهن فيصل تدريجاً الى اعتقاد إيجابي بامكان التعاون بين العرب واليهود في فلسطين ، وكان قد علم بتأكيدات هوجارث للملك حسين – في حينها – ، كما كان قد تأثر بالرسائل السرية التي تسلمها من والده وهو في معسكره بالعقبة في ربيع عام ١٩١٨ . وعند اواخر ذلك العام التقى بالدكتور وايزمن واستمع

---

١ – انظر الفصل الثالث عشر ، الفقرة التاسعة .

اليه بطلب من الحكومة البريطانية . وقد تمت المقابلة في الأسبوع الأول من حزيران (يونية) في معسكر فيصل وكان حينئذ مضروباً على تلة تقع على بعد بضعة أميال الى الشمال من العقبة ، وفي خلال تلك المقابلة اكد له وايزمن ان الصهيونيين لا ينتوون ان يعملوا على انشاء حكومة يهودية في فلسطين ، وان كل ما يرغبون فيه هو ان يساعدوا في تطوير البلاد ، قدر استطاعتهم ، دون اي اذى يصيب المصالح العربية المشروعة . وكان من اثر جميع هذه التأكيدات مجتمعةً ان رسخ الاعتقاد في نفسه بأن ليس في الاماني الصهيونية ولا في السياسة التي تنتهجها الحكومة البريطانية لتحقيق تلك الاماني ما قد يتعارض وحرية العرب السياسية والاقتصادية في فلسطين .

وفي ذلك الوضع الذهني حين كان فيصل نهباً مقسماً بين رفضه ان يلزم والده بشيء دون ان يستشيره ، ورغبته في ان يداري وزارة الخارجية ، سلك الطريق الوحيد الذي احسّ انه ما يزال مفتوحاً امامه في زحمة الشئون . فوافق على ان يوقع الاتفاقية وجعل موافقته مشروطة بانجاز بريطانية العظمى لعهودها التي قطعتها في أمر استقلال العرب . وكتب الشرط بخط يده على نص الاتفاقية التي وقعها ، ووضعه في صيغة شاملة قاطعة حتى يبقي الموضوع الرئيسي سليماً مصوناً . وبما ان الشرط الذي ذيّل به على الاتفاقية لم ينجز فان الاتفاقية لم تكتسب طابع الابرام الشرعي ولا قيمة لها الا في انها شهادة على المدى الذي كان فيصل مستعداً ان يقطعه في مسألة التعاون بين العرب واليهود ، ما دام ذلك لا يتضارب واستقلال العرب [١] .

٤

وحوالي منتصف كانون الثاني (يناير) سافر فيصل الى باريس فوجد ان الحكومة الفرنسية مصممة على ان لا تعترف به ممثلاً في مؤتمر

١ ـ انظر نص اتفاقية فيصل ووايزمن والشرط الذي ذيل به فيصل عليه في الملحق (و) .

الصلح ، مدعية ان الدول لم تعترف رسمياً بالحجاز واحداً من الدول المتحالفة في الحرب ، وتدخلت وزارة الخارجية البريطانية في الامر فتراجعت الحكومة الفرنسية عن موقفها ، ومنح وفد الحجاز مقعدين في المؤتمر بدلاً من واحد *. الا ان عداء الحكومة الفرنسية لم يفتر حتى ان فيصلاً واجه في خلال الثلاثة الاشهر التالية – اي الى ان ابحر الى سورية في نهاية نيسان (ابريل) – مقاومة عنيدة من الحكومة الفرنسية للقضية التي اتى ليدافع عنها في باريس .

وتم اول عرض لقضية العرب في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية (كي دورسي) في السادس من شباط (فبراير) عندما دعي وفد الحجاز ليشهد اجتماعاً رسمياً للمؤتمر . وكان فيصل قبل ذلك ببضعة ايام قد قدم مذكرة لمؤتمر الصلح حدد فيها بايجاز حق العرب في الاستقلال ، وهي مؤرخة في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ وفيما يلي نصها :

« جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانية وفرنسة لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسية من خط الاسكندرونة – ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً ، معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الامم . ويستثنى من هذا المطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة ، وعدن وهي محمية بريطانية [1] . وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا ان نرتب الأمور فيما بيننا ، مثل تثبيت الدول القائمة فعلاً في تلك المنطقة ، وتعديل الحدود فيما بينها ، وفيما بينها وبين الحجاز ، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن ، وانشاء دول

* كان المقعد الثاني يشغله رستم بك حيدر . – المترجم –

١ – استثنى الشريف حسين « عدن » منذ البداية .

جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها . وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة ، واني لأستند في مطلبي هـــذا على المبادىء التي صرح بها الرئيس ولسن (وهي مرفقة بهذه المذكرة) [1] وانا واثق من ان الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها اكثر من اهتمامها بما لهــا هي نفسها من مصالح مادية » [2] .

وكان الخطاب الذي القاه فيصل في الاجتماع المعقود في السادس من شباط (فبراير) توسيعاً منطقياً سديداً لهذه المذكرة ، فأكد ما للشعوب الناطقة بالعربية في آسية من حقوق في الاستقلال والوحدة ، ملحاً بوجه خاص على العوامل الحضارية والجغرافية والاقتصادية التي حققت التلاحم فيما بينها . وذكر الدور الذي أداه العرب في الحرب والتضحيات التي قدموها . وعبر عن استهجانه لاتفاقية سايكس – بيكو بلغة مهذبة صريحة . واختتم خطابه بتقديم الشكر لبريطانيــة وفرنسة « على العون الذي قدمتاه للعرب في كفاحهم لنيل الحرية ، وبمطالبتها بانجاز الوعود التي قطعتاها لهم » .

ولما جاء دور المناقشة بعد الخطاب تقدم فيصل باقتراح لا يصدر إلا عن امرىء مؤمن بعدالة قضيته ، وكان ان اقترح اتخاذ خطوات للتحقق من رغبات الشعوب المعنية حتى يمكن الوصول الى تسوية عادلة مستديمة . وقد اكد في مذكرته بتاريخ ٢٩ كانون الثاني (يناير) وخطابه معاً مبدأ «موافقة المحكومين» ، واتكأ على خطاب ولسن المذكور وعلى التصريح

---

١ ــ كان النص المرفق بالمذكرة هو النقطة الثانية من خطاب الرئيس ولسن في مونت فرنون ، الرابع من تموز (يولية) ١٩١٨ .

٢ ــ دافيد هنتر مللر : مذكراتي في مؤتمر باريس ، المجلد الرابع .

البريطاني الفرنسي دون تعهدات مكماهون . ويتضمن اقتراحه ارسال لجنة تحقيق يعينها مؤتمر الصلح لتزور سورية وفلسطين وتستقصي رغبات السكان عن طريق بحث شامل ، تستمده بالمواجهة .

ولقي الاقتراح قبولاً لدى الرئيس ولسن ، وتأييداً سريعاً ، الا ان المستر لويد جورج لم يكن يميل اليه ، الا قليلاً ، غير انه بادره بقبول المنشرح . وواجهه المسيو كليمنصو بالعداء وجهد الجهد كله ليغض من قيمته . ولم يحدث نقاش رسمي حوله الا في العشرين من آذار « مارس » وفاز تأييد ولسن له بالموافقة ، في اجتماع سري عقد في ذلك التاريخ في منزل المستر لويد جورج بشارع نيتو ، ونشر وقائعه المستر ر . س . بيكر [١] . فقد اقترح ولسن ان تعين لجنة تحقيق مؤلفة من اعضاء فرنسيين وبريطانيين وايطاليين وامريكيين متساوين عدداً وتبعث الى سورية ، والى المناطق المجاورة ان دعت الحاجة لذلك ، لتستطلع الحقائق وتكتب بها تقريراً الى مؤتمر الصلح . وأمضي الاقتراح في تلك الجلسة ، وتعهد ولسن بكتابة صورة من الارشادات التي تسير على هديها اللجنة المقترحة .

وعقد في الخامس والعشرين من آذار (مارس) اجتماع آخر لمجلس الاربعة فأقر فيه الاقتراح رسمياً ، ونالت الارشادات التي كتبها ولسن ، لتهتدي بها اللجنة ، موافقة الاعضاء . وقرر هؤلاء ايضاً ان تعين كل دولة من الدول الاربع المعنيّة عضوين يمثلانها في اللجنة واختار ولسن الدكتور هنري كنج Henry C. King رئيس كلية اوبرلن والمستر تشارلس ر . كرين الذي أهلته لتلك المهمة تجربته الواسعة واستقلاله في النظر . اما الحكومة البريطانية فقد عينت السير هنري مكماهون والقائد د . ج . هوجارث . ولم تبد الحكومة الفرنسية ميلاً للمبادرة الى اختيار ممثليها .

---

١ ـ راي ستاندارد بيكر : « ودرو ولسن والتسوية العالمية » ـ المجلد : ٣ .

ويحكى انه حين بلغ نبأ هذا القرار سمعَ فيصـــل شرب الشمبانيا ، لأول مرة ، عباً كأنه يشرب الماء . ثم استقل عربته فجاوز بها مقرّ الوفدين الامريكي والبريطاني ، واخذ يقذف مبنى فندق الكريّون وفندق الماجستيك والكي دورسي بالحشايـــا والوسائد ، قائلاً انه لا يستطيع ان يعبر عن مشاعره الا بتلك الطريقة ما دام لا يملك القنابل .

وفي الاسبوع الاخير من نيسان (ابريل) أبحر الى سورية ليستأنف ضبط الاحوال في دمشق ريثما تصل لجنة الحلفاء .

٥

كان كره الحكومة الفرنسية للاقتراح منبعثاً عن معرفتها بأن جماع الرأي في سورية كلها لم يكن في صالحها . وكانت ايضاً في ريب عميق من حلفائها البريطانيين ، وزاد في مخاوفها كثيراً ارتفاع شأن بريطانية في النفوس اثر انتصارات اللنبي . بل ان النفوس المتطرفـــة في وزارة الخارجية الفرنسية اوغلت في سوء الظن بوزارة الخارجية البريطانية الى حد ان اعتقدت بأن الاقتراح مؤامرة منها مدبرة للتخلص من حق فرنسة في بسط الحماية – او قل الانتداب حسب المصطلح المستحدث حينئذ – على سورية .

اما موقف البريطانيين فكان مختلفاً عن هذا بعض اختلاف . ذلك انهم كثيراً ما صرحوا للفرنسيين بأنهم لا أرب لهم في سورية ، وكانوا صادقين في ذلك لأن مصالحهم في سورية لم تكن كثيرة بحيث تضطرهم إلى مساومة الفرنسيين عليها وتعويضهم عنها حسبما كانت ترى بعض الدوائر البريطانية وبخاصـــة اولئك الذين عاينوا الاحوال بأنفسهم في الشرق . ثم ان البريطانيين من ناحية اخرى كانوا يخشون ان يكشف التحقيق المواجه مقاومة مصممة لرغبة الحكومة البريطانيـــة في فرض الانتداب على العراق وفلسطين ، فلم تذهب وزارة الخارجية مذهب

المعارضة الصريحة للاقتراح بل وقفت منه — على الأقل — موقف الفتور.

ويمكننا ان ندرك مدى التباعد بين الدولتين في هذا الشأن اذا نحن فحصنا وقائع المؤتمر السري الذي عقد في العشرين من آذار (مارس) فقد حدد المستر لويد جورج ، في احدى مراحل المنـاقشة ، الموقف البريطاني بالعبارات التالية المقيدة في الوقائع :

« قال المستر لويد جورج ان المسيو بيشون قد افتتح باب الكلام كأن مسألة الانتداب على سورية امر موقوف على بريطانية العظمى وفرنسة وحدهما . ومثل هذه المسألة في الواقع لا وجود لها بالنسبة لبريطانية العظمى . وهو يحب ان يقول فوراً اننا « يعني البريطانيين » قد اظهرنا ان لا أرب لنا في سنة ١٩١٢ [١] وكذلك نحن اليوم ولا أرب لنا — عام ١٩١٩ — ولو سألنا المؤتمر : هل تحبون اخذ سورية ؟ لأجبناه بالنفي ... لقد عزمت الحكومة البريطانية عزماً قاطعاً على ان لا يكون لها شأن بسورية ، اما مسألة مدى اختصاص كلٍّ من بريطانية العظمى وفرنسة فقد وضّح في المقابلـة التي اجراها مع المسيو كليمنصو بلندن وفيها قال انه يريد الموصل والمناطق المجاورة لها وفلسطين ...

« وقال المسيو كليمنصو انه وافق على التحقيق من حيث المبدأ ولكنه يرى من الضروري ان يعطى بعض الضمانات . فيجب ان لا يقصر التحقيق على سورية ذلك لان الانتداب سيشمل فلسطين والعراق وأرمينية وغيرها من اجزاء الامبراطورية العثمانية مثلما سيشمل سورية .

« وقال المستر لويد جورج : انه لا يعترض على اجراء تحقيق في فلسطين والعراق ، وهما المنطقتان اللتـان تهتم بها

١ — انظر الفصل الثامن ، الفقرة : ٣ .

الامبراطورية البريطانية في المقام الاول . وكذلك لا يمانع ايضاً في اجراء تحقيق في ارمينية وان لم يكن للبريطانيين بها اهتمام وثيق » .

وبعد ان قطعت المناقشة شوطاً كشف المستر لويد جورج بعض مخاوفه حين قال : انه « يظن أنه اذا دلّت القرائن القوية في التحقيق على ان الامبراطورية البريطانية ستحرم من العراق — مثلاً — فانها تحتفظ لنفسها بحق النظر في اختيار انتداب لها في موضع آخر من تركية » . وليس من الواضح اي لقمة من الامبراطورية العثمانية كان يومىء اليها عندما قال هذا القول ولكن سورية لم تكن مطمح انظاره على أية حال .

وكان التحقيق المقترح يثير ايضاً مخاوف لدى الصهيونيين وانصارهم لئلا تبرز للعيان استحالة انجاز آمالهم دون اللجوء الى القوة في فلسطين. وكان السير مارك سايكس قد عاد في اوائل شباط (فبراير) الى باريس من جولة استغرقت ما يزيد على شهرين في فلسطين وسورية وجلب معه انباء مثيرة للقلق . فان ما رآه في تلك الرحلة فتح عينيه على حقائق كانت قد فاتته من قبل ، وقد تأثر بخاصة حين استكشف تلك الثغرة بين ما فهمه من الصهيونية من قبل وبين ما رآه في الصهيونية في دور التكوين بفلسطين ومن آثارها في اذهان العرب :

« وبعد ان كان اثناء الحرب مبشراً بالصهيونية عاد الى باريس ومشاعره قد اهتزت بتلك المرارة الحادة التي أثارتها في البلاد المقدسة . لقد بلغت الامور مرحلة لم يكن ليدركها خياله عن مدى ما ستصير اليه الصهيونية ، واثارت رحلته الاخيرة الى فلسطين شكوكاً كثيرة لم تهدئها زيارته لروما ، وقد اعترف للكاردينال جاسكيه بتغير آرائه في الصهيونية ، وبأنه عازم على ان يوضح الوضع الخطر الذي كان ينمو

بسرعة ، وان يوجهه ويعمل على تلافيه ان امكنه ذلك »[1]

ولقيت آراء سايكس في اتفاقية سايكس – بيكو تحولاً مماثلاً : فقد اقتنع بعدم ملاءمتها للظروف الواقعية وبعدم الجدوى من تنفيذها . ومع انه كان يحس بالانهاك من متاعب رحلته ، اسرع عائداً الى باريس مصمماً على ان يبذل كل ما في طاقته ليصحح الأماني الخاطئة ويكبح جماح المطامح التي اصبحت تتبدى له جنونية . ولكنه في خلال بضعة ايام من عودته مرض وتوفي ، وربما لم يكن من المغالاة ان نقول : ان موته – في ذلك المأزم – يكاد يكون نكبة لليهود والعرب والبريطانيين على السواء فضلاً عن الفرنسيين . ولا نحب ان نغرق فنزعم ان فرداً من الناس ، مهما يكن صادق النوايا موهوباً قوي الشكيمة ، يستطيع ان ينقل الى نفوس صانعي السلم في فرساي ما يعمر نفسه من شعور بالعدالة، ومع ذلك فلا ريب في ان سايكس ، لو كتبت له الحياة ، لاستطاع ان يحشو اذهان السياسيين ، وهو المعروف باستظهاره للحقائق وقدرته على استشفاف النتائج ، بضروب من القلق كثيراً ما تكون في الميادين السياسية تباشير الحكمة والسداد .

وفي خلال تلك الايام القليلة النشيطة التي قضاها سايكس قبل ان يلم به مرض الموت قابل لويد جورج وبلفور وكثيرين من اصدقائه الفرنسيين والصهيونيين ، وبدأ يدعوهم للعودة الى التعقل ، وذلك هو الشيء الذي كان قد شد له حيازيمه . ولا ندري ما الآثار التي احدثتها تلك النذر يومئذ ، ولكنا ندري انه عندما انبعث اقتراح فيصل بارسال لجنة تحقيق وبدأت مناقشة ذلك المقترح بجدّ ، بعد بضعة اسابيع مرت على وفاة سايكس ، كان الشعور السائد في الدوائر السياسية البريطانية والفرنسية والصهيونية هو شعور من القلق المتزايد ، حتى ان بلفور كتب مذكرة الى رئيسه يحثه فيها على ان يستثني فلسطين من مجال

---

١ – شين لزلي : مارك سايكس : حياته ورسائله (١٩٢٣)

التحقيق ، بينما ذهب كليمنصو يلح على ان فرنسة لا تستطيع ان توافق على اجراء التحقيق الا اذا شمل العراق وفلسطين كما سيشمل سورية .

٦

ولما عاد فيصل الى دمشق في اوائل ايار (مايو) وجد ان التبرم بالحال والقلق مما يضمره المستقبل لا تزال موجتها في ارتفاع . وتعرض لقسط كبير من إلحاف الجمعيات السياسية والزعماء السياسيين يستحثه على ان يصدر بياناً للناس وان يتحدث لهم بدقة عن طبيعة الاوضاع فيما يتعلق بانجاز الأماني القومية ، فاختار موقفاً حذراً ولم يبح بخيبة آماله ومخاوفه الا لنفر يسير من اعوانه الأدنين ، بينما كان في احاديثه العلنية يؤكد الآمال المرتقبة التي ترتبط بقدوم لجنة التحقيق الدولية .

وعلى رغم ذلك تسرّب الى الناس الاحساس بالفزع وبدأت الدعوة الى شغب منظم ضد ما عدّ – في صراحة – تكتماً من فيصل ، لا تفسير له ، فهو إذن مظنة ريب . ثم تقدم جماعة من الزعماء المسئولين يقترحون تشكيل مجلس وطني ، وكان مدبرو هذا الاقتراح اعضاء حزب حديث التكوين تسمى باسم « حزب الاستقلال العربي » ولم يكن سوى جمعية الفتاة السابقة في لبوس جديد [١] . ومنح فيصل تلك الحركة

---

١ – في الخامس من شباط (فبراير) ١٩١٩ رأت جمعية الفتاة بدمشق ان الحاجة الى السرية لم تعد مطلوبة فلذلك اعلنت عن وجودها وصرحت بانها ستمارس نشاطها السياسي علنا باسم « حزب الاستقلال العربي » ، وازداد الاقبال على عضويتها في الاشهر التالية لهذا الاعلان واصبحت نشيطة ذات نفوذ في العراق مثلما كانت في فلسطين وسورية . ويسمى اتباعها عادة باسم « الاستقلاليين » للتمييز بينهم وبين الاعضاء الآخرين في جمعيات اخرى اسست لمثل تلك الاهداف ايضا .

تأييده وحاول ان يوجهها في طريق دستورية منظمة ، فأجريت انتخابات – اقتضت الضرورة الاسراع فيها [1] – ولم تقصر على القسم السوري الواقع تحت الادارة العربية (اي المحتلة الشرقية) وانما شملت القسم الغربي (المحتلة الغربية) والمحتلة الجنوبية ؛ واجتمع المجلس الذي سمي منذ عهدئذ باسم « المؤتمر السوري العام » في دمشق في الثاني من شهر تموز (يولية) .

وكان المؤتمر يتألف – اسمياً – من اعداد متساوية من المندوبين تمثل كل جزء من اجزاء سورية ، ولكن بعض الممثلين الذين انتخبوا في « المحتلة الغربية » منعتهم السلطات الفرنسية من السفر الى دمشق ، فكان الذين حضروا جلسة الافتتاح تسعة وستين مندوباً من مجموع خمسة وثمانين يمثلون سورية وفلسطين ، وبينهم عدد من المندوبين المسيحيين يفوق في نسبة التمثيل عدد السكان المسيحيين في البلاد . وتمخضت مداولات المؤتمر عن مجموعة من القرارات التي تحدد الأهداف القومية فيما يتصل بسورية وفلسطين والعراق واقرّت باجماع لا مثيل له .

ويجد القارىء نص القرارات في الملحق (ز) وتكمن أهميتها في انها تحوي تعبيراً جازماً عن موقف العرب من قضايا الساعة يومئذ . ومع ان اعضاء المؤتمر انتخبوا على عجل ، ولم يراعَ النهج المألوف في الاجراءات الانتخابية تماماً في كل المواطن ، فمما لا ريب فيه – حسبما اكدت الاحداث التالية بقوة – ان المؤتمر كان مجلساً تمثيلياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وان مداولاته عكست – بالفعل – مخاوف الغالبية من السكان وآمالهم ، وان المقررات التي أمضيت فيه تعدّ – باطمئنان – معبرة عن الآراء والعواطف التي كانت تسود الاكثرية . لذلك فان نص المقررات مقياس معتمد تقدر به مسافة الخلف بين الأماني

---

[1] – كانت السرعة ناجمة عن اعتقاد فيصل بان زيارة اللجنة الدولية للتحقيق لن تتأخر .

العربية وآراب الحلفاء كما بدأت تفصح عن ذاتها في باريس .

وقد جاءت المقررات في عشر مواد وتضمنته مطالب يمكن ايجازها في ما يلي :

١ – الاعتراف باستقلال سورية بما في ذلك فلسطين دولة ذات سيادة على رأسها الامير فيصل ملكاً ، والاعتراف باستقلال العراق .

٢ – الغاء اتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور وأي مشروع لتقسيم سورية او انشاء دولة يهودية في فلسطين .

٣ – رفض الوصاية السياسية التي تتضمنها النظم الانتدابية المقترحة وقبول المعونة الاجنبية لفترة محدودة على شرط ان لا تتعارض مع الاستقلال الوطني والوحدة القومية . وتفضل المعونة التي تقدمها اميركة ، فان لم تتيسر فالمعونة البريطانية .

٤ – رفض المعونة الفرنسية في أي شكل جاءت .

وقد امضيت القرارات وسط مظاهر مؤثرة من الحماسة الوطنية . ولم تسمع اصوات معارضة الا من جماعة من النواب اعترضوا على ادراج المادة التي أقرت قبول المعونة الاجنبية . اما المواد الاخرى فقد امضيت باجماع كامل . وترددت اصداء الرغبات التي عبر عنها المؤتمر في ارجاء البلاد اذ ما كادت القرارات تزف الى الجماهير حتى انطلقت المظاهرات في كل الأنحاء السورية التي ليس للفرنسيين فيها سلطان ، وتجمعت الوفود في العاصمة لتحيي فيصلاً وتهتف للمؤتمر .

٧

لم يتحقق ابداً اقتراح ايفاد لجنة للتحقيق تمثل الدول الاربع ، فقد قر القرار في الخامس والعشرين من آذار (مارس) على ايفادها .

ثم تعرض هذا القرار في الاسابيع التالية لحملة من التشويه والتآمر نجحت في تحطيم المشروع الاصلي ، وكانت وزارة الخارجية الفرنسية تقود تلك الحملة . اما الحكومة البريطانية التي ازداد فتورها مذ ايقنت ان التحقيق سيمتد الى العراق وفلسطين فقد وجدت في عداء الفرنسيين والصهيونيين للمشروع ذريعة صالحة للتراجع عن تأييده . ولما لم تكن لايطالية مصلحة مباشرة فيه فقد وقفت موقف من لا يكترث بشأنه . وظل ولسن وحده ثابتاً على رأيه فيه . ثم ان بعض اعضاء وفد الولايات المتحدة كانوا يعارضون التحقيق لا بدافع من اي مصلحة قومية بل لاعتقادهم ان في باريس من المواد والشواهد المتيسرة (او التي يمكن جعلها متيسرة) ما يكفي لاثبات الحقائق ، وان وصول مثل تلك اللجنة الى سورية قد يزيد في الهياج ويستثير آمالاً اكبر من ان يستطاع تحقيقها . الا ان ولسن بقي مصراً على تنفيذ استطلاع مباشر « على المكان » ، ولو ادى ذلك الى ارسال الوفد الأمريكي وحده .

وصدرت التعليمات الى المندوبين اللذين اختارهما ليشكلا لهما هيئة من المعاونين ويعدا العدة للسفر . وكان الاسم الرسمي الذي اطلق عليهما هو : « الهيئة الامريكية من اللجنة الدولية لشؤون الانتدابات في تركية » ولكن الناس عرفوهما باسم « لجنة كنج – كرين » ، وبهذا الاسم سنشير اليهما في الصفحات التالية [1] .

وصلت اللجنة الى يافا في العاشر من حزيران (يونية) وقضت ستة اسابيع في زيارة فلسطين وسورية ، وقامت بتحقيق واسع في تلك المدة بمقدار ما أمكنها ، وقابلت عدداً كبيراً من الوفود في ما يقارب

---

١ – تالفت اللجنة من مندوبين هما الدكتور هنري كنج والمستر تشارلس ر • كرين وثلاثة مستشارين هم الاستاذ البرت هـ• ليبير والدكتور جورج ر• مونتغمري والكابتن وليم ييل وامين للصندوق هو الكابتن دونالد م • برودي •

اربعين مدينة وقضاء ريفياً ، وتلقت ما يزيد على ١٨٠٠ عريضة ، وجعلت لقاءها ميسوراً لكل ذي رأي دون تقييد . وبعد زيارة قصيرة الى كيليكية ذهبت الى القسطنطينية حيث كتبت التقرير وعادت الى باريس في الاسبوع الاخير من شهر آب (اغسطس) . وفي الثامن والعشرين من ذلك الشهر سلمت نسخة من تقريرها لسكرتارية وفد الولايات المتحدة ، وبعد فترة وجيزة ابحر الدكتور كنج عائداً الى نيويورك حيث دبّر رفع التقرير الى الرئيس ولسن بأسرع الوسائل .

لقد اصبح تقرير لجنة كنج – كرين اليوم في متناول من يشاء ، ولكنه في البداية اعتبر وثيقة سرية لدى كل من يهمه امره حتى لدى الرئيس نفسه . ولا ندري ماذا كان الرئيس يستطيع ان يتخذه تجاه ذلك التقرير سوى إبلاغ نصه الى الحكومات المتحالفة المعنية ، اذ ان الدكتور كنج لما وصل نيويورك وسعى حتى يسلم التقرير للرئيس ولسن في وشنطن حوالي منتصف ايلول (سبتمبر) كان ولسن قد سافر في رحلته الخطابية التي انتهت بمرضه الخطير . ومن المشكوك فيه انه قرأ ابداً النص كله ، غير انه كان عارفاً بسياقه العام من الخلاصة التي كان قد ابرق له بها المندوبان من قبل . ولما فوتح عام ١٩٢٢ ليأذن باذاعة محتوياته ، أذن بنشره فظهر نص التقرير كاملاً في صحيفة واحدة – على الاقل – من الصحف الامريكية [١] .

ان تقرير لجنة كنج – كرين وثيقة ذات اهمية فائقة ، لانه المصدر الوحيد الذي يحتكم اليه المؤرخ اذا تطلب تحليلاً نزيهاً موضوعياً لحال المشاعر السائدة في الدوائر السياسية العربية في الفترة التي تلت الحرب مباشرة . وكان البحث الذي قامت به اللجنة الامريكية هو المحاولة الوحيدة التي بُذلت نيابة عن مؤتمر الصلح للتعرف الى الحقائق المتعلقة

---

١ – ان النص الذي اعتمدته هو الذي ظهر في صحيفة Editor and Publisher (نيويورك) ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ وهو نص موثق لم تثر حول صحته اية شكوك .

بأماني العرب عن طريق التثبت الواقعي المواجه . وفي هذا وحده تستحق استطلاعات اللجنة اهتماماً خاصاً . ولكن مما زاد في قيمة التحقيق زيادة عظيمة إجراؤه على يد هيئة ليست لديها مطامح قومية تودّ الترويج لها ، وقد باشر اعضاؤها مهمتهم بأذهان متفتحة ، وأدار دفة العمل فيها رجلان تميزا باستقلال في الحكم واجتمعت فيهما خلتا البصر النافذ ورجاحة العقل على نحو فذّ . وبهذا يشهد التقرير كله لهما شهادة ضافية . وربما كان ابرز خصائصه براعة اللمح فيما التقطاه من معلومات ، والنزاهة التي لا يخطئها النظر فيما أثبتاه من توصيات [١] .

وقد عبّرت اللجنة في تقريرها عن ايثارها نظام الانتداب على سورية (ومن ضمنها فلسطين) والعراق ، على شرط ان يكون الانتداب لمدة محدودة ، وان يهدف على التعيين الى ايصال البلاد الخاضعة له الى مرحلة الاستقلال ، بالسرعة التي تسمح بها الظروف . وأوصت ان يعتبر العراق قطراً واحداً وان تظل لسورية (ومن ضمنها فلسطين) وحدتها كذلك على ان يمنح لبنان الحكم الذاتي داخل إطار الوحدة السورية ، وان يكون للعراق انتداب واحد ، ولسورية - فلسطين انتداب واحد ، وان يكون الحكم في كل منهما ملكياً دستورياً . فيصبح فيصل ملكاً في سورية وينتخب سلطان عربي آخر عن طريق الاستفتاء ليحكم العراق .

اما في مسألة اختيار الدولة المنتدبة فقد وجدت اللجنة ان جماع الرأي في سورية يرفض الحماية التي تسمى باسم « انتداب » ، وانه يميل بقوة الى « المعونة » على شرط ان تجيء من الولايات المتحدة ، فان لم تتيسر فلتكن من بريطانية العظمى ، ولكن ليس من فرنسة بأية

---

١ - ان نص التوصيات المتصلة بسورية وفلسطين والعراق مثبتة في الملحق (ح) ومع ان عضوي اللجنة لم يذهبا الى العراق فان تقريرهما يحتوي توصيات بشأن مستقبله استنادا الى معلومات جمعت من سورية .

حال . وبعد ان حلل المندوبان ما جمعاه من معلومات تحليلاً منطقياً اوصيا ان تفاتح الولايات المتحدة لتكون دولة منتدبة على سورية كلها ، وتكون بريطانية دولة منتدبة على العراق ، وأضافـــا قولهما : اذا لم تستطع الولايات المتحدة ان تأخذ على عاتقها امر الانتداب على سورية فليكن من نصيب بريطانية . وقد وجدا انهما لا يستطيعان التوصية بانتداب فرنسي لان محاولة إقـــامة انتداب فرنسي قد تؤدي الى حرب بين العرب والفرنسيين ، وتضطر بريطانية الى مركب وعر حين تلتزم ولا بد بالوقوف الى جانب حلفائها العرب .

وخصّصت اللجنة مساحة كبيرة في تقريرها لتحليل المشكلة الصهيونية؛ فذكر المندوبان انهما بدءا دراستها وقـــد تشبعت نفساهما بالتحيز اليها ابتداءً . غير ان حقائق الموقف التي وجداها في فلسطين قد جعلتهما يوصيان بتحديد المطامع الصهيونية . ذلك ان الشهادات التي استمعا اليها من الممثلين اليهود قد اقنعتهما بأن الصهيونيين يتطلعون الى انتزاع الملكية انتزاعاً عملياً تاماً من أيدي غير اليهود من السكان في فلسطين بأنواع مختلفة من ضروب الاحتياز ، وهما يريان ان مثل هذا العمل يعد انتهاكاً بالغاً لحقوق السكان والمبادىء التي نادى بها الحلفاء ونادى بها الرئيس ولسن ، حتى ولو تمّ في حدود القانون . وأجمع الضباط البريطانيون الذين استشارهم المندوبان على ان البرنامج الصهيوني لا يمكن تحقيقه الا بقوة السلاح ، ومن ثم فانهما يجدان نفسيهما ملزمين ان يوصيا بـــأن يختصر البرنامج الصهيوني ، وان تحدد الهجرة اليهودية ، وان تطرح فكرة جعل فلسطين دولة يهودية .

وكان من المتوقع ان يلقى مثل هذا التقرير الصريح القوي امتعاضاً بالغاً لدى صانعي السلام في فرساي ، وكذلك كان . فقد أودعوه في زاوية احد الادراج وأغفلوا امره ، ولم يعمل بما فيه من توصيات حتى في وشنطن نفسها . وقد مضى عليه قبل ان ينشر عـــلى الناس ثلاث

سنوات خلقت بريطانية وفرنسة في اثنائها « تسوية » من لدنهما وفرضتاها فرضاً ، وأهملتا في ذلك العمل نصائح لجنة كنج — كرين. إهمالاً تاماً تعوزه الحكمة .

٨

دعا المستر لويد جورج في شهر آب (اغسطس) الامير فيصلاً لزيارة أوروبة مرة أخرى ، حين اشتد التوتر في العلاقات بين انجلترة وفرنسة حول المسألة العربية الى درجة الخطورة . وقامت في فرنسة حملة من الاتهامات ضد انجلترة يقودها السياسيون من ابناء المدرسة «الاستعمارية» ، فحشدت من حولهم ثلة من ذوي النفوذ ، وانهمكت الصحافة في التشهير الصارخ المرير بما صورته للرأي العام دسائس بريطانية شريرة في سورية . وفي تموز ظهر مقال في « نشرة آسية الفرنسية » Bulletin de L'Asie Française بقلم المسيو روبير دو كيه ، وهو « محرر » مشهور وحجة في السياسة الاستعمارية الفرنسية ، فكان مقاله اتهاماً صارخاً لبريطانية . وقد احدث إثارة لا تتناسب ابداً وقيمته الحقيقية ، اذ صيغ في لغة خطابية ملتهبة ، وزاد في وزنه انه كشف عن معرفة وإلمام بالشؤون وجمع الى ذلك حماسة في التعبير . وكان موطن الهجوم فيه على بريطانية انها كانت تحاول التخلي عن الالتزامات التي تفرضها عليها اتفاقية سايكس — بيكو ، متذرعة الى ذلك بمختلف الوسائل الملتوية ، ومنها تشجيع العرب على معارضة « حقوق » فرنسة في سورية .

ولم تغض بريطانية على هذه الحملة ، فتصدت لها الصحافة البريطانية وكالت لها بصاعها . الا ان عاملاً آخر كان يؤرق انجلترة وذلك هو ازدياد تكاليف الحاميات البريطانية في سورية وكيليكية ، وهاتان المنطقتان ليستا من بين الممتلكات التركية التي تطمع فيها بريطانية ، وهي لا

تكسب شيئاً من ابقاء حامياتها فيهما الى ان يعقد الصلح . عندئذ رأى المستر لويد جورج بملكته الفـذة في انتهاز الفرص ان الفرصة مواتية للعمل فقرر ان يعمل وقدم الى كليمنصو اقتراحاً ذا فائدة مزدوجة لانه يطيّب خاطر فرنسة وينقص من تكاليف بريطانية .

ولم يكن من سبيل لارضاء فرنسة – فيما يتصل بسورية – الا سبيل واحد هو اعطاؤها « فلذة اللحم » * التي تحددت لها في اتفاقية سايكس – بيكو من « جسد » سورية . وقـد وضح المسيو دو كيه الامر بصراحة في مقاله ، فقال : انه يعتبر اتفاقية سايكس – بيكو وثيقة زور وتدليس ، لان شروطها تتعارض والاتفاق الذي تمّ قبلها بين السير هنري مكماهون والشريف حسين ، الا ان « الحقوق » التي اكتسبتها فرنسة لبسط انتدابها على سورية وليدة تقاليد قديمة ، وليس ثمة مـا يستطيع الوقوف امامهـا ، ويرى الفرنسيون ان شرط الانسجام بين فرنسة وانجلترة هو اعتراف بريطانية بتلك الحقوق . ولم يكن الاقتراح الذي قدمه المستر لويد جورج يعني بالضرورة اعترافاً تاماً بتلك الحقوق، وانما كان « مراضاة » لفرنسة وتخفيفاً لاعباء دافع الضرائب الانجليزي. فهل يجد الاقتراح قبولاً لدى العرب ؟ من اجل ذلك دعي فيصل الى أوروبة .

وأهمّ نصٍّ في ذلك الاقتراح سحب الحاميات البريطانية من سورية وكيليكية ، وإحلال الكتائب الفرنسية محلها في كيليكية (المحتلة الشمالية) وسورية الغربية (المحتلة الغربية) وإحلال القوات العربية محلها في سورية الشرقية (اي المحتلة الشرقية) . ومعنى هذا ان العرب سينفردون بوضع حامياتهم في مدن العقبة وعمان ودمشق وحمص وحمـاة وحلب وفي المقاطعات حول هذه المدن ، وان الفرنسيين سيحتلون كل الساحل

---

* ابقينا صورة التعبير الانجليزي هنا لدلالته على الجشع ، فالتعبير بفلذة اللحم استعارة ماخوذة من موقف شيلوك في رواية تاجر البندقية لشكسبير . – المترجم –

السوري غربيّ خط سايكس — بيكو (المنطقة الزرقاء على الخريطة) ، وسيبدأ الانسحاب في اول تشرين الثاني (نوفبر) . اما فلسطين غربيّ نهر الاردن (أي المحتلة الجنوبية) فستظل فيها حاميات بريطانية . وفي الاقتراح ايضاً شرط يحفظ للحكومة البريطانية حق إنشاء سكة حديدية وأنبوب للبترول يصل العراق بالبحر المتوسط عند حيفا « وفقاً لمبادىء اتفاقية سايكس — بيكو » [١] .

وشرح المستر لويد جورج اقتراحه في اجتماع عقده المجلس الاعلى بباريس في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) فوافق كليمنصو في الحال على المادة التي تقترح إحلال الكتائب الفرنسية محلّ الانجليزية شريطة ان يفهم لويد جورج ان موافقة كليمنصو لن تؤثر في التسوية النهائية لشئون الانتداب وتقرير الحدود وكان كليمنصو يعني من تعليق موافقته بهذا الشرط ان الحكومة الفرنسية ترغب في ان تبسط انتدابها على سورية الشرقية — أخيراً — وأنها ابعد من ان ترضى ببقائها دولة عربية مستقلة عن سيطرة فرنسة .

وصل فيصل الى لندن في التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) فاستقبله رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالنيابة ، في ذلك اليوم ، وأخبراه بما قد حدث في باريس ، فاعترض بشدة على اقتراح لويد جورج ، ثم قدم لرئيس الوزراء احتجاجاً رسمياً بعد سلسلة من الاجتماعات غير المثمرة بينهما ، وبحضور بعض الوزراء . وكان الاحتجاج في صورة مذكرة ، في الحادي عشر من تشرين الاول (اكتوبر) يقرر فيه الاسباب التي تجعل العرب لا يقبلون بالاجراءات التي تنصّ عليها المذكرة البريطانية .

---

١ — ان نص هذه المذكرة البريطانية التي عرض فيها المستر لويد جورج مقترحه قد ورد في كتاب دافيد هنتر مللر : « مذكراتي في مؤتمر باريس » ج : ١٦ (وانظر ترجمة لهذه المذكرة في كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين : ٣٢٣) .

وأبانَ فيصل في تلك المذكرة [١] انه حين سحب جيوشه بعد الهدنة بقليل الى داخل سورية لم يقم بذلك الا بناءً على تأكيد صريح من اللنبي بأن الحاميات البريطانية ستظل في البلاد حتى تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح . ولم يحتج فحسب على الاجراءات المقترحة في ذاتها بل احتجّ ايضاً على تقديمها بصفتها نتيجة طبيعية لاتفاقية سايكس ـ بيكو التي لم يكن العرب طرفاً فيها . واستند على التأكيدات الواردة في « التصريح للسبعة » (١٦ حزيران يونية ١٩١٨) والتصريح الانجليزي الفرنسي (٧ تشرين الثاني نوفمبر ١٩١٨) فقرّر انه لا يستطيع قبول الاقتراح البريطاني ، والتمس بقوّة عقد مؤتمر من الدول الثلاث (بريطانية العظمى وفرنسة والولايات المتحدة) ليبحث في مستقبل البلاد العربية ويقرر امر ذلك المستقبل على اساس من التعهدات التي قطعها الحلفاء والمبادىء التي أعلنوها .

وقد كانت المذكرة احتجاجاً معتدلاً مقنعاً، وكانت الحكومة البريطانية تعلم ان القضية التي بسطت في المذكرة لا تقبل جدلاً ؛ وكان مما يزيد في حيرة الحكومة اعتقادها الراسخ بأن غرض الفرنسيين في النهاية احتلال سورية الشرقية ، وبما انها كانت تعلم ذلك فقد ضغطت على فيصل ليدخل في مفاوضات مباشرة مع كليمنصو ، رجاء ان يخلصهم الاتفاق بين العرب والفرنسيين ـ ان قيّض له ان يحدث ـ من التزاماتهم المربكة ، ويهدىء ايضاً من شكوك حلفائهم الفرنسيين .

وفعلاً توصّل فيصل الى اتفاق مع الفرنسيين اذ انه لما وجد ان

---

١ ـ ظهر نص هذه المذكرة مرارا في الصحف العربية ، انظر بخاصة صحيفة الجامعة الاسلامية ، بتاريخ ١٤ ايلول سبتمبر ١٩٣٤ ، يافا ـ (قلت : وقد ادرج الأمير فيصل على مذكرة لويد جورج في كتاب : جزيرة العرب في القرن العشرين : ٣٢٥ وهو يختلف عما ذكره المؤلف في المتن ، الا انك اذا اضفت اليه كتابا آخر من فيصل الى لويد جورج (ص ٣٣٠) كانت الاستنتاجات التي يوردها المؤلف هنا ادق اذ يبدو انه اعتمد على هاتين المراسلتين معا) ـالمترجمـ

اقتراحه بعقد مؤتمر عاجل للدول قد وقع على اذن صمّاء ، أذعن لضغط الحكومة الانجليزية وذهب الى باريس . وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) قابل كليمنصو ، وبحثا معاً شروط اتفاق عربي فرنسي مؤقت وأقرّاها * . وينص الاتفاق على ان الحكومة العربية في داخل سورية تحترم احتلال فرنسة للبنان وسائر المناطق الساحلية في سورية شمالاً حتى الاسكندرونة ، الا ان الاحتلال لا يمتد الى منطقة البقاع [1] اذ تظل هذه منطقة محايدة تفصل بين الادارتين العربية والفرنسية . كذلك ينصّ على ان الدولة العربية ستتوجه — من بعد — الى فرنسة من اجل أية معونة قد تحتاجها . وكل تلك تدابير مؤقتة ريثما تتم التسوية النهائية على يد مؤتمر الصلح .

وحين وافق فيصل على هذا الاتفاق كان في الحقيقة يُسلم شيئاً ليس من حقه ان يتصرف فيه ، فلا تعليمات والده ولا المشاعر العربية كانت تقر ما صنع ، وقد كانت تلك التعليمات والمشاعر تقف بقوة ضد تجزئة سورية وفرض اي نوع من انواع الوصـاية الاجنبية . ولم يكن ذلك كله غائباً عن ذهنه غير انه كان يرى ان التفاهم مع كليمنصو هـو احد طريقين لا ثالث لهما ، فاما التفاهم واما جذ الروابط مع الحلفاء ، وكان يعلل نفسه بأن ذلك كله تدبير مؤقت وانه بما يتوقعه من مساعدة بريطانية والولايات المتحدة لن يعجز عن تعديله حين تبلغ المسألة العربية مرحلة التسوية النهائية .

كثيراً مـا اتهم فيصل بالضعف وجرت بالتهمة ألسنة المعجبين به والعائبين له ، ويتخذ نقاده من الفريقين اتفاقه مـع كليمنصو مثلاً شاهداً على ذلك . وانما يوصف هذا النقد بالقسوة لانه لا يحسب حساب

---

* انظر صورة من اتفاق فيصل — كليمنصو في كتاب : « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى » للدكتور احمد قدري (دمشق ١٩٥٦) ص : ١٥٤ — المترجم —

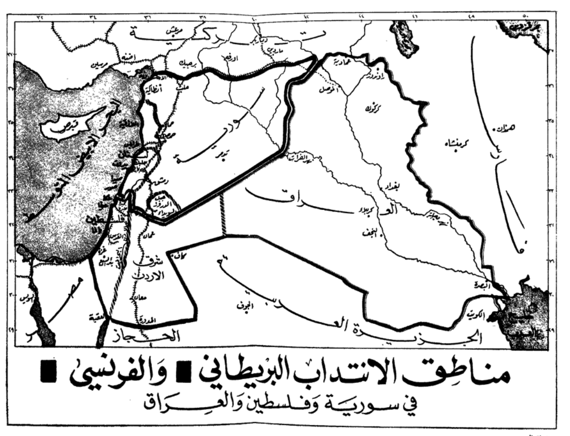
[1] — البقاع سهل داخلي بين لبنان الغربي والشرقي ، وفيه مدينة بعلبك .

ما استقر في جبلّة فيصل من إيثار للحلول السلمية او ما كان لديه من ميل مذهل الى تصديق مـا يسمع ، ايام ان كان غرّاً في اساليب الدبلوماسية الاوروبية ومراوغاتها . ولقد كان مستغرق الخواطر بقوة القضية العربية وعدالتها ، حتى اقنع نفسه بأن كل ما تحتاج اليه من تزكية هو ان تتلى على الاسماع الواعية المنصفة في محكمة تعقدها الدول وتحضرها الولايات المتحدة عـلى منصة القضاء . وكان عزم الحكومة البريطانية على البدء بالانسحاب يعني ان الاصطدام بين القوات الفرنسية والعربية امر لا مفرّ منه الا اذا تم نوع من التفاهم المؤقت بين الفريقين على هدنة ، حتى يحين حلول الصلح النهائي . وكان فيصل حكيماً حين جعل ارادته وعزمه حائلاً دون اندلاع نيران القتال . وعندما يقدّر النقاد ذلك الائتلاف الغريب في طبع الرجل بين الحكمة والسذاجة فان تهمة الضعف التي تصوب اليه فجّة عـارية تفقد كثيراً من وزنها ورجحانها .

وبقي فيصل في اوروبة لاعتقاده ان مؤتمر الدول اصبح في النهـاية وشيك الانعقاد . اما مسئولياته في سورية فقد حاول ان يصرّفها قدر المستطاع بالمحافظة على الاتصال المستمر مع الامير زيد اخيه الاصغر الذي خلّفه نائباً عنه في دمشق .

٩

بدأت الاستعدادات للانسحاب البريطاني في الاسبوع الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) ، واعتبرها الناس في سورية – كما هو الامر المنتظر – تمهيداً لتسليم لبنان والمناطق الساحلية في شماله الى فرنسة لتحتلها احتلالاً دائماً . ولم يمض وقت طويل حتى عبّر النـاس عن استيائهم بأعمال عدائية . ولمـا وصل نبأ الاتفاق بين فيصل وكليمنصو قابله الناس بالانكار ثم بالشجب العلني ، وعمّهم الشعور بأن فيصلاً باع البلاد



مناطق الانتداب البريطاني ■ والفرنسي ■

في سورية وفلسطين والعراق

يقظة العرب —



للفرنسيين ، ووقعت احداث في أمكنة مختلفة ، أعني مصادمات صغيرة ادت في التو الى معارك ذات طابع خطير بين القوات الفرنسية والعربية ، وبخاصة في جوار طرابلس وبعلبك وفي الجنوب في مناطـق مرجعيون والاردن الأعلى .

وقرر فيصل ان يزور سورية زيارة خاطفة محاولاً ان يخفف من التوتر وان يحصل على تفويض محدد من المؤتمر السوري ليستكمـل مفاوضاته في باريس . ووصل الى بيروت في الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٠ ومنها الى دمشق حيث صـادف استقبالاً فاتراً — بعض الشيء — . ولما زار حلب بعد اسبوعين لم تكن أقل فتوراً . ووجد أغلبية الزعماء في فزع جازع من المصير الذي تكشّف عنه تفاهمه مـع كليمنصو ، وكانت المظاهرات التي تجوب الشوارع منادية بـ « الوحدة » و « الاستقلال » تمثل له الاستنكار الذي عبّر عنه الزعماء ، في صورة مادية مجسمـة . وبذل كل قوته في الاقناع ليحوز موافقتهم على عودته الى باريس في صحبة وفد منهم ، وكانت مفاوضاته معهم مؤيدة بالمثابرة والصبر وحججه موسومة بالبراعة ، ومع ذلك فكان ردهم التعنيفي الذي تردد مرة إثر مرة هو : بما ان محادثات باريس تهدف الى تجزئة سورية (في فلسطين ولبنان وسورية الشرقية) والى احتلال قوات اجنبية لأجزاء منها فانها لا تصلح أساساً للبحث .

لم تفصح رغبة العرب في الوحدة عن ذاتها بمثل هذه القوة من قبل وان كانت كامنة في صميم اصول الحركة القومية . وكانت قوتها اشد لان الذين كانوا يجهرون بها هم ممن قاموا بدور فعّال في الثورة . وكانت دمشق — قلب العالم العربي — تؤوي يومئذ عـدداً كبيراً من الزعماء السياسيين وضباط الجيش والطلاب من فلسطين والعراق ومن جميع انحاء سورية نفسها . وهم في مجموعهم يمثلون الآراء والمشاعر لدى الغالبية العظمى في تلك البلاد حول الامرين الكبيرين : الوحدة

والاستقلال . وكثيرون هم الذين كانوا يومئذ يرضون ، بل يتعطشون ، ليروا الاستقلال متحققاً باللجوء الى المعونة الاجنبية ، اما مبدأ الوحدة فما كان فرد واحد مستعداً للمهاودة في شأنه . وسدّى ما ذهبت جهود فيصل وهو يحاول ان يقنع الناس بأن تجزئة سورية حسبما تضمنه الاتفاق بينه وبين كليمنصو لم تكن نهائية ، وانه حين وافق عليها فانما أذعن للامر المحتوم . ومضت الاسابيع ومرت الشهور دون ان ينجح في تكوين وفد يصحبه او يحرز تفويضاً لنفسه .

واجتمع المؤتمر السوري العام بدمشق في الثامن من آذار (مارس) وامضى قراراً اعلن فيه استقلال سورية (بما فيها فلسطين ولبنان) دولة ذات سيادة وملكية دستورية على رأسها الملك فيصل ، واجتمع الزعماء العراقيون واصدروا قراراً مماثلاً عن العراق ، واختاروا الأمير عبد الله اول ملك لهم . وأضيف الى القرار بند يحفظ للبنان حقه المكتسب في الحكم الذاتي داخل إطار الوحدة السورية . وجاء في القرار ايضاً ان كيان الحكومة في سورية والعراق سيعتمد على اساس اللامركزية – وهي الفكرة التي طالت حولها الخصومة بين الاتراك والعرب .

ولما كانت العراق وفلسطين في يد الاحتلال البريطاني ، والمناطق الساحلية في سورية في يد الفرنسيين ، لم تكن قرارات دمشق لتؤدي الى نتيجة عملية مباشرة . الا انها كانت تعبيراً عن الارادة الشعبية اذ جهرت بمبادىء الحركة القومية العربية وبرغبات السكان المعنيين . وبما انها كانت كذلك فقد اظهرت لواضعي التصريح الانجليزي الفرنسي حقيقة الاماني القومية دامغة ساطعة . ولو كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية يومئذ في وضع ذهني يمكنها من النظرة النافذة الى مصالحها ومن العمل معاً حسب بنود التصريح المشترك لما تجاهلتا ذلك التجلي السافر للارادة الشعبية . غير انها بدلاً من ذلك اعلنتا انها لا تعترفان لقرارات دمشق

بشيء من الصبغة الشرعية ، واتخذتا الخطوات لعقد اجتماع مبكر للمجلس الأعلى ، ودعتا فيصلاً ليعود الى اوروبة . الا ان استنكارهما لقرارات المؤتمر لم يكن فحسب نقضاً لوعودهما ، دالاً على قصر النظر ، بل كان غلطة كبرى لانه جعل حصول فيصل على تفويض بمهمته من نواب الأمة امراً أعسر من ذي قبل .

واجتمع المجلس الأعلى في سان ريمو واتخذ قراراته في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) ، فقرر ان يوضع كل المستطيل العربي الواقع بين البحر المتوسط والحدود الفارسية تحت حكم الانتداب ، وان تقسم سورية في ثلاثة اجزاء منفصلة : فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية ، وان يبقى العراق دون قسمة ، ووزعت الانتدابات بحيث تلائم مطامح الدولتين ، فأما سورية ولبنان فيوضعان تحت انتداب واحد يعهد به الى فرنسة ، ويكون لبريطانية انتداب على العراق وآخر على فلسطين ، وأضيفت فقرة تنص على ان الانتداب على فلسطين سيلتزم بتطبيق وعد بلفور ، ولم يذكر شيء عن التناقض السافر بين هذه المقررات والرغبات الصريحة لدى الشعوب التي يعنيها الامر .

واعلنت المقررات التي اتخذت في سان ريمو في الخامس من ايار (مايو) ، فولّد اعلانها شعوراً جديداً في العالم العربي — هو احتقار دول الغرب . ولم يكن ما اثار هذا الشعور هو فحسب إنكار الهدفين العزيزين : الاستقلال والوحدة ، وانما أثاره على نحو أعمق نكث العهود والمواثيق . والتمييز بين العاملين امر هام لانه ينبئنا كيف تحول العرب من خيبة الامل الى اليأس ، وفيه يكمن سرّ الانتفاضات التي حدثت من بعد . وقد كانت مقررات سان ريمو في نظر العرب شيئاً لا يقل عن الخيانة ، وبما ان تلك المقررات انتهكت عهداً موثقاً بالدم كانت الخيانة ادعى للمقت والازدراء .

ولا ريب في ان حكم التاريخ سيؤيد — اساساً — وجهة نظر

العرب . اذ مهما تفترق الآراء في مقررات سان ريمو فان احـداً لن ينكر انها انتهكت حرمة المبادىء العامة التي اعلنها الحلفاء والوعود المحددة التي قطعوها ، وبخاصة بريطانية . لقد اصبحت مشتملات العهود التي عقدت سراً معروفة ومنها ومن التأكيدات العلنية يستطيع الدارس ان يتخذ المادة الضرورية للحكم : بقوة تلك الوعود خاض العرب الحرب وأسهموا فيها وقدموا التضحيات ، وتلك الحقيقة وحدها تكفي لتحول الالتزامات الملزمة الى دين من ديون الشرف . الا ان مؤتمر سان ريمو ، في الحقيقة ، أنكر الدين ووضع مقررات ناقضت رغبات الشعوب المعنية ، في كل النقاط الاساسية .

١٠

ما كاد مؤتمر سان ريمو ينفض حتى اخذت العلاقات بين الفرنسيين والعرب تزداد سوءاً ، ذلك ان الانتداب الذي منح لفرنسة اعطاهـا ما كان يتوق اليه بعض سياسييها وبيروقراطييها ، اعني يداً طليقة تفرض بها ارادتها على فيصل . اما العرب فقد زجت بهم مقررات سان ريمو في مضيق اليأس فأخذوا يضغطون على فيصل ليعلن الحرب على الفرنسيين .

ووقع فيصل نهباً موزعاً بين الرسائل المتغطرسة التي يبعث بها الجنرال غورو [1] والتوسلات الحارة التي يطلقها اتباعه فلجأ الى التردد والمداراة ، رفض اعلان الحرب على الفرنسيين الا انه تغاضى عن الهجمات التي قادها بعض الضباط الشبان من العرب على المواقع الفرنسية قرب الحدود اللبنانية (وربما أوحى بها) . وعندما انبىء ان الفرنسيين قد ارسلوا عصابات في المنطقة العربية لتثير الاضطرابـات اكتفى بتوجيه رسائل

---

١ ـ عين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ قائدا أعلى ثم مفوضا ساميا في المنطقة الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

احتجاج الى غورو ، بينما كانت مشاعر السخط لدى اتباعه قد بلغت اقصاها . وعلى الرغم من ان مقررات سان ريمو هزّت قواعد ثقته ، لم يفقد امله في ان يضمن الاسماع الواعية المنصفة في مؤتمر تعقده فرنسة وبريطانية العظمى والولايات المتحدة . ولم يدرك حينئذ معنى التغير الذي اصاب المشاعر الامريكية نحو سياسة العالم القديم ، وكان ما يزال يتشوق الى فرصة ليزور اوروبة مرة اخرى في اقرب وقت ممكن .

وفي تموز (يولية) كشّرت الازمة عن نابها ، فقد كتب فيصل الى غورو في اوائل الشهر يعلمه بأنه عزم على ان يبحر الى اوروبة اخيراً ، فاذا هذا يخبره انه بسبيل ارسال رسالة اليه من الحكومة الفرنسية ، وقد بعثت هذه الرسالة اخيراً في الرابع عشر من تموز (يولية) وتسلمها فيصل في مساء ذلك اليوم ، وكانت بلاغاً نهائيـاً في صورة انذار يتضمن خمسة شروط لا بد من الامتثال لها خلال اربعة ايام ، والا فان الحكومة الفرنسية تهدّد « بأن تكون مطلقة اليد في العمل » .

ان نص ذلك البلاغ معروف[1] وهو يعدّد سلسلة من الاتهامات ضد الادارة العربية في دمشق ، ومنها ما يتعلق باجراءات قامت بها تلك الحكومة اثناء تنفيذ سلطتها ، ومنها دعاية ضد الفرنسيين ، واعمال عدائية تمت تحت سمعها وبصرها . ثم يتلو ذلك بيان بالشروط الخمسة التي طلب الى الادارة العربية ان تنصاع لها ، وهي : ١) تسليم سكة حديد رياق – حلب الى السلطة العسكرية الفرنسية ، وهـذا سيجر في اثره احتلال القوات الفرنسية لمدينة حلب ومحطات رياق وبعلبك وحمص وحماة ، ٢) إلغاء التجنيد وتخفيض عدد الجيش العربي ، ٣) قبول الانتداب الفرنسي قبولاً غير مشروط ، ٤) تداول العملة التي فرضتها

---

١ – نشرت جريدة النهار (في بيروت) ترجمة كاملة له (وانظر الثورة العربية الكبرى لامين سعيد ٢ : ١٦٧–١٧٤) .

الادارة الفرنسية ، ٥) معاقبة الاشخاص الذين شهروا بالتورط في الاعمال العدائية ضد الفرنسيين . ويدل نصّ الانذار على ان وراءه دوافع خفية كالانذار النمسويّ – المجريّ الذي وجه الى الصرب في تموز (يولية) عام ١٩١٤ .

وقد تجلى على ضوء هذا النصّ وعلى ضوء ما حدث من بعد – بما لا يتحمل شكاً – ان الفرنسيين كانوا قد عقدوا العزم في أية حال ان يمدوا احتلالهم العسكري ليشمل بقية سورية ، وان ذلك البلاغ لم يكن سوى سعي تاكتيكي لبلوغ تلك الغاية . وصمم فيصل بين دهشة اتباعه وسخطهم ان يقبل كل الشروط دون مراجعة * وكان بذلك يعرض نفسه ، وهو عارف ، لأخطر نوع من فقدان عطف الجماهير ، الا انه احس – وقد وضح له ما عزم عليه الفرنسيون – أن رفض الانذار سيتخذ ذريعة لاحتلال دمشق . وبعد تأمل في العواقب رأى أن احكم ما يأتيه قبوله بالامر الواقع وأن يسافر توّاً الى لندن ويثير المسألة كلها في جو آخر ، وكان اعتماده على الحكومة الانجليزية ما يزال العامل الأول في سياسته . ومما قوّاه في اعتزامه برقية وصلته لحظتئذ من اللورد كرزون ينصحه فيها بتجنب الاعمال العدائية ، مهما يكلفه ذلك .

لقد تقبل فيصل الانذار رسمياً وبدأت المحاولات لتنفيذ ما احتواه من شروط ، ومع ذلك زحفت الكتائب الفرنسية الى دمشق ودخلتها بعد مضي عشرة ايام على تقديم الانذار . ولم تنفع فيصلاً دماثته ، ولا تخضّعُ كبريائه في سبيل الحرية النهائية ، ولا شجاعته التي واجه بها سخط اتباعه . وهبّ كلّ السكان في عاصمته لما سمعوا بالزحف

* كان نص القبول : رغبة في انقاذ شعبي من ويلات الحرب واملا في انشاء سلم موطد لا يتسنى ادراكه الا بالاحتفاظ بصداقة الحلفاء ومودتهم وخصوصا مودة الحكومة الفرنسوية ابلغكم انني اقبل مطالبكم ... الخ (انظر امين سعيد ٢ : ١٨٢) – المترجم –

الفرنسي ، وكلفت الاجراءات التي وجدها فيصل ضرورية لاعادة النظام مائة قتيل من رعيته صرعوا برصاص شرطته في شوارع دمشق . وقتل آخرون وهم يحاولون ببسالة ان يوقفوا زحف الكتائب الفرنسية ، ولما كان الفرنسيون يقتربون من ممر ميسلون اندفعت جماعة من الوطنيين تبلغ الألفين متحدية اوامر فيصل وانضمت الى القوة النظامية الصغيرة التي تحمي الممر . غير ان الوقفة البطولية التي وقفوها جميعاً لم تجد شيئاً ضد الطائرات والاعداد الضخمة والاعدادات الفرنسية ، فهلك عدد كبير منهم . وقتل يوسف العظمة ، وزير الدفاع الشاب ، وكان يقود ثلة صغيرة من القوات النظامية في وجه الرشاشات الفرنسية . اما القسم الاعظم من الجيش الذي كان يحمي المدينة فقد سرحه فيصل خضوعاً لأوامر الانذار واصبحت الطريق الى دمشق مفتوحة ، ولم تقم في وجه الغزاة أية مقاومة أخرى .

ولسنا في حاجة الى سرد تفصيلي للأحداث التي تخللت الايام العشرة فقد اكتظت بالأحداث السريعة المتعاقبة ، والاقوال فيها متضاربة حتى لا يمكن كشف الحقيقة فيها بعامة الا بعد الفحص المتأني الدقيق . وقد اورد انصار كل فريق قرائن يقنعون بها انفسهم بأن الفريق الآخر هو المسئول عن العمل الذي جرّ الى غيره من اعمال . وإن تتابع الحوادث معقد متشابك حتى ليصلح ان نستمد منه وجهات نظر عديدة ، وكل ما يهمنا في هذا المقام هو ان احتلال دمشق لم يكن نتيجة لعلل عارضة وانما كان مبنياً على خطة مدبرة ، وان الانذار لم يكن الا مقدمة تاكتيكية لتنفيذ تلك الخطة ، وان الطريقة الوحيدة التي كان يمكن لفيصل ان يعيق بها تنفيذها او يحول دونه هي اعلانه الحرب على فرنسة وإثارة البلاد والقبائل ضدها . وليست هذه النظرية مما يأخذ به من يدافعون عن موقف فرنسة . فان أولئك يصورون احتلال دمشق وبقية سورية دفاعاً عن الذات على نسق الساسة اليابانيين الذين وصفوا

احتلال شنغهاي ونانكنج بأنه اجراء من المحافظـة على الذات اضطروا اليه بما أثاره العدوان الصيني من تهديد خطر عليهم .

ومن اول الاعمال التي قام بهـا الفرنسيون في دمشق ان طلبوا الى فيصل مغادرة البلاد ، فغادرها في الثامن والعشرين من تموز (يولية) ، ومعه عدد من خلطائه الأدنين ، وسافر بالقطار الى درعا مجتازاً سهل حوران الأعلى الذي ماجت فيه قوات الثورة وحلفاؤها البريطانيون في زحفهم الظافر نحو دمشق ، ومن ثم ذهب الى حيفا ومنهـا أبحر الى ايطالية . وبقي في عزلة على شواطىء بحيرة ماجيوري حتى كانون الاول (ديسمبر) التالي ، حين وصل لندن استجابة لدعوة تلقاها من الحكومة البريطانية .

١١

ان ايمان فيصل بالعواطف الودية البريطانية نحوه لم يكن ضرباً من الأوهام . وكثيراً ما تتهم بريطانية في الدوائر العربية بأنها بعـد ان استغلت العرب لتحقيق غايتها تحولت عامدة ضدّهم حين حققت النصر . غير ان هذه التهمة في حاجة الى جلاء . لقد كان في صفوف الحكومة وفي خارجها رجال أحسوا ان عليهم ديناً وكانوا يتشوقون الى ان يروه مقضياً بشرف . وكان هناك عطف اصيل على فيصـل والقضية التي يمثلها . واذا استثنينا الامريكيين الذين كانوا يعطفون على العرب عطفاً افلاطونياً حق لنا ان نقول : ان البريطانيين كانوا الاصدقاء الوحيدين للعرب في فرساي . واذا كان فيصل قد لجأ اليهم مراراً يطلب المعونة دون ان يصغي الى نصيحة كثيرين من أتباعه فما ذلك الا لانه كان يعلم ما لا يعلمونه ، كان يعلم انه كان يستطيع ان يعتمد في انجلترة على قدر من العون لا تقدمه اية دولة اخرى ، وان ذلك العون لم يكن لشخصه فحسب بل كان ايضاً للقضية العربية ، بعامّة .

وقد كانت الحكومة البريطانية في مؤتمر الصلح – على الاقل – وقفت بقوة تعضد حق العرب في الاستقلال ، في موضوع سورية بخاصة . وقد يرد المعارضون بأن الحكومة البريطانية ما كانت لتفعل ذلك الا لانها لم تكن تطمع بشيء في سورية ولم يكن لها ما تفقده فيها ، غير انه تبقى حقيقة هامة وهي ان رئيس وزرائها كان كأنما يعمل في الشهور الاوائل من عام ١٩١٩ يداً بيد مع الفرنسيين في سورية نحو غاية مشتركة . وهناك نص في وقائع الاجتماع السري الذي عقده الاربعة الكبار في العشرين من آذار (مارس) عام ١٩١٩ بباريس [١] . وهو ذو قيمة بالغة لما يلقيه من اضواء على الفارق بين الموقفين : الفرنسي والبريطاني :

« قال المستر لويد جورج ان الاتفاق (اي بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون) قد يكون مما انفردت به بريطانية ، ولكن لنذكر جيداً ان انجلترة وحدها هي التي نظمت الحملة السورية كلها وإذن فلولا بريطانية لما كانت هناك مشكلة سورية . لقد دفعت بريطانية العظمى بعدد يتراوح بين ٩٠٠ الف ومليون جندي في الميدان ضد تركية ، الا ان المعونة العربية كانت اساسية . وهذه نقطة يستطيع ان يتحدث عنها الجنرال اللنبي .

« فقال الجنرال اللنبي انها كانت معونة بالغة القيمة .

« ومضى المستر لويد جورج يقول : انه على اساس من الرسالة التي تقدمت الاشارة اليها (اي مذكرة السير هنري مكماهون بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٥) وضع الملك حسين كل امكاناته في الميدان ، وهذا ما ساعدنا مساعدة ملموسة على إحراز النصر . وقد قبلت

---

١ – راجع راي ستانارد بيكر : « ولسن والتسوية العالمية » المجلد : ٣ .

فرنسة لأغراض عملية تعهداتنا للملك حسين بتوقيع معاهدة ١٩١٦ « سايكس – بيكو » . ولم يكن المسيو بيشون هو الذي قبل ذلك بل أسلافه في الوزارة . وانه « اي لويد جورج » ليجد نفسه مضطراً الى ان يقول : ان وافقت الحكومة البريطانية على ان تكون دمشق وحمص وحماة وحلب ضمن النفوذ الفرنسي المباشر فانّ ذلك يعني انها قد نكثت عهدها مع العرب وهي لا تستطيع مواجهة هذا الامر . وهو حريص على ان يتنبه كليمنصو بصورة خاصة الى هذه الناحية ، فان اتفاقية ١٩١٦ قد وقعت عقب الرسالة المبعوثة الى الملك حسين . وفي العبارة التالية من تلك الاتفاقية تعترّف فرنسة باستقلال العرب : « قد تم التفاهم بين الحكومتين الفرنسوية والبريطانية ان فرنسة وبريطانية العظمى مستعدتان ان تعترّفا بحكومة عربية مستقلة او بحكومات عربية متحدة او مستقلة او تؤيداها في الاماكن المشار اليها بحرف (A) وحرف (B) على الخريطة الملحقة بهذا وان تكون هذه الحكومة او الحكومات تحت سيادة زعيم عربي » * .

« من ثم فان فرنسة بهذا العمل قد اعترفت عملياً باتفاقيتنا مع الملك حسين اي باستثناء دمشق وحمص وحماة وحلب من المنطقة الزرقاء الواقعة تحت الادارة الفرنسية المباشرة ، اذ ان الخريطة المرفقة بالاتفاقية دلّت على ان دمشق وحمص وحماة وحلب من ضمن الدولة العربية المستقلة لا من ضمن المنطقة الواقعة تحت الادارة الفرنسية المباشرة .

* اعتمدنا في هذا النص على ما جاء في كتاب : جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص : ٣١٠ (الطبعة الثانية) وانظر مجموعة الوثائق : ٨٤ وكتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ : ١٨٩ وفي الترجمة بعض اختلاف . (المترجم)

« فقال المسيو بيشون : ان هذا امر لا نزاع فيه ولكن كيف تكون فرنسة ملزمة باتفاقية لم يكن وجودهـا نفسه معروفاً لديها حين وقعت اتفاقية ١٩١٦ ؟ في تلك الاتفاقية لم تعترف فرنسة بأي حال بالحجاز نفسه [١] فقد تعهدت بأن تؤيد « دولة عربية مستقلة او اتحاداً من الـدول العربية » ولكنها لم تتعهد بتأييد ملك الحجاز . ولو وعدت فرنسة بانتداب على سورية اذن لتعهدت بأن لا تفعل شيئاً الا ان يكون بموافقة الدولة العربية او اتحاد الدول العربية ، ذلك هو الدور الذي تتطلبه فرنسة في سورية . وهو يعتقد ان بريطانية لو وعدتها ببذل مساعيها الحميدة فانها تستطيع ان تصل الى تفاهم مع فيصل » .

ويدل موقف المستر لويد جورج في ذلك الاجتماع على ان الحكومة البريطانية كانت تعترف بعدالة حق العرب في الاستقلال في سورية وانها منحته تأييدها الكامل في مؤتمر الصلح ، وهذا يبعد التهمة التي تقول ان بريطانية العظمى لم تبذل جهداً لتنجز وعودها للعرب خارج الجزيرة العربية . ولكنه يدل ايضاً على انها متيقنة من ان رغبة فرنسة في احتلال مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب متناقضة مع تعهداتها هي للعرب . وقد صرح المستر لويد جورج في كلمات لا يلتبس معناها بأنه لو وافقت الحكومة البريطانية على ضم المدن الاربع في دائرة النفوذ الفرنسي المباشر فانها تنكث وعدها للعرب ، واضاف قوله : « وهي لا تستطيع مواجهة هذا الامر » . في هـذا الموقف تمت الخيانة : فقد احتل الفرنسيون

---

١ ـ لا يتفق هذا القول مع الحقائق ٠ لان سلطة شريف مكة في الواقع قد اعترف بها في المادة الثالثة من اتفاقية سايكس ـ بيكو وذلك بان يكون له راي في تقرير شكل الحكومة في البلاد العربية مع اشارة خاصة الى مستقبل فلسطين ٠ اضف الى هذا ان فرنسة اعترفت رسميا بالشريف حسين ملكا على الحجاز (انظر الفقرة : ٧ من الفصل : ١١) ٠

المدن الاربع ووضعوها في دائرة النفوذ الفرنسي المباشر بينا وقفت الحكومة البريطانية تتفرج راضية . واذن فان التهمة التي سيوجهها التاريخ الى بريطانية ليست انها لم تبذل جهداً في مؤتمر الصلح لانجاز اي تعهد من تعهداتها ، وانما التهمة هي ان الجهد الوحيد الذي بذلته لانجاز تلك التعهدات لم يتجاوز سورية ، ولم تفعل شيئاً نحو فلسطين والعراق ، ثم انها حتى في حال سورية نفسها انتهت الى الموافقة على اغتصاب أقر رئيس وزرائها بأنه يمثل نقضاً للعهد مع العرب .

١٢

بما اشتمل عليه عام ١٩٢٠ من مصائب نزلت بالعرب ، اصبح في تاريخهم عاماً منحوساً حتى ليسمونه « عـــام النكبة » – فيه قضت مقررات سان ريمو بما قضت فاحتل الفرنسيون سورية كلها ، وثبت البريطانيون سيطرتهم في العراق عـــلى اساس ينفي الحكم الذاتي ولو مظهرياً ، واستعلنت سياسة التطوير الصهيوني بشدة في فلسطين . وشهد ذلك العام اول الثورات المسلحة التي حدثت احتجاجاً على تسوية ما بعد الحرب حسبما فرضها الحلفاء على البلاد العربية ، فوقعت في ذلك العام اضطرابات خطيرة في سورية وفلسطين والعراق وأتى عـــلى المستطيل العربي زمان كان فيه يغلي كله باستياء تمثل في اعمال العنف .

وحدثت اولى تلك الاضطرابات في فلسطين في عيد الفصح اذ قام السكان العرب في القدس بهجوم على اليهود وقد افزعتهم اعمال زعماء الصهيونية وتصريحاتهم . ولم توضح اسباب ذلك الانفجار رسمياً ، فقد عين القائد الأعلى البريطاني لجنة تحقيق بحثت عن اسباب تلك الاضطرابات وكتبت عنها تقريراً ، الا انه لم ينشر ابداً وبقي سراً مطوياً حتى اليوم ، خلا الاستنتاج الذي قبله الناس بعامة وهو ان اسباب الانفجار في رأي اللجنة كانت سياسية ، وان جذورها تمتد الى المخاوف التي احس بها

السكان العرب على مستقبل بلادهم .

وحدثت في سورية اصطدامات عارضة في النصف الاول من ذلك العام ، ثم اعقبتها ، بعد دخـول الفرنسيين الى دمشق ، سلسلة من الهجمات المدبرة في نواحٍ مختلفة من البلاد . واستطاع جماعة من الزعماء ان يجمعوا في المنطقة بين حلب وانطاكية عدداً غير قليل من المتطوعين فقاموا بعدة اشتباكات مع الكتائب الفرنسية التي ارسلت لمقاتلتهم . غير ان قوات الثوار لم تستطع ان تتغلب على الامدادات الكبيرة التي جاء بها الفرنسيون الى البلاد ، وهزموا في كل مكان — تقريباً — قبل ان ينقضي العام . الا ان اخفاقهم لم يحمل السكان على الرضى بما قُدر لهم بل زاد في مقتهم للانتداب الفرنسي وساعد على زيادة النفور وتقوية روح المقاومة .

وتمت اخطر الثورات في العراق . ففي خلال الربيع كان الاستياء من نظام الحكم الانجليزي المباشر قد وجد تعبيراً في حركة من الهياج التلقائي ، ولم تكن حركة معادية لبريطانية بمعنى ان الذي هاجها محض عداء لبريطانية العظمى ، وانما كانت ثورة على الحرمان من الاستقلال وعلى فرض نظام الانتداب فرضاً تعسفياً ، فقد وجـد الناس انفسهم خاضعين لحكم بريطاني مع مساعدة عربية اسمية ، بدلاً من ان يتمتعوا بحكم عربي مع قدر من المساعدة البريطانية . ومما زاد في حدة الهياج ان نمّاه وشجعه الزعماء العراقيون في دمشق ، وبخاصة الفرع العراقي من جمعية « العهد » ، تلك الجمعية السرية التي كونها قبل الحرب الضباط العرب في الجيش العثماني [1] ، واكثرهم ممن عمل في الثورة العربية . وواجه الكولونيل أ . ت . ولسن — وهو المندوب المدني بالوكالة — ذلك الهياج بوسائل خرقاء من الكبت نفّذها بعسف رجل ضيق الأفق عنيد ، لأنه كان يؤمن ايماناً أعمى بفضائل الحكم المستقر مما أعشى عينيه

---

[1] — انظر الفقرة السادسة من الفصل السادس في هذا الكتاب .

دون ان يرى مظاهر تحمس العرب لنيل الحكم الذاتي . فألقى القبض على الزعماء بالجملة ، وشفع ذلك بأعمال من العقوبات الجزائية والتغريب ، مما زاد نار الاستياء اشتعالاً بدلاً من ان يزيل اسبابه الحقيقية .

ثم أعلنت مقررات سان ريمو فكانت ذروة العوامل المثيرة ، ومنذ تلك اللحظة تبلورت المشاعر فأصبحت تصميماً صلباً على الثورة . واصدرت لجنة « العهد » نداء تستنكر فيه المقررات وتدعو شعب العراق لمقاومة اوامر الدول المتحالفة بالقوة . وفي السابع عشر من حزيران (يونية) اعلن ان الحكومة البريطانية قد أذنت بدعوة مجلس تأسيسي عـــام بالانتخاب ، غايته سن قانون نظامي للعراق ، الا ان هـــذا الاعلان تأخر حتى لم يعد ذا جدوى في تهدئة النفوس . وهو قاصر عن ذلك لأنه لم يمس مقررات سان ريمو ابداً . وفي نهاية حزيران (يونية) حدثت حادثة أدت الى تفاقم الازمة ، فهبت قبائل الفرات الاوسط تعلن الثورة .

ولقد سرد الكاتبون قصة هذه الثورة عدة مرات ولعل اوثق الروايات عنها موجودة في مؤلف ذي قيمة علمية بارزة[1] ظهر حديثاً . وهي قصة مؤلمة عن حرب بين الاصدقاء ، ولا يفوقها فظاعة الا الحماقـــة التي سببتها ؛ وامتدت من تموز (يولية) الى تشرين الاول (اكتوبر) . وكان مجموع الخسائر في نهايتها نحو ١٠,٠٠٠ إصابة . ولا يعرف على التأكيد عدد العرب الذين قتلوا وربما قارب ٤٠٠٠ . وفقد ما يزيد على ٤٠٠ من البريطانيين فضلاً عن ١٨٠٠ من الاصابات الاخرى . وكلفت الثورة الخزينة البريطانية اربعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية ؛ وهو مبلغ يزيد على ثلاثة اضعاف المعونات التي دفعتها بريطانية – ذهبـــاً

---

١ – هو كتاب : العراق : دراسة في تطوره السياسي (١٩٣٧) تأليف فيليب ويلارد آيرلاند ، وهو كتاب يمتاز بالانصاف والدقة في ترتيب الاحداث وانا مدين له ببعض الحقائق عن الثورة في العراق .

وأسلحة ومؤناً ــ لتموين الثورة العربية من بدايتها الى نهايتها ؛ وكانت الاضرار في الاملاك ومصادر الدخل في البلاد كبيرة فادحة .

ومما زاد في خطورة الثورة انها اتخذت طابع حرب دينية . فأما في البدء ، خلال القسم الاعظم من شهر تموز (يولية) ، فان الذين كانوا يوجهونها في المقام الاول هم رؤساء القبائل وضباط انتهى عملهم بانتهاء الثورة العربية . ولما ان مرّت الاسابيع ورسخت أقدام الثائرين انضم زعماء الشيعة الدينيون الى الحركة علناً ، رجاء ان يمنحوها حدّة الحرب المقدسة . وفي نهاية تموز (يولية) جاءت الانباء بأن الفرنسيين احتلوا دمشق فأحس زعماء الثورة ان اللحظة قد أزفت لبذل جهد كبير ، فكان ذلك الجهد استنفاراً عاماً للجهاد . وكانت الدعوة اليه قد تمّت في اوائل آب (اغسطس) في النجف وكربلاء ، أقدس مدينتين لدى الشيعة في العراق ، ثم امتدت منها من بعد الى أنحاء القطر في حوضي الفرات الادنى والاوسط . وامتدت شعلة الثورة الى أنحاء في البلاد لم تكن بعد قد انتفضت واذا نارها تعمّ البلاد جميعاً . وأتى على الثوار وقت كانوا فيه ، على مدى أسابيع عدة من شهري آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر) ، هم السادة في كل مكان الا في المدن الثلاث الكبرى : بغداد والبصرة والموصل . اما في الارياف والقرى فقد فقدت الادارة الانجليزية سلطتها ، واعلن الزعماء المحليون عن انشاء حكومات مؤقتة في عدة مراكز لتصريف الشئون وضبط الاحوال .

ووصل السير برسي كوكس الى العراق في أوائل تشرين الاول (اكتوبر) ليضطلع بالحكم : مندوباً مدنياً . عندئذ كان صلب الثر قد انحطم الا ان البلاد كانت ما تزال بعيدة عن الهدوء والسكينة فاتخذ كوكس فوراً خطوات لينجز قرار الحكومة البريطانية الذي أعلنته في حزيران (يونية) السابق ، وهو قيام هيئة عراقية منتخبة لاعداد قانون اساسي ، فشكلت حكومة عربية مؤقتة عرفت باسم « مجلس

الدولة » ، وتتألف من عراقيين يعملون وزراء ، ومستشارين بريطانيين ملحقين بكل وزارة . اما السلطة العليا فقد تركت في يدي السير برسي كوكس الذي أصبح « مندوباً سامياً » . وكانت تلك الحكومة بريطانية في حقيقتها عربية في ظاهرها ، ولم يخفف تعيينها شيئاً من المشاعر ضد الانتداب ، ولم تتألف الشعب العراقي لقبول الحكم الانتدابي . الا انها كانت جسراً بين السلطة البريطانية والسكان النافرين منها ، كما انهـا مهدت الطريق الى سلسلة من التطورات التي أدّت على مرّ الزمن الى إلغاء الانتداب ومنح العراق استقلاله السياسي .

١٣

كان من نتيجة الخسائر التي سببتها ثورة العراق ان اشتدت الحملة في بريطانية لتخفيض النفقات على الالتزامات في الخارج . وكانت الحكومة البريطانية في حاجة الى الاقتصاد مما اضطرها الى ان تسارع في العمل ، فدعت باقتراح من المستر ونستون تشرشل وزير المستعمرات الى مؤتمر يعقد في القاهرة في شهر آذار (مارس) عام ١٩٢١ للبحث في وضع الاقطار العربية واستحداث تدبيرات لمعالجته . واتخذ المؤتمر قرارات أدّت الى تغيير جذريّ في السياسة في العراق والى تغييرات ذات اهمية – من نوع مختلف – في ذلك القسم من سورية الجنوبية الواقع الى الشرق من نهر الاردن .

في الاسابيع التي سبقت عقد المؤتمر اجرى فيصل بلندن محادثات عديدة مع شخصيات حكومية وغـير حكومية ، وبخاصة مع المستر تشرشل والكولونيل لورنس الذي كان يومئذ مستشاراً شخصياً لوزير الخارجية في شئون العرب . وتمخضت تلك المحادثات عن تفاهم مجمله ان الحكومة البريطانية ستسلم ادارة العراق الى حكومة عربية وستستعمل نفوذها لتضمن تعين فيصل ملكاً على العراق وتدخل في مفاوضات معه

لابرام معاهدة تحالف تحلّ محل الانتداب .

عقد المؤتمر في القاهرة في الثاني عشر من شهر آذار (مارس) ، وكان يتألف من موظفين وعسكريين بريطانيين لا غير ، بينهم المندوب السامي في العراق (السير برسي كوكس) والمندوب السامي في فلسطين (السير هربرت صموئيل) . وقرّر المؤتمر ان يوصي بانفاذ المسائل التي تمّ عليها التفاهم في لنــدن بين فيصل وتشرشل ، بأسرع وقت . واقترح المؤتمرون ان يتوجه فيصل الى العراق مرشحــاً للعرش ؛ وان ينادى به ملكاً عن طريق استفتاء شعبي . وكانوا يعللون النفس بأنهم ، اذا انشأوا حكومة عربية في العراق تمهد الطريق لالغاء الانتداب ، فقد تتمكن الحكومة البريطانية من تخفيض اعداد حامياتها كثيراً وتوفر بذلك نفقات طائلة . ذلك ان ثورة ١٩٢٠ قد أقنعتهم بأن حفظ العهود التي قطعوها سبيل من السبل الى تجنب النفقات الباهظة ، وكانت هذه سياسة الجمع بين « الاقتصاد وكلمة الشرف » .

ووصل المستر تشرشل الى القدس في الرابــع والعشرين من آذار (مارس) ، وهناك كانت المشكلة الكبرى ايضــاً هي ان يستحدث تدابير لتخفيض كلف الالتزامات . ولم تكن المشكلة تؤثر في فلسطين مباشرة الا من حيث ان الموقف الذي نشأ في شرقي نهر الاردن كان يهدد سلامة المنطقة الواقعة تحت الانتداب البريطاني ، حيث كانت تجربة انشاء وطن قومي لليهود قد دخلت في دور التنفيذ . وعلى غير انتظار ظهر الامير عبد الله في معان في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) على رأس عدد من الاشياع ورجال القبائل ، ونُسب اليــه انه كان يهدف الى حشد قوة اكبر ليهاجم سورية وينتقم لطرد اخيه من دمشق ، غير انه لم يفعل شيئاً يؤكد صحة هذا الهدف في الاشهر التالية ، ومع ذلك كانت السلطات في فلسطين منزعجة من وجوده ومما قد تتكشف عنه

حال الاستياء العام من خفايا . وكانت المناطق الواقعة الى الشرق من نهر الاردن جزءاً من الادارة العربية التي كان يتولاها الامير فيصل الا انها بعد طرده من دمشق لم تقع تحت الاحتلال الفرنسي . وقامت بريطانية باقناع فرنسة لتوافق على ضم تلك المناطق الى منطقة الانتداب البريطاني. ودعا المستر تشرشل الامير عبد الله ليتشاورا في القدس . وجرت بينهما سلسلة من المحادثات ، شهدها ايضاً لورنس ، توصلا فيها الى تدبير مؤقت .

وانما كان التدبير مؤقتاً لأن عبد الله لم يكن يستطيع ان يوافق على شيء نهائي دون ان يستشير والده . فطالب بانشاء دولة عربية واحدة في فلسطين وشرق الاردن (هكذا اصبحت تسمى المناطق الواقعة الى شرق النهر من نقطة جنوب درعا حتى العقبة) الا ان طلبه رفض لأنه يتعارض ووعود بريطانية العظمى لليهود ، ولم يرحب تشرشل بأي مقترح آخر قدمه عبد الله ، مثل ضم شرق الاردن الى العراق ، ولذلك اتفقا مبدئياً على ان تستغل بريطانيا مساعيها الحميدة لدى فرنسة لتكفل اعادة ادارة عربية في سورية على رأسها الامير عبد الله ، وأن يبقى هو اثناء ذلك في شرق الاردن ، وان يكبح كل حركة عدائية يقوم بها السكان الساخطون ، ويمهد الطريق الى تصالح مع فرنسة . ويستمر هذا التدبير ستة اشهر يتسلم عبد الله خلالها مساعدة مالية من الحكومة البريطانية تمكنه من ان ينشىء جيشاً عربياً ويكفل بقاءه ، بالدعوة الى التجنيد محلياً ، ليحفظ النظام في شرق الاردن .

لقد قيل ان مؤتمر القاهرة قد تمخض عن انجاز محسوس للوعود التي قطعت للعرب في الحرب ، الا ان هذه الدعوى لا تصدق الا على العراق ، لأن السياسة التي خططت في القاهرة عام ١٩٢١ أدت حقاً الى الاعتراف باستقلال ذلك القطر في العام التالي ، وبالنهاية الى إحلال

معاهدة تحالف بين بريطانية والدولة العراقية المستقلة محل الانتداب . الا ان نقض الوعود فيما يتصل بالنصف الغربي من المستطيل العربي ظل على حاله دون ان يرأب صدعه . ولم تكتف الدولتان بحرمان سورية من الاستقلال بل زادتا الطين بلّة بأن تعاونتا على تفكيك اوصالها . فتركت سورية الشمالية تعاني مصيرها تحت الاحتلال الفرنسي ، وبقيت فلسطين تحت ادارة بريطانية مباشرة ، وانتزعت دولة جديدة اسمها شرقي الاردن من « المنطقة المحتلة الشرقية » ووضعت ضمن منطقة السيطرة الانتدابية البريطانية . لعزّ ان نجد ضرباً لهذا الاستخفاف الفاضح بالوعود المقطوعة . اما الدعوى التي يقدمها بعضهم في الثناء على مؤتمر القاهرة فانها اوهى من أن تثبت للبحث حتى حين يقدمها مؤيداً لها رجل راجح الوزن مثل لورنس .

كتب لورنس في تعليقة بهامش الصفحة : ٢٧٦ من كتاب « اعمدة الحكمة السبعة » (ط : ١٩٣٥) يقول :

« عهدت وزارتنا المنهكة الى المستر ونستون تشرشل بتسوية شؤون الشرق الاوسط ، فاستطاع في بضعة اسابيع في مؤتمر القاهرة ان يفكّ العقد جميعاً ، وان يجد حلولاً تحقق (فيما ارى) وعودنا مبنىً ومعنى (حيث كان ذلك في طوق الانسان) دون ان يضحي بأية مصلحة من مصالح امبراطوريتنا او بأية مصلحة من مصالح الشعوب التي تشملها التسوية . وبذلك تحللنا من المغامرة الشرقية التي خضناها ايام الحرب بأيد نظيفة الا أننا تأخرنا عن الوقت المحدد ثلاث سنوات حرمتنا من الفوز حينئذ بالشكران الذي تستطيع الشعوب – بل الدول ان تردّه » .

فهذه الادعاءات التي وردت في تلك الحاشية لا تماسك جهاراً حتى ان انتحالها ليثير الريب في مدى فهم لورنس للقضايا التي تناولها . ذلك لان حلول المستر تشرشل في الواقع العملي لم تنجز الوعود لا مبنى ولا

معنى – باستثناء العراق – وأما اخفاق تشرشل في « ان يفك العقـــد جميعاً » فيتضح بجلاء من اساليب القسر التي لجأت اليها من بعد كل من فرنسة في سورية وبريطانية في فلسطين لتقيما الانتداب « بحد السيف» على شعب لا يرضى به . وأغرب من ذلك ان يدعي لورنس ان تلك الحلول لم تُضحِّ بأية مصلحة من مصالح الشعوب التي شملتها التسوية . ومع ذلك فإن تعليقة لورنس لا تخلو من قيمة ، وقيمتها ، انها تصور مظهراً من مظاهر صلاته بالمشكلة العربية ، وهي صـــلات يجب على المؤرخ ألا يهملها يوم يحين وقت التقدير التاريخي لما اسهم به في الحركة العربية القومية .

١٤

غير ان الوقت الصالح لم يحن بعد لقول فصل في ذلك التقدير . ذلك لأن الشواهد المتيسرة لا تزال في اكثرها من جانب واحد ، اذ تعتمد في المقام الاول على ما كشفه لورنس نفسه وعلى شهادة اصدقائه والمعجبين به من البريطانيين . امـــا الشواهد المختصة بهذا الموضوع في المصادر الاخرى ، وبخاصة المصادر العربية ، فانها ما تزال مجهولة ، ولذلك سيظل تقديرنا لنصيب لورنس في تكييف مصـــير العرب امراً مؤقتاً تجريبياً الى ان نظفر بتلك الشواهد المطلوبة ونضعهـــا الى جانب الشواهد المتيسرة لدينا موضع المقارنة . لقد أثارت اعمال الرجل اعجاباً عظيماً ركين الدعائم مساوياً في قدره للشهرة التي احرزها كتابه ، غير ان الكتاب والاعمال يتطلبان ان يوزنا بميزان التقويم التاريخي الهادىء ، بل ان صفحات « اعمدة الحكمة السبعة » نفسها لتدل على اننا ما نزال بحاجة الى اضواء اخرى كاشفة .

وفي خلال ابحاثي حصلت على مادة جديدة من المصادر العربية التي أفدت منها في الفصول السابقة من هذا الكتاب . الا ان هذه المادة غير

كاملة فيما يتصل باسهامات لورنس ، ولذلك فانها لا تسمح بارسال قول فاصل فيها ، بيد انها تكفي لتظهر التباين بين تقدير العرب له والصورة التي عرفه بها العالم . نعم ان بين الموقفين كثيراً من ضروب التوافق حول عبقرية لورنس في حرب العصابات ، والمهارة والجسارة في اعماله، واقتداره الفذ على الصبر ، وعظمة خدماته العسكرية ؛ كل تلك أمور يكاد الناس يجمعون على الاعتراف بها . ولكن ازاء هذا كله نجد في الجوانب الموثوقة من الشواهد العربية كثيراً مما يتعارض مع الرأي السائد ويناقض الصورة التي رآها لورنس لنفسه وعرضها على الناس .

وأولى الحقائق التي يذرّ قرنها في هذا المجال هي ان فهم لورنس للقوى الفعالة في التاريخ المبكر من الحركة العربية القوميـــة فهم ناقص خاطىء معاً . ولست اعني انه كان في الاتجاهات الظاهرية للحركـــة القومية ما هو ناءٍ خفي معقّد بحيث يفوت بصره ، وهو ذو الفكر الماضي الثاقب ، وإنما كانت امامه حواجز من اللغة والطباع فاذا اعوزته المعرفة الدقيقة للغة لم يستطع الذكاء والحس المرهف وحدهما منحه نفاذ البصيرة . وقد نردّ نقص لورنس في هذه الناحية الى ان معرفته باللغة العربية لم تكن كافية والى نقص إلمامه بالمجال التاريخي الذي استندت اليه الثورة العربية . وقد كان مثل كل الاشخاص اللماحين يصيب بعامّـــة غير انه كان يغالي في الاعتماد على قوة الحدس لديه . وتدل الاخطاء في الحقائق والتفسيرات التي يتضمنها « اعمدة الحكمة السبعة » انه كان بعد سنتين من المخالطة الوثيقة للعرب ما يزال بعيداً عن التفسير الصحيح لنشأة الثورة وللاحداث التي أعانت على قيامها . وقد تبهر معرفته من يقترب منها اول وهلة فاذا فُحصت واختبرت بدت ناقصة خاطئة .

هل كان لورنس على وعي تام بمدى قصوره ؟ ذلك أمر يعتوره الشك ، وإن كان هو يلمح اليه كثيراً في احاديثه وكتاباته ، كان يدرك مثلاً ان معرفته بالعربية ابعد ما تكون عن الكمال ، ومع ذلك كان يعتقد

انه طلق اللسان بها الى حد ان يحسبه العرب عربياً وهو يتحدث اليهم، وكان بذلك يدل على قدر مبالغ فيه من الثقة بالنفس ، اكثر مما يدل على قوة في ملاحظته ، كما يحكم بذلك اي شخص استمع الى طريقته في النطق . وربما صح له بين الحين والحين في اللقاءات العابرة ان يخفي امره على محدثه ، ولكن لكنته واستعماله للالفاظ – دع عنك هيأته – لم تكن تخدع اي واحد في الجزيرة العربية طويلاً . وفي « اعمدة الحكمة السبعة » نبذة قصّ فيها كيف حاول ان ينتحل شخصية رجل عربي امام رجل غريب مدقق فاحص خالجته الريبة في امره ، وهي تدل على المدى الذي كان يذهب اليه في الإيهام الذاتي . وعندما التقيت به اول مرة في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢١ ابتدرني بموجة مستفيضة من الاعتراف بنزورة ما يعرفه من العربية ، وكان على اعترافه هذا مسحة من يتواضع متصيّداً للثناء ، ثم عفّى على ذلك التواضع – او كاد – فيما اورده من ملاحظات بعد ذلك . وفي تلك المرة تحدثنا حوالي ثلاث ساعات ، وكان حديثه حيوياً ممتعاً في موضوعات مختلفة الا عندما وقف بنا الحديث عند موضوع الحملة العربية فانه كان يردّ على اسئلتي بملال ناجم عن تبلّد الشعور نحو الموضوع اكثر مما هو ناشىء عن الاشمئزاز منه ، كأنما استنفد كل اهتمامه فيه . وقد ادهشني اعتداده الذاتي الذي كان يصدر به احكامه على بعض المسائل ، وادهشني التناقض بين اعترافه بضعفه في العربية واصراره على استعمالها .

ولعل السر في كثير مما يحيرنا في لورنس كامن في ذلك التناقض الذي يتخلل اعترافاته الذاتية ويجعله يبدو انساناً على غير حقيقته : فهو آونة رجل يستشرف الرؤى وآونة ضحية للخداع الذاتي ، ويتراوح بين الصراحة والتصنع ، ويسمو فوق مبتذلات الاعلان عن الذات ثم يرهقه حب الظهور . وقد يأتي اليوم الذي يقدم فيه للعالم مؤرخ معتمد

طبعة محققة من كتاب « اعمدة الحكمة السبعة » ، وسيستغل في تحقيقه كل المصادر العربية الهامة ويضع كتاب لورنس تحت منظار لا يخدع .
ولن يكفي يومئذ تحليل الكتاب الا ان تحليله مدخل لا غنى عنه ، فهو يحوي اخطاء ومغالطات لا يمكن ان يُكتفى بالقول فيها انها ثغرات ونقائص في المعرفة او في الذاكرة وانما تدل على شذوذات سيكولوجية ثابتة . ويبدو ان لورنس كان لديه ملكة لأن يرى الحياة سلسلة من الصور المتلاحقة ولذلك كان يحس بالحاجة الى ان يربط بين تجاربه ويصبغها بصبغة عقلية فيما هو يقيم منها انموذجاً ، وبهذا العمل سمح للأحاسيس بأن تتعدى على حدود الحقائق الواقعية ، وسمح للأهواء ان تلوّن الاحاسيس والوقائع معاً . وكان تلهفه على رسم الانموذج - فيما يبدو - خلّة مهيمنة على نفسه متحكمة في خياله وآفاقه ، على نحو فكري لا عمليّ ، وكانت هيمنتها وتحكمها اشد عندما سنحت له الفرصة ليقص تجاربه في شكل يمليه عليه ولعه بالابداع الأدبي .

ومن الامثلة في هذا المقام وصفه لاحتلال العقبة ونصيبه في الخطة وتنفيذها ، ومجمل ما قاله ان «العقبة احتلت حسب خطتي وبجهدي » وهي دعوى تحيّر المؤرخ لأن في الجانب العربي شواهد لا تقلّ عن قول لورنس وثاقة ورجحاناً وفيها عكس ما ادعاه . اذ تقول الشواهد العربية ان اول من اقترح الخطة على فيصل هو عودة ابو تايه ، عند اول لقاء تمّ بينهما في الوجه ، وان سرها لم يبلغ اذن لورنس الا بعد ان وافق عليها فيصل ، وان الذي نفذها عودة واتباعه رجال قبيلة الحويطات ، دون أدنى مساعدة خارجية ، لأن المساعدة لم تكن لازمة في ذلك النوع من القتال الذي عرفه العرب منذ القديم وتفوقوا فيه .
وقد رافق الحملة كل من الشريف ناصر ولورنس وشاركا في بعض القتال ، ولكن لم يكن احدهما ، او كلاهما ، مستشاراً او قائداً . اما ناصر فشهدها ممثلاً شخصياً لفيصل ، واما لورنس فلكونه صديقاً

موثوقاً فيه ورفيق سلاح ابدى رغبة في الحضور حالما قررت الخطة في الوجه . ومع ذلك اصبح لورنس من بعد يعتبر نفسه المحـــرك الاول للحملة وقائدها الحقيقي .

وهناك امثلة اخرى يجدها القارىء في الفصول التي تعالج الامـور والاحداث السابقة للثورة . ويحتوي الخبر الذي ورد عن الجمعيـات السرية العربية في الفصل الرابع اخطاء واضحة في التفسير وفي الوقائع . وفي الفصل الخامس تقدم الروايات فكرة خاطئة تماماً عن منشأ المفاوضات التي أدت في النهاية الى الثورة . اذ ليس فيها اي ذكر للعروض التي قدمها كتشنر لشريف مكة ولتأثيرها في اتجاه اعمال الحسين ، كما تقدم خبراً مضطرباً محيلاً من الناحية الزمنية عن المفاوضات الانجليزية العربية وعن مهمة فيصل في سورية ، وهي تصور فيصلاً قبل الحرب عضواً — لا بل رئيساً — لاحدى الجمعيات السرية ، وتلك قولة لا اساس لها ابداً فضلاً عن انها تتجاهل التغير الذي أصاب موقف فيصـل عـام ١٩١٥ ، وتغفل قيمة ذلك التغير من حيث انه اضطر والده ان يستأنف المفاوضات المتوقفة . ومثل هذه الاخطاء لا يثبت — ضرورة — ان لورنس كان مهملاً ، فقد حصل معلوماته وأتون الحرب ملتهب حين كانت الشواهد ما تزال شذرات مبعثرة ، والفرص المسعفة على تفحص ذلك القدر القليل المتيسر منها غير لائحة . ولكن علينا ان نواجه هذه الحقيقة في الوقت نفسه وهي : ان معرفته ، حسبما كشف عنها كتابه، كانت خاطئة في بعض النواحي الهامة ، وان ادراكه لتفاعل القوى في مقوّمات الثورة كان ناقصاً نقصاً بليغاً .

ولاسهامـات لورنس في مقدرات الحركـة القومية العربية وجهـان اثنان : احدهما عسكري والثاني سياسي . فأمـا في الجانب العسكري فان خدماته نالت اعجاباً وعرفاناً بالجميل أصيـلاً في العالم العربـي .

واما في الجانب السياسي فان إسهاماته محوطـة بالشك والاستفهام . وينصبُّ النقد في الدرجة الاولى على نصيبه في التسوية التي تمت بعد الحرب . فهو يتهم بأنه استصوب – بل ناصر – اجراءات بلغت حدَّ التنكر لما كان يبشّر به من قبل ، وجاءت مناقضة للمصالح الصحيحة لدى الشعوب المعنيّة ؛ وبأنه وافق على تجزئة بعض الاقطار العربية واستعبادها ، بعد ان كان يؤكد – تكراراً – لاصدقائه العرب خلال الحرب ان ذلك لن يكون من نصيبهم ابداً . ويقال عادةً في تفسير هذا الموقف : ان آراء لورنس ومعتقداته لم تكن قائمة على مبادىء ثابتة وإنما كانت تتأرجح حسب الملابسات والاشخاص في هذا الظرف او ذاك ، ففي الجزيرة شجع الآمال العربية لانه كان حقّـاً يؤمن بها ، فلما وقع في « هوايت هول » كان دويّ المصالـح الاستعمارية يخرس كل صوت آخر ، فعلّق آماله على المستر تشرشل . ولهـذه الانتقادات اساس ملموس الا ان التفسير ضَحْلٌ غير مقنع ، لانه يغفل الجهود التي بذلها لورنس في مؤتمر الصلح ليجعل قضية العرب تصل الى الآذان المنصفة ، كما يغفل الدورِ الحاسم الذي أداه فأدّى الى تغيير السياسة في العراق . كذلك يسقط هذا التفسير من حسابه عامل الشك الذي كان يكمن في جذور معتقدات لورنس ، والارهاق الذي اصاب ذهنه بعد سنتين من الجهد الجاهد ، والأذى الذي اصاب روحه من جراء المماحكات الخسيسة في فرساي . كذلك لا يقدّر هذا التفسير كيف ان اهتمام لورنس بالمشكلة العربية قـد تضاءل مع مرور الزمن حتى كاد يبلغ درجة التلاشي ؛ وانه حين شهد مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ كان يتوق الى « التحلل من المغامرة الشرقية التي خاضوها في الحرب » . وقد يستنتج المرء ان لورنس واصدقاءه العرب فريقان لم يفهم احدهما الآخر . امـا هو فقد رسم صورة جافية للمشكلات السياسية الضمنية في الثورة وظلّ يحتفظ بها الى النهاية ، واما اصدقاؤه

العرب في الثورة فانهم لم يفهموا خوالجه حول مـــا اسماه « الخيانة » او تذبذب شكوكه وارتيابه ، او الانهاك الذي اصاب روحه فجعله بعد التجربة المريرة التي ذاقها في فرساي يخلد الى أفق ضيق اسمه « مؤتمر القاهرة » ويطلب لنفسه العزاء فيما يبرمه من قرارات .

الفصل الخامس عشر

شبه الجزيرة العربية بعد الحرب

١

لن نقص في هذا الكتاب باسهاب تاريخ البلاد العربية بعد الحرب ، فالحيِّزُ لا يسمح بذلك ، كما ان الحديث عـــن مولد قوى ونزعات جديدة لم تكن ملازمة لاتجاهات الحركة القومية في العشرين عاماً الاخيرة في العالم العربي ، سيبعد بهذا التاريخ كثيراً عن مجاله الطبيعي . كذلك لن احاول ان استعرض الاتجاهات الفكرية في النصف الغربي من العالم الناطق بالعربية ،اعني في البلدان التي تمتد من حدود مصر حتى شواطىء المحيط الاطلسي ، اذ لا بد من ان يبقى منهاجنا مرتبطاً بالنصف الشرقي من العالم العربي ، مقصوراً على النظر الموجز في تلك التطورات التي كانت الثمرة المميزة لليقظـــة العربية في القرن التاسع عشر والقوى التي اثارتها ووجهتها في ميدان انتشارها الرئيسي .

وسرعان ما تواجهنا احدى العقبات . ذلك ان كل العـــالم العربي الشرقي ، الى هذا الحد ، كان يكوّن جزءاً من الامبراطورية العثمانية

ـ خلا بعض مقاطعات على سواحل الجزيرة العربية ـ وبما انه يتألف من ولايات تعتمد بأنصباء متساوية على الحكم المركزي فقد كان يتمتع بوضع سياسي موحّد ، فلما تقلص عنه ظل السيادة العثمانية بعد الحرب تكونت دول ونظم جديدة تتباين في وضعها السياسي بين الاستقلال التام والخضوع الفعلي لدولة اجنبية . وقد كان هذا التباين خليقاً ان يجر في اعقابه سلسلة مماثلة من الفروق في الاهداف والاساليب في مجال النشاط القومي في كل قطر . فالمشكلة التي تواجهنا في الفصول الختامية من هذا الكتاب هي كيف نتتبع المظاهر الهامة للجهود القومية في كل دولة من الدول الجديدة دون ان يغيب عن انظارنا التقدم الذي احرزته المنطقة العربية كلها من تلك الحركة كلها .

وقد عرفنا ان الدول التي شكلت بعد الحرب فوراً كانت تقع في قسمين : اولهما دول شبه الجزيرة العربية نفسها ، وثانيهما دول المستطيل العربي الى الشمال من القسم الاول . وعرفنا ان الحرية التي نالتها دول القسم الاول بالحكم الذاتي تقف موقف المفارقة من حال الخضوع للحكم البريطاني او الفرنسي المفروض على دول القسم الثاني . وكانت هناك عوامل تضافرت في ذاتها ضد اتخاذ نظام موحد للعالم العربي كله ، مثل الفروق في التكوين الاجتماعي وفي النضج السياسي . غير ان العامل الحاسم في التمييز الذي اقامه الحلفاء بين القسمين هو انهم كانوا يعتبرون شبه الجزيرة ـ على خلاف المستطيل العربي ـ غير حفيّة بالتغلغل الاجنبي ، غير ذات نفع له في اي حال .

فاذا تتبعنا اتجاه التطور في فترة ما بعد الحرب فمن المناسب ان نعالج كل قسم من هذين القسمين على حدة لا ان نلتزم التتابع الزمني للاحداث في المنطقة كلها .

٢

كان التغير الأساسي الذى شهدته شبه الجزيرة العربية هو حلول

السيادة العربية محل السلطان العثماني . فتكونت خمس دول جديدة ، اي ان خمسة من عُمّال سلطان تركية استأثروا لأنفسهم بامتيازات الحكم المستقل وهم : الملك حسين في مملكة الحجاز ، والسلطان عبد العزيز ابن سعود في سلطنة نجد وتوابعها ، والامام يحيى في امامة اليمن ، ومحمد الادريسي في مقاطعة عسير ، وابن الرشيد في امارة شمّر . وتشمل هذه الدول الخمس فيما بينها كل المنطقة المأهولة بالسكان في الجزيرة باستثناء الامارات الصغيرة على ساحل خليج العرب والمحيط الهندي ، وكان كل واحد من الحكام الخمسة يعد نفسه سيداً في مقاطعته .

وقد افتتح ظهور هذه الدول المستقلة فصلاً جديداً في تاريخ الجزيرة العربية كان مقدوراً له ايضاً ان يكون فاتحة سلسلة من التغيرات الاخرى . واقامت بعض هذه الدول روابط بينها وبين بريطانية ، وفوق ذلك كانت هناك مشكلات شائكة تتطلب تسوية وتؤثر في العلاقات بين واحدة واخرى منها . وكان النزاع بين آل الرشيد وآل سعود مشكلة حية اكثر منها في اي وقت مضى ، وكان الامام يحيى ينظر شزراً الى جاره الادريسي ويرى وجوده في عسير تدخلاً في مملكته وتعدياً عليها . وأهم من ذلك ، الخلافات بين حسين وابن سعود حول ملكية شريط من منطقة الحدود ، فانها كانت تنذر باللجوء الى القوة بين زعيم الثورة العربية المعترف بزعامته والزعيم الذي انعشت كفاءته وعزمه الحركة الوهابية ومنحتها قوة عسكرية . ومهما تكن البركات التي أضفاها حلول السلام على الجزيرة ، فمن الواضح ان السلام لم يعرف طريقاً الى اولئك الأمراء .

ولم يكن حسين في تلك الخلافات المتشابكة في موقف من يملك الزمام . نعم ان اردواج موقفه بكونه حاكماً للبلاد المقدسة ومعبراً عن آمال العرب القومية منحه رفعة في المقام وتقدماً . غير انه أثقل متنه

بمسئوليات محرجة لا تقابل بالامتنان ، اذ كان عليه من احدى الناحيتين ان يواجه العداء العنيف الذي يحمله له مسلمو الهند لانهم لم يغفروا له ثورته على الخليفة ، وكانوا حينئذ يثيرون الرأي العام ويجندونه من اجل الاعتقاد بأن سلطان تركية هو الرأس الأوحد الذي يعترف به المسلمون . وكان من الناحية الثانية قد أنشب نفسه ، حين اعلن الثورة محض إعلان،في قطع علائق الاتراك بالبلاد المقدسة . وكان نجاح الثورة سبباً في حرمان الخليفة من احد « الامتيازات » التي كانت تعد سمات ملازمة للخلافة ؛ وذلك هو بسط السيادة على مكة والمدينة . وحول هذا الامر وحده وجد حسين نفسه في صراع مع ابناء دينه من الهنود ، وايضاً مع العرب المسلمين امثال الوهابيين في نجد الذين حالت روح المحافظة لديهم من التأثر عما كان يدعو اليه من اماني قومية ، او هم لم يتأثروا الى حدٍ ان يتألفهم النظام غير الوهابي في البلاد المقدسة .

وكان حسين يضطلع ايضاً بمسئوليات الافصاح عن حقوق العرب وامانيهم ، وذلك شيء سبّب له حيرة وارتباكاً . فقد كان من نصيبه ان يلح على انجاز العهود التي قطعها الحلفاء ، وكلما اتضح ان بريطانية وفرنسة تجنحان الى تفسير وعودهما تفسيرات مشينة ازداد حرج موقفه بين بني قومه العرب من جهة وحلفائه الانجليز من جهة اخرى . ووجد نفسه مرغماً على السير في طريق محفوفة بالبغضاء مفضية الى غير شيء ، حين ظل يتعقب البريطانيين للوفاء بما كان يعتقده ديناً له ، دون ان يكون لديه شيء من مصادر القوة التي لا غنى عنها لمن شاء النجاح في السياسة . وكانت القوة الوحيدة لدى حسين هي القوة المعنوية الكامنة في عدالة قضيته ، الا ان تلك القوة في ذاتها لم تكن لتستطيع السيطرة على جو فرساي او سان ريمو . ومما زاد ايضاً في حيرته عرفانه ان مصادره الحربية أدنى من مصادر ابن سعود ، وان عليه ان يتكل على بريطانية لتمده بالمساعدة ان استدعت الامور « استعراض »

القوة بين الحجاز ونجد . وكان مضطراً في تعامله مع الحكومة البريطانية ان يكون من جهة ملحاحاً في المطالبة بحقه ، وان يكون من جهة اخرى معترفاً بضعفه اذ يلتمس عونها في النزاع بينه وبين جاره الوهابي — تناقض يحمّق من يركبه ، لم يستطع حسين ان ينجو منـــه فأدى في النهاية الى سقوطه عام ١٩٢٤ .

ولو ان حسيناً نجح في تنسيق الخلافات بينه وبين ابن سعود لكان بوجه الاحتمال القوي قادراً على ان يتحاشى الكارثة ، غير انه على الرغم من كل ما ابداه في إعداداته للثورة من مقدرة وبعد نظر ، كشف عن افتقار الى خصائص الرجل السياسي الحق حين حان الوقت لبنـــاء نظام جديد في الجزيرة . وكان اول أخطائه ظنه ان رعايته للثورة تخوله سلطة سياسية على جيرانه . وقـــد رحب الادريسي وابن سعود بتحالفه مع بريطانية العظمى وانشقاقه على الترك ، وتقبلا ان يكون هو قائد الثورة العربية ، ولكنهما لم يخطر لهما ابداً ان يجعلا نفسيهما تابعين له او ان يتنزلا له عن حقوقهما في السيادة الكلية في مقاطعاتهما . وهذا هو الذي جعلهما يمتعضان من انتحـــال حسين لنفسه لقب « ملك البلاد العربية » [1] بكل ما يتضمنه هذا اللقب من معاني السيادة الشاملة . ومما زاد موقفه سوءاً من ابن سعود ان هذا كان رأس انبعاثة وهابية قوية ذات دعوة منطلقة تتجاوز حدود نجد وتمتد الى مناطق يعدها حسين مواليـــة له . ومن هذا نشأ نزاع بينهما على الحدود فحاول حسين تسويته اثناء الحرب في صالحه بأساليب تعسفية ، وفي لبوس من التفضل الاستعلائي المتعمد بل وفي فظاظة جافية نحو ابن سعود ، فدل في ذلك على فقر الى الفطنة الثاقبة والحكمة السياسية . اذ مهما تكن الأسس التي بنى عليها اتهامـــه

١ ــ انظر الفصل : ١١ ، الفقرة : ٧ فيما سبق . ومع ان الحلفاء اعترفوا به «ملكا للحجاز» ونصحوه ان يتخلى عن ذلك اللقب الكبير ، استمر يلقب نفسه « ملك البلاد العربية » او « ملك العرب » في مخاطبته لجيرانه ورعيته .

لجاره بالطمع في التوسع ، كان عليه ان يستشف النتيجة المثيرة التي قد يحدثها موقفه في نفس حاكم نجد وهـو رجل يجد تحت تصرفه جيشاً اقوى بكثير من الجيش الذي كان لدى حسين ومن كل جيش يستطيع جمعه .

حدث اول صدام خطير في التاسع عشر من ايار (مايو) سنة ١٩١٩ على مقربة من تَربة ، على حدّ الحجاز الشرقي ، حين انقض ابن سعود على كتيبة يقودها الامير عبد الله وكاد يفنيها عن آخرها ، وكان ذلك نصراً مؤزراً لو شاءت الجيوش الوهابية استكماله لتقدمت الى الحجاز دون مقاومة . وفي تلك اللحظة خفّت الحكومة البريطانية لمساعدة حسين فنبهت ابن سعود الى انها تنظر الى كل ما يخل بالسلم بينهما نظرة استياء ، فكف ابن سعود عن التمادي لانه كان – مثل حسين – يتلقى إعانة مالية من بريطانية العظمى . ولم تكن لهذه الحادثة نتائج فورية ، الا انها دَوِيتْ بها نفس حسين وابنه وفتحت عيونهما على قلة كفاية مصادرهما العسكرية . وكان المنهج السديد الذي جهدت الحكومة البريطانية في تشجيع حسين على انتهاجه هو عقد الصلح مع ابن سعود حتى وان تم ذلك على حساب التضحية ببعض الكبرياء وبعض الاراضي. غير ان حسيناً كان يفتقر الى هذا النوع من الحنكة فارتد بدلاً من ذلك الى سياسة غير ذات جدوى وتحالف مع ابن الرشيد ، العدو التليد لابن سعود ، ومع بعض زعماء القبائل على أطراف نجد ، وحاول ايضاً ان ينشىء صلات ودية بينه وبين الامام يحيى صاحب اليمن .

وكان امام اليمن ما يزال في نزاع مع الادريسي صـاحب عسير وما أسرع ما تطورت الاحداث فجعلت ذلك النزاع اكثر حدة . ذلك ان البريطانيين أخلوا ميناء الحديدة على البحر الاحمر في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢١ وكانوا قد احتلوه عند نهاية الحرب بعد استسلام الجيوش التركية في اليمن ، وسمحوا للادريسي ان يدخلـه وان يضمه

الى مقاطعته . وكانت الحديدة ميناء لليمن ايـــام الحكم العثماني ، فلما احتلها الادريسي حرم تجارة اليمن من منفذ طبيعي لا غنى لها عنه وقد استغلته لهذا الشأن على مدى عدة اجيال ، فخلق إلحاقها بولاية عسير « مشكلة ضمّ » اخرى في الجزيرة العربية ، وفيها وجد حسين نفسه مدفوعاً لتأييد الامام يحي سعياً لتحقيق سياسة التحالف التي انتهجها ضد ابن سعود والادريسي .

وفي خريف ذلك العام حدث تغير فجائي في ميزان القوى بالجزيرة العربية حين أنهى ابن سعود عداءه القديم مع آل الرشيد ، وذلك بأن جعل نفسه إثر حملة باسلة سيداً لكل المنطقة التي كانوا يحكمونهـــا ، أعني منطقة شمر ، ولما ان ضمها ابن سعود الى نجد اصبحت حدوده تتاخم العراق . وكان هذا يعني زوال أسرة كان حسين يعتمد عـــلى حسن نواياها يوم اتخذها حليفاً سياسياً ضدّ جار لم يفلح في استرضائه ، جار اصبحت عبقريته في القيادة الحربية والحكم الصالح مضرب المثل في الجزيرة العربية .

٣

في صيف عام ١٩٢١ ، اي بعد حوالي اربعة اشهر من انفضاض مؤتمر القاهرة ، فتحت الحكومة البريطانية باب المفاوضات بينها وبين الملك حسين لابرام معاهدة غايتها المزعومة تسوية كل المشكلات القائمة بينهما وإرساء تحالفهما على اساس رسمي يرتضيانه . وكان الرسول بذلك لورنس ، فوصل الى جدة في نهاية آب (اغسطس) وحاول ان يقنع حسيناً بقبول معاهدة كانت مسوّدتها معه . ولم يكن احـــد له معرفة بحقائق المشكلة يتوقع ان يبرم حسين او اي عربي آخر مسئول معاهدة تتضمن بنوداً كالتي عرضت . ففي بعض بنودها عبارات ممجوجة تقصر سيادة ملك الحجاز على الحجاز وحده ، ودع هـــذه فهناك بند آخر

جعلته الحكومة البريطانية شرطاً ضرورياً Sine qua non وهـــو يكفي وحده ليجعل المعاهدة مرفوضة . ذلك هو البند الذي طلب فيه الى ملك الحجاز ان يعترف بما سمّي دون دقة حاسمة « مركزاً خاصاً » لبريطانية العظمى في العراق وفلسطين ، اي هـــو — اذا انتحينا الصراحة في التعبير — الاعتراف بالانتدابات التي اجازها مؤتمر سان ريمو والصفح عن نقض بريطانية لعهودها فيما يتصل بهذين القطرين . وما يكاد احد يصدق ان تكون وزارة الخارجية ساذجة الى حد ان تتوقع إجازة هذا البند ، ولكنها كانت تعلم ان مقررات سان ريمو مُعْوَرة لا تتقي الهجوم من الزاوية الخلقية ، وكان ضميرها مريضاً ، فحاولت شراء المقاومة العربية بأن تلوّح لحسين بمعاهدة تحالف رسمية تحمي بموجبها الحجاز من كل التعدّيات ، وتعرض عليه استمرارها غير المحدّد في دفع الاعانة له من الخزينة البريطانية .

وكان ردّ حسين صريحاً لا لبس فيه ، وأحسّ بالغيظ يثور في نفسه مما اعتبره مداورة صبيانية ، ففارق ما اعتاده من لطف ومجاملة وكان جافياً في مخاطبته للورنس .

وتركت هذه الحادثة أثراً عميقاً لدى حسين اذ روّعه ان يجـــد الحكومة البريطانية لا تتورع عن ان تبسط أمامه هذا المسخ المضحك من وعودها ، منتحلة طابع الجدّ والوقار . وكان وقع هذا الاكتشاف في ذهنه أبلغ ، لأنه وضع له معاني في علامات وحروف كان يراهـــا من قبل ولا يحفل بقراءتهـــا ، اطمئناناً ساذجاً منه الى كلمة الشرف البريطانية . وكم سنحت له الفرصة في الماضي ليحاسب حلفاءه على هذا التناقض او ذاك في تعاقداتهم ايام الحرب ، ولكن التأكيدات التي كان يتلقاها منهم في كل فرصة كانت تريح باله وتطمئن خواطره ، حتى انه حين كان يرتاب في حكمة الحكومة البريطانية لم يكن يرتاب ابداً في طهارة ذمتها . وكان ايمـــانه بالمقاييس البريطانية في حسن المعاملة

نتيجة صلات فردية في المقام الاول . وظل محتفظاً بايمانه ذاك دون تساؤل او تحقيق ومن غير ان يثور لديه الشك بأن اعمال الساسة البريطانيين قد تقع دون تلك المقاييس التي كان يرعاها افراد من الانجليز . وكان من اركان عقيدته السياسية ان العرب والبريطانيين حلفاء طبيعيون بالمعنى السيكولوجي والجغرافي ، وان لهم مصالح مشتركة ، وانه لا يخدم تلك المصالح مثل ايجاد نظام من الدول العربية المستقلة متحدة فيما بينها ومتحدة مع بريطانية العظمى . فجاءت المعاهدة التي قدمها لورنس له لا تتناسب ومعتقداته ولا تلائم ما يتوقعه ، لذلك هزت ايمانه بالمقاييس البريطانية في حسن المعاملة وبمصير التحالف الانجليزي العربي . وأعادت جذوة الفزع الذي أحس به عام ١٩١٧ ، عندما علم باتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور ، وكشف امام عينيه شريطاً طويلا من الآمال الخائبة ، والمهاترات البغيضة بينه وبين حلفائه ، والاضطرابات في صفوف شعبه، ولم يجلب له هذا الاكتشاف معرفة جديدة وانما رماه بالألم والحيرة كما هي الحال عندما يتزعزع الايمان في نفس امرىء رعاه طويلاً . فاذا حكم الحاكمون على ما جناه من اخطاء فيما بعد فليذكروا صور التدمير التي جناها ذلك الاكتشاف على رجاحة عقله .

ثم افتتحت المفاوضات ثانية في ربيع ١٩٢٣ لابرام معاهدة انجليزية – حجازية ، واسترسلت خلال ذلك العام وصيف العام التالي (١٩٢٤) دون ان تؤدي الى اتفاق ، وكانت العقبة الكؤود في طريقها ، كما كانت عام ١٩٢١ ، هي مسألة العهود مع فرق بين الحالين ، وذلك انه في المرة الثانية كانت المسألة التي يدور حولها الأخذ والرد هي مصير فلسطين ، ولم يجر ذكر العراق وشرق الأردن في نطاق المفاوضة الثانية لأن بريطانية اعترفت بهما دولتين مستقلتين . وعلى الرغم من ان استقلالهما لم يكن حقيقة واقعة فقد رضي حسين ان يقتنع بالمبدأ مؤقتاً . اما سورية فلم يذكر شيء عنها ، على وجه التعيين ، لأنها كانت تحت

الحكم الفرنسي . ونشأت صعوبة مـــا عندما أبى حسين ان يعترف باستيلاء ابن سعود على شمر او باستيلاء الادريسي على الحديدة . غير ان الصعوبة الكبرى كانت فلسطين وكلما تقدمت المفاوضات شوطـــاً وسوّيت انواع الخلافات الاخرى بلغ الاختلاف حول تلك المسألة الى توقف وجمود ، وبذا استبان ان موقفي العرب والبريطانيين من المشكلة الصهيونية لن يلتقيا .

ودار الخلاف حول مسألة التحفظات : فكانت الحكومة البريطانية ترغب في ان يعترف الملك حسين بالانتداب عـــلى فلسطين وبالسياسة المرسومة في وعد بلفور ، وليس فيه من تحفّظ يضمن حقوق العرب سوى البند الذي يذكر « الحقوق المدنية والدينية » ، وطلب حسين ان يوسّع التحفظ بحيث يشمل « الحقوق السياسية والاقتصادية » ايضاً . وكان موقفه ما يزال هو الموقف الذي حدّده للقائد هوجارث بجدة في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ [١] فهو لا يعارض استيطاناً يهودياً يتم على أسس انسانية وانما يوافق عليه ، الا انه لا يمنحه موافقته دون ان تكون حقوق العرب الشرعية مرعية . فاقترح في المسوّدة التي أعدها ان تجعل فلسطين دولة مستقلة ذات حكومة وطنية تمثل كل السكان ، ومن بينهم اليهود ، وان يُنصّ بصراحة على ان تُمكَّن من الانضمام الى اتحاد من الـــدول العربية ، وان لا يكون نصيبها من « الحريـــة السياسية والاقتصادية » اقل بأي معنى او بـــأي درجة من نصيب سائر الدول العربية . ومـــن الطريف ان نلحظ ان نصّي التحفظات في المسودة البريطانية وفي المسوّدة الحجازية المقابلة لها يرددان حرفياً نصين سابقين ، فالاول صورة مما جـــاء في وعد بلفور ، والثاني صورة من التأكيد الشفوي الذي قدمه هوجارث للملك حسين . والفرق بين الاثنين اساسي لأنه يرسم الخيار بين التعاون العربي والمقاومة العربية اي بـــين السلم

١ ــ انظر الفصل : ١٣ ، الفقرة : ٩ فيما تقدم .

والحرب في البلاد المقدسة . وكان الملك حسين على ثقة وثيقة بعرب فلسطين وكان متحققاً من صدق مخاوفهم من المستقبل وعمقها . فأنفق جهوداً ، ضاعت سدى ، وهو يحاول ان يقنع الحكومة البريطانية بقلة جدوى ما تحاوله حين تسعى لتخفف تلك المخاوف بتحفظات قاصرة .

ومضى حسين ، في صلابة استنزفت صبر وزارة الخارجية ، يحتج في الرسالة اثر الرسالة بأن دافعه الذي يحفزه ليس دافعاً فردياً أنانياً ، وان موقفه إنما يمليه عليه اعتقاده بأن لا سلام في فلسطين للبريطانيين واليهود والعرب ما دام لدى العرب ما يدفعهم الى الظن بأن غايــة الصهيونية القصوى انشاء دولة يهودية في وسطهم وعلى حساب أمانيهم القومية . ورجا ان تقدم الحكومة البريطانية ضماناً صريحاً لكل حقوق العرب المشروعة لا كذلك الذي جاء غامضاً في نصّ وعد بلفور بــل بعبارة التأكيد الموجَّب التي قدمت اليه في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ عن طريق القائد هوجارث . غير ان التباين الواسع لم يترك فرصة للتلاقي ، فرفضت الحكومة البريطانية التماس حسين ، ولعلها استخفت بتنبؤاته فيما قد ينجم من اضطرابات ، او لعلها كانت قد تورطت في عهود للصهيونيين بأعمق مما تستطيع ان تفشيه ، او لعلها رغبت في سياستها ان تبقي الصهيونيين والعرب عالةً دائماً على عطفها . وأي ذلك كان فقد غلّفت رفضها بغلالة من التأكيدات الغامضة لا تكاد تناسب روح مطالبه، بله ان تحققها .

كذلك كانت حال المفاوضات حين حلّت الكارثة ، وكان آخر ما أسهم به حسين قبل سقوطه رسالة الى رئيس الوزراء رمزي مكدونالد بتاريخ ٤ آب (اغسطس) ١٩٢٤ يرجوه فيها مرة اخرى تنفيذ الوعود التي قطعت له في الحرب . لكنه لم يتلق على رسالته جواباً ، اذ قبل ان ينتهي شهر آب (اغسطس) كانت الجيوش الوهابية تزحف نحو الحجاز ، وعند بدايــة تشرين الاول (اكتوبر) ضاع ملك حسين

من يده .

٤

ولما وقعت الواقعة وجـد حسين نفسه ولا صديق له — وفي ذلك كان هو الملوم لأنه أثبت ، لمـا ان كان حاكماً ، انه عاجز عن الاضطلاع بإرساء قواعد الحكومة السليمة ، وانه اثار كثيراً من الاستياء ليس بين رعاياه فحسب بـل بين جماهير الحجاج الذين يتجمعون كل عام في الحجاز . وتصرف نحو جيرانه تصرفاً يدل على انعدام المرونة والكياسة ؛ ذلك هو ما فعله مع الحكومة المصرية ومع الادريسي وابن سعود حتى قطعوا علاقاتهم به ؛ ولم يفعل شيئاً يسترضي به مسلمي الهند ، بل على العكس كان الحجاج اذا عادوا رووا الحكايات عن ابتزاز الاموال والمعاملة المزعجة فازداد بهذا شنآن الناس له ، وربما كان اسوأ اخطائه انه قبل في آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ تواً بعد الغاء الخلافة في تركية ان تنادي به الهيئات الاسلامية في الحجاز وفلسطين وسورية والعراق خليفة على المسلمين — وهو عمل عاجل مرتجـل لم يتحقق فيه حسين بادي الرأي حين ارتضاه من رأي المسلمين في العالم الاسلامي عامة . ولقي هذا الانتحال لذلك اللقب المقدس استنكاراً إجماعياً من الرأي العام في كل قطر آخر سوى تلك الاقطار . وليس ذلك فحسب بل ان عمله ذاك وضع في يد ابن سعود ومسلمي الهند سلاحاً نافعاً يطعنون به في حقيقة دوافعه ويسيئون الى سمعته ، فتردد بين الناس ان غاياته الحقيقية قد سفرت وانكشف المخبأ ، وانه لم يكن يهدف الا الى تحقيق مطامحه الذاتية على حساب الاسلام ووحدته . وكانت التهمة جائرة في اساسها لأن حسيناً كان رجلاً عميق الايمان لا يقل تقوى عن اي واحد من عائبيه ، الا ان قبوله الخلافة — وان كان قبول المتردد العازف — قد ألبس التهمة ثوب الحقيقة ونال من سمعته نيلاً بالغاً .

ولما وجد نفسه دون معين توجه بنظره الى انجلترة فلم تستجب له .
عندئذ كان الشعور في « هوايت هول » قد صرّح بمعاداته ، واصبحت الحكومة البريطانية تعده هدفاً للسخرية ومثاراً للازعاج . وجرت على ان تشيع حكايات مضحكة عن نزوات الرجل الشيخ وبوادره ، وفيها ما يثير الضحك حقّاً ؛ وكلما دارت الحكايات ولّدت حكايات اخرى وخلقت رغبة في مزيد ، كما هي الحال في القصص المضحكة عادةً .
وجاء وقت اصبحت فيه تقارير المعتمد البريطاني الدورية عن الحال في الحجاز مفعمة بمادة للضحك الرسمي ، فتلقى رواجاً في مكاتب « هوايت هول » ويتناقلها الموظفون لما لها من قيمة هزلية . كذا اصبح حسين اضحوكة ولم يعد الموظفون المدنيون ينظرون اليه بجد ، فلما استؤنفت المفاوضات في عـــام ١٩٢٣ كان موقف الموظفين منه اولاً مهاودة من يتسلّى به ، ثم صبراً برماً ، ثم – بعد ان مرت الشهور وهو متشبث برأيه لا يتحلحل عنه – سخط المغيظ وتقزز المتخم .

وبدأت جيوش الوهابيين زحفها في الاسبوع الاخير من آب (اغسطس) ، فلما بلغت الاخبار الى الحجازيين انهم دخلوا الطائف دون مقاومـــة واجروا مذبحة فيها عمّ الذعر الحجاز ، وتقدم وفد من اعيان المواطنين يتوسلون الى الملك لعله ان يتنازل رجاء ان يرضي ذلك ابن سعود .
وحثّ حسين الحكومة البريطانية على ان تتدخل لتكبح جماح ذلك الرجل المغير كما فعلت في الماضي ، ولكن توسلاته ذهبت هباءً ، فقد اعلنت الحكومة البريطانية أنها ترى النزاع دينياً وهي لا تستطيع ان تتدخل فيه إلا اذا سألها الفريقان المتنازعان ان تكون حكماً بينهما . ولم يكن ابن سعود بحاجة الى تحكيم لأنه كان يعلم ان النصر من نصيبه . وعلى الرغم من تنازل حسين لابنه الاكبر عليّ عن العرش ، تابع ابن سعود تقدمه واحتل مكة في الثالث عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ، وظل الملك علي مدة سنة في جدة وهو يقوم بمقاومة متهافتة ، وابن سعود

يترقب منتظراً متريثاً ، وقد كان في مقدوره ان يشق خطوط الدفاع الحجازية دون صعوبة كثيرة ، غير انه آثر ان ينتظر التسليم المحتوم ، فتمّ ذلك في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٥ ، اذ استسلم عليّ وارتحل الى بغداد ليعيش مبعداً ، في بلاط اخيه . وفي الثامن من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٦ نودي بابن سعود – رسمياً – ملكاً على الحجاز باجماع من سكان المدن الكبرى .

اما حسين فقد أبحر بعد بضعة ايام من تنازله ولجأ الى العقبة وبقي فيها حتّى حزيران (يونية) التالي ، وحينئذ اخبرته الحكومة البريطانية ان ابن سعود يعترض على بقائه في ذلك الميناء وانها هي ايضاً لم تعد تسكت على بقائه هنالك * ، فاختار ان يذهب الى قبرص حيث ظل حتّى عام ١٩٣٠ . وفي نهاية ذلك العام أصيب بنوبة حادة أثرت في كيانه ؛ وكان يومئذ في الخامسة والسبعين ، وكأنما كانت نذيراً بالنهاية ، فأذن له في ان يذهب الى عمان ليقضي أيامه الأخيرة بين ابنائه . وفي حزيران (يونية) التالي قضى ذلك الشيخ نحبه مفعم الصدر بالمرارة ، صابراً لا يتردد ، وقد يُنصفه الخلف في احكامهم عليه اكثر من معاصريه حين تنكشف الحقائق ؛ ذلك انه كان ، على ما فيه من عيوب ونقائص ، يملك قوة النفس ونزاهة الخلق وهما شارة العظمة ، واذا كنا نقدر الرجال بالقيم الخلقية اكثر مما نحكم عليهم بمدى النجاح او الاخفاق فان حسيناً يستحق اعجابنا كما يستحق عطفنا . ومهما تكن الاسباب التي ادت الى سقوطه فان احدها هو الصلابة التي استند اليها في التمسك بآماله ومعتقداته ، ومنها رفضه ان يُسلِمَ نفسه الى ما كان يعده

---

* جاء في الانذار البريطاني الى حسين يوم ٢٨ ايار ١٩٢٥ : « وتدعوكم ايضا لمغادرة العقبة لكي لا تكونوا سببا لحصول مشاكل جديدة بين بريطانيا وسلطان نجد . وفي هذه المناسبة تصر بالحاح بوجوب مغادرتكم العقبة قائلة : لا يمكنها ان تسمح لكم بالبقاء اكثر من ثلاثة اسابيع » . – المترجم –

خيانة . ولا ريب في انه لو رضي ان يوقع المعاهدة ، في صورتها التي بلغتها في المراحل الاخيرة من المفاوضات ، لاحتفظ بعرشه ولربما انهى ايامه متمتعاً بالحكم والطمأنينة ؛ غير انه ظل وفياً لمعتقده وضميره فتمسك بما اعتبره مسألة إنصاف للشعب الذي يمثله ، وفي سياق ذلك نفّر منه حلفاءه حتى إنه عندما وقعت الواقعة وجـد نفسه معزولا لا صديق له ، وهو يستقبل العاصفة وحيداً .

٥

ان استيلاء ابن سعود على الحجاز وضعه موضع الصدارة في احداث الجزيرة فاصبح تاريخها من ثمّ موجهاً بالدور الذي يؤديه في تطورها . وكان التغير الذي حدث يعني شيئاً اكثر من تغيير في نظام الحكم ، اذ حقق تحولاً اساسياً في حياة غرب الجزيرة العربية من ناحية مظاهرهـا الخاصة والعامة على السواء . وجلب نظاماً من الحكم وفكرة عن الواجبات المدنية ابطلت في خلال بضع سنين ما درج الناس عليه قروناً ، وأعاد للاخلاق الاسلامية والتقاليد العربية سيادتها في توجيه الشئون العامـةوفي قواعد السلوك الجماعي والفردي ؛ ولعله أعمق تغير ، وربما كان ايضاً انفع تغير ، اعقب الدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية . وهذا النظام الجديد حسبما تكوّن ، يستمد وجوده في المقام الاول ، كالدعوة الاولى في القرن السابع الميلادي ، من جهود رجل فرد عبقري . وان كان قد تكيّف الى حد ما بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي كانت ذات سيطرة يومئذ .

وكانت المشكلات التي تواجه ابن سعود في الحجاز عديـدة معقدة فتمرس بها بما اجتمع في شخصه من جرأة وحنكة ، وهما مظهر جذاب في شخصيته . ولم تكن تلك المشكلات تشمل المسائل الهامـة داخلياً فحسب بل كانت تشمل ايضاً مسائل ملحّة ذات اهمية دولية .

وكان اشدها تطلباً للمعالجة ما يتصل بكونه اصبح – واقعياً – حاكم البلاد المقدسة ، وكيف يكون وضعه بالنسبة لباقي العالم الاسلامي ؛ ثم المشكلة التي نشأت عن أثر المعتقدات الوهابية في المذاهب الدينية الأخرى . ويلي ذلك مشكلة الحدود او اين تكون حدود كل المنطقة التي افتتحها ، وهذا شيء يهم جيرانه في الجزيرة مثلما يهم الدول ذات الانتداب في المستطيل العربي . اما المشكلة الثالثة فهي مسألة العلاقة بينه وبين بريطانية العظمى وبينه وبين الدول الاجنبية الأخرى

تلك كانت مشكلاته الرئيسية الخارجية في البداية ، اما في الداخل فقد كان عليه ان يعالج المهمة الشائكة التي خلقها الاتصال بين اتباعه الوهابيين ، ذوي الحماسة الدينية المتشددة ، وبين الحجازيين المتهاونين المستسلمين الى التسمّح في شئون الدين . وكان عليه ايضاً ان يحاول تلطيف التصلّب لدى فقهاء الوهابيين وتوجيهه وجهة الاعتدال لا في مراعاة الأمور الدينية فحسب بل في استعمال وسائل الاتصال الحديثة كالتليفون واللاسلكي ، وكانوا لجهلهم بعلم الكهرباء والمغناطيس يحسبونها بدعاً إلحادية من عمل الشيطان . ولم تكن أصغر مشكلاته ايضاً تخفيف وقع النكبات والمجاعة التي أحدثتها الحملة وتدهور الدخل الذي كان يدره موسم الحج ، ونزوات عهد حسين فسلّط ابن سعود على هذه المهمات وعلى غيرها من شئون الادارة عقلاً متزناً وإرادة فولاذية وأحرز في تصريفها قدراً ملحوظاً من النجاح .

اما في علاقته بالعالم الاسلامي خارج الجزيرة فقد كان عليه ان يواجه في البداية قسطاً وافراً من النقد ، اولا من جراء الموقف المتزمت لدى اتباعه ، وثانياً لأنه قبل عرش الحجاز دون ان يستأنس سلفاً الى رغبات المسلمين جميعاً . ولم تكن الانتقادات واهية ظالمة وبخاصة لأنه أعلن مراراً قبل ان ينتهي من حملته بأنه سيترك اختيار حاكم الحجاز

منوطاً بما يقرّره العالم الاسلامي كافــة * . وكان قد أصدر تلك التصريحات وغرضه الظاهري ان يلتزم بها ، ولكنه عندما لزمه الوفاء أعلن أن التباين بين المذهب الوهابيّ والمذاهب السنية الأخرى أوسع من أن يسمح بالبدء الفوريّ في التعاون المتكافىء – وانه يحسّ بأنه يلبي نداء الواجب إذا احتفظ بأزمة السيطرة في يديه ، وعقد مؤتمراً اسلامياً عاماً للتشاور في مسائل أخرى ذات مساس بالادارة في الحجــاز . واجتمع المؤتمر في حزيران (يونية) عــام ١٩٢٦ . ولم يكن يمثل المسلمين تمثيلاً كاملاً ، ولم تكن المحادثات فيه شاملة لكل المسائل التي يدور حولها الخلاف ، غير انه كان مؤتمراً غاية في النفع والفائدة لأنه وصل وصلاً مباشراً بين فقهاء الوهابية وآراء سائر المسلمين : وهــذا الوصل مكن ابن سعود من البدء في مهمة التقريب بين آراء الفريقين ، وقد كان حكيماً في استغلال تلك الفرصة وفي متابعتها ، حتى ان التباين – على مر السنين – فقد حدته تدريجياً واصبح عملياً خلافــاً ساكناً لا يثور .

٦

اما سياسة ابن سعود إزاء جيرانه في الجزيرة فقد تدرجت في مراحل . وكانت مشكلته الأولى قاصرة على تعيين الحــدود وإنشاء علاقات ودية فيما بينه وبينهم وبخاصة فيما بينه وبين صاحبي عسير واليمن . ولم تكن لديه أطماع توسعية ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد نفسه مدفوعاً الى العمل من جراء تقلبات الصراع بين ذينك الحاكمين .

---

* من امثلة ذلك قوله في رسالة خاطب بها اهل مكة وجدة (في ٢٢ صفر ١٣٤٣) : « وألا يكون امر هذين الحرمين الشريفين الا شورى بين المسلمين وان لا يمضي فيها امر يضر بهما او بشرفهما او باهلهما الا ما وافق عليه المسلمون وامضته الشريعة » . – المترجم –

ذلك ان ولاية عسير شهدت اياماً سوداء منذ ان مات السيد محمد مؤسس الأسرة الادريسية ودعامتها الكبرى في بداية عام ١٩٢٣ ، اذ نشأت المنازعات بين خليفته وافراد آخرين من عائلته ونشبت الحرب الأهلية ، وفي غمرة تلك الفوضى احتل إمام اليمن المناطق الجنوبية وقسطاً واسعاً من الساحل يشمل ميناء الحديدة . فلما برز ابن سعود على مسرح الاحداث التمس الادريسي الحاكم العون منه على شروط تمنحه السيطرة المعنوية في عسير ، غير ان حكمته جنبته التدخل . وحين تطور النزاع وبدا أن الامام يوشك أن يضم كل جنوبي عسير الى دولته خطا ابن سعود خطوة وابرم اتفاقية [١] مع الادريسي تقضي بأن تصبح عسير طوعاً تحت ما يشبه حماية يقوم بها ملك الحجاز . واثبت هذا العمل انه الخطوة الأولى نحو « ابتلاع » عسير نهائياً ، ذلك ان خلفاء السيد محمد — وكان يعوزهم ما لديه من قدرة ومقام — كانوا أعجز من ان يوقفوا التفكك الذي بدأ بعد موته ، او ان يحموا المقاطعة في وجه الضغط القاسي الذي جاء من قبل الامام . فأصبح على حاكم عسير ان يختار بين الخضوع لامام اليمن والتبعية لملك الحجاز ، فآثر الثانية لعدة اسباب . وأخيراً عقد اتفاقية اخرى عام ١٩٣٠ اصبحت عسير بموجبها تحت حماية ابن سعود ، وغدت من كل الوجوه والأغراض تابعة لمملكته . ومعنى هذا انه لم يبق في الجزيرة العربية سوى دولتين مستقلتين ذاتي شأن . وانه لا بد لابن سعود والامام يحيى وقد اصبحت امبراطوريتاهما متتاخمتين من البحر الاحمر غرباً حتى آخر حدود المنطقة المعمورة بالسكان شرقاً — لا بد لهما من ان يسّويا الموقع الدقيق للحد المشترك فيما بينهما .

وما كان احد ليتوقع ان يتم مثل تلك التسوية دون احتكاك ، لأن

---

١ — هي معاهدة مكة في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٦ .

الامـــام يحيى لم يكن يطيق ان يفرط في مكاسبه ؛ كان يومئذ في منتصف العقد السابع من العمر وقد انفق عمره وهو يحاول ان يؤمن لليمن استقلالها اولاً ثم اتساعها لتشمل مـــا كان هو واتباعه يعدونه حدودها التاريخية . وقد ضم داخل تلك الحدود اقساماً واسعة من عسير ، واسترجع الحديدة وتهامة وامتداداً من أرض ذات نجاد واخرى ساحلية كان الادريسي قد احتلها من قبل . وكان الامام آخذاً في هذا التوسع والضم حين لجأ الادريسي الحاكم يومئذ الى حماية جاره الوهابي ، فتعهد له جاره بحماية عسير دون أي اعتداء آخر . ومعنى هذا ان الامام غدا بين خطتين : فإما ان يقنع بما احرزه واما انْ يعلن الحرب على ابن سعود ، وكانت الخطة الثانية اكثر احتمالاً لأن الخلاف بين الرجلين لم يكن ناشئاً عن التوتر بينهما في امر عسير فحسب بل اختلفا على تملك بعض المناطق الاخرى الواقعة في اقصى الحدود التي لم تكن قد عينت بعد . وبدا كأن الاصطدام حادث ولا بـــد ، عاجلاً او آجلاً ، وان حاول الحاكمان في اخلاص ان يسويا الخلافات بالتفاوض.

وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات انفجرت الخصومة بينهما عام ١٩٣٤ وتمخضت عن نصر مؤزر للوهابيين بعد حرب لم تتجاوز شهرين اكتسح فيها الوهابيون سهول تهامة واحتلوا الحديدة ، فسعى الامـــام الى الصلح ، فأظهر ابن سعود إخلاصه وحنكته السياسية في عقد هدنة على نفس الشروط التي اقترحها قبل الاحتكام الى السلاح ، وكان ابن سعود يعلن دائماً انه رضي ان يضع عسير تحت حمايته ليحمي ما بقي منها لا ليستعيد ما فقدته . فلما رضي بالهدنـــة لم يطلب تعويضات ولا ترضيات ولا تسليم سلاح أو املاك . وقد استنفد الامـــام صبره وكان البادىء بقطع المفاوضات واللجوء الى القوة ومع ذلك عامله ابن سعود كأنه لم يكن مبتدئـــاً بالعدوان وكأن لم يكن بينهما حرب . وتتسم المعاهدة التي عقدت بينهما (وهي معاهدة الطائف في ٢٠ أيار

– مايو – ١٩٣٤) بما لدى ابن سعود من اعتدال واتزان . وبما ان هـــذا الرجل كان بارئاً من الميل الى الانتقام ومن النفاق الجشع فانه منح جزيرة العرب بركات السلام الحقيقي .

٧

وكان لا بـــد لتعيين الحد الشمالي من ان يتم التفاوض بين ابن سعود وبريطانية العظمى الدولة المنتدبة على المقاطعات المتاخمة لما استولى عليه بعد الحرب . وبعد ان ضم جبل شمر بقليل تعين الحدّ بين تلك المقاطعة وبين العراق الواقع تحت الانتداب في اتفاقية ابرمت عام ١٩٢٢ (اتفاقية المحمرة) . وفي السنتين التاليتين مدّ ابن سعود سلطانه فشمل القسم الاعظم من وادي سرحان الممتد من الجوف في اتجاه شمالي غربي – على نحو مقارب – الى حدود منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي ، أي شرق الاردن وسورية . ومن اجل هذا ومن جراء المنازعات القبلية الخطيرة التي كانت تحدث بسبب انتقال تبعية القبائل وولائها ، صممت الحكومة البريطانية على ان تفتح باب المفاوضات مع ابن سعود غير منتظرة انتهاء حملته ضد الحجاز ، وانتدبت السير جلبرت كلايتون الذي ابرم اتفاقيتين مع سلطان نجد بعد اقامة يسيرة قضاها في معسكره بجوار بحرة (في منتصف الطريق بين جدة ومكة) . أما الحد بين نجد وشرق الأردن فقد تعين في اتفاقية حدّاء (الثاني من تشرين الثاني – نوفمبر – سنة ١٩٢٥) وبموجبها ترك معظم وادي سرحان لابن سعود وجعل شريط من المنطقة الواقعـــة تحت الانتداب البريطاني فاصلا بينه وبين المنطقة الواقعـــة تحت الانتداب الفرنسي . وقررت في المعاهدة الثانية (معاهدة بحرة ، أول تشرين الثاني – نوفمبر – عام ١٩٢٥) المواد التي تنظم ارتحال القبائل من نجد الى العراق والاردن وبالعكس ، على نحو يكفل الهدوء بين تلك القبائل في تلك المناطق . امـــا تسوية

الحدّ بين الحجاز وشرق الاردن فقد أرجئت حتّى تنقضي الحروب بين نجد والحجاز .

وما كادت الاتفاقية تعين الحدود الشمالية حتّى سارع ابن سعود لاثارة امر العلاقات التي كانت بينه وبين بريطانية من قبل ، وكانت تلك العلاقات خاضعة لاتفاقية أبرمها مع حكومة الهند في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٥ [١] وهي تضعه في شبه تبعية للبريطانيين . ولم تقدّر لتلك الاتفاقية مـــدة محدودة فكان ابن سعود حريصاً على أن يفاوض ليحل محلها وثيقة اخرى اكثر ملاءمة لوضع الاستقلال الحقيقي الذي كان يطمح اليه . وانتظرت الحكومة البريطانية حتّى أكمل ابن سعود فتح الحجاز وثبت اركان حكمه فيه وابتدأت المفاوضات في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢٦ فأدت الى عقد معاهدة جدة في الربيع التالي (اي في ٢٠ أيار – مايو – ١٩٢٧) ، وفيها اعترفت بريطانية اعترافاً رسمياً بابن سعود – ملك الحجاز ونجد وتوابعهـــا – سيداً وحاكماً مستقلاً ، وأقرت المعاهدة ونشرت على الناس من بعد . وهي تختلف من عدة اوجه عن مسودات المعاهدات التي كانت تقدم من قبل للحسين ، غير ان أهم نقاط الاختلاف هي ان البند المتعلق بـ « المركز الخاص » لبريطانية العظمى في المقاطعات الواقعة تحت انتدابها والمتعلق بوعد بلفور فلسطين – ذلك البند الذي جعلته بريطانية الشرط الاول في الاتفاق مع الحسين – ليس له اي وجود في معاهدة جدة . ومدة المعاهدة سبع سنوات قابلة للتجديد على اساس الموافقة المتبادلة ، وقد جددت فعلاً مع بعض تعديلات يسيرة عـــام ١٩٣٤ واثبتت انها وثيقة حكيمة قابلة للتطبيق ، وفي نجاحهـــا نفسه ما يثني على الحنكة السياسية البنّاءة لدى المرحوم السيد جلبرت كلايتون الذي كان له الحظ

---

١ – انظر الفصل : ٨ ، الفقرة : ٥ فيما سبق .

الأوفر في وضعها .

ولما ان وضع ابن سعود علاقاتــه مع بريطانية على اسس جديدة مرضية توجه الى تعزيز مركزه الدولي بعقد المعاهدات مع الدول الاجنبية التي يدخل حكمها للرعايا المسلمين ضمن مصالحها ، اي هولندة وفرنسة وروسية وايطالية ، كذلك عقد معاهدات مع تركية وفارس . وأهم من هذه المعاهدات ، من وجهة نظر من يؤرخ الحركة العربية القومية ، سلسلة العقود والمعاهدات التي تربط اليوم بين المملكة العربية السعودية [1] وجيرانها في اليمن والعراق ومصر . وقد وضع عقدها حداً للمنازعات والمخاصمات وزاد على ذلك ان فتح المسارب التي كانت مغلقة من قبل امام تغلغل الثقافة والاقتصاد وامام التفاعل الحر بين القوى التي تشكل ببطء مستقبل العرب .

٨

ولم يكن ما حققه ابن سعود في ادارة امبراطوريته اقل روعة من نجاحه في ميادين القتال ومجالات السياسة . وكانت مهمة انشاء نظام وعدالة واسس للتقدم من الامور الشاقة العسيرة في بلاد مفتوحة مترامية الاطراف ظل سكانها من البدو على مدى قرون يتحدون كل سلطة سوى سلطة شيوخهــم ، ويرفضون ان يرتبطوا بأي مقاييس سوى مقاييس الشريعة القبلية . ومما زاد في صعوبتهـــا نقص الموارد المحلية اللازمة للتطور الاقتصادي فكيف بها وهي لا تكفي للحاجيّ الضروري في تصريف شئون الحكم الصالح . وربما كانت اسوأ المصاعب التي واجهت ابن سعود في البداية تلك المصاعب التي خلقها تعصب اتباعه ،

---

١ ـ هذا هو الاسم الرسمي لما كان يعرف من قبل باسم : مملكة الحجاز ونجد وتوابعها .

ذلك ان عشرين عاماً من الدعوة المستمرة حولت أهل نجد الى شعب من المتشددين الصارمين الذين لا يطيقون اي مخالفة للشريعة او اي بدعة خارجة على ما عرف في صدر الاسلام . وكان رجال الدين قد غرسوا فيهم الاعتقاد بأن الحجاز مثـابة الزيغ والضلالة وان فتحه فرض ديني من اجل تطهيره ، فقاموا يحققون ذلك الواجب بكلّ ما تلهمهم به مبادئهم الحرفية من قوة وشدة . وكانت حماستهم متطرفة لا مجال فيها للتوسط ولا يقف في طريقها عائق او يوهن منها تردد ، ومما زاد في حيرة ابن سعود ان تلك الحماسة لم تكن تقف عند دفع الجنود الى تطبيق الشريعة بأنفسهم بل كانت تدفع الفقهاء الى ان يتسامحوا مع الجنود إن اسرفوا في تطبيقها وان يشجعوهم على ذلك .

ولما كان الجنود الوهابيون يعتقدون انهم يمحون معـالم الوثنية فقد سلطوا يد التخريب على القبور والاضرحة في الحجاز كله جملة واحدة[1] وحاولوا ان يخربوا القبة القائمة عنـد قبر النبي (ص) ، واخذوا على عاتقهم عبء استعمال القوة مع اهـل الحجاز لينهجوا نهجهم في الحياة الزاهدة المتقشفة ، حتى ارادوهم على ترك الدخان والآلات الموسيقية وغير ذلك من الامور الصغيرة . واورطوا ابن سعود في نزاع مع الحكومة المصرية حول مسألة ذات قيمة شكلية في اول موسم للحج قام بعد فتح الحجاز ، فلما استفتي علماء نجد في الامر اصدروا فتوى تؤيد موقف الجنود ولم يبـق لدى ابن سعود سوى ان يقطع علائقه بمصر ، وان يتريث الامور ؛ فقد كان نافذ البصر يعرف ان اتصال المتبررين المتشددين من اتباعه الوهابيين بالعالم خـارج الجزيرة سيلطف من شدتهم ، ولكنه كان يرى من الحماقة ان يتعجل ذلك مهما يبلغ به

---

١ ــ من اركان العقيدة الوهابية تحريم بناء الاضرحة او النصب من اي نوع عند القبور ، وحجتهم في ذلك ان وجودها يشجع توجيه الادعية والصلوات الى الولي او الصالح المدفون فيها بدلا من التوجه بها الى الله وحده كما ينص القرآن .

الاضطرار الى ضمان اذعانهم ، فاختار التريث حتى اذا اكتسبوا تجربة واتسعت آفاقهم استطاع ان يحملهم تدريجاً على مراعاة روح الشريعة مثلما يراعون حرفيتها ، وعلى ان يميزوا بين الذنوب الحقيقية والظاهرية . ولم تكن المهمة سهلة ، وفي سبيلها اتهم بين الحين والحين بالضلال وواجهته الفتن المستعلنة . غير انه في مدى بضع سنوات حدث في موقف الوهابيين كافة من التغير مـا مكّن ابن سعود من ان يحفظ السلم قائماً بين اتبـاعه وسائر المسلمين – دون ان يفرط في شيء من شئون السنة – كما مكّنه من ان ينهي الخلافات التي كانت تعيق الحج، وان يرأب الصدع بينه وبين مصر ، وان يعقد معاهدات مـع فارس واليمن وكلتاهما تدينان بالمذهب الشيعي ، وهو عمل لو تصدّى له ابن سعود قبل بضع سنوات لعده فقهاء الوهابيين ضلالاً وتعاملاً مع الملحدين .

ومن المشكلات الأخرى التي كانت تواجـه ابن سعود في الشئون الداخلية لامبراطوريته تلك المتعلقة بصالح القبائل ؛ فقد كان عليه اولاً ان يقيم النظام والعدالة وبخاصة بين قبائل الحجاز ، وبعضها كانت قبائل كبيرة قوية لَقاحاً لا تدين الا لقوانينها القبلية ، وكانت ترى أنها طائفة قائمة بذاتها فلم تنقد للتجنيد الاجباري ، وأبت دفع الضرائب وغيرها من الواجبات التي تفرض على المستقرين . امـا تلك القبائل فكانت تتصرف في مجالات تجوابها تصرف السادة ذوي السلطة المطلقة . فهي تجبر القوافل – لا تستثني قوافل الدولة التي يصاحبها جماعات الحراس – على ان تدفع الجزى والاتاوات . وليس في شرائعها الا القليل من الممنوعات التي تحرّمها القوانين العامـة والجزائية ، فهي لا تفرق – خلقياً – بين تربية المواشي وسرقتها ، وتتشدد في أمور الشرف الفرديّ ولذلك تقيم وزناً كبيراً للثارات ، بل إنها تفرض في بعض الأحوال ان يكون القتل واجباً مشرّفاً . وقد درجت بعض القبائل على تخطي

الشريعة البدوية واندفعت وراء كل انواع السلب والنهب حتى لتسلب اولئك المسافرين والحجاج الذين كفلت لهم سلامة المرور لدفعهم الاتاوة المطلوبة (الخاوة) .. ومضت على هذه الحال قرون ، وباءت جميع محاولات الاتراك لضبطها بالاخفاق .

وإذا قارن امرؤ بين تلك الحال وبين الظروف الحاليّة لم يكد يصدق الفارق بينهما لأول وهلة . فالغزوات اليوم محرمة ، والاتاوات من المظاهر التي عفت آثارها ، وقد سنّ للضرائب نظام موحد ، ووضعت لوائح تنظم الأجور التي يدفعها الحجاج في تنقلاتهم ، وأصبح عقاب المذنب منوطاً بالدولة وحدها ، وغدت قبائل الحجاز وغيرها – من كل وجهة – خاضعة لقانون البلاد ، دون ان تحرم من حريتها البدوية ، والعجيب العجيب انهـــا تذعن لذلك القانون . وقد بطلت عادة الغزو عملياً ، وسقطت لفظة « خاوة » من المعجم القبلي ، وأصبحت الضرائب تجمع دون معارضة . ومن النادر في هذه الايام ان يعترض احد طريق رحالة او ان يسرق حاجاً او يبتز ما معه . واصبح احترام القانون في الأرياف والمفاوز عاماً كشأنه في المدن . وليس من المغـــالاة ان نقول ان نسبة الامن العام في العربية السعودية ربما كانت أعلى منها في اي قطر آخر في العالم ، لا نستثني أشد الاقطار تمدناً .

وكان العامل الاول في ذلك التغير هو استخدام ابن سعود لسلطته معتمداً على الجيش الذي يـــأتمر بأمره . وكانت القبائل في البداية تلجأ الى المقاومة والتحدي على الرغم من إنذاراته الشديدة . وقد جهد كثيراً لكي يضمن إذعانها طواعية فكان لذلك يعقد مداولات متأنية مع الشيوخ رجاء ان يقنعهم ، إذ يضرب لهم المثل بما صارت اليه نجد ، ويحدثهم عن الفوائد التي جنتها قبائل نجد من إفشاء النظام ، وعندما وجد ان وسائل الاقناع لا تجدي فتيلاً أصدر إنذارات الى الشيوخ وأرفق بها الهدايا ليتدبروا كلماته غير نافرين . غير ان التروّي لم يؤتِ أكله

وسرعان ما وردت الانباء بأن بني حرب قد أغاروا ينهبون . عندئذ جمع ابن سعود « تجريدة » من اتباعه المسلحين وأرسلهم ضد المعتدين وأوصاهم بالقسوة والرهق . فانقض العساكر الوهابيون على معسكر بني حرب وأصلوهم مذبحة مريعة فقتلوا منهم نحو مائتين . ورنّ النبأ في جنبات الحجاز ودفع بالشيوخ الى استئناف التروّي في الأمور متأملين في سرعة العقوبة وفي قسوتها . وتلا الحادثة حادثان آخران مشابهان من حوادث العقوبة ، وإن كانا على نطاق أضيق ، فسكتت القبائل على مضض غير أنها كانت جادة في قبول النظام الجديد .

٩

وتجلت فائدة النظام الجديد لدى ابن سعود عندما اتخذه اساساً لخطته في الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي . وكانت أسس تلك الخطة مما اختمر في ذهنه منذ عهد بعيد ، وتدور حول استقرار البدو في الفلاحة والرعي فكان يمنح لفئة قبلية مساحة من الأرض فيها بئر او منبع للماء ليتخذوها مقرّهم الثابت الدائم ، ومن ثم عليهم ان يعيشوا فيها معيشة زرّاع او رعاة ، وتهيأ لهم البيوت والآلات والارشادات في فنون الفلاحة المنظمة وتربية المواشي . وكانت الغاية ان تغدو تلك « الهجر » الجديدة على مر الزمن وحدات قروية ذات استقلال ذاتي في ادارتها المحلية واقتصادياتها .

وقد بدىء تنفيذ هذا المشروع في نجد عام ١٩١٠ إذ أنشئت يومئذ أولى الهجر ؛ ثم مضى المشروع في خطىً سريعة حتى كان عدد الهجر في مختلف أنحاء نجد يوم جاء ابن سعود الى الحجاز سبعين (في كل واحدة منها عدد يتراوح بين ٤٠٠ — ٦٠٠٠ نسمة) . تلك كانت محاولة للتخلص من الزمانة التي كانت تعانيها الجزيرة — اعني الفاقة المزمنة في حياة الصحراء . وهي تجربة في التخطيط الاجتماعي ، ومن

هذه الناحية قد تؤدي الى نتائج دائمة لأنها تستنظر اهدافاً أخلاقية ومادية معاً . وكانت غايتها المباشرة ان تخذّل البدو عن الغزو بأن تهيىء لهم وسائل من التعيّش جديدة معتمدة ، وبذلك تزيل الحافز الاكبر للتغاور بين القبائل . وهناك دافع آخر ، يتصل بالحجاز في اقل تقدير ، وهو ايجاد مصدر جديد من الرزق للاعراب الذين كانوا يتعيشون حتّى عهدئذ من نقل الحجاج على جمالهم وقد غدت حرفتهم مهددة بالزوال لحلول السيارات محلّ الجمال . وكان ابن سعود وهو العارف بنفسية البدو المتعمق لها يرمي الى أهداف اخرى بعيدة – كان يرمي الى تحويل حياة البدو القائمة على التجوال ، وجعلها مستقرة حول مركز ثابت ، والحصول على كل ما يفعله الاستقرار من ايجاد لمصالح جديدة ومسئوليات جديدة وقيم جديدة . وأداه نفاذ بصره الى ان يستشفّ من خلال نواة النفسية البدوية ما يكمن وراءها في الاعماق من الغرائز الانسانية ، فرأى انه لو اصبح البدوي مالكاً لبيت ، واصبحت جذوره راسخة في الارض ، لطرح النواة التي كوّنتها القرون وأطاع داعي الغريزة الانسانية واستشعر حلاوة الاستقرار في بيت يملكه . وبهذا المعنى تكون خطة ابن سعود تجربة في بعث اخلاقي وتحتل مكانتها اللائقة بها بين الاعمال الملهمة التي تتمخض عنها الدراية السياسية الخلاقة . ولـــو امكن تطبيقها في سائر الجزيرة العربية بهذا الاتساع الذي لاقته في نجد ، ولو طبقت في الحجاز (على نطاق اضيق) ، إذن لغيرت – تغييراً عميقاً – من طبائع البدو وعاداتهم وبدلت وجه الجزيرة العربية .

وسيكون ذلك التغير اسرع إذا اقتبست الجزيرة العربية الوسائـــل الحديثة في النقل والمواصلات واستغلت موارد لم تستغل حتّى اليـــوم . والعمل في هذا السبيل ماضٍ بهمة ، فعندما جاء ابن سعود الى الحجاز كان الجمل ما يزال الوسيلة الكبرى في النقل ، ومنذ عهدئذ تغلغلت السيارة في كل المملكة العربية السعودية – تقريباً – ومع ان استعمالها

لم يعمّ بعد فان الامكانات التي تهيؤها عظيمة . وقد سوّيت طرق القوافل القديمة لتصبح صالحة لعربات النقل ؛ واليوم يستطيع المسافر ان يقود سيارته في ارتياح من البحر الأحمر حتى خليج العرب ، ومن جدة الى المدينة ومنها الى بغداد . وفي مدة لا تكاد تبلغ عشر سنوات اصبح نقل الحجاج جميعاً يتم بالعربات حتى لينتقل بقوة البترول الى مكة والمدينة مائة الف او يزيدون ممن يفدون الى الحجاز كل عـــام حجاجاً . وفي المدن الكبرى محطات لاسلكية فاذا انتقل ابن سعود في عربته من أقصى امبراطوريته الى اقصاها ظلت اجهزة الاستقبال والارسال القـــابلة للنقل تمكنه من الاتصال المستمر مع رجـــال دولته في كل الانحاء . كذلك أمر باجراء بحث منظم عن الميـــاه الجوفية وأمر بحفر كثير من الآبار الارتوازية . ودلّ التنقيب عن المعادن على وجود منابع غزيرة من الزيت وبعض الذهب ومختلف الخامات المعدنية . وربما لم يكن الزيت والمعادن الا سبباً في زيادة الدخل غير ان المصادر الجديدة من الميـــاه واقتباس الوسائل السريعة للتنقل ستسرع في انجاز التغيرين الكبيرين اللذين تشهدهما الجزيرة اليوم وهما : استقرار القبائل في الارض وازدياد الاتصال بين البلاد العديدة المجزأة من الجزيرة العربية . وفي كلا هذين يكمن الامل باستقرار جديد في جزيرة عربية منتعشة ناهضة

الفصل السادس عشر

العراق وسورية وفلسطين بعد الحرب

١

كانت السنوات التي تلت الحرب في أقطار المستطيل العربي الى الشمال من الجزيرة العربية – كما كانت في الجزيرة نفسها – سنوات من الاضطراب والكفاح ، مع فرق في الاسباب ، فأما في الجزيرة العربية فان اسباب الخصام كانت كامنة في عدم استقرارها السياسي وفي المنافسات بين الحكام . وأما البلاد التي وقعت تحت الانتدابين البريطاني والفرنسي فان النزاع كان يثور فيها – وكان كفاحاً محتوماً – بسبب اعمال الدول الاوروبية ، وكان وليداً طبيعياً لمقررات سان ريمو وللخطوات التي اتخذتها كل من بريطانية وفرنسة في تنفيذ « الواجبات » التي اختارتاها دون تكليف ، في العراق وسورية وفلسطين .

ولم تعطها عصبة الامم حق الانتداب وانما منحته لها هيئة – اسمها المجلس الأعلى – تتألف من ممثلين لفرنسة وبريطانية العظمى وايطالية . وكان لكل دولة من هذه الدول اطماعها فيما كان من قبل ملكاً

للامبراطورية العثمانية . فلما تنحّت الولايات المتحدة ولم تعد اعتراضات ولسن الوخّازة تحرج تلك الدول، وجد رئيسا الوزارتين البريطانية والفرنسية ان من الممكن أخيراً الوصول الى اتفاق لاقتسام الغنائم ، وان يعهد كل منهما للآخر بالانتداب على ما يخصّ كلاً منهما . وكان ميثـاق عصبة الأمم [1] حينئذ نافـذ الفعل ويحوي شروطـاً خاصة لمنح الانتدابات وتعيين مداها ، وقد نصّ بصراحة فيما يتعلق بالبلاد العربية على ان رغبات السكان المعنيين هي ذات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة . الا ان مؤتمر سان ريمو لم يكترث بهذا الشرط وكانت مقرراته انتهاكاً لـه . وكانت رغبات السكان المعنيين معروفة لدى ممثلي الحلفاء على الاقل من تقرير لجنـة كنج – كرين ومقررات مؤتمر دمشق . غير ان اولئك الممثلين لم يراعوا في توزيع الانتدابات الا مطامعهم الخـاصة ، محوّرة بعض تحوير ، حيث كانت الضرورة تقضي بذلك : للتوفيق بين المطامع الفرنسية والبريطانية المتضاربة . واقتطعت كل دولة القدر الذي سمحت به الأخرى ثم وصفت كل منهما حكمها لحصتها من الغنيمة بأنه « واجب » فرضته عليها الالتزامات الدولية المقدسة .

وانتهك ميثاق العصبة ايضاً في نص آخر من نصوصه . فقد جاء في الميثاق – في الفقرة الخاصة بأملاك الامبراطورية العثمانية السابقة – ان بعض الجماعات قد وصلت مرحلة من التطور بحيث يمكن الاعتراف بوجودها « شعوباً مستقلة » – على ان يخضع ذلك – مؤقتاً – لوضعها تحت الوصاية الانتدابية ، أي لتقديم المشورة الادارية والعون الاداري ، حتى يحين الوقت الذي يمكنها فيه ان تقف دون وصاية . وهذا لا يعني ان الاعتراف بالاستقلال يعلق حتى يحين الوقت لانهاء الانتداب ، وانما يعني عكس ذلك تماماً – يعني ان تلك الجماعات كانت عندئذ مستحقة

---

١ – تجري الاشارة في هذا الفصل الى المادة : ٢٢ من الميثاق .

لاحراز الاستقلال – كغيرها من الشعوب المستقلة – وان الانتداب لن يكون الا قيداً مؤقتاً يقيد به تمتعها الحر الطليق بمميزات الاستقلال . وبالنظر الى العراق وشمالي سورية نجد ان مقررات سان ريمو احترمت هذا النص رسمياً فاعترفت بهاتين المقاطعتين دولتين مستقلتين ، اسماً لا حقيقة ، اما في حال فلسطين فانها انتهكت ذلك النص اسماً وحقيقة ، فمنح انتدابها الى بريطانية العظمى على شروط حذف منها عمداً الاعتراف باستقلالها . وعللت بريطانية ذلك الحذف بأنها وجدته ضرورياً من أجل التزاماتها التي قطعتها على نفسها في وعد بلفور .

وكانت المواد التي نصت في الميثاق على وضع بعض الشعوب تحت انتداب اجنبي ترمي الى تطبيق مبدأ جديد اعتنقه الحلفاء علناً في تصريحاتهم اثناء الحرب ومن بعدها ، وقد عرف هذا المبدأ في الميثاق على النحو التالي : « ان صالح مثل هذه الشعوب وتطورها يمثلان وديعةً مقدسة في ذمة المدنية وان الضمانات لتحقيق هذه الوديعة يجب ان ينص عليها في هذا الميثاق » . وأول نقطة تلفت نظر الدارس هي انه حين اجتمع مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠ كانت معاهدة فرساي قد أجيزت في العاشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ ، وان الميثاق ، وهو جزء من المعاهدات ، كان أداةً ملزمة للحلفاء . فمقررات سان ريمو إذن وضعت في وقت كان فيه الميثاق هو الاداة الشرعية – بل الأداة الشرعية الوحيدة – لتحديد المبادىء التي يمنح الانتداب بموجبها ويؤخذ ، وهي مقررات صحيحة او فاسدة بمقدار تلاؤمها مع تلك المبادىء او انحرافها عنها . اذن فإن مؤتمر سان ريمو قد خالف نصوص الميثاق في امرين : في اختيار الدولة المنتدبة لتولي شئون كل قطر ، وفي التفرقة بين فلسطين وسائر الاقطار العربية ، وخرج ذلك المؤتمر بقرارات انتهكت التزامات الحلفاء الاخلاقية والشرعية معاً .

اما في حال سورية فان الحلفاء اغرقوا في اهمال « صالح شعبها وتطوره » حين قرروا تجزئتها في ثلاث دول منفصلـــة ، ذلك لأن البلاد وحدة ذاتية تتمثل من وجوه عديدة ، فهي على رغم التنوع العظيم في تضاريسها الطبيعية كانت دائماً واحدةً من الناحية الجغرافية ، اي وحدة في ذاتها محاطة بحدود طبيعية مميزة . كذلك كانت قد طورت حياتها الزراعية والتجارية في الميدان الاقتصـــادي على اساس مواردها الطبيعية وكانت تتخلل القطر جميعه شبكة دقيقة من نواحي النشاط المتساندة تربط بين منطقة ومنطقة وتصل الارياف بالمدن والساحل بالداخل. ولها في الوحدة موروث حضاري وتاريخي ، فمنذ الفتح العربي اصبحت وحدة سياسية – خلا الفترة الصليبية – واحتفظت باللغة والعادات التي ابتدأت تكتسبها منذ القرن السابع الميلادي . فاذا تناولت جميع الاعتبارات الأساسية اتضح لك ان صالح البلاد وتطورها المقبل محكوم عليهما بالتأخر اذا تحطمت وحدتها . ولم يكن الحلفاء يفتقرون الى الدلائل التي تنبئهم بقوة شعور الناس بأمر الوحدة في ذلك القطر غير انهم اهملوا جميع هذه الاعتبارات ، ووجد المجلس الأعلى للدول المتحالفة – وهو لا يعير الا شهوات اعضائه اهتماماً – ان الطريقة الوحيدة لارضاء بريطانية العظمى وفرنسة هي تقسيم سورية بينهما . وجعلت القسمة على خطوط مماثلة – تقريباً – لخطوط التقسيم التي أقرتها اتفاقية سايكس – بيكو مع فرق واحد هام ، وهو ان المنطقة « البنّية » التي خصتها الاتفاقية بادارة دولية منحت لبريطانية وحدها ، وهذا هو ما كان يهدف اليه المستر لويد جورج وبعض زملائه في كل حين بينا كانوا يدعون العطف الانساني الغيري على الاهداف الصهيونية . ووضع العراق كله تحت انتداب واحد . صحيح ان اتفاقية سايكس – بيكو نصت على تقسيمه الى منطقتي نفوذ : فرنسية وبريطانية ولكن حين انعقد مؤتمر سان ريمو لم تعد

فرنسة طرفاً في المطالبة به . ومع ان المفاوضات التي بدأت في لندن في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٨ (حين طلب المستر لويد جورج الى كليمنصو ان يوافق على ضم شمال العراق وفلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني) لم تؤد الى تسوية نهائية حينئذ فان اتفاقية عقدت بعد سقوط كليمنصو في كانون الثاني عام ١٩٢٠ وتنازلت فرنسة بموجبها عن كل مطامعها الاقليمية في العراق في مقابل إطلاق يدها في سورية واعطائها حصة كبيرة من زيت الموصل . وقد تمت المساومة الفرنسية البريطانية فعلاً في سان ريمو ، والمؤتمر منعقد ، ولما أبرم أمر تلك الصفقة [1] منح المجلس الأعلى رسمياً حق الانتداب على العراق كله لبريطانية .

٢

هكذا تكونت الانتدابات الثلاثة المعلمة بالحرف (A) وهي تشمل فيما بينها كل المستطيل العربي ، فجعل العراق وهو يضم ولاية البصرة وولاية بغداد والموصل ، دولة واحدة تحت الانتداب البريطاني، وجزئت سورية في ثلاث دول تتفق تماماً والوحدات الثلاث التي انقسمت فيها بعد احتلال الحلفاء ، فما كان يسمى « المحتلة الجنوبية » اصبح فلسطين ذات الانتداب البريطاني ، وما كان يعرف باسم « المحتلة الشرقية » و « المحتلة الغربية » اصبح دولة سورية ودولة لبنان على التوالي ، وكلتاهما خاضعة للانتداب الفرنسي ، وفيما عدا ذلك فكل منها تعتبر كياناً سياسياً متميزاً عن الآخر . بعبارة اخرى ان ما قصد ان تحققه مقررات سان ريمو عملياً هو ان ترتجل ما يشبه موافقة دولية

١ ـ تم ذلك في الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) في اتفاق عنوانه « مذكرة اتفاق بين المسيو فيليب برتلو والسير جون كادمان » Cmd ٦٧٥ (١٩٢٠) .

على اقتسام الغنائم بعد الحرب ، وان تمنح نظم الحكم القـائمة التي وصفت بأنها « ادارات عسكرية في بلاد العدو المحتلة » صورة الشرعية وبراءة الدوام ، وذلك لخدمة الدوافع المستكنة التي كانت قابعة في خاطر فرنسة وبريطانية العظمى عندما أقامتا تلك الادارات « المؤقتة » .

وتحتاج مقررات سان ريمو الى دراسة من ناحيتيها الأخلاقية والسياسية، لأنها كانت بداية فصل جديد في تاريخ الحركـة العربية ، وذلك هو الثورات ضد دولتين من دول الغرب . اما من الناحية السيـاسية فقد كانت المقررات عارية عن الحكمة من حيث انها اتجهت اتجاهاً معارضاً لأعمق رغبات السكان المعنيين ، مناوئاً لمدّ من الوعي القومي زادت الحرب وانهزام الاتراك من طغيانه الى حـدّ لا يمكن له ان ينحسر بعده ، ولم يكن فرض تلك القرارات ليتحقق الا باللجوء المستمر الى القوة وغيرها من وسائل القمع . واما على الصعيد الأخلاقي فانهـا من أشد الأمثلة الفاضحة على الاعمال الدولية القاسية الحادة ، وأشد ما فيها تعرضاً للنقد نقض العهد لانه كان خليقاً ان يثير مقاومة مسلحة ويتقاضى ضريبة لا يعلم الا الله مقدارها من النفوس والآلام .

ويؤكد المدافعون عن مؤتمر سان ريمو الصعوبات التي كـان على بريطانية ان تتمرس بها في علاقاتهـا بفرنسة ، ويقولون ان مقرراته كانت توفيقاً بين الدولتين – على ما فيها من نقص – وانهـا كانت الوسيلة الوحيدة لتجنب الانشقاق بينها . وهناك ايضاً اتجاه – تجده حتى لدى مؤرخين مشهورين – لأن تعزى تلك الصعوبات الى عناد فرنسة وبالدرجة الاولى الى إلحاحها على تنفيذ اتفاقية سايكس – بيكو ، تلك الاتفاقية التي فاتحتها بريطانية بشأن تمزيقها . ويستنتج اصحاب هذا الرأي انه لو كانت فرنسة عاطفة على النهضة العربية بدلاً من ان تكون معادية لها ، لو أنها نظرت الى إمكان التعاون العربي الفرنسي نظرة واسعة بدلاً من نظرتها الممعنة في الضيق ، ولو انها وافقت على ان ترتأي

تدبيراً قابلاً للتطبيق تقوم به الدولتان باستشارة العرب ، فيحل محل الاتفاقية ، لو تمّ ذلك لكان من الممكن تجنب الجوانب السيئة في مقررات سان ريمو .

واذا تدبرنا الحقائق وفحصناها بدقة لم نجد لذلك الاستنتاج ما يسنده، او على الأقل لم نجده صحيحاً كله . لأن الحجة التي يستند اليها تغفل نصيب بريطانية العظمى في المسئولية وتنسى المشكلة التي لم يخلقها الا رغبتها في اضافة الموصل وفلسطين الى حصتها من الغنائم ، وهي رغبة لم تفصح عنها الا بعد الهدنة . وكان مطلبها هذا يستتبع ابتعاداً عن شروط اتفاقية سايكس - بيكو ، وان يزداد نفوذ بريطانية في البلاد العربية ازدياداً يجعل الفرنسيين يستشعرون الخوف العميق على مركزهم في الشرق الأدنى فيمسكون عن الموافقة . ولم يكن الفرق بين الدولتين - كما يحسب بعضهم - فرقاً بين وزارة خارجية بريطانية نفاذة البصيرة رحبة الآفاق تتنازل بشهامة عن حقوقها في الاتفاقية المشينة ، وبين وزارة خارجية فرنسية متشبثة عنيدة لا تفكر الا في حصتها من « فلذة اللحم » المقررة . كلا . بل ان ساسة بريطانية العظمى في الواقع هم الذين كانوا يطالبون بأن يأخذوا في المساومة فلسطين وولاية الموصل زيادة على ما قررته لهم اتفاقية سايكس - بيكو بينا كانوا هم انفسهم يصرحون ببطلانها . فاضطر الفرنسيون ازاء ذلك الى اتخاذ موقف المدافع، وكان إلحاحهم على تنفيذ الاتفاقية - وهذا ما يعده بعض المؤرخين عقدة المصاعب الانجليزية الفرنسية - رداً بارعاً على الادعاءات البريطانية الجديدة .

ويصدق من يقول : ان الحكومة الفرنسية كانت معادية - اساساً - للنهضة العربية وأن سياستها كانت مستوحاة من رغبتها في ان تغتال المظهر السياسي من تلك النهضة وتشل تقدّمه . وكذلك يصدق ايضاً من يقول : ان البريطانيين كانوا مدفوعين بقوة عطف اصيل على الأماني

العربية بل كانت لديهم رغبة في ان يروا تلك الأماني تتحقق – جزئياً – على ان تتحقق بالمثل أماني البريطانيين . ولكن من التضليل ان نصوّر مقررات سان ريمو نتيجة حتمية للعناد الفرنسي لأن اسوأ ملامح تلك المقررات هي التي برزت نتيجةً مباشرة لمطالب بريطانية في استقطاع أقاليم اضافية لنفسها .

ومن أبعد تلك المقررات جوراً وإثماً ذلك القرار الذي وضع حكومة فيصل بدمشق تحت رحمة الفرنسيين . فلو أنّا التزمنا بأضيق التفسيرات لتعهدات مكماهون لوجدنا من المسلّم به ان بريطانيـــة تعهدت « بأن تعترف وتساند » حكومة عربية في سورية الداخلية . وهذا التعهد واضح لا تخطئه العين ، وقد اعترفت به الحكومة البريطانية علناً ، وما وجد من يعبر عنه أفصح من تصريحات المستر لويد جورج [1] . ومـــع ذلك فان هذا الرجل أذعن في سان ريمو لمطلب فرنسة بالانتداب على المناطق الداخلية والساحلية من سورية . وكان ذلك هو الثمن الذي تتقاضـــاه فرنسة لقاء موافقتها على ضم الموصل وفلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني ، وهو ثمن دفعه المستر لويد جورج على حساب الدين الذي أقرت بريطانية بأنه في ذمتها للعرب ، ووافق على منح الانتداب لفرنسة دون ضـــمان مماثل بأن تعترف باستقلال الحكومة العربية وتسنده . ولما دخلت فرنسة مدينة دمشق بعد شهرين وطردت فيصلاً انزعج خاطر الحكومة البريطانية قليلاً ثم فاءت سريعاً الى السكينة ، وعللت النفس بأنها لا تستطيع ان تتصور ابداً انها تخوض حرباً ضد فرنسة من اجل سورية ، وهذا مـــا لم تكن تستطيعه حقاً .

اما في نظر زعماء العرب فان أخبث مظهر في تلك الصفقة السادرة هو انها اشتملت على تقسيم سورية ومهدت الطريق لتفكيك اوصالها من بعد . وكان وضع أي حاجز على خطوط الاتصال الاجتماعي والاقتصادي

---

١ – راجع الفصل : ١٤ ، الفقرة : ١١ من هذا الكتاب .

يعطل – لأسباب تقدمت الاشارة اليها في هذا الفصل – اقتصاديات البلاد جملةً ويؤخر تطورها . بل ان الحد الذي رسم في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٠ وكان نتيجة طبيعية لمقررات سان ريمو كان ذا جناية أشد وأخطر ، اذ انه خلق ايضاً عقبة جديدة مخيفة امام الأهداف الثقافية والسياسية التي كانت ترمي اليها الحركة العربية ، وكانت عقبة تلد أرزاء ونكبات أشد من كل ما ولدته الاجراءات المركزية ايام الحكم التركي . وقد دلت الاحداث التالية على انه كان لتلك المخاوف ما يبررها ، فبعد ان احتلت فرنسة دمشق في تموز عام ١٩٢٠ امتدت دائرة النفوذ البريطاني فشملت المنطقة الواقعة الى الشرق من نهر الاردن، ومدّ – اخيراً – الحد الذي وضع مؤقتاً في كانون الاول من ذلك العام على طول الطريق الذاهب من البحر المتوسط الى بادية الشام ومن ثم الى العراق . وهو يبدأ من نقطة عينت تعسفاً بين عكا وصور ، ويتخلل الريف في اتجاه شرقي – تقريباً – ويستمر حتى يجاوز حدود المناطق ذات السكان المستقرين . وليس من المبالغة ان نقول إن هذا الحد الذي اصبح – كما قدر له – خطاً فاصلاً مستديماً بين منطقتي النفوذ الفرنسي والبريطاني قد انتهك حرمة كل قانون معروف متبع في رسم الحدود بين الأجناس والأقطار . ومنذ ذلك الحين اصبح عقبة كؤوداً في وجه التجارة وغيرها من سبل الاتصال ، وغدا سداً مصطنعاً نشرت كل دولة من الدولتين على كل جانب من جانبيه لغتها ووطدت عملتها ، وأقامتا نظماً مختلفة من الادارة والتعليم والتنظيم والتخطيط الاقتصادي .

وسيزداد الضرر الذي أحدثه التقسيم وضوحاً كلما تقدمنا شوطاً في هذا الفصل . وكل ما نحتاج الى ان نلحظه هنا هو انه حين أقرّ التقسيم في سان ريمو ، مع الاغفال المطلق لرغبات الشعب المعني وحاجاته، أثار استياء في نفوس الزعماء أشد مما أثاره منح الانتدابات نفسها ، لأنهم

اعتبروه – وبحق ما اعتبروه – تدبيراً رجعياً مضياعاً لا ينتهك فحسب حرمة المواعيد وانما ينتهك ايضاً حرمة مبادىء اللياقة في معاملة الشعوب الضعيفة ، اي المبادىء نفسها التي قامت الانتدابات – أصلاً – من اجل خدمتها . وتكشفت الدوافع الكامنة لدى الدولتين في عريها الفاضح لأعين المتأملين من زعماء العرب وبخاصة اولئك الذيـــن كانوا اشدهم حماسة في الدفاع عن الصداقة الانجليزية العربية . لقد تقشعت سحـــابة الوهم الخادع ولكن نبت في مكانها شعورٌ باحتقار دول الغرب وموجةٌ من الحرَضِ الحاد ما لبثت ان تحولت الى يـــأس وانطلقت تعبر عن نفسها بالانتفاضات الثائرة . وقد يستنبط الدارس كل نوع من الاسباب الوجيهة ليعلل بها هذا المظهر او ذاك من تلك الثورات ولكن عليه ان يذكر انها كانت في الاساس وليدة المشاعر الساخطة والانفعالات النفسية التي أثارتها مقررات سان ريمو . لقد ظل العرب ثمانية عشر شهراً بعد الهدنة وهم يترقبون خائفين متوجسين ، متشككين في فنون المداهنة التي يعاملهم بها الحلفاء ولا يكبح من جماحهم الا فيصـــل ، فانه جعلهم ينتظرون حتى يعلن مؤتمر الصلح قراره النهائي . وصدر القرار فرأوا فيه حكماً عليهم بالعبودية لا لذنب اقترفوه بل لسعة الخلف بين القوة الاوروبية وضعفهم . وفي يأسهم ثاروا هائجين ليضربوا جيوش الحلفاء التي تفوقهم عدة وتدريباً . وكانت أخطر ثوراتهم – كما رأينا – تلك التي انفجرت في العراق في خلال بضعة اسابيع بعد اعـــلان مقررات سان ريمو .

٣

وقد يصح القول ان ثورة العراق حققت هدفها الكبـــير تواً اذا اعتبرناها ثورة ضد إملاءات الدول المتحالفة ، ومضت اثنتا عشرة سنة اخرى قبل ان يلغى الانتداب ويتم الاعتراف الرسمي في جنيف بأن البلاد

اصبحت في منزلة دولة مستقلة ذات سيادة . غير ان البذرة غرست عام ١٩٢٠ عندما قررت الحكومة البريطانية ، إزاء الثمن المروع الذي كلفتها إياه الثورة ، ان تغير سياستها او ان تغير خططهــا العسكرية – في اقل تقدير – وقالت الحكومة ان سياستها الجديدة محض استمرار للسياسة القديمة ، وهذه هي الحال عندما تذعن دولة كبيرة لعنف شعب خاضع لها ، وفسّرت ذلك بقولها ان غاية الحكومة البريطانية كانت دائماً – وما تزال – إنشاء حكومة عربية في العراق وتنظيم علاقات البريطانيين بتلك الحكومة عن طريق معاهدة تحالف . اما في الظاهر فان التغير بلغ حد تغيير في المنهج اذ ظلت العلاقة الانتدابية قائمة على ان تنظم بوساطة معاهدة لا بأي وثيقة اخرى تصنعها بريطانية حسب مزاجها . وكان التغير أساسياً من الناحية العملية لأنــه أحيا المبدأ المهمل – مبدأ « موافقة المحكومين » . ونص على ان موافقة العراق ستكون شرطاً في اي تدبير ، وأن بريطانيــة العظمى ستحاول – في المستقبل – ان تبلغ غاياتها بالمفاوضة بدلاً من الاملاء – كما حدث في سان ريمو – . وقد دلّت الثورة على ان الوعي العربي القومي كان قوة يحسب حسابها – وان كانت على السطح علامات من التصدع والتعصب الحزبي – وأن السياسة المؤسسة على القسر باهظة التكاليف وربما اثبتت أنهــا معدومة الجدوى ، وان المصالح البريطانية قد تنتعش على صعيد الاتفاق والرضى المتبادل ويكون ذلك أجدى عليها – وهو درس دلّت الدلائل على ان فرنسة تعلمته في سورية وأن على انجلترة ان تتعلمه في فلسطين .

ورسمت الخطوط العريضة للسياسة الجديدة في مؤتمر القاهرة [١] في ربيع عام ١٩٢١ وقبل ذلك أثبتت النوايا اتجاهها اليه بتعيين حكومــة عربية مؤقتة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، فكان ذلك إرهاصاً بالاهداف الجديدة . وتوجه فيصل الى العراق في الصيف التالي ليرشح

١ انظر الفصل : ١٤ ، الفقرة : ١٣ فيما تقدم .

نفسه لاعتلاء العرش ، وكان اصدقاؤه البريطانيون وانصاره الكثيرون من العرب قد هيأوا له الجو ، فكسب أغلبية كبيرة من الاصوات ، على رغم وجود اصوات معارضة كثيرة ، ونودي بـه ملكاً على العراق — بصورة رسمية — في الثالث والعشرين من آب (اغسطس) عام ١٩٢١ .

وبدأ فيصل حكماً دام اثني عشرة سنة الى ان وافته منيته في الثامن من ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٣ ، وهي مدة تكفي لرؤية العراق خلال مراحل تطوره الدستوري وتحرره السياسي . ومهما نبالـغ فإنا لا نكاد نجاوز الواقع في تقدير الفضل الذي تدين به البلاد لملكها الاول . فقد أهّلته مواهبه وتجاربه ليقوم بدور حاسم في التمرس بأعقد مشكلاتها ، وبجمع الذين تؤهلهم مقاماتهم للحكم ، على ان نفوذ فيصل كان العامل الحاسم في خلق الدولة العراقية الحديثة . ولم يكن دوره قاصراً على التوجيه والارشاد بل انه قام بدور القيادة في مختلف ضروب النشاط في شئون الدولة وكان هو قطب ذلك كله بحكم مركزه . ومع انه وقع في غمرة من المشكلات التي تستدعي الحل العاجـل في القطر العراقي ، لم يغمض ناظريه عن الاهداف الكبرى التي كانت تحتضنها الحركة العربية وعن الدور الذي قد يؤديه العراق ، بكونه مثلاً تحتذيه سائر البلاد العربية الواقعة تحت الانتداب ، وطليعة لها في سيرها نحو الهدف المشترك .

وتم تحرير العراق في اربـع مراحل تتميز كل مرحلة منها بعقد معاهدة تحالف جديدة مع بريطانية العظمى وهي : معاهدة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ ومعاهدة كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦ ، ومعاهدة كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٧ ، ومعاهدة حزيران (يونية) ١٩٣٠ . وربما كان تعدد المعاهدات امراً لا مفرّ منه فانها تصور الفجوة الواقعة بين المفهومات البريطانية والعراقية حول ما يجب ان تهدف اليه المعاهدة ، كما تصوّر المحاولات المتكررة لتضييق تلك الفجوة . اما البريطانيون فكانوا يرون ان المعاهدة ثوب جديد يتنكر فيه الانتداب وانها يجب ان

تمنح بريطانية حق السيطرة في شئون الدولة الجديدة . واما الزعماء العراقيون فانهم لم يكونوا ليقرّوا حق السيطرة — اي الانتداب في اي ثوب — وكانت المعاهدة حسب فهمهم لها تحالفاً بين صديقين مستقلين يدخلان فيما بينهما بمحض اختيارهما في روابط من اجل ان ينمّيا مصالحهما المتبادلة . وكان مما يزيد في حدة الصراع بين هذين المدفين دوران صراع نفسي بين رغبة بريطانية في ان تختار طريق السلامة وبين جزع الزعماء العراقيين ذلك الجزع الذي يشحذه لديهم شعورهم بانعدام الثقة . ذلك لان حرصهم السابق على المعونة البريطانية لبناء الدولة الجديدة قد تلاشى على أثر تجربتهم لبيروقراطية الكولونيل أ. ت ولسن ، وهي بيروقراطية مبسوطة اليد منهومة الجشع شاملة الجبروت ، واصبحوا يعتقدون ان لفظة « انتداب » ليست الا سمة جديدة للأساليب القديمة من اساليب الاستغلال الاستعماري ، وان المساعدة الاجنبية لا تعني — كما كانت مفهومة في سان ريمو — سوى السيطرة الاجنبية . وكانت هناك جماعة واسعة النفوذ من الزعماء يقف وراءها عدد غفير من الأتباع ، وهم جميعاً يؤمنون ان المعاهدة لا تقبل الا اذا اعترفت بالاستقلال التام المطلق للعراق .

وكانت الفجوة في الجانب السياسي واسعة ايضاً كالفجوة من الناحية النفسية ، ولم يكن من قوة تُضيّق ما بين طرفيها سوى شخصية الملك فيصل نفسه ، ولما كان هو الذي يقوم بالمفاوضات في كل معاهدة من المعاهدات الاربع كان يبذل جهداً لتحقيق واجب مزدوج : ان يقنع الحكومة البريطانية بأن تقلل من إصرارها الصارم على الضمانات ، وان يرجو شعبه ليتّسمَ بسعة النظر نحو مصالحه الحقة وان يكون اكثر إدراكاً لواقعه ومعرفة بنواحي قصوره في ميدان الحكم الذاتي وان يفهم قيمة التعاون الانجليزي العربي .

وكانت المعاهدة الحاسمة هي التي عقدت ببغداد في الثلاثين من حزيران

(يونية) عام ١٩٣٠ وأجيزت في أواخر ذلك العام نفسه . وقد عقدت على اساس ان بريطانية العظمى سترعى قبول العراق دولة مستقلة ذات سيادة في عضوية عصبة الأمم عام ١٩٣٢ ، وأنها ستكون نافذة حالما يدخل العراق العصبة . وهي تنص على تحالف بين بريطانية العظمى والعراق مدة خمس وعشرين سنة ، تتعهد خلالها الدولتان بأن تستشير احداهما الاخرى استشارة كاملة للتوفيق بين مصالحهما المشتركة في شئون السياسة الخارجية . اما حماية الدولة الجديدة وسائر المسئوليات التي كانت حتى عهدئذ تضطلع بها بريطانية العظمى بفضل ما لها من سلطات انتدابية فانها ستناط بملك العراق . وعلى كل فريق من الفريقين ان يمنح الآخر تسهيلات محددة ، فيمنح العراق بريطانية حق استعمال مطارات معينة تتخذها قواعد لقواتها الجوية ، واستعمال وسائل النقل القائمة حينئذ ، وتمنح بريطانية العراق معونة في شكل بعثة عسكرية لكي تقدم المشورة في بناء جيش وطني . واذا وقعت حرب اعتبرت الدولتان نفسيهما حليفتين .

وواجهت المعاهدة في الظاهر نقداً معادياً في كلا البلدين : اما في انجلترة فقد هوجمت لأنها — في الدرجة الاولى — لا تحتوي ضمانات تكفل سلامة المواصلات الامبراطورية ؛ وكان الذي يوجه تلك الهجمات — كما هو المتوقع — ساسة كانوا يعملون في الدولة ايام ان كان موقف الحكومة البريطانية مستوحى — في المقام الاول — من دوافع السلامة الستراتيجية . واما في العراق فقد كانت الانتقادات — الى حد كبير — مظاهر متجددة لريبة قديمة . ولكن الحكومتين وجمهور الشعبين في انجلترة والعراق تولوا المعاهدة بالتأييد . وعندما عبرت لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف عن شكها في صلاحية العراق للنهوض بمسئوليات الاستقلال جميعاً سحب المعترضون اعتراضاتهم ثقةً بتأكيدات بريطانية وحدها . واثر هذا الموقف الذي وقفته الحكومة البريطانية في خلق

شعور خير من المشاعر الماضية نحو العلاقات الانجليزية العربية ، اذ أثار موجة من الرضى والشكران طمست بقايا المرارة والضغينة . ولم يكن أثرها في النفس العربية قاصراً على العراق .

وفي اجتماع الجمعية بجنيف في الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٣٢ قبل العراق عضواً في عصبة الامم — رسمياً — باجماع من اثنين وخمسين عضواً هم كل الاعضاء الحاضرين . وبذلك اصبحت المعاهدة الانجليزية العراقية المعقودة عام ١٩٣٠ نافذة تلقائياً في ذلك التاريخ ، ويومئذ زال واحد من الانتدابات الثلاثة التي فرضت على البلاد العربية في مؤتمر سان ريمو .

٤

وكان العراق يوم قبل في العصبة قد مارس كثيراً من امتيازات الحكم الذاتي ومنها التمثيل السياسي في الخارج ، فبعد اعتلاء فيصل العرش تراخت القبضة الخانقة التي أحكمتها بريطانية حول عنق العراق بعيد الحرب — تراخت سريعاً وصحب ذلك إنشاء حكومة دستورية ونموّ جيش وطني وادارة مدنية . ويرجع تاريخ إنشاء المؤسسات البرلمانية في العراق الى اواخر عام ١٩٢٤ ، وصاحب نشأتها ايضاً قيام دوائر حكومية يشرف عليها وزراء عراقيون ، ثم حددت تدريجاً سلطات المندوب السامي البريطاني وكانت من قبل مطلقة ، وجعلت صلاحيات الموظفين البريطانيين في الدوائر العامة — مع مرور الزمن — خاضعة لسلطان الوزراء العراقيين . اما تصريف العلاقات الخارجية فكان ما يزال عملياً تحت سيطرة بريطانية العظمى الا انه كان للملك العراق ممثلون في بعض البلاد الخارجية وكان يستقبل السفراء الاجانب المعتمدين في بلاطه . وكانت موافقته الرسمية وموافقة برلمانه ضروريتين لاجازة الاتفاقات المبرمة باسمه . اذن كانت المظاهر الديموقراطية في الحكومة العراقية يوم دخل

العراق العصبة امراً قد جرت ممارسته ، ويعود الفضل في ذلك – بقدر كبير – الى انجلترة .

إن اسهام بريطانية في بناء العراق من الامثلة الفذة على الانشاءات التي تمت بعد الحرب . وقد يجد القائلون كل مسوّغ مشروع ليوردوا اوصافاً نابية عن محاولات القرصنة التي بذلتها الحكومة البريطانية لاختطاف العراق بعد الحرب ؛ ولكن يستطيع القائلون ايضاً دون مغـالاة ان يقولوا ان دولة العراق الحديثة مدينة بوجودها – في الدرجة الاولى – الى جهود الموظفين البريطانيين وإخلاصهم النوايا . ولهذا سببان اثنان : احدهما ان الحكومة البريطانية اكتشفت ان البلاد خلية لليعاسيب وليست جنة عدن فأخذت تزداد اهتماماً بأن تضمن ان يكون نظام الحكم العربي المستقل – الذي سيتم عاجلاً أو آجلاً – قائماً على اسس واقعية ثابتة ؛ وثانيهما – وهو محض مصادفة سعيدة – ان العراق كان مجدوداً لان الذين عينوا للخدمة فيه كانوا عصبة من الموظفـين البريطانيين ذوي الكفاءات الفذة والضمائر الحية . وقد اعان هذان العاملان مجتمعين على الاسراع في إقامة الادارة العربية وتأمين قيامها . وسنعترف بأن تحقيق ذلك يعد امراً فذاً اذا نحن تذكرنا ان العراق متعدد القبائل والطوائف الدينية والعنصرية وان وسائل الاتصال فيه قليلة بالنسبة الى حجمه وانه لأجل هذه العوامل جميعاً بلد يصعب ضبطه بتطبيق النظام البيروقراطي المألوف .

فسكانه يزيدون قليلاً على ثلاثة ملايين واكثرهم مسلمون ، وتتألف الأقليات المسيحية فيه من ست طوائف متمايزة ، ويبلغ عددها ١٢٠,٠٠٠ نسمة . وفيه جماعة يهودية يبلغ عددها ٨٠,٠٠٠ تقريباً ومعظمهم يقطن في بغداد . وينقسم فيه المسلمون على اساس طائفي في قسمين كبيرين متساويين – تقريباً – وهم اهل السنّة والشيعة . اما من حيث العنصر فأكثرية السكان عرب ونسبتهم الى سواهم كنسبة ٣:١ . واكبر مجموعة

في الربع غير العربي هم الاكراد وعددهم يقارب ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، وكلهم يقطنون في النصف الشمالي من ولاية الموصل وهم سنّيون في مذهبهم . اما الاشوريون الذين تردد ذكرهم كثيراً في السنوات الاخيرة فانهم يشكلون مجموعة أخرى متميزة غـير عربية ، وهم كالأكراد محتشدون في منطقة الموصل وكان تعدادهم يبلغ ٣٥٠٠٠ نسمة ، وهم ينتمون الى الكنيسة النسطورية . وقد خلق وجود هاتين الأقليتين وغيرهما ووجود عدد كبير من السكان في حال البداوة مشكلات ذات طابع سياسي وإداري عوّقت مهمة البناء بل كانت احياناً تهددها بالانتكاس .

وربما كانت القبائل البدوية هي أخطر الصعوبات جميعاً فالقبائل دائماً مشكلة في إقامة حكومة نظامية غير ان أمرها في العراق أعسر لعوامل محلية متنوعة مثل الارض والماء والدين . وهناك جماعات قبلية عديدة ، وبخاصة في حوض الفرات الأوسط ، شيعية المذهب تتضامن مع علماء الشيعة في النجف وكربلاء اكثر من تضامنها مـع الحكومة السنية في بغداد . وكانت المنازعات حول ملكية الارض وحقوق الماء كثيراً ما تثور بينهم وبين موظفي الحكومة المركزية . وكانت المنازعات تتطور في وقت قصير الى صراع يحتكم فيه الفريقان الى قوة السلاح ، ومما يعمل على تطورها مؤامرات السياسيين في بغـداد ومقت البدو للبيروقراطية ولكل ما تمثله . ومن مصادر الازعاج ايضاً تلك الاحوال غير المستقرة على الحد الجنوبي الغربي وأعمال الغزو المتبادل بين قبائل العراق والقبائل التي تدين بالولاء لابن سعود .

كذلك كانت مشكلة الاكراد عسيرة ايضاً . فهـم يبلغون سدس السكان جميعهم عدداً ولكن لا تربطهم بالسكان سوى الرابطة الدينية مع اهل المذهب السنّي . وكان تعلقهم العميق بلغتهم وعاداتهم يجعل من الطبيعي لديهم ان يميلوا الى تجديد الوحدة مع اخوانهم الاكراد في تركية وفارس وان يفضلوها على ان يكونوا أقلية في دولة عربية .

ولما وافقت تركية نهائياً عام ١٩٢٦ على إلحاق ولاية الموصل بدولة العراق اصبح على حكومة بغداد ان تقنع الأكراد الذين قد اصبحوا رعايا عراقيين بأن يرضوا طوعاً بهذه الجنسية الجديدة ، وكان عليها ان تكافح من أجل ذلك في وقت كانت فيه أعراض الوعي القومي النامي قد بدأت تظهر بين الاكراد ، وأصبح إباؤهم التقليدي لأي نوع من انواع الخضوع اكثر وضوحاً منه في اي وقت مضى .

وكان اكثر الاشوريين مهاجرين من جنوب شرق الأناضول هربوا من ظلم الترك خلال الحرب ، ولجأوا الى العراق ، ودخلوا تحت جناح القيادة العسكرية البريطانية ، وكان عدد كبير منهم قد سلكوا انفسهم في خدمتها . ولم يكن بينهم وبين العرب (بل وغير العرب) من سكان العراق اية روابط مشتركة ؛ ومما زاد في انكماشهم انهم منذ الايام الاولى انحازوا — علناً — الى جانب الدولة المحتلة . وكانت المشكلة التي خلقها وجودهم في العراق من بعد فريدة من عدة وجوه ، الا ان صعوبتها لم تنشأ من أعدادهم او فقرهم او احتياجاتهم الخاصة ، وإنما نشأت من الأثر النفسي الناجم عن موالاتهم للدولة المنتدبة طوال عهد الانتداب ، فكانت تلك الموالاة حاجزاً آخر بينهم وبين الشعب الذي التجأوا اليه ، وكما انها زادت من شعورهم بالانكماش والعزلة ، طمست إحساسهم بالتناسب وجنحت بهم الى الاسراف في الآمال والى اعتمادهم المردي على خصائصهم الحربية .

وحين بذلت الحكومة العربية جهوداً لحل كل هذه المشكلات تكللت جهودها بنجاح فذ في بعض الوجوه ومنيت بالاخفاق في بعضها الآخر . وكان أسوأ إخفاق قدّر لها في المشكلة القبلية ، ذلك لأن السياسيين والموظفين ، واكثرهم من اهل المدن ، كانوا يفتقرون الى المعرفة الضرورية بالحياة القبلية والى فهم حاجاتها والى الاهتمام بصالحها . وكان البرزخ الذي يفصل بين ابن المدينة وفتى القبيلة ما يزال واسعاً ، ولم

يكن احد يستطيع وصل طرفيه مثل الملك فيصل ، الا انه حقق في هذا بعض النجاح لا كله . نعم انه بذل جهداً وفيراً لاجتذاب الشيوخ الى اعتناق مبدأ التعاون مع الحكومة الا انه سمح لمشاعره – بكونه ابن ملك الحجاز – بأن تحيف على واجباته – من حيث هو ملك العراق – فاستغل القبائل أداة في الصراع بينه وبين ابن سعود . ولم يتم التصالح بين الرجلين الا في عام ١٩٣٠ وحينئذ – فقط – وجه همته بجد وحمية لتهدئة القبائل ، وكان النجاح الذي أحرزه حينئذ يتسم بسمة الانتصار الذاتي . غير انه توفي قبل ان ينجز ذلك العمل وثارت الاضطرابات من جديد بعد موته في منطقة الفرات الأوسط . وقد نجحت الحكومة العراقية في إعادة السلام وشفعته بتدابير تدل على عظيم اهتمامها بحاجات القبائل وربما دلّت على ان الحكومة تنظر بعطف الى ظلاماتها . لكن هل فازت الحكومة بتحقيق الانسجام الدائم ؟ ذلك امرٌ لا نستطيع الجزم به بعد .

وكان الملك فيصل وحكومته اكثر نجاحاً في معالجة امور الأقليات . ذلك لأن مشكلة الاقليات كانت مما تمرس به زعماء العرب وخبروه ، لاتصالها بنفس الامور التي كانوا يتجادلون هم والاتراك حولها من قبل ، وكانت السياسة التي اختاروها تعتمد على حسن الادراك والتسامح . فقد ادركوا أهمية القيم الثقافية والحرية الطائفية – لأنهم كانوا يحسونها إحساساً عميقاً – لذلك كانت الامتيازات التي منحوها للأقليات سخية مشمولة بالحكمة . ونتجت عن ذلك سلسلة من التشريعات والاجراءات الخاصة ، توصلوا اليها بالاتفاق مع زعماء كل اقلية ، وبرهنت على انها قابلة للتطبيق ، ولم تشذ عن ذلك الا الاقلية الاشورية . وقد ذهبت حكومة العراق في معالجة مشكلة الاشوريين الى أقصى حد تستطيعه في تقديم الامتيازات غير ان المطالب المسرفة التي تقدم بها البطريرك الاشوري وجماعة شرسة من زعماء تلك الطائفة جعلت الاتفاق مستحيلاً . نعم

لا شيء يسوغ الاعمـــال الوحشية التي أنزلت بالاشوريين بعد ثورتهم المسلحة في صيف ١٩٣٣ ، كما ان المذبحة التي جرت هنالك وصمة معيبة في صفحات التاريخ العربي ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من الحقيقة : وهي ان حكومة العراق قبل تلك الحادثة لم توفر جهداً لكي تحقق كل الرغبات المعقولة التي افصح عنهـا الاشوريون ، وان العروض التي تقدمت بها الحكومة لم تكن منصفة فحسب بل كانت سخيةً كذلك . غير ان الاخفاق في الوصول الى اتفاق نجم في الدرجة الاولى عن عناد الاشوريين وعن الموقف الفاشل الذي وقفه بعض زعمائهم . ويقع جانب من المسئولية على عاتق البريطانيين ايضاً : أولاً لأن زعماء الاشوريين ظنوا « المحاباة » العلنية التي ابدتها السلطات العسكرية البريطانية وبعض الأساقفة الانجلكانيين نحوهم تعني مقداراً كبيراً من المساعدة اكثر من حقيقتها ، وثانياً : لأن دولة الانتداب لم تصغ سمعها الى الانذارات التي تتحدث عن الاضطرابات ، وقد ظل الموظفون البريطانيون في العراق يرسلونها الى وزارة المستعمرات طـوال السنوات التي سبقت اندلاعها .

ولقد كان من حسن حظ العراق ان مصالحـه ومصالح بريطانية العظمى تمشت معاً ، في عدة وجوه هامة ، وان اتحاد المصالح شمـل مسائل خارجية واخرى داخلية . من ذلك ان رغبة الحكومة البريطانية في السيطرة على منابـع الزيت في ولاية الموصل تمخض عن شيئين : اولها ضمّ تلك الولايـة الى الدولة العربية — والفضل كله يعود الى الدبلوماسية البريطانية — وثانيها التعاون الانجليزي العراقي المثمر لحـل المشكلة الكردية . ومن ذلك ايضاً ان رغبة الحكومة البريطانية في حفظ السلام على الحد العراقي دفع بها الى المبادرة لتحقيق امرين هما اجراء صلح فردي بين الملك فيصل والملك عبد العزيز بن سعود ثم انشاء علاقات ودية بين حكومتي العراق والعربية السعودية . وفي كل دائرة من دوائر

الادارة العامة – تقريباً – كانت الحكومة العربية تفيد من إرشادات البريطانيين الحادبين ، وقدم الموظفون البريطانيون – واجدين الاسوة في حكومتهم – مساعدة لا تقدَّر بثمن في إرساء الاسس السليمة الصالحة . والفرق كبير بين عملهم في العراق وبين اهـــواء الادارة الفرنسية في سورية ولبنان ، وعقم البيروقراطية البريطانية في فلسطين وتبديدهـــا واسرافها . ان التقدم الذي تحقق في العراق بين عامي ١٩٢١ – ١٩٣٢ – على ما فيه من نقائص – لهو مفخرة للبلدين ومثل على ما يستطيع ان يحققه التعاون بين الانجليز والعرب حين يكون قائماً عـــلى اسس سليمة .

٥

لم يحقق الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان شيئاً كهـــذا يكسبه فخراً ، فان تاريخه في اكثره صراع مبدّد خاسر ، وليس من المبالغة ان نقول ان الاضرار التي لحقت بالمصالح الفرنسية والسورية – باسم الانتداب الفرنسي – كانت اعظم بكثير من المنافع العارضة التي حققها ذلك الانتداب في الفترة ما بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٣٦ اي بين سان ريمو والمعاهدة الفرنسية السورية . وان التغير في السياسة كما مثلته معاهدة ١٩٣٦ قد بدل أسس العلاقة بين الفرنسيين والعرب وحسّن تباشير المستقبل ، ولكن قصة الانتداب قبل ذلك هي في اكثرها قصة التناحر بين المطامع الفرنسية والاماني القومية العربية وقد دامت ستة عشر عاماً وألحقت خسارة فادحة بالفريقين .

وكانت العلة الكبرى الكامنة هي انعدام الثقة بين الفريقين . ومثلما ان اساليب الاستعمار الفرنسي سيئة السمعة بـــين العرب كذلك كانت الحركة العربية في نظر الفرنسيين مصدر خطر واضطراب . وشحن الموقفان بالريبة والخوف ، اما العرب فيستمدون استنتاجاتهم مما يسمعونه

من اتباله (كثيراً ما تكون محرّفة) عن الحكم الفرنسي في شمال افريقية فيدركهم الفَرَقُ من ان يكون تدخل الفرنسيين يعني كل شيء ما عدا الحرية والمساواة . كما ان مـا عرفوه من ضروب النشاط الاوروبي السياسي في سورية قبل الحرب جعلهم يعتقدون ان مد فرنسة يد المعونة للارساليات الكاثوليكية وتعصبها للمارونيين يخفيان دوافع بعيدة ، وانها بذلك قـد اذكت اوار الشقاق الطائفي ، وهو ما كان الزعماء من مسيحيين ومسلمين قد عقدوا العزم باخلاص على اطفائه . وكذلك كانوا يعتقدون ان فرنسة تعادي – اساساً – الحركة العربية بمعنى انها تعارض تحرر العرب سياسياً ، في بلدان البحر المتوسط – على الاقل – وقوى من هذا الاعتقاد لديهم ما شهدوه من محاولة فرنسة ابقاء الثورة العربية محصورة داخل نطاق الجزيرة العربية ومن الجهد الفائق الذي بذله حسين وفيصل ولورنس لكي يقهروا تلك المحاولة . واما الفرنسيون فكانوا مدفوعين باعتبارين رئيسين : كانوا يعلمون ان انشاء حكومة عربية مستقلة في دمشق سيكون له اصداء سياسية وسيكسب الوعي القومي شدة في سائر الاقطار العربية وكانوا يخشون نتائجه في مستعمراتهم في شمال افريقية . كذلك اعتبروا الثورة العربية عائقاً امام مطامعهم في سورية اولاً بسبب دعوتها الى الوحدة والاستقلال وثانياً للروابط التي تصلها بالبريطانيين . وكانوا يتهمون الضباط السياسيين البريطانيين المقيمين في دمشق بالعمل سراً على تقويض النفوذ الفرنسي وكانوا يعتقدون ان فيصلاً قد غدا اداة طيعة في يد سياسة غادرة تحاك في السر لافساد الامور على فرنسة وان الحركة العربية قد غدت القناع الاهوج الذي تختفي وراءه تلك السياسة .

فلما نالت فرنسة حق الانتداب في سان ريمو قررت – وهي في هذا الوضع الذهني – ان تزحف على دمشق وان تطرد فيصلاً وتحتل القسم الداخلي من البلاد ، وفي ذلك الوضع الذهني ايضـاً وضعت خطوط سياستها لادارة البلاد الواقعة تحت انتدابها فكانت سياسة دلت ،

عما تكشفت عنه من التدابير العملية والقوانين النافذة ، على ان مخاوف العرب لم تكن أوهاماً .

٦

في سان ريمو طلبت الحكومة الفرنسية ان تكون منتدبة على « سورية ولبنان .» واجيبت الى ما طلبت ، فجعلت لكل قطر من هذين القطرين كياناً مستقلاً عن الآخر . وسبب ذلك انها كانت عازمة على ان تنتهج في الواحد منها سياسة مفارقة لما تنتهجه في الثاني ، وكان لبنان موئل نفوذها في الشرق الادنى . ففي داخل حدوده – حسبما رسمت في وثيقة « النظام الاساسي » عام ١٨٦١ [1] كان يعيش سكان اكثرهم مسيحيون يتألفون من طائفة الموارنة – اصدقاء فرنسة القدامى – ومن تلك الطوائف الاخرى التي تتوجه بالولاء للبابا وتعد فرنسة حاميتها التقليدية . اما سورية فأغلبية سكانها مسلمون ، ودمشق منها معقل الحركة العربية . فكانت السياسة التي انتهجتها فرنسة ترمي الى تقوية لبنان واضعاف سورية ، وقد مضت تطبقها في سلسلة من الاجراءات المتعسفة الدالة على قصر النظر دون ادنى اكتراث للنتائج التي تتركها اعمالها في نفوس الناس .

وكان اول تلك الاجراءات توسيع نطاق لبنان على حساب سورية ؛ ففي الحادي والثلاثين من آب (اغسطس) عام ١٩٢٠ أصدر الجنرال غورو مرسوماً خلق به « دولة لبنان الكبير » على ان تشمل حدوده سنجق لبنان الاصلي وتضاف اليه المقاطعات التي تقع الى الشمال والشرق والجنوب منه مباشرة على نحو يضيف للدولة الجديدة صفقة تتألف من المدن الساحلية : طرابلس وبيروت وصيدا

---

١ – انظر الفصل : ٣ ، الفقرة : ١٠ من هذا الكتاب .

وصور ومن مدينة بعلبك الداخلية ومعها سهل البقاع الخصيب . وكانت الدولة الجديدة ضعفي السنجق القديم – تقريباً – من حيث المساحة وعدد السكان ، وقد دخل ضمن حدودها عـدد كبير من المواطنين المسلمين ، فتحول العنصر المسيحي فيهـا من كثرة غالبة الى أغلبية طفيفة ؛ كما اضيف اليها ميناءا بيروت وطرابلس وكانا منفذين تمر منها جميع تجارة سورية البحرية . فلهذين السببين كان توسيع نطاق لبنان دلالة على قصر النظر : لأنـه اجراء حرم سورية من منافذها الطبيعية الى البحر فخلق « حركة ضم » لا بد من ان يعاد فيها النظر عاجلاً او آجلاً ، ولأنه اجراء عرض الأغلبية المسيحية – بعد ان اضيفت اليه مقاطعات اكثر سكانها مسلمون – الى ان تصبح على مر الزمن أقلية في دولة افتعل كيانها لتحتفظ الاكثرية فيها بسيادتها . واسوأ من ذلك ان هذا الاجراء قد أوجد عنصراً جديداً من عناصر النزاع في بلد حافل بدوافع الفرقة . واذا شئنا ان نحكم على ذلك الاجراء في ضوء النتائج التي أثارها في نفوس الناس – اعني عـلى ضوء المواجد التي أثارها والمرارة التي بثها ، وعـلى ضوء اثره في اذكاء التنابذ الطائفي – قلنا ان الفرنسيين يستحقون الادانة لأنهم اقترفوا عملاً مشنوعاً باغفاله للقيم الخلقية إغفالاً خبيثاً ، موصوماً بمـا صاحبه من قصر النظر .

وبعد ان وسع الفرنسيون حصن نفوذهم الحصين – على هذا النحو – بادروا الى تحطيم الوحدة التي كانت تنعم بها بقية البلاد تحت الادارة العربية بزعامة فيصل . فابتدعوا خطة لتجزئتها في عدة دول . وادت تلك الخطة في صورتها النهائية الى خلق ثـلاث دول منفصلة ذات اربع حكومات متمايزة في مقاطعة لا يزيد عدد سكانها على مليوني نسمة الا قليلاً . وهذه هي الدول الأربع :

(١) حكومة اللاذقية وعاصمتها اللاذقية وتشمل المنطقة الساحلية بين حد لبنان الموسع (الكبير) وسنجق الإسكندرونة .

(٢) دولة جبل الدروز وعاصمته السويداء ويشمل المنطقة الجبلية بين دمشق وحدود شرق الاردن .

(٣) دولة سورية وعاصمتها دمشق وتشمل بقية المنطقة الواقعة تحت الانتداب .

(٤) سنجق الاسكندرونة وهو يدخل اسمياً في دولة سورية الا انه منح ادارة ذاتية منفصلة .

اما الاسباب التي قدمها الفرنسيون لتسويغ هذا الاجراء فهي انــه تم استجابة لرغبات الشعوب التي يعنيها الأمر مباشرة ، وهي : الدروز والعلويون [١] والعنصر التركي في سنجق الاسكندرونة ، وان مما يجعله اجراء محتوماً اختلاف هؤلاء الناس في امــور الولاء المذهبي والعنصر والنضج السياسي ، وانه انما أمـــلاه ادراك بصير فياض بحب الخير لمصالح السكان في سورية . ومـــا كان السبب الحقيقي سوى شنآنهم للحركة العربية ، وما كان الدافع الحقيقي سوى رغبتهم في سد طريقها بالعراقيل . وكانت للاجراء غايتان رئيستان : اولاهما تغذية النزعات الانفصالية لتنمو ، والثانية تحويل سورية العربية الى دولة داخلية يحول بينها وبين البحر حـــاجز في شكل سلسلة تتألف من لبنان الكبير وحكومة اللاذقية وسنجق الاسكندرونة ، وكل من هذه الثلاث يديرها حاكم فرنسي مطلق السلطة ، وكان خلق حكومات اقليمية تعمل الواحدة منها مستقلة عن الاخرى لتكون ادوات تنفذ ارادة فرنسة — كان ذلك خطة لتعميق التفرقة وتحقيق الانفصال . وكان قد رسم بحيث يدفع الى نمو النعرة الاقليمية فتعارض النظرة القومية وتناهض الجهود التي تبذلها

---

١ — يعرفون باسم النصيرية وهم من الفرق الشيعية ويبلغ عددهم في سورية ١٥٠٠٠٠ نسمة ويقطنون في المناطق الساحلية الشمالية .

الحركة العربية في سبيل الوحدة .

ودل موظفو الدولة المنتدبة بما انتهجوه من اساليب ادارية على انهم يستلهمون ذلك الواقع نفسه ، فوضعوا القوميين العرب تحت نظام من الرقابة البوليسية ، مؤيد بالاحكام العرفية ، نظام يذكر بالغلظة والمحاباة ايام طغيان عبد الحميد بل يبذهما احياناً . وكموا افواه الصحافة الوطنية ، وموّلوا الصحف المأجورة ، وحاولوا ان يخنقوا كل تعبير علني عن العواطف العربية . واحتفظوا بالتعيينات في الدوائر العامة والمجالس المحلية لمن خبروهم فوجدوا فيهم سهولة انقياد ، واستغلوا سلطاتهم الادارية ليضمنوا عودة مرشحيهم دائماً في الانتخابات العامة . واستثاروا مخاوف المسيحيين والاقليات الاخرى ليدقوا اسفيناً بينهم وبين الاغلبية المسلمة .

اما في ميدان الاقتصاد فان ضعف الفرنك — من حيث علاقته بالعملة المتداولة في مقاطعات الانتداب — كان يعرقل سياسة الدولة المنتدبة . فقد خلقت عملة « سورية — لبنانية » جديدة على قاعدة الفرنك ، وبذلك اوقعت على تلك البلاد شر الخسائر والهبوط الذي كان مرتبطاً بذلك النظام النقدي المتقلب . وأثار هذا الاجراء سخطاً عاماً في لبنان وسورية على السواء وكان هذا السخط لا ينصف فرنسة لأنه تجاهل — فيما يبدو — مصاعبها المالية في بلادها وانه كان من المتعذر عليها ان تفعل شيئاً آخر سوى ربط العملة الجديدة الى عملتها . ولكنها عرضت صفحتها للوم في طريقة ادارتها للعملة الجديدة اذ عهدت بها الى بنك فرنسي على شروط تراعي صالح المساهمين فيه على حساب الاستقلال المالي لسورية ولبنان . وابدت فرنسة مثل هذا التحيز ايضاً في منح الامتيازات والاحتكارات . وكثيراً ما اساءت استغلال الاداة الادارية لتعضد مصالح الشركات الفرنسية واصحاب الامتيازات من الفرنسيين . ترى كم من الركود الاقتصادي والشرور الاقتصادية الاخرى

التي عانتها البلاد تحت الانتداب يمكن ان يعزى مباشرة الى السياسة الفرنسية وكم منها يمكن ان يعزى الى اسباب اخرى لم يكن لفرنسة فيها دخل كبير ؟ من المستحيل ان نقول قولاً يقيناً في هذه المسألة . نعم ان بعض المظالم قد نسبت اليها ظلماً ولكن اساليبها المالية والاقتصادية مسئولة الى حد كبير عن الاستياء الذي اوجدته .

ومن اكبر اسباب ذلك الاستياء تهديدهم لسيادة اللغة العربية . لقد كان من حسنات الثورة تصفية النزاع حول اللغة بين الاتراك والعرب ، وحقق الدافع الثقافي الكامن وراء الثورة وجوده بعد النصر بتمليك اللغة العربية زمام الأمور أعني بجعلها الواسطة الوحيدة للتعبير في الحيـــاة القومية وفي تحوير نظام التعليم تحويراً كاملاً – (وعلينا ان نعلم ان العامل الثقافي كان اعمق الدوافع واكثرها طاقة في الثورة) – وكان رضى الشعب على اتمه عندما اصبحت اللغة العربية لغة المدارس والمحاكم – بخاصة – . غير ان الانتداب الفرنسي – وهو ذو اغراض وسياسة خاصة في شئون اللغة والتعليم – اعاد مشكلة النزاع القديم جذعة ، فأصبحت مسألة اللغة في المدارس والمحاكم محطة نزاع جديد مثلما كانت الحال في ايام الحكم التركي .

وكان اهتمام فرنسة بالتعليم في سورية قد غدا أداة سياسية لديها قبل الحرب بزمان طويل ، اذ كان اهتماماً يعود الى ايام الارساليات الاولى: ولم تكن تلك السياسة موجهة – على التعيين – ضد النفوذ العربي وان هدفت الى نشر النفوذ الفرنسي ، غير انها بطبيعة الحال كانت تعارض روح الحركة العربية اذ كانت غايتها نشر التعليم باللسان الفرنسي والروح الفرنسية ، فأدت الى منح قسم غير قليل من السكان المسيحيين ، وبخاصة في لبنان ، عتاداً عقلياً فرنسياً في طابعه لا عربياً . ولكن ليس ثمـــة شواهد تثبت ان تلك السياسة حينئذ كانت مستوحاة عمداً من دوافع لا عربية ، فلما اصبحت الحركة العربية – بعد الحرب – قوة سياسية

واصبحت لفرنسة اليد العليا في شئون سورية اصبحت تلك السياسة لا عربية عن عمد ووعي . وبينا كانت ضروب النشاط التعليمي لدى سلطات الاحتلال تعمل على بسط النفوذ الثقافي الفرنسي لذاته كانت ايضاً تهدف الى تقويض دعائم الثقافة العربية ونفوذها .

وأبين مظاهر تلك السياسة جعل اللغة الفرنسية إجبارية في كل مدارس الدولة واستعمالها في دور القضاء هي والعربية سواء بسواء . ومثل هذه الاجراءات لا تعدم في ذاتها مـــا يسوّغها ولكنهـــا طبقت في إغراق متطرف مع إغفال ناب لآثارها النفسية ، واهمال اكبر لحقوق التعليم والعدالة . ولما كان الموظفون الذين يطبقونها عاجزين في اكثر الاحيان عن ان يُفهموا الجماهير او يفهموا عنها ، فقد حدثت من جراء ذلك فضائح كثيرة ، بعضها شائن . فكم حرم الناس من العدالة ولحق بآخرين جور لا لشيء الا لأن القاضي الفرنسي الذي ينظر في القضية لم يكن يعرف العربية ، ويعتمد على تراجمة لا يبالون شيئاً من الامر . وحين كان الموظف المسئول في بعض المقاطعات متطرفاً في حماسته كان يأمر ان يحفظ الاطفال في المدارس نشيد « المارسيلييز » وهم لا يكادون يفكون حروف الأبجدية في لغة وطنهم . واتبعت طرق اخرى اشد مكراً لصدّ تيار الثقافة العربية ، منها الاهمال المتعمد للمدارس والمعاهد التي تدرّس باللغة العربية ، والتخاذل عن إيجاد الوسائل لتدريب المدرسين الذين تحتاجهم تلك المعاهد ، والمبادرة المتبجحة الى مساعدة المدارس التي تستعمل اللغة الفرنسية . وأعدت كتب مدرسية خاصة لتدريس مادة التاريخ في كل الفصول ، تحقّر من شأن أعمال العرب ومنجزاتهـــم في سورية وتزعم ان الروابط التي تربط سورية بسائر العالم العربـي روابط وهمية ملفقة .

وزادت اخطاء السياسة الفرنسية سوءاً بما صاحبها من نزوات الموظفين . وكان الخطأ في بعض الحالات الفاضحة ناشئاً عن الاهمال في اختيار

اشخاص ليملأوا مناصب السلطة التنفيذية ، ثم ينفضح فسادهم او قلة درايتهم بما وكل اليهم ، من بعد . اما العلة الأساسية في الاخطاء فهي ان هيئة الخدمة المدنية الفرنسية لم تكن لديها تجارب سابقة في كثير من المشكلات التي واجهتها ، ولم تكن لديها الكفاءة النفسية لمعالجة تلك المشكلات ، اذ كانت اغلبية اولئك الموظفين ممن تلقوا تدريبهم في شمال افريقية وغيرها من المستعمرات الفرنسية حيث السكان أدنى تقدماً ثقافياً وسياسياً واكثر انقياداً لما يملى عليهم من سكان سورية . واخذ اولئك الموظفون يمارسون مهامهم في البلاد الواقعة تحت الانتداب بعقول تعوّدت الأساليب الفرنسية المرتجلة في حكم المستعمرات . وهذا ينطبق بالتساوي على المدنيين وعلى ضبـــاط الجيش الكثيرين الذين شغلوا مراكز في الادارة . وعندما كانت كفاءة موظف او نزاهته تعلو على الريب كان فهمه — في العادة — ناقصاً ، واخلاقه فظة متعجرفة . ونشأ قسط كبير من الاستياء الذي أحس به الناس نحو السياسة الفرنسية من انعدام اللباقة والمرونة وسوء التقدير اللذين تجليا في تنفيذها .

وكانت نتيجة ذلك ان غرقت فوائد الحكم الفرنسي ، وهي لا تجحد في الميدانين الروحي والمادي ، في حومة الاخطــاء والشطحات ، او تجردت من تأثيرها بسبب النقائص التي صاحبت تنفيذها . هكذا ضاعت قوة الحوافز التي دفعت بها الادارةُ الفرنسية عجلةَ التجارة والصناعة بضعف الفرنك وتقلب سعره . وكان تطوير موارد الثروة في البلاد ووسائل المواصلات فيها امراً يبشر بالخير لولا حرصها — دون داع — على حماية مصالح الافراد الفرنسيين والشركات الفرنسية . كما ان المحاولات المخلصة التي بذلها المفوضون السامون على التوالي لانشاء نظام رصين في الادارة ذهبت هدراً بسبب ندرة الموظفين الأكفاء ، والتغييرات المتكررة التي جرت في تنظيم البلاد الواقعة تحت الانتداب ، والاسراف في مضاعفة الوظائف ، لاعتقاد الحكومة ان ذلك ضروري ليكفل السيطرة الفرنسية

الصارمة ، وما نتج عن ذلك من التبديد وانعدام الرقابة الصحيحة على النفقات العامة . حتى المنجزات البديعة التي حققتها الارساليات الفرنسية في ميدان التعليم وجعلت منها ذكرى خالدة لجهودها — حتى هذه نفسها اخذ الشعب يقرنها — وهو محق فيما فعل — بمختلف الخطط الاخرى التي اتخذت لنشر النفوذ السياسي الفرنسي وتقويته .

٧

يقع تاريخ الانتداب الفرنسي — على نحو طبيعي — في ثلاث مراحل . أولاها من سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٦ وكأنما هي عصر مظلم من العمى والحمق والتبديد بذرت فيها الدولة المنتدبة وموظفوها بذور الاضطراب ، وجنت حصاداً وبيلاً في صورة ثورة ختمت بها تلك المرحلة . والثانية من ١٩٢٦ — ١٩٣٦ وهي فترة المفاوضات ، وفيها حاولت فرنسة ، وقد أدبتها الخسائر التي تكبدتها في الثورة ، والفضيحة التي أساءت الى سمعتها الادارية ، ان تتفاهم مع الزعماء الوطنيين في سورية واخفقت في محاولتها . والثالثة من ١٩٣٦ حتى اليوم وهي الفترة التي توصل فيها الفريقان الى اتفاق ملموس ، وحددت فترة الانتداب ، وابتدأ عهد جديد في العلاقات الفرنسية — العربية .

وكانت المرحلة الاولى في حقيقتها فترة دكتاتورية عسكرية تعاقب فيها على الحكم ثلاثة قواد من الجيش الفرنسي وهم غورو وويغاند وساراي ، وكل منهم مفوض سام يصرف سلطاته في ظل قانون عسكري . وهي أشد المراحل الثلاث نقصاً في باب الكياسة السياسية وبعد النظر والدقة والاهتمام برغبات الشعب ومصالحه ، وفيها كانت السياسة والاساليب التي تقدم وصفها مخلاة العنان اكثر من المرحلتين التالتين . بل حين ألغي القانون العسكري رسمياً في اوائل عام ١٩٢٥ بقي المفوض السامي يتمتع بسلطات شاملة تمكنه ، متى شاء ، من ان

يعبث بالمبادىء الاساسية في القانون العام في معاملته للوطنيين العرب ، فكان لديه كل ما يملكه الحاكم المستبد من سلطات تشريعية وتنفيذية مطلقة ، ونفوذ على القضاء ، وجيش كبير هو قائده الأعلى بحكم مركزه ، وهو يصرف ارادته في دولة سورية التي تتولى الحكم فيها حكومة صورية ، متعسفاً متحكماً كشأنه في الدول الثلاث التي تخضع لحكم فرنسي سافر .

بدأت الثورة في تموز (يولية) عام ١٩٢٥ عندما كان الجنرال ساراي قد قضى ثمانية اشهر في منصبه ، وانفجرت في جبل الدروز وكانت اسبابها المباشرة تعود بالاكثر الى ما صنعته يداه ، بمعنى ان الذي أطلق الشرارة الاولى معاملته المستبدة المسيئة لبعض زعماء الدروز . اما الاسباب العميقة فهي كامنة في الاستياء الذي ولدته السياسة والاساليب الفرنسية وبخاصة الاساليب التي سار عليها حاكم جبل الدروز فقد عدا بالحماسة طوره لاثبات كفايته ، فتطرف الى استبداد فظيع أنزله بالسكان . وبدأت الثورة في صورة سخط عنيف انفجرت كوامنه وتطورت الى ثورة وطنية .

لم تكتب بعد قصة الثورة السورية كاملة غير ان الحقائق البارزة منها معروفة : واجهت اول كتيبة تأديبية أرسلت ضد الثائرين هزيمة بليغة في الحادي والعشرين من تموز (يولية) ، وبشق الأنفس استطاع الفلّ الذي بقي منها ان يعود الى السويداء حيث ظل محصوراً فيها مدة تربو على شهرين . ثم أرسلت قوة اكبر يزيد عددها على ثلاثة آلاف جندي فسارت في الثاني من آب (اغسطس) وواجهت كارثة مماثلة ففقد منها ثلثها وعدد من المدافع والذخيرة ؛ ثم تقدم الثوّار الى دمشق وصدّت أولى طلائعهم عن ضواحيها متكبدة خسائر جسيمة . ومع ذلك ظلوا سادة الموقف في الريف من حولها . وحوالي نهاية ايلول (سبتمبر) نجح الفرنسيون في تخليص السويداء ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بها

وسحبوا حاميتهم منها . حتى ذلك الحين كان كثير من الزعماء الوطنيين بدمشق وغيرهم ممن يعيشون في المنفى خارج البلاد قد انضموا الى القوات الدرزية فاتخذت الثورة طابع انتفاضة وطنية . نعم انها لم تعم البلاد جميعاً ولكنها امتدت الى ما وراء دمشق شمالاً في أقاليم حمص وحماة وطرابلس . وقام الثوار بغارة كانت في وقت ما تهدد بيروت تهديداً خطيراً . الا ان الثورة كانت قومية بمعنى ان زعماء الحركة العربية ألقوا بدلوهم فيها مع زعماء الدروز وأعلنوا — متحدين معهم — ان غاية الثورة من يومئذ ضمان استقلال البلاد ووحدتها .

واقترف الفرنسيون وهم يبذلون جهودهم لقمع الثورة فنوناً من القسوة لا تغتفر . فضربوا القرى بالقنابل على غرة ، وكثيراً ما سمحوا لجنودهم بأن يستبيحوا القرى دون وازع . وجندوا عدداً كبيراً من الأرمن والشراكسة وسمحوا لهم — بعض الوقت — ان يقتلوا وينهبوا ويحرقوا دون تمييز . وفي مرتين تغلغلت جماعات كبيرة من الثوار في شوارع دمشق فقصف الفرنسيون بقنابلهم الأحياء المأهولة بالسكان من الجو ومن مدافع ميدان مركزة على سطح القلعة الواقعة في قلب المدينة . وقد ارتكبوا هذا العمل الاجرامي دون انذار في تشرين الاول (اكتوبر) وكان له صدى سيىء في فرنسة ، وعلى أثره استدعي الجنرال ساراي الذي كان أمر به . ثم كرر مثل هذا العمل في أيار (مايو) التالي في عهد خلفه السناتور دي جوفنيل بعد إشاعة الانذار ، لكن مع نسبة كبيرة في القتلى « تعد بالآلاف » وتخريب مريع للعقارات والمتاجر . ولما اندلعت نار الثورة كانت فرنسة قد نشبت في الكرب الشديد من ثورة عبد الكريم في الريف وامتحنت مواردها امتحاناً عسيراً . وهبنا تقبلنا مثل هذا العذر فانا لا نجد مسوغاً للأعمال البربرية التي اقترفت في سورية باسم فرنسة ، سواء أحدثت بموافقة الدوائر الرسمية او بغير موافقتها .

وظلت الثورة حية فعالة خلال معظم عام ١٩٢٦ ، ولكن حين اعاد الفرنسيون تثبيت سلطانهم بالاعتماد المحض على القوة تحولت الثورة الى حرب عصابات متقطعـــة ثم سكنت في ربيع عام ١٩٢٧ . وليس في المستطاع ان نقدر بدقة ما كلفته من خسائر في الأنفس والاموال غير انه لا ريب في انها كانت اشد رزءاً على البـــلاد والدولة المنتدبة من ثورة العراق عام ١٩٢٠ ، إلاّ انها كثورة العراق جعلت الدولة المنتدبة تعلن عن تغيير في سياستها ، فأعلن دي جوفنيل في الفترة القصيرة التي قضاها مفوضاً سامياً ، وهي فترة لم تتجاوز بضعة اشهر ، بأن لبنان غدا جمهورية ، وصرح بأن سياسة فرنسة تستشرف عقد معاهدة تحالف فرنسية – سورية لتحل محلّ الانتداب اقتداءً بما فعلته بريطانيـــة في العراق، وحاول ان يبدأ مفاوضات لأجل تلك الغاية مع الزعماء الوطنيين العرب ، الا ان المفاوضات سرعان ما توقفت وبقي لخلفه – وهو موظف مدني محنّك – ان يحاول بناء صرح جديد على أنقاض السنوات الست الاولى .

وبدأت الفترة الثانية من الحكم الإنتدابي بتعيين المسيو بونسو في آب (اغسطس) عام ١٩٢٦ وكان اول مفوض سام ذي تجربة إدارية مدنية ، فأقام في منصبه سبع سنوات اي مدة أطول من التي قضاهـــا أسلافه الاربعة جميعاً . وقد قام بمحاولة مخلصة ليحسّن أساليب الادارة وليصل الى تفاهم مع الزعماء في سورية الا انه يوفق في ذلك بعض توفيق ؛ حقاً انه محا بعض المعايب الادارية السيئة دون ان يقضي على الاستبداد الراسخ في البيروقراطية او يكبح من جماح غلوائها وسلاطتها . وقـــد حاز ثقة الوطنيين حين التزم الحياد الدقيق في الانتخابات العامة الاولى التي أجراها غير انه عجز عن ان يتفاهم معهم او ان يضيق شقة الخـــلاف حول المسائل الأساسية الراهنة – يومئذ – . وكانت جهود سلفه المباشر – وكان فيما يبدو مثله إخلاصاً ورغبة في الوصول الى

اتفاق – قد أدت الى توقف وجمود بسبب الاختلاف على مسألتين هما الوحدة السورية ، وهل تبقى حدود لبنان الكبير كذلك ابداً . ولما تقاعد بونسو – بعد سبع سنوات جرت فيها المفاوضات المتأنية المجهدة معاً – كانت هاتان المسألتان ما تزالان حيث هما . وحينئذ اتضح ان بونسو كان يمتاز على اسلافه في المنهج والاخلاق فحسب لا في اتساع الافق لأنه حين جلس يناقش امر دستور لسورية ثم شروط معاهدة فرنسية – سورية مقترحة ، عندئذ كانت آراؤه لا تكاد تفترق بشيء عن الآراء التي كانت تسيطر على عقلية وزارة الخارجية الفرنسية منذ أوائل ايام الانتداب .

واعلن بونسو في السنة الرابعة من حكمه النظام الجمهوري في سورية ؛ لقد عجز عن الوصول الى اتفاق مع الوطنيين حول بعض المواد في الدستور المقترح ، وكان طريقه للخروج من الأزمة ان نشر الدستور كما رسمه الوطنيون تماماً ، وذيّل عليه بمادة جديدة تعطل فعل المواد الست ، موضع الاختلاف ، وقال انه لا يقصد من المادة الملحقة الا ان يتمكن بها من اجتياز الفترة التي ستنقضي قبل التفاوض في شأن المعاهدة وقبل إبرامها . وأعلن ان قصده هو ان يجري الانتخابات تحت ظل الدستور الجديد مع أقل قدر ممكن من التأخير حتى يتمكن من فتح باب المفاوضات ، من أجل المعاهدة ؛ مع حكومة صحيحة من حيث تكوينها وتمثيلها للشعب ، واستغل نفوذه مع اثنين من الزعماء الوطنيين ليقنعهما بالتعاون ، وأجريت الانتخابات ولكن بعد مضي ثمانية عشر شهراً . ولم يكن المسيو بونسو بطيئاً بطبعه او فابيوسي * المسلك بجبلته فحسب ، بل كان ايضاً يداور ويحاور في سبيل الحصول على

---

* نسبة الى فابيوس كونكتاتور (البطيء) القائد الروماني الذي كانت خططه الحربية ضد هنيبال تعتمد على البطء واستغلال طول الزمن ضد صبر عدوه وموارده . – المترجم –

مركز في المعركة الانتخابية اذ كان قد خشع امـــام اغراء النفس بأن يستغل سلطته للتأثير في الانتخابات . وأخيراً تكوّنت حكومة دستورية في حزيران (يونية) عام ١٩٣٢ وعلى رأسها ألعوبـــة تسمى رئيس الجمهورية وحوله مجلس نواب يمثل الناخبين اسماً لا حقيقة .

ولم يتقدم بونسو الى الحكومة السورية القائمة بمقترحات ملموسة في صورة مسودة معاهدة الا في آخر سنة من سنوات حكمه ، وكان قد صرّح من قبل ان قصده رسم معاهدة على مثال المعاهدة الانجليزية ـ العراقية المبرمة عام ١٩٣٠ . الا ان المسودة التي قدمها كـــانت تقصّر عنها كثيراً ؛ صحيح ان كثيراً من موادها يتفق حرفياً ومواد مقابلـــة في المعاهدة الانجليزية ـ العراقية الا ان هناك فروقاً هـامة في شئون المبدأ المتصل بالسيادة والوحدة بل والحكم الذاتي الداخلي الذي ستنتحله الدولة العربية المستقلة المقترحة ؛ وهذا كله جعلها مرفوضة ، واستقال الزعيمان الوطنيان اللذان تشجعا من قبل على المشاركـــة في حكومة غير محبوبة ، اقتناعاً منهما يومئذ بصدق النوايا التي جهر بها المفوض السامي واستحكمت عقدة الأزمة مرة اخرى . فلما ترك المسيو بونسو منصبه في صيف ذلك العام كان بُعد المشكلة السورية عن الحل هو بُعدها نفسه يوم بدأ بونسو يوقف جهده لحلها ، اللهم الا ان مرور الزمن والتمرس الطويل بالانتداب الفرنسي جعلا الوطنيين العرب اشد اعتزاماً من ذي قبل على نيل حريتهم السياسية .

يومئذ كانت قد مضت على قمع الثورة السوريـــة ست سنوات ، واستعادت الحكومة الفرنسية اثناءها ثقتها السابقة في انها قـــادرة على ان تمسك زمام البلاد بالقوة ، فصممت على ان تجعل خليفة بونسو رجلاً قوياً من النوع الذي لا يتحمل « الهزار » . ووقع اختيارها على واحد من اقدر سياسييها هو المسيو دي مارتل الذي كان حينئـــذ سفيراً في طوكيو . وبادر المفوض السامي الجديد الى العمل ، غير مضيّع وقتاً .

وما كاد يحتل وظيفته في تشرين الاول (اكتوبر) عـام ١٩٣٣ حتى ارسل الى رئيس الوزراء السوري وطلب اليه ان يقبل مسودة المعاهدة حالاً . وأذعن الرئيس للأمر ، وما كان سوى رجل رشحه الفرنسيون ولم يكن له وزن في البلاد ، فلما وصلت المعـاهدة الى مجلس النواب لاجازتها – بعد بضعة ايام – صوتت الغالبية العظمى من الاعضاء ضد قبولها ، وكانت لطمة رد عليها المسيو دي مارتل بما يتناسب تماماً وروح المهمة القوية المنوطة به ، فعطل مجلس النواب الى اجل غير مسمّى ، وقصر مهمة الحكومة على ان تكون أداة لتنفيذ اوامـره ، ثم سنّ تشريعات تمكنه من فرض إرادته ومنحها مظـهر الشيء المشروع . ووضّح للحكومة انه ينوي – من ثم – تطوير المصالح الاقتصادية في البلاد ، وان هذا الأمر سيستغرق اهتمامه كله وبسبب هذا الاستغراق التام فلا بد من ان تظل الشئون السياسية معلقة . وصدّق بالفعل مـا قال ، فمنذ تلك اللحظة أبدى اهتماماً حيوياً في مختلف المشروعات الاقتصادية ، وتعمد عدم المبالاة بالاستياء الذي خلفه موقفه المستبد ، الى ان أيقظته من بلهنية رضاه الذاتي – بعد عـامين – ثورة مفاجئة تفجرت فيها المشاعرُ المكفوفة ، ودلته على انه – حين تخيل ان العواطف يمكن اخمادها باصدار القرارات – انما كان يعيش في جنـة الحمقى – وهي جنة من صنع اوهامه – .

كان الذي مهد السبيل لحدوث الانفجار إجراء آخر « رجولي » من اجراءات المسيو دي مـارتل . ففي النصف الاول من كـانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٦ كانت الاجتماعات تعقد في المدن السورية الكبرى للاحتفال بذكرى زعيم وطني جليل . وبينا كانت موجة من المشاعر والهيجان السياسي تطغى على البلاد هاجمت الشرطـة – على غرة – مكاتب الحزب الوطني بناءً على وشاية تلقتها . فلم تجد اوراقاً ووثائق تدين الحزب ومع ذلك أمرت السلطات ان تغلق المكـاتب ، والـقت

القبض على زعماء عديدين وغربتهم بتهم مختلفة . ولم نجد ما يحملها على إضاعة الوقت في محاكمتهم ، تماماً كما كان يحدث من قبل تحت حكم الانتداب . وكان رد الفعل في هذه المرة ناجزاً سريعاً فبقيت الحوانيت في دمشق مغلقة احتجاجاً ، وتلا ذلك توقف عام عن الاعمال في جميع انحاء سورية ، وصحبه قلق واضطرابات ، فردت سلطات الانتداب بسلسلة اخرى من الاعتقالات وباجراءات تأديبية اخرى لم ينتج عنها الا ازدياد في صلابة الارادة الشعبية . ثم نشأت حركة من المقاومة السلبية من نوع لم يعرفه من قبل تاريخ سورية او البلاد العربية الأخرى لأنه تميز بالشمول مثلما تميز بالنظام والاصرار — وهي خلال عزيزة في الخلق العربي . وشل الاضراب العام حياة البلاد ، ودام ستة أسابيع لم تكد تبدر فيها بادرة تخاذل ، وفجأة أخذت السياسة الفرنسية تجنح الى التبدل . واصدر المفوض السامي في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) تصريحاً فتح الباب امام الآمال في انشاء مفاوضات مباشرة من اجل معاهدة تعقد ، وأذاع انه على استعداد ليصدر تواً امراً سامياً بعفو عام ، وان يطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وانه يدعو زعماء الحزب الوطني للتشاور معه . وجاء التصريح مفاجئاً فاستقبله الناس جميعاً بالترحاب . وعقد مؤتمر بيّن فيه المسيو دي مارتل أسس المفاوضات المقترحة ومداها بما أرضى الزعماء الوطنيين فتقبلوا بسرور مقترحه وهو ان يذهب وفد سوري ، اكثريته من الزعماء الوطنيين ، الى باريس — حالاً — ليدخل في مفاوضات مباشرة مع وزارة الخارجية الفرنسية . وحالما تم هذا التدبير في اول آذار (مارس) حل الاضراب العام وبدأت المرحلة الثالثة في تاريخ الانتداب الفرنسي .

لم يكن التغير في الموقف الفرنسي متوقعاً ففاجأ الناس وأدهشهم ؛ وقد تبين من بعد انه تغير في الوسائل لا تغير في النوايا ولكن قدر له ان يؤدي الى إعادة نظر في أسس السياسة الانتدابية وكان ذلك محض

مصادفة سعيدة تمت لدى تغير الوزارة الفرنسية . ويرجع الفضل في التصالح بين الفرنسيين والسوريين الى المسيو دي مارتل — في المقام الاول — فهو الذي تمكن بحنكته وشجاعته من ان ينقلب الى مؤيد للكف عن سياسة الضغط والكبت حين اقتنع بقلة جدواها . وكأنما تبلج النور لعينيه فجأة في لحظة من لحظات الكشف ، فلم يكن تبدله من مبدأ الى ضده أقل روعة من تغير شاءول الطرسوسي * الذي كان — مثله — شغوفاً بترديد الوعيد والذبح في تهديده لسكان دمشق . قبل اسبوعين فحسب كان قد أهان الزعماء الوطنيين بحماقة في احدى بلاغاته الرسمية ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين الرجوع الى الحق عندما لاح له وجه الخطأ . اما رئيس الحزب الوطني فانه اجاب على هذه المعاملة بكل ما يحلّي السيد العربي من لطف أصيل ، وبذلك ابتدأ عهد من التفاهم والتعاون استمر حتى اليوم ، وكان هذا التحسن الملحوظ الذي طرأ على العلاقات الفرنسية العربية حينئذ نتيجة — في الاكثر — لحسن مبادرة المسيو دي مارتل ولمشاعر الاحترام التي تولدت نحوه بين من كانوا ضحايا عسفه فيما مضى .

وصل الوفد السوري باريس وبدأ المفاوضات قبل نهاية آذار (مارس). فاكتشف اعضاء الوفد تواً ان شقة الخلاف ما تزال واسعة بين فهمهم لمعنى المعاهدة وفهم الفرنسيين . ولما تسلموا ما دل على انه المقترحات النهائية التي تقدمها وزارة الخارجية تبينوا انها مما لا يمكنهم قبوله ، وكان ما طلبوه معاهدة على مثال المعاهدة الانجليزية — العراقية عام ١٩٣٠ بكل ما فيها من نصوص اساسية ، مؤسسة على الاعتراف بوحدة سورية ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تكن على استعداد لتلبية هذا المطلب ، وان اعترفت بعدالته . ثم كانت المصادفة المناسبة حين فاز في الانتخابات المسيو بلوم وحزبه . وجاء بلوم خلفاً للمسيو دلادييه فاستؤنفت

* هو القديس بولس ، وكان يسمى شاءول قبل ان يعتنق المسيحية . — المترجم —

المفاوضات معه على أسس اوسع ، وانتهت بعقد معاهدة تحالف فرنسية – سورية في التاسع من ايلول (سبتمبر) . وبعد بضعة اسابيع ابتدئت المفاوضات في بيروت بين المسيو دي مارتل ووفد يمثل لبنان ، وتمخضت عن عقد معاهدة تحالف مماثلة بين فرنسة ولبنان ، في الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) .

كانت المعاهدتان المعقودتان على مثال المعاهدة الانجليزية – العراقية فهما مطابقتان لها ، واحداهما صنو للأخرى . وكلتاهما تصبح نافذة الفعل بعد ثلاث سنوات ، وتحل – آلياً – محل الانتداب ، حالما تقبل كل من سورية ولبنان في عضوية عصبة الأمم – بحكم كونهما دولتين مستقلتين ذاتي سيادة – ويظل فعلها سارياً مدة خمس وعشرين سنة ثم تتجدد بالاتفاق والتراضي . بهذا اعترفت فرنسة بوحدة سورية ، وكانت الالتزامات المشمولة في التحالف هي نفس الالتزامات في المعاهدة الانجليزية – العراقية . وأهم فرق بين المعاهدتين الجديدتين قائم في الشروط المتصلة بالاحتلال العسكري . اما في سورية فللفرنسيين ان يحتفظوا بحامية في جبل الدروز وبأخرى في منطقة اللاذقية مدة خمس سنوات تبدأ حين تصبح المعاهدة نافذة الفعل ، ولها ان تستعمل قاعدتي طيران في مكانين معينين في البلاد السورية طوال مدة المعاهدة . واما في لبنان فلها ان تحتفظ بحقها طوال مدة المعاهدة في إقامة قوى عسكرية من جميع انواع الاسلحة ، دون ان تعين امكنة إقامتها او عدد الحاميات . وتعهدت فرنسة بأن ترعى امر دخول الدولتين في العصبة وان تضمن لها ذلك في خلال ثلاث سنوات من ابرام المعاهدتين .

لم يذكر شيء في المعاهدة الفرنسية – السورية عن حدود لبنان الكبير . لقد كان عدد كثير قوي من السكان اللبنانيين يقف بمشاعره ضد تعديل حدود ١٩٢٠ ، وكانت الحكومة الفرنسية تعتبر لبنان معقلاً لنفوذها في البحر المتوسط الشرقي ، لذلك فانها لم تكن تنوي تجاهل

تلك المشاعر . وأعرض الوفد السوري عن إثارة تلك المسألة فدل بذلك على حكمة وادراك عملي . نعم ظل اعضاء الوفد متمسكين بأن توسيع لبنان كان جائراً في حق سورية وضاراً بلبنان نفسه ايضاً . غير انهم قالوا : ان كان اعتراضهم هذا صواباً فان طبيعة الاشياء نفسها خليقة ان تنصف سورية مما لحق بها من جور وذلك بأن تظهر للعيان مدى مجاوزة الوضع الطبيعي في تلك الحدود الراهنة ، وسيأتي اليوم الذي يطلب فيه اللبنانيون انفسهم تعديلها ، ان لم يطالبوا بالغائها جملة . ومثل هذا الأمل قد يتحقق وربما لن يتحقق ولكن السوريين حين علقوا به المستقبل أبدوا حنكة سياسية وبرهنوا على ان اعتناقهم لمبدأ « موافقة المحكومين » الذي ذاقوا فيه العذاب الطويل لم يكن محض سلاح للاثارة السياسية بل انهم أيدوا بالفعل ما دعوا اليه بالقول .

وأجاز المجلسان السوري واللبناني تينك المعاهدتين قبل نهاية العـــام . وانفجرت الاضطرابات في لبنان لأن الحكومة المسئولة حاولت ان تخفت اصوات الذين يريدون تسوية ناجزة لمسألة الحدود على اساس من العودة الى ما كان عليه الحال قبل عام ١٩٢٠ . وأدى هذا الهياج الى اضطرابات خطيرة في بيروت وطرابلس الا ان النظـــام استتب بعون من الجند الفرنسيين وانفذت الحكومة المعاهدة دون معارضة في داخـــل المجلس وعلى رغم من المعارضة في خارجه . وجرت في سورية انتخابات عامة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تمخضت عن فـــوز جارف للحزب الوطني ، واجاز مجلس النواب ، المؤلف على هذا النحو ، المعـــاهدة بالاجماع . وها قد مضت سنتان على إبـــرام المعاهدتين ، ومع ذلك ما تزالان تنتظران الاجازة من الجانب الفرنسي .

تلقى الناس نبأ عقد المعاهدة الفرنسية – السورية برضىً اصيل لا في سورية وحدها بل في سائر الاقطار العربية ايضاً . ومن كرّ الطرف الى الوراء لم يخطىء نظره ان يرى في تلك المعـــاهدة – وان لم يزد

عمرها على سنتين – نقطة تحول في تاريخ العلاقــات بين فرنسة والعالم العربي – وهي علاقات تبلغ قرناً من الزمان. وقد تثبت النوايا الحسنة والرغبة في التعاون – وهي التي نشهدها اليوم لدى ذوي الرأي مــن القائمين بالحركة العربية – انها عامل بالغ الأهمية لا في سورية فحسب بل في شمال افريقية ايضاً. ومن التعجل في هذا المدى الزماني القصير ان نجزم : هل كان تغير السياسة يمثل تغيراً اساسياً في نظرة الفرنسيين او انه ليس سوى حركة تاكتيكية على نطاق كبير. ولكن ان كان يعني انهم اخيراً ادركوا عقم سياسة القسر، وانهم من ثم ينوون ان يضمنوا مصالحهم على اساس من التعاون الودي، فليس من سبب يحول دون ان تنمو الصداقة الفرنسية – العربية سريعاً وتصبح قوة انشائية. لقد تكلفت فرنسة في « المغامرة » السورية – حتى اليوم – آلافاً عديدة من النفوس و١٤ ملياراً من الفرنكات في النفقات [1] دفعتها الخزانة الفرنسية وحدها على الخدمات العسكرية لتثبيت الانتداب. فاذا قررت فرنسة انهاء الانتداب فانها لن تضع فحسب حداً لهذا التبديد الطائش بل انها تضع الصداقة الفرنسية – العربية على محك الاختبار.

٨

ونتصدى اخيراً لفلسطين – حيث واجه الانتداب اسوأ سمعة ولقي أقل توفيق في « مغامراته ».

ان المؤرخ الذي يعمد لدراسة مشكلة فلسطين يجدها محاطة بصعوبات خاصة. وأولى الصعوبات ان المادة غزيرة جداً مشتتة جداً. وثانيتها انها متضاربة متناقضة الى حد كبير. وثالثة الصعوبات ان نسبة كبيرة

---

١ – اذا قدرنا متوسط قيمة الفرنك بالتقريب كان هذا المبلغ يساوي حوالي ١٢٠ مليون جنيه استرليني.

منها تبدو لدى الفحص الاول ملائمة مبشرة بالخير فاذا بها عندما تتنخل، قائمة على افتراضات باطلة ومعلومات مشكوك فيها . وأخيراً فان الانفعالات التي أثارتها فلسطين قد ساعدت كثيراً على إبهام الحقيقة حتى اصبحت الوقائع مغلفة في ضباب العواطف والخرافات والدعايات ، وهو ضباب كثيف يكاد المرء يعجز عن اختراقه .

ولست ازعم ان هذه الدراسة قد استطاعت ان تتغلب بالضرورة على تلك الصعوبات جميعاً ، ولكني كنت دائماً على وعي اثناء بحثي بأنها موجودة ، وهي التي أدتني الى القول بأن أعسر العقبات القائمة امام فهم مشكلة فلسطين — ومن ثم امام حلها — هي تلك الغابة المتشابكة من الاساطير والدعايات التي نمت من حولها وانها اشد كثيراً من التعقيد الاساسي في طبيعة المشكلة نفسها . اذن فان أولى الواجبات امام الدارس الذي يعالج الوقائع هي اضطلاعه بمعالجة الاكاذيب والاباطيل التي تتلبس ثوب الوقائع ، وان يعمل على تنحيتها من مكانها الرفيع الذي احتلته زوراً وافتئاتاً . اعني ان واجبه مزدوج دائماً : فعليه ان يفضح الاكاذيب وان يحق الحق في وقت معاً . ويصبح هذا الواجب لزاماً عليه حين يعلم انه يبحث مأساة ما تزال ادوارها قائمة ، مأساةً تضحى فيها ارواح الأبرياء كل يوم ويعاني فيها الاحياء صنوف العذاب والآلام .

٩

هنالك عدد وفير من المؤلفات بالانجليزية وبغيرها من اللغات الاوروبية عن تاريخ الانتداب البريطاني في فلسطين ، ولكن علينا ان نستعملها في حذر ، اولاً لأنها تحوي نسبة عالية من الدعاية مكشوفة او مقنّعة، وثانياً لأنها لم تعتمد المصادر العربية الضرورية ، لذلك قلّ حظها من الانصاف الحق حتى وان كان مؤلفوها من المؤرخين المحايدين او

المنصفين . كذلك فان قلة الانصاف تعتور المعلومات اليومية وتفسدها ، لأن الدعاية الصهيونية نشيطة بارعة التنظيم واسعة الانتشار ، وصحافة العالم – على الأقل في الديموقراطيات الغربية – منقادة لها – الى حد كبير – وهي تسيطر على كثير من الوسائل المتيسّرة لنشر الانباء وبخاصة في العالم الناطق بالانجليزية . اما الدعاية العربية فانها اذا قرنت بها بدائية لا يحالفها نجاح ، وليس لدى العرب يسير مما لدى اليهود من مهارة واتقان للغات كثيرة ، ومن مصادر مالية تجعل الدعاية اليهودية نافذة بعيدة التأثير . وكانت النتيجة ان اصبح العالم خلال السنوات العشرين الماضية ينظر الى فلسطين بمنظار صهيوني وقد تعود ان يبني حججه – لا شعورياً – على اساس من المقدمات والفروض الصهيونية .

وهناك كمية غزيرة من المعلومات تستقى من المصادر الرسمية البريطانية ، ولا تظهر في هذه المعلومات متطلبات الانصاف وعدم الانحياز ، ولا هي تستطيع ان تضطلع بذلك ما دامت الحكومة البريطانية تمسك عن نشر بعض الوثائق الهامة الاساسية . وكانت نتيجة هذا المنع ان كانت تقاريرها وبياناتها وتفاسيرها لسياستها تضع المسألة تحت ضوء كاذب ومنظار خادع لأنها بعيدة كل البعد عن توضيح الأمور وتنوير الرأي العام . ويتضح هذا الضرر الناجم عن حجب تلك الوثائق في المناقشات البرلمانية خاصة . فإلى ما قبل بضع سنوات اعتاد اعضاء مجلس اللوردات واعضاء مجلس العموم ان يلتمسوا من الحكومة – من حين لحين – الكشف عن الحقائق كاملة بنشر الوثائق المتصلة بالتعهدات التي قطعتها على نفسها ايام الحرب . لكن الحكومة قابلت هذا الرجاء دائماً بالرفض حتى سئم الاعضاء تكراره ، ومضت المناقشات سنة بعد اخرى في غبش مختلط من أنصاف الحقائق ، واخذت الأمور تنبهم في ضباب الدعاية والجهود التي يبذلها الحادبون على الصهيونية ليطبعوا وجهة نظرهم في أذهان الاعضاء . اما ان عدداً من اعضاء المجلسين يهود فذلك في ذاته ضمان

للقضية الصهيونية بأنها حاضرةُ المؤيدين أبداً ولا يجري القول فيها « غيابياً » ؛ ولما لم يكن للعرب مثل هذا التمثيل فان القضية تظل تناقش من جانب واحد . ومن الامثلة البارزة على ذلك تلك المناقشة التي تمت في مجلس العموم في ٢٤ آذار (مارس) عام ١٩٣٦ وهي شاهدة — كما نشرت في صفحات التقرير الرسمي — على ما للصهيونيين من نفوذ في البرلمان ، فقد اقترحت الحكومة إجراءً تزيل به احدى المظالم عن العرب ، وكانت المنظمة الصهيونية قد رفضته فسقط في المجلس بأكثرية ساحقة .

وثمة منبع آخر للمعلومات التي تجيء من جانب واحد ، وهو وقائع جلسات « لجنة الانتدابات الدائمة » ، وفيهـا يجد الدارس موجزاً وافياً واضحاً للمناقشات التي تدور بجنيف حول التقارير السنوية التي ترفعها الدولة المنتدبة . ولكنه ايضاً سيجد تفاوتاً مذهلاً في المعرفة والاهتمام الموجهين نحو كلٍ من القضية الصهيونية والقضية العربية ، ذلك لان اعضاء اللجنة يفيدون من مكتب صهيوني جيد الاعداد بجنيف ، يزوّدهم طوال العام بالمعلومات في صورة وفي لغة مناسبتين لأفهامهم ، وليس للعرب مثل هذه الأداة ، بل ان الاعضاء لا يستغلون مصادر كالصحف العربية بفلسطين وهي تقدم لهم مجموعة قيمة من التعليقات على سير الانتداب من حيث أثره في السكان العرب . ثم انه لا بد للعرائض والمذكرات التي تكتب بالعربية من ان تقدم في جنيف مترجمة ، واذا شاء احدٌ ان يضع نصاً عربيــاً فصيحاً في أسلوب انجليزي او فرنسي صالح للقراءة احتاج ما هو اكثر من النقل المحض . وعرب فلسطين عاجزون عجزاً فاضحاً في فنّ عرض قضيتهم بلغة اجنبية ، حتى ليجيء هذا العرض في العادة مهزلة مضحكة . والنتيجة الواضحة هي ان المعلومات التي لدى اعضاء اللجنة تجيء من جانب واحد ، واذا فحصوا سير الانتداب تبدّى وكأنما الذي يوجه الفحص المقيّد في

سجلاتهم – في اغلب الاحوال – هو أشياع القضية الصهيونية .

وتراكمت الآثار الناجمة عن هذا التفاوت وعدم المساواة مما عرقل الجهود المبذولة للوصول الى حلّ منصف ، وكان من ذلك ان تلبست الاساطير وأنصاف الحقائق التي تذيعها الدعاية بثوب الحقيقة ، واتخذت الافكار الخاطئة التي تكاد تسود كل مكان في البلدان الغربية ، ولا سيما انجلترة ، طابع الحقائق المادية الملموسة . وقد يستطيع الرأي العام ان يكبح مثل هذه السياسة بما يفرض عليها من التصويب القيّم ، إلا ان مثل هذا التصويب الرادع غير آتٍ فيما يبدو ، ولا نستطيع ان نبالغ في النص على ما لازالة تلك الافكار الخاطئة من اهميـــة ، فمن الامور الجلية التي لا تحتاج تأكيداً كثيراً أنها تلعب دوراً خبيثاً في إبهام أسس المشكلة لا في أذهان الجماهير فحسب بل في أذهان الأدباء والسياسيين والموظفين ايضاً ، وكثير منهم يتكشف – وهو يمارس واجباته الرسمية نحو فلسطين – عن جهل مطبق بحقائق الأمور وأصولها . ولا يسمح هذا المقام بايراد مقتبسات مستفيضة من الخطب الوزارية والتقارير الرسمية والكتب البيضاء التي تتكشف عن جهل مذهل بطبيعة التزامات بريطانية العظمى ومداها ، وبالحقائق الاخرى المتصلة بالموقف في فلسطين والتي تعد أقلّ نصوعاً ووضوحاً . ومن العبث ان نأمل في عودة الفرقاء المعنيين الى رشدهم قبل ان تلقى الاضواء الكاشفة على الموقف وتوضع الحقائق الهامة في موضعها الصحيح .

١٠

ولعل خير طريقة لمعالجة المشكلة هي ان نبدأ بمراجعة الحقوق والمطالب والدوافع ، لدى الفرقاء الثلاثة ، حسبما تمثلت عند نهاية الحرب :

يستمد العرب حقوقهم من الامتلاك الفعلي الطويل الأجل ، وتستند حقوقهم الى اقوى الاسس الانسانية ، فإن صلتهم بفلسطين تعود – دون

انقطاع – الى اقدم العصور التاريخية ، لان كلمة « عرب » اليوم لم تعد تدلُ فحسب على المهاجرين مـــن الجزيرة العربية الذين استوطنوا البلاد في القرن السابع ، وإنما تدل ايضاً على سكان اقدم منهم تزاوجوا والفاتحين واكتسبوا لغتهم وعاداتهم وطرق تفكيرهم وتعربوا الى الابد . فأصبحت تقاليد السكان الحاليين راسخة الاصول في بيئتهم الجغرافية مثلما هي راسخة الاصول في حضارتهم المكتسبة . ومن المغالطة ان يظن احد بأنه من الممكن اقناعهم بان يقتلعوا جذورهم مـــن ارضهم ويغرسوا أنفسهم في بيئة اخرى حتى ولو كانت بيئة عربية ، وحالهم في ذلك كحال فلاحي كنت او يوركشير فانه من العسير ان تقنعهم بان يستوطنوا ارلندة . وقد يكون من نافلة القول ان اتحدث عن هذا المظهر على هذا النحو ولكن المغالطة التي أشيرُ اليها قد ركنت اليها اللجنة الملكية لفلسطين وبنت عليها صرحاً جديداً من الآمال الباطلة ؛ ولذلك فلا بد من التأكيد على ان اي حلّ يعتمد طرد الفلاحين بالقوة من أريافهم التي تقوم فيها بيوتهم وأشجارهم وأضرحتهم ومقابرهم وجميـــع الذكريات والروابط العاطفية التي تواكب الحياة المستقرة على الاراضي – ان اي حل كهذا لا بد من ان يقاوم بالقوة .

وقد اكتسب العرب بالاضافة الى تلك الحقوق الطبيعية حقوقاً سياسية محددة مستمدة من اتفاق الشريف حسين مع بريطانية العظمى ومن العون الذي قدمه العرب لها في فلسطين وفي غيرها من ميادين . امـــا النظرية القائلة بأن فلسطين غربي الأردن كانت مستثناة من التعهدات البريطانية فلم تعد تجد ما يسندها ، إذ تدل النصوص المتيسّرة على ان الشريف حسيناً اعطي وعداً عاماً يتعلق باستقلالها في مراسلات مكماهون ، ووعداً خاصاً يضمن الحرية السياسية والاقتصادية لسكانها العرب في الرسالة التي أبلغها اليه المرحوم القائد هوجارث ؛ ثم هنـــالك العهد الذي ورد في « التصريح للسبعة » . فاذا جمعت هذه التعهدات معاً وجدتها اعترافاً

ملزماً بحقوق العرب السياسية . ومرة أخرى أقول ان الموقف الحقيقي في هذه الناحية قد انبهم بين أكداس من المؤلفات والتصريحات المتنازعة، ومما زاد من حدة النزاع فيها تعمّد الحكومة إخفاء الوثائق . خذ مثلاً مراسلات مكماهون تجـد انها بقيت محجوبة عن علم الناس في انجلترة والعالم الغربي مع انها ذاعت وعرفت في البلاد العربية . واما رسالة هوجارث والتصريح للسبعة فانهما مدفونان في « هوايت هول » في بحر من النسيان . ولم يرد في تقرير اللجنة الملكية اي ذكر لاحدهما ، ومن الواضح ان الحكومة البريطانية قـد اصدرت في السنوات الثماني عشرة الاخيرة قرارات هامة دون الرجوع الى محتوياتهما . وهذه نقطة تستحق التأكيد لا لأنها ذات اهمية تاريخية فحسب بل لما لها من تأثير عملي في حل المشكلة الفلسطينية . فمن العبث ان يبحث الباحثون عن حل لا يرى في قيمة هذه التعهدات وفي الاهمية المنوطة بها في العالم العربي شواهد يتخذها العرب دلائل على صحة حقوقهم السياسية وشرعيتها .

لنقل إذن : ان حقوق العرب — في عبارة أخرى — تعتمد على أساسين متمايزين : الحق الطبيعي لسكان مستوطنين ، أغلبهم زراع ، في ان يبقوا مالكين للأرض التي ملكوها بحق المولد ، والحقوق السياسية المكتسبة التي نشأت عن زوال السيادة التركية وعن نصيب العرب في إزالتها ، وهي حقوق على بريطانية ان تعترف بها وتسندها خضوعاً لعقود ملزمة قطعتها على نفسها .

فاذا قام العرب يقاومون الانتداب البريطاني فانما يحفزهم الى ذلك دافعان : دافع المحافظة على الذات ودافع تقرير المصير ، وموقفهم هذا لا يمليه عليهم أي عداء للجنس اليهودي ، فقد ظلّ التاريخ العربي في القرون الوسطى وفي العصور الحديثة بارئاً سليماً من أمثلة الاضطهاد المتعمد لليهود ، بل انه ليدل على ان بعض المنجزات الكبرى للجنس اليهودي إنما تمت ايام السيادة العربية في حمى الحكام العرب وبعون من

رعايتهم الراشدة المستنيرة . واكثر الفضل في ذلك يعود الى تأثير الاسلام في تمدين النفوس وتوجيهها نحو التسامح . ومـا نزال نرى ان معاملة الأقليات اليهودية المستوطنة في البلاد العربية – على رغم العداء الذي ولّده الصراع في فلسطين – ليست أقلّ وداً وانسانية من المعاملة التي يلقاها اليهود في بريطانية او الولايات المتحدة ، بـل إنها من بعض النواحي اكثر تسامحاً . كذلك فان موقف العرب ليس معاداة لبريطانية العظمى وانما هو على العكس من ذلك تماماً . ولقد انتشر هذا التعبير « معادٍ للبريطانيين » Anti - British انتشاراً واسعاً عندما يشير المتحدثون الى الثورات العربية ، حتى ولّد أسطورة تقول ان العرب يعادون أساساً كل ما هو انجليزي . اما في الواقع فانهم ليسوا « معادين للبريطانيين » إلا بالمعنى السياسي لهذه الكلمة التي دارت على الافواه دوراناً مملاً ، اي انهم مصممون على مقاومة السياسة الراهنة في فلسطين بكل ما في طوقهم .

اما حقوق اليهود فانها من نوع آخر . فكثير من الناس في الغرب، وبخاصة في البلاد البروتستنتية ، يرون الصهيونية تجسداً جديداً لذلك الحنين اليهودي القديم للبلاد المقدسة ، وانها سيُقدر لها تحقيق النبوءات التي وردت في التوراة ، وليس هـذا إلا واحداً من الافكار الخاطئة المنتشرة بين الناس . نعم ان هناك جماعة من الصهيونيين « الروحانيين » ، يؤيدهم بعض الاعلام من اليهود ، وغاياتهم في الدرجة الاولى ثقافية ، ومنابعهم تكمن في المشاعر المثاليـة والدينية التي ظلت توحي لليهودية تعلقها بفلسطين [1] إلا ان أثر هؤلاء في السياسة الدولية قد اصبح تافهاً نسبياً ، وتسلم السلطة الحقيقية دعاة الصهيونية « السياسية » ، وهي حركة قومية وليست دينية ، وتهدف الى إنشاء دولة يهودية في فلسطين

---

١ – انظر الفصل : ١٣ ، الفقرة : ٨ من هذا الكتاب .

معتمدة على القوة الدنيوية مؤيدة بالخصائص المعروفة للتملك والسيادة . ضد هذا المذهب الصهيوني يوجه العرب مقاومتهم في فلسطين .

وقد انبعثت الدوافع المحركة للصهيونية [1] من قلق إنساني على الموقف المقلقل الخطر الذي يقفه اليهود في بعض البلدان الاوروبية ، اي انها ظهرت في صورة رد فعل للحركة اللاسامية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وغايتها على التعين تهيئة علاج لحال اليهود بخلق دولة قومية يهاجرون اليها ويعيشون في سلام وحرية وفي ظل الكرامة التي يضفيها الحكم الذاتي . وكان هذا الدافع من جميع نواحيه انسانياً كريماً، ولكن هل كان العلاج المقترح حكيماً ؟ ذلك امر تتناوشه الشكوك ، لأنه يفترض ان اليهود في العالم يؤلفون جنساً واحداً ومن ثم يستطيعون ان يصيروا شعباً واحداً ؛ وكان في نظر كثير من اليهود المفكرين يحمل في طياته نقصاً — سوى النقائص التي تتضمنها جميع القوميات العنصرية — وذلك انه يتحدى الموقف الذي اكتسبه اليهود والرعوية التي اكتسبوها في الاقطار التي اختاروها مواطن لهم . ولكن النقطة الفاصلة في البرنامج الصهيوني هي اعتبار فلسطين — وحدها لا غير — الوطن الذي يرضاه الصهيونيون لينشئوا فيه الدولة اليهودية المقترحة ، وذلك ما لم يكن القصد الأصلي لدى تيودور هرتسل مؤسس الصهيونية . وبيان ذلك انه حين عرضت انجلترة عام ١٩٠٣ ان تجعل يوغنده موئلاً للاستيطان اليهودي، خذل اكثرية قادة الصهيونية الاوائل رأي هرتسل ورفضوا العرض وصوتوا في سبيل دولة تقام في فلسطين .

ويقيم الصهيونيون دعواهم على العلاقة التاريخية التي تربط بين اليهود وفلسطين ، ويزعمون انها تخول اليهود حق العودة الى وطنهم القديم . اما الرابطة فهي اشهر من ان نتناولها بالبحث من جديد ، غير ان

---

١ — اذا ذكرنا في هذا الكتاب لفظتي «صهيونية» و « صهيوني » فانما نشير الى الصهيونية « السياسية » الا ان نميز الاشارة تمييزاً فارقاً .

الشيء الذي نريد ان نؤكده نظراً لشيوع افكار خاطئة بين الناس – هو ان العلاقة التاريخية ليست بالضرورة مرادفةً لحق التملك ، وبخاصة حين تكون العلاقة التاريخية متصلة ببلاد مأهولة بالسكان ، ولسكانها بها علاقة تاريخية قديمة ايضاً ، ولهم ايضاً حقوق طبيعية ملازمة للتملك الفعلي الذي يمارسونه . ومنذ السبي البابلي ابداً ، ظلّ اليهود أقلية – وفي اكثر الاحيان أقلية صغيرة – في فلسطين ، يعيشون – بالاكثر – في البلدان المقدسة لديهم ولا يتمتعون بحقوق مميزة سوى الحقوق التي تتمتع بهـــا الأقليات الاخرى بين الحين والحين . وكان عددهم في نهاية الحرب لا يتجاوز ٥٥٠٠٠ نسمة اي أقل من ٨ ٪ من جميع السكان الذين يكوّن العرب ٩٠ ٪ منهم . وفي خلال القرون الثمانية عشر الحالية حافظ اليهود المقيمون في شتى الاصقاع على صلة بعيدة حية مع البلاد المقدسة كانت مثلاً مؤثراً حياً على الإيمان والتفاني – كانت رابطة روح تقوّيها الآمال بالمنقذ المنتظر ، ولا علاقة لها بالأماني السياسية ، فهي شبيهة بالرابطة التي تربط المسلمين بمكة والمدينة ، وتربط الكاثوليك بمدينة الفاتيكان ، وهي مثلها ايضاً في انهـــا لا ترغب في السيادة وفي حق التملك وفي الافضلية الاقتصادية وفي غير ذلك من « الحقوق » التي كان الصهيونيون اول من أدّعاها باسمها .

ولا تستند دعوى الصهيونيين الى تلك الرابطة القديمة فحسب بل تعتمد على المساعدة التي قدمها اليهود لقضية الحلفاء في الحرب وعلى الوعود التي بذلت لهم لقاء ذلك . وقد ذاعت بعض التقارير عن بعض ضروب المعونة اليهودية ثم ظهر اليوم انها كانت باطلة لا اساس لها . كما ان هناك مساعدات اخرى أثبت الفحص انها خدمات قام بها الرعايا اليهود للبلاد التي ينتمون اليها . ومع ذلك فمن الثابت ان الحلفاء تلقوا معونات يهودية هامة ولعلهم لم يكونوا ليحصلوا عليهـــا لولا وعد بلفور ، وانّ زعم اليهود بأنهم يستحقون العرفان بالجميل من الحلفـــاء

امر له ما يسوغه . ويجب ان نتذكر ان الوعود - وهي التي يتضمنها تصريح بلفور - قد لقيت قبل إصدارها استحسان رئيس الولايات المتحدة وتصديقه ثم أيدتها الدول المتحالفة من بعد [1] . ولذلك فان وعد بلفور اكتسب مصادقة إضافية عن طريق اعتراف دولي واسع . غير انه لا يفي بمطامح اليهود في إنشاء « دولة يهودية قومية » وانما يضمن حسن نية بريطانية ومساعدتها نحو إنشاء « وطن قومي » في فلسطين . وهو يتقصى المطامح اليهودية من أطرافها ايضاً لأنه يشترط ان يكون إنشاء وطن قومي لليهود مشروطاً بالتزامين : ضمان الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود بفلسطين ، وضمان الحقوق والوضع السياسي لليهود أنفسهم في البلاد الاخرى .

وعلى حسب ما تقدم ان مطالبة اليهود بالحقوق السياسية والافضلية الاقتصادية في فلسطين لا تقوم على اساس مادي قوي حين تتخذ الرابطة التاريخية - بين اليهود والبلاد المقدسة - اساساً لها . ولكنها حين تستند الى وعد بلفور فان لها ما يبررها الى الحد الذي يسمح بـه التحفظان المذكوران . ومن سوء حظ الصهيونية - وها هنا تكمن المأساة في المشكلة الفلسطينية - ان وعد بريطانية العظمى يفتقر الى المشروعية والصحة ، اولاً : لأنها ارتبطت قبله بالاعتراف باستقلال العرب في فلسطين ، ثانياً : لأن الوعد يتضمن التزاماً لا تستطيع إنجـازه دون رضى عرب فلسطين وموافقتهم .

وبدا كأنما العرب قد اعطوا موافقتهم بعد زيارة القائد هوجارث

---

١ - ان موافقة ايطالية تلفت الانتباه - بوجه خاص - لانها تضع هذه العبارة « الحقوق القضائية والسياسية » محل « الحقوق المدنية والدينية » في ذلك الجزء من وعد بلفور الذي ينص على ضمان الحقوق للهيئات غير اليهودية بفلسطين ويبدو كما لو ان الحكومة الايطالية قد عرفت او خمنت ان العرب لن يتنازلوا عن حقوقهم السياسية ، كذلك فان هذا التبديل في الالفاظ ذو مغزى هام اذ تم بايعاز من سياسي يهودي هو بارون سونينو الذي كان وزيراً للخارجية الايطالية أيار (مايو) ١٩١٨ .

للملك حسين في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ ؛ ولكنهم حين تحققوا ان الضمانات التي حملها هوجارث لم تكن مرعيّة ، وان هجرة اليهود الى فلسطين لم تكن محض عمل إنساني ، وان احد اغراض تلك الهجرة – كما صرحت بذلك التصريحات الصهيونية وضروب النشاط الصهيوني – هو إيجاد اغلبية يهودية في البلاد وبالتالي إيجاد دولة يهودية في فلسطين عن طريق اصوات الاغلبية – عندما تحقق العرب كل ذلك تلاشى كل أمل في الحصول على موافقتهم . ولم تكن مخاوفهم واهية لأننا يجب ان نتذكر ان الصهيونيين ، وان تظاهروا بأنهم قانعون بـ « الوطن القومي » حسبما نصّ عليه وعد بلفور ؛ لم يتخلوا ابداً عن هدفهم الاعلى وهو إيجاد « الدولة اليهودية » ، غير أنهم قبلوا الوعد على مبدأ « عصفور باليد » ، وهم يأملون أنهم بالجهد والضغط المتواصلين الدائبين سيستطيعون مدّ حدود الوطن القومي الى أقصاها وتضخيم ما يحتاجه من قوة بحيث يتحول – حداً وقوة – الى دولة قومية . ثم لم يتكتموا هذا الذي ينتوون تحقيقه ، فقد قال الدكتور وايزمن بصراحة ، غير ما مرة ، بعد وعد بلفور : ان الصهيونية تهدف الى ان تجعل فلسطين « يهودية مثلما ان امريكة امريكية وانجلترة انجليزية » .

في فصل سابق [١] حللت بايجاز الدوافع التي اضطرت الحكومة البريطانية لاصدار وعد بلفور . وكان الدافع الحاسم فيها رغبتها في ان تحتلّ فلسطين لاسباب استراتيجية ؛ وخضوعاً لذلك الدافع أعطت للصهيونيين وعوداً لو أنها تبينت الموقف على حقيقته فربما ترددت في إعطائها . وليس من النادر ان يكون الجهل عاملاً في المشكلات الدولية بل هو مصدرها احياناً . اما التهمة التي يوجهها العرب الى الحكومة

١ – انظر الفصل ١٣ ، الفقرة : ٧ فيما سبق .

البريطانية، وهي انها طوال معاملتها لهم ارتكبت خيانة واعية وهي متعمدة لما تعمل عارفة بكل ما تأتيه فانها تهمة ليس لها ما يسندها ، لانها لا تقدر ان بعض القرارات التي تتسلل لتوجه سياسة ما قد تجيء احياناً مبنية على معلومات خاطئة ، وانها تكون وليدة المصادفة والارتجال ، وبخاصة في ايام الحرب ، وبخاصة حين تتصل بشئون قد تتبدى ذات شأن ثانوي لدى رئيس وزارة في دولة عظيمة منهمكة في الدفاع عن كيانها ووجودها . غير ان هـذا المنطق لا يعفي حكومة المستر لويد جورج من اللوم إذ ليس ثمة ما يسوغ الرسالة التي أمر القائد هوجارث بحملها الى الملك حسين في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ حول الضمانات المتعلقة بوعد بلفور ، وليس ثمة ما هو أشد من تلك الرسالة نفاقاً وتغريراً ، كما انه ليس ثمة ما يسوغ الرسالة الاخرى التي ارسلت اليه بعد شهر موقعة بامضاء وزير الخارجية لتخدعه فيعتقد ان اتفاقية سايكس – بيكو ليست سوى اختلاق نسج خيوطه الخيـال التركي البلشفي . وحين تتنزل بلاد عظيمة ذات تقاليد ركينة في حسن المعاملة والحنكة السياسية الى مستوى الخداع « الحميدي » ، فانه من اللائق بالعرب ان يتذكروا ان الحرب والعدالة لا يصطحبان ، وعليهم ان يحاولوا فهم ما يبدو لهم خداعاً متعمداً ولا يكتفوا بالحمل عليه والتنديد به . ولا ريب في ان الحكومة البريطانية او – على الاقل – كثيراً من اعضاء الوزارة – لم يتبينوا – حين كان وعد بلفور محط النظر – قوة حق العرب في فلسطين ولا كم كانت الارض الميسورة للفلاحة لدى سكانها الريفيين ضرورية لهم من اجل بقائهم ونموهم الطبيعي . ولا بد ان مثل تلك الامور تبدت لاذهانهم المتزعجة في السنة الثالثة من الحرب – أي أشد أعوامها دقة وحرجاً – اموراً يصح إرجاؤها وإهمالها إن لم نقل أموراً غير ذات أهمية . وآخرون لا يدركون طبيعة القوى التي تسند زعامة الشريف حسين استخفوا بدعواه ووثقوا من انه لن يكون

عسيراً عليهم ، حين يحين الوقت المناسب ، إسكات ذلك الشيخ المضحك في مكة – او كما قـد يقول السير مارك سايكس : « ذلك القرد العجوز » – ببضع عبارات منمقة قوية في آن ، مشفوعة بملء كيس او كيسين من الذهب لإنجاز الصفقة . فاذا تذكرتَ كل هذا وتذكرت الفوضى التي تنشأ عن كثرة الدوائر المسئولة (وزارة الخارجية – المكتب الهندي – مكتب الحرب – الحربية – المكتب العربي بالقاهرة – الدائرة الخارجية في دلهي) وهي التي تعالج مباشرة توجيه السياسة العربية ، لم تكد تصيبك الدهشة ان قيل لك : ان اليد البريطانية اليمنى كانت احياناً تجهل جهلاً تاماً ما فعلته اليد اليسرى ، او ما كانت توشك ان تفعله ، وانه لذلك حدثت اخطاء خطيرة .

وليس في الامكان – فيما يبدو – ان يدافع احـدٌ عن السياسة البريطانية في الفترة التي تلت الحرب ، أي حين تجلى للعيان ان التوفيق بين وعودها للعرب ووعودها لليهود أمر محـال ، حين اتضح ان الصهيونين يسعون حثيثاً الى إيجاد اغلبية يهودية ، وانهم يستغلون وعد بلفور وسيلة ، ويتخذون من كلمة « الوطن القومي » حجاباً يخفون به إنشاء الدولة اليهودية ، حين اتضح ان العرب عازمون على حماية وجودهم ليظلوا اغلبية من اجل ان يبقوا في اراضيهم ، حين لم يبق شك في ان المشكلة في اساسها هي ان شعباً طامحاً اجنبياً يهدف الى طرد شعب مستقر في وطنه من ارضه واملاكه . ويدلّ التاريخ على ان مثل هذا النزاع حين يجري ويتطور لا تحسمه إلا الدمـاء ؛ ولو فرضنا ان الحكومة البريطانية شاءت – لهذا السبب او ذاك – ان تغمض عينيها عن دلالات التاريخ ففي السنوات الاولى من عهد الانتداب بفلسطين دلالات كافية تشير الى ما تتمخض عنه الايام . وليست هذه الدلالات قاصرة عـلى التحذيرات التي وردت في تقرير لجنة كنج – كرين ، وهو تقرير نافذ دقيق ، ولا على التحذيرات التي صدرت من مصادر اخرى – واكثرها

بريطاني - وانما هي تستمد ايضاً من الفصول الافتتاحية في تلك المأساة نفسها . فقد رأت الحكومة البريطانية ان الاستيطان الصهيوني معناه محو القرى محواً كاملاً واجلاء فلاّحيها ، وان كلّ الأموال التي جلبها الصهيونيون وما نجم من رخاء - ان يكن ثمة رخاء حقاً - لم تعوّض الفلاح العربي عما يعدّه عزيزاً مقدساً في محيطه القروي ، وان الفلاحين كانوا عُزلاً لا حامي لهم امام انتزاع الملك منهم وامام الضغط العنيف العارم الذي صبغ بالصبغة القانونية لدى انتزاع املاكهم ، وان الشعور بالعجز امام التوسع المصمّم الذي يقوم به الاستيطان اليهودي قد ادى بوضوح الى انفجارات لم يعدّ لها العدة الكافية شعبٌ يجنح الى السلم بطبيعته ويكرم الغرباء ، وهي انفجارات كفيلة - اذا استمرت - باحداث خسائر في الانفس والاملاك لا يعلم الا الله مقدارها . وقد تعلمت الحكومة البريطانية من التجارب الواقعية ان السياسة التي تنفذها بالقوة الخالصة سياسة تلد « عنابر » من المتفجرات ، وان كانت نغمة التفاؤل تلوح على الخطب الوزارية والتقارير الرسمية .

رأت الحكومة البريطانية كل ذلك وظلت في ظاهرها جامدة لا تتحرك ، وليس من السهل ان يستكنه المرء الدوافع الخفية في موقفها - أتراها قد التزمت للصهيونيين باكثر مما تستطيع التصريح به فهي منقادة لضغطهم؟ أتراها تعتقد ان الدولة اليهودية ستكون حليفاً لبريطانية أقوى وأوثق من دولة عربية في تلك الزاوية الهامة من العالم؟ أتراها لا تهتم الا بأن تحتفظ لنفسها بالسيادة الحربية والاقتصادية المطلقة في فلسطين أطولَ مدة ممكنة؟ إن الشواهد المتيسرة لدينا لا تلقي ضوءاً كافياً على حقيقة الدوافع الخفية في موقفها ، وهو موقف لا يستطاع تفسيره عقلياً أو سيكولوجياً . وانما قد يفسّر تاريخياً بأن يقاس على ارلندة ، حيث ثابرت الحكومة البريطانية بعناد مماثل على سياسة غير مرغوب فيها ، وأغمضت عينيها عن ان تقرأ الدلالات السافرة الصريحة ، وظلّت مصرة على عنادها وتغميضها

حتى فقدت ارلندة . واليوم وقد خطت السياسة البريطانية خطوات لا تحتاج متكهناً ينبيء بنتائجها ، خطوات حولت فلسطين الى مجزرة ، لا تبدي الحكومة أي دليل يدلّ على فيئتها الى التعقل ، أي الى مبادىء الذوق السليم والعدالة — وهي المبادىء التي يمجدها الانجليز ويحلّونهـا المكانة السامية .

١١

وعندما عينت لجنة ملكية للتحقيق في صيف عام ١٩٣٦ انتعشت الآمال بأن الاستطلاع الشامل سيتم وان الحقائق ستنجلي . وسرعان ما خابت تلك الآمال لان التقرير الذي ظهر في تموز (يولية) سنة ١٩٣٧ عرضٌ ناقص ، وان كان من وجوه عدة متقناً بارعاً . ومما يقلل من قيمته بعض الشيء ، من حيث كونه إجمالاً رسمياً للمشكلة ، عَجْزُ اعضاء اللجنة عن الاحتفاظ بمستوى واحد من العمق وهم يبحثون أصول المشكلة .

وللتقرير بعض حسنات بارزة فهو يحوي معلومات قيمة لم تظهر من قبل في اي منشور رسمي . وهو يخدم الحقيقة خدمة جلّى اذ يعرض بعض المغالطات التي أقامت حكومات بريطانية متعاقبة عليها أعمالها وتصريحاتها منذ ابتداء الانتداب . ومع ان كاتبي التقرير بالغوا في الحيطة لكي لا يعكروا صفاء المسئولين الرسميين فان الانتقادات التي وجهوها تبلغ حدّ الادانة الخطيرة التي يستأهلها اولئك المسئولون . اما تحليله للسياسة التي ظلت تتبع في تنفيذ الانتداب فانه تحليل دقيق مبسوط يكشف عن ان الانتداب حسب مفهومه كان معطلاً وان السياسة المتبعة في تنفيذه كانت محض اخفاق في التنائج — حقيقتان لا يستطيع احد انكارهما يعرفهما كل مراقب مستقل التفكير في فلسطين ، ومع ذلك فقد حجبتا عن العـــالم الخارجي خلف ستار كثيف من الاساطير والدعايات . فالتقرير يعد —

الى هذا الحـــد – خطوة الى الامام نحو وضع الحق في نصابه ، وهو يفضح كذب تلك التصريحات العديدة التي اكّد فيها رؤساء الوزارات والوزراء في عدة مناسبات بين عامي ١٩١٨ – ١٩٣٧ ان سياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لا تتعارض والتعهدات المقطوعة للعرب .

ومع ذلك فان اعضاء اللجنـــة اضاعوا فرصتهم الفذة من وجهات أخرى ، فقد سمحوا لحكمهم ان يتأثر بالمهارة والاتقان اللذين يلابسان عرض القضية الصهيونية دائماً – مثلما يفعل اعضاء « لجنة الانتدابات الدائمة » – واغفلوا ، لاشعورياً ، واجباً ملقىً عليهم في التحقيق ، وهو ان يستقصوا في اختبار مطالب العرب استقصاء شاملاً كاملاً لأن العرب غير مزودين بوسائل للعرض كالتي لدى الصهيونيين . ولكن التقرير في الواقع يدل على ان اعضاء اللجنة عملوا الضدّ من ذلك تماماً في فحصهم عن مظالم العرب السياسية والاقتصادية وعن الاصول التاريخية التي نبتت فيها تلك المظالم .

ويعزى الخطأ في هذه الناحية – لحدّ ما – الى مقاطعة العرب للجنة ، وهي مقاطعة لم تنته الا قبل بضعة ايام من مغادرة اللجنة الملكية لفلسطين . وظل اعضاء اللجنة الى ان انتهت المقاطعة – اي حوالي سبعة اسابيع او ثمانية – يستمعون الى شهادات البريطانيين واليهود . فلما انحلّت عقدة المقاطعة لم يجدوا في إمكانهم ان يخصصوا لسماع الشهاذات العربية اكثر من خمسة ايام ، ولا يلومنّ العرب على ذلك الا انفسهم ؛ ولكن تبقى الحقيقة ماثلةً وهي : ان اعضاء اللجنة لم يستمعوا الا الى جزء من الحجج التي كان يمكن للعرب ان يدلوا بها . وكان عدد الشهود العرب الذين مثلوا امام اللجنة حوالي ١٢ في مقابل مائة من الشهود البريطانيين واليهود . لذلك فان جزءاً هاماً من الشهادات العربية تأدّى اليهم بطريق الترجمة ، واحياناً بطريق الترجمة الخاطئة . واذا قال اعضاء اللجنـــة انهم لم يجدوا في امكانهم ان يطيلوا مكثهم في فلسطين فمعنى هذه الحقيقة

انهم حرموا من الوقت اللازم لكي يسبروا غور الشهادات العربية بالصبر والدقة اللذين خصصوهما لفحص الشهادات البريطانية واليهودية .

ولا نجد ما نفسر به نقص البحث الذي بذله الاعضاء في الاصول التاريخية فهم يتعمقون مسألة الالتزامات التي يشملها وعد بلفور ولكنهم يتركون بحثهم عن الالتزامات المعقودة للعرب ناقصاً عن عمد . ويقتبسون بعض الأجزاء التي تناسب بحثهم من بعض مراسلات مكماهون (لا كلّها) ويحللونها ، غير انهم لا يذكرون شيئاً عن العهد الذي قطع للشريف حسين في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ حول مدى وعد بلفور . ولا يشيرون أدنى اشارة الى « التصريح للسبعة » الذي تم في حزيران (يونية) عام ١٩١٨ ، ويميزون بالتنويه اتفاقية فيصل – وايزمن الا انهم لا يذكرون التحفظات التي اعتمد عليها فيصل ليضمن للعرب الحرية السياسية والاقتصادية . وهم يعبرون عن السبب الذي منعهم من التعمق والتبسط في الاصول التاريخية بقولهم :

« لم نعتقد ان حدود مهمتنا تتطلب منا ان نقوم ببحث تفصيلي طويل في وثائق السنوات العشرين الماضية التي قد يحتاجها من يريد ان يعيد الفحص في هذه المسألة كاملاً . ولكنا نعتقد انه يكفينا لتحقيق اغراض هذا التقرير ان نقول : ان الحكومة البريطانية لم تقبل رأي العرب في هذه القضية » .

وهذا تفسير محيّر حقاً . لأن عدم قبول الحكومة البريطانية لقضية العرب هو السبب الكامن وراء تلك الاضطرابات التي عينت اللجنة الملكية من اجل التحقيق فيها . هذه واحدة ، اما الثانية فان اللجنة الملكية لم تثبت على خطة واحدة في فحص الوثائق – وهو موقف يصعب تفسيره – فهي لا تتوانى عن البحث في بعض وثائق السنوات العشرين ثم تغفل وثائق اخرى ليست اقل قيمة من الأولى إغفالاً متعمداً . وبيان ذلك انها قالت بعد فقرات كثيرة في تقريرها :

« وعلينا الآن ان ننظر فيما يعنيه وعد بلفور . فقد أذن لنا في فحص السجلات ذات الصلة بهذه المسألة ... »

لِمَ عمد اعضاء اللجنة الى فحص السجلات المتصلة بوعد بلفور ثم احسوا ان فحص الوثائق المتصلة بالوعود المقطوعة للعرب امر واقع خارج مهمتهم ؟ هذا شيء غير واضح .

وليس عدم التسوية بين الحالين ذا اهمية اكاديمية فحسب بل هو يقلل من قيمة بحث اللجنة ويفسد ايضاً استنتاجاتها الاساسية . ولما لم يبلغ اعضاء اللجنة ببحثهم الى حدوده الصحيحة وجدوا انفسهم منقادين الى القول بان حقوق الصهيونيين وحقوق العرب في فلسطين متساوية ، وتبنوا هذا الرأي فرجحوا بهذا التأييد دعوىً قائلةً ان تدبّرتها تاريخياً، وجدتها مختلقةً وهميةً — ان انت اعتبرتَ الحقوق الطبيعية . ولما اعتبروا هذه الدعوى صحيحة بنوا اقتراحاتهم عليها لحلّ المشكلة .

ويعتمد الحلّ الذي اقترحته اللجنة الملكية على الحجة الآتية : ما دامت لدى العرب واليهود حقوق متساوية لامتلاك فلسطين اذن فيجب ان تقسم البلاد بينهما . اما التقسيم فيتمّ حسبما رسمته اللجنة في « مشروع التقسيم » الذي ختمت به التقرير . وقد اوصى اعضاء اللجنة بأن قسماً من فلسطين غربي الأردن ، اكبر بكثير من المساحة التي استوطنها اليهود حتى اليوم ، يفصل عن سائر البلاد ويجعل دولة يهودية ، وان تخلق منـاطق من انتداب بريطاني دائم حول مدن القدس وبيت لحم والناصرة ، والغرض الظاهر من هذا حماية الاماكن المقدسة فيها . وان يضم الجزء الباقي الى شرق الاردن لتكوين دولة عربية . ويعترف بالدولة العربية والدولة اليهودية كيانين قوميين مستقلين ذوي سيادة لهما الحق في عضوية عصبة الأمم ، وتربطهما ببريطانية العظمى معاهدات تحالف بدلاً من الانتداب ، اما المنطقة البريطانية فيصاغ من اجلها انتداب جديد .

ان اظهر صفة في مشروع التقسيم انه يعقّد المشكلة التي ينوي حلّها ،

فهو يرسمُ تحويل الوطن القومي اليهودي المقترح الى دولة يهودية ، وبسطَ منطقةِ الاستيطان اليهودية الحالية الى منطقة تبلغ اضعافهـا في المساحة ، وهي تحوي حوالي ٣٠٠٠٠٠ من السكان العرب المستقرين ، وفيها ستكون السلطة العليا لليهود . بعبارة اخرى : ان مشروع التقسيم يواجه اعتراضات العرب على وعد بلفور بالتوصية على ان يعطى الصهيونيون مساحة اكبر بكثير من التي وُعدوها في اوسع تفسير ممكن لذلك الوعد ، وهو يواجه الصعوبات الناشئة عن اجلاء السكان العرب بالتوصية على اجلاء عدد اكبر منهم على نطاق اوسع .

ولكي يسند اعضاء اللجنة مشروعهم ادلوا بحجج فصيحة تثني بالخير على اهتمامهم الانساني بايجاد حلٍّ للمشكلة اكثر مما تشهد على نفاذ بصائرهم او ادراكهم العملي . وهم يزعمون ان المشروع انما اختط ليفي بثلاثة متطلبات رئيسية : « ان يكون عملياً — ان يتفق والتزاماتنا — ان ينصف العرب واليهود » . ومن الواضح ان المشروع لا يحقق واحداً من هذه الثلاثة : فهو ليس عملياً ، ولا يتفق والتزامات بريطانية العظمى ، ولا ينصف العرب واليهود بالتساوي .

وربما صحَّ ان نعتقد بأن اعضاء اللجنة ربما رسموا المشروع على عجلٍ لانك لو قارنت بين الجزء الخاص بالمشروع وسائر التقرير لوجدت على الاول سيما التسرع والارتجال ووجدت في الثاني سمات التفكير العميق . ومما يقوّي الاعتقاد بانه وليد اعداد ناقص ما يحويه من اخطاء ومتناقضات . ومن المحتمل ان اعضاء اللجنة لم يتوجهوا بافكارهم نحو التقسيم نهائياً الا في مرحلة متـأخرة من اعداد التقرير ، وانهم لم يقوموا بذلك الا حين تلقّوا شهادات جديدة ادت بهم الى الاعتقاد بأن مثل ذلك المشروع الذي يعزمون على وضعه قد يجد قبولاً لدى بعض زعمـاء العرب والصهيونيين ، وانه قد يجد الفرصة السانحة لكي يكون مقبولاً بعامّة . فاذا صحَّ هذا الاستدلال فانه قد يفسر ما يظل لولاه غير مفهوم ،

أعني اعتقاد اعضاء اللجنة ان التقسيم يقدّم أملاً بحلول السلم في ربوع فلسطين .

ويبدو ان الضعف في مشروع اللجنة الملكية قد يعزى في المقام الاول الى الخلط بين ما هو مرغوب فيه وما هو عادل وعملي . فمن المرغوب فيه ايجاد مكان لتخليص اكبر عدد ممكن من اليهود من قبضة الاضطهاد البغيض الذي يتعرض له اولئك اليهود اليوم في أوروبة الوسطى ، بل ان هذا امرٌ يعد ضربة لازب . وعلى عاتق اعضاء اللجنة واجب يحتم عليهم ان يبذلوا كل ما في وسعهم لانقاذ اليهودية المعذبة ، وهذا هو واجب كلّ انسان . ويدلّ التقرير ، وهذا من حسناته الخالدة ، ان واضعيه كانوا على وعي حادّ بذلك الواجب ، غير انهم اذنبوا في حق هذا الواجب عندما نسّقوا تقريراً غير عادل وغير عملي .

وينبني التقرير على شفا اسس متداعية منها الأمل في ان يتخلى العرب ، او ان يحملوا على التخلي ، عن حقوقهم الطبيعية والسياسية في اي جزء من فلسطين ، ومنها ان ترسم الحدود متحدّية كل التضاريس الطبيعية وكل ما لدى الناس من عادات في العلاقات الانسانية تأصلت فيهم ، ومنها الاعتقاد بأن التجـارة والحكومة الصالحة قد تزدهران في بلاد صغيرة ليست اكبر من ويلز بعد تجزئتها في حوالي ست وحدات مؤلفة من دول منفصلة وعمالات مغلقة وممرّات ، ومنها الظن بأن سكاناً مستقرين عددهم ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، ارتبطوا بقوة الى بيوتهم وحضارتهم ، قـد يقبلون بأحد الحلّين اللذين تقترحها اللجنة الملكية وهما الاجلاء بالقوة او الخضوع لدولة يهودية تقام فوق رؤوسهم . مثل هذا التقرير القائم على هذه الاسس المنهـارة يناقض الدروس المستمدة من التاريخ والمتطلبات التي تفترضها الجغرافيا والحرية الطبيعية للقوى الاقتصادية والقواعد المألوفة في السلوك الانساني . وهو يبرز – من جديد – بعضاً من ابشع الملامح واخطرها في معاهدة فرساي ، ولا يعير مبدأ « موافقة المحكومين » اهتماماً .

وحين رسمه اعضاء اللجنة تناسوا ان طرد الفلاحين من اراضيهم او فرض حكومة اجنبية على شعب لا يرتضيها ، كلاهما لا يمكن تنفيذه الا باللجوء المستمر الى القوة ، وان استعمال القوة المستبدة لاسكات شعب واعٍ بقوميته قد يحقق غايته المباشرة فترة من الزمن ولكنه محتوم عليه ان يحطم غاياته نفسها عاجلاً او آجلاً .

وقد نستطيع الحكم على الاعتراضات الاخلاقية والسياسية القائمة في وجه المشروع على ضوء ما تقدم في فصول هذا الكتاب . ولا يمكن ان يقال فيه – مهما نتطلل بضروب من التجوز – انه مطابق للالتزامات التي قطعتها بريطانية العظمى اذا فحصت الالتزامات جملة ، بالنظر لكل الوثائق والسجلات المتصلة بالموضوع لا باختيار جزء منها دون جزء كما فعلت اللجنة الملكية . وليس ثمة ما يسوغ الدعوى بأن هذا المشروع انصف العرب واليهود . وقد وردت هذه الدعوى في الصفحات الختامية من التقرير واحيطت بكمية وفيرة من الحجج ومن البيان الذليق ، للقول بأن الاعضاء اهتدوا في مشروعهم بروح التوفيق وعملوا بمقتضاها ، فاذا فحصت ما كتبوه في هذا المجال وجدته يقوم على المحسنات اللفظية لا على أساس ماديّ محسوس . ذلك لأن المشروع – من الناحية المحسوسة – يقدم لليهود قسطاً اكبر مما جرت به الوعود ويقدم للعرب قسطاً أقلّ مما وعدوه ، فالتذرع بروح التوفيق معناه في الواقع توجيه الطلب الى العرب ليخرجوا ويفسحوا المجال لدولة يهودية . ولو ان اعضاء اللجنة قدموا مشروعاً استلهموا فيه روح التوفيق الحق لكانت الارض تحت اقدامهم اثبت وأصلب ، أعني كان عليهم ان يبنوا مشروعهم على اساس من تضحيات متكافئة يقدمها الفرقاء الثلاثة المعنيّون . غير ان مشروع التقسيم تطلّب اموراً من كل فريق مختلفةً عمّا تطلبه من الآخر – تطلب من العرب تضحية حقيقية مادية بشيء يملكونه ويريدون الاحتفاظ به ، وتطلب من الصهيونيين تضحية اسمية بشيء ليس لديهم وانما يريدون

ان يمتلكوه ، ولم يتطلب من دولة الانتداب اية تضحية ابداً ، اذ ان المشروع خطط على نحو يسمح لبريطانية العظمى ان تحتفظ بمركزها الاستراتيجي والاقتصادي ، ويمكن الصهيونيين من ان يصبحوا مطلقي السيادة في غرب فلسطين وشمالها ، وأن يحقق الفريقان هذا كله على حساب العرب .

اما سلسلة العقبات الاخلاقية والسياسية والعمليــة في وجه المشروع فانها سلسلة مخيفة مهولة وتجعل منه مشروعاً لا يمكن تطبيقه . ولا حاجة بنا الى مزيد من الاسهاب في تحليله ويكفي ان نقول انه غير قابل للتنفيذ . أما اعمال اللجنة الفنية * التي عينت في ربيع عام ١٩٣٨ لدراسة الطرق والوسائل لتطبيقه فانها لم تتم بعد . وقد قضى اعضاء اللجنة ثلاثة اشهر في فلسطين حين كانت الثورة ضد التقسيم في ذروتها ، ومع انهم حرموا بسبب المقاطعة من سماع شهادات العرب فمن المحتمل أنهم ادركوا بالمشاهدة رفض الفلاحين العرب ان يجتثوا من منابتهم وينتزعوا من اراضيهم وأدركوا ان ذلك شيء اصيل عميق في نفوسهم .

١٢

ومن اشد الأفكار الخاطئة شيوعاً القول بأن الاضطرابات في فلسطين نتيجة إثارة مدبّرة تعزى احياناً الى مؤامرات طبقات الافندية ، او الى المطامع السياسية لدى المفتي الاكبر ، او الى عمـــلاء ايطالية والمانيـــة ومعونانهم ، او الى التدابير الشيوعية . وكثيراً ما قال قائلون — وكثيراً ما صدر قولهم عن ايمان مطمئن — : لو ان الجماهير العربية خُلّيت دون تضليل لتقطف الثمرات التي أدناها الانتداب اليها لما كانت هناك اضطرابات. غير ان العمى الذي يحيط بهذا الرأي قد اصبح اليوم مشهوداً ؛ كذلك قالوا في تفسير الانفجارات السابقة ، ولكن بعد تحقيق تقوم به

* هي التي تسمى لجنة وود هيد ، ويتبين من تقريرها ان التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل غير عملي للصعوبات الاقتصادية والادارية والسياسية . — المترجم —

هذه او تلك من اللجان التي تعينها الدولة المنتدبة كانوا يجدون الاسباب الكامنة مستقرة دائماً في تعلق العرب العميق بأرضهم وحضارتهم . والثورة اليوم ، الى حد ابعد من كل ما تمثل في كل ثورة سابقة ، انما هي ثورة الفلاحين ، وسببها المباشر هو مشروع التقسيم المقترح ، وعلى وجه الخصوص ذلك المظهر منه الذي يرمي الى اجلاء عدد كبير من الفلاحين العرب لكي يفسحوا المجال لمهاجرين سيصبحون مواطنين في الدولة اليهودية المقترحة . فالقوى المحركة للثورة ليست هي الزعماء الوطنيين واكثرهم اليوم في المنفى ، وانما رجال من طبقات العمال والمزارعين يخاطرون بحياتهم فيما يعتقدون انه الطريق الوحيد الذي بقي امامهم لتسلم لهم بيوتهم وقراهم . ومن الوهم الخادع ان نعدّ الثورة من عمل الايدي المثيرة ، عربية كانت او اجنبية ، ذلك لأن التحريض السياسي يستطيع ان ينجح كثيراً في اشعال نار الاستياء والنقمة ، ولكنه لا يستطيع ان يبقي ثورة من الثورات حية شهراً إثر شهر ، في مثل هذه الظروف التي يعانيها الثائرون من عنف القامعين وشظف الحياة وضرّائها .

ليست الثورة من تدبير الزعماء بل إنها — من نحو ظاهر — تحدّ لسلطانهم واتهام لأساليبهم . وآية ذلك ان قادة الثوار يضعون اللوم في الورطة الراهنة التي نشب فيها الريفيون على عاتق الملاكين العرب الذين باعوا اراضيهم . وهم يتهمون الزعماء بالاهمال الجاني لأنهم عجزوا عن ان يوقفوا تلك البيوع . ولم يشارك الفلاحون بشيء في الاغلبية العظمى من تلك الصفقات التي ادت الى اجبارهم على إخلاء الارض ، ذلك لان مالك الارض الذي يحوز « ورقة الطابو » يتصرف بالارض على هواه ، ومن شروط تلك المبايعات ان يتسلم المشتري الارض خلواً من المقيمين فيها او من حقوقهم في التملك . وأكثر العاملين في الثورة إنما هم من الفلاحين ، اي من اولئك الناس الذين ترتبط حياتهم ومعاشهم بالارض دون ان يكون لهم رأيٌ في التصرف بها ، وإنما غضبهم وعنفهم موجهان الى الملاك والسماسرة العرب الذين سهلوا اعمال

البيع مثلما انهما موجهان ضد سياسة الدولة المنتدبة التي تمت صفقات البيع في ظلها وتحت رعايتها . وإذ كان بعض اولئك الملاك قد اشتركوا في هيئات وطنية عربية فهذا نفسه قد زاد الفلاحين الثائرين مقتاً لهم ، وجعلهم اقل انقياداً لنفوذ الزعماء السياسيين جملة .

وثمة فكرة اخرى خاطئة خطيرة في حظها من الخطأ ، تتصل بالنتائج الاقتصادية لما قام به الصهيونيون من اعمال ومشروعات .. وقد ذاع الاعتقاد بأن العرب افادوا منها كثيراً ، وأصابت الحيرة الصادقة نفوس كثير من الناس المفكرين ، لانهم يرون في هذا نكراناً للجميل من جانب العرب وعجزاً ملتوياً عن ان يدركوا قيمة المنافع المقبلة التي ستنهال عليهم اذا استمر مرير تلك الاعمال والمشروعات . ويزداد هذا الامر إثارة للحيرة حين يرى الناظرون ان انشاء ادارة بريطانية قد تمخض عن تحسن ملحوظ في حكومة البلاد وفي النصيب المادي الذي ناله السكان العرب.

وتفسير هذا ذو شقين : أولهما أننا نقر حقاً بأن رأس المال اليهودي ومنشآت اليهود قد اسهمت الى حد كبير في تطور البلاد اقتصادياً ، وأدت الى اثراء عدد من الملاك العرب ، والى رفع اجور العمال العرب ، ولكنها في الوقت نفسه خلقت حاجات جديدة وأعباء جديدة ، ذلك لان الخدمات المدنية التي اوجدتها سياسة الانتداب مثل الاجراءات الخاصة بشئون الامن العام ، وازدواجية الوظائف التي اصبحت ضرورية منذ فرضت اللغة العبرية لغة رسمية ، وتضخم قوائم الاجور في العقود العامة لا لشيء الا لإيجاد عمل للعمال اليهود — كل هذه قد استتبعت ضرورة إنشاء هيئات وظائفية كبيرة كثيرة التكاليف في بلد صغير المساحة ، وتخصيص حصة كبيرة من الميزانية للصرف في وجهات غير مثمرة . وأدى إنشاء صناعات يهودية ، وبخاصة ما كان منها مجتلباً لاعتماده على المواد الخام المستوردة من الخارج ، أدى الى فرض رسوم جمركية لحماية

تلك الصناعات ، والى ارتفاع في اسعار المستهلكات . وللزيادة السريعة في عدد السكان ، ارتفعت تكاليف الحياة في كل مكان ، اي في القرى والمدن على السواء ارتفاعاً شاذاً . ولما لم تكن لدينا معلومات احصائية فمن المستحيل علينا ان نقرر الى اي حد توازنت المنافع الاقتصادية مع الاعباء المقابلة لها . ولكن من الحقائق التي لا ينكرها احد — وان كانت تواجه بالاغفال عموماً — ان الموقف الاقتصادي للسكان العرب جملة ، وبخاصة اهل القرى ، ظل حيث كان لم يكد يتحسن او يسوء عما كان عليه الحال في مدى اجيال ، اللهم الا اذا استثنيت بعض الثراء الذي أصاب عدداً من الملاكين والسماسرة .

والشق الثاني ان الامور الاخلاقية والسياسية قد طغت على المظهر الاقتصادي وحجبت وجهه ، إذ لم تعد المشكلة اليوم في اساسها — لدى العرب — مسألة تحسن اقتصادي وإنما اصبحت مسألة بقاء . ولم تكن الحال كذلك من قبل دائماً ففي السنوات الأولى من الانتداب كان المصدر الاول لاستياء العرب هو حرمانهم من الاستقلال ، نعم كانت لديهم مخاوف من المستقبل وكانت تلك المخاوف من الاسباب الكامنة للانفجارات الاولى التي قاموا بها ، ولكن الاستيطان الصهيوني لم يكن قد خطا بعد خطوات واسعة ، وكانت مخاوف العرب معلقة بغاياته النهائية لا بنتائجه المحسوسة يومئذ . غير ان الامر تغير تغيراً عميقاً من يومئذ نتيجةً الطوفان العارم من الهجرة اليهودية والاستيطان ، وذلك بدأ سنة ١٩٣٢ وسبّب شيئين معاً : زيادة حادة في مخاوف العرب ورخاءً عاماً في البلاد . وقد اصبحت مخاوف العرب اليوم قائمة على اسس ملموسة اكثر من ذي قبل . واذا استأنسنا بنسبة عدد المهاجرين عام ١٩٣٥ صحّ ان نقول ان اليهود قد يصبحون اغلبية في مدى عشر سنين بعد ان كانوا في عام ١٩١٨ يشكلون ٨٪ من السكان . فلو سلّمنا بأن رأس المال اليهودي والمنشآت اليهودية قد جلبت فوائد مادية غير منقوصة بما

تولد من اعباء ، فإن مخاوف العرب لن تخف بهذا الرخاء المادي بل
ستكون تلك المخاوف هي العامل الاكبر في توجيه موقف العرب ،
وستؤدي حتماً الى مثل تلك الثورة التي قامت عام ١٩٣٦ ؛ غير ان
موقف العرب لم يبلغ حد الصلابة القصوى الا في عام ١٩٣٧ اي حين
عرف العرب ان اللجنة الملكية اوصت بالتقسيم ، وان الحكومة البريطانية
قد تبنت هذه التوصية في جوهرها . ومعنى ذلك ان تخوف العرب من
ان تنتزع منهم اراضيهم اصبح يقيناً حين وضعت اللجنة الملكية
مشروعها مقترحة ابقاء عدد كبير من السكان العرب في المنطقة المقترحة
لإنشاء دولة يهودية او اخراجهم من بيوتهم وقراهم . لهذا قلنا : ان
المشكلة اصبحت في نظر العرب مشكلة بقاء . وفي مثل هذا الموقف
تحتجب الاعتبارات الاقتصادية بطبيعة الحال ، اذ كيف يرى الرخاء من
هو مهدد في كل حين بعدم البقاء ؟

أما اعمال العنف التي انفجرت بعد ان ظهر تقرير اللجنة الملكية فانها
تسبب اضراراً للريف العربي كما تسبب مثلها لما تملكه اليهود ، وقد
اتخذت الاضطرابات طابع ثورة يقوم بها الفلاحون والعمال بالدور الاول ،
وهم قد لجأوا الى العنف ، في يأسهم ، لأنهم رأوا فيه الوسيلة الوحيدة
التي بقيت لهم لمقاومة التقسيم .

١٣

لا يرجى لقضية فلسطين حل دائم الا حتى يزال الظلم . اما العنف ،
سواء كان مادياً او معنوياً ، فانه لا يكفل حلاً . وهو في ذاته يستثير
اللوم كما يجعل التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود اصعب تحققاً على
مر الأيام . نعم ان العرب حين لجأوا اليه قد لفتوا الى مظالمهم انتباهاً
جدياً ، وهذا امر عجزت عن ان تحققه لهم جهودهم السلمية في القدس
ولندن وجنيف على مدى عشرين عاماً . الا ان العنف يعدو طوره

ويحطم غاياته نفسها ، والضرر الذي لا ينفك عنه يُنقص من قيمة الأرباح العاجلة التي يكسبها . ولن يتولد الا الضرر عن الارهاب الذي يكتسح اليوم فلسطين الا ان الطريق السديد لانهائه هو ازالة الاسباب التي اوجدته . تلك حقيقة لا بد من مواجهتها وهي ان عنف العرب نتيجة حتمية للعنف المعنوي الذي أخذوا به ، ولن يكف عنفهم ، مهما تتذرع الدولة بوحشية القمع والإذلال ، الا اذا كف العنف المعنوي نفسه .

وللحل سبيل واضحة يراها من مد عينيه الى الامام متجاوزاً الحجب التي اقامتها الاساطير والدعايات ، وهي سبيل العدالة والقصد السليم : لا مكان لشعب آخر في بلاد آهلة بسكانها ، وسكانها هؤلاء قد تنبه لديهم الوعي القومي تنبهاً تاماً ، واصبح تعلقهم ببيوتهم وأريافهم قوةً لا تغلب . اما الجهود التي بذلت حتى اليوم لوضع اسس دولة يهودية في فلسطين فقد علّمت من شاء التعلم انها حولت البلاد الى مجزرة ، لا لأن العرب يمقتون اليهود فطرة او لأنهم لا يعطفون على مشكلتهم ، بل لأنه لا يمكن ان تقام دولة يهودية في فلسطين دون اللجوء الى الاجلاء القسري لفلاحين يؤثرون ان يلاقوا الموت على ان يسلموا اراضيهم . واذا اعتبرتَ هذا الاساس وحده ، دون ان تحسب حساب الأمور السياسية ، وجدت محاولة تحقيق الحلم الصهيوني مكتوباً لها الاخفاق . واول خطوة في الطريق الى الحل هي مواجهة هذه الحقيقة من زاوية موضوعية وادراك ما ينجم عنها .

فاذا واجه أولو الأمر تلك الحقيقة ، أعني ان انشاء دولة يهودية في فلسطين او وطن قومي على اساس من السيادة الاقليمية لا يتم الا بطرد العرب بالقوة – اذا فعلوا ذلك اصبح الطريق الى الحل واضحاً .وليس يُعجز ساسة البريطانيين والعرب واليهود ان يخططوا حلاً . وليس من سبب وجيه – فيما يبدو – يحول دون جعل فلسطين دولة عربية يعيش فيها عدد من اليهود في أمان وسلام وكرامة ويتمتعون بكامل حقوق

المواطنين فيها ، على ان يكون العدد الذي تستوعبه منهم قدر طاقتها دون جور على حريتها السياسية والاقتصادية . وترتبط هذه الدولة العربية — في طبيعة الحال — ببريطانية العظمى ، بموجب معـاهدة تعقد اثر مفاوضات حرة، وتحتوي نصوصاً تضمن المصالح الاستراتيجية والاقتصادية لبريطانية ، وتنص على سلامة وقداسة كل الاماكن المقدسة لدى كل الطوائف ، وعلى حماية كل الاقليات وحقوق الأقليـات ، وعلى منح الطائفة اليهودية اوسع حرية في السعي نحو مثلها الروحية والحضارية .

ومثل هذا الحل على مثل هذه الاسس سيكون عادلاً قابلاً للتطبيق، وسيحمي الحقوق الطبيعية للعرب في فلسطين ويرضي لديهم مطامحهم القومية المشروعة ، وسيمكن اليهود من ان يكون لهم وطن قومي بالمعنى الروحي والحضاري تزدهر فيه القيم اليهودية وتجد العبقرية اليهودية فيه حريتها التامة في استلهام الارض التي ارتبطت فيها في القدم ، وسيضمن مصالح بريطانية العظمى على اسس ركينة من التراضي ويعيد فلسطين الى مركزها السابق ، اي رمزاً للسلام في قلوب اليهودية والمسيحية والاسلام.

ولست أرى حلاً سواه قابلاً للتطبيق الا ان يكون حلاً يكلف مجزرة لا يعلم الا الله مقدار ما يُضحّى فيها من النفوس العربية واليهوديـة والبريطانية . اما الملجأ الذي يعوذ اليه اليهود المضطهدون بأوروبة فيجب ان يكون في بلد غير فلسطين لأن البلاد اصغر من ان تتسع لهذه الزيادة المستمرة في السكان ، وقد تحملت حتى الآن قسطاً فوق طاقتها منهم . وعلى بريطانية العظمى التي تزعمت القيام بهذا العمل الخيري على حساب العرب ان تلتفت الى الموارد الخصبة في امبراطوريتها وأن تحقق عملياً شيئاً من الخير الذي ظلت تدعو اليه . ومن واجب تلك الاقطار الاخرى التي تفخر بأنها متمدنة انسانية النزعة ان تراجع المقررات الشحيحة التي امضتها في مؤتمر ايفيان ، وان توافق على تقديم بعض التضحيات التي قدمتها فلسطين العربية — مرغمةً — على نحو استنزف كل طاقتها .

ان المعاملة التي قدّرت لليهود في المانية وفي بلاد اوروبية اخرى وصمة عار على اصحابها وعلى المدنية الحديثة ، ولكن الاجيال الخالفة لن تغفر لاي بلد يتذمم من القيام بنصيبه العادل من التضحيات اللازمة لتخفيف الآلام والمصائب عن اليهود . اما طرح العبء كله على كاهل فلسطين العربية فانه تهربٌ فاضح من الواجب الملقى على عاتق العالم المتمدن كله ، مشين من الناحية الاخلاقية ، فليس في اي قانون خلقي ما يسوّغ اضطهاد شعب من اجل انقاذ آخر من الاضطهاد ، وعلاج طرد اليهود من المانية يجب ان لا يتم بطرد العرب من اوطانهم ، وانعاش اليهود من نكبتهم يجب ان لا يتم على حساب نكبة مماثلة تنزل بشعب بريء مسالم .

ولن يكون النزول على مقتضى هذا الحل سهلاً ، فقد ارتفعت آمال اليهود الى الذروة حتى إن عـــدم تحقيق الحلم الصهيوني بإنشاء دولة يهودية في فلسطين سيسبب خيبة أمل ومرارة شديدتين . وقد دلت البراهين القوية على ان الروح العامة والقدرة على تحمل المصاعب ومواجهة الخطر في بناء الوطن القومي متوفرة لديهم شاهدةً على التفاني الذي يبذله قسم كبير من الشعب اليهودي في الانضواء تحت المثل الاعلى الصهيوني . وقد يكون من الجور على اليهود ان تخيب هذه الآمال إن تكن ثمة طريقة لتحقيقها دون ان يسوق تحقيقها جوراً على شعب آخر . لكن منطق الوقائع شموس حرون : وهو يدل على انه ليس في فلسطين متسع لشعب آخر الا باجلاء الشعب المقيم فيها او استئصاله .



ملاحق الكتاب

الملحق (أ)

مراسلات مكماهون

الرسالة التي ارسلت طيها المذكرة الاولى[1]

من الامير عبد الله الى المستر رونالد ستورس

مكة في الثاني من رمضان ، ١٣٣٣ (١٤ تموز – يولية – ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر ، سلمه الله

اقدم لجنابكم العزيز احسن تحياتي الودية واحتراماتي ، وارجو ان تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة اليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية .

---

١ – اخذ نص هذه الرسالة من كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » (المجموعة الاولى ١٩١٥ – ١٩٤٦) الذي اصدرته الامانة العامة لجامعة الدول العربية .

واود بهذه المناسبة ان اصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا افكاركم بآراء الشعب هنا ، لأنه باجمعه ميال الى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة .

ثم يجب ان لا تتعبوا انفسكم بإرسال الطيارات او رجال الحرب ، لإلقاء المناشير ، واذاعة الشائعات ، كما كنتم تفعلون من قبل ، لأن القضية قد قررت الآن .

واني لأرجوكم هنا ان تفسحوا المجال امام الحكومة المصرية ، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة « مكة والمدينة » التي اوقف ارسالها منذ العام الماضي .

وأود ان ألفت نظركم الى ان إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت ، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة واعتقد ان هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلك ، اطال الله بقاءكم .

حاشية — ارجو ان لا تزعجوا انفسكم بارسال اي رسالة ، قبل ان تروا نتائج اعمالنا هنا ، خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه .

ونرجو ان يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو ان تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول اليكم عندما نجد حاجة لذلك .

والرسول موثوق به .

رقم ١

مذكرة الشريف حسين الاول الى السير هنري مكماهون [1]

مكة في الثاني من رمضان ١٣٣٣ (١٤ تموز – يولية – ١٩١٥)

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء – قــد قرروا في الاعوام الاخيرة ان يعيشوا وان يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم . ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا انه من مصلحة حكومــة بريطانية العظمى ان تساعدهم وتعاونهم للوصول الى امانيهم المشروعة ، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم ، وكرامتهم وحياتهم ...

ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة اخرى بالنظر لمركزهــا الجغرافي ، ومصالحم الاقتصادية

---

١ ـ اعتمدنا كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطــين » (المجموعة الاولى ١٩١٥ – ١٩٤٦) الذي اصدرته الامانة العامة لجامعة الدول العربية للحصول على النصوص العربية لهذه المراسلات .

وموقفهم من حكومة بريطانية * .

انه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية اذا كانت ترى من المناسب ان تصادق بواسطة مندوبيها او ممثليها على الاقتراحات الاساسية الآتية [1] :

اولاً – ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين – ادنه ، حتى الخليج الفارسي شمالاً ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي – ومن البحر الاحمر ، والبحر المتوسط حتى سينا غرباً [2] .

على ان توافق انكلترا ايضاً على اعلان خليفة عربي على المسلمين .

ثانياً – تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية ، اذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً – تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم احد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية . وتأميناً لأفضلية انكلترا الاقتصادية فيها .. على ان يكون هذا التعاون في كل شيء ، في القوة العسكرية ، والبحرية والجوية ...

(*) وذلك بالنسبة للعروض التي قدمها اللورد كتشنر الى العرب في سنة ١٩١٤ ، كما ورد ذكرها في الفصل السابع .

١ – جاء في انطونيوس بعد كلمة «الاتية» : « التي لم يتسع الوقت لصياغتها بحيث تتضمن الامور الاقل اهمية نسبيا ، اذ ان مثل هذه الامور يمكن تاجيل النظر فيها حتى يحين الوقت لذلك » .

٢ – جاءت صياغة هذا البند في انطونيوس على الوجه التالي : « ان تعترف بريطانية العظمى باستقلال البلاد العربية التي يحدها : شمالا خط مرسين – اضنة الموازي لخط ٣٧° شمالا الذي يمتد تبعا لذلك الى خط بيرجيك – اورفه – ماردين – مديات – جزيرة ابن عمرو – عمادية حتى حدود فارس ، وشرقا حدود فارس الى خليج العرب ، وجنوبا المحيط الهندي (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي) ، وغربا البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط حتى مرسين» .

رابعاً ـ اذا تعدى احد الفريقين على بلد ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال ، فعلى الفريق الآخر ان يلزم الحياد . على ان هذا الفريق المعتدي اذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين ان يجتمعا معاً وان يتفقا على الشروط .

خامساً ـ مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . واذا شاء احد الفريقين تجديدها عليه ان يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام [1] .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق « والحمد لله » على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الامر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية ان تجيبه سلباً او ايجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . واذا انقضت هذه المدة ولم يتلقَ من الحكومة جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فاننا نحن عائلة الشريف نعتبر انفسنا ـ اذا لم يصل الجواب ـ أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات ، والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي افندي [2] .

---

١ ـ البند الخامس في هذه الوثيقة ورد سادسا في انطونيوس ، اما البند الخامس عنده فهو : « توافق بريطانية العظمى على الغاء الامتيازات * في البلاد العربية ، وتتعهد بان تساعد الحكومة الشريفية على دعوة مؤتمر عالمي لاعلان الغائها » .

٢ ـ الرسول الذي نقل المذكرات السرية بين دار الاعتماد البريطاني في القاهرة والامير عبدالله في مكة . انظر الفصل السابع ، الفقرة الثالثة .

(*) الاتفاقات الوطيدة التي مضى على ابرامها فترة طويلة ، والتي كان الاجانب بموجبها يتمتعون بامتيازات مالية وقضائية في الامبراطورية العثمانية .

رقم ٢

مذكرة السير هنري مكماهون الاولى الى الشريف حسين

القاهرة في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ آب - اغسطس - سنة ١٩١٥)

الى السيد الحسيب النسيب سلالة الاشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الاحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع امير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس اجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض ان لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص وشرف الشعور والاحساسات نحو الانكليز . وقد يسرنا علاوة على ذلك ان نعلم ان سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وان مصالح العرب هي نفس مصالح الانكليز والعكس بالعكس . ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم اقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت الى سيادتكم عن يد علي افندي وهي التي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب

وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند اعلانها .

وإننا نصرح هنا مرة اخرى ان جلالة ملك بريطانية العظمى يرحب باسترداد الخلافة الى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر انها سابقة لأوانها – وتصرف الاوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة ان الحرب دائرة رحاها ولأن الاتراك ايضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعلياً وعلى الاخص مما علمناه وهو ما يدهش ويحزن أن فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها – وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة الى الالمان – نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الالمان وذلك الظالم العسوف وهو الاتراك .

مع ذلك فانا على كمال الاستعداد لأن نرسل الى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد اشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه . وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته الينا ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا .

وفي الختام ارفع الى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي .

المخلص

(السير ارثر مكماهون)

نائب جلالة الملك

رقم ٣

مذكرة الشريف حسين الثانية الى السير هنري مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ ، (٩ ايلول - سبتمبر - سنة ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر ، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الاساسية . اعني نقطة الحدود .

وارى من الضروري ان اؤكد لسعادتكم اخلاصنا نحـو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشئون وفي اي شكل ، وفي اية ظروف ويجب ان اؤكد لكم ايضاً ان مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم .

ويعذرني فخـامة المندوب اذا قلت بصراحة ، ان « البرودة » و « التردد » اللذين ضمنها كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله ان البحث

في هذه الشئون انما هو اضاعة للوقت ، وان تلك الاراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها ... ويعذرني فخامته اذا قلت ان هذا كله يدل على عدم الرضا ، او على النفور او على شيء من هذا القبيل .

فان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ، ومفاوضته بعد الحرب ، بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد .

وهذا ما جعل الشعب يعتقد انه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانية العظمى .

واذا أجمع هؤلاء على ذلك فانما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك . وهم يرون انه من الضروري جداً ان يتم تنظيم الاراضي المجزأة ، ليعرفوا على اي اساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم انكلترا او احدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي الى نتيجة معاكسة ، الامر الذي حرمه الله .

وفوق هذا فان العرب لم يطلبوا – في تلك الحدود – مناطق يقطنها شعب اجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

اما الخلافة فان الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .

وانا على ثقة يا صاحب الفخامة ، انكم لا تشكون قط بأني لست انا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره ، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية .

اوليس هذا صحيحاً يافخامة الوزير ؟

وبالاختصار فاننا ثابتون في اخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا – كما قيل – او غاضبين .

اما ما يتعلق في قولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الاتراك ، فلا اظن ان هـذا يبرر « البرودة »

و « التردد » اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا اعتقد ان رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر انه ضروري لحياتنا الادبية والمادية .

وانا حتى الساعة لا ازال أنفذ ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل اقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، واني سأستمر في هذا الى ان يأمر الله في غير ذلك .

وأود هنا يا صاحب الفخامة ان اؤكد لكم بصراحة ان كل الشعب – ومن جملته هؤلاء الذين تقولون انهم يعملون لصالح تركيا والمانيا – ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود ، وقضية المحافظة على ديانتهم ، وحمايتهم من كل أذى او خطر .

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها ، في هذا الموضوع ، فما عليها الا ان تعلمنا به وان تدلنا على الطريق التي يجب ان نسلكها . ولذلك [1] نرى ان من واجبنا ان نؤكد لكم اننا سنطلب اليكم في

---

[1] – لم ترد هذه الفقرة وما جاء بعدها من فقرات في كتاب انطونيوس ، وقد استعاض عنها بالنص التالي :

« اما بالنسبة لما تبقى ، فان الله هو الذي يقدر الماضي والمستقبل ، وهو الذي يقضي الاشياء جميعها ، تبارك اسمه وتعالى .

أما فيما يتعلق بطلبنا ارسال هبة الشعب ، مع المساعدة المالية التقليدية التي تقدمها وزارة الاوقاف وجميع ما جرت العادة على ارساله مع قافلة الحج ، فقد كانت وجهة نظرنا بان ارسالها يمكن ان يكون وسيلة لتوكيد فحوى تصريحاتكم الى العالم ، وبخاصة العالم الاسلامي . تلك التصريحات التي ذكرتم فيها ان عداءكم موجه بصورة كلية ضد مغتصبي الخلافة ، وبالتالي ضد مغتصبي حقوق المسلمين .

هذا ، اذا اغفلنا حقيقة ان الهبة المذكورة تاتي من اعطيات واوقاف معينة لا علاقة تربطها بالسياسة .

وفي حالة عزمكم ارسالها ، فلتبعث الهبة المقررة عن السنتين الماضيتين في باخرة خاصة الى جدة=

اول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها .

ولست ارى حاجة هنا لأن ألفت نظركم الى ان خطتنا هي آمن على مصالح انكلترا من خطة انكلترا على مصالحنا ، ونعتقد ان وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق افكارنا كما يقلق افكارها .

وفوق هذا فان الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة ، تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة .

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة .

وأنا اصرح بهذا رغم اني اعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم .

ويستطيع معالي الوزير ، وحكومته ان يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورس منذ عامين .

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا ، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها الينا القدر بسرعة ووضوح ، لنكون حجة – نحن والذين يرون رأينا – في العمل ضد

باسم الشعب كالعادة . وليقم ربان الباخرة ، او الموظف المكلف في العادة بمهمة تسليم الهبة سنة بعد اخرى بالاتصال بالسلطات في جدة عند الوصول الى الميناء ، وليسأل عن الموظف الكفي الذي سوف يتسلم القمح لقاء وصل موقع من قبل الموظف المستلم .

كما اود ان تلاحظوا ان توقيع ذلك الموظف فقط يمكن ان يقبل ، وان ربان الباخرة او الموظف الخاص ، يجب ان يعطى التعليمات بانه اذا ما اعترضه اي حاجز فعليه ان يهدد بالعودة بشحنته الى الميناء الذي اقلع منه .

كما ان الاعطية سوف يجري استلامها رسميا بواسطة اللجنة المعروفة « باللجنة التي تعنى بهبة الشعب » .

وفي حالة رغبتكم الاجابة على هذه المذكرة ، فليكن ذلك بواسطة حاملها » .

تركيا ، ودون ان نتعرض للوم والنقد .

واعتقد ان قولكم ، بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للاسراع في حركتكم مخافة ان يؤدي هذا التسرع الى تصديع نجاحكم ، لا يحتاج الى ايضاح .. الا فيما يتعلق بمطالبكم بالاسلحة والذخائر عند الحاجة .

اعتقد الآن ان في هذا الكفاية ...

رقم ٤

مذكرة السير هنري مكماهون الثانية الى الشريف حسين

القاهرة في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٢٤ تشرين الاول-اكتوبر- سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فرع الدولة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الامير المعظم السيد الشريف ابن الشريف امير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزاً منيعاً للاسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين وهو دولة الامير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه .

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم المؤرخ بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة واخلاصكم ما اورثني رضاء وسروراً .

اني متأسف انكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق اني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتابي

قط ولكني رأيت حينئذ ان الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، فلذا فاني قد اسرعت في ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، واني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا اشك في انكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول .

ان ولايتي مرسين واسكندرونة (*) وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب (**) لا يمكن ان يقال انها عربية محضة . وعليه يجب ان تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

واما من خصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسا فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى ان أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ – انه مع مراعاة التعديلات المذكورة اعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

٢ – ان بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ – وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها

(*) يقع ميناء مرسين في ولاية اضنه ، ويقع ميناء الاسكندرونة في ولاية حلب .

(**) تقع مدن دمشق وحمص وحماه في ولاية سورية (الشام)، التي كانت دمشق عاصمتها، كما كانت حلب عاصمة الولاية التي تحمل الاسم نفسه .

وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقـاليم المختلفة .

٤ ـ هذا وان المفهوم ان العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها وان المستشارين والموظفين الاوروباوين اللازمين لتشكيل هيئة ادارية قوية يكونون من الانكليز .

٥ ـ اما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فان العرب تعترف ان مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة (*) لوقاية هذه الاقاليم من الاعتداء الاجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة .

واني متيقن ان هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون اقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب اصحابها العرب وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الاتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نير الاتراك الذي اثقل كاهلهم السنين الطوال.

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الاهمية الكبرى وان كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود الى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل .

ولقد تلقيت بمزيد من السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة (**) وما معها من الصدقات بالسلامة وانها بفضل ارشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد انزلت الى البر بلا تعب ولا ضرر رغماً عن الاخطار

(*) قال المؤلف : ان النص العربي هو « اتحاد تدابير خاصة » اي ما يقابل بالانكليزية : Special administrative arrangements وليس هو كما كتب في تقرير اللجنة الملكية لفلسطين .Cmd ٥٤٧٩ (عام ١٩٣٧) ص : ١٩ على النحو التالي Special measures of administrative control ، فهذا في راي المؤلف خروج على حقيقة مدلول التعبير العربي . (قلت : وترى في النص اعلاه « مخصوصة » بدلا من « خاصة » ولكن هذا لا يصنع فرقا بين التعبيرين) .

(**) الكسوة المطرزة التي ترسل سنويا الى مكة من مصر لكي تغطى الكعبة بها .

والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة ، ونرجو الحق سبحانه وتعالى ان يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم .

اني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن عريفان وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الاهمية ولم اذكرها في كتابي هذا .

وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والامير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي واعرب عن محبتي له ولجميع افراد اسرته الكريمة راجياً من ذي الجلال ان يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب. ان بيده مفاتيح الامر والغيب يحركها كيف يشاء ونسأله تعالى حسن الختام والسلام .

نائب جلالة الملك

(السير ارثر مكماهون)

(قيدنا الاسم الشريف بعاليه بهذا اللون)

رقم ٥

مذكرة الشريف حسين الثالثة الى السير هنري مكماهون

مكة في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٥ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى معالم الشهم الهمام ذو الاصالة والرياسة الوزير الخطير وفقه الله لمرضاته .

بملء الإيناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر واحليناه محل التبجيل وعلى مؤداه نجيب الشهامة .

اولاً - تسهيلاً للوفاق وخدمة للاسلامية فراراً مما يكلفها المشاق والاحن ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الالحاح في ادخال ولايات (*) مرسين

(*) ان الكلمة التي استعملها الشريف هي « ولاية » ، ومن البديهي انه كان يستخدمها لما تعنيه كلمة «قضاء» . وذلك لعدم وجود ولاية باسم مرسين ، وانما كان هناك ولاية اضنه التي تضم ميناء مرسين وقضاءها .

وأضنه في اقسام المملكة العربية . واما ولايتي حلب وبيروت وسواحلها فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فانهما ابنا جد واحد ، ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه امير المؤمنين عمر بن الخطاب من احكام الدين الاسلامي ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملتهم لأنفسهم بقوله : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة ونحكم به .

ثانياً – حيث ان الولايات العراقية هي من اجزاء المملكة العربية المحضة ، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده ، وبها قامت مدنية العرب واول ما اختطوه من المدن والامصار واستفحلت دولهم فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى ، فلا يمكننا ارضاء الأمة العربية وارضاخها لترك ذلك الشرف . ولكن تسهيلاً للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم اليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظيها وصيانتها من طبقة وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل اليه ، فان اهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الاشغال البريطاني * الى مدة يسيرة ، البحث فيما يقبل عن قدرها دون ان يلحق حقوق الجانبين مضرة او خلل . سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية ،

(*) كانت القوات البريطانية في ذلك الحين تحتل مدينة البصرة وولايتها ، وكانت تزحف على طاق كسرى ، وذلك قبل اسابيع قليلة من تقهقر الجنرال تاوزند الى الكوت .

وان يدفع للمملكة العربية في مدة الاشغال المقــدار المناسب من المال لضرورة ترتكبـــه كل مملكة حديثة الوجود . مع احترامنا لوفاقاتكم المشار عليهـــا مع مشايخ تلك الجهات وبالاخص ما كان منها جوهرياً .

ثالثاً — رغبتكم في الاسراع بالحركة نرى فيـــه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير ، أوله خشية لوم الاسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وابـدنا قواها ، الثاني المقام تركيا معاضدتها جميع معاني قوى جرمانيا لجهلنا عما اذا حصل وهن احدى دول الائتلاف واوجبها عـــلى صلح دول الاتفاق ، فكيف تكون خطة بريطانيـــا العظمى وحلفائها لئلا تكن الامة العربية أمام تركيا وحلفائها معاً اذ لا يهمنا ما اذا كنا والعثمانية رأساً لرأس .

وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الاوجه ولا سيما عقـد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شئوننا .

رابعاً — ان الامة العربيـــة تعتقد يقيناً ان العثمانية عند وضع اوزار الحرب سيوجهون كل اعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم واحسابهم واخضاعهم بكل معـــاني الاخضاع مع بقائها تحت النفوذ الالماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية وما يرى فينـــا الآن من التأني فقد سبق بيان علته .

خامساً — متى علمت العرب ان حكومة بريطانيا حلفائهم لا يتركونهم عند الصلح على حالهم امام تركيا وجرمانيا وانهم يـدافعون عنهم ويعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخـول في الحرب من الساعة لا شك انه مما يوافق المصالح العربية .

سادساً ـ افادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن اعادة القول في المـادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمشاورين والموظفين سيا وقـد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتدخلون في امور الداخلية .

سابعاً ـ وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن عـلى ذكر اعلاه من الطلبات اذ انّا استعملنا كلما يقربنـا اليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية فانّا نعـلم ان نصيبنا من هذه الحروب اما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم او الاضمحلال في سبيلها . ولولا مـا رأيتم ورأيت مـا في عزمهم لاخترت العزلة في شواهق السراة ، ولكن ابوا علي يا عزيزي اعزك الباري بمرضاته الا ان يقودوني الى هذه المواقف .

ودم غانماً سالماً بما تحبه وتريده .

رقم ٦

مذكرة السير هنري مكماهون الثالثة الى الشريف حسين

القاهرة في ٩ صفر سنة ١٣٣٤ (١٣ كانون الأول — ديسمبر — سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب الاصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة قبلة الاسلام والمسلمين . أدامه الله في رفعة وعلاء .

وبعد ، فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم اخراج ولايتي (*) مرسين وأضنه من حدود البلاد العربية .

وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم ان العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره

(*) ها هنا نرى مكماهون يستعمل لفظة « ولاية » ايضا ، وذلك يبين انه يستعملها — مثل الحسين — للدلالة على «قضاء» .

من السادة الخلفاء الأولين – التعاليم التي تضمن حقوق كـل الأديان وامتيازاتها على السواء .

هذا ، وفي قولكم ان العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً ان هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين اولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة – ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهـما فالمسألة تحتـاج الى نظر دقيق – وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب .

ان حكومة بريطاليا العظمى كما سبقت فأخبرتـكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعهـا الى المملكـة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب ادارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على ان صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات .

واننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد ان ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم ولكنـا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا مجهوداتـكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وان تحثوهم على ان لا يمدوا يد المساعدة الى أعدائنا بأي وجه كان . فانهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته .

وفي هذه الأحوال فان حكومة بريطانيـا العظمى قد فوضت لي ان أبلغ دولتـكم أن تكونوا على ثقة من ان بريطانيا العظمى لا تنوي ابرام أي صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب

العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك .

هذا وعربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فاني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه .

وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط الالفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد أسرتكم المكرمة .

مع فائق الاحترام .

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر

(السير ارثر هنري مكماهون)

رقم ٧

مذكرة الشريف حسين الرابعة الى السير هنري مكماهون

مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثاني – يناير – سنة ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الوزير الخطير الشهم الهمام

بأنامل الاجلال والتوقير تلقينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم وعلمت مضمونيهما وأدخلا علينا من الانشراح والارتيـــاح ما لا مزيد لازالتهما ما يختلج بصدري ، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف[1] وحظوته بالجناب (*) بأن كلما أتينا به في الحال والشأن ليس بنا شيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل ، وانما قرارات ورغائب أقوام وانا لسنا الا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التي ألزمونا بها اذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه

١ ـ ورد الاسم في انطونيوس : محمد شريف الفاروقي ·

(*) لم يرد ذكر للفاروقي في مذكرة السير هنري مكماهون · ولكن الشريف استمع اليه مباشرة ، كما تلقى رسالة شفوية من مكماهون بخصوصه مع الرسول الذي نقل المذكرات بين مكة والقاهرة ·

وعلمه به . اما مـا جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الاشغال فلزيادة ايضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى واعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها . أمـا الجهات الشمالية وسواحلها فـما كان في الامكان من تعديل اتينا به في رقيمنا السابق . هذا ، وما ذاك إلا للحرص على الامنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى . وعن هـذا الحس والرغبة همـا التي الزمتنـا بملاحظة اجتناب ما ربما انه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما ابان هذه الحروب والنوازل الا اننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة ان يتيقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بمـا نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها ولا أرى لزوم بأن نحيطكم بما في هذا أيضاً من تأمين المنافع البريطانية وصيانة حقوقها هو أهم وأكبر مما يعود الينـا ، وان لا بد من هـذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية ان ترى اخصاؤها في البهجة والرونق التي تهتم ان تراهم فيـه سيما وان جوارهم لنا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التي لا يمكن معها استقرار الحالة عدى ان البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقـل من اشتغالنـا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وحدها وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنا لسواكم في المخابرات وعليه يستحيـل امكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من أراضي تلك الجهـات ، أصبح بهذا مع اعتماد لكل جوارحي اعتماداً يرثـه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التي ختمتم بها رقيمكم الموقر . وعليه فليعتقد جنـاب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنا على العزم الذي أشير اليه ويعلمه منا جناب الاريب الكامل استورس منـذ عامين ولا نناظر فيه الا الفرص

المناسبة لاحوالنا وأخصها داعيته ووسيلته التي اقترب وقتها ممـــا تسوقه الاقدار الينـــا بكل سرعة ووضوح لتكن حجة لنـــا وعن رأينا على الاعتراضات والمسؤوليات المقدرة وفي تصريحاتكم بقولكم « وأنا لسنا نريد ان ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم » يغني عن زيادة الايضاح،ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الاسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها .

واكتفي بهذا القدر عن اشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتي وجزيل توقيراتي لمقام المقر الموقر .

رقم ٨

مذكرة السير هنري مكماهون الرابعة الى الشريف حسين

القاهرة في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثاني–يناير–سنة ١٩١٦)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به وأطلعنا منه على رسالتكم الشفوية .

واننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيداً انكم تعملون في صالح العرب وانكم لا ترمون الى شيء – في عملكم – غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل الى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت جداً بابداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيداً اننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأي تدخل – مهما قل شأنه – في اتفاقنا المشترك في ايصال هذه الحرب الى الفوز

ثم متى انتهت الحرب فان صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى وتشتد ، وهما اللتان بذلتا الدماء الانكليزية والفرنسية جنباً الى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات .

والآن وقد قررت البلاد العربية ان تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة فاننا لنرجو الله ان تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد ، صداقة دائمة ، تعود على الجميع بالسرور والغبطة .

وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لاقنـاع الشعب بضرورة الانضمام الى حركتنـا والكف عن مساعدة أعدائنـا . ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب ، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه[1] .

---

١ ـ ورد في انطونيوس الفقرة التالية زيادة على ما جاء في النص العربي للوثيقة :

« وانكم ستخبروننا دون شك بواسطة حامل هذه الرسالة عن الطرق التي نستطيع مساعدتكم بها . ويمكنكم ان تطمئنوا الى ان جميع طلباتكم سوف تبحث بدقة دائما ، وتعالج بسرعة فائقة .

ولا شك انكم قد سمعتم ان السيد احمد الشريف السنوسي ، قد اعار اذنا صاغية الى مكائد اعدائنا ، وبادأنا العداء . ولسوف يحزنكم حتما ان تسمعوا ان بصره قد غشي عن المصالح العربية ورمى بثقله مع اعدائنا * . الا انه وقع الآن ضحية اخاديعه ، وهو يقابل بالعداء حيثما اتجه .

ولعل ذلك يقنعه بخطئه ، ويقوده ثانية الى جادة العقل ، وسبيل السلام ، رحمة باتباعه المساكين الذين يقودهم الى الهلاك . ولسوف يبلغكم رسولكم الامين الذي يحمل اليكم هذه المذكرة كافة اخبارنا » .

(*) في شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ ، ونتيجة لتحريض الاتراك ومساندتهم الفعالة للزعيم السنوسي غزا هذا مصر وبدأ العمليات الحربية التي استمرت حتى شهر اذار (مارس) حين اخرج اخيرا من الاراضي المصرية .

للاطلاع على ملخص قصير للحملة السنوسية انظر الفصل الحادي عشر ، الفقرة الثانية .

رقم ٩

مذكرة الشريف حسين الخامسة الى السير هنري مكماهون

مكة في ١٤ ربيع الآخر سنـــة ١٣٣٤ (١٨ شباط - فبراير - ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة ذو الاصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعياً

بعد ، فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٥ ربيع الأول ، وان مضامينه ادخلت علينـــا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب أسأل الله ان يسهل المقـاصد وينجح المساعي . ومن الايضاحات الآتية تفهم الفخامة الاعمال الجارية والاسباب المقتضية :

أولاً - قد اعلمنا فخامتكم بأنّا بعثنا بأحد انجالنـا الى الشام ليرأس ما يقتضي عملــه هناك ، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به ان اعتسافات الحكومة هنـــاك لم تبق من الاشخاص اللذين نعتمد عليهم في الأمر سوى ان كانوا من الجند على اختلاف مراتبهم ام ممن لم يكونوا من ذلك الصنف الا القليل ممـــا كان في الدرجة التالية ، وانه ينتظر

وصول القوات المعلن بقدومها من مواقع مختلفة أخصها من أهالي البلاد وما جاورها من الاقطـــار العربية كحلب وجنوب الموصل المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون . وأنه لا بد يؤمل ان كانت الاكثرية من القوة المذكورة من العرب فهو عازم عـلى اجراء الحركة والقيام بهم،وان كان العكس يعني الاكثرية من الاتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو الترعـــة وعند اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون .

ثانياً – عزمنا على ارسال نجلنا الكبير الى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون ردءاً لاخيه الذي بالشام ولكل احتمال واستيلائه على الخط الحديد وما هو في معنى ذلك ممـــا تظهره الشئون . وهذا هو المبدأ للحركة الاساسية المكتفين في مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجاز أهل المركز فقط لاسباب يطول شرحها :

(أولاً) تعسر احضار لوازمهم بصورة تجعل المشروع في حيز الكتمان، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الامدادات عند الحاجة ، هذا خلاصة ما رغبتم في الجواب عليه والاستفهام عنه . وفي ظني ان فيـــه الكفاية واتخاذه اساساً وقياساً في أعمالنا امام كل التبدلات والطوارىء التي يظهرها سير الحالة .

بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولاً – مبلغ خمسين ألف جنيه ذهباً لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه .

فالرجاء احضارهما بوجه السرعة الممكنة .

الثـــاني – احضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلهـا سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة لها من المرميات وأيضاً مقدار مائة صندوق من النوع المرسل منـه مرميتين طيه . ومن

مرميات بواريد مارتن هنري وبارودات غرا أعني بواريد معمل سانت آتين الافرنسية لاستعمال هذين الصنفين في بواريد أي بندقيات قبائلنا ، ولا بأس من جعل لكل نوعها خمسمائة صندوق .

الثالث – إنّا استنسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان .

الرابع – بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازمات الحربيـــة الموضحة أعلاه لا حاجة لنا بها الا عند ابتداء الحركة وسنبلغكم اياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور ، وعند الحاجة اليها يبلّغ أمير الجهة المذكورة وقائدها بالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها اياهم .

الخامس – النقود المطلوبة يقتضي ارسالها في الحال الى أمـــير بور سودان ، وسيرده من طرفنا معتمد يتسلمها اما دفعة أو دفعتـــين على حسب استطاعته . وهذه علامة اعتماد الرجل ⊤ .

السادس – مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه الى بور سودان بعد ثلاثة أسابيع ، يعني يكون وصوله اليها في ٥ من جماد الأول حامل كتاب منا باسم الخواجة الياس أفندي وانه يصرف له بموجبه ما لديه من ايجارات أملاكنا والامضاء صراحة باسمنا، غير اننا معدينه يسأل عن قائد الموقع وأميره ، فأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص وبمراجعته يجري له ما يقتضى من صرف ما لديهم بشرط الا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيد في عدم المظاهرة له وكتمان أمره ومعاملته في الظاهر بأنه لا شيء ، لا يظن ان ثقتنا للشخص الأخير من اعتماد الأول حامله هذا لا بل لعدم ضياع الوقت لتعييننا له خدمة في جهة ثانية، مع تكرر رجاءنا بعدم اركابه وابعاثه في بابور أو في شيء من هذه الرسميات فان وسائطه كافية .

السابع – مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بالاكتفاء بايصال هذا وأظن

ان مأموريته في هـذا الدور تمت ، حيث ان الحالة علمت أساساتهـا وفروعها فلا حاجة في بعث شخص آخر ، اذ ان اللزوم المخابرة يكن منا ، ولا سيا ان مندوبنا الأخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيـع يمكن في ظرفها افادتنا بما يلزم له الحال والا يعامل في الصورة الظاهرة الا معاملة بسيطة .

الثامن — تعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصاريف الحربية بموجب الدفاتر التي تقدم اليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها .

وبالختام أهديكم أشواقي التي لا تعد واحتشامي الذي ليس له .

رقم ١٠

مذكرة السير هنري مكماهون الخامسة إلى الشريف حسين

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ (١٠ آذار – مارس – ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر قبلة الاسلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين .

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الالفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع الى دولة الأمير المعظم اننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين ، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها وانها لموافقة في الأحوال الحاضرة .

وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها .

وقد يسرني ان اخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع

مطالبكم وان كل شيء رغبتم الاسراع فيه وفي ارساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا . والاشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وابلاغنا اياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) وبالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها اياهم .

ان كل التعليمات التي وردت في محرركم قد اعلمنا بها محافظ بور سودان وهو سيجريهـا حسب رغبتكم – وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لارسال رسولكم حامل خطابكم الاخير الى جزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله ان يكللها بالنجاح وحسن النتائج وسيعود الى بور سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله .

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو انه يوجد بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال انهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنـا الحربية البحرية في البحر الاحمر . وعليه نرى انه من الضروري ان نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ، ولكننا قد أصدرنا الاوامر القطعية انه يجب على جميع بوارجنا ان تفرق بين عساكر الاتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الابرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية .

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغكم خبراً مكذوباً عن الاسباب التي تضطرنا الى أي عمل من هـذا القبيل . وقد بلغنا اشاعات مؤداها ان اعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ليبثوا بها الالغـام في البحر الأحمر ولإلحاق الاضرار بمصالحنا في ذلك البحر ، وإننا نرجوكم سرعة اخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم .

وقد بلغنا ان ابن الرشيد قد باع للاتراك عدداً عظيماً من الجمال ، وقد أرسلت الى دمشق الشام . ونؤمل ان تستعملوا كل مـــا لكم من التأثير عليه حتّى يكف عن ذلك ، واذا صمم على ما هو عليه امكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريـــا ان يقبضوا على الجمال حال سيرها ، ولا شك ان في ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة .

وقد يسرني ان أبلغ دولتكم ان العربـــان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد احمد السنوسي وهم الذين اصبحوا ضحية دسائس الالمان والاتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون الينا وحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد اليهم . وقد والحمد لله هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا . وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم .

وان لسقوط ارضروم من يد الاتراك وكثرة انهزامـــاتهم في بلاد القوقاز تأثير عظيم ، وهو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الامر الذي نعمل له واياكم .

ونسأل الله عز وجل ان يكلل مساعيكم بتاج النجـــاح والفلاح وان يمهد لكم في كامل اعمالكم احسن السبل والمناهج .

وفي الختام ، اقدم لدولتكم ولكامل افراد اسرتكم الشريفـــة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والاخلاص مع المحبة التي لا يزعزعها كر العصور ومرور الايام .

كتبه المخلص

(السير ارثر هنري مكماهون)

نائب جلالة الملك بمصر

الملحق (ب)

الاتفاقية الانجليزية ـ الفرنسية ـ الروسية

نيسان (ابريل) ـ ايار (مايو) ١٩١٦

المعروفة

باتفاقية سايكس ـ بيكو

(لقد تم عقد اتفاقية سايكس ـ بيكو على شكل مذكرات دبلوماسية تبادلتها حكومات الدول الثلاث ، واعترفت فيها كل دولتين بحق الدولة الثالثة في اجزاء من الامبراطورية العثمانية بعد تجزئتها .

وقد جرى تبادل المذكرات التي تحدد الحصة الروسية في بيتروجراد في السادس والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ بين وزير الخارجية م . سازونوف (M. Sazonoff) والسفير الفرنسي م . باليولوج (M. Paléologue) ، وبعد اسابيع قليلة في لندن بين وزير الخارجية السير ادوارد جراي (Sir Edward Grey) والسفير الروسي الكونت بينكيندورف (Count Benckendorff) .

اما المذكرات التي تحدد الحصتين البريطانية والفرنسية فقد تبودلت في لندن في التاسع والسادس عشر من ايار (مايو) بين السير ادوارد جراي والسفير الفرنسي م . بول كامبون (M . Paul Cambon) .

ان النص المدرج ادناه يقتصر على القسم الانجليزي – الفرنسي من الاتفاقية ، اذ ان هذا القسم وحده يعالج في مضمونه مستقبل الاقطار العربية) .

(قلت وقد ترجم المؤلف هذا الملحق الى الانجليزية عن الاصـــل الفرنسي للاتفاقيـــة وهو منشـــور في A , Giannini , Documenti per la storia della pace orientale, Rome, 1933) .

نص الاتفاقية المعقودة في لندن [1]

بتاريخ ١٦ ايار (مايو) ١٩١٦

المادة الاولى – ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان ان تعترفـــا وتحميا دولة عربية مستقلة او حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية او حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية – يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية)

---

١ – اخذ نص هذه الوثيقة عن كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » ، (المجموعة الاولى ١٩١٥ – ١٩٤٦) ص ٨٤ .

ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحليــة من بغداد حتى خليج فارس) انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة او بالواسطة او من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة او حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة ــ تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة .

المادة الرابعة ــ تنال انكلترا ما يأتي :

(١) ميناء حيفا وعكا .

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة اخرى للتنازل عن قبرص الا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدماً .

المادة الخامسة ــ تكون اسكندرونة ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية ، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء ، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة الى المنطقة الحمراء او الى المنطقتين (أ) و (ب) او صادرة منها . ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة او غير مباشرة) على اي سكة من سكك الحديد او في اي ميناء من موانىء المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية .

وتكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يرفض اعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية ويكون نقل البضائع الفرنسوية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الانكليزية في المنطقة السمراء ، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء او الحمراء او المنطقة (أ) او المنطقة (ب) او واردة اليها ولا يجري ادنى اختلاف في المعاملة بالذات او

بالتبع يمس البضائع او البواخر الفرنسوية في اي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانىء في المناطق المذكورة .

المادة السادسة – لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) الى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) الى ما بعد سامرا شمالاً الى ان يتم انشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين .

المادة السابعة – يحق لبريطانيا العظمى ان تنشيء وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب) ، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في اي وقت كان على طول هذا الخط . ويجب ان يكون معلوماً لدى الحكومتين ، ان هذا الخط يجب ان يسهل اتصال حيفا ببغداد ، وانه اذا حالت دون انشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل انشاءه متعذراً فالحكومة الفرنسوية تكون مستعدة ان تسمح بمروره في طريق بربورة – ام قيس – ملقى – ايدار – غسطا – مغاير * ، قبل ان يصل الى المنطقة (ب) .

المادة الثامنة – تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و (ب) فلا تضاف اي علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة اخذ العين ** الا ان يكون باتفاق بين الحكومتين .

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة واخرى من المناطق المذكورة اعلاه وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة الى الداخل

(*) جاءت الاسماء في انطونيوس على الوجه التالي : بانياس – ام قيس – صلحد – تال – عسدا – مسمية .

(**) ورد في انطونيوس « لا تغير قاعدة الرسوم التي تجبى نسبيا بقاعدة محددة » بدلا من « ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة العين » في كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ١ : ٩٠ .

يدفع في الميناء ويعطى لادارة المنطقة المرسلة اليها البضائع .

المادة التاسعة — من المتفق عليه ان الحكومة الفرنسوية لا تجري مفاوضة في اي وقت كان للتنازل عن حقوقها ، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة اخرى إلا للدولة او حلف الدول العربية بدون ان توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

المادة العاشرة — تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدولة العربية ، على ان لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك اقطاراً في شبه جزيرة العرب ، او تنشىء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الابيض الشرقي • على ان هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن ، قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الاخير .

المادة الحادية عشرة — تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة او حلف الدول العربية .

المادة الثانية عشرة — من المتفق عليه عدا ما ذكر ان تنظرالحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية .

(•) ورد في انطونيوس : « او تنشأ قاعدة بحرية في الجزائر الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الاحمر » بدلا من « ان تنشأ قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الابيض الشرقي » في كتاب امين سعيد المذكور •

الملحق (ج)

مذكرة من الحكومة البريطانية الى ملك الحجاز [1]

٨ شباط (فبراير) ١٩١٨

(لقد ظهر النص الاصلي للمذكرة في الصحف العربية مرات عدة ، منقولاً عن صورة فوتوغرافية مقدمة من الملك الراحل حسين) .
(وقد كانت المذكرة الاصلية بالعربية ، اما النص الذي اورده انطونيوس فهو صياغته الخاصة للاصل العربي) .

من المعتمد البريطاني بالوكالة في جدة ، الى الملك حسين

جدة في ٨ شباط (فبراير) ١٩١٨

بتوجيه من المفوض السامي * لجلالة ملك بريطانيا ، فانني ارفع الى

---

١ ـ اخذ نص هذه الوثيقة من كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ، ١ : ٣١٤
(*) السير ريجنالد ونجت ، المندوب السامي في مصر .

جلالتكم نص الرسالة البرقية التي تلقاها سعادته من وزارة الخارجية في لندن ، لنقلها كمذكرة موجهة من حكومة جلالة الملك الى جلالتكم يجري النص كما يلي : يبدأ .

ان الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم بارسالكم الكتب التي ارسلها القائد التركي في سورية الى سمو الامير فيصل * الى جناب نائب جلالة الملك كان لها اعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وان الاجراءات التي اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن الا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى .

ومما لا يحتاج الى دليل ان السياسة التي تنسج عليها تركيا هي ايجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلالتكم قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا باعادة حريتهم القديمة . ان السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب ان دول الحلفاء يرغبون في الاراضي العربية وتلقي بأذهان دول الحلفاء انه يمكن ارجاع العرب عن مقصدهم ولكن اقوال الدساسين لن تقوى على ايجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم الى فكر واحد وغرض واحد .

ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدي الى تحرير الامم المظلومة وهي مصممة على ان تقف بجانب الامم العربية في جهادها حتى تبني عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني وتجتث التنافس المصطنع الذي احدثته السلطات الرسمية التركية . وان حكومة جلالة ملك بريطانيا

(*) ورد عند انطونيوس اسم جعفر باشا بعد اسم الامير فيصل .

العظمى قد سلكت مسلك سياسة التحرير وتقصد ان تستمر عليه بكل استقامة وتصمم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار وتساعــد العرب الذين لا يزالون تحت نــير الظالمين لينالوا حريتهم . وفي الختام التمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات .

الملحق (د)

تصريح الحكومة البريطانية للعرب السبعة

١٦ حزيران (يونية) ١٩١٨

(لقد اعلن هذا التصريح جواباً على مذكرة قدمهـــا الى وزارة الخارجية ، بواسطة المكتب العربي في القاهرة ، سبعة من الزعماء العرب المقيمين في مصر .

وقد تلا هذا التصريح احد موظفي المكتب العربي في اجتماع عقد خصيصاً لهذه الغاية بالقاهرة في السادس عشر من حزيران ١٩١٨ ، وحضره الزعماء السبعة .

وقد عرف هذا التصريح في الاوساط العربية بالتصريح للسبعة .)

(قلت : وقد أشار المؤلف الى انه ترجم النصّ الى الانجليزية مستعملاً نصّاً عربيّاً كان في حوزة أحد السبعة مقدمي المذكرة) .

التصريح للسبعة [1]

نظرت حكومة جلالته في مذكرة السبعة ، بأعظم عناية . وحكومة جلالته تقدر تمام التقدير الاسباب التي تدفع اصحاب المذكرة الى الاحتفاظ بتنكرهم * ، واخفاء اسمائهم ، وليس في كون المذكرة غفلا من التواقيع ما يغض من قيمتها في نظر حكومة جلالته .

وتنقسم الاراضي التي ورد ذكرها في المذكرة الى اربعة اقسام او طبقات :

١ – الاراضي التي كانت حرة ومستقله قبل قيام الحرب .

٢ – أراض حررت من السيطرة التركية بعمل العرب انفسهم في اثناء الحرب الحاضرة .

٣ – اراض كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحتلها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة .

٤ – اراض لا تزال تحت السيطرة التركية .

ففيما يتعلق بالطبقتين الاولين ** ، تعترف حكومة جلالته بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الاراضي ، وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية .

وفيما يتعلق بالاراضي التي تحتلها قوات الحلفاء *** ، تلفت حكومة

---

١ – اخذ نص هذه الوثيقة عن كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » ، (المجموعة الاولى ١٩١٥ – ١٩٤٦) ص ٨٠ .

(*) كان اصحاب المذكرة هم : رفيق العظم ، الشيخ كامل القصاب ، مختار الصلح ، عبد الرحمن شهبندر ، خالد الحكيم ، فوزي البكري ، حسن حمادة .

(**) الدول المستقلة هي شبه جزيرة العرب ، والحجاز شمالا حتى العقبة .

(***) عند اعلان هذا التصريح في حزيران سنة ١٩١٨ ، كانت هذه الاقاليم تشمل اكبر انحاء العراق (بما في ذلك البصرة وبغداد) والنصف الجنوبي من فلسطين « بما في ذلك القدس ويافا) .

جلالته نظر أصحاب المذكرة الى نصوص التصريحات الصادرة من القواد العامين ، عند الاستيلاء عل بغداد والقدس . وهذه التصريحات تتضمن سياسة حكومة جلالته بازاء اهالي هذه الاقاليم . وترغب حكومة جلالته في ان تكون حكومة هذه الاقاليم قائمة على رضا المحكومين . وهذه السياسة ستظل مؤيدة من حكومة جلالته .

واما فيما يتعلق بالاراضي المذكورة في القسم الرابع * ، فإن من رغبة حكومة جلالته ان تفوز الشعوب المظلومة في هذه الأراضي ، بالحرية والاستقلال . ولا تزال حكومة جلالته تعمل على تحقيق هذه الغاية .

وحكومة جلالته تعلم ، تمام العلم ، مقدار الصعوبات والاخطار التي تحيط بالذين يعملون لاسترداد (حرية) ** البلاد المذكورة .

على ان حكومة جلالته ، على الرغم من هذه العقبات ، تثق وتؤمن بامكان التغلب عليها . وهي راغبة في تأييد كل من يعملون على تذليلها . ومستعدة للنظر في اي مشروع للتعاون ، يتفق مع الاعمال الحربية الحالية وينطبق على المبادىء السياسية التي تسترشد بها حكومة جلالته وحلفاؤها .

(*) الاجزاء غير المحررة من العراق وسورية حتى الآن .

(**) قال المؤلف ان هذه الكلمة (حرية) كانت منبهمة في الاصل العربي الذي اطلع عليه .

الملحق (هـ)

التصريح الانجليزي ـ الفرنسي

٧ تشرين الثاني (نوفبر) ١٩١٨

(لقد صدر هذا التصريح في فلسطين وسورية والعراق بصورة بلاغ رسمي عن مركز القيادة العامة لقوات الحملة المصرية بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩١٨ .

وقد وزع نصه على الصحف باذن من دائرة المراقبة العسكرية مع تعليمات بأن يعطى افضلية خاصة .

وعلقت نسخ منه على لوحات البيانات العامة في جميع المدن وفي عدد كبير من القرى في الاقاليم العربية التي كانت آنذاك تحتلها قوات الحلفاء وبمعنى آخر في طول فلسطين وسورية والعراق وعرضها .

ويظهر ان التصريح صيغ في الاصل بالافرنسية وواضح ان الروايات الرسمية التي ظهرت في الانجليزية ما هي الا ترجمات ، هذا دون استثناء تلك التي وزعت كجواب على سؤال طرح في مجلس العموم بتاريخ ٢٥ تموز ـ يولية ـ ١٩٢١) .

(قلت : كان المؤلف قد وضع النص في لغة انجليزية باعتماده على النص الفرنسي الرسمي حسبما نشر في احدى الكراسات التي وزعت بشكل رسمي في ذلك الحين) .

التصريح الانجليزي – الفرنسي [1]

٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨

« ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي اهاجتها مطامع الالمان انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد اجمعت فرنسا وانكلترا على ان تؤيدا ذلك بأن تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سورية * والعراق ** – المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفي الاراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها وان تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلاً – وليس من غرض لفرنسا وانكلترا ان تنزلا اهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ولكن همهما الوحيد ان يتحقق بمعونتهما

---

١ – اخذ نص هذه الوثيقة عن كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ٢ : ٥ .

(*) لا يزال هذا الاسم يستعمل في اللغة الرسمية للدلالة على سورية الجغرافية(الطبيعية)، الممتدة من سلسلة طوروس حتى الحدود المصرية .

(**) ان الاصطلاح مستعمل هنا للدلالة على الاقليم المؤلف من الولايات العثمانية السابقة اي البصرة ، وبغداد ، والموصل . وقد اشير اليها معا في هذا الكتاب باسم (العراق) . (وهي معروفة اليوم بهذا الاسم) .

ومساعدتها المفيدة عمل هذه الحكومة والادارات التي يختارها الاهلون من ذات انفسهم وان تضمنا لهم عدلا متزهاً يساوي بـين الجميع ويسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية – تلك هي الاغراض التي ترمي اليهـا الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة » .

الملحق (و)

اتفاقية فيصل – وايزمن

المؤرخة في ٣ كانون الثاني – يناير – (؟) ، ١٩١٩

(ان المصدر الذي اعتمدت عليه هو صورة فوتوغرافية للاصل . لقد ظهرت بضع روايات للاتفاقية في الصحف ، الا ان أياً مما وقعت عليه منها لا يمكن وصفه بالدقة والشمول .

والنص الذي ظهر في مجموعة الوثائق * التي نشرها (د. ه. ميلر) D. H. Miller يطابق في مجموعه الاصل باستثناء خلوه من التحفظ الذي سطره فيصل على الاتفاقية نفسها .

لقد كتبت هذه الاتفاقية باللغة الانجليزية ، اما تحفظ فيصل فقد أدرج بالعربية في الفراغ الذي يلي المادة الاخيرة مباشرة . وقد نالت الترجمة التقريبية التي قام بعملها إ. لورنس في ذلك الحين رواجاً وبخاصة في صحيفة التايمز الصادرة في العاشر من حزيران (يونية) ١٩٣٦ ، وفي تقرير لجنة التحقيق الملكية لفلسطين – بوصفها ترجمة موثوقة للاصل ، ولكن الحقيقة ان « ترجمة » لورنس هذه ما هي الا شرح

* David Hunter Miller, My Diary at the Conference of Paris, vol. III.

يفتقر الى الضبط وهو مضلل الى حد ما .

والتأريخ المدرج على الاتفاقية هو الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، ولكنني تشككت في التأريخ . اذ يبدو محتملاً من الشواهد التي تضمنها تحفظ فيصل ان الاتفاقية قد وقعت في تاريخ لاحق ، لا يقع قبل ٤ كانون الثاني (يناير) على اي حال) .

نص اتفاقية فيصل ـ وايزمن [١]

ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حايم وايزمن ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ، ويتحققان ان أضمن الوسائل لبلوغ غاية اهدافهما الوطنية هو في اتخاذ اقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

١ ـ يجب ان يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول الى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الاصول في بلد كل منهما .

٢ ـ تحدد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل

---

١ ـ اعتمدنا الترجمة العربية الواردة في كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » (المجموعة الاولى ١٩١٥ـ١٩٤٦) ص ٢٧٦ .

الطرفين المتعاقدين .

٣ ـ عند انشاء دستور ادارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ .

٤ ـ يجب ان تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الارض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات يجب ان تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ويجب ان يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي .

٥ ـ يجب ان لا يسن نظام او قانون يمنع او يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية ويجب ان يسمح على الدوام ايضاً بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز او تفضيل ويجب ان لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية او السياسية .

٦ ـ ان الأماكن الاسلامية المقدسة يجب ان توضع تحت رقابة المسلمين .

٧ ـ تقترح المنظمة الصهيونية ان ترسل الى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وان تقدم تقريراً عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الامكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وان تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها ، وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية في البلاد .

٨ ـ يوافق الفريقان المتعاقدان ان يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في

جميع الامور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

٩ — كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب ان يحال الى الحكومة البريطانية للتحكيم .

وقع في لندن ، انجلترا ، في اليوم الثالث من شهر يناير سنة ١٩١٩

(ترجمة تحفظات فيصل عن الانكليزية)

يجب ان أوافق على المواد المذكورة اعلاه :

بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر يناير سنة ١٩١٩ المرسلة الى وزارة خارجية بريطانيا العظمى . لكن اذا وقع اقل تعديل او تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب ان لا اكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب ان لا اكون مسئولاً بأية طريقة مهما كانت .

فيصل بن حسين

حايم وايزمن

الملحق (ز)

مقررات المؤتمر السوري العام[1]

(دمشق ٢ تموز - يولية - ١٩١٩)

« اننا نحن الموقعين ادناه بامضاءاتنا واسمائنا اعضاء المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق الشام والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين قد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الاربعاء المصادف لتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ورفعها الى الوفد الاميركي المحترم من اللجنة الدولية . (جميع هذه البنود ووفق عليها بالاجماع ، عدا البند الخامس الذي اقرته اغلبية عظمى) * :

« اولا - اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا (رفح) فالخط المار من جنوب

---

١ - (قام المؤلف نفسه بترجمة هذا النص عن الاصل العربي الذي نشرته الصحف العربية في ذلك الحين) . والنص المثبت هنا منقول من كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ٢ : ٤٨ .

* وردت الجملة المثبتة بين قوسين في انطونيوس ولم ترد في كتاب امين سعيد المذكور .

(الجوف) الى جنوب (العقبة الشامية) و (العقبة الحجازية) وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتـد شرقي (ابـي كمال) الى شرقي (الجوف) وغرباً البحر المتوسط ، بدون حماية ولا وصاية .

« ثانيا – اننا نطلب ان تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية ، مدنية ، نيابية تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الاقليات على ان يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل الذي جاهد في سبيل تحرير هذه الامة جهاداً استحق به ان نضع تمام الثقة بشخصه وان نجاهر بالاعتماد التام على سموه .

« ثالثاً – حيث ان الشعب العربـي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقياً من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في مبد استقلالها فاننا نحتج على المادة (٢٢) الواردة في عهـد جمعية الامم والقاضية بادخال بلادنا في عداد الامم المتوسطة التي تحتاج الى دولة منتدبة .

« رابعاً – اذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فاننا بعد ما أعلن الرئيس ويلسن ان القصد من دخوله في الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ، نعتبر مسألة الانتداب الواردة في عهد جمعية الامم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسي التام . وحيث اننا لا نريد ان تقع بلادنا في اخطار الاستعمار . وحيث اننا نعتقد ان الشعب الاميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار وانه ليس له مطامع سياسية في بلادنا ، فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الاميركية على ان لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسي التـام ووحدتها وعلى ان لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاماً .

« خامساً – اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنـا هذه

المساعدة منها فاننا نطلب ان تكون هذه المساعدة مـــن دولة بريطانيا العظمى على ان لاتمس استقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها وعلى ان لا يزيد امدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة .

• سادساً — اننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الفرنسية في اي بقعة كانت من بلادنا السورية ونرفض ان يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الاحوال .

• سابعاً — اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي في البلاد السورية اي فلسطين وطناً قومياً للاسرائيليين ونرفض هجرتهم الى اي قسم من بلادنا . لانه ليس لهم فيها ادنى حق ولانهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي . اما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا.

• ثامناً — اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان ، عـــن القطر السوري ونطلب ان تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بـــأي حال كان .

• تاسعاً — اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين .

• عاشراً — ان القاعدة الاساسية مـــن قواعد الرئيس ويلسن التي تقضي بالغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا السورية * أو كل وعد خصوصي يرمي الى تمكين الصهيونيين** في القسم الجنوبي من بلادنا . ونطلب ان تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان .

• هذا وان المبادىء الشريفة التي صرح بها الرئيس ويلسن لتجعلنا

(*) اتفاقية سايكس — بيكو .

(**) وعد بلفور .

واثقين كل الثقة في ان رغائبنا هذه الصادرة من اعماق القلوب ستكون هي الحـــكم القطعي في تقرير مصيرنا . وان الرئيس ويلسن والشعب الامريكي الحر سيكونون لنا عوناً على تحقيقها فيثبتون للملأ صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا العربي بنوع خاص . وان لنا الثقة الكبرى في ان مؤتمر السلام يلاحظ اننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا واياها شركاء في جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية الا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية فيحقق لنا رغائبنا بتمامها فلا تكون حقوقنا قبل الحرب اقل منها بعد الحرب بعد ان أرقنا من الدماء ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال ونطلب السماح لنا بارسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقاً لرغباتنا هذه والسلام » .

الملحق (ح)

توصيات لجنة كنج ـ كراين[1]
الخاصة بسورية ـ فلسطين والعراق

٢٨ آب (اغسطس) ١٩١٩

١ ـ سورية ـ فلسطين

تقدم اللجنة الى مؤتمر الصلح الآراء الآتية لمعالجة المسألة السورية :

أ ـ ان اول وأهم ما تشير بـه هو انه مهما كانت الادارة اجنبية سواء كان ما يؤتى به الى سورية دولة او اكثر ـ أن لا تأتي كدولة مستعمرة بل كدولة وصية من قبل جمعية الأمم غايتها ومهمتها المقدسة (خدمة الشعب السوري وترقيته)

١ ـ ويجب ان تكون مدة الوصاية محدودة تعينها الجمعية حسب الحقائق التي تراها في تقارير الدولة الوصية .

٢ ـ وان تكون للدولة الوصية سلطة كافية ذات زمن محدود ايضاً

---

١ ـ اخذ نص هذه الوثيقة عن كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » ، ٢ : ٧١ .

لتكفل نجاح الحكومـــة الجديدة وتتمكن من القيام بالمشاريـــع الأدبية والاقتصادية اللازمة لحياة البلاد .

٣ – وان تصرف الدولة الوصية همها الاكبر الى التعليم الضروري لابناء البلاد الديمقراطية وتكوين روح وطنية قوية وهذا لازم بنوع خاص في سورية التي استفاق ضميرها حديثاً .

٤ – وعلى الدولة الوصية ان تسعى منذ البداية لتدريب الشعب السوري على الحكم الذاتي المستقل بأسرع ما تسمح الاحوال وذلك بانشاء جميع ما يقتضي لحكومة ديمقراطية من الدساتير واشراك السكان في الادارة وزيادة نصيبهم من الحكم شيئاً فشيئاً حتى تنشأ بالتدريج روح وطنية متنورة في الوطنيين لا تنظر الى مصلحتها الشخصية عند النظر في مصلحة البلاد وتتألف في الوقت نفسه قوة كبيرة منظمة لخدمة البلاد .

٥ – ولما كان من الواجب ان لا يطول زمن المشارفة بلا سبب مشروع فمن الضروري انشاء حكومة ذاتية مستقلة حالما يمكن الاقدام على هذا الامر مع العلم بأن الغرض الاول من الحكومات ليس الحصول على اشياء معينة بل ترقية الوطنيين .

٦ – ومن واجب الدولة الوصية في سورية وفي هذا العصر المتمدن ان تجعل الحرية الدينية التامة في مأمن قولاً في الدساتـــير ، وعملاً في الادارة . وان تكون عنايتها شديدة بالمحافظة على حقوق الاقليات اذ لا شيء أكثر أهمية من هذا في نجاح الحكومة العربية الجديدة .

٧ – ويجب التوقي من تراكم الديون الكبيرة على الحكومة الجديدة في ترقيتها الاقتصادية كما يجب التوقي من غمسها في شؤون الدولة الوصية الاقتصادية والمحافظة من جهة اخرى على امتيازات الاجانب كحقوقهم في انشاء المدارس والمشاريع الاقتصادية الخ ومن الواجب عرضها على جمعية الامم لتعدلهـــا كما تقتضي مصلحة سورية . ولا ينبغي للدولة الوصية ان تستخدم سلطتها لتأييد مشاريع احتكارية الى حد يضر بسورية او الامم

الأخرى بـــل يجب ان تعمل للسير بالحكومة الجديـــدة الى الاستقلال الاقتصادي سريعاً كالسير بها الى الاستقلال السياسي .

ومهما كان نصيب الآراء الاخرى فانه يجب العمل بهذه الآراء اذا كان مؤتمر الصلح وجمعية الامم مخلصين لمبدأ الوصايات (الموضوع في دستور الجمعية) ويجب المحافظة على مصالح سورية الجوهرية كيفما كان شكل الادارة فيها فان المؤتمر السوري في دمشق تساوره المخاوف من جعل سورية مستعمرة لاحدى الدول تحت اسم آخر غير الاستعمار ، فلذلك يجب نزع هذا الخوف بنزع اسبابه .

ب – وتشير اللجنة في الدرجة الثانية بالمحافظة على وحـــدة سورية حسب رغائب السواد الاعظم من سكانها كما تدل على ذلك عرائضهم .

١ – لان البلاد المشار اليها محدودة وعدد سكانها قليل جداً ووحدتها الجغرافية والاقتصادية والجنسية واللغوية واضحـــة بيّنة لا تحتمل انشاء حكومات مستقلة ضمن حدودها المطلوبة . واذا كان في الوسع تجنب هذا التقسيم فان البلاد عربية بلغتها ومدنيتها وتقاليدها وعاداتها .

(٢) ان هذا الرأي مطابق للنظريات العامة التي سبق ورودها كما انه ينطبق على مبادىء جمعية الامم ويتفق مع رغائب الاكثرية في البلاد .

(٣) يجب ان ترسم حدود سورية الجغرافية لجنة خاصة وتعتقد اللجنة ان طلب المؤتمر السوري ادماج كيليكية في سورية لا مسوغ له تاريخياً ولا تجارياً ولا من حيث العلاقات اللغوية لان الحد الفاصل بـــين ابناء اللسان العربي وابناء اللسان التركي يضع كيليكية مع آسيا الصغرى اكثر مما يضعها مع سورية . وعلاوة على ما تقدم فليست سورية محتاجة الى شاطىء بحري آخر مثل اقسام آسيا الصغرى .

(٤) ولا ينبغي حين الاعتراف بوحدة سورية نسيان الاماني الطبيعية في المناطق التي تشبه لبنان الذي له نوع من الاستقلال . وتكون الوحدة اصح وأمتن اذا أعطي لبنان ومـــا شاكله نوعاً واسعاً من الاستقلال

الاداري فان برنامج دمشق نفسه يطلب حكومة على قاعدة اللامركزية الواسعة . تمتع لبنان بكثير من الرخاء والحكم الاداري في المملكة التركية فمن الضروري ان لا يكون حظه في المملكة السورية اقل من حظه في المملكة التركية ، بل يجب ان يعتقد بأن علاقاته الاقتصادية والسياسية مع باقي سورية تكون وهو عضو في سورية افضل منها اذا انفصل عنها انفصالاً تاماً .

وبالطبع ان لبنان كبلاد اكثر سكانها مسيحيون يخشى تسلط المسلمين في سورية المتحدة وهناك موانع اربع تقيه هذا الخوف :

اولاً – استقلاله الاداري الواسع .

ثانياً – وجود دولة وصية قوية مدة طويلة يتألف فيها الدستور الذي تسير عليه الحكومة الجديدة .

ثالثاً – مشارفة جمعية الأمم التي تحافظ على الحرية الدينية وحقوق الاقليات .

رابعاً – شعور الحكومة العربية بضرورة المحافظة على لبنان لكي تستطيع الدخول في جمعية الامم .

وعلاوة على ذلك فاذا كان عدد المسيحيين كبيراً في داخل المملكة يزول الخطر من جنوح المسلمين الى الاستياء الذي لا بد منه اذا كان عدد المسيحيين كبيراً خارج المملكة وهذا الأمر تؤيده الحوادث في الهند في علاقات الاديان المختلفة .

ثم ان لبنان كبلاد اكثر سكانها مسيحيون يكون اقوى وأفيد اذا كان ضمن سورية المتحدة مما لو كان خارجها منفرداً لوحده اذ يكون شريكاً لها في منافعها ومصالحها الحيوية ولذلك نرى ان تكون سورية ولبنان متحدين معاً لفائدتهما وهذا رأي اللبنانيين المتنورين انفسهم .

ومثل هذا الكلام يقال عن فلسطين وهي وان كانت (الارض المقدسة) عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء فانها ذات موقف

دقيق يحتاج الى معالجة دقيقة وسيأتي الكلام عنها في سياق الحديث عن الصهيونية .

الوحدة السورية والوصايات

ج – تشير اللجنة في الدرجة الثالثة بوضع سورية تحت وصاية دولة واحدة كواسطة طبيعية لتأمين الوحدة وفائدتها .

١ – ولا ترى تقسيم ادارة المقاطعات السورية بين عدة وصيات ولو كانت الوحدة الوطنية معترفاً بها فليست هذه ولا تلك بالطريقة الطبيعية التي تعتقد اللجنة أنها الفضلى لتوحيد الحكومة الجديدة او الشعب كله وليس من المستبعد أن ترغم الظروف مؤتمر الصلح على الأخذ بوصاية مقسمة وهذا ليس بالحل الذي يجب اختياره عن طواعية لعدم اتفاقه مع مصلحة السكان الكبرى .

٢ – ويجب أن لا ننسى ان السوريين هناك وانهم مضطرون الى الاتفاق معاً على صورة ما ولا بد لهم من العيش بعضهم مع بعض سواء العرب في الجهة الشرقية أو الذين على الساحل من المسلمين والمسيحيين . فهل يعاونون على ذلك ام يعرقلون بانشاء علاقات ودية ولائية بواسطة دولة وصية واحدة ؟ لا ريب في ان الحل الاداري السريع لمسألة العلاقات الصعبة هو تقسيم القوم الى أجزاء صغيرة مستقلة وبعض الاحيان لا بد ان يكون الفصل جلياً واضحاً كما في قضية العلائق بين الترك والارمن ولكن الفصل التام بين تلك الاجزاء لا ينتج عنه غير اشتداد الخلاف وزيادة العداوات بين العناصر .

ان العبرة التي يلقيها علينا درس الشعور الاجتماعي الحديث توجب

ادراك (النصف الآخر) على قدر ما يستطاع ادراكه بالعلاقات المكينة الحية فعلى الدولة الوصية التي تمنح بعض الجماعات استقلالاً ادارياً محلياً معقولاً ان تعمل في الوقت نفسه على تقوية وحدة الشعور الوطني في سائر البلاد وعلى تحسين العلاقات الودية بين تلك الجماعات المختلفة لأن سكان سورية كما سمعناهم اكدوا لنا مراراً ان العلاقات القديمة بين الجماعات المختلفة ناشئة عن سياسة الحكومة التركية السيئة فاذا شمل العدل الجميع على السواء ووضح ان غرض الحكومة هو خدمة جميع الطبقات بلا تفضيل ولا تمييز — تحسنت العلاقات وزال سوء التفاهم ولا يتم الوصول الى هذا الامر بتفريق الناس بعضهم عن بعض وجعلهم اعداء .

بناء على ما تقدم يلح رجال اللجنة في وضع سورية تحت وصاية واحدة وذلك لفائدة المذاهب والجماعات كلها .

الأمير فيصل

د — وتشير رابعاً بأن يكون الامير فيصل رئيس حكومة سورية المتحدة للامور الآتية :

١ — طلب المؤتمر السوري التمثيلي هذا الطلب بالاجماع باسم الشعب السوري وليس هناك ما يحمل على الشك بأن السواد الاعظم من سكان سورية يرغبون رغبة صادقة في ان يكون الامير فيصل حاكماً .

٢ — ان المملكة الدستورية القائمة على مبادىء الديمقراطية ملائمة للعرب بطبيعة الحال ولما ألفوه من احوال القبيلة ولاحترامهم لزعمائهم فانهم يحتاجون اكثر من كل شعب الى ملك كمركز شخصي لسلطة الحكومة .

٣ ــ ان الامير فيصلاً وصل الى سلطته الحاضرة وصولاً طبيعياً ؛ ولا يوجد شخص آخر يقوم مقامه .

ومن مميزاته انه ابن شريف مكة وله مقام كبير في العالم الاسلامي وكان احد زعماء العرب الكبار الذين حملوا التبعة في ثورة العرب ضد الترك واشتركوا في تحرير الشعوب الناطقة بالعربيـــة في المملكة التركية ولذلك وضع فيه المؤتمر السوري ثقته التامة ولقد اخذ الانكليز بناصره وتوسموا خيراً من تقلده رئاسة الحكومة العربية الجديدة فهو عربي عصري يميل الى الاخذ بفضائل المدنية الغربية . وصلاته مـــع العرب في شرق سورية ودية فلا خوف على مملكته من هذا الجانب ولكنه بالطبع غير محبوب من المسيحيين في الشواطىء كما هو محبوب من العرب في المنطقة الشرقية ولكن هيهات ان يوجد رجل يتفق الناس على محبته اكثر منه فهو متساهل حكيم حاذق في سلوكه مع الناس واكتساب مودتهم وثقتهم وهو رجل مخلص بعيد النظر . ولا يمكن الجزم الآن فيما اذا كانت له القوة الكافية التي يحتاج اليها في معالجة الصعوبات ولكن مما لا شك فيه انه لا يوجد زعيم عربي آخر فيـــه من عناصر القوة ما فيه وسيكون اكبر معين في زمن الوصاية .

يستطيع مؤتمر الصلح ان يثق كل الوثوق بأن وجود عربي له هذه الصفات على رأس هذه الحكومة الجديدة في الشرق الادنى مفيد .

الصهيونية

ه ــ تشير اللجنة بوجوب تنقيح البرنامج الصهيوني لفلسطين تنقيحاً كبيراً لا سيما مهاجرة اليهود غير المحدودة التي ترمي الى جعل فلسطين بلاداً يهودية .

(١) باشرت اللجنة درس الصهيونية وهي ميالة الى استحسانها ولكن الحقائق الحسية التي وجدتها في فلسطين مع قوة المبادىء العامة التي اعلنها الحلفاء وقبلها السوريون حملتها على وضع المشورة الآنفة .

(٢) تلقت اللجنة من اللجنة الصهيونية فصولاً انشائيـة كثيرة عن البرنامج الصهيوني وسمعت كثيراً عن المستعمرات الصهيونية ومطالبها في المؤتمر ورأت بنفسها شيئاً مما فعلته ووجدت عدداً كبيراً يؤيد امـاني الصهيونيين وخططهم وهي تعجب من انصراف تلك الجوالي الى العمل وتغلبها بالوسائط الحديثة على العقبات الطبيعية .

(٣) تعتقد اللجنة ان الصهيونيين حصلوا على تشجيع معلـوم من الحلفاء في تصريح اللورد بلفور الذي كثر اقتباسه والاستشهاد به وتصديق ممثلي الحلفاء الآخرين عليه . انما اذا عمل بهذا التصريـح الذي يقضي بانشاء « وطن قومي لليهود في فلسطين مع الفهم الصريح بأنه لا يجب ان يعمل شيء يمس بالحقوق المدنية والدينية التي للجماعات غير اليهودية في فلسطين » .

اذا عمل بهذا النص لا يبقى شك في انه يجب ادخال تعديل كبير على البرنامج الصهيوني .

ان انشاء وطن قومي « للشعب اليهودي » لا يعني جعـل فلسطين بلاداً يهودية كما انه لا يمكن اقامة حكومة يهودية بدون اهتضام الحقوق المدنية والدينية التي للجماعات غير اليهودية في فلسطين . والحقيقة التي وقفت اللجنة عليها في أحاديثها مع ممثلي اليهـود هي ان الصهيونيين يتوقعون ان يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الاراضي منهم.

ان الرئيس ويلسن في خطبته التي ألقاهـا في ٤ يوليو سنة ١٩١٨ وضع المبدأ التالي كواحد من المقاصد الاربعة الكبرى التي يحارب الحلفاء من اجلها وهو :

« حل كل مسألة سواء كانت تتعلق بالارض او السيادة او المسائل

الاقتصادية والسياسية يجب ان يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولاً حراً لا على المصالح المادية او لفائدة اي دولة او امة أخرى ترغب في حل آخر خدمة لنفوذها الخارجي او لسيادتها ، فاذا كان هذا المبدأ سيسود واذا كانت رغائب السكان في فلسطين سيعمل بها فيما يتعلق بفلسطين فيجب الاعتراف بأن السكان غير اليهود في فلسطين - وهم تسعة اعشار السكان كلهم تقريباً - يرفضون البرنامج الصهيوني رفضاً باتاً والجداول تثبت ان سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء مثل اجماعهم على هذا الرفض فتعريض شعب هذه حالته النفسية لمهاجرة يهودية لا حد لها ولضغط اقتصادي اجتماعي متواصل ليسلم بلاده - نقض شائن للمبدأ العادل الذي تقدم شرحه ، واعتداء على حقوق الشعب وان كان ضمن صور قانونية .

وقد اتضح ايضاً ان الشعور العدائي ضد الصهيونية غير قاصر على فلسطين بل يشمل سكان سورية بوجه عام فان ٧٢ بالمئة من مجموع العرائض - البالغ عددها ١٣٥٠ - في سورية ضد الصهيونية ولم ينل مطلب نسبة اكبر من هذه النسبة غير الوحدة السورية والاستقلال . وقد اعرب المؤتمر السوري الدمشقي عن هذا الشعور العام في المواد ٧ ، ٨ و ١٠ من بيانه .

ولا ينبغي لمؤتمر الصلح ان يتجاهل ان الشعور ضد الصهيونية في فلسطين وسورية بالغ أشده وليس من السهل الاستخفاف به فان جميع الموظفين الانكليز الذين حادثتهم اللجنة يعتقدون ان البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بالقوة المسلحة ويجب ان لا تقل هذه القوة عن خمسين ألف جندي ، وهذا في نفسه برهان واضح على ما في البرنامج الصهيوني من الاجحاف بحقوق غير اليهود . لا بد من الجيوش في بعض الاحيان لتنفيذ القرارات ولكن ليس من المعقول ان تستخدم الجيوش

لتنفيذ قرارات جائرة . هذا فضلاً عن ان مطالب الصهيونيين الاساسية في حقهم على فلسطين مبنية على كونهم احتلوهـا منذ ألفي سنة وهذه دعوى لا تستوجب الاكتراث والاهتمام .

وهناك امر لا يجوز اغفاله اذا كان العالم يريد ان تصير فلسطين مع الوقت بلاداً يهودية وهو ان فلسطين هي الارض المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء يهم امرها ملايين من المسيحيين والمسلمين في العالم ولا سيما ما يتعلق من تلك الاحوال بالعقائد الدينية والحقوق ، فمسألة فلسطين وما يتفرع منها مسألة دقيقة حرجة ومن المستحيـل ان يرضى المسلمون والمسيحيون بوضع الاماكن المقدسة تحت رعاية اليهود مهما حسنت مقاصد هؤلاء . والسبب في ذلك هو ان الاماكن الاكثر تقديساً عند المسيحيين هي ما له علاقة بالمسيح والاماكن التي يقدسهـا المسلمون غير مقدسة عند اليهود بل مكروهة . ولا يستطيع المسيحيون والمسلمون في هذه الأحوال ان يرضوا عن وضع تلك الامـاكن تحت اشراف اليهود . ثم هناك اماكن اخرى لها في نفوس المسلمين مثل هذا الشعور ، ولما كانت هذه الاماكن كلها مقدسة ومحترمـة من المسلمين كانت وصايتهم عليها فيما مضى امراً طبيعياً فالذين يطلبون صيرورة فلسطين يهودية لم يحسبوا للنتائج حسابها ولا للشعور العدائي ضد الصهيونية في جميع انحاء العالم التي تعتبر فلسطين ارضاً مقدسة .

وبناء على ما تقدم تشعر اللجنة مع عطفهـا على مسألة اليهود ان الواجب يقضي عليها بأن تشير على المؤتمر ان لا يؤيد غير برنامـج صهيوني معتدل يجب العمل فيه بالتدريج وبعبارة اخرى يجب تحديد المهاجرة اليهودية الى فلسطين والعدول بتاتاً عن الخطة التي ترمي الى جعل فلسطين حكومة يهودية .

ولا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين الى سورية المتحدة كأقسام البلاد الاخرى ووضع الاماكن المقدسة تحت ادارة لجنة دولية دينيـة

تكون كما هي الحال في الوقت الحاضر تحت اشراف الدولة الوصية وجمعية الامم ويكون لليهود بالطبع عضو في هذه اللجنة .

لمن تكون الوصاية على سورية ؟

ان هذه الآراء الآن تؤدي بالطبع الى ضرورة الاشارة الى الدولة التي يجب ان تكون وصية على سورية كلها .

١ — ان الاعتبارات التي سبق الكلام عنها تبين الصفات المطلوبة في الدولة الوصية واول هذه الصفات ان يكون مرغوباً فيها من السكان وان تتقيد بروح نظام الوصاية قلباً وقالباً وتعمل للغرض الذي وضع النظام لاجله وترضى بالجلاء بعد زمن معلوم ولا تحاول استغلال البلاد لمصالحها الشخصية ويجب ان يكون لها شغف بالديمقراطية وترقية الجمهور العام واحياء الروح الوطنية . وتحتاج في هذه المهمة التي لا شكر عليها الى رغبة غير محدودة وصبر طويل اذ لا تستطيع دولة ان تنظر نظرات صادقة في الاحوال المحسوسة — كملكية الاراضي مثلاً — وتحاول ان تصلح تلك الاحوال بدون ان يكون لها كثير من الاعداء ويجب ان تكون قد سبقت لها خبرة في سياسة قوم اقل ارتقاء وان تكون ذات موارد كبيرة في الرجال والمال .

٢ — من المرجح ان هذه الصفات لم تجتمع في دولة ، ومن المؤكد انها لم تجتمع فيها متناسبة متوازية . وهذه الصفات مطلوبة كثيراً او قليلاً كما ظهر لنا من احاديثنا مع الامة السورية ، ووجود هذه الصفات يؤدي الى طور جديد في العلاقات بين الامم بحيث تدخل فيها روح التضحية . والدولة التي تأخذ الوصاية على سورية كلها على هذه الشروط لا تخدم سورية وحدها بل العالم كله وفي الوقت ذاته تخدم نفسها لأنها

تعمل على تحقيق مقاصد الحلفاء السامية في الحرب وتعطي برهاناً دامغاً على ان هذه المقاصد لم تهمل الامر الذي يساعد كثيراً على استبقاء الامم متحدة متمسكة بمبادئها العالية .

٣ ـ ان قرارات مؤتمر الصلح في ٣٠ يناير سنة ١٩١٩ مندمجة في الاوامر المعطاة لنا وهي توضح حالة المناطق التي ستفصل فصلاً تاماً عن المملكة التركية وقد جاء فيها « انه يجب ان تراعى رغائب هذه الجماعات في اختيار الدولة الوصية اولاً » .

ان ما وصلنا اليه في درسنا لا يدع مجالاً للشك في رغبة اكثرية الشعب السوري فانه بالرغم من كون قبول اميركا الوصاية امراً مجهولاً كل الجهل وبالرغم من كون اللجنة لم تشجع الافكار على الاتجاه نحو هذه الجهة او الأخذ بها بل ثبطتها ـ انه مع ذلك فقد كانت اميركا الدولة التي اختارها السوريون في الدرجة الاولى وكانت نسبة العرائض التي تطلبها ٦٠ بالمئة في المجموع كله ـ عددها ١١٥٢ ـ بينما لم تنل دولة اخرى اكثر من ١٥ بالمئة من المجموع .

وقد ثبت ان القوم يعرفون الاسباب التي بنوا عليها اختيارهم اميركا فهم يقولون انما اختاروها لانهم يعرفون سيرتها ومقاصدها السامية التي لا تشوبها شائبة والثقة التي لها عند الجماهير السورية التي كانت في اميركا والروح الطيبة التي ظهرت من المعاهد الاميركية التهذيبية في سورية ولا سيما كلية بيروت التي تواصل تشجيع الروح الوطنية السورية مما اثبت لهم ان اميركا ليس لها مطامع جغرافية ولا استعمارية وانها لا تلبث ان تنجلي من تلقاء نفسها حالما يثبت بناء الحكومة السورية . ويتخذون كوبا والفيليبين مثلين على روحها الديمقراطية النبيلة وما لها من الموارد الغزيرة وهكذا يتضح من النظر في رغائب الشعب السوري ان الوصاية يجب ان يعهد بها الى اميركا .

٤ – إما من حيث الصفات المطلوبة في الدولة الوصية على سورية فأميركا التي اختارها الشعب بالدرجة الاولى لا خوف عليها من تقديم كل امتحان دقيق على المقياس الذي اشرنا اليه في كلامنا السابق فهي وان كانت اقل خبرة من انكلترا في هذا العمل وربما كانت علاقاتها مع سورية غير كثيرة ولا متينة مثل علاقات فرنسا فهي على الاقل حاصلة على الصفة التي يتطلبها نظام الوصاية الجديد الذي يحدد العلاقات التي يجب ان تكون لدولة كبيرة مع شعب ضعيف .

وهي وان قبلت الوصاية مع التردد فانها سترى كيف ان المنطق يقضي بحمل هذه التبعة التي نجمت عن المقاصد التي خاضت الحرب من اجلها وعن دعوتها الى تأليف جمعية الامم .

٥ – وهناك مسألة اخرى وهي ان اميركا هي الدولة التي تقدر ان تعالج المسألة السورية – في البدء على الاقل – بدون اعتراض عليها من الشعب السوري فقد ظهر ان الاكثرية ترغب في مجيئها اكثر من رغبتها في مجيء اية دولة اخرى .

وانه لأسهل على انكلترا وفرنسا معاً ان تتنازلا عن مطالبهما لاميركا من ان تتنازل احداهما للأخرى وهي الدولة التي ليس لها منافس ولها موارد غزيرة تساعدها على نشر العمران في سورية ، الامر الذي يفيد الامم التي لها صلات مكينة مع سورية ويساعد على حفظ العلاقات الودية بين الحلفاء ،. يضاف الى ذلك ان الانكليز الذين لهم مصالح كبيرة في مصر وبلاد العرب والعراق لا يرحبون بدولة اخرى مثلما يرحبون بصيرورة اميركا جارة لهم ، وكذلك العرب والسوريون في تلك المناطق والفرنسويون الذين لهم مصالح كثيرة خصوصية في بيروت ولبنان .

المصاعب التي امام اميركا

٦ – ترد على الاشارة بوصاية اميركية واحدة على سورية كلها جملة اعتراضات : اولها ان رضاء الشعب الاميركي بقبول الوصاية غير مؤكد ، وثانيها ان رضاء الانكليز او الفرنسويين بالجـــلاء وترحيبهم بمجيء اميركا غير مؤكد ايضاً وهذه حالة قد تسبب تعباً دائماً لادارة اميركية علاوة على ان التشجيعات الكثيرة التي أعطيت للصهيونيين وان كانت مبهمة قد تؤدي الى عرقلة اميركا بالنظر الى سكانها اليهود ذوي النفوذ . ثم اذا كانت اميركا ستقبل وصاية ما فعلى الغالب ان الوصاية على آسيا الصغرى اكثر ملاءمة واكبر اهمية لأن هناك مهمة عظيمة تحتاج الى ما عند اميركا من المقدرة فتخرج عن سياستها التقليدية فيما يتعلق بشؤون القارة الشرقية . وتعتقد اللجنة انه لا دولة غير اميركا تقدر ان تذهب الى آسيا الصغرى ولها حرية تامة لتعامل سائر العناصر بالعدل على السواء .

ويمكن القول عن هذه الاعتراضات بوجه عام انها قد تكون من النوع الذي يحل نفسه او من العراقيل التي يجب توقعها في مهمة عظيمة كهذه ، ولكن هذا لا يمنع اللجنة من القيام بواجبها وهو الاشارة الى ما تعتقد انه الطريقة الفضلى التي ينبغي السير فيها . لذلك تشير بأن تسأل الولايات المتحدة الاميركية ان تأخذ الوصاية على سورية كلها .

نبوءة تمت

اذا لم تعط اميركا الوصاية على سورية لسبب ما تشير اللجنة في هذه

الحالة عملاً برغائب اكثرية الشعب السوري ان تعطى الوصاية لبريطانيا العظمى ، فان الجداول تبين ان هناك ١٠٧٣ عريضة في سورية تطلب وصاية بريطانيا العظمى اذا لم تأخذ اميركا الوصاية وهذا يزيد كثيراً على العرائض التي تطلب فرنسا ، بل ان ستين في المئة من العرائض تحتج بشدة على وصاية فرنسوية مباشرة وتتحاشى اللجنة البحث في اسباب هذه الحالة مضطرة الى الاعتقاد بأن الموقف نفسه تستحيل معه الاشارة بأن تكون سورية كلها تحت وصاية فرنسوية . ان شعور العرب في الجهة الشرقية شديد ضد فرنسا . وهناك سبب خطير يدعو الى الاعتقاد بأن السعي لاكراه القوم على قبول الوصاية الفرنسوية يؤدي الى حرب بين العرب والفرنسويين ويوجد بريطانيا في مأزق حرج .

ولعل اللجنة يسمح لها ان تقول ان هذا الاستنتاج يخالف ما كانت ترجوه في البدء فقد كانت تأمل – بالنظر الى علاقات فرنسا القديمة والودية مع سورية ، والى تضحياتها الفائقة في الحرب ، والى ما ينتظر ان تناله المملكة الانكليزية من الاراضي بعد الحرب – ان تتمكن من الاشارة على المؤتمر بوضع سورية كلها تحت وصاية فرنسا، ولكن كلما طال مقام اللجنة ، في سورية ، تأكدت ان هذا الامر لا يمكن الاشارة اليه ولا العمل به .

بناء على ما تقدم ترى اللجنة انه اذا كانت اميركا لا تستطيع قبول الوصاية ان تعطى لبريطانيا العظمى لأن الأكثرية تطلبها ثم لأنها هناك ولديها رجال اداريون متمرنون وهي ذات خبرة كافية في معاملة الشعوب الأقل منها ارتقاء ومتوفرة فيها صفات كثيرة مما يجب ان تكون في الدولة الوصية كما تقدم البيان .

غير اننا لا ننصف الشعب السوري اذا نحن لم نصف بعبارة صريحة بعض الاسباب التي حملت القوم في سورية على تفضيل اميركا على انكلترا فان القوم اظهروا في احاديثهم معنا خوفهم من ان وضع الوصاية في ايدي الانكليز يحول الدولة الوصية الى دولة استعمارية من الطراز القديم ويصعب على بريطانيا العظمى ان تتخلى عن مبدأ الاستعمار لاسيما في بلاد تحسب اهلها غير راقين وترهق الشعب الفقير لكي تزيد عدد الموظفين الاداريين وتصبح مصالح سورية تبعاً لمصالح الامبراطورية وتستثمر البلاد اخيراً لمنافعها ولا تنجلي عنها ابداً لتعطي اهلها الاستقلال الحقوقي ، كما انها لا تعنى بالتعليم العمومي فلا تهيء له اسبابه الكافية فضلاً عن ان تحت سيطرتها من الاراضي اكثر مما يجب ان يكون لفائدتها وفائدة العالم بالرغم من تاريخها الاستعماري المجيد . وهذه المخاوف التي تساور نفوس السوريين توضح لماذا يطلبون « الاستقلال الناجز » ومساعدة محدودة الأمد ، عشرون سنة فقط ، كما توضح احتجاجاتهم على المادة ٢٢ من دستور جمعية الامم وكلهم يعتقد ان الدولة التي يرسلها مؤتمر الصلح الى سورية يجب ان تأتي كوصية حقيقية تحت اشراف الجمعية ولأجل محدود . وكل ما خالف هذين فهو خيانة للشعب السوري .

ويجب الايضاح ايضاً بأن المصالح المشروعة لفرنسا في سورية تكون مضمونة تحت الوصاية الحقة اذ لا يوجد سبب يدعو الى قطع رابطة من الروابط التي لفرنسا مع سورية او اضعافها سواء كانت سورية تحت وصاية دولة اخرى او مستقلة .

بقي امر واحد تجب اضافته وهو انه اذا كانت فرنسا تتشبث بمصالحها

في سورية تشبثاً لا تبالي معه بالعلاقات الودية التي بين الحلفاء فانه من الممكن بالطبع ان تعطى وصاية على لبنان « غير مكبر » بالانفراد عن سورية كما ترغب جماعات كبيرة في هذه المنطقة . ولا تستطيع اللجنة للاسباب التي تقدم شرحها ان تشير بهذا الامر على المؤتمر ولكنه ترتيب ممكن .

٢ ــ العراق[١]

بالنظر للقرارات *، التي اصدرها مؤتمر الصلح في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، وبالنظر للتصريح الانكليزي الفرنسي الصادر في ٧ تشرين الثاني (نوفبر) ١٩١٩ ــ في عشية الهدنة ــ وكل من هذه الوثائق يصنف سورية والعراق في مقام واحد ليعالج امرهما بطريقة واحدة ، كما يقطع لكل منهما الوعود والتأكيدات ذاتها فان عضوي اللجنة يوصيان مؤتمر الصلح بأن يتبع تجاه العراق سياسة توازي بشكل عام تلك التي اوصي باتباعها حيال سورية حتى لا يتحول التشريح الانكليزي ــ الفرنسي الى « قصاصة اخرى من الورق » .

١ ــ ووفقاً لذلك فاننا نوصي ، انسجاماً تاماً مع التعليمات الصادرة الينا ، وباعتبار ان ذلك يتقدم علـى غيره في الاهمية ، بأن أية ادارة (حكومة) اجنبية تدخل الى العراق يجب ان تأتي العراق ليس كدولة مستعمرة بالمعنى القديم لهذه الكلمة ، بل كدولة منتدبة من عصبة الامم، مشفوعة بادراكها الجلي بأن « رفاه الشعب وانماءه » يؤلفان بالنسبة اليها امانة مقدسة . ومن اجل هذه الغاية يجب ان يكون للانتداب اجـل محدود ، وان تقرر موعد انتهائه عصبة الامم ، في ضوء جميع الوقائع كما ترد من عام الى آخر ، سواء أفي التقارير السنوية للدولة المنتدبة

---

* من اجل توحيد المصطلحات استبدلت عبارة ما بين النهرين « بالعراق » .

١ ــ ترجم القسم الخاص بالعراق عن النص الانجليزي المنشور في انطونيوس .

المرفوعة الى العصبة او بطرق اخرى .

ان النص الكامل للتوصية الاولى بشأن سورية مشفوعاً بالتوصيات الملحقة بها ، ينطبق نقطة نقطة على العراق بالصحة ذاتها التي ينطبق فيها على سورية .

واذا ما قام مؤتمر للصلح وعصبة الامم والدولة الموكل اليها الانتداب بتنفيذ سياسة الانتدابات المتجسدة في ميثاق عصبة الامم ، تنفيذاً مخلصاً ، فان اهم مصالح العراق الاساسية تصان بذلك تماماً ـ ولا تصان بغير هذا .

٢ ـ ونوصي ، في المقام الثاني ، بأن تصان وحدة العراق ، وان تخطط حدوده المضبوطة بواسطة لجنة تخطيط للحدود ، بعد تعيين الانتداب عليه . وعلى وجه الاحتمال يجب ان يشتمل (العراق) على الاقل ، على ولايات البصرة وبغداد والموصل . كما يمكن الحاق المناطق الكردية والآشورية الجنوبية بالعراق . فالحكمة من ايجاد قطر موحد هي،في حالة العراق،في غنى عن النقاش .

٣ ـ ونوصي في المقام الثالث ، بأن يوضع العراق تحت اشراف دولة منتدبة واحدة ، باعتبار ذلك السبيل الطبيعي لتأمين وحدة حقيقية وفعالة . كما ان مهمة انماء الشعب اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وتعليمياً تستدعي مثل هذا الانتداب الموحد . وليس خليقاً بأن ينجم عن محاولة تقسيمه وتجزئته الى « مناطق نفوذ » من جانب عديد من الدول ، الا تعريض مصالح الشعب الى الهدر والاضطراب والاحتكاك والأذى . وهذا يتضمن انه ليس للدولة المنتدبة ان تكون دولة مستثمرة انما يجب ان تحافظ على حقوق الشعب كأمانة مقدسة .

٤ ـ لما كان من المرغوب فيه بوضوح ان يكون ثمة انسجام عام في المؤسسات السياسية والاقتصادية والتدابير المتعلقة بسورية والعراق ، ولما كان يجب ان يكون للشعب الكلمة الاولى في تقرير شكل الحكومة التي سيعيش في ظلها ، فاننا نوصي بأن تكون حكومة العراق ، انسجاماً

مع الرغبات السافرة لشعبها ، ملكية دستورية ، كالحكم المقترح لسورية ، وبأن يعطى شعب العراق فرصة يعلن فيها ملكه المختار وان تراجع عصبة الامم اختياره هذا وتثبته . ويمكن الافتراض بما يقارب الصواب ان الـ ١٢٧٨ عريضة الواردة من سوريين بطلب الاستقلال للعراق — وتعادل ٦٨ بالمائة من مجموع العرائض الواردة — تعكس الشعور في العراق بالذات ، كما ان الاتصالات التي استطعنا تأمين عقدها مع العراقيين تدعم هذا الافتراض ونجز الى الاعتقاد بأن البرنامج الذي رفعه في حلب ، الممثلون العراقيون ، برئاسة جعفر باشا الحاكم العسكري لمنطقة حلب ، والذي يوازي عملياً البرنامج المرفوع في دمشق ، خليق بأن يؤيده الشعب العراقي بشكل عام . وسواء أكان هذا التأييد يشمل كل مادة في البرنامجين على وجه سواء ، وسواء أكان يشمل تعيين ملك من ابناء ملك الحجاز ، فليس لدينا من المعلومات الكافية للفصل في الامر ، ولهذا اوصينا باجراء استفتاء على هذه النقطة . هذا على الرغم من وجود بينات بريطانية على ان العراقيين قد عبروا عن تحبيذهم لواحد من ابناء عاهل الحجاز كأمير يولى عليهم .

٥ — يعلن البرنامج العراقي عن اختياره امريكة كدولة منتدبة من غير بديل ثان . ولا شك انه كان في العراق قسط كبير من الانفعال الساخط ضد بريطانية العظمى ، فالعرائض تتهم على وجه التعيين السلطات البريطانية في العراق بتدخل كبير في حرية الرأي والتعبير (الكلام) والانتقال — وقد يبرر الكثير منه في وقت الاحتلال العسكري ، ولكن المشاعر المهيجة بذلك القدر قد تنتج بالطبع عدم استعداد للتعبير عن الرغبة في اختيار بريطانية العظمى دولة منتدبة . ومن جهة اخرى فان مادة الكتيب المسمى : « نسخ وترجمات التصاريح وغيرها من الوثائق المتعلقة بتقرير المصير في العراق » قد استدعتها محاولة من جانب الحكومة البريطانية في العراق لتأمين آراء الزعماء المتقدمين في كل جماعة فيما يتعلق

بتقرير المصير . اما هذه المادة ، نظراً لأنها مرفوعة مباشرة الى المسئولين البريطانيين ، فهي بلا ريب اميز لمصلحة البريطانيين مما لو كانت خلاف ذلك ، ولكنها تدلل بما لا يقبل الشك على ان قسطاً كبيراً من الرأي (العام) من شأنه ان يختار الانتداب البريطاني – وعلى كل حال فان مجال اختيار دولة منتدبة ذات قدرة وتجربة كافيتين ومتميزة بالعدالـــة الاساسية هو مجال محدود ولا بد . وانه ليس مما لا يقبل الاحتمال ، ان العراقيين اذا جبهوا برفض امريكا قبول الانتداب عـــلى العراق ، خليقون بأن يجعلوا بريطانية موضع خيارهم الثاني عـــلى الأقل ، كما فعلت الأغلبية السورية . وهنالك شواهد اضافية كذلك على هذه النقطة .

ولما كان لا يبدو محتملاً ان امريكا تستطيع ان ، او خليقة بأن تتقبل انتداباً على العراق ، وبالاضافة الى امكان قبول انتداب على سورية وآسية الصغرى ، فان عضوي اللجنة يوصيان بأن ينيط مؤتمر الصلح الانتداب على العراق ببريطانية العظمى للاسباب العامة الآنف ذكرها في معرض التوصية بجعلها دولة منتدبة على سورية في حالة عدم قبول امريكا ذلك ، ذلك انها قد تكون انسب الدول للمهمة الخـــاصة المنطوية في ذلك ، ونظراً لعلاقاتها العريقة مع العرب ، كعرفان لجميل تضحياتها التي بذلتها لإنقاذ العراق من الاتراك ، هذا مع عدم الإقرار لها بحق الفتح ، كما تعبر بياناتها هي عن اسقاطها لادعائها بهذا الحق ، ونظراً للمصالح الخاصة التي لها ، طبيعياً ، في العراق بسبب من قربه الى الهند وصلاته الوثقى مع شبه الجزيرة العربية . وبسبب مما سبق ان قامت به من عمل في الاقليم (العراقي) .

وان تلك الاسباب لتجعل انتداباً بريطانياً احسن ما يكون ، عـــلى وجه الاحتمال ، لخدمة المصالح الكبرى للشعب العراقي ككل ، عـــلى الرغم من انه من الاحسن لبريطانية وللعالم ، من وجهة نظر المصالـــح العالمية الكامنة في الحيلولة دون اثـــارة الغيرة والشكوك والمخاوف من

سيطرة دولة مفردة ، ألا يضاف اي اقليم جديـــد الى الامبراطورية البريطانية . وعلى كل حال فان انتداباً بريطانياً سيتمتع بميزة مقررة هي النزوع الى دعم الوحدة الاقتصادية والتعليمية في كل من ارجاء سورية والعراق ، سواء أكانت سورية تحت انتداب بريطانية او امريكا ، وهكذا فان (الانتداب) سيعكس بشكل اكثر مما سبق العلائق الوثقى في ميدان اللغة والعادات والتجارة بين هذين الجزئين من الامبراطورية العثمانية السابقة .

وفي بلد كالعراق وافر الغنى بالامكانات الزراعية والبترول وغيره من المصادر سيلوح حتمياً ، رغم توفر كل النوايا الطيبة ، خطر الاستثمار والسيطرة الاحتكارية من قبل الدولة المنتدبة عن طريق فرض سيادة المصالح البريطانية وخاصة عن طريق هجرة هندية واسعة النطاق.. فهذا الخطر يتطلب احترازاً متزايداً ونزيهاً . وان العراقيين ليشعرون شعوراً قوياً بحدة هذا الخطر وبخاصة خطر الهجرة الهندية ، حتى ولو اقتصرت الهجرة على المسلمين الهنود . فهم يتخوفون من التمازج بشعب آخر من عرق متباين كلية وعادات مختلفة كلية باعتباره يهدد حضارتهم العربية .

مع الاحترام

هنري س . كنج
تشارلس ر . كراين



فهرست الاعلام

●

ب

ت

ج

ح

خ

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ن

ه

و

ي

فهرست الأماكن

ت

ج

ح

ر

ز

س

ق

ك

ل

م

ي

فهرست تفصيلي للمحتويات

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

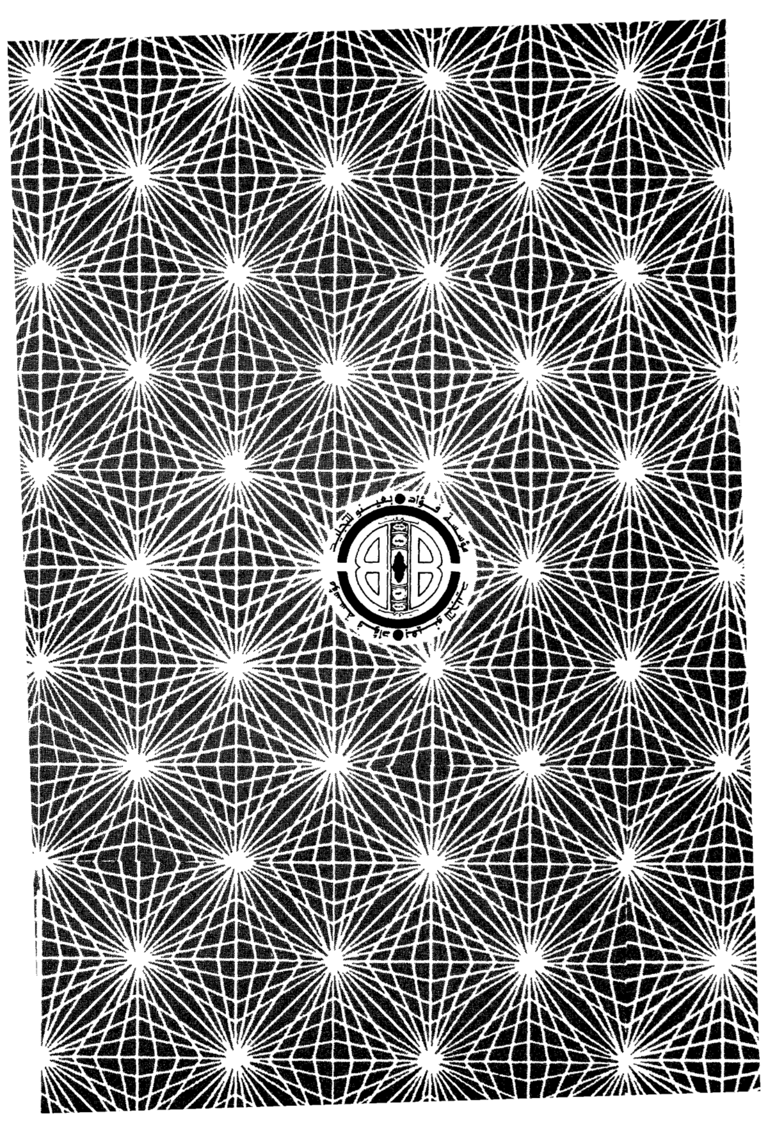
الفصل الخامس عشر

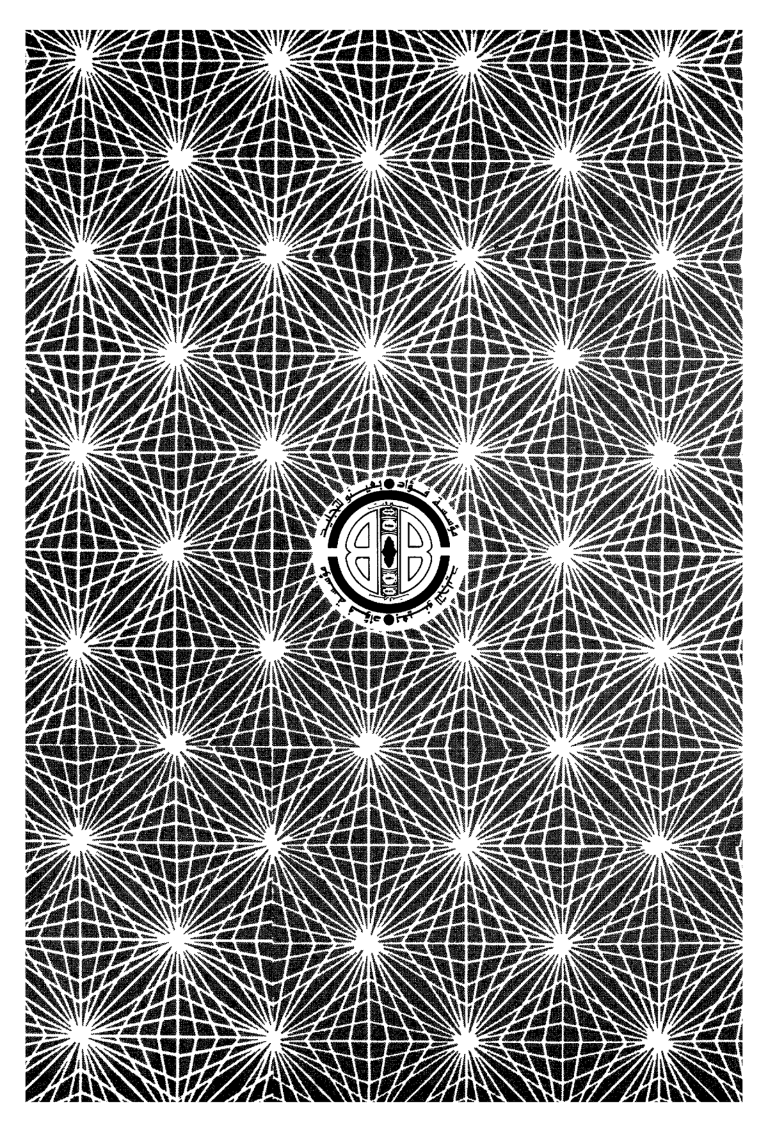
الفصل السادس عشر

ملاحق الكتاب

المصورات




مؤسسة فؤاد • بعينو للتجليد


مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد

